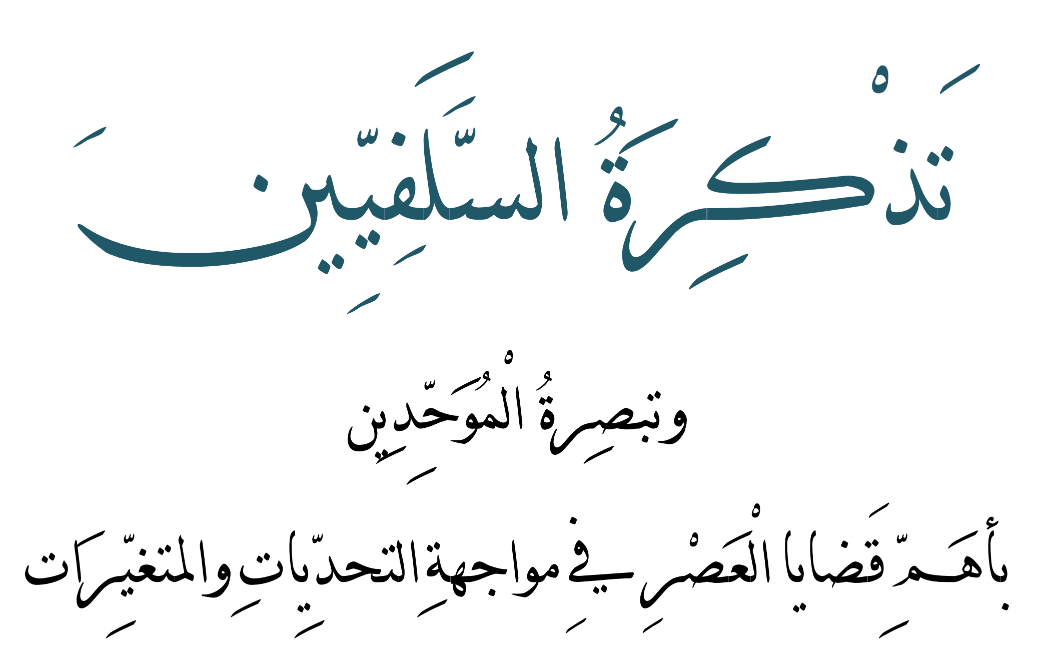


تأليف:

فريد صلاح الهاشمي

Copyright©2016 by
Feriduddin AYDIN
feriduddin@gmail.com



دار العِبَر للطباعة والنشر. إسطنبول-2016م.

baredalshaykh@gmail.com
al_ibar.publishing@yahoo.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً.

(الأحزاب/**48**)

توطئة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، العظمةُ لله، الهيبةُ لله، الهيمنةُ لله، الكمالُ لله، البقاءُ لله، الْمَجْدُ والعزَّةُ والكبرياء لله... كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ.[1] والصلاة والسلام على نبينا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين. أما بعد؛

فإِنِّي إنما أقدمتُ على كتابةِ هذا البحثِ لسببٍ ملحٍّ إضطرَّني لتأجيلِ ما أنا بصددِ إكمالِهِ من بحوثٍ عديدةٍ، كَيْ أتفرّغ له وأنا خالي البالِ. والسببُ هذا، يتمثَّلُ في ظاهرةٍ نشأتْ في أوساطِ المجتمع التركِيّ منذ بضع سنين، والمجتمعُ يتنكّرُ لها بمختلفِ أطيافِهِ، ويتذمّرُ عليها... أسفرتْ هذه الظاهرةُ عن الصحوةِ الإسلامية التي بدأت تنتشر في السنين الأخيرةِ، وهي تيّارٌ حديثٌ شِبْهُ سلفِيٍّ يدعو الناسَ إلى نبذِ الوثنيةِ المتأصِّلَةِ في الضمائرِ، وإلى اعتناقِ عقيدةِ التوحيدِ والإخلاصِ في الدين.

بَرَزَ عددٌ من رجالِ الدعوةِ (في تركيا) منذُ سنواتٍ قليلةٍ كنتيجةٍ لهذه الصحوةِ، بدؤوا يُنَبِّهونَ على خطورةِ ما قد شاعَ من الإشراكِ بالله، وما طغى على معتقدات الناسِ في جميع أنحاءِ البلد من أشكالِ الزندقةِ والإلحادِ، إلاَّ أنَّ هؤلاءِ الدُّعَاةَ يعانون من ضَعْفِ المستوى العلمِيّ، إذ لم تبلُغْ حُظْوَتُهُمْ من المعرفةِ إلى حدِّ النُّضْجِ والتخصُّصِ في العلومِ الإسلامِيَّةِ، لِجَهْلِهِمْ أصلاً باللغةِ العربية، وغلبةِ الْعُجْمَةِ عليهم. بل يُعدُّ كلٌّ منهم مثقّفًا متوسّطًا تَعَلَّمَ بعضَ الشيءِ من خلالِ كتُبٍ مُتَرْجَمَةٍ (من التراثِ) إلى اللغة التركِيَّةِ فحسب. لهذا السببِ؛ انْتَابَنِي القلقُ أنْ يقعَ هؤلاءِ الْمُخَضْرَمُونَ في أخطاءِ اللَّحْنِ عندَ متابعتِهم سطورَ هذا الكتابِ فيلتبِسَ عليهم مَعانِي عِبَاراتِها، فأجرَيْتُ على مواطِنِ الإلتِبَاسِ مِنْها الحركاتِ الإعرابِيَّةَ إعانةً لهم على قرائتِها في حدودِ قوانين اللغةِ، وتسهيلاً لفهمهم واستيعابهم مقاصِدَها.

---

[1] الرحمن/26، 27

من هؤلاءِ الدعاةِ: الشيخ أبو حنظلةَ الدَّيْلَمِيُّ، سبق أنْ زارني في دارِي بمدينةِ إسطنبولَ قُبيل حلولِ شهرِ رمضان عام 1437هـ. الموافق: 2016م. ثمَّ تلقَّيْتُ منه كتابًا (بالعربيةِ) يُعَبِّرُ فيه عن مشاعرِهِ الطيبة بالثناءِ على كاتب هذا البحث.

إنَّ الشيخَ أبا حنظلةَ (في ما أعلم): رجلٌ مثقَّفٌ مُهَذَّبٌ فَاضِلٌ من أصلٍ دَيْلَمِيٍّ،[2] مسلمٌ (ولَيْسَ مُسْلُمانَ)، مُجَاهِدٌ (وَلَيْسَ جِهَادِيًّا)، مُوَحِّدٌ (وليسَ خارِجِيًّا من أدعياء السلفية!)، وُلِدَ في مدينة ديار بكر (الواقعةِ في جنوبي شرق تركيا) عام 1984م. درسَ اللغةَ العربيةَ، وأقامَ فترةً من الزمن في بعض البلاد العربية، لكنَّني لم أتمكَّنْ بعدُ من الإطلاعِ برَوِيَّةٍ على مدى إتقانِهِ لها، مع أنِّي تلقَّيْتُ منه ردًّا وجيزًا على خطابي له، كَتَبَهُ (أيضًا) باللُّغَةِ العربيَّةِ وقد أحسن في نظمِ عباراتِهِ، ولم يزلِ الحوارُ متواصلاً بيني وبينه إلى أن اعْتَقَلَتْهُ السلطاتُ التركيةُ[3]، فَلَهُ الشكرُ الجزيلُ، وجزاه الله تعالى خيرًا، وأسأل الربَّ العظيمَ جلَّ سلطانُهُ أن يُنقِذَهُ (ومَنْ معه من عبادِهِ الصالحين) من أسرِ الظَّلَمَةِ في القريبِ العاجلِ، إنه سميعٌ مجيبُ الدعوات.

أعجبني ما لمستُ فيهِ (أثناءَ زيارتِهِ) من صفاتِ أهلِ العلمِ والوَرَعِ والتقوى؛ فوجدتُهُ دَمِسَ الخُلُقِ، عفيفَ اللِّسانِ، وَقُورًا، صالحًا، ذكِيًّا، فَطِنًا، حَسَنَ الهيئةِ، رشيقَ اللِّباسِ، قويَّ الجسمِ –رغم ما تعرَّضَ له من الإضطِهادِ، وقضاءِ سنين في سجونِ النظام–، جريئًا على أهلِ البِدَعِ والأهواءِ، وله إلْمَامٌ بالعلومِ الشرعيَّةِ. عثرتُ على عددٍ من أعمالِهِ في الفقهِ والعقيدةِ، أكثرُها في الرَّقائِقِ والمواعظِ،

---

[2] الديلم: هم قوم من تُبَّاعِ الفرسِ الذين عاشوا في المنطقة الطبريَّةِ، شمال الهضبة الإيرانية، قبل الفتح الإسلامِيّ. لغتهم: الفارسيةُ، لكنهم ليسوا من العنصر الفارسي، تقع بلادُهم الأصليَّةُ على مقرُبَةٍ من جيلان الواقعةِ في الجنوبِ الغربِيّ من شاطئ بحر الخزر، التي ولد فيها جَدِّي الثالث والعشرين الشيخ عبد القادر الجيلاني. كانت مدينة روزبار عاصمتُهم قديمًا وهي إحدى الأيالات الفارسية. لَمَّا فُتِحَتْ بلادُهم في عهدِ عمر بن الخطاب ﵁، استمرُّوا خاضعين للحكم الإسلامي مع بقائِهم على وثنيتهم، ثم أسلموا ودخلوا في دين الله أفواجًا، وحَسُنَ إسلامُهم. نزحت قبائل منهم إلى الأراضي العثمانية في وقتٍ متأخِّرٍ، وأقاموا في المنطقةِ الكرديةِ فشاع الفسادُ في لغتهم بتأثير اللغةِ الكرديَّةِ والتركية، فأربكهم حتى في النطق بكلمة (دَيْلَمِي) التي هي اسم أصلِهم، فما لبثو حتى حَرَّفوهَا هي الأخرى، فنطقوا بها على شكل (دُومِلِي) ولا يزال النقاش والخلافُ قائم بينهم وبين الأكراد أهُمْ أكرادٌ أم قومٌ آخر، كما يعانون مشاكلَ سياسيَّةً من جَرَّاءِ ضغوطِ النظام العنصرِيّ التركِيّ عليهم من جهةٍ، ومن الإرهابِ الذي يواصل تأجيجَ نيرانِهِ عصابَةُ (بي كَ كَ) من جهةٍ أخرى.

[3] دَاهَمَتْهُ السلطاتُ التركيةُ صباحَ يومِ **08** مارس **2017**م. والقتْ القبضَ عليه في دارِهِ بِتُهْمَةِ ارْتِبَاطِهِ مع عصابةِ داعش، وألقتْ به في أحدِ سجونِ إسطنبول حَالَمَا يتم التحقيقاتُ الأمنيَّةُ بِحَقِّهِ، ويحالُ على المحكمةِ الجنائيَّةِ، وهو في الحقيقة بَرِيءٌ من هذه التهمةِ، وقد أدْرَجَهُ داعش في قَائِمَتِهِ السوداء، لكنَّ السلطاتِ التركيةَ تَذَرَّعَتْ بهذه التُّهْمَةِ بُغْيَةَ تَعْمِيَةِ الشعبِ، وليعاقَبَ الشيخ أبو حنظلةَ (فَكَّ اللهُ أسرَهُ) انتقامًا بسببِ تشنيعِهِ للحكومةِ التركية النقشبنديَّةِ أَنَّهَا تَتَمَرَّدُ على اللهِ في إقْدَامِهَا على تشريعِ دُستورٍ وَضْعِيٍّ علمانِيٍّ جديد، يُمَهِّدُ السبيلَ لرئيسِ الجمهوريةِ رجب طيب أردوغان، كَيْ يَتَمَكَّنَ مِنْ بَسْطِ سُلْطَانِهِ الإستبدادِيّ على الدولة التركية.

كُلُّهَا باللُّغةِ التُّرْكِيَّةِ.[4] لعلَّ ذلك ناشئٌ عن غلبةِ العُجمةِ على طَبْعِهِ، وعدمِ رسوخِهِ في أسرارِ العربيَّةِ، وَعَجْزِهِ عن مواصلةِ الإنشاءِ فيها، بله أن هذه الكُتَيْبَات كُلَّهَا خاليةٌ من الأسلوب العلمِيّ والأدبِيّ والذوقِ الرفيع، تسود الركاكةُ وضعف التأليف على عباراته فلا يستسيغها القارئُ المتميّز، مما يدلُّ على أن مؤلِّفها (أبا حنظلةَ) لم يُفْلِحْ في فن الإنشاءِ والتأليف، كما يبرهن ذلك على شيوعِ هذا القصورِ في مُعْظَمِ الملالي ورجالِ الدين الأتراكِ والأكرادِ على السواء. ولا بدَّ بهذه المناسبةِ أنْ أُذَكِّرَ القراءَ الكِرَامَ أني عثرتُ على هَفَوَاتٍ لأبي حنظلةَ عندَ تصفُّحِي لعُجالةٍ ألّفها في العقيدةِ وقد انتهج فيها أسلوبَ الوهَّابِيَّةِ واضطرب في بعض مواطنها[5]

---

[4] وهذه أسماؤها:

İhtilâf Fıkhı فقه الخلاف

Akaid Dersleri دروس في العقيدة

Müslümanların Allah'a Karşı Sorumlulukları مسؤليات المسلمين تجاه الله

Müslümanların Emirlerine Karşı Sorumlulukları مسؤليات المسلمين تجاه أمرائهم

Müslümanların Birbirine Karşı Sorumlulukları مسؤليات المسلمين تجاه بعضهم البعض

Allah'a Adanmış Gençlikler عنفوان الحياة المنذورة لله

Tağutlara Kulluğun Mabedleri معابد لعبادة الطواغيت

Tüm Rasulların Ortak Müjdesi مُحَمَّد البشارة التي شارك فيها جميع الرُّسُل

Tüm Rasulların Ortak Daveti الدعوة التي شارك فيها جميع الرُّسُل

Tasavvuf; Tanımı, menşei ve İslâmlü ilişkisi التصوف: تعريفه، ومنشؤه، ومدى علاقته بالإسلام

Lâ ilâhe illallah لا إله إلا الله

[5] المصدر: أبو حنظلة، Akaid Dersleri, Furkan Publishing, 4th edition, Pg.: 48-51. Istanbul-2013.

يقولُ أبو حنظلة بالحرف الواحد: "إنَّ ألأفعالَ المذكورَةَ في القرآنِ والسُّنَّةِ تدلُّ على أنّ اللهَ كائنٌ في الأعَالِي (كما في حادِثَةِ المعراجِ)." وهذه عبارَاتُهُ باللُّغَةِ التُّرْكِيَّةِ. «Kur'an ve Sünnet'te kaldırma ve yükselme eylemleri, Allah'ın yükseklerde olduğuna delâlet eder. (Miraç hadisesi gibi.)»

لقد تورَّطَ أبو حنظلة في خطإٍ فاحشٍ في مسألة (الْعُلُوِّ). يبدو أنه وقعَ في حبالِ الوهّابيّين فَالْتَبَسَ عليه مفهومُ (الارْتِفَاع) بمفهوم (العُلُوِّ) وشتان بينهما. ولو أنَّهُ قامَ بإجراءِ تَجْرِبَةٍ بسيطةٍ على نَحْوِ ما سَنَذْكُرُهُ فيما يلي، لكَفَاهُ إشارةً إلى الْفَرْقِ بين هذين المفهومين، ولاهْتَدَى بذلك إلى التمييزِ بينهما بسهولةٍ، وَلَتَبَيَّنَ له في الوقتِ ذَاتِهِ مَدَى حماقاتِ الوهّابِيّين ومجازفاتِ الأشعريَّةِ والماتريديَّةِ، وقلّةِ حيائِهِم في مناقشاتِهِم الوَاهِيَةِ حولَ صِفاتِ اللهِ تبارك وتعالى عمَّا يصفُهُ الفاسِقون.

إنَّ أتباعَ هذه الْفِرَقِ الثلاثةِ إنّما وقعوا في مُسْتَنْقَعِ البِدَعِ لِتَجَرُّؤِهِمْ على تأويلِ صفاتِ الله بالأسلوبِ الكلامِيّ وباستعمالِ آلةِ الفلسفةِ في مناقشاتهم، فدخلوا في مآزِقِ المنطقِ البشرِيّ ولم يستطيعوا الخروجَ منها. ولو أنهم اكتفوا بما ورد من ذكرها في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ ولم يَتَفَلْسَفُوا في تأويلِهَا لَنَجَوْا بأنفسهم. ومن الْمُلْفِتِ أنَّ نظرةَ الوهّابيّين طالما كانت قاصرةً عن استيعابِ القاعدة الأساسِيّةِ التي تقول: "إنَّ الصحيحَ المنقولَ لا يعارضُ صريح المعقول."

إن مَفْهُومَي (العلُو) وَ(السُّفْلِ) صفتان فيهما جَانِبٌ خاصٌ يتوارى بالغموضِ، تَوَغَّلَتِ الفِرَقُ الضالةُ (من الجهمية والوهابية والصوفية والرافضة) في علاقتِهِما بالأشياءِ؛ تناولوهما بِسَطْحِيَّةٍ وفي حدودِ الحواسِ الخمسةِ. غفلتْ هذه الفِرَقُ عن علاقتِهِما بما وراءَ الحسِّ والمنطقِ، فأسفرت عن جدالٍ همجِيّ بينها في صفات الله تعالى، والتبستْ عليها الحقُّ بالباطلِ. أفضى هذا الجدالُ إلى جدالٍ آخر حول مفهومَي (الْمَكَانِ) و(الجِهةِ)، ثم تسلسلَ النقاشُ بين هذه الْفِرَقِ في مفهومَي (السماءِ) و(شَكْلِ الأرْضِ) فطاشتِ العقولُ، وتحوَّلَ الأمرُ إلى التَّبْشِيعِ والتبديعِ والتكفيرِ والتناحرِ المذهبِي البغيض.

أمّا مسألةُ شكل الأرضِ، فإنّها كانتْ منذُ قرونٍ ولا تزالُ موضوعَ نزاعٍ متواصلٍ بين فريقين ينتحلانِ سمةَ العلم؛ دافع فريقٌ منهما: "أنّ الأرضَ كُرَوِيَّةُ الشكلِ"، وكَذَّبَهُ الفريقُ الآخرُ مدَّعِيًا: "أنَّها مُسَطَّحَةٌ، مُنْبَسِطَةٌ، دائرِيَّةُ الأطرافِ كالقرصِ".

لقد أخطأَ كِلاَ الفريقينِ في فهمِ كلماتٍ وردتْ في القرآنِ الكريمِ، وهي: "سُطِحَتْ"[5] و"مَدَدْنَاهَا"[5] و"يُكَوِّرُ"[5]. يكادُ جميعُ المفسّرِينَ للآياتِ المشتملةِ على هذه الكلماتِ واقعين في خطأٍ فاحشٍ عند تأويلاتِهم التي تُوهِمُ أنَّ الأرضَ مُسَطَّحَةٌ (بكُلِّيَّتِهَا)، لأنّهم نشئوا في عصور الظلامِ، فَفَاتَتْهُمُ المعرفةُ بكثيرٍ من حقائقِ كتابِ اللهِ في تلك الحُقْبَةِ التي وقعتِ الأمةُ فيها ضحيّةً للفتنِ والحروبِ والقلاقلِ والنزاعِ والتصوُّفِ والقبورية... فانسحبتْ وراءَ خرافاتٍ منعت عُلَمَائَهَا من الإهتداءِ إلى أسرارِ المعجزاتِ المكنونةِ في آياتِ الذكرِ الحكيمِ. دامتْ هذه الظلمة تُخَيِّمُ على الأُمَّةِ حتى صَحَتْ من سُبَاتِهَا العميقِ أخيرًا وبعد فوات الأوان، وفي ظلِّ الكشوفاتِ التي حقَّقَهَا علماءُ كُفَّارِ الْغَرْبِ، ومن جملتِها: كونُ الأرضِ (كرويةً) و(مسطّحةً) في آنٍ واحدٍ. ثمَّ بدأ المتأخّرونَ من علماءِ الأمّةِ يَعْتَرِفُونَ بهذه الحقيقةِ. يأتي على رأسِهم الشيخ مُحَمّد بن صالح بن عثيمين، والشيخ مُحَمّد متولي الشعراوي.

يقول الشيخ بن عثيمين: "لو قال قائل: إن الله عزَّ وجلَّ أخبر أن الأرض قد سطحت، فقال: "وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (الغاشية/**20**)، ونحن نشاهد أن الأرض مُكَوَّرَةٌ؛ فكيف يكون خبره خلاف الواقع؟ فجوابه أنَّ الآيةَ لا تخالف الواقعَ، ولكنَّ فَهْمَهُ خاطئٌ إمَّا لِقصورِهِ أو تقصيرِهِ؛ فالأرضُ مُكَوَّرَةٌ مُسَطَّحَةٌ، وذلك لأنها مستديرة، ولكنْ لِكِبَرِ حَجْمِها لا تظهرُ استدارَتُها إلا في مساحةٍ واسعةٍ تكون بها مسطحة، وحينئذ يكون الخطأُ في فهمِهِ؛ حيث ظنَّ أنَّ كونها قد سطحت مخالف لكونها كروية."[5]

نعم؛ "قد أجمع اليومَ أهلُ العلمِ قاطبةً على كُرَوِيَّةِ الأرضِ: وذلك أنَّ الأرضَ في أعين الناظرين مسطحة؛ لأنها كبيرةُ الحجم، وظهورُ كرويَّتِها لا يكون في المسافات القريبة، فهي بحسب النظر مُسَطَّحةٌ، لكنها في جملتها كرويَّةٌ. وقد سُئِلَ علماءُ اللجنةِ العلميَّةِ: هل الأرضُ كروية أو مسطحة؟ فأجابوا: "الأرض كروية الكل مسطحة الجزء"[5]

ويقول الشعراوي: "إنَّ القرآنَ كلامُ اللهِ الْمُتَعَبَّدِ بتلاوتِهِ الى يوم القيامة، ومعنى ذلك أنه لا يجب أن يحدُثَ تصادُمٌ بينه وبين الحقائق العلمية في الكون، لأن القرآن الكريم لا يتغيَّرُ ولا يَتَبَدَّلُ، ولو حدث مثل هذا التصادمِ لضاعتْ قضيةُ الدين كُلُّهَا، ولكن التصادُمَ يحدثُ من شيئين: عدمِ فهمِ حقيقةٍ قرآنيَّةٍ، أو عدمِ صِحَّةِ حقيقةٍ علميَّةٍ، فاذا لم نفهم القرآنَ جَيِّدًا وفسرناه بغيرِ ما فيه، حدث التصادم. واذا كانت الحقيقةُ العلميةُ كاذبةً حدث التصادم. ولكن كيف لا تُفْهَمُ الحقيقةُ القرآنيَّةُ؟ سنضرب مثلا لذلك ليعلم الناس أن عدمَ فهمِ الحقيقةِ القرآنيَّةِ قد يؤدّي الى تصادمٍ مع حقائقِ الكون. الله سبحانه وتعالى يقول في كتابه العزيز: "والأرض مددناها. (الحجر/**19**). والمدُّ معناه البسطُ، ومعنى ذلك أن الأرضُ مَبْسُوطَةٌ، ولو فهمنا الآية على هذا المعنى لأتَّهَمْنَا كُلَّ مَنْ تَحَدَّثَ عن كرويَّةِ الأرضِ بالكفرِ، خصوصا أنَّنا الآن بواسطةِ سُفُنِ الفضاءِ والأقمارِ الصناعيةِ قد استطعنا أن نرى الأرضَ على هيئةِ كرةٍ تدورُ حولَ نفسِها، نقول: إن كلَّ مَنْ فَهِمَ الآيةَ الكريمةَ: "والأرض مددناها." بمعنى أن الأرضَ مبسوطةٌ لم يفهم الحقيقةَ القرآنيَّةَ التي ذَكَرَتْهَا هذه الآيةُ الكريمةُ، ولكن المعنى يجمعُ الاعجازَ اللُّغَوِيَّ والاعجازَ العلميَّ معًا، ويُعْطِي الحقيقةَ الظاهرةَ للعينِ والحقيقةَ العلميَّةَ المختفِيَةَ عن العقول في وقتِ نزول القرآن. عندما قال الحق سبحانه وتعالى: "والأرض مددناها"، أي بسطناها، أقال أي أرض؟ لا، لم يحدِّدْ أرضًا بعينها، بل قال الأرض على اطلاقها، ومعنى ذلك أنك اذا وصلت الى أيّ مكانٍ يسمَّى أرضًا تراها أمامَك ممدودَةً أي مُنْبَسِطَةً، فاذا كنتَ في خطِ الاستواءِ فالأرضُ أمامَكَ مُنْبَسِطَةٌ، وإنْ كنتَ في القُطْبِ الجنوبي أو في القُطْبِ الشمالي، أو في أمريكا أو أوروبا أو في أفريقيا وآسيا، أو في أيّ بُقْعَةٍ من الأرضِ، فانَّكَ تراها أمامَك مُنْبَسِطَةً، ولا يمكن أن يحدثَ ذلك الاَّ اذا كانتِ الأرضُ كُرَوِيَّةً.[5]

هذا، وننصحُ أبا حنظلةَ أنْ يتناولَ بُرْتُقَالَةً — وهي أفضلُ مثالٍ يُقاسُ عليه الْكُرَةُ الأرْضِيَّةُ–، وعليه بإحضارِ دَبُّوسَتَيْنِ، ثمَّ يقومُ بِغَرْزِ إحْدَاهُمَا على ناحيةٍ من هذه الْبُرْتُقَالَةِ، وَيَغْرِزُ الدَّبُوسَةَ الثانيةَ في الواجهةِ الْمُعَاكِسَةِ منها (في مُقابَلَةِ الدَّبُوسَةِ الأولَى بالضبط.) ثمَّ لِيُلاَحِظْ الْبُرْتُقَالَةَ في حالةٍ يكونُ رأسُ إحْدَى الدَّبُّوسَتَيْنِ نَحْوَ السماءِ، ورأسُ الدَّبُّوسَةِ الأخْرَى نَحْوَ الأرضِ. ثمَّ لِيُدِرِ البرتقالةَ (على تلك الحالةِ) حولَ محورٍ، ولْيُحَدِّدْ في أثناءِ ذلك: أيُّ الدبّوستَينِ رأسُهَا أعلى، وأيّهما رأسُهَا أسفلَ؟

من خلالِ هذه التجربةِ؛ إذا قِسنا شخصًا قائمًا منتصبًا في القطبِ الشماليِّ، (إذا قسناه على إحْدَى الدبوسَتَيْنِ) مثلاً: وقِسنا شخصًا آخرَ في القطبِ الجنوبيِّ، (على الدَّبُّوسَةِ الثانيَةِ)، وقارنَّا بين رَأسَيْهِمَا؛ سوفَ نَحْكُمُ بالضرورةِ: أنَّ رأسَ كلٍّ منهما يقعُ في الاتِّجاهِ الْمُعَاكِسِ لِرأسِ صاحِبِهِ مع أنَّ جِسمَ كُلٍّ منها مُمْتَدٌّ نَحوَ السَّمَاءِ، ورأسَ كُلٍّ منهما مُرْتَفِعٌ من الأرضِ، ولا يستقيمُ (مع ذلك) وصفُ أحدِهِما بـ(العُلُوِّ) لأنَّ رأسَ كليهما واقعٌ نحوَ السماءِ لكنَّ كلاًّ منهما على عكسِ الاتِّجاهِ لصاحبِهِ!. فَثَبَتَ لنا عَقْلاً وعِلْمًا أنه لا يجوزُ القولُ بعكسِ هذه الحقيقة الكَوْنِيَّةِ (إذا كانت الأرضُ كرويةً في الواقع! كما يدَّعِيهِ أهلُ العلم الحديثِ). تبيَّنَ لنا من خلالِ هذه الْمُقَارَنَةِ البسيطةِ: أنَّ (العُلُوَّ) شَيءٌ، و(الارتفاع) شيءٌ آخر، ولا علاقة بينهما إطلاقًا. فالله سبحانه عليٌّ لا شكَّ وقد قال في كلماتِهِ المقدَّسَةِ: وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ.(البقرة/**255**، الشورى/**4**)؛ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ.(الحج/**62**، لقمان/**30**، سبأ/**23**)؛ فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ.(غافر/**12**). وَتَبَيَّنَ كذلك أنَّ اللهَ تعالى فوقَ عبادِهِ مُنَزَّهٌ من الإرتفاعِ، لكنَّ الوهَّابيّين تَوَرَّطُوا في تفسيرِ (الْعُلُوِّ) بـ(الارْتِفَاعِ)؛ أَوَّلُوهُمَا بمعنًى واحدٍ، والحالُ أنَّ (العلوَّ) من شأنِهِ (اللاَّمَكَانِيَّةُ)، وأمّا الارْتِفَاعُ فمن شَأْنِهِ (الْمَكَانِيَّةُ)، والبرهانُ على ذلك قوله تعالى: وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (**56**) وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا. (مريم/**56**، **57**). ويجب الإنتباهُ إلى أن (الرَّفْعَ) هنا تكريمٌ حقيقيٌّ مَلْمُوسٌ وَمَوْصُوفٌ بِالْمَكَانِيَّةِ، لكنَّ لفظَ (الرَّفْعِ) لا صلة له مَعْنًى بلفظ (الارتفاع) الذي يخلو منه كتابُ اللهِ تمامًا، وأما الارتفاع لغةً: فهو (من باب الافتعال) مطاوعٌ (بخلافِ الرفعِ)، ولا يحتملُ (العلوَّ) إطلاقًا، لاستحالة الأبعادِ في مفهوم العلوِّ، كما هو

بدأ التواصُلُ بيني وبينه منذ فترةٍ قصيرةٍ، فَكَتبتُ له أحيانًا بالعربيَّةِ لِمَا في ضميري من الحبِّ لهذه اللغة الخالدة، ولِيَتَمَرَّسَ هو بِما قَدَّمْتُ له من وصايا نافعةٍ، فَتَنْضُجَ مَعْرِفَتُهُ بِدَقَائِقِ هذهِ اللغةِ الشريفةِ وأساليبِ الكتابَةِ بِهَا على غِرَارِ أُدَبَاءِ العربِ وعلمائِهِمْ، وكثيرًا مَّا نتبادلُ الرسائلَ بالتُّرْكِيَّةِ. لأنه (حفظه الله تعالى) مُسْتَعْرَبٌ قد يشعرُ بحرجٍ في الصياغةِ بالعربيةِ، فلا أريدُ أن أُحْرِجَهُ.

فإنَّ كُلَّ مَا بَلَغَنِي مِنْ وَصْفِ الشيخ أبي حنظلةَ عَنْ طَرِيقِ الْغَيْرِ: "أنَّه سلفِيٌّ جهادِيٌّ، متَسَرِّعٌ في التكفير؛ له علاقةٌ بتنظيمِ القاعدةِ وتنظيمِ داعش؛ أَعْلَنَ أنَّ جميعَ المساجدِ الكائنةِ على الساحةِ التركِيَّةِ، حُكْمُهَا حُكْمُ مَسْجِدِ ضِرَارٍ." إلى غَيْرِ ذلكَ مِمَّا لَمْ يَثْبُتْ عندي بإقرارِهِ الشخصِيِّ. فلا مساغَ إلى الاعتدادِ بهذِهِ الأقاويل، ولا يجوز لي أنْ أمِيلَ عن العدلِ والإنصافِ فأَرْتَكِبَ الجناية على هذا الرجلِ الصالح بالدخولِ في هذه المشاركة الآثمة التي تورَّطَتْ فيها جماعةٌ من السُّفَهَاءِ الأخلاطِ، وقُطْعَانٌ من الصوفِيَّةِ الأوباشِ الذين يستغلُّهم جهازُ المخابراتِ للتصيُّدِ وإيقاعِ أهلِ التوحيد في حبائله.

كما أعتقدُ أنَّ كلَّ مَنْ أطلقَ في الشيخ أبي حنظلةَ لِسَانَهُ وَدَخَلَ في مثالِبِهِ إنما هو جاهلٌ مُتَطَرِّفٌ، عدوٌّ للإسلامِ. ومِنْ أَوَّلِ وأَبْرَزِ علاماتِ هؤلاِ الجهلةِ: أنَّ كُلَّهُمْ ينتمون إلى الدين (الْمُسْلُمَانِيَّةِ Müslümanlık)، يجهلون حقيقةَ الإسلامِ والتوحيد الخالص، وهم أهلُ التقليدِ الأعمَى، وقد انهمكوا في مستنقَعِ الْبِدَعِ والْخُرافاتِ، أغلبُهم صوفِيَّةٌ قبوريُّون مُنْسَحِبُونَ من وراءِ الْمُتَّجِرِينَ بالدِّين، جَمِيعُهُمْ مُغترُّونَ بِالسحرةِ والمشعوذِين من شيوخِ الطريقة النقشبنديَّةِ ولا يعبؤن بالعلماءِ، بل يحتقرونهم ويتطاولون عليهم، ويتَّهِمونهم: "بأنَّهم "علماءُ الرسومِ، غافلون عن بواطنِ الآيات، لأنهم لم يفهموا الحقائقَ المكنونَةَ فيها عن طريق الكشفِ الصوفِيِّ، بل اشتغلوا عن معرِفَتِها بالظواهرِ والأَدِلَّةِ" (على حدِّ قولِهم!).. وإذا أتاحتْ الفرصةُ لهؤلاءِ الدراويش اللِّئامِ، هاجموا أهلَ العلمِ بكلماتٍ بذيئةٍ من الفِرْيَةِ وَالبهتانِ، وقد خَيَّمَ عليهم الجهلُ وَالْتَبَسَ عليهم الحقُّ بالباطلِ، والصالِحُ بِالفاسدِ، والعالِمُ بِرَجُلِ الدِّين...

زائدٌ على فعل (الرفع) الذي يتعدّى ويجري أمامَ عيونِنا على مدى حياتنا ضمن أبعادٍ متفاوتةٍ. إذًا لا مساغ لتأويل لفظ (العلوّ) بلفظ (الارتفاعِ) كما لو تذرَّعَ متنطعٌ بهذه الآية الكريمة فادّعى ذلك، فقولُهُ مردودٌ عليه.

هكذا وقع الوهّابِيُّونَ في أخطاءٍ جسيمة بنقاشِهم الكلاميَّةِ في صفاتِ اللهِ تعالى وزندقيَّاتهم التي اختلقوها (في محاولة إثباتِ المكان والجهة لله تعالى عن ذلك علوًّا كبيرا)، تعمّدوا ذلك للتشنيع على الأشعرية والماتريدية بخاصَّةٍ وهم أصلاً أخسُّ منهما، ولا يزالُ أهلُ هذه الفِرَقِ الثلاثة في ضلالاتهم يعمهون.

***

لقد من الله عليَّ بتوفيقٍ منه تعالى أن أكرمني بنعمةِ التمييز بين هذه الكثرة الفاسقة وبين أهل التوحيد الخالِصِ على قِلَّةِ عددِهِمْ في تركيا، كما وَفَّقَنِي لإتقانِ عددٍ مِنَ اللُّغَاتِ؛ كالفارسيَّةِ، وَالْكُرْدِيَّةِ، والتُّرْكِيَّةِ، والعربية (بالدرجة الأولى)، والإنجليزية والفرنسة (بالدرجة الثانية)، فيسَّرَ لى بفضلِ هذه اللُّغاتِ أنْ أطَّلِعَ على أمورٍ غابتْ عن علمِ كثيرٍ من رجالِ الدراسةِ والبحثِ في بلدنا خاصةً. ومِنْ جملةِ هذهِ الأمورِ: الدِّينُ الزَّائِفُ الْمُسْتَحْدَثُ الْمُسَمَّى (الْمُسْلُمَانِيَّةُ Müslümanlık). فرأيتُ من الواجبِ على نفسِي أنْ أُثيرَ انتباهَ السلفِيّين إلى هذَا الخطرِ العظيمِ، الَّذِي تواطأَ علي إخفائِها علماءُ الأتراكِ والأكرادِ طوالَ قرونٍ، فلم يتفوَّهْ أحدٌ منهم بكلمةٍ في هذه القضية إلى اليوم، كما تجاهلها علماءُ العربِ في الوقتِ ذاته، فشاركوهم في هذه الجنايةِ على الإسلام بلا مرية. ولكنِّي رغمَ كُلِّ جهودٍ بذلتُها ما زلتُ محاطًا بِطَوْقٍ خطيرٍ بل بأطواقٍ فولاذِيَّةٍ شديدةٍ منذ سنين؛ تُراقبُنِي جهازُ المخابراتِ لِلنظام التُّرْكِيّ العلمانَوِيّ من جهةٍ، كما تراقبني جحافلُ المشركين من النقشبنديين، وعصاباتُ التطرُّفِ العصبِيّ العنصرِيّ، والمنظماتُ الإرهابيَّةُ من جهةٍ أخرى، تنتهزُ الفرصةَ وتتربَّصُ بِي الدوائرَ، عليهم دائرةُ السَّوْءِ وَاللهُ سميع عليم. لقد أحاطَتْ بِي أطواقٌ، والتفَّتْ حول خِناقِي منذ أربعين سنةً وَحَبَسَتْنِي في منزلي، ومَنَعَتْنِي عن مشاركةِ أهلِ العلمِ مشاركةً فعَّالةً في مكافحةِ الزَّنْدَقَةِ والزنادِقَةِ: فإنِّي (بالإختصار)؛ عشتُ أسيرًا على مَدَى هذه المدَّةِ الطويلةِ في داري، ما كتبتُ شيئًا قطُّ، ولا كلَّمْتُ أحدًا ممن زارني من أهلِ التوحيدِ إلاَّ تحتَ جِنْحِ الخَفَاءِ، لأنِّي – على ما يعتقدُ أكثرُ الناسِ بما فيهم أهلي–: "أطْلَقَتُ اللِّسانَ في أولياءِ الله، وأفسدتُ الدِّينَ بنشرِ بِدَعِ الوهابِيَّةِ، واستحقرْتُ أهلَ الذِّكْرِ والتقوى، فأصابتْني لعنةُ الأولياءِ، لذلك عاداني المجتمعُ، وهجرني الناسُ وراءَ ظهورهم، فأصبحتُ شقيًّا لاَ يَعْتَدُّ بِي أحدٌ!.." هذا رأيُ كلِّ مَنْ يعاديني من أهلي وغيرِهِم.

تزدادُ معاناتي وألَمِي وأسفي حين أرى مَنْ يتظاهرون بأنهم أهلُ التوحيدِ وهم يتخاذلون عنّي، ويمتنعون عن مساعدتي في إنجاز ما أعددتُهُ من بحوثٍ هامةٍ، بَعْضُهَا ينتظرُ الطباعةَ والنشرَ، وبعضُهَا ما زِلتُ في صددِ إكماله. وايمُ اللهِ لأُشْهِدُكَ (أيها القارئُ الكريم) يوم الحسابِ على هذه الحقائقِ إنْ سألني ربِّي؛ ولأفضحَنَّ مَنْ تخاذلوا عن هذا العبد وهم يَدَّعُونَ اليومَ أنّهم على عقيدة أهل السنة والجماعةِ!

كما أُشْهِدُكَ على أنِّي أُطالبُ أهلَ التوحيدِ بحقّي في ذمَّتِهم أنْ يُنْقِذُونِي من حبسِي وينقلوني إلى مكانٍ آمنٍ أتمتَّعُ فيه بحريةٍ قَدْرَ الإمكانِ، لأتمكَّنَ من مواصلةِ جهادي وكِفاحِي ضِدَّ الكفرِ

الْمُسْلُمَانِيّ، والإلحادِ الصوفي، والشركِ النقشبنديّ، والنفاقِ الرافضِيّ. فإنّي لا أشكُّ في أنَّ الْمُسْلُمَانِيَّةَ دينٌ مستقلٌّ عن الإسلامِ، ولا يَمُتُّ إليه بصلةٍ، ولم يُنْزِلِ اللهُ به من سلطان، كما لا أشُكُّ في أنَّ مَنْ سَمَّى الإسلامَ بـ"الْمُسْلُمَانِيَّةِ Müslümanlık"، عن قصدٍ، فقد حلَّ ربقةَ الإسلام من عنقِهِ لا محالةَ!

***

ولا يفوتني أنْ أُذَكِّرَ أصحابَ الإختصاصِ في اللغةِ والأدب؛ بأنّي توقَّيتُ أسلوبَ الصحفِيّينَ في تنصيصِ عِبَاراتي مهما أمكن، والتزمتُ طريقةَ أهلِ العلمِ في الصياغةِ احترامًا للغةِ العربية الشريفةِ. لعلَّ التنبيهاتِ الواردةَ لأجلِ الاجتنابِ عن أخطاءِ هذه الطائفةِ الثرثارةِ، كان لها أثرٌ عَلَيَّ خاصَّةً كلّما هَمَمْتُ أن أكتُبَ كلمةَ (بَيْنَما) تذمّرتُ مِمَّا أُحْدِثَ في معناها من التحريفِ والتشويه.

***

وأمَّا القضايا التي انتقيتُها (لأَوْلَوِيَّتِهَا) وعرضْتُها في هذا البحثِ من أجل إيقاظِ السلفيين على وجهِ الخصوص، فهي بالتحديد: ثلاثة وعشرونَ قضيةً قد ذكرتُها فيما يلي ضمن نَصِّ المقدمة وشرحتُ كلاً منها على حدةٍ عبر هذا البحثِ، وقد رَكَّزْتُ بخاصةٍ على مُشْكِلَتَيْ الفقرِ الثقافِيّ، والفقرِ العلمِيّ المنتشِرَينِ في أوساطِ المجتمع التركِيّ. فقد عَرْقَلَتَا الدُّعَاةَ في إرشادِهم للناسِ، ومَنَعَتاهُمْ مِنْ كمالِ الأداءِ. كما عَرْقَلَتْ مُشْكِلَةُ الفقرِ العلمِيّ الأكاديمِيّينَ في فَهْمِ الإسلامِ الصحيح، ومَنَعَتْهُمْ عن التمييزِ بين الإسلام والْمُسْلُمَانِيَّةِ Müslümanlık، فأسفرَتْ عن انتشارِ الفوضَي في الدِّينِ على الساحة التركية بصورة عامَّةٍ.

سأحاوِلُ تسليطَ الضوءِ على هذه الهرطقةِ بإيجاز، وذلك في فصل (الْخُطُوطِ العريضةِ من أهمِّ ما يجبُ التنبيهُ عليها من قضايا العصر) ضمن السطور التاليةِ، إن شاء الله تعالى.

ولما سنحتْ الفرصةُ لي فَتَعَرَّفْتُ على الفاضلِ الشيخ أبي حنظلةَ (وهو من مشاهير السلفِيّين والدُّعَاةِ الْمُوَحِّدِينَ)، عرضتُ عليه أن يُنَبِّهَ الإخوةَ الْمُوَحِّدِينَ في بلدنا (تركيا) على هذه المشكلةِ، وأن يُحَذِّرَهُمْ من مخالفةِ مبدءِ (التوقيفِيَّةِ) ومن استعمالِ الكلماتِ الْمُحَرَّفَةِ عَبْرَ ترجمةِ ألفاظِ القرآنِ الكريمِ إلى اللُّغةِ التركية والكردية. فَجَرَتْ بيننا سلسلةُ حواراتٍ في مسائلَ هامّةٍ، منها القضايا التي

تهمُّ المسلمين عامةً والسلفيّين على وجهِ الخصوص، لِيَتَنَبَّهوا لها فلا يَنْخَدِعوا بما اسْتَحْدَثَهُ المبتدعون وقانا الله تعالى شَرَّهُمْ.

لقد شاء الله تعالى أن يجمع بيني وبين هذا الرجل الصالح ولم يكُنْ يجري في خَلَدِ أحدِنَا ليلقى صاحبَهُ، ولو شاء لَجَمَعَنَا قبلَ ذلك، ولكنْ ليقضي الله أمرًا كان مفعولا، فيمَّمَ إلينا وجهَه بِقَدَرِهِ تعالى، فكانت مفاجئةً سعيدةً بتوفيقه سبحانه، "وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ."[6]

لَمَسْتُ في الشيخ أبي حنظلةَ، وفيمَنْ معه من العُصبةِ الطيبةِ (وبينهم أبو طلحةَ) في تلك اللحظاتِ القليلةِ، لَمَسْتُ فيهم سيما الصالحين، فأحسستُ بِبالغِ الأُنسِ والإلفةِ، خاصَّةً اسْتَوْقَفَنِي ما لاَحَظْتُ في الشيخ أبي حنظلةَ من سماتِ أهلِ العلمِ من التواضعِ والسكينةِ والوقار، فما لبثَ بعد مغادرته حتّى أتاني كتابُه الذي حمل إِلَيَّ بين طياته من آياتِ الثناءِ وعبارات الشكر والتقدير... فأعزَّه الله تعالى، وَفَكَّ أَسْرَهُ، وبارك له فيما آتاه من العلم، وأيَّدَه بملائكتِهِ على جنود الشيطان من الْمُلْحِدِينَ والقبوريّين عَبَدَةِ الجيفِ، وأثابَه على جهادِه... سَاقَتْه المشيئةُ الإلهيَّةُ إلى منزلي في حينٍ لم أتوقَّعْ ذلك. وقد أخذتُ أَتَفَاءَلُ من وراءِ هذا اللِّقاءِ ما عسى أن يكونَ بدايةَ خيرٍ وتعاونٍ على البِرِّ والتقوى، يَجْنِي من ثمراتِهِ الموحّدون والمجاهدون في سبيلِ اللهِ، فتكونَ وسيلةً نبتغي بها جميعًا رحمةَ اللهِ يومَ نلقاه، و"إنما الأعمال بالنيّات، وإنما لكل امريء مانوى".

فقد أوردتُ في هذا البحثِ طَائفةً مِنْ أهمِّ قضايا عصرِنَا وقد اختلفَ الناسُ في تقييمِها والْتَبَسَ عليهم بعضُهَا. تناولتُ كلاًّ منها بتحليلٍ يرفعُ الإلتباسَ، مع إضافةِ تنبيهاتٍ للإخوةِ السلفيّين من مواطني الدولة التركية خاصّةً ليكونوا على بَيِّنَةٍ من أمرِهم في مواجهة التحدياتِ والإنتقادات والْهَجَمَاتِ التي تعترِضُهُمْ. واللهُ تعالى المستعان، وإليه المرجع والمئاب.

فريد الدين بن صلاح بن عبد الله بن مُحَمَّد الحزين الحسني الطالبي الهاشمي.
الثلاثاء، **04** صفر **1439**هـ. الموافق: **24** تشرين الأول **2017**م.

***

[6] التكوير/29.

مقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي قال في كتابه العزيز: "إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ.."[7] فَرَبَطَ بين قلوبنا بوشيجة الأُخُوَّةِ في الإيمان، وجعلنا من المتحابّين فيه تعالى، والمجتمعين على هديه، والصلاة والسلام على رسوله الكريم مُحَمَّد وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان.

قفز الفكرُ السلفِيُّ من المنطقةِ العربيَّةِ إلى الساحةِ التركيةِ في بداية القرن الحادي والعشرين (أي قبل عقدين من الزمن) والمجتمعُ التُرْكِيُّ يجهلُ هذا المفهومَ تمامًا، لذا لم يعتدَّ أحدٌ بجماعةٍ قليلةِ العددِ يومَ خرجتْ في إسطنبولَ وأنقره تَبُثُّ الدعوةَ إلى توحيدِ الله تبارك وتعالى، وتُحَذِّرُ من خطر الإشراكِ بالله. نعم لم تكن هذه الدعوةُ مما يُلْفِتُ الإنتباهَ في البداية. بل تعجَّبَ الناسُ منها واستغربوها، لأنَّهم لم يفطنوا يومئذٍ إلى مدى خبطِهِمْ في ألوانٍ من الشركِ مع ما هُمْ فيه من الخطرِ الْمُسْلُمَانِيِّ، والإلحادِ القبورِيِّ، والكُفْرِ الصوفِيِّ، وتأليه الأمجادِ... ثم انتشرتْ الدعوةُ وغدتْ علانيةً بعد أن كانتْ تَدُبُّ تحت جناح السرِّ، حتى تعوَّدَتْها الآذانُ رغم الشكوك السائدة في أوساط الجمهورِ حولَ هذه الدعوةِ وأصحابِها. ولم يلبث طويلاً حتى تحوَّلتْ هذه الشكوكُ إلى اتِّهامٍ خطيرٍ استهدفتْ الموحدين.

بهذه المناسبةِ سَنَحَ لي أنْ أذكرَ في هذا البحثِ أمورًا اسْتَوْقَفَتْنِي لِمَا رأيتُ الشيوخَ والملالِيَ ورجالَ الدين والأكاديميّين، قد غفلَ أكثرُهُمْ عنها تمامًا، والْتَبَستْ على طائفةٍ منهم وهُمْ مختلفون وَحَيَارَى في فَهمِهَا. أحببتُ أن أتناولَهَا وأكشِفَ الْعَتَمَةَ عنها بالاعتمادِ على الدلائل وبالاستقراءِ، فتَتَّضِحَ الرُّؤْيَةُ فيما بيني وبين الإخوةِ السلفيين من خِلالِها؛ بذلتُ الجهدَ في ذكرِها بترتيبٍ يُكمِلُ بعضُها بعضًا، فشرحتُ كُلاًّ منها على حدةٍ وفي إطارٍ لن يُمِلَّ القارئَ، لعلَّنَا نُتابعُ سبيلَنا على ضوئِها إذا أردنا أن نتعاونَ على تحقيق الأهداف المشتركة، من تبادلِ المعرفة، وإرشادِ الأمةِ، وبثِّ الوعي التوحيدِيّ، ومكافحةِ الإشراكِ باللهِ، ومقاومةِ رموزِ الضلالِ من الزنادِقةِ والبلاعِمَةِ، وإحباطِ أعمالهم الهدَّامَةِ بتوفيقٍ من الله تعالى ونصرٍ من عندِهِ، يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيم.

---

[7] الحجرات/10.

نعم، حضرتْني مفاهيمُ هامَّةٌ، أحببتُ عرضَها عبر هذا البحثِ، ليتأمَّلَ فيها القارِئُ الكريمُ بإمعانٍ، فيشاطِرَنِي بعد ما قد يبدو له من وجوهِ الرأيِ على اختلافِها من طلبٍ، أو نصيحةٍ، أو نقدٍ أو تحذيرٍ يُزِيحُ العقبةَ من سبيلي في جهادِ الكفرِ والإلحادِ. وهذه المفاهيم هي بالتحيد:

1) الغزوُ الثقافِيُّ،

2) العقيدةُ،

3) العُنْفُ،

4) الإرهابُ،

5) الجهادُ،

6) الفكرُ الخارِجِيُّ،

7) الديانةُ الْمُسْلُمانِيَّةُ Müslümanlık،

8) الوثنيَّةُ الأتَاتُورْكِيَّةُ Kamalism،

9) التَّيَّارُ النَّقْشَبَنْدِيّ،

10) الْعِلْمَانِيَّةُ،

11) العصبيَّةُ القوميةُ والعرقيَّةُ

12) الخِداعُ الدِّيمُقْرَاطِيُّ،

13) فكرةُ الْعَوْلَمَةِ،

14) الْخِلاَفَاتُ وَالنِّزَاعُ وَالْحُرُوبُ وَعَوَامِلُ إِنْهِيَارِ الأُمَّةِ،

15) الوهَّابِيَّةُ،

16) الصراعاتُ الطائفيَّةُ والمذهبيَّةُ،

17) مشاكلُ الأقلِّيَّاتِ،

18) التَّخلُّفُ التعليمِيُّ،

19) الفَقْرُ الثَّقَافِيُّ،

20) الإنهيارُ الخلقِيُّ،

21) الفوضَى الدِينِيُّ،

22) اللُّعبةُ السياسيَّةُ ودورُ الزنادِقَةِ فيها عَبْرَ تاريخِ المسلمين.

23) فتنة الحشَّاشين الْجُدُد.

ثم أتْبَعْتُ شرحَ هذهِ المفاهيمِ بمقطعٍ من نصائحَ عامَّةٍ للسلفيّين في نهاية البحث، وعسى أنْ ينتفعَ بهذهِ الدراسةِ كلُّ مَنْ يهتمُّ بها، وتكونَ هي وسيلةً تُمهِّدُ له السبيلَ للوعيِ بحاضرِ الأُمَّةِ، ومقاومَةِ الفسادِ، وإرشادِ العبادِ إلى التوحيدِ الخالصِ، واللهُ المسؤولُ وهو يهدِي السبيل..

***

الخطوطُ العريضةُ مِنْ أهَمِّ مَا يَجِبُ التَّنْبِيهُ عليها مِنْ قَضَايَا الْعَصْرِ وآثَارِهَا وتَبِعَاتِهَا في تركيا

ولنبدأ الآنَ بشرحِ هذه القضايا والمفاهيم التي مَرَّ تعدادُها آنفًا بإشاراتٍ رمزيةٍ إلى كلٍّ منها، وأوَّلُها:

1) الغزو الثقافِيُّ.

الغزو الثقافِيُّ (وتسمَّى الغزوَ الفكريَّ أيضًا): هو تعبيرٌ عن محاولةِ أمةٍ الإستيلاءَ والسيطرةَ على أمةٍ أخرَى بطريقةٍ غيرِ حربيَّةٍ. لِلْغزوِ الثقافِيّ تعريفٌ وجيزٌ جدًّا، جاءَ على لسانِ الكاتبِ الفلسطِينِيّ يحيى عبد الرؤوف جبر يقول: "الغزوُ الثقافِيُّ تدجينٌ مُبَطَّنٌ وإرهابٌ مُحَسَّنٌ" ثم يصفه "بِالتبعيَّةِ الثقافِيَّةِ" ويتابع قائلاً: "ومن العبارات التي تُطْلَقُ في هذا المجال: الاستلاب أو السلب الحضاري، وهو أن يتحرَّرَ الانسانُ من خصائصِهِ الحضاريَّةِ وما يمتاز به عن سواه، ويأخذَ بخصائصِ غيره. ومن ذلك أيضًا القهرُ الحضارِيُّ، وهو أن يشعرَ الانسانُ بأنَّ حضارتَهُ الأصلِيَّةَ وما تتجسَّدُ فيهِ من سلوكيَّاتِهِ لا تُسْعِفُهُ في مُجاراةِ ما جَدَّ في هذا الزمانِ من استفحالِ أمرِ المادَّةِ وسَطْوَتِهَا، وبسطِ الدُّنْيَا يَدَهَا، وتقصيرِ منهجِ الحياةِ السائدِ في حلِّ المشكلاتِ المستجدَّةِ، فيشعرُ بِالابلاسِ والافلاسِ، وَيَفْقِدُ ثِقَتَهُ في حضارتِهِ، ويَتَنَكَّرَ لأصولِهِ وتاريخِهِ، ويرى الخلاصَ، كَالغريقِ، فِي فُتَاتِ الْحضارةِ الماديَّةِ الْجَامِحَةِ.[8]

إنَّ الأُمَّةَ الغازيةَ التي تَحاوِلُ الإستيلاءَ والسيطرةَ، تكونُ عادةً أقوى من الأُمَّةِ المستهدَفَةِ. وهذا من مظاهرِ الحياةِ وأسرارِها؛ فالصراعُ قائمٌ دائمًا بين خصمين، ولا محالةَ أحدُهُما أقوى من الآخر بحالٍ، كما لا يلزم أن يكون القوي بالضرورة على جانبِ الحقِّ في صراعهِ مع الضعيف. وهذا يستوجب على أمَّةِ الإسلامِ أن تقفِزَ إلى القمَّةِ في التَّفَوُّقِ العلمِيّ والحضارِيّ لِتَمْتَلِكَ القدرةَ والغلبَةَ، وتحافظَ على مكانتِها في مركزِ الصدارةِ بين سائرِ الأُمَمِ، كما كانتْ في قرونِها الذهبِيَّةِ، لألاَّ تتخذَها أمةٌ أخرى غَرَضًا تتلاعبُ بها، كما هي الحالُ في الوقتِ الراهِنِ. ولا يفوتُنَا الإنتباهُ إلى أنَّ القوَّةَ تُوَلِّدُ الغطرسةَ والطغيانَ، وتدفعُ –بمن يحظى منها– إلى مغالبةِ الضعيفِ، وهو يتأهَّب للإنقضاضِ عليه

[8] http://blogs.najah.edu/staff/yahya-jaber/profile

اعتمادًا على ما يتمتَّعُ به من المقدرةِ والبأسِ، ويتربَّصُ به لإرغامِهِ وإخضاعِهِ واستخدامِهِ في تحقيق مَئَارِبِهِ. وإلى هذه الحقيقة إشارةٌ في قوله تعالى: "كَلاَّ إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى."[9]

الهدفُ من الغزو الثقافيُّ هو إحتلالُ العقلِ والضمير، بخلافِ الغزوِ الْعَسْكَرِيّ الذي هدَفُهُ في أغلبِ الأحوالِ هو احتلالُ الأرضِ. لذا فإنَّ الغزوَ الثقافِيَّ أشدُّ خُطورةً من الغزوِ العسكرِيِّ، لانتهاجِهِ طُرُقًا مُلْتَوِيَةً وأساليبَ ماكرةً وغامِضَةً في إرباكِ العقلِ، وتشويشِ المشاعرِ، بتمييعِ المفاهِيمِ وإلْباسِ الحقِّ بالباطلِ على العوامِّ والسُّذَّجِ بخاصّةٍ.

إنما تكمُنُ خُطورةُ الغزوِ الثقافِيِّ في سِرِّيَّتِهِ وغموضِهِ في بداية أمره؛ فالأُمَّة أو الدولةُ العدُوَّةُ تمارسُ كُلَّ ضروبِ الخداعِ، وتلجأ إلى استخدامِ أشكالٍ مُعَقَّدَةٍ من الكيدِ والمكرِ والحِيلةِ، بِهدوءٍ وصبرٍ ورِفْقٍ وملاطفةٍ، وقد تقفُ مِنْ الأُمَّةِ الفريسةِ موقفَ الأمةِ الصديقةِ بتصرُّفاتِها الخادعةِ، فتسعى إلى الإتصالِ بأفرادِ هذه الأمةِ الْمُسْتَهْدَفَةِ (ونعني بها الأمةَ المحمَّدِيَّةَ في هذا البحثِ) تتصيَّدُ مَن يصلُحُ للعَمَالَةِ لها من أبناءِ الأمةِ المسلمةِ، وذلك بواسطةِ شبكاتِها التبشيرية والإستشراقِيَّةِ والإستخباراتِيَّةِ والجاسوسيَّةِ والتضليلِيَّةِ، ثم تقومُ هذه الشبكاتُ بانتقاءِ نُخْبَةٍ منهم، خاصةً مَنْ يَتَّسِمُ من بينهم بالذكاءِ الوقادِ، والدهاءِ، والإبداعِ، والمرونةِ، واللَّباقةِ، والمنافسة، والطمعِ في الثراءِ السريع، والرغبةِ في الشهرة والتَّفَوُّقِ... حتى إذا حصل العدُوُّ على عددٍ كبيرٍ من مرضى النفوسِ والمنافقين من هؤلاءِ العناصِرِ، فيباشرُ بتدريبِهم وتسْخِيرِهم في توجيهِ بقيةِ أفرادِ أمة الإسلامِ. بعد ذلك تبدأ مرحلةُ إنتاجِ مصطلحاتٍ جديدةٍ للقضاءِ على المصطلحاتِ القديمةِ، وتشويهِ العقيدةِ، وتدميرِ الأخلاقِ الفاضلةِ، وإفسادِ السلوكِ والتصرفاتِ. يتمُّ عَبْرَ هذه المحاولاتِ إلغاءُ مفهومِ الصوابِ وَالْحَقِّ من العقول، وزعزعةُ القِيَمِ الرفيعةِ (مثل الحياءِ، والعَفَافِ، والثقةِ، والإيثارِ، والصدقِ والأمانةِ والأناةِ، والمروءةِ، والوقارِ، والحلمِ، والمودَّةِ، والصبرِ، والتواضعِ، والقناعةِ، والاعتدالِ، والرفقِ، والعدلِ، وغيرها من الفضائل الإنسانية.) بل عُمَلاَءُ الغزوِ الفكرِيِّ (في الداخل) يحتالون على الناسِ بتغيير هذه القِيَمِ وتهوينِها في النفوسِ، وشحنِ العقولِ بأضدادِهَا، عَبْرَ دعاياتٍ مُكَثَّفَةٍ وبطريقِ غسلِ الأدمغةِ، حتى يتمَّ محوُها في نهاية المطاف.

إن أيَّ دولة تتأهَّبُ للسيطرةَ على شعبٍ دون أن تُكَلِّفَهَا، تختارُ في مرحلةِ استعدادِها أسَالِيبَ الحربِ الفكريَّةِ هكذا، وتُفَضِّلُهَا على أساليبِ الحربِ العسكرِيَّةِ، فتقومُ بتعبئةِ أجهزتِها الجاسوسِيَّةِ

[9] العلق/7، 6.

وتوجيهها للنفوذِ إلى قلبِ هذا الشعبِ المستهدَفِ، وإذا تمكّنتْ من التَّحَكُّمِ على مؤسَّساتِهِ من الدِّينِ، والتعليمِ، والتجارةِ، والإقتصادِ، وغيرِها من مختلفِ مجالاتِ حياتِهِ، تبدأ هذه الشبكاتُ الخطيرةُ تدُبُّ بين صفوفِهِ وتمتدُّ عبرَ شرايينِهِ الإستراتيجيةِ، وقنواتِهِ السياسيةِ والقضائيةِ والعسكريةِ بطرقٍ خفيّةٍ، لتنهشَ جسدَهُ بهدمِ عقيدتِهِ، وتدميرِ عقليَّتِهِ، وإلغاءِ شخصيَّتِهِ، وإخفاءِ معالِمِ الأصالَةِ والقوةِ فِيهِ؛ لكيْ تُحَقِّقَ سيطرتَها الشاملةَ عليه، فتنجحَ في صهرِهِ، وتغييرِ طبيعتِهِ، وتحطيمِ تكوينِهِ الإجتماعِيِّ، إلى حدٍّ يتحوّلُ (ذلك الشعبُ) إلى آليةٍ في يدِها تستخدمُهُ كيف تشاء.

إنَّ الغزوَ الثقافِيَّ داءٌ عِضَالٌ إذا أصيبَ بِها شعبٌ لا يلبثُ حتّى تتفكَّكَ أوصالُهُ، وينهدِمَ نظامُهُ، ويتَدَهْوَرَ اقتِصادُهُ، فيغدوَ شعبًا هزيلاً، يبدأُ الإنشقاقُ في صفوفِهِ، فتتحاربُ فصائلُهُ وأحزابُهُ، ويتناحرُ أبناؤُهُ، ويسودُ الْفِتَنُ على أرجاءِ وطنِهِ، كما هي الحالُ في أغلبِ بلادِ المسلمين، وبراهين ذلك أكثر من أن تُحصَى من خلالِ ما جرى أيامَ الربيعِ العربِيِّ، وقد تحوَّلَ إلى فتنةٍ عامَّةٍ اجتاحتْ منطقةَ الشرقِ الأوسطِ. ذلك أنَّ الخِلْفَ المسيحيَّ–الصهيونِيَّ العالميَّ قد نجحَ في الإستيلاءِ على هذه المنطقةِ بطريقِ السيطرةِ على عقولِ المسلمين، وترسيخِ مفاهيمِهِ وعقلِيَّتِهِ في نفوسِهِمْ، وقد أصبحَ المسلمون (والأكثريةُ الْمُسْلُمَانُ في تركيا بخاصّةٍ) يَنْبَهِرُونَ بأنماطِ الحياةِ لأهلِ الغربِ وثقافتِهِم، وسلوكِهِمْ، وتصرُّفاتِهِمْ، وعاداتِهِمْ؛ ويكرهون الكثيرَ مِما تَوَارَثُوا من آبائِهِمْ وأسلافِهِمْ في المأكلِ والملبسِ والزواجِ والعُشْرةِ والتعامُلِ والتفاعُلِ والإحتفالِ وغيرِها...

لقد تعرَّضَ المجتمعُ الإسلامِيُّ للغزوِ الفكرِيِّ منذ بدايةِ عصرِ الفتوحاتِ، إذ كانت الأُمَّةُ في عنفوان شبابِها. حدثتْ هذه المفاجأةُ بالتحديد فورَ ضمِّ المنطقةِ الفارسية إلى الوطنِ الإسلامِيِّ. فبدأتْ الثقافةُ الفارسيةُ تُزَاحِمُ الثقافةَ العربيَّةَ باستغلالِ الأدبِ العربِيِّ في أغراضٍ سياسيَّةٍ ودينيَّةٍ. ولا شكَّ في أنَّ مُعْظَمَ الشعبِ الفارسِيِّ المجوسِيِّ لم يعتنقوا الإسلامَ يومئذٍ عن طيبةِ نفسٍ ورغبةٍ منهم، بل عن كراهيةٍ ونِفاقٍ، وما أدلَّ على ذلكَ مقتلُ أميرِ المؤمنين عمرَ بْنِ الخطاب على يدِ أبي لُؤْلُؤَةَ الفارسِيِّ المجوسِيِّ، كما يدلُّ على هذه الحقيقة ظهورُ الحركةِ الشعوبيَّةِ بأقلامِ أُدَبَاءَ مستعربين من الفرسِ، واندلاعُ فتنةِ القَرَامِطَةِ التي أثارَتْها جماعةٌ من دجاجلة الفُرْسِ... ومن الصعوبة بمكان حصرُ هذه الأمثلةِ لكثرتِها. كلُّ ذلك يدلُّ على الكراهيةِ المتأصّلةِ في الإنسانِ الفارسِيِّ ضِدَّ الإسلام الصحيح، والأمةِ العربيَّةِ.

لا يخفى أنَّ بُغضَ الشعبِ الفارسيّ للعربِ قديمٌ؛ ذلك أنَّ الفرسَ لما انهزموا أمام الجيش الإسلاميّ في نهاوَند، وقُتِلَ مَلِكُهُمْ يَزْدجَرْدُ الثالثُ، وقُضِيَ على دولتهم عام 651م. احترقوا غضبًا وامتلؤوا حقدًا على قادةِ الدولةِ الإسلاميَّةِ وعلى رأسِهم الخليفةُ الراشدُ عمرُ بْنُ الخطابِ ﷺ، ولَمَّا بدأ الشتاتُ يدبُّ في صفوفِ المجتمعِ الإسلاميّ أيَّامَ الحروبِ التي جرتْ بين عليٍّ ومعاوية، ظهرتِ السلبياتُ الأخلاقِيَّةُ في سلوكِ المسلمين وتصرُّفاتِهم ومواقِفِهم، فكان أوَّلُهَا العنصريَّةَ العربيَّةَ، ذلك أن طائفةً من عوامِّ العربِ وأهلِ القبائلِ والبدوِ تَوَهَّمُوا أنَّ الدَّمَ الذي يجري في عروقهم هو دمٌ عربيٌّ أصيلٌ، فنظروا إلى غيرهم من الشعوب نظرةَ السيِّدِ للمسودِ، فقالوا بأفضليةِ العربِ على غيرهم، ممّا أثر في نفوسِ الأعاجم والموالي من التركِ والصُّغْدِ والصقالبة والديلم والفُرْسِ. لكنَّ الفرسَ بخاصةٍ أخذَتْهم العزةُ والحميَّةُ أكثرَ من غيرهم، فتحرّكت في بواطنهم بوادرُ الرفض والاستنكار لِمَا كانَ لهم في سالِفِهِمْ دولةٌ ذاتُ سطوةٍ وحضارةٍ عريقةٍ. فمكروا من الداخل بعد أنْ غُلِبُوا من الخارج، فاتَّخذوا مِن الاسلامِ ذريعةً كما استغلُّوا أولادَ الحسين بن عليٍّ من الأسرةِ الهاشميَّةِ، فَطَوَّرُوا ألوانًا من الفنون الأدبيَّةِ والمؤسَّسَاتِ الدينية من مُنْطَلَقِ هذا الإستغلالِ العاطفِي، وأحدثوا أشكالاً من البدعِ والأساطير لِيُعَبِّروا بها عن أحزانِهم وآلامِهم على مقتلِ علي بن أبي طالِبٍ (599-660م.) وولَدِهِ الحسين (626-681م.) رضي الله عنهما. وإنما تظاهروا بِأفاعيلهم هذه لتشويهِ العقيدةِ الحنيفةِ وضربِ الإسلامِ من قلبه. إذ كانوا يتحسَّرون على انهيارِ امبراطوريتهم، ويتربَّصون دائمًا للإيقاعِ بالعربِ في العهدِ العباسِيّ، ويتحيَّنون الفرصةَ للإنقضاضِ على الحُكَّامِ العباسيّين لأجلِ الإنتقامِ والثّأرِ لدولتِهِمْ. يرون العربَ رعاعًا وأوباشًا تكالبوا عليهم بالسلبِ والنهبِ والتخريبِ، وأنَّهُمْ استَوْلَوْا على أوطانهم، وأمْلَوْا عليهم دينهُمْ. فاندسَّت في صفوفِ الأُمَّةِ نُخبةٌ من أُدَباء الفُرْسِ وشعرائِهم وكُتَّابِهم البارعين وبدؤوا ببثِّ سمومِهِمْ في عروقِهَا متظاهرين بِلِبَاسِ "المحبَّةِ لأهلِ بيتِ الرسولِ عليه السلام، والتفاني فيهم" فانتشر الفسادُ المنبَثَقُ من الحقدِ الفارسِيّ والنفاقِ المجوسِيّ المتمثّلِ في "المذهب الشيعِيّ"، واختلطَ بالفكرِ والرأيِ والعقيدةِ والعاداتِ على مختلفِ أرجاءِ الوطنِ الإسلامِيّ.

كذلك حدثتْ آثارٌ سلبيَّةٌ للفرسِ على اللغةِ العربِيَّةِ وأدبِها، وتسرّبَتْ ألوانٌ منْ شَطائيَّاتِهم وأشكالٌ من سخافاتِهم ومتاهاتِهم ومراوغاتِهم إلى حياة العربِ المجاورين للمنطقة الفارسيةِ في العراقِ والخليج العربِيّ على وجهِ الخصوص. لقد سرى تأثيرُ أساليبِ التعبيرِ للشعبِ الفارسِيّ في ضروب الإفادةِ والأداءِ عند العربِ. لهذا السبب الأساسِيّ فشتِ العامِّيَّةُ في المجتمعاتِ العربيةِ في وقتٍ مبكّرٍ، غادرت العربيةَ سَجِيَّتُهَا التي عُرِفَتْ بها في صدرِ الإسلامِ، فانتشرَ اللَّحْنُ في حديث العوامِّ، تشوَّهَ

النطقُ بألفاظِ لُغَةِ الضادِ تحت وطأةِ اللُّغتين الفارسيَّةِ والتركيَّةِ خاصةً (كتضخيم الألفِ والمبالغةِ في مدِّهَا) بالإضافة إلى ما انحدرَتْ من لُغاتِ بعضِ الأقوامِ البائدةِ كالأكاديين والمندائيّين وغيرهما.

قديمًا كان لِلْفُرْسِ وَلَعٌ بالمبالغةِ والإفراطِ العاطفِيِّ، ومجاوزةٌ للحدودِ في المدحِ والذَّمِّ. ولَمَّا اتَّفق أنْ تزوَّجَ الحسينُ بْنُ عليٍ رضي الله عنهما من (شَهْربَانُو) أو (شَاهِ زَنَان) بنتِ يَزْدجَرِدْ ملكِ الدولةِ الساسانيَّةِ في عهد عمر بن الخطابِ ﷺ، أتاحت لهم فرصةُ استغلالِ هذه الصلةِ فاتَّخذوا منها ذريعةً لنسج المؤامراتِ وبثِّ الْفِتَنِ وتخطيطِ الدسائسِ ضِدَّ النظام الذي كان زمامُهُ يومئذٍ في يدِ العربِ. ثُمَّ تسلَّلَ شخصيّاتٌ فارسيَّةٌ داخِلَ صفوفِ الأُمَّةِ في العهد العباسِيِّ فأكبّوا على مدارسة اللغةِ العربية وأدبِهَا في بداية الأمر، لأنهم عرفوا أنَّها الآلةُ الأساسيةُ للتخاطُبِ والحوارِ والعلاقاتِ البشريَّةِ في جميعِ مناحي الحياةِ، فأهتمّوا بتطويرِهَا وابتكروا أساليبَ جديدةً في تأليفِ فروعها من صرفٍ ونحوٍ وبلاغةٍ، حتى صدرت بأقلامهم رُكَامٌ من الْكُتُبِ في مختلفِ العلومِ من تاريخٍ، وسيرةٍ، وقِصَّةٍ، وطبٍّ وفلسفةٍ، وهيئةٍ وغيرِها. لكنَّهم استخدموا مُعظمَ هذه العلوم لتعويقِ المسلمين عن فهمِ الكتابِ والسنةِ فهمًا صحيحًا؛ كتوغُّلِهم وتعمُّقِهم في تفاصيل اللغةِ العربيَّةِ بتصعيدهم لها من حكمِ الوسيلة إلى حكم المقصودِ حيث أدى هذا الإنحرافُ إلى الفسادِ في التعليم. كما انتهجوا الأسلوبَ الكلامِيِّ والفلسفِيِّ في شرح مسائل العقيدة، بل اتَّخذوها وسائلَ ماكرةً لتضليلِ الأمةِ. فكان من عواقبِها التهاونُ بالضوابطِ العلميَّةِ، والتحريفُ للقِيَمِ الرفيعةِ، وبثُّ الدعوةِ المذهبِيَّةِ، حتى أصبح الإنتحالُ والتقوُّل والتدليسُ في الرواية من الأمور الشائعة. فانتشر الدجلُ والتصوفُ على لسان المنتحلين من رجال الدِّينِ ذوي العمائم، إلى أن اختفتْ شخصيَّةُ الرجل العالِمِ وحلَّ محلَّها شيوخُ الطُّرُقِ الصوفية، والآياتُ، والخواجوات، والملالي الذين كانوا فيما سبق، ولا يزالون إلى اليومِ رموزَ التضليل؛ يتلاعبون بالعقولِ، ويُحَرِّفونَ الكلِمَ عن مواضعه، يُلْبِسُونَ الحقَّ بالباطلِ والصدقَ بالكذِبِ، ويدفعون الشبابَ للافتتانِ بالمذهبيَّةِ والعصبيَّةِ الْعِرْقِيَّةِ، والتناحُرِ والاقتتالِ، كما هو الحالُ على الأراضي السوريةِ والعراقيَّةِ والتركيَّةِ، بل وفي عمومِ منطقةِ الشرقِ الأوسط.

لا شكَّ في أنَّ الأعاجِمَ الذين اعتنقوا الإسلامَ أيامَ الفتوحات، لم يتخلَّوا بشكلٍ كاملٍ عن معتقداتهم وعاداتهم وثقافاتهم، ولا عن مطامِعِهِم الْمُبْطَنَةِ، بل توافدتْ هذه الرسوبات النفسيَّةُ مع أصحابِها إلى الساحةِ الإسلاميَّةِ واجتمعتْ بما جاء من المنطقة الهندِيَّةِ عن طريق التجار والسُّيَّاحِ والدراويش والجواسيس من الأفكارِ الدخيلة عبر القرون، فانْصَبَّ كُلُّ هذا الركامِ في ضمائرِ الغالبيَّةِ من المجتمعِ الإسلامِيِّ، وبدأ يُهَدِّدُ العقيدةَ الحنيفةَ، مما أثارَ القلقَ والحَمِيَّةَ في نفوسِ جماعةٍ من العلماءِ والدعاةِ

الغيورين، فانبَرَوْا للدفاعِ عن القِيَمِ الساميةِ، إلاَّ أنَّ أغلبَ هؤلاءِ العلماءِ والدعاةِ لم يتَّسِمُوا بمعرفةٍ واسعةٍ حولَ ثقافاتِ مِلَّةِ الكفرِ وفلسفاتِهم وحياتِهم الاجتماعيَّةِ. فأورثوا أخلافًا تَحَوَّلُوا بعد قرون إلى مسوخٍ من البشر في لباسِ رجالِ الدِّينِ والرهبانِ، لكنَّ الإسلامَ لا يعترفُ بوجودِ هذهِ الطبقةِ العاطلةِ المعطِّلَةِ بين معتنقِيهِ أبدًا. لذا لم تكن ردودُ علماءِ الإسلامِ على الفلسفةِ اليونانيَّةِ عنْ رَوِيَّةٍ في الغالِبِ، ولاَ مُقْنِعَةً وشافِيَةً، كما لم تكن رادعةً للتيارات الصوفية في عصور الظلامِ، ولا للموجاتِ الإلحادية العلمانيَّةِ في أيامنا. ظلوا عاجزين في وجهِ الملحدين من الوجوديِّين، والحلوليِّين، والدهريِّين، والقائلين بالتناسخ.. بل خاضوا في جدالِ الزنادقة من الكلاميين والأشاعرةِ والجهمية والرافضة فحسب، فلم يَعُدْ أسلوبُهم بفائِدَةٍ جَمَّةٍ يحتمي بها الجيلُ المعاصرُ في وجهِ تحدِّياتِ أُمَّةِ الكُفْرِ وهجماتِها الفكريَّةِ والثقافِيَّةِ والأيديولوجية التي تُمَهِّدُ لها السبيلَ لاحتواءِ أُمَّةِ الإسلامِ في يومنا.

ولما دخلتْ الدويلاتُ الإسلاميَّةُ في الصراع مع الغربِ أيَّامَ الحروبِ الصليبيِّةِ قرابةَ قرنين من الزمن (**1096–1291**م)، وقد أنهكَتْهَا الخلافاتُ السياسيَّةُ والمذهبِيَّةُ من قبلُ وأصابَتْهَا نكباتٌ وكوارِثُ مُدَمِّرَةٌ عقب سقوطِ الخلافةِ العباسيَّةِ على يدِ هولاكو المغولي بالتعاون مع ابن العلقمي الرافِضِيّ، وسقوطِ الأندلس في قبضةِ نصارى الإسبان، بدتْ أزمةُ الثقة بالنفسِ في الأمةِ بعد هذه الهزائم الخطيرة، فاختفتْ القِيَمُ الساميَةُ والمبادئُ العلميةُ، والفضائلُ الإنسانيّةُ في المجتمعِ الإسلامِيّ، وعَمَّ الفوضىَ في الدِّين والثقافةِ والسياسة والأخلاقِ، ودخلتْ الأُمَّةُ في مرحلةٍ من الثُّباتِ العميقِ دامت قرونًا، وسيطرتِ الجمودُ والركودُ على عقولِ المسلمين فباتوا غرقى في السكون والركون، تحوَّلَ العلماءُ إلى طائفةٍ من الرهبانِ، وعلماءِ السوءِ، فعادوا خاملين، قابعين على أنفسهم بقلوبٍ فارغةٍ لا يُحَرِّكُونَ ساكنًا ولا يشعرون بمسؤوليَّةٍ، بل صاروا أبواقًا للحكام الطغاةِ والظلمةِ... فلم تعد الأُمَّةُ بعدَ ذلك قادرةً على لَمِّ شَعْثِهَا حتى في العهد العثماني الذي يمتازُ بالقوَّةِ العسكرية، واستِأْنَافِ الفتوحاتِ، واستتبابِ الأمنِ في الداخل، إلى أنْ استيقظ الغربُ من نَوْمَتِهِ عَقِبَ الثورةِ الصناعيَّةِ، وانتعشَتْ أوروبا بعد انعتاقِهَا من أسرِ الكنيسَةِ، بدأ الزحف الإستعمارِيُّ الغربِيُّ مصحوبًا بأشكالٍ من المكائد والحِيَلِ والمؤامرات، وأشدُّها خطرًا كان الغزوَ الثقافِيَّ.

باشر الغربيون بحملةِ الكشوف الجغرافِيَّةِ كخطوةٍ تمهيديَّةٍ للزحفِ الإستعمارِيّ والاستيلاءِ على الوطن الإسلامِيّ في مطلعِ القرنِ الخامسَ عَشَرَ، كان في طليعتهم البرتوغاليون الذين اكتشفوا سواحل أفريقيا الغربِيَّ. ثم تابعَتْهَا الكشوفُ الأسبانيةُ، والفرنسِيَّةُ، والإنجليزيَّةُ حتى توغلوا في مختلف مناطق أرض الإسلامِ فسيطروا عليها. كانتْ لهذه الكشوفِ عديدٌ من الأهدافِ أهمّها قهرُ

المسلمين وإزلاَلُهم بطريقِ سَلْخِهِمْ عن الإسلامِ ونشرِ المسِيحِيَّةِ في بلادِهم، وفرضِ أنماطِ الحياةِ الغربِيَّةِ وعقلِيَّتِهَا وتشريعاتِهَا عليهم.

ولَمَّا تمكَّنَ الغربيُّون من الزحفِ على بعضِ المناطقِ العربيَّةِ، رَكَّزُوا اهتمامَهم بعدَ ذلك على إضعافِ الدولة العثمانيَّةِ أولاً بطريقِ الإمتيازاتِ، ولكنَّ استخدامَهُمْ الحملةَ الإستشراقِيَّةَ كانتْ أشدَّ وطأةً وتأثيرًا في حربِ المبادئِ والعقيدةِ والقِيَمِ، وتمييعِ الحقائقِ وتحريفِها... خاصةً إقْدَامُهُمْ على إرسالِ البعثات لتنقيب المناطق والمباني الأثرية، وتوظيفُهُمْ لخبراءِ الآثار والحفريات كانت محاولاتٍ ماكرةً لطمسِ الهوية الإسلامية واختلاقِ هوياتٍ مزعومةٍ مزوَّرةٍ في المنطقة، أرادوا بذاك تشويشَ أفكارِ المجتمعاتِ الإسلامية بهدفِ تمهيد الوسطِ لتغريبها عبر تدريج زَمَنِيّ تُمَكِّنُهُمْ من تحقيقه دون عائق. هذه المحاولاتُ المضلِّلةُ فتحتْ لهم الأبوابَ على مصاريعِها للاتّصالِ بالطبقةِ المثقَّفةِ، كما سَهَّلَتْ لَهُمْ فيما بعدُ أسبابَ التواصُلِ مع العامَّةِ، بَدَأَ بعد ذاك الزحفُ الفكريُّ فكانتْ حربًا سِلاحُها القلمُ والكتابُ، والدَّجَلُ والتحريفُ، والدعايَةُ وغسلُ الأدمِغَةِ... وهدفُهَا تدميرُ الثقافةِ الإسلامِيَّةِ، وإماتَةُ القلوبِ والضمائر.

إنَّ مُحاولات الغربِ لسَلْخِ الأمة عن دينها وقِيَمِها وماضيها، تمهيدًا لدفنها في حاوية التاريخ، مشروعٌ خطيرٌ تعودُ بوادرُها إلى حقبةٍ من الزمن لا تقل عن ثلاثة قرون فأكثر قبل هذا العصر. تباحثوا وفتشوا بادئ بدءٍ[10] عمنْ يمكنُ أنْ يُوَظِّفُوهُمْ مِنَ الْخَوَنَةِ ومَرْضَى النفوسِ، فاكتشفوهم؛ اختاروا عناصر يتمتَّعونَ بالوجاهة والمنصبِ والمكانَةِ من العلماءِ، والأُدَبَاءِ، والْكُتَّابِ، والتجَّارِ، والمفكِّرين، والْمُثَقَّفِين، والمؤلِّفين، والسياسيِّين، والإعلاميِّين، ورجالِ العملِ، والأثرياءِ، وشيوخ الطرق الصوفِيّةِ... عثروا هكذا على شريحةٍ من أصحابِ الكلمة النافذةِ ذوي النفوسِ الضعيفة في المجتمع الإسلامِيّ، فمكَّنُوهُمْ من إشباعِ مطامِعِهِمْ ثم جنَّدوهم في خدمةِ أهدافِهِمْ، فتحوَّلَ هؤلاءِ إلى جنودِ الغَزْوِ الفكرِيّ ودُعاةِ التَّبعيَّةِ والتغريبِ، فَرَكِبُوا الموجةَ التي استثارها الغربُ، وكَفَوْهُ مؤونةَ الهدمِ والتخريب. لذا، لم يواجه الغربيُّون عقبةً في الإستيلاءِ على النفوسِ والضمائرِ، بعكسِ ما فوجئوا به في ميادين الجهادِ الْمُسَلَّحِ. انتهجوا الخفاءَ والنفاقَ والمرونةَ والرفقَ، فلم تَشْعرْ عامَّةُ المجتمعِ بِنَوَايَاهُمْ وتَجَسُّسَاتِهِمْ وأهدافِهم أيامَ استعداداتهم وعند أُولَى خطواتهم.. لَبِسُوا جلودَ الضأنِ على قلوبِ

[10] لم أقل "بَادِئَ ذِي بَدْءٍ"، كما شُغِفَ بها كثيرٌ من الكُتَّابِ، إذ قولُهُم: "بَادِئَ ذِي بَدْءٍ"، لَحْنٌ لا مُسَوِّغَ لَهُ عند اللغويين، وحَشْوٌ في الكلام تنبو عنه لغة العرب، وتترفَّعُ عن احتضانِ مثلِ هذا التّدنِيّ في صِيَغِ الكلامِ . وإنما الصوابُ هو: (بَادِئَ بَدْءٍ).

الذءابِ، تظاهروا باڂِلْمِ وَالأَناةِ وفي صمتٍ، تحركوا بالصبرِ وبخطواتٍ هادئة... لكنهم كيف تصرّفوا وماذا عملوا؟

استطاع عملاؤُهُم الْمَحَلِّيُّونَ في بداية أمرهم أن يَتَسَلَّلُوا إلى المؤسساتِ التعليميَّةِ (وذلك بالتعاون مع أسيادهم في الخارج). وكان أوَّلُ ندائِهِمْ الدعوةَ إلى الحُرِّيَّةِ. ذلك لأنَّ الإنسانَ لا يتَّسِمُ بالكرامةِ إلا إذا كان حرًّا، كما لا يمكنُ النهوضُ والتقدُّمُ والازدهارُ لأيّ مجتمعٍ إلاَّ إذا كان حرًّا.. ولَمَّا كان عملاءُ الغربِ قائمين بالدعوةِ إلى هذه البُغْيَةِ الغاليةِ –التي يَتَشَوَّفُ إليها كُلُّ إنسانٍ عزيزِ النفسِ، ولا يَطْلُبُ تَحَوُّلاً عَنْهَا، إِذْ هِيَ أَعَزُّ مِنْ أَنْ يَطْلُبَ غَيْرَهَا، أَوْ تَشْتَاقَ نَفْسُهُ إِلَى سِوَاهَا–، تَقَبَّلَ الناسُ دعوتَهُمْ برغبةٍ فائقةٍ خاصَّةً، لأنَّ المجتمعَ كان يعاني قهرَ الإستبدادِ في أواخرِ العَهْدِ العثمانِيّ. ولاَ شكَّ في أنَّ الإنسانَ المقهورَ يستحيلُ أن يُكِنَّ في صدرِهِ الولاءُ والإخلاصُ لقاهرِهِ أو لِوَطَنٍ يعيشُ فيه محرومًا. هذا الذي جعل المجتمعَ يَنْقَمُ من السلطان عبد الحميد، ويكرهُ سُلْطَتَهُ، إذ كان مستبدًّا بالحكم، لم يذُقْ معظمُ الرعايا طعمَ الحرِّيَّةِ في عهده. وما أدلَّ على هذه الكراهيةِ ما ورد على لسانِ شاعرٍ من مشاهير أدباءِ الأتراك مُحَمَّد عاكف أرصوي في مقطعٍ من قصيدته (باللغة التركية).[11]

---

[11] هذه كلماتُهُ نقلتُها إلى العربية نظْمًا (من بحرِ الكاملِ) قَدْرَ الإمكانِ، معترفًا بما يَتَخَلَّلُ الترجمةَ مِنَ عيوبِ، لأني لستُ شاعرًا، والعذرُ عند كرامِ القومِ مقبول (المؤلّف).

رَايَاتُنَا كَانَتْ تُرَفْرِفُ فِي الأَعَالِي جِئْتَ رَمَيْتَهَا
وَجَعَلْتَ يَخْجَلُ الأَحْفَادُ أَمَامَ أَبَاءٍ يَرْجُونَ مَفَاخِرا
قَدْ كُنَّا أُمَّةً تَسْمُو وَتُشْرِقُ عِزُّهَا فَأَهَنْتَهَا
يَا خَيْبَةَ الآمَالِ يَاكَابُوسُ مَحَوْتَ رَجَائَنَا لِلْمُقْبِلِ
غَدَوْنَا الْيَوْمَ يَضْحَكُ مِنَّا الْعَالَمُ ضَحْكًا سَاخِرا

***

لَمْ تَلْقَ نَاصِيَةً تَلْمَعُ عِفَّةً وَتُومِضُ نورا
إلاَّ اتَّهَمْتَهُ بِالْجِنَايَةِ وَابْتَغَيْتَ لَهُ أسْرًا فِي غُرْبَةٍ
وَكَّلْتَ لِكُلِّ إِنْسَانٍ رَقِيبًا يَرْقُبُهُ غَيْبَةً وَحُضُورا
وِرَمَيْتَ أَبْطَالَ الرَّعِيَّةِ فِي غَيَاهِبِ خَيْبَةٍ وغُمَّةٍ
كم أنت ملعون، ومرحبًا بإبليسَ وإن كنتُ مقهورا

وهذه تص كلماته باللغة التركية:

Semâ-peymâ iken râyâtımız tuttun zelîl ettin ;
Mefâhir bekleyen âbâdan evlâdı hacîl ettin ;
Ne âlî kavm idik; hayfâ ki sen geldin sefil ettin ;
Bütün ümmîd-i istikbâli artık müstahîl ettin ;
Rezîl olduk... Sen ey kâbûs-i hûnî, sen rezîl ettin!

Hamiyyet gamz eden bir pâk alın her kimde gördünse ,
"Bu bir cânî!" dedin sürdün, ya mahkûm eyledin hapse .
Müvekkel eyleyip câsûsu her vicdâna, her hisse ,
Düşürdün milletin en kahraman evlâdını ye'se ...
Ne mel'unsun ki rahmetler okuttun rûh-i İblîs'e!

هذا الذي مَكَّنَ الغربَ من استمالة المجتمع العثمانيّ بنشرِ دعاياتٍ بَرَّاقَةٍ مُزَخْرَفَةٍ إلى نظامٍ يَتَمَتَّعُ الناسُ بالْحُرِّيَّةِ في ظِلِّهِ، فَدَفَعَهُ إلى أحضانِ (حزبِ الإتحادِ والترقّي) الذي افتضحَ فيما بعد أنه صنيع اليهودِ، والذي سعى بالعمالة للغربِ، والتعاون معه لهدم الدولة العثمانية، كما كان له دورٌ كبيرٌ في تفجيرِ الحربِ العالمية الأولى، وتشتيتِ شملِ الأُمَّةِ وانْصِبَابِ الويلاتِ عليها. هكذا يتخفى جنودُ الغزوِ الفكريِّ وراءَ الدعوةِ لأحبِّ شيءٍ إلى الإنسانِ: ألاَ وهي الحرِّيَّةُ.

كانت هذه أولَ خطوةٍ نجحَ العملاءُ بها في توجيهِ الشباب وترويضهم، فبدئوا في الخطوة الثانية بإثارةِ انتباهِ الناشئة إلى "حاجزٍ يمنعهم من ممارسة حرياتهم"، فأشاروا إليه "أنَّه هو الدِّينُ"، وأخذوا يوجِّهونَ سهامَ الطَّعْنِ في الإسلامِ عند كُلِّ فرصةٍ أتاحت لهم، مع التركيزِ على "أن الدِّينَ عَقَبةٌ إذا خرج من المسجد والمقبرة وتَسَرَّبَ إلى مجالاتِ الحياةِ وخالَطَهَا!" لكنَّهم استخدموا مع ذلك لباقتَهُمْ في تهدئةِ المشاعر ومُدَارَاةِ المتديّنين وملاطفتِهم كُلَّمَا اصطدموا باستنكاراتهم واحتجاجاتهم.

وفي الخطوةِ الثالثة: اهتَمَّ الغربُ بتوجيهِ الأذواقِ وتطبيعِها في المجتمعِ الإسلاميِّ على كُلِّ الأصعدة السياسية والاقتصادية والإجتماعية. فانتشر التقليدُ الأعمَى لأهل الغربِ والتَّشَبُّهُ بهم في المأكَلِ والمشرَبِ، والْمَلْبَسِ، والْمَسْكَنِ، والأثاثِ، والتعليم، والزينة، وقصِّ الشعرِ، وفي مختلفِ السُّلُوكِيَّاتِ والتعامُلِ والنشاطاتِ والعلاقاتِ البشريَّةِ، وحتى في تشييعِ الجِْنَازَةِ... لكنَّ الغزوَ الفكريَّ جاءتْ بإشكالِيَّةٍ عويصةٍ أربَكتِ الأمةَ في دوَّامةٍ من الأزدواجيةِ؛ ظلَّ المحافظون منها (وهم الأكثريَّةُ) يرفضُون الحضارةَ الغربيَّةَ من جهةٍ، ويكادُ جميعُهُمْ يعترفُون بمنجزاتها مع الإنبهارِ بها من جهةٍ أخرى. لأنهم لا شكَّ يحتاجُون إلى استخدامِ التقنيةِ الغربيةِ في مُعظمِ مجالاتِ حياتهم، بلْ يستحيلُ رفضُها لأقلِّ شيءٍ من هذه التقنيةِ، فبقيَ العالَمُ الإسلامِيُّ مُذَبْذَبًا بين كراهيةِ الغربِ والإعجاب به، وهذا أمرٌ في منتهى الغرابة كما هو دليلٌ على أنَّ "الأمةَ الإسلامِيَّةَ" مهزومةٌ، مهضومةٌ، مقهورةٌ.. لهذا ويا للأسفِ تضحك أمةُ الكُفْرِ اليومَ من أُمَّةِ الإسلامِ (؟) وتقول في استهزاءٍ: "يا أُمّةً ضَحِكَتْ مِن جَهلِها الأُمَمُ"!

إنَّ التقليدُ الأعمَى صفةُ نقصٍ تَنُمُّ عن الانهزامِيَّةِ وضعفِ الشخصيَّةِ، ومن أهم أسبابه: انتفاءُ الثقة بالنفسِ، يدلُّ على ذلك؛ أنَّ شعوبَ الدولِ الضعيفةِ تحرصُ في الغالبِ على التشبُّهِ بشعوبِ الدولةِ

القوية في شتى مناحي الحياةِ حتى في ارتداءِ اللباس، وطريقةِ الكلامِ والطعام. ذلك ناشئٌ من إعجابِ المقلّدِ وانبهارِهِ بالمقلَّدِ. أمَّا الإعجاب، فإنه وليد التفاوت السحيق في المقدرة بين الفاتن والمفتون. ذلك لا يخفى أنَّ "الأمةَ المحمدية" اليومَ منهارةٌ، مُفَكَّكَةُ الأوصالِ؛ أرضُها محتلّةٌ، عِرضُها مهتوكةٌ، كرامتُها مهدورة، جموعها مقهورة، جيشها مهزومٌ، أبناؤُها تتناحر في سوريا والعراق واليمن وليبيا، تُرْكِيَا تضطربُ في أمواجٍ من الصراعِ السياسِيّ والقلاقلِ والإرهابِ وعملياتٍ انتحاريَّةٍ على مختلفِ ساحاتها.. ينخر العديدُ من الأمراضِ الفتَّاكَةِ في جسمِ "أمة الإسلامِ"، وهي عالةٌ على مِلَّةِ الكُفْرِ، تعيشُ على فتاتها. وقد أصابَ الشيخ بكر أبو زيد كَبِدَ الحقيقةِ في كلماتِهِ وهو يقول: "وقد تكرَّرَ في التاريخ أكثر من مرَّةٍ : أنَّ الأُمَّة إذا ضعفتْ ودبَّ فيها الوهنُ انطوتْ تحت سلطانِ الغالبِ ودانتْ له بالتبعيَّةِ الماسخةِ منصهرةً في قالبِهِ وعاداتِهِ ابتغاءَ مرضاتِهِ، وهكذا قُلْ: في أُمَّتِنَا اليوم فإنَّها لاستقبالِ كُلِّ وافد أجنبِيّ عنها أسرعُ إليهِ من قالةِ السوء إلى أهلِها، بل تُبْدِي التباهِيَ وإظهارَ الفخارِ، وأنَّ هذا من علائِمِ التقدُّمِ والرُّقِيّ ؟!"[12]

إنَّ السبيلَ في واقعِ الأمرِ كانَ مُمَهَّدًا لظهورِ هذا المشهد المُذهِلِ منذُ نهاية عصر السلف الصالح، يرجعُ الأمرُ في أصلِهِ إلى تخلُّفِ المسلمين منذ قرونٍ لإهمالِهِمْ مواكبةَ عجلةِ التقدُّمِ العلمِيّ، وانشغالِهِمْ بأمورٍ هامشيَّةٍ ليست ذاتَ بالٍ. تحوّلت مظاهِرُ الدِّينِ والحياةِ إلى شَكْلِيَّاتٍ فارغةٍ وطقوسٍ خاليةٍ من المعاني السامية والروحِ والثمر... خلتْ الصفاءُ والإخلاصُ والتواضُعُ والبساطةُ والإنسجامُ مع الفطرةِ في التصرفاتِ والسلوكياتِ؛ حَلَّ محلَّ هذه الفضائلِ أشكالٌ من التكَلُّفِ والرياءِ والتملُّقِ والمداهنة.. انقلبتْ الخلافةُ الراشدةُ إلى مُلْكٍ عضودٍ وراثي يتداوله الطغاةُ، تحوّلت شخصيةُ الخليفةِ إلى صَنَمٍ خرافِيّ محاطٍ بهالة من القداسةِ، احتجبَ الأمراءُ والرؤساءُ عن الرعيَّةِ وتَخَفَّوْا وراءَ حاجزٍ من الحُرَّاسِ.. فبلغ الأمرُ إلى حد من المهزلة حتى أصبح الْفَرْقُ بين الْمُسْلِمِ والكافر الغربِيّ كالفَرْقِ بين الإنسانِ وَالقردِ! وهذا ما جعل المسلِمَ تائهًا غَبِيًّا يجهلُ مَاضِيَهُ، يكره الحقيقةَ، ينسحب من وراءِ الأساطيرِ، يثق بِرجالِ الدين والدجاجلةِ وشيوخِ الصوفيةِ، يحتقر العلماءَ والخبراءَ.. بلغ به الجهلُ إلى حدٍّ لاَ يكادُ يشعرُ بما يسري في كيانه من الضمور المعنوي والإفلاسِ الأخلاقِيّ، ولا ما أصاب روحه وضميره من الجمود، بل لا يعلم أن الكافر الغربِيَّ هو الذي أحلَّ له الحرامَ وحرَّمَ عليه الحلالَ فسلخه عن دينه، وأنساهُ ماضِيَهُ، وَزَيَّنَ له كُلَّ قَبِيحٍ من الخمر، والمخدراتِ، والدعارةِ، والمجونِ، والفاحشة، والشذوذِ، والربا، والعلمنة، والأثرة، والأنانيةِ، والتكالبِ على المصالح، وتحريف الحقائقِ،

[12] الشيخ بكر أبو زيد، معجم المناهي اللفظية. ص/2، الجزء/9.

وتشويه الدين والتاريخ، والتهارشِ على السياسة باسم الديموقراطية. كل ذلك خروج على الفطرة لا محالة. ثم جعل الغربُ من الإنسانِ المسلم في النهايةِ ألعوبةً يركله ليشهدَ له أنَّ هذه المفاسدَ كُلَّهَا من ثمراتِ الحرّيَةِ، وأنَّ الغَرْبَ مهدُها وقلعتُها الحصينة!

لَمَّا بَلَغَ الغربُ في ممارسةِ مكائدها –من طريق الغزوِ الفكريّ– وَلَعْبِهَا بعقول المسلمين إلى هذا الحدِّ من النجاحِ، اتَّسَعَتْ معرفتُهُ بأحوالِ الأُمَّةِ اتِّساعًا غيرَ محدودٍ؛ لقد كان الغربُ تَعَرَّفَ منذُ حُقْبَةٍ على مَوَاطِنِ الضعفِ في الأُمَّةِ الإسلامِيَّةِ خاصَّةً بجهودِ المستشرقين الذين جَنَّدَهُمْ مِنْ ذي قَبْلٍ وعَبْرَ القرون، فجمعوا له ما يعجزُ رجالُ البحثِ عن حصرِهِ من معلوماتٍ وافرةٍ عن خصائصِ الأمةِ وأسرارِ حياةِ المسلمين. قِسْطٌ هامٌّ منها يصبُّ في مسائلِ الخلافاتِ العَقَدِيَّةِ، وجدالِ علماءِ الإسلامِ، ومساجلاتهم، وظهورِ الدياناتِ الْمُنْشَقَّةِ عن الدين الحنيفِ؛ كالقَرْمَطِيَّةِ، وْالْمُسْلُمَانِيَّةِ، والدُّرْزِيَّةِ، وَالإسْمَاعِيلِيّةِ، وَالشِّيعَةِ، والنُّصَيْرِيَّةِ، وَالْبَابِيَّةِ، وَالْقَادْيَانِيَّةِ، وَالْبَهَائِيَّةِ، وَالنُّورْجِيَّةِ، وَالْفَتُّوشِيَّةِ... كما تعرّفَ الْغَرْبُ على الجماعاتِ البِدْعِيَّةِ من إمتدادِ الدياناتِ القديمة، كالطريقة النَّقْشَبَنْدِيَّةِ وغيرِها من الطرق الصوفِيَّةِ[13].. كذلك تَعَرَّفَ الغربُ على فِرَقِ الزَّنْدَقَةِ الجَدَلِيَّةِ؛ كالأشعرِيَّةِ، والماترِيدِيَّةِ، والجهمِيَّةِ، والقدرِيَّةِ، والْمُرْجِئَةِ، وَالْمُجَسِّمَةِ، والْمُشَبِّهَةِ، والْمُعَطِّلَةِ وغيرِها...

كل هذا الركام من حصيلةِ الأعمالِ الجاسوسِيَّةِ والاستخباراتية التي جمعها الغربُ طيلة ثلاثة قرون، مَهَّدَ له السبيلَ لاحتلالِ مُعْظَمِ الوطن الإسلامِيّ في إفريقيا والشرق الأوسط. بدأتْ الدُّوَلُ الغربيَّةُ بعد هذا الاستعدادِ تزحف على ديارِ المسلمين بجيوشِها وخُبَرَائِهَا ومستشرقِيها ورُهْبَانِهَا ومُبَشِّرِيهَا في القرن الخامس عشر الميلادي، ثمَّ توسعتْ في القرن الثامن عشر الى القرن التاسع عشر وانتشرت إلى معظم الوطن الإسلامِيّ بالتعاون مع عملائِها في الداخلِ، وقامت في أثناءِ هذا التوسع بإعداد مخططاتٍ ضخمةٍ لإحتواءِ المسلمين، بل لمحوهم والقضاءِ على كيانهم بالصهر، والقتلِ والإبادةِ والتخريبِ... فلم يلبث حتى تحققت آمال الغربِ من خلال هذه المخططاتِ الرهيبة بدأً من زحفه الإستعمارِيّ، ومرورًا بثورات الربيع العربي (بل الربيع العبري)، ووصولاً بتمزيق منطقة الشرق الأوسطِ في هذه الأيام.

لابُدَّ هنا أن نعترفَ اعترافَ الجاني على نفسِهِ؛ بِأَنَّ هذا المشهدَ الْمُخْزِيَ الذي سجَّلَهُ التاريخُ على حسابِ المسلمين، يُعَبِّرُ عن نجاحٍ باهرٍ للصليبِ في حربه على الهلالِ. إنَّ هذا المشهدَ يمثل –ولا

[13] يبلغ عددها **257** طريقةً.

شكٍّ– انعكاسًا للنهظة الاوروبيَّةِ والثورةِ الصناعيَّةِ، وهي محصَّلَةٌ بالغةٌ في القيمةِ، نالها الغربُ عبر سلسلةٍ من المغامرات التي خاضها أثناءَ الحروبِ الصليبِيَةِ والكشوفاتِ الجغرافيَّةِ، وانتهى بانتصاره كَحَسْمِ الصراعِ الحضارِيِّ بين الشرقِ الاسلامِيِّ والغربِ المسيحيِّ، وتراجُعِ الدَوْرِ الرِّيَادِيِّ للعالَمِ الاسلامِيِّ.

أمَّا آثارُ الغزوِ الثقافِي على حياةِ المسلمين، فإن اللسانَ يَكِلُّ عن إحصائِها وحصرِها، فمنها: أنَّ أنظمةَ الحُكْمِ في جميع بلادِ المسلمين، وأنظمةَ تعليمِهِم، وأساليبَ تدريسِهِمْ، ومُعْظَمَ عاداتِهِم ومصطلحاتِهِم قد تغيرتْ تمامًا واصْطَبَغَتْ بصبغةِ الحضارةِ الغربيَّةِ، كنتيجةٍ لهذا النصر الذي أحرزته الدول الأوروبية على العالم الإسلامِيِّ.

ذلك لَمَّا كان الغربُ يعلم: –خاصةً بعد فترة الإستعمارِ التي دامَتْ أكثر من مأئة وخمسين عامًا[14]– بِأنَّ المسلمين على رغم تخلُّفِهِمْ، وانحطاطِ شأنِهِمْ، وشَتاتِ شَمْلِهِمْ، قد يستيقظون يومًا من نومتِهِمْ، وسيتنبَّهُونَ –بدافعِ دينهم الذي ينهاهم عن الإنقيادِ والإستسلامِ إلاَّ لله وحده–، إلى ماهم فيه من الذِّلَّة وَالْمَهَانَةِ، فسينهضون ويتغلَّبون على العالَمِ المسيحِيِّ والنظامِ الرأسمالِيِّ ويُدَمِّرُونَ معاقِلَ الظلمِ والقهر... لَمَّا توجسَ الغربُ الخيفةَ أنْ يتعرّضَ لهذا الخطر، باشر في تنفيذ مخططاته التي كان قد أعدَّهَا من قبلُ، وذلك بعد كمالِ مغادرتِهِ أرضَ المسلمين؛ فخلّفَ على كُلِّ بلدٍ عربِيٍّ وإسلامِيٍّ دُميةً من الطواغيت من أمثالِ ملوكِ الجزيرة العربيَّةِ، واليمنِ، والخليجِ، والمغربِ، ومِصْرَ، ومنطقةِ الهلالِ الخصيب، وتركيا... ثم خَلَفَهُمْ (بعد هذه المرحلة التاريخية) شرذمةٌ من الطغاةِ، تَحَكَّمُوا في سلطةِ هذه البلادِ بحكم الأمر الواقع أو بانقلاباتٍ عسكرية دامية، مثل مصطفى كمال، وحبيب بو رقيبة، وجمال عبد الناصر، وعبد الكريم قاسم، وحافظ الأسد، ومعمر القذافي، وصدام حسين، وعلى بن زين العابدين، وعلي عبد الله صالح، وغيرهم...

---

[14] احتلت فرنسا مصر فى عام **1798**م. وحتى عام **1801**م. (الحملة الفرنسية)، ثم احتلت بريطانيا مصر عام **1882**م. وأعلن أن مصر مستعمرة بريطانية فيما يعرف بإعلان الحماية البريطانية عام **1918**م. ثم أعلن استقلالها عام **1922**م. لكن السيطرة الفعلية لم تنته إلا بعد قيام ثورة يوليو **1952**م. وتوقيع اتفاقية الجلاء عن مصر عام **1954**م. واحتلت فرنسا الجزائر منذ عام **1830**م. واحتلت تونس عام **1881**م. ثم احتلت فرنسا وبريطانيا المغرب عام **1912**م. وكانت إيطاليا قد احتلت ليبيا عام **1911**م. وطبقا لاتفاقية (سايكس – بيكو) عام **1916**م. التى قسم فيها فرنسا وبريطانيا الدولة الإسلامية فيما بينهما احتلت فرنسا لبنان وسوريا عام **1922**م. واحتلت بريطانيا العراق والأردن وفلسطين. استقلت تونس والمغرب عن فرنسا عام **1956**م. واستقلت الجزائر عام **1962**م. وتحررت ليبيا من إيطاليا بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية وهزيمة إيطاليا فيها، وأعلن الاستقلال رسميا عام **1951**م. واستقل العراق عام **1932**م. واستقل فعليا إثر ثورة **1958**. واستقلت سوريا ولبنان عام **1945**م. واستقل الأردن عام **1946**م. وانتهى الانتداب البريطانى على فلسطين عام **1948**م. لتكون البداية الإسرائيلية.

(المصدر: http://forum.brg8.com/t126391.html)

استفحلت مظاهِرُ تقليدِ الغربِ إبَّان حُكْمِ هؤلاءِ الطغاةِ بخاصّةٍ، وانتشرت من خلالِ تناقضاتٍ رهيبة، وهذه نبذة منها:

* أخذت الحكوماتُ والأحزابُ السياسيّةُ في هذه البلادِ تُكثِرُ من ذكرِ كلمةِ "الديمقراطيةِ، -في هُتافاتِها، وتصريحاتِها، وتشريعاتِها- كرمزٍ للنظامِ الحُرِّ" تُرَدِّدُهَا في هلوسةٍ، تماهِيًا مع الغربِ، منذ نصف قرنٍ في الحين الذي ضاقت السجونُ بالمعتقَلِينَ، وتعرَّضَتْ ملايينُ الناسِ للتعذيبِ والقتلِ والاغتصابِ والإبادةِ الجماعِيَّةِ في ظِلِّ "الديمقراطيةِ الشرق أوسطية"، كما هربَ الملايينُ من سُكَّانِ هذه البلادِ إلى الدُّوَلِ الغربيَّةِ (الديمقراطيةِ) للحصولِ على اللجوءِ السياسِيِّ.

ومن غرائبِ الأمور؛ أنَّ مفهومَ "الديمقراطيةِ" أخذَ طابعًا غريبًا في المنطقةِ، حيث اختلفَ تطبيقُها في بلدٍ، عن تطبيقِها في بقيةِ بُلدانِ الشرقِ الأوسطِ، لكنَّ القاسمَ المشتركَ، (للديمقراطيةِ الشرق أوسطيةِ) هو مجردُ النطقِ بهذا المصطلح، واعتمادُ العنفِ في السياسة القائمة على أساسِها. وما أدل على هذه الحقيقةِ من تَرْدِيدِ القذافِيِّ لهذِهِ الكلمةِ لدى أيِّ مناسبةٍ، مع ما اشتهر به من إراقة الدماءِ بلا رحمةٍ.

* تم تحريفُ مفهومِ الدِّينِ في العالَمِ الإسلامِيِّ بإقصائِهِ عن جميع مجالاتِ الحياةِ؛ حيلَ بينَهُ وبينَ ما جاءَ لأجلهِ، وحُكِمَ عليهِ بالسجنِ في المسجدِ والْمَقْبَرَةِ تقليدًا للغربِ المسيحِيِّ، بينما المسيحيَّةُ ديانةٌ محرّفةٌ وثنيَّةٌ متعدِّدَةُ الآلِهَةِ، وهي في واقع الأمر أبعدُ ما يكون عن التوحيد، كما لا تَمُتُّ بصِلَةٍ إلى المسيحِ عليهِ السلام، ولا بما أُنْزِلَ عليه من الوحي...

استوردَ حكامُ المسلمين العلمانيَّةَ من الغربِ، زعموا أنَّهم فصلوا الدينَ بها عن الدولةِ وقد فشلوا في ذلك لخبطِهم وعبثِهم بالدين والدولة في آنٍ واحدٍ؛ لأنَّ الحيلولةَ بين مجتمعٍ يدين بالإسلامِ وبين دينه مستحيلٌ، ولهذه الحقيقةِ دلائلُ كثيرةٌ، أشهرُها وأقواها: أنَّ أكثرَ الناسِ في هذهِ البلادِ (على سبيل المثال في تركيا)، تختلفُ مراعاتُهُمْ للقوانين الوضعية عن موقفِهِمْ من ضوابطِ الإسلامِ على رغم ما تعرَّضَ له الإسلامُ من التحريفِ والتشويهِ في هذا البلدِ، لكنَّ أكثرَ الناسِ (على قدر علمهم بالاسلامِ) يقفون عند حدودِهِ عن طواعيةٍ في كثيرٍ من الأحوالِ، لما يرون لها من القداسَةِ، بينما

يخالفون القوانين الوضعيَّةَ كلما سنحت لهم الفرصةُ، إذا كان ذلك يوافق مصلحتَهم ولا يشعرون في أنفسهم بحرج.

* من الإمتدادات السلبية للغزو الفكري: تقليد الناسِ للغربِ (في معظم العاداتِ والتصرفاتِ) كظاهرةٍ مرضيَّةٍ مُتَفَشِّيَةٍ بأشكالٍ من الْهَوَسِ؛

انتشر تقليد الغرب في اختيارِ تفاصيلَ غريبةٍ ومُحَرَّمَةٍ من اللباسِ والأزياءِ، وأشكالٍ من قصَّاتِ الشعرِ، وتناولِ الطعامِ والشرابِ، وتبادُلِ التحيَّةِ والتهنئة، وحتى في نمطِ المشي... نبذتِ المرأةُ الحياءَ والفضيلةَ بِتَبَرُّجِهَا وسفورِهَا واختلاطها، فتعرَّتِ من لباسِها على هيئةِ المرأةِ الغربيَّةِ وهي تتعطَّرُ وتُبْدِي زينتَهَا، تَفْتِنُ الرجالَ بذلك وتُثيرُ غرائزَهم، شاعَ أخذُ الوجبات السريعة، ومشروبات الطاقة خاصةً بين الشبابِ، لم يعد يُعْجِبُهُمْ طعامُ البيتِ، كما انهمكوا في الموسيقا الغربية والرقص الغربي لكي يُنَفِّسُوا بذلك عن شيءٍ من همومهم تَهَرُّبًا من الواقع. صدرت التراخيص بفتح الحانات ودور الفسادِ وأماكن اللعب تحت سمة "مراكز ترفيهية".

* من أكثرِ مظاهرِ التقليدِ للغربِ: استعمالُ مصطلحاتِهِ في مختلفِ مجالاتِ الحياةِ؛ في الدِّين، والسياسةِ، والقانونِ، والتجارةِ، واللباسِ، والعاداتِ، وغيرِها... وعلى سبيل المثال:

لا تكادُ تُطلَقُ صفةُ "العالِم" (خاصةً في تركيا) على أحدٍ من العلماءِ أو المنتحلين، بل حَلَّتْ محلَّ هذهِ الصفةِ تعبيرُ "رَجُلِ الدِّينِ Din adamı" على غرار المسيحية، مقابلَ مصطلحِ Clergyman في الإنجليزية. وإنَّما تُطلَقُ على أهل الإختصاصِ في مختلف مجالات العلوم ألقابٌ غَرْبِيَّةٌ دخيلةٌ مثل: بروفسور[15]، دكتور[16]، أسيستانت[17] دوجنت[18]. وقد اسطلحَت الدولةُ الفارسية ألقابًا خاصَّةً

[15] بروفسور فرنسية Professeur :هو لقب يطلق على الأستاذ الجامعي المختص في علم ما، وهو أعلى مرتبة علمية في الجامعة. ترجع أصول كلمة» بروفيسور «إلى اللغة اللاتينية، وتعني الشخص المعترف له بالتمكن من مجال علمي ما، أو معلم ذو مرتبة عليا. المصدر: https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A8%D8%B1%D9%88%D9%81%D9%8A%D8%B3%D9%88%D8%B1

[16] أصل كلمة دكتور (ج دكاترة) (باللاتينية: doctoris) (أو العلامي) وتعني معلم؛ ويقصد بها الشخص الحاصل على درجة الدكتوراة في الفلسفة. استخدمت هذه التسمية باستمرار كلقب أكاديمي لأكثر من ألف سنة في أوروبا، ولكنها تعود إلى بداية نشوء الجامعات. انتشرت التسمية لتصل إلى أمريكا (المستعمرات الأوروبية سابقاً)، وهي الآن معروفة في كل العالم. كاختصار "د" أو "Dr" فهي تستخدم دائماً لأي شخص تحصّل على درجة الدكتوراة، وهي أعلى درجة علمية يمكن التحصل عليها. المصدر: https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%AF%D9%83%D8%AA%D9%88%D8%B1

[17] معناها: أستاذ مساعد.

لرجالِ الدين كـ"حجة الإسلامِ" و"آية الله"، و"آية الله العظمى" و"خواجه" و "مَلاَّ"[19].. وهي ألقابٌ مُخْتَلَقَةٌ غريبةٌ، لم يكن لها وجودٌ بين ألقابِ العلماءِ في صدر الإسلامِ. وثمَّةَ آلافٌ من المصطلحاتِ الغربيَّةِ يَصْعُبُ حصرُها، تُستخدَمُ اليومَ على مستوى العالمِ الإسلامِي في مختلفِ مجالاتِ الحياة من السياسة والإقتصادِ والتجارةِ والصناعةِ والتعلِيمِ، والإعلامِ... كل ذلك يدل على أن الأمةَ قد خسرت الكثيرَ من قِيَمِها عبر عُصُورِ الظَّلاَمِ بِحُكْمِ التقليدِ، خاصةً تحت وطئةِ الغزوِ الفكرِيّ الذي شَنَّهُ الغربُ على الأمةِ الأسلامية منذ ثلاثة قرون.

أسفر هذا التقليد الأعمى عن إنهيارٍ رهيبٍ في البنية الإجتماعية، وشقاقٍ في الصفوفِ، وانتشارٍ ذريع للمذهبية. والدافِعُ الرئيسُ لظهورِ هذا المشهد الْمُرَوِّعِ، هو الإختلافُ في العقيدة. ولكي نُدْرِكَ أهميةَ العقيدةِ الصحيحةِ، ودورَها على الصعيدِ الفكرِيّ والأخلاقِيّ، وفي بناءِ الإنسانِ، والتكوين الإجتماعِيّ المتينِ، يجب هنا أن نتناولها في حدودٍ تناسبُ إطارَ البحثِ بالقدرِ الْمُيَسَّرِ.

***

2) العقيدةُ.

للعقيدة أهميَّةٌ بالغةٌ في حياةِ الفردِ والمجتمعِ. وهي رِبَاطٌ يُوَثِّقُ صلَةَ الإنْسَانِ بِدِينِهِ، كما هِيَ الْمُحَرِّكُ الأَسَاسِيُّ في توجيهِهِ نحوَ أهدافِهِ وأعْمَالِهِ التي تقومُ عليها حَيَاتُهُ.

---

[18] "دُوجَنْتْ": كلمةٌ ألمانيَّةٌ dozent، مأخوذة من اللاتينيَّةِ docens، وهي لقبٌ أكاديمِيٌّ، يطلقُ على من أكمل.

[19] لفظُ "مَلاَّ": كلمةٌ محرفةٌ من اللفظ العربِيّ (مَوْلَى) يُطلقُ على رجلِ الدِّينِ في إيران وتركيا، وباكستان، وأفغانستان، وشبه القارة الهندية، والبوسنة. تُجْمَعُ هذه الكلمةُ على (ملالي). تُستخدَمُ في الأغلب رَمزًا للزعامة الدينية، وهي من الألقاب التي تُطْلَقُ على رجال الدين الشيعة، وخاصةً من الإيرانيين، الذين يُسيْطِرون على الْحُكْمِ في إيران منذ سنة **1979**م، وكثيرًا ما تَرِدُ في وسائِلِ الإعلامِ عباراتٌ من قبيل: نظامِ الملالي، لِوصفِ النظامِ الحالِيّ في إيران، وحكمِ الملالي، ودولة الملالي، وغير ذلك. المصدر:

https://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%85%D9%84%D8%A7;
http://www.alrased.net/main/articles.aspx?selected_article_no=5675

لقد اثبتتْ البحوثُ والدراساتُ العلميَّةُ والتطوراتُ الفنِّيَّةُ والتقنِيَّةُ أنَّ لِلعقيدةِ الدينيَّةِ تأثيرًا بالِغًا في توجيهِ الإنسانِ وتزويدِهِ بقوَّةٍ فائقَةٍ تُمَهِّدُ لهُ السبيلَ إلى تحقيقِ ما يبدو مستحيلاً من أحلامِهِ وآماله. فهذه الدولةُ الْعِبْرِيَّةُ (على سبيلِ المثال)، قد أجمعَ الباحثون والمفكرون على أنَّه لولا العقيدةُ الدينيَّةُ لما قامتْ من العدمِ كدولةٍ لها دورُها على تكييفِ السياسةِ العالَمِيَّةِ، ولولا هذه القدرةُ الْمُنْبَثِقَةُ من العقيدةِ الراسحةِ في قلبِ اليهودِ، لما استطاعوا أن يحتلُّوا جزءًا هامًّا من أرض أمَّةِ الإسلامِ ويتلاعبوا بمقدساتِهَا ويمارسوا أشدَّ أشكالِ القمعِ والقتلِ والتشريدِ في شعبٍ من شعوبِ هذه الأُمَّةِ التي تربو أفرادُهَا على مليار ونصف مليار نسمة، وأمَّا الْمُجْتَمَعُ الإسرائيليُّ فإنّهُ لا يعدو عن خمسةِ ملاين. هذه الحقيقةُ تؤكِدُ على أنَّ شعبًا صغيرًا يتمسكُ بعقيدتِهِ (وإن كانت باطلةً) كيفَ يستطيع أن يتغلّبَ على أمةٍ عملاقةٍ انسلخَتْ عن عقيدتِهَا الصحيحة النقية! فَلَنَا في سقوطِ الدولة العباسيةِ، ودولةِ الأنْدَلُسِ، وانهيارِ الإمبراطوريَّةِ العثمانيَّةِ عبرةٌ وعظةٌ، ولكن هل من مُعْتَبِرٍ! هذا، ولا شكَّ في أنَّ الَّذِي تَدْفَعُهُ عَقِيدَتُهُ إِلَى سَاحَةِ الْقِتَالِ يَكُونُ أشَدَّ بَأْسًا، لأنَّهُ يُقَاتِلُ لِمَبْدَأٍ لاَ لِغَنِيمَةٍ. وَمَا أدَلَّ عَلَى هَذِهِ الْحَقِيقَةِ نَجَاحُ الْمَدَنِيِّينَ الأَتْرَاكِ الْعُزَّلِ يومَ وَقَفُوا بِأبْدَانِهِمْ أَمَامَ دَبَّابَاتِ الْمُتَمَرِّدِينَ مِنْ كَتَائِبِ فَتْح الله كُولَنْ المجهَّزَةِ بِأنْوَاعِ الأَسْلِحَةِ وَالآلِيَاتِ، وَقَدْ وَقَعَ كِبَارُ رِجَالِ الْقِيَادَةِ لِلْقُوَّاتِ الْمُسَلَّحَةِ التُّرْكِيَّةِ فِي قَبْضَتِهِمْ، فَانْهَالَ مَلاَيِينُ النَّاسِ لَيْلَةَ **15** تَمُّوز **2016**م. عَلَى الإنْقِلاَبِيِّينَ وَهَزَمُوهُمْ خِلاَلَ سَاعَاتٍ قَلِيلَةٍ! لَمْ يَتَحَقَّقْ هَذَا النَّجَاحُ إلاَّ لِثِقَةِ الْمَدَنِيِّينَ بِأنْفُسِهِمْ، كَمَا لَمْ يَنْهَزِمْ الْمُتَمَرِّدُونَ إلاَّ لِفَسَادِ نِيَّاتِهِمْ، وَفُتُورِ عَزَائِمِهِمْ، وَسَتَأْتِي قِصَّةُ هَذِهِ الْمُقَاوَمةِ الأسْطُورِيَّةِ وَمَا فِيهَا مِنَ الْعِبَرِ إنشاء الله.

أمَّا العقيدةُ في الإسلام؛ فهي الأصلُ الذي يقوم عليه بناءُ الدين والحياةِ بِكَامِلِهِمَا. لذا، فإنَّ أول ما قام به الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ هو الدعوةُ إلى (الإيمان بالله واليوم الآخر) قبل كلِّ شيءٍ. يدلُّ على ذلك عِدَّةُ أحاديثَ للرسولِ الكريم ﷺ؛ فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: "قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يُؤْذِ جارَهُ وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ.[20] فقد قضى الرسولُ ﷺ العهدَ الْمَكِّيَّ وهو يحاولُ ترسيخَ هذهِ العقيدةِ في القلوبِ عَبْرَ دَعْوَتِهِ المتواصلةِ، قبل أنْ يُحَذِّرَ الناسَ من ارتكابِ الكبائرِ (دون الكفرِ والشركِ).

إنَّ كلمةَ العقيدة (لغةً) مَعْنَاهَا: الإيمانُ الجازمُ والحكمُ القاطِعُ الذي لا يَتَطَرَّقُ إليه شكٌّ. وهي ما يعتنقُهُ الإنسانُ ويؤمنُ به وَيَعْقِدُ عليه قلبَهُ وضميرَه، ويَتَّخِذُهُ مذهبًا ودينًا يدين به؛ فإذا كان هذا

[20] محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه: **6018**

الإيمانُ الجازمُ والحكمُ القاطعُ موافقًا لنصوصِ الكتابِ والسنَّةِ، كانت العقيدةُ صحيحةً، كاعتقادِ أهلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، وإن كان باطلاً كانت العقيدةُ باطِلَةً كاعتقادِ فِرَقِ الضَّلاَلِ.

أمَّا اعتقادُ أهلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ (في سطورٍ وجيزةٍ): فهي الإيمانُ الجازمُ بالله تعالى، وملائكتِهِ، وكُتُبِهِ، ورُسُلِهِ، وبِاليومِ الآخرِ، وبِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، وَسَائِرِ مَا ثَبَتَ من أُمورِ الْغَيْبِ، وأُصولِ الدِّينِ، وما أجمعَ عليهِ السلفُ الصالحُ.. والتسليمُ التامُّ للهِ تعالى في الأمرِ، والحكمِ؛ والطاعةُ والاتّبِاعُ لرسولهِ صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آله وسلَّم. وقد صنَّفَ فيها علماءُ الإسلامِ من عهدِ السلف الصالحِ إلى اليومِ أسفارًا قَيِّمَةً يضيقُ المقامُ عن ذكرِهَا وتعدادِهَا. ومَنْ أرادَ المزيدَ من المعرفةِ في هذا البابِ الأساسِيِّ الهامِّ من العلومِ الإسلامِيَّةِ، عليه بِدِرَاسَةِ كُتُبِ السلف الصالح. وثَمَّةَ كُتُبٌ أخرى نافعةٌ أَلَّفَهَا جماعةٌ من المعاصرين، يحسنُ تدريسُها للطلبة...

إنَّ الإختلافَ في العقيدة لم يكن أمرًا معهودًا في مُجتَمَعِ صحابةِ النبيّ عليه السلام، إنَّهم، رضوان الله عليهم، لم ينازعوا في شيءٍ من أصولِ الدين، وإنَّما اخْتِلاَفُهم كان في الرأيِ. إنَّ الخلافَ في العقيدة نشأ لأوَّلِ مرَّةٍ على لسانِ الخوارج في عهدِ أمير المؤمنين علي ابن أبي طالبٍ ﷺ. ثم ظهرتْ فتنةُ القدريَّةِ الذين قالوا بِنَفْيِ القَدَرِ، وَخَلْقِ القرآن، وعَبَثُوا بالمفاهيم... ثم تحوّلتْ القدريَّةُ إلى المعتزلةِ والجهميَّةِ والجبريَّةِ. ثم ظهرَ القولُ بالإرجاء في مسألةِ الإيمان. ثم تحوَّلَتْ الْمُرْجِئَةُ إلى فِرَقٍ كلاميَّةٍ، منها الماتريديَّةُ من الأحنافِ، والأشاعرةُ في عصرنا. غير أنَّ مُعظَمَ المذاهبِ الكلاميَّةِ التي ظهرت في أيَّامِ الطبقةِ الثانيَةِ من السلف الصالح، لم يَعُدْ لها وجودٌ في أيَّامِنا، وليس هذا مقامَ الدخولِ في تفاصيلِ نزاعِها، وقد كتبَ العلماءُ عن هذه المذاهبِ ما يُسعِفُ طالِبَ المعرفةِ بغزارةٍ ويسدُّ حاجتَهُ منها.

ولَمَّا خاضَ المتأخِّرون من الوهّابِيّينَ في النقاشِ مع الأشاعِرَةِ والماتريديَّةِ وزاحموهم، وتفلسفوا وبالغوا في الرَّدِّ عليهم، وقعوا في الغلُوِّ مثلَهم، فغدوا هم أيضًا من الفِرَقِ الكلامِيَّةِ، وقد كانوا أصلاً مُبْتَدِعَةً من أهلِ التجسيمِ والتشبيهِ من ذي قَبلٍ، تورَّطوا في محاولة إثباتِ المكانِ والجهة لله سبحانه وتعالى عن ذلك علُوًّ كبيراً.

فالذي يجب علينا أن ننتبهَ له عند هذا المشهد؛ هو خطورةُ اختلافِ الأُمَّةِ اليومَ في العقيدة، لأن الشقاقَ الذي يعانِيهِ المسلمون في الوقتِ الراهنِ وما أسفرَ عنه من الإضطرابِ وَالْهَرْجِ والْفِتَنِ

السائدةِ على مستوى الشرق الأوسطِ، فإنَّ منشأَهُ أصلاً هو اختلاف الناسِ في العقيدةِ، وقد تطوَّرَ نزاعُهُم أخيرًا إلى صدامٍ مذهبِيٍّ وحروبٍ دامِيَةٍ بين الشيعة والسنة في سوريا والعراق، حيث بدأ يُهَدِّدُ كيان الأمة المحمدية وَيُزَعْزِعُ أركانَها.

للنزاع الشيعِيِّ–السُّنِّيِّ خلفيَّةٌ مأساويَّةٌ وتاريخٌ أسودُ، مردُّهُ الأصلِيُّ إلى الإختلافِ في الْمُعْتَقَدِ، وبين الطائفتين فجوةٌ سحيقةٌ في مسائل العقيدة. ثَمَّةَ فروقٌ كبيرةٌ بين معتقدِ الطائفتين؛ هذه القروقُ ذاتُ أهميةٍ بالغةٍ، لأنها متعلِّقَةٌ بالأصولِ التي لا يصحُّ الدِّينُ إلاَّ بها، ذلك من يُنكِرْ واحدةً منها يَخْرُجْ من المِلَّةِ بإجماعِ المسلمين. وهي ثمانيةٌ، وتفصيلها بإختصار هو:

*** أنَّ أهلَ السنةِ والجماعةِ –لا شكَّ– يحبُّون أميرَ المؤمنين عليًا ابنَ أبي طالِبٍ رضيَ الله عنه، ويحبُّون أهلَ بيتِ الرسولِ صلى الله عليه وسلَّمَ، كما يحبون جميع الصحابةِ ويعترفون بقدرهم ومكانتهم. لكن الشيعةَ اتَّخذوا من إظهارِ المحبةِ لأميرِ المؤمنين علي ابن أبي طالب ذريعةً إلى نشرِ عقائدهم، بدعوى محبَّةِ أهل البيتِ، مع أنَّ دعواهم هذه لا أساسَ لها من الصحةِ بدلائلَ قاطعةٍ من نصوصِ القرآن الكريم، إذ لو كانت هذه المحبةُ صادقةً لَمَا ادَّعَوْها وهم يخالفون بذلك كتابَ الله الذي التزمَ الأئمةُ بأحكامه، فأصبحت الشيعةُ بذلك مخالفين للأئمَّتِهِمْ في الوقتِ ذاتِهِ!**

*** أهلُ السنةِ والجماعةِ لا يدَّعونَ العصمةَ لغيرِ الأنبياءِ والمرسلين مع احترامهم لأهلِ البيتِ، لكنّ الشيعةَ يزعمون "أنَّ الإئمةَ الإثنا عَشَرَ يعلمون الغيبَ"، غيرَ أنَّ الغيبَ كُلَّهُ للهِ[21]. ويزعم بعضهم**

---

[21] وهذه جملة من الآيات التي تدل على أن الغيبَ لله وحده:
وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ... (الأنعام/**59**)؛ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ. (الأعراف/**188**)؛ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ. (يونس/**20**)؛ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ. (النمل/**65**)؛ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا. (مريم/**78**)؛ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ، فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ. (سبأ/**14**)؛ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ. (الطور/**41**)؛ أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَ. (النجم/**35**)؛ إن الغيبَ مسألةٌ معقَّدةٌ لا ينبغي أن يتوغَّل فيها غيرُ أهلِ الإختصاصِ، وله تفاصيل دقيقة يطول فيها الكلام، وهذه نبذةٌ يسيرةٌ منها. إنَّ الغيبَ على قسمين: الغيبُ المطلقُ: هو الغيبُ الذى استأثرَ اللهُ بعلمه، يستحيل على الإنسان أن يطلع عليه، كذات الله تعالى، والملائكه، وحياة البرزخ، والروح، وغير ذلك... والغيبُ النسبِيُّ: هو الذي قد يتمكن الإنسانُ من المعرفةِ به إذا استخدم آلاتٍ خاصةً أو استعان بالجن أو بوسائل أخرى. تدلُّ على ذلك آياتٌ عديدةٌ من القرآن الكريم. كقوله تعالى: ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ. آل عمران/**44**)؛ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ. (آل عمران/**179**)؛ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ. (هود/**49**)؛ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ. (يوسف/**102**)؛ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُول. الجن/**26**، **27**)...

"أنَّ الأئمةَ يعلمون متى يموتون، وأنهم لا يموتون إلا باختيارهم."[22] ولا شكَّ في أنَّ هذه المزاعمَ من موبقات الإيمان. فمحبَّتُهُمْ إذن لا تُعَبِّرُ عن ولائِهِمْ لِعَلِيّ ابن أبي طالبٍ ﷺ ولا لآلِ بيتِ الرسولِ ﷺ. وإنَّما تنمُّ عن النفاقِ الذي نشئوا وشبُّوا عليه بالدليل القاطع من حياةِ أميرِ المؤمنين علي ابن أبي طالب كرم الله وجهه، إذ لم يَرِدْ عنه ولا عن أحدٍ مِنْ أهلِ البيتِ أنه ادّعى العصمةَ لنفسِه.

* إنَّ أهلَ السنةِ والجماعةِ متَّفقون على صِحَّةِ القرآنِ الكريمِ وسلامتِهِ من الزيادةِ والنقصان، بَيْدَ أنَّ الروافضَ من الشيعة يَطْعَنُونَ في صِحَّتِهِ؛ يَزْعُمُونَ أنَّه محرَّفٌ[23]؛ ومن مشاهيرهم: حسين النورِيُّ الطَّبَرْسِيُّ يقول[24]: "إنَّ القرآنَ الذي بين أيدينا محرَّفٌ". هذا، ومن غرائب التضارُبِ والتناقُض: أنَّ أكثر الشيعةِ الإماميةِ يستنكرون اعتقادَ تحريفِ القرآنِ، وقد رَدَّ على الطَّبَرْسِيِّ جماعةٌ من ملالي الشيعةِ[25]، إلاَّ أن هناك مَنْ حاولوا براءة ساحتِهِ بالكذِبِ عليهِ[26] "أنَّه لم يسبق عنه الطعنُ في كتاب الله!" في الحين الذي كان يجب عليهم أن يُكَفِّرُوهُ، ويقيموا عليه حدَّ الردَّةِ، ويحذِّروا المجتمعَ الشيعيَّ من الولاءِ له. وهذا يبرهن على نفاقِهِمْ، وحقدِهم على الإسلامِ، وأنَّ أكثَرَهمْ "مُسَلْمَانٌ" بإقرارِهِمْ

---

[22] يزعم الكلينيُّ محمدٌ بنُ يعقوبَ بنِ إسحاقَ، وهو أحد مشاهير الرافضة، يزعم على لسانِ الإمامِ أبي عبد الله جعفر الصادق ﷺ، أنه قال: " أيُّ إمامٍ لا يعلمُ ما يصيبُهُ وإلى ما يصيرُ، فليس ذلك بحجة لله على خلقه " المصدر: الكافي **202/1** كتاب الحجة، باب: "أن الأئمة يعلمون متى يموتون وأنهم لا يموتون إلا باختيارهم." وهذه جملة من مزاعم الكليني وضعها على لسان الإمام الصادق ﷺ:

قال أبو عبد الله "لو كنت بين موسى والخضر لأخبرتهما أني أعلم منهما ولأنبأتهما بما ليس في أيديهما، لأن موسى والخضر أعطيا علم ما كان ولم يُعطيا علم ما يكون وما هو كائن حتى تقوم الساعة، وقد ورثناه من رسول الله ﷺ وراثة" الكافي: **204/1** كتاب الحجة، باب: "أن الأئمة يعلمون علم ما كان وما يكون وأنه لا يخفى عليهم الشيء." قال أبو عبد الله "لا يموت الإمام حتى يعلمَ مَنْ يكون من بعده فيوصي إليه" الكافي: **217/1** كتاب الحجة، باب: "أن الإمام يعرف الإمام الذي بعده." قال أبو عبد الله "إني لأعلم ما في السماوات وما في الأرض وأعلم ما في الجنة والنار وأعلم ما كان وما يكون" الكافي: **204/1** كتاب الحجة، باب: "أن الأئمة يعلمون علم ما كان وما يكون وأنه لا يخفى عليهم الشيء." قال أبو الحسن "إن الإمام لا يخفى عليه كلام أحد من الناس ولا طير ولا بهيمة ولا شيء فيه الروح، فمن لم يكن هذه الخصال فيه فليس هو بإمام" الكافي: **225/1** كتاب الحجة، باب: "الأمور التي توجب حجة الإمام." قال أبو عبد الله "لا يموت الإمام حتى يعلم من يكون من بعده فيوصي إليه" الكافي: **217/1** كتاب الحجة، باب: "أن الإمام يعرف الإمام الذي بعده."

[23] والله تعالى يقول: إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ. (الحجر/9)

[24] ميرزا حسين بن مُحَّد تقي بن علي محمّد بن تقي النوري الطبرسي (**1829–1902**م.): من ملالي الشيعة، اشتهر بكتابه "فصل الخطاب في تحريف كتاب رب الأرباب" الذي ادعى فيه "أن القرآن الكريم تعرّضَ للتحريف" فأثار عاصفةً من الجدلِ واللَّغَطِ..

[25] وهذه أسماؤهم وأسماءُ مؤَلَّفاتِهِمْ:

مُحَّد حسين الشهرستاني، حفظ الكتاب الشريف عن شبهة القول بالتحريف، وهو معاصر للطبرسي

محمود المعرّب الطهراني، كشف الارتياب عن تحريف الكتاب، وهو أيضًا معاصره.

مُحَّد جواد البلاغي، آلاء الرحمن في تفسير القرآن عند بيانه لعقيدته في عدم تحريف القرآن.

أبو القاسم الخوئ، البيان في تفسير القرآن.

علي الكوراني، تدوين القرآن.

رسول جعفريان، أكذوبة تحريف القرآن.

[26] وهو الشيخ مُحَّد محسن بن الحاج ملا علي الطهراني المعروف بِ"آقا بُزُرْگْ" (**1876–1970**م.) مؤلف كتاب "النقد اللطيف في نفي التحريق عن القرآن الشريف"، يدافع فيها عن استاذه الشيخ النوري ويبرئه من القول بتحريف القرآن.

على رغم تظاهرهم بالأُخُوَّةِ الإسلامِيَّةِ في بعض المناسبات![27] وسيأتي التعريفُ بالديانةِ "الْمُسَلْمَانِيَّةِ الفارسِيَّةِ" و"الْمُسْلُمَانِيَّةِ التركِيَّةِ Müslümanlık" فِيمَا بَعْدُ إن شاء الله تعالى.

*** الحديثُ النبويُّ الْمُوَثَّقُ في مُعْتَقَدِ أهلِ السنةِ هو المصدرُ الثاني للشريعة، يَعتمِدُ على أصولٍ متينةٍ اتَّفَقَ عليها علماءُ مصطلحِ الحديث، لكنَّ الرافضة لا يُراعون المبادئَ الدقيقة التي التزمَ بها رجالُ هذا الفن وأثبتَها الثقاتُ، بل يتناقلون كلماتٍ يَنْسِبُونَهَا إلى آلِ بيت الرسول ﷺ، بطريقةٍ من العبثِ واللَّغط بحيث يستحيلُ إثباتُ صِحَّتِهَا.**

*** أهلُ السنةِ يؤمنون برؤية الله تعالى في الحياةِ الآخرةِ، أمّا الرافضةُ، فإنهم يَنْفُونَ ذلك قطعًا.**

*** أهل السنة يراعون مبدأ (التَّوْقِيفِيَّةِ) فيتقيَّدون بما ورد في القرآن الكريم من الأحكامِ وفقًا لقوله تعالى: وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ. (الحشر/7)، لكنَّ الرافضةَ يتهاونون بهذا المبدأ الأساسِيِّ الهامِّ في معظم العبادات؛ يخالفونه في صيغةِ الأذانِ، وأوقاتِ الصلاةِ، ومناسكِ الحجِّ، وفي بعضِ مسائلِ الزكاةِ وصرفِها، وفي المواريثِ وأحكامِ الزَّوَاجِ...**

*** أهلُ السنةِ يُقِرُّونَ بِفَضْلِ الصحابَةِ وأنَّهم عُدولٌ وفقًا لما جاءَ في القرآن الكريم، ويكفُّون عن الخوضِ في خلافهم، وقد خَلَوْا حيث لا طائلَ من وراءِ الدخولِ في نزاعِهِمْ، وقد مَدَحَهُمُ الله تعالى وأثنى عليهم[28]، لكنَّ الرافضةَ يرمون عددًا كبيرًا منهم بالظُّلْمِ وِالفِسْقِ وحتى بالكفر!..**

---

[27] من أمثلة هذا التناقض الغريب كلمات للخميني (بالفارسية)، نقلَها بعضُ مواقعِ الشيعة عبر الإنترنت، يقول:
"یک دسته از مسلمانان شیعه هستند و یک دسته ای از مسلمانان سنی، یک دسته حنفی و یک دسته ای حنبلی و دسته ای اخباری هستند؛ اصلاً طرح این معنا، از اول درست نبود. در یک جامعه ای که همه می خواهند به اسلام خدمت کنند و برای اسلام باشند، این مسائل نباید طرح شود، ما همه برادر هستیم و با هم هستیم؛ منتها علمای شما یک دسته فتوا به یک چیز دادند و شما تقلید از علمای خود کردید و شدید حنفی؛ یک دسته فتوای شافعی را عمل کردند و یک دسته دیگر فتوای امام صادق (ص) را عمل کردند، اینها شدند شیعه، اینها دلیل اختلاف نیست ما نباید با هم اختلاف و تضادی داشته باشیم، ما همه با هم برادریم. برادران شیعه و سنی باید از هر اختلافی احتراز کنند. امروز اختلاف بین ما، تنها به نفع آنهایی است که نه به مذهب شیعه اعتقاد دارند و نه به مذهب حنفی و یا سایر فرق، آنها می خواهند نه این باشد نه آن، راه را این طور می دانند که بین شما و ما اختلاف بیندازند. ما باید توجه به این معنا بکنیم که همه ما مسلمان هستیم و همه ما اهل قرآن و اهل توحید هستیم، و باید برای قرآن و توحید زحمت بکشیم و خدمت کنیم."
المصدر: http://www.hajij.com/fa/moral/taghrib/item/1306-1392-02-03-08-01-10

[28] قال تعالى: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا. (الفتح/**29**)

* أهل السنة يعلنون موقفهم من الأحداثِ والأشخاصِ بصراحةٍ، لِضرورةِ التزامِ جانبِ الحقّ، وذلك واجبٌ أخلاقِيٌّ، أما الرافضةُ، فإنهم يتَّبِعون مبدأ "التقية"، يُظْهِرون غيرَ ما يُبْطِنُونَهُ، وهي شكلٌ من النفاقِ والازدواجيَّةِ، والنفاقُ ممقوتٌ في الإسلامِ، يناقض مبدأ الصدق والإخلاصِ الذَيْنِ اعتمدهما الإسلامُ أساسينِ من أسسِ الدين، وبابين عظيمين للنجاح والنجاةِ في التعامل وتسيير أمور الحياةِ.

هذا، وثمةَ حِجَجٌ يَصْعُبُ إيرادُها لكثرتِها، تقومُ عليهم وتبرهنُ على الشِّركِ الذي يتقلّبون بين أمواجهِ، كما تدلُّ على طبيعتِهم الوحشيةِ حروبُهُمْ التي شنُّوها على الساحتين العراقيَّةِ والسوريَّةِ، وما ارتكبوه من قتلٍ وإبادةٍ للذين ينتسبون إلى السُّنَّةِ، مع أن أكثرَ الناسِ في هذه المنطقةِ لا يُعَدُّونَ من أهل السنةِ والجماعةِ، بل المجتمعاتُ الشرقْ–أوسطيَّةُ المعروفةُ بأهل السنةِ لا تكادُ تنطبق هذه الصفة عليها لفسادِ عقائدها. إنَّ هذه الأحداثَ الدامية وما أسفر عنها من تبعاتٍ رهيبةٍ إنما تكشفُ في الوقتِ ذاتِهِ مدى خطرِ المذهبيَّةِ التي تُهَدِّدُ الأمَّةَ كما تُفشي بشاعةَ الجهلِ والفوضَى السائدَيْنِ بين المنتسبين إلى السنةِ أيضًا. إنَّ هذه الطائفةَ – في الحقيقةِ– لا تقلُّ عن الشيعةِ خطرًا على الإسلامِ وأهلِ التوحيد الخالص. لقد فشتْ في "أهل السنةِ" ما يعجز اللسانُ عن حصرِهِ من أشكالِ الفسقِ، والشركِ، والنفاقِ، والزندقةِ، والفجور... كل ذلك ناشئٌ من فسادِ اعتقادهم، وخروجهم على مبادئ الدين الحنيفِ، وتهاوُنِهم بـ(التوقيفيةِ) في العبادةِ والدعاءِ، واتِّجَارِهِمْ بالقِيَمِ المقدَّسَةِ، وسوءِ ظنهم باللهِ، وتلاعُبِهِمْ بكلامِ اللهِ، وانْهِمَاكِهِمْ في القُبوريَّةِ والتصوُّفِ، وقد اختلقوا لأنفسِهم دينًا جاهِلِيًّا خُرَافِيًّا سموها "الْمُسْلُمَانِيَّة Müslümanlık" في تركيا، وهي ديانةٌ مكذوبةٌ وَثَنِيَّةٌ وقُبُوريَّةٌ لا علاقةَ لها بالإسلامِ الذي ارتضاه الله لعبادِهِ. فقد أكبَّ الله سكانَ هذه المنطقةِ على وجوههم، وسلَّط بعضَهم على بعضٍ، وجعل بلادَهم ساحةً للفِتَنِ تتسابَقُ عليها أعدادٌ من العصاباتِ، والتنظيماتِ الإرهابيَّةِ، والمافيا، والدولةُ المجوسِيَّةُ، وإسرائيلُ، وروسيا وأميركا، فأذاقهم الله وبالَ أمرهم ليكونو عبرةً للأجيال القادمةِ إلى يوم القيامة.

وجملةُ القولِ: إن عقيدةَ الإنسانِ إذا فسدت، إمَّا أنْ يَخْسَرَ آخِرَتَهُ كالشعوب الغربية، وإن كانت دنياه عامرةً، وإمَّا أنْ يَخْسَرَ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ معًا كالشعوب الشرق–أوسطيَّةِ. فالنجاةُ إذنْ موقوفةٌ على كمالِ الإيمانِ، والإيمانُ يزيدُ وينقُصُ. وإنما يكتملُ الإيمانُ بِرسوخِ العقيدةِ الصحيحةِ في أعماقِ ضميرِ الإنسانِ مع نقاءِ سريرتِهِ. وأسَاسُهُ: سلامةُ القلبِ من شوائبِ الريبِ. وأمّا علاماتُهُ وثِمَارُهُ اليانعةُ فتظهر في الأعمالِ الصالحة قولاً وفِعلاً؛ فالإيمانُ ما وَقَرَ في القلبِ وصدَّقَتْهُ الأعمالُ. وهي

بالإختصار: العلمُ التامُّ بمفهومِ الإيمانِ وتكامُلِيَّتِهِ، والوعيُ بحقيقةِ التوحيدِ، والإخلاصُ في الدِّينِ وفي معاملةِ الناسِ، وطاعةُ اللهِ بأداءِ الفرائضِ، والسَّيْرُ على السُّنَّةِ الْمُطَهَّرَةِ، والتوكُّلُ على اللهِ (بشرطِ أخذِ الحِزْرِ وَالحِيطَةِ)، والرِّضَى بِحُكْمِهِ تعالى في الشدَّةِ والرخاءِ، وانتهاجُ الوسطيَّةِ، والإعتدالُ في العقيدةِ والسلوكِ، والصدقُ في القولِ والعملِ، والوفاءُ بالوعدِ، والتزامُ جانبِ الحقّ في أشدِّ المواقِفِ حرجًا وَضِيقًا، وإمضاءُ العزمِ، والولاءُ، والبراءُ، وحسنُ الخُلُقِ، وتقوى الله في السِّرِّ والعلانية، ورجاءُ ثوابِ الله، والمخافةُ من عقابِهِ، والتوبةُ إليه تعالى، ومعالجةُ الخَلَلِ فَوْرَ الزَّلَلِ، والصبرُ على البلاءِ، والقناعةُ بما قَسَمَ اللهُ من الرزقِ الحلالِ، ومقاومةُ الغفلةِ بمواصلةِ ذكرِ اللهِ، وتوقيرُ العالِمِ (المؤمنِ الموحِّدِ التقِيِّ) واتِّبَاعُهُ والدفاعُ عنه عند تَعَرُّضِهِ للظُّلْمِ والإطهادِ، واحترامُ ذِي الشيبِ (المؤمنِ الموحِّدِ التقِيِّ)، والرحمةُ بالصغيرِ والمنكوبِ، ومسابقةُ الخيراتِ في عمومِ الأحوالِ، واجتنابُ الشرِّ والفتنةِ والفسادِ والسلوكِ المتناقضِ، والجودُ، وإيثارُ المؤمنين الموحِّدين على النفس، ونُصْرَتُهُمْ والدفاعُ عنهم، وإتقانُ الْعَمَلِ، والأمرُ بالمعروفِ، والنهيُ عن المنكرِ، وطلبُ الحقّ لذاتِ الحقّ، وتَحَرِّي وجهَ الصوابِ في حدودِ الكتابِ والسنةِ والمقاييسِ العلميَّةِ، والجرأةُ عند المواجهةِ في حربِ الباطلِ، وبذلُ النفسِ بِالجهادِ في سبيل الله بالقول والفعل...

يجدرُ الإشارةُ هنا: أنه إذا انتفتْ هذه الفضائلُ في الإنسانِ يدلُّ ذلك على أنه كافرٌ في العمل ومؤمنٌ في الإعتقادِ – ما لم يُحَلِّلْ الحرامَ ويُحَرِّمْ الْحَلاَلَ–. ذلك لأنَّ كُفْرَ العملِ ليس هو بِكُفْرِ رِدَّةٍ. وهذه مسألةٌ دقيقةٌ غفلَ عنها كثيرٌ من المتعلِّمين والمتعالمين خاصَّةً، فارتكبوا العظائمَ من الجنايات والموبقات، فضلّوا وأضلّوا! ولا ينبغي أنْ نتجاهلَ ما جرتْ في السنين الأخيرة وما يجري في أرجاءِ الوطن الإسلاميِّ حالاً من الفتنِ وإراقةِ دماءِ ملايينَ من الأبرياءِ جَرَّاءَ أعمالٍ إرهابيةٍ ناشئةٍ أصلاً من السطحيَّةِ والفهمِ السقيمِ للدِّينِ؛ ارْتَكَبَهَا مجرمون اعتمادًا على آراءٍ وفتاوَى تُسَوِّغُ لهم الإجرامَ وتُشَجِّعُ الأغِرَّةَ من الشباب على مشاركةِ العصاباتِ في تأجيج القلاقلِ.

***

لقد كانتِ العلومُ عند أجلاَّءِ الصحابة ﷺ مُنْجَمَعَةً في صدورِهم؛ كان ذلك مِمَّا خصَّهم الله تعالى به من نِعَمِهِ الجليلةِ، لم يحتاجوا إلى كتابٍ يراجعونه عند الحاجةِ غيرَ كتاب الله وسنةِ رسوله ﷺ. فلمَّا اتّسعتْ رِقعةُ الإسلامِ بَعْدَهُمْ وانتسبَتْ أقوامٌ من الأعاجِمِ إلى الدين الحنيفِ وهم يجهلون تفاصيلَ أركانِهِ ودقائِقَ تعالِيمِهِ بسببِ جهلِهِمْ بحقيقةِ الإسلامِ، شَمَّرَ العُلَمَاءُ عن ساعدِ الجِدِّ لتدوينِ العلومِ

الْمُنْبَثَقَةِ من الْمَنْهَلَيْنِ العظيمين منذ عهدِ التابعين، عونًا للمتوافدينَ على فَهْمِهِمْ الإسلامَ الصحيحَ، فأخذَ كلٌّ منهم يؤلِّفُ ما تَيَسَّرَ له في أحدِ الفنونِ من الفقهِ والحديثِ والتفسيرِ والعقيدةِ وغيرِها من صنوفِ المعارِفِ، فتفرَّغَ عددٌ كبيرٌ من علماءِ الإسلامِ على امتدادِ القرونِ لشرحِ مسائِلِ العقيدةِ؛ كأبي حنيفةَ النعمان بن ثابت (ت.150هـ.)،[29] ومُحَمَّد بن إسحاق بن خزيمة (ت. 311هـ.)،[30] وأبي جعفر أحمد بن مُحَمَّد بن سلامة بن عبد الملك الطحاوي (ت. 321هـ.)،[31] والحافظِ أبي بكر أحمد بن الحسين بن على البيهقي (ت. 458هـ.)،[32] وأبي يعلى البغدادي الحنبلي مُحَمَّد بن الحسين بن مُحَمَّد بن خَلَف (ت. 458 هـ.)[33]

لكنَّهُ ما لبث حتّى ظهرتْ فِرَقٌ ضالَّةٌ تُحَاوِلُ تغريرَ العامّةِ وَتَبُثُّ الشكوكَ وتفتحُ بابَ الشقاقِ في صفوفِ الأمَّةِ... بعضُ المؤَلِّفِين من هؤلاءِ وقعوا في هذهِ الفتنةِ عن جهلٍ أو لِقِصَرِ نظَرِهم، أو لِمُجرَّدِ تَعَصُّبِهِمْ وعنادِهِمْ بسببِ التقليدِ الأعمَى، وبعضُهُم تعمَّدوا ذلك لِهَدْمِ الْقِيَمِ وتشتيتِ شملِ المسلمين لسوءِ طويَّتِهِمْ، وفسادِ نِيَّاتِهِم فَانْدَلَعَتْ حروبٌ كلامِيَّةٌ، وانتشرتْ مناقشاتٌ ومناظراتٌ ومساجلاتٌ بين أهلِ الحقّ وأهلِ الباطِلِ من جهةٍ، كما اختلفَ أهلُ الحقّ فيما بَيْنَهُمْ من جهةٍ أخرى. وَلَمَّا بدأتِ الخلافاتُ المتصاعدَةُ تُهَدّدُ عقيدةَ أهل السنةِ والجماعةِ، اضطرَّ علماءُ الإسلامِ للرَّدِّ على أباطِيلِ أهلِ البِدعِ والإلحادِ. تحوّلتْ هذه الخلافاتُ معَ الزمانِ إلى نزاعٍ أشدَّ ثمَّ إلى قِتالٍ وَتَنَاحُرٍ مذهبِيَّةٍ في عصرِنا. والمصيبةُ، أنَّ النزاعَ في مسائل العقيدةِ اليومَ لا يقتصرُ فيما بين أهل السنة والفِرَقِ الضالَّةِ فحسبُ، بل المتحمِّسُونَ للدفاعِ عن عقيدةِ أهلِ السُنَّةِ والجماعةِ هم بِذَاتِهِمْ مختلفون فيما بينهم.

إن المنتسبين إلى السُنَّةِ والجماعةِ في تركيا اليومَ قد انْقَسَمُوا إلى أربَعِ فِرَقٍ رئيسةٍ في مسائِلِ العقيدَةِ؛ فِرْقَةٌ منها: تَحْذُو حَذْوَ الوهَّابِيّينَ وتستمِدُّ منهم الدَّعْمَ وهم قِلَّةٌ قليلةٌ جِدًّا. والمعروفُ من الوهَّابِيّين

---

[29] له كتابٌ بعنوان: "الفقهِ الأكبر"، وهو من أجَلِّ الكُتُبِ الداحضةِ لأباطيلِ الجهميَّةِ، ينقضُ حِجَجَهُمْ الفاضحةَ، ويُظهِرُ عُوارَهُمْ، ويكشِفُ عن مخازيهم وضلالاتِهِم في أسلوبٍ لاذعٍ.

[30] له "كتاب التوحيد وإثبات صفات الربّ عزّ وجلّ"

[31] كتابه (العقيدة الطحاوية) يُعدُّ من أوجزِ المصادرِ وأسهلِها تركيبًا وأفضلِها صياغةً. شرحه عدد غير قليل من العلماءِ.

[32] سمّى تأليفَهُ "كتاب الأسماءِ والصفات" حاول فيه المؤلّفُ إثباتَ أسمائه تعالى وفق ما ورد في الكتابِ والسنة.

[33] كتابُهُ معروفٌ باسم "المعتد في أصول الدين". اختارَ في عرضه منهجَ أهل الكلامِ، بيّنَ فيه عقائدَ بعضِ الفِرَقِ الضالَّةِ وردَّ عليهم.

أنهم يَدَّعونَ اقتِفَاءَ أثرِ السلفِ الصالِحِ، ويتظاهرُون بـ"السلفيَّةِ" ولا يَمُتُّونَ إليها بصِلةٍ، قد انتهجوا لأنفسهم طريقةً من التعصُّبِ؛ يرفضون الحوارَ، وَيَنْؤَوْنَ بجانِبِهم عن الحكمةِ، وقد يلجؤن إلى العُنْفِ... أكثرُهم يسكُنون في المنطقة النجدية وقد اسْتَوْلَوْا على البقاعِ المقدّسَةِ منذ قَرْنَيْنِ من الزمن، ولهم دولةٌ في الحجازِ. لقد غلبتْ الطبيعةُ النَّجْدِيَّةُ الخُوَيْصِرِيَّةُ على معتقداتِ أبناءِ هذه الفرقةِ فَجَعَلَتْهُمْ يكرهون التعايُشَ مع غيرِ بني جِلْدَتِهِمْ ولو كان من أهلِ التوحيد. لكنَّ رغمَّ جمودِهم الفكريِّ، وفقرِهم الثقافِيِّ، وتسرُّعِهم في إظهارِ النفورِ لسائرِ مَنْ ليسوا وهابيّين، قد تمكّنوا من تسويقِ منهجِهِم خارِجَ الجزيرةِ العربيةِ، كما استطاعوا أن يَقْفِزُوا إلى الساحةِ التركِيَّة، رغمَ ما هو المعروف من الأتراك أنهم شعبٌ صوفِيٌّ مُعْظَمُهُ مغمورٌ في أنواعِ الشرك بالله، كما أنَّهم مِنْ أشدِّ القطاعات البشرية مناهَضَةً لعقيدةِ التوحيد... على رغم هذه السلبيَّاتِ والعقباتِ الرهيبةِ أمامَ الوهابيّين فقد تمكّنوا من التسلُّلِ بين صفوفِ المجتمعِ التركِيِّ ولو على قدرٍ محدودٍ في الوقتِ الراهنِ، يتحرَّكون بحيطةٍ وَيُجَرِّبُونَ حظَّهم.

للوهابيّين في هذا البلدِ عُملاءُ يقومون بتبشيرِ الفكرِ الوهَّابِيِّ بين الشباب الجامعيّين من القطاعِ المحافِظِ، ويحاولون النفوذَ إلى المدارسِ الدينيَّةِ خاصَّةً، لِظَنِّهِمْ "أنَّها أسهلُ البقاعِ لنشاطِهم حيثُ يُمْكِنُهم الإتصالُ المباشِرُ هنالِكَ بالشيوخِ والملالي، ومُخَاطَبَتُهُمْ باللُّغَةِ العربيَّةِ!" إلاَّ أنهم يجهلون المَناخَ السائدَ في هذهِ الأوكارِ المظلمةِ البعيدةِ كُلَّ البُعْدِ عن نورِ العلمِ والتوحيدِ والاهتداءِ إلى صراطِ الله المستقيم. والأهمُّ من ذلكَ أنَّ الوهّابِيِّينَ يَنْسَوْنَ أو يتجاهلون أنَّ الْعُنْصُرَ التركِيَّ لاَ يَكْتَرِثُ لِلُّغةِ العربية ولا يعبأُ بها أبدًا في أيِّ لحظةٍ من حياتِهِ. أمّا الذين يدرسونها من الأتراكِ والأكرادِ وغيرِهِمْ من مُوَاطِنِي الدولةِ التركِيَّةِ، فإنَّهم لا يقصدون منها أنْ يَتَعَلَّمُوهَا كَلُغَةِ الحوارِ إطلاقًا! وإنما يحفظون قواعدَ الصرْفِ والنحوِ فحسبُ، لِكَيْ لا يُخطِئوا في قرائتِهِم النصوصَ العربيَّة احترازًا من اللَّحْنِ عند تلاوةِ القرآن الكريمِ وقراءةِ الأحاديثِ النبوية. ولهذا، تكادُ تخلوا الساحةُ التركيةُ من عالِمٍ يَكْتُبُ، وَيَقْرَأُ، وَيَفْهَمُ، وَيَخْطُبُ، وَيُحَاوِرُ، ويُتقِنُّ أسَالِيبَ الجَدَلِ وَالْمُنَاظَرَةِ، ويَتَبَادَلُ الحديثَ باللُّغَةِ العربِيَّةِ...

للوهابيّينَ عميلانِ خاصةً يُرَوِّجانِ أفكارَهُم في تركيا. أحدُهما يُدعى عبد الله الأثري وهو من تُرْكْمَانِ العراقِ، يُعرَفُ باسمِهِ المحلِيِّ: Abdullah Yolcu، له مكتبةٌ اسمها "الْغُرَبَاءُ" تقعُ في منطقةِ السلطان أحمد بإسطنبول.[34] والثاني يُدْعَى مُحَمَّد باجلي أوغلو Mehmet Balcıoğlu، من أبناءِ قريةِ

[34] هذه كلماتُهُ، نُشِرَتْ على موقعٍ ألكتروني، يقول فيها بالحرف الواحد: "الحمد لله رب العالمين. يجب على جميع أحرار الشعب التركي أن يقفوا بشدَّةٍ ضِدَّ الانقلابيين الخونة، عملاءِ أمريكا، وإيران، والنظامِ النصيري المجرم .. وأن يقفوا صفًا واحدًا مع رئيسهم الشرعي، السيد طيب أردغان، وحكومته .. وأن يجيبوا دعوتَهُ في النزول إلى الشوارِعِ ضِدَّ الانقلابيّين الخونة. لا يُقبَلُ أنْ تعودَ تركيا المسلمةُ الحُرَّةُ إلى نقطةِ الصفرِ؛ إلى عهدِ الاستبداد، والظلم، والقمع، والتَّخَلُّفِ ..

يَرْبُوزْ Yarpuz الواقعةِ على مَقْرُبَةٍ من قضاءِ آكسكي Akseki، التابعةِ لِمدينةِ آنطاليا التركية. اتَّخَذَ الرجلُ لنفسِهِ لَقَبَ "أبو سعيد اليربوزي" احتكارًا لجذبِ انتباه العربِ واستغلالِهِمْ لِمَصَالِحِهِ الشخصيَّة. يدور حوله لَغَطٌ على لسانِ بعضِ الناسِ يتلخَّصُ في "أنه دعِيٌّ، صعلوكٌ، مُنْتَحِلٌ، حيَّالٌ وكذَّابٌ، يقتاتُ من سؤرِ الوهّابيين؛ جَنَّدُوهُ لبثِّ دَعْوَتِهِمْ في تركيا مع عِلْمِهِمْ بأنه جاهلٌ بالعربيَّةِ بله عن أدنى نصيبٍ من العلوم الإسلامية"، قد اشتهر على لسان خصومِهِ بلقبِ "أبو سعيد الْبَلْعَامِيّ". ساءتْ سُمْعَتُهُ في الأوانِ الأخيرةِ وتقلَّصتْ شُهرتُهُ بعد أن كُشِفَ عن جهلِهِ وفسادِ تصرُّفاتِهِ. وهذا مبلغ الوهابِيِّين من العلمِ والدعوةِ والإرشاد!

والفرقةُ الثانِيَةُ: مُسُوخٌ من البشر، لهم تنظيماتٌ شِبْهُ سِرِّيَّةٍ يُسمُّونَهَا "طريقةً" يتظاهرون بالزهد والتقوى، ويتسترّون وراءَ التنسُّكِ والتقشُّفِ؛ يقيمون حلقاتِ "الذكر!" وحفلاتِ الرقصِ، وَيتعبَّدون بِطريقِ التَّركيزِ اليوغِيِّ meditation على غرارِ مجوس الهندِ...[35] يُصَلُّونَ وَيَصُومُون ويَحُجُّونَ كَالْمُسْلِمِينَ، وهم الصوفِيَّةُ. لهم دياناتٌ وَثَنِيَّةٌ عديدةٌ (كالنقشبندية، والقادريَّةِ، والرفاعِيَّةِ...)، جميعُهُم قُبُورِيُّونَ، يعبدونَ رُهبانَهم، ويصفونهم بـ"أولياءِ اللهِ"، يُقِيمون على قبرِ كلِّ منهم قُبَّةً يُسَمُّونَهَا ضريحًا[36] ويزورونَها، ويطلبون منها قضاءَ حاجاتِهِمْ... لكنَّهم يزعمون أنَّهم مسلمون من أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ! أفرادُ هذه الفرقةِ مُبَعثَرونَ في جميعِ أنحاءِ الوطنِ الإسلامِيِّ، أكثرُهُم يسكنون في تركيا، وفي دُوَيْلاتِ شِبهِ جزيرةِ بَلْقَانَ، وفي العراقِ، وسوريا، والسودانَ، وتونُسَ، والمغربِ، وباكستانَ، وأفغانستان..[37]

بعد هذا الانجازِ الضخم الذي أنجزته تركيا حكومة وشعباً على المستوى الحضاري والإنساني، والاقتصادي. اللهم احفظ تركيا من شر الانقلابيين، ومن ورائهم من الأشرر، ومن كل شر .. اللهم آمين. د. عبدالله بن عبدالحميد الاثري؛ عضو رابطة علماء المسلمين. **11** / شوال / **1437**هـ" الرابط: http://muslimsc.com/site/ourpinsrabitah/363-2016-07-16-14-17-33

[35] الرابطةُ في مصطلحٌ من أقدسِ مصطلحات النقشبنديين وشعيرةٌ من أهَمِّ شعائرِهِمْ، ومَنَاسِكِهِمْ، مأخوذةٌ من المجوسِيَّةِ الهندِيَّةِ. جاءَ تعريفُها على لسانِ خالدِ البغدادِيِّ يقول: "إذ هي في الطريقةِ عبارةٌ عن استمدادِ المريدِ من روحانيّةِ شيخِهِ الكاملِ الفاني في اللهِ، بكثرَةِ رعايَةِ صورتِهِ ليتأدّبَ، ويستفيضَ منهُ في الغيبةِ كالحضور. ويتمَّ له باستحضارِهِ الحضورُ والنورُ وينزجرَ بسبَبِهَا مِنْ سفاسفِ الأمور". لقد ورد في هذا المقطع من كلام البغداديّ ثلاثُ نقاطٍ خطيرةٍ لا تتمّ الرابطة إلاّ بها عند النقشبنديّة: أُوّلُها: أن يستمدّ المريد من روحانيّة شيخه؛ وثانيها: أن يكون الشيخ فانيا في الله (؟!)؛ وثالثها: أن يستحضر المريدُ صورةَ الشيخ في ذهنه. وهكذا تظهر خطورة هذه العقيدة بتمام معناها؛ خاصّة عندما يدّعي أصحابها أنّهم مسلمون! (المصدر: فريد صلاح الهاشمي، الطريقة النقشبندية بين ماضيها وحاضرها، ص/**58**)

[36] Yatır، باللغة التركية.

[37] لمزيد من المعرفة عن هذه الفرقةِ المتوغّلة في الإشراكِ بالله، وعقائدها الوثنية القبورية، وللاطلاعِ على أشكالِ ارتكابها من الجناياتِ على الإسلامِ، بطقوسِها الهندوكية ومفترياتِها على الدين الحنيف، وأساليبِ استغلالِها للعقول الساذجةِ وتضليلِ البسطاءِ من العامَّةِ؛ يمكن بِكُلِّ سهولةٍ مشاهَدَةُ تسجيلاتٍ مرئيَّةٍ وصوتيَّةٍ مضبوطةٍ تفضحها وتكشف النقابَ عن وجهها على هذه الروابط:

https://www.youtube.com/watch?v=1olUy39evIo
https://www.youtube.com/watch?v=m8tkTXPNEdE

والفرقةُ الثالثَةُ: طائفةٌ يطعنون في السُّنَّةِ النبويَّةِ، وهم من امتدادِ العصابة الْبَرْويزِيَّةِ الْهِنْدِيَّةِ عملاءِ الإنجليز التي ظهرتْ في أواخرِ القرنِ التاسع عشر وأوائل القرن العشرين الميلادي، خَدَمُوا آمالَ الإنجليز وبذلوا جهودًا لتحقيقِ أهدافِهم الهدَّامَةِ؛ كالفرقة "القاديانية" و"البريلوية". ثمَّ قفزَ هذا التيَّارُ إلى الشرقِ الأوسطِ في الماضي القريبِ، دُعاتُهُ يُوَاصِلُون نشاطَاتِهم منذُ عقودٍ. أفرادُ هذا التيار يَكْفُرُونَ بالسُّنَّةِ، وَينسبون أنفُسَهُمْ إلى القرآن الكريم ظلمًا وزورا. من أبرز رموز هذه الطائفة في أيَّامنا زِنْدِيقٌ من أكرادِ تركيا، اسمه أديب يوكسل Edip Yüksel، هَاجَرَ إلى الولاياتِ المتَّحِدَةِ الأميركيَّةِ وأقام بها استجابةً لدعوةِ الزنديقِ المصرِيّ رشاد خليفة. ثمَّ عددٌ أخرُ على شاكلتِهِ وإنْ لم يكونوا على قدرِهِ من الوقاحةِ والشراسةِ، يبثون سمومَهُم على الساحة التركِيَّةِ بينهم لَفِيفٌ من رجال الدين والأكاديميّين.[38]

والفرقةُ الرابعةُ: قِلَّةٌ صالحةٌ من أهلِ التوحيدِ الخالصِ والإعتدالِ والوسطيةِ، يَتَمَسَّكُونَ بكتابِ اللهِ العزيزِ وسُنَّةِ رسولِهِ المطهَّرَةِ؛ يُخلصون الدِّينَ لله، لا يُشْركون به شيئًا، ويرجون لله وقارًا وَيَثِقُونَ بهِ عَزَّ سُلطانُهُ، وقد أكرمهم الله تعالى بالتَّعَقُّلِ والتدبُّرِ والعدلِ والحفظِ والأمانةِ والجرأةِ في وجهِ الأتاتوركيِّينَ المارقين ومَنْ على شَاكِلَتِهِمْ من جحافلِ العلمانيّين، والصوفيةِ المشركين، ورجالِ الدِّين المنافقين، والظَّلمةِ السياسيّينَ وتُبَّاعِهِم من العُمَلاءِ الأوغادِ... كذلك يحذرون شرَّ أدعياءِ السلفية الوهابيين وَتُبَّاعِهِمْ في تركيا، لكنّهم يُتَّهَمونَ بموالاةِ الخوارجِ والإرهابِيّن؛ يتعرّضونَ لمداهمة الشرطةِ ويُحبَسُونَ في السجونِ ويُعَذَّبونَ من غير وجه حقٍّ.

اندلعتْ حربٌ كلاميةٌ ضاريةٌ بين هذه الفِرَقِ منذ انتشارِ الأجهزةِ الإعلامِيَّةِ، فَظَهَرَ صناديدُ الفِرقَتَينِ (القرآنيّين والصوفِيَّةِ) على شاشاتِ التلفازِ، وتصاعدتْ نِقاشُهُمْ خلالَ قنواتِ التواصلِ الإجتماعِيِّ وعَبْرَ المواقعِ الألكترونية فضلاً عمَّا كُتِبَ عن لسانِهِم من مساجلاتٍ، ومشاتماتٍ، وتهديداتٍ وتكذيباتٍ وتشنيعاتٍ وجَّهَهَا بَعْضُهُمْ إلى بعضٍ نُشِرَتْ على صفحات الجرائد والمجلاتِ...

---

https://www.youtube.com/watch?v=LbBvYYRCikU

[38] أبرزهم: **1**) مصطفى إسلام أوغلو Mustafa İslamoğlu، **2**) أمْرَهْ دورمان Emre Dorman، **3**) ياشار نوري أوزتورك Yaşar Nuri Öztürk، **4**) جَانَرْ تَسْلَمَانْ Caner Taslaman، **5**) إحسان ألياجيك İhsan Eliaçık، **6**) أرجمند أوزكان Ercüment Özkan، **7**) مُحَمَّد أوكيان Mehmet Okuyan، **8**) بَيْرَقْدَارْ بَيْرَقْلِي Bayraktar Bayraklı، **9**) سليمان آتَش Süleyman Ateş، **10**) إسماعيل نجار İsmail Nacar، **11**) زكريا بياض Zekriya Beyaz ...

إنَّ اختلافَ الأتراكِ في العقيدةِ أزمةٌ قديمةٌ مستمرّةٌ منذ قرونٍ. فأهلُ الحضرِ منهم كانوا يزعمونَ أنّهم من أهلِ السنَّةِ والجماعةِ منذ اعتِنَاقِهِمْ الإسلامَ في بلادِ (ما وراءِ النهر)، وأمّا أهلُ الريفِ منهم فكانوا يتذبذبون بين دياناتٍ وثنيَّةٍ يَعْتَنِقُونَ مِنْ هذا وذاك أجْزاءً، كما اقتبسوا من الإسلامِ ما استحسنوه، فجمعوها وركَّبوا بَعْضَهَا على بعضٍ فأسْمَوْهَا (الْعَلَوِيَّة).

دامَ النزاعُ بين الطائفتين (السُّنِّيَّةِ والعلَوِيَّةِ) طوالَ قرونٍ إلى يومنا هذا. يبرهن على ذلك انحيازُ العلوِيّين الأتراكِ إلى النظامِ السورِيّ النصيرِي (العلوِيّ)، وتحدّيَاتهم في وجهِ حكومةِ أردوغان التي تُمَثِّلُ اليومَ الجبهةَ "السنيةَ" لكن الفرقةَ السنّيَّةَ لاَ تَمُتُّ في الواقعِ بصلةٍ إلى السُّنَّةِ والجماعة! بل هي خليطٌ من جماعاتٍ محافظةٍ مُعظمُها نَقْشَبَنْدِيُّون؛ تَستمدُّ عقائدُهُمْ مِنْ تعاليمِ الراهبِ الهندِيّ بَيْتَنْجَل Patanjali.

أمَّا الاختلافُ القائمُ بين الفريقينِ السُّنِيّ والعلوِيّ فله قِدَمٌ تاريخيٌّ؛ ذلك لَمَّا كَثُرَ عدَدُ المتوافدين من الطلبةِ الأتراكِ إلى البلادِ العربيَّةِ في عهد العثمانيّين، انتعشَتْ عقيدةُ التوحيدِ بين جماعةٍ محدودَةٍ من المثقَّفِين منذ عهد السلطان مُحَمَّد الفاتح، أدَّى ذلك إلى نشوبِ نزاعٍ بين هذه الطبقةِ وبين الصوفِيَّةِ في القرن السابع عشر، دامَ قُرَابةَ خمسين عامًا وانتهى بإحباطِ دعوةِ التوحِيدِ. وهذه نبذة من تفاصيلها.

ظهرت حركةٌ شبهُ سلفِيَّةٍ في المجتمع العثمانِيّ مع بداية تدهور الدولة أيامَ السلطان مراد الرابع[39] واستمرَّتْ في عهدِ السلطان إبراهيم[40] والسلطان مُحَمَّد الرابع.[41] كانت لهذا التيار خلفياتٌ في الواقعِ مُمْتَدَّةٌ منذ عهدِ السلطان سليمان القانوني تتصل بأعمال الشيخ الإمام مُحَمَّد الْبِرْكَوِيّ الذي أعلنَ الحربَ على البِدَعِ، وشنَّ الهجومَ على الصوفِيَّةِ، وثَمَّ أسبابٌ أُخرى هامّةٌ لهذه الحركة تستحقُّ الوقوفُ عليها بُرهةً:

انتبه عددٌ قليلٌ من العلماءِ العثمانِيّين إلى أنَّ هناكَ فَجَوَةٌ سَحِيقَةٌ بين الإسلامِ وبين ما يعتنِقُهُ المجتمعُ. إلاَّ أنّهم لم يتمكّنوا من القِيَامِ بالدعوةِ إلى الإسلامِ الصحيحِ لِقِلَّةِ عَدَدِهِم، وكثرةِ المشعوذِين

[39] مدة حياته: (**1612–1640م.**) **28** سنة. مدة حُكْمِهِ: (**1623–1640م.**) **17** سنة.

[40] مدة حياته: (**1615–1648م.**) **33** سنة. مدة حُكْمِهِ: (**1640–1648م.**) **8** سنين.

[41] مدة حياته: (**1642–1693م.**) **51** سنة. مدة حُكْمِهِ: (**1648–1687م**) **39** سنة.

من الصوفِيَّةِ والسحرةِ والروافِضِ. إذ أنَّ المجتَمَعَ العثمانِيَّ كان مُعظَمُهُ من التُّركمانِ العلوِيّينَ الرُّحَّلِ أيّام ظهورِ الدولةِ على مسرحِ التاريخِ. وإنما كان القِطاعُ السُّنِّيُّ في هذا المجتَمَعِ هي البقِيَّةَ الباقِيَةَ من الأتراكِ السلاجِقَةِ الذين انهارتْ دولتُهُم بعد استيلاءِ المغولِ على منطقةِ أناضول. ثمَّ قامتِ الدولةُ العثمانِيَّةُ على أنقاضِ الدولةِ السلجوقِيَّةِ التي كانت فيما سَبَقَ الدَّوْلَةَ الأُمَّ بالنسبة للأمة التركِيَّةِ.

إنّما انتشرتْ عقيدةُ أهلِ السنَّةِ والجماعةِ بين الأتراكِ العثمانِيّينَ بعدَ فترةٍ من قيامِ دولتِهِم بفضلِ دُفُعاتٍ من طُلاَّبِ العلمِ الذين كان أكثرُهُمْ يتوافدونَ إلى مِصْرَ، وقِلَّةٌ منهمْ إلى غزَّةَ ودِمَشق. ثمَّ تأثَّرَ بعضُ هاؤلاءِ الطُّلاَّبُ بِكُتُبِ ابْنِ تيميَّةَ وابنِ القيّمِ الجوزيَّةِ، فقفزتْ بذلك فكرةُ توحيدِ الله تبارك وتعالى إلى الديارِ التركِيَّةِ في وقتٍ مبكّرٍ وقبل أيامِ بايزيدِ الأول، ثمَّ أخذتْ في التنامي أيامَ السلطان سليمان القانوني حيثُ نشأ في هذه الفترةِ شخصِيَّةٌ اشتهرَ بالعلم والورع والتقوى، واتسمَ بالجرأةِ، فقامَ بالدفاعِ عن عقيدةِ أهلِ السنةِ والجماعةِ في وجه تحدّياتِ أهلِ الشرك من الصوفة. وهو الإمامُ الجليلُ الشيخ مُحَمَّد الْبِرْكَوِيّ رحمه الله تعالى. يُعدُّ الْبِرْكَوِيُّ من مفاخِرِ الأتراك، له عنايةٌ كبيرةٌ وأيادي بيضاءَ في تصحيح العقيدةِ، يبرهن على جهودِهِ مؤلَّفَاتُهُ باللغتين العربية والتركية، تبلغ في مجموعها: 37 كتابًا.[42] استفادَ منها طلبةُ العلمِ قرونًا، كما استوحتْ منها حركةُ (قاضي ذاده Kadızadeliler) فكرةَ إصلاحِ العقيدة في القرنِ السابع عشر الميلادي، لكنها أخطأتِ الأسلوبَ وجانبتِ الصوابَ، ولهذه الحركةِ قصةٌ فيها عِبَرٌ.

لا شكَّ في أنَّ هذه الحركةَ قامتْ على أساسٍ من حُسْنِ النيةِ والإيمانِ الصادِقِ والإخلاصِ، وكان أصحابُ هذه الدعوةِ يحرصون على إنقاذِ الناسِ من مُسْتَنْقَعِ الكفرِ والشركِ؛ يبذلون جهودَهم في ترسيخِ عقيدةِ التوحيدِ، وقمعِ البِدَعِ والشِّرْكِيَّاتِ... إلاَّ أنهم بأجمعِهِم كانوا يجهلون المعاملةَ في

[42] هذه أسماء مؤلَّفَاتِهِ: الطريقة المحمّدية والسيرة الأحمدية (في الأخلاقِ والرقائق)، رسالة في تفضيل الغني الشاكر على الفقير الصابر، الوصايا (في مسائل العقيدة)، روضات الجنات في أصول الإعتقاد، راحة الصالحين، رسالة الْبِرْكَوِيّ، كتبه باللغة التركية (في عقيدة أهل السنة والجماعة)، ذخر المتأهّلين (في مسائل الحيض)، تعليقة على إصلاح الوقاية في الفروع لابن كمال باشا (علق الْبِرْكَوِيُّ فيها على كتاب الطهارة منه)، مُعَدِّلُ الصلاة، رسالة في الفرائض، تعليقة مختصرة على الهداية، زيارة القبور البدعية والشركية، العوامل (في قواعد النحو العربي)، إظهار الأسرار (في قواعد النحو العربي)، شرح لب الألباب في علم الإعراب للبيضاوي المسمَّى امتحان الأذكياء (في قواعد النحو العربي)، شرح مختصر الكافي (في قواعد النحو العربي)، إمعان الأنظار في شرح المقصود (في قواعد الصرف العربي)، كفاية المبتدي (في التصريف)، رسالة في آداب البحث والمناظرة، دامغة المبتدعين وكاشفة بطلان الملحدين، الأمثلة الفضلية، رسالة في بيان رسوم المصاحف العثمانية، شرح حديث ألابعين، رسالة في أصول الحديث، أطفال المسلمين، رسالة إنقاذ الهالكين في حكم أخذ الأجرة على تلاوة القرآن الكريم، إيقاظ النائمين وإفهام القاصرين (ردَّ فيه على أبي السعود أفندي بعدم جواز أخذ الأجرة على تلاوة القرآن الكريم)، الدر اليتيم في علم التجويد، تحفة المسترشدين في بيان مذاهب فرق المسلمين، تفسير سورة البقرة، جلاء القلوب، حاشية على شرح الوقاية لصدر الشريعة، حاكم فيها بين العلامة ابن كمال باشا وبهاء الدين زاده المولى محيي الدين المتوفى سنة 953هـ، رسالة في التغني وحرمته ووجوب استماع الخطبة، السيف الصارم في عدم جواز وقف النقود والدراهم، محك المتصوفين، نوادر الأخبار، نور الأخيار.

الدعوةِ؛ كانت طريقَتُهُم وعرةً، وخطابُهم خاليًا من الحكمةِ تمامًا؛ يتسرَّعونَ في تكفير الناسِ؛ يحكمون على مُعظمِ الشعبِ بالشركِ والكفرِ والزندقةِ ويتَّهَمونهُم، ويطلبون من الحكّام تنفيذَ أشدِّ العقوباتِ فيهم قبلَ أن يُرشِدوهم بالرفقِ والقولِ الليّنِ، بل تناسوا أنَّهم أمامَ سيلٍ عارمٍ من أهلِ الشركِ والجاهلِيَّةِ، تمنعُهُم العُجْمَةُ والتقليدُ الأعمَى والجهلُ أن يفهموا أدنى شيءٍ من الإسلامِ، وقد نشأوا على الْمُسْلُمَانِيَّةِ والتصوُّفِ والقبورِيَّةِ. نعم، كانوا يُصَلُّونَ ويصومون ويحجُّونَ ويزكُّونَ ولكنَّهم مع كلِّ ذلك مُنْهَمِكينَ في عبادةِ الْمَوْتَى. تجاهلَ الدعاةُ أنَّ الإنسانَ الميّتَ في مفهومِ الشخصِ الأعجمِيِّ إلهٌ، خاصَّةً إذا كان قبرُهُ تحتَ قُبَّةٍ "فإنه يعلمُ الجهرَ وما يخفى، يَتَصَرَّفُ في الكونِ: يُحْيِي وَيُمِيتُ وَيَرْزُقُ، ويقضي حاجةَ المتضرّعِ إِلَيهِ وَيَمُدُّهُ بِقُدْرَتِهِ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، يحفظُ زائرَهُ وَعابِدَهُ من الْهَلاَكِ إذا ناداهُ ولو كان على قِمَمِ الجبالِ أو في أعماقِ الوُدْيَانِ والغاباتِ والصحاري" لا يزالُ مُعظمُ الأعجامِ على هذا الإعتقادِ إلى هذه الساعةِ. ويستحيلُ تسليطُ الضوءِ على قلبِ أحدٍ منهم إلاَّ من رَحِمَ رَبِّي. هذا إلى جانبِ طُغْيانِ الأمراءِ وما اسْتَشْرَى من الفسادِ والرزائلِ على كلِّ ناحيةٍ من أرضِ المسلمين في القرنِ السابعَ عَشَرَ الميلادِيِّ.

عرضتْ للدَّولةِ العثمانيةِ في هذه الحُقبَةِ الزَّمَنِيَّةِ أزَمَاتٌ سِيَاسِيَّةٌ واجْتِمَاعِيَّةٌ واقْتِصَادِيَّةٌ حادَّةٌ جِدًّا غابَتْ في غمرتِهَا كثيرٌ من القِيَمِ الأساسِيَّةِ للدينِ الإسلامِيِّ، فاختلَّتْ عقيدةُ التوحيدِ تحت زحامِ الشِّرْكِيَّاتِ التي كانت تتسرَّبُ من المناطق الآهلةِ بأهل الذمةِ من اليهودِ والنصارى إلى محيطاتِ المسلمين. كانت المصيبةُ أدهى وأمرَّ إذا أضيفَ هذا إلى جانب ما كانت الجماعات الصوفِيَّةُ تفعلها (على حساب الإسلامِ) من الرقصِ والسماعِ وأشكالٍ غريبة من الأذكارِ والعباداتِ المناقضة لنصوصِ الكتابِ والسنة... فشاعت (بين الْمُجْتَمَعِ الْمُسْلُمَانِ) تصرُّفاتٌ وعاداتٌ لأهلِ الكفرِ، وكثيرٌ من مُعْتَقَدَاتِ أهلِ الشركِ، وأعمالٌ موبِقاتٌ للإيمانِ... كانت مظاهرُ الإشراكِ باللهِ (في الْمُقامِ الأولِ) منتشِرَةً انتِشَارًا ذريعًا في هذه المرحلةِ لِضعفِ الشخصِيَّةِ في الحُكَّامِ العُثمانِيّنَ الأواخِرِ، وانهماكِ رجالِ الدولةِ في الفسادِ والارتشاءِ والاسرافِ والبذخ...

كان السلطان مراد الرابع ابن السلطان أحمد الأوَّل حاكمًا قاسِيًا دَمَوِيًّا شديدَ البأسِ. لأنه نشأ في أيامٍ مليئةٍ بأحداثٍ داميةٍ داخلَ الأسرةِ المالكة، إذْ قُتِلَ أخُوهُ السلطان عثمان الثاني (وهو في عنفوان شبابه) بأفظعِ أشكالِ القتلِ، كما ذاقَ مراد مرارةَ الحياةِ في قَفَصٍ قُرابَةَ أحدَ عَشَرَ عامًا داخلَ القصرِ وهو طفلٌ، فتأثّرتْ نفسُهُ بما شاهد وعاش من المآسي. بلغ هذا التأثيرُ فيهِ إلى حدٍّ لم

يشتهِ النساءَ أيامَ شبابِهِ، بل اتَّخَذَ لِنفسِهِ أخِلاَّءَ ومعشوقِين من الغِلمانِ الْمُرْدِ،[43] ولم يَنْبِضْ قَلْبُهُ بالرحمةِ على أحدٍ في فترةِ حُكمِهِ. يُفتَرَضُ أنَّ نارَ الحسرةِ والحرمان كانتْ تتلظّى في باطِنِهِ فتدفعُهُ إلى الإنتقامِ من أيّ إنسانٍ يجمعُ القَدَرُ بينهما. مَنَعَ التِّجوالَ بعد المغربِ، كما منع القهوةَ واستِعْمَالَ التبغ (أي شُرْبَ الدُّخان) والكحولِ، فَقُتِلَ في أيامِهِ كثيرٌ من الناسِ بهذه الذرائع، مع أنه كان سِكِّيرًا شرّيبًا للخمر. لم يكن السلطان مراد الرابع في الحقيقة مُمتثِلًا ما يأمر به، مجتنبًا ما ينهَى عنهُ، بل كان علي عكس ذلك في سلوكه وتصرفاته. لذا لم يُجد محاولاتُهُ وجهودُهُ نفعًا. لأنَّ ذلك مخالفٌ للحكمة كما قال الشاعر:

وإذا عتبت على السفيه ولمته * في مثل ما تأتي فأنت ظلوم
لا تنه عن خلقٍ وتأتي مِثْلَهُ * عارٌ عليك إذا فعلتَ عظيم

***

حلَّ مكانه فور موتِهِ أخوه السلطان إبراهيم ابن السلطان أحمد الأوَّل الذي أُلقِيَ في سجن القصر وهو طفلٌ يومئذٍ له سَنَتَانِ من العمر. قضى **23** عامًا داخلَ القَفَصِ ولم يُفْرَجْ عنه إلاَّ بعد ساعةٍ من موتِ أخيه مراد، لِيجلسَ على عرشِ السلطنة بعدَهُ. كان إبراهيمُ ذا شخصِيَّةٍ ضعيفةٍ هشَّة، لأنَّ أعصابَه كانت مُنهارةً لِمُعاناتِهِ سنين طويلةً وراءَ جُدران الْمُعْتَقَلِ، لُقِبَ بـ(إبراهيم المعتوه) لهذا السبب، لكنَّهُ لم يكن معتوهًا في الواقع، بل كانَ ذكِيًّا فَطِنًا نقِيَّ السريرةِ، وإنّما كان يُعاني من حالاتٍ نفسِيَّةٍ جَعَلَتْهُ عصبِيًّا مُخْتَلَّ التوازنِ مُضْطَرِبًا في قراراتِهِ وتصرُّفاتِهِ؛ أولُ كلمةٍ نطقَ بها عند صعودِهِ إلى عرشِ السلطنةِ تدلُّ على حُسْنِ طويَّتِهِ وعلوِّ هِمَّتِهِ رغمَ كلِّ ما بِهِ من آلامٍ وجهلٍ ووحشة؛ قال: "اللهمَّ احْفَظْ أمةَ محمدٍ، أللهمَّ إنْ أردْتُ أن أظْلِمَ أحدًا مِنْ عبَادِكَ فَعَامِلْنِي بِقَهْرِكَ رب العالمين!"

لم يكنْ إبراهيمُ أمِّيًّا لكنَّ السجنَ حرَّمَهُ من التعليم، فنشأ شِبْهَ جاهلٍ؛ كان خطُّهُ يضاهِي خَرْبَشَةَ الصبيانِ. دَفَعَتْهُ حالاتُهُ النفسِيَّةُ إلى إصدارِ فرماناتٍ صارمةٍ؛ أمَرَ بقتلِ جماعةٍ من رجالِ بلاطِهِ لأسبابٍ تافِهَةٍ. كانَ إبراهيمُ مريضَ النفسِ كئيبًا يندبُ الأسى ويسكب عبرات الأسف طوال لياليه،

---

[43] ذَكَرَ المؤرِّخُ التركي الشهير رشاد أكرم كوجو في كتابه (سلاطين بني عثمان) أنَّ السلطان مراد الرابع ابن السلطان أحمد الأوَّل كان شاذًّا مثلِيَّ النزعةِ، انهمك في الحُبِّ لعددٍ من الغلمانِ الْمُرْدِ ذَوِي الجمالِ الخلاّبِ والرشاقةِ البدنية. يأتي على رأسِهم فتيان، أحدهما يُدعَى حسن خليفة، والثاني موسى مَلَك تشلبي. وقعا في يد العصاةِ أثناءَ تمرُّدِ الجيشِ على السلطان عام **1632**م. ففتكوا بهما وقطعوهما إربًا إربًا!. المصدر: Reşat Ekrem Koçu, Osmanlı Padişahları s/207, 2.8, Nebioğlu yy. stanbul

تمضي أيَّامُهُ في حُزنٍ دائمٍ ويعيشُ في جزعٍ واضطرابٍ لا هوادةَ له، يتقلَّبُ في أمواجٍ من الهمومِ والغمومِ. دفعه ذلك إلى البحثِ عن المشعوذين والسحرةِ، فوقع في حبالهم واعتقدَ بصحة طلاسمهم وتمائمهم وخضع لهم عسى أنْ يهدِّؤوا من آلامِهِ ويوفِّروا له من الراحة ولو ساعةً، ثمَّ سَحَبَتْهُ حالتُهُ هذه أخيرًا إلى سفهٍ وطيشٍ؛ انْهَمَكَ في أبشعِ أنماطِ الإسرافِ والتَّرَفِ والبَذَخِ، فانْجَرَفَ المجتمعُ من ورائِهِ، وعمَّ البطرُ والأشرُ والمجونُ بين الأغنياءِ، أثارَ ذلك عاطفةَ الحسدِ في نفوسِ العامّةِ حيالَ الطبقة الثريةِ، فظهرت آثارُها أولاً على العقيدةِ ثمَّ على الأخلاقِ والسلوكِ. فما لبث حتى بدأ الناسُ يلجؤون إلى المشعوذين والسحرةِ والأضرحةِ لدفع شرورِ الظلمةِ، فانتشرت القبوريَّةُ وعادت الجاهلية من جديد.

خُلِعَ السلطان إبراهِيم وأُلقِيَ في زنزانةِ القصرِ، وأُجْلِسَ مكانَهُ طِفْلُهُ محمدٌ الرابعُ الذي كان له سبعُ سنين من العمر، ذلك بِفَتْوَى من مفتي الديار العثمانية الشيخ عبد الرحيم أفندي، وأُعدِمَ والِدُهُ المخلوع في زنزانتِهِ بعد أسبوع.

كانتْ أيَّامُ هؤلاءِ الحكامِ الثلاثَةِ مرحلةً متميّزةً في التاريخ العثمانيّ بأحداثِها التي عصفت بالمجتمعِ وأسفرتْ عن شَغَبٍ وَفِتَنٍ وفوضَى أثارتْ حفيظَةَ عددٍ من رجالِ الدين حين رأوا الناسَ يتهاونون بعيقدةِ أهلِ السنة والجماعةِ ويرتكبون شناعاتٍ تدلُّ على أنَّهم يُشرِكون بالله جهارًا. فنهض هؤلاءِ الشيوخُ بأعباءِ الإرشادِ والنصيحة والذَّبِّ عن عقيدةِ التوحيدِ وتصحيحِ وُجْهَةِ الإيمانِ بالله وحده. كان على رأسِ هؤلاءِ المصلحين ثلاثَةٌ اشتهرو بلقب (قاضي ذاده Kadızadeliler)[44]، أي جماعة

[44] لمزيدٍ من المعرفةِ حولَ الحركة شِبهِ السلفِيَّةِ التي اندلعتْ في إسطنبول عند بداية القرن السابع عشر الميلادِي، يوصى بمراجعة المصادر التالِيَّة:

1.Muhammet Raşit Akpınar, Kadızadeliler ve Sivasiler Arasındaki Fıkhî Tartışmalar. Marmara University Department of Theology, Department of Islamic Law Bachelor Thesis. Istanbul-2009.

2.Semiramis Çavuşoğlu, The Kadızadeli Movement: An Attempt of Shariat Minded Reform in the Ottoman Empire. Doctoral Thesis. Princeton University 1990.

3.Dina Le Gall, Kadizadelis Naqshbendis, And Intra-Sufi Diatribe in Seventeenth Century; The Turkish Studies Association Journal, 28: 1-2 Pg.: 1-28. 2004.

3.Semiramis Çavuşoğlu, Kadızadeliler . Türkiye Diyanet Vakfı İslâm Ansiklopedisi C. 24. Pg.: 100-102. İstanbul-2001.

4.James Muhammed Dawud, Kadızadeli Ottoman Scholarship, Muhammad Ibn'Abd Al-Wahhâb And The Rise Of the Saudi State. Journal of Islamic Studies, 26: 3, Pg.: 265-288. 2015.

5.Hüseyin Akkaya, XVII. Yüzyıl Osmanlı Devleti'nde Görülen Fikir Hareketlerinde Kadızadeliler-Sivasiler Tartışması. Vol./7. Pg.: 170-177. Yeni Türkiye publishing. Ankara-1999.

ابناء القاضي، وهم: الشيخ مُحَمَّد أفندي بن مصطفى الطوغاني القاضي[45]، والشيخ مُحَمَّد الأسطواني الدمشقي[46]، والشيخ مُحَمَّد أفندي الفاني[47].

لكنهم لمّا أسفرت محاولاتُهم عن ردودِ فعلٍ عنيفةٍ في أوساطِ المجتمع العثماني وكادت أن تتفاقم الفتنُ في أرجاءِ المملكةِ لقسوةِ خطابِهم، وجفوةِ طِباعِهم، وعدم اهتمامهم بالتماهل والرفقِ والملاطفةِ على مثالِ النبيّ ﷺ وأصحابِهِ والسلف الصالح، امتنعتِ السلطةُ من دعمِهم. لكنهم لم يَكُفُّوا عن نزواتهم، بل ركبوا رؤوسَهم فهاجموا المشركين وهدَّدوهم، وأثاروا القِلَّةَ المغترَّةَ بهم على الصوفِيَّةِ والمشعوذين والسحرةِ القبوريّينَ، وما لبث حتى انقلب الأمرُ عليهم فصدرتِ الأوامرُ بتفريقِ جَمْعِهِمْ، ونفيِهم إلى مناطقَ متباعدة. هكذا أُحْبِطَتْ أعمالُ هؤلاءِ السلفِيّين الْغُفَّلِ الذين كانوا في الواقع بمنأى عن الحكمة في دعوتِهم على غرارِ الخوارج والوهابيّين.

استمرَّتْ ضغوطُ الحكومةِ العثمانِيَّةِ فيما بعدُ على الموحِّدِينَ بعد هذه الأحداثِ إلى أيَّامِ انهيارِ الدولةِ. فلمَّا أُعلِنَ عن قِيَامِ الجمهورية التركِيَّةِ وقد وثب على سلطَتِها طغمةٌ أجنبِيَّةٌ بقيادةِ مصطفى

6.Simeon Evstatiev, The Qadizadeli Movement and the spread of Islamic Revivalism in the Seventeenth Century Ottoman Empire Preliminery Notes. Sofia Cas Working Paper Series No:5 Pg.:3-34 Sofia-2009-2012.

7.Mehmet Karagöz, Osmanlı Fikir Hayatında Kadızadedliler. Vol.:2 Pg.:141-152. Ankara-2002

[45] الشيخ مُحَمَّد أفندي بن مصطفى الطوغاني القاضي: تركِيٌّ الأصلِ، من علماءِ الدين. وُلِدَ سنة **1582**م. في مدينة بالي كثير ومات بها في سنة **1635**م. كان أبوه من الصوفية (الخلوتية)، نشأ على عقيدتِه، لكنه بعد أن درسَ مؤلَّفاتِ الشيخ مُحَمَّد البركوي الذي اشتهر بمكافحة البِدعِ والشِّرْكِيَّاتِ، نبذَ التصوُّفَ وأعلن الحربَ على ممارساتِ الصوفِيَّةِ والقبوريةِ.

[46] الشيخ مُحَمَّد الأسطواني الدمشقي: عربي الأصلِ من أهالي دمشق، لا ذكرَ له في التراجم. قيلَ: سببُ إقامتِهِ في إسطنبول: أنه قتل شخصًا في بلده فلجأ إلى عاصمة الدولةِ اتّقاءَ نقمةِ الخصومِ. كان حنبلِيَّ المذهبِ متشدِّدًا، يغلب أنه كان متأثرًا بمؤلَّفاتِ ابن تيمية الحراني والشيخ مُحَمَّد البركوي. تولّى زعامةَ الحركة السلفِيَّةِ بعد وفاةِ الشيخ مُحَمَّد أفندي بن مصطفى الطوغاني القاضي. حظِيَ بمكانةٍ مرموقةٍ لدى بلاطِ السلطان مُحَمَّد الرابع في بداية أمرِهِ، لكنه استغلَّ هذه الفرصَةَ فأخَلَّ بالأسلوبِ المعقولِ وتجاهل الدعوةَ بالحكمةِ ومال عن الصراطِ السوِيِّ في إرشادِ الناسِ؛ حَرَّضَ أتباعَهُ على هدمِ تكايا الصوفِيَّةِ وعلى ضربِهِم، فاندلعت فتنةٌ في أرجاءِ المملكة العثمانيةِ راحت ضحيّتها أرواحٌ من الطرفين. فما لبث حتى أمر الصدرُ الأعظمُ (أي رئيس الوزراءِ) مُحَمَّد باشا كوبرولو بالقبضِ عليه وعلى عددٍ من بطانتِهْ، ونفاهم إلى جزيرة قبرص. قيل: هرب الشيخ الأسطواني بعد فترةٍ إلى بلده ومات به. كما قيل: إن نشاطات الأسطواني دبَّتْ إيحاءاتها في عقولِ طائفةٍ من المجتمع العربي فكان لها أثرٌ في اندلاعِ الحركة السلفية التي انفجرتْ في الجزيرة العربية بزعامة مُحَمَّد بن عبد الوهاب رحمه الله.

[47] الشيخ مُحَمَّد أفندي بن بسطام الفاني Vanî Mehmed Efendi (ت. **1685**م.): وُلِدَ في قرية خوشاب على مقربةٍ من مدينةِ فان Van الواقعةِ على تخوم التركية الإيرانية اليوم. يُعَدُّ الفانِيُّ من أعلامِ عصرِهِ في الدولة العثمانية. قيل: إنه عربِيُّ الأصلِ مُسْتَكْرَدٌ، أتقن اللغةَ التركِيَّةَ (اللهجةَ العثمانيةَ)، دعاه الوزير الأعظم إلى اسطنبول وأكرمه بتعيينه واعظًا في جامع والدة السلطان، ثم كُلِّفَ بتعليمِ الأميرين مصطفى وأحمد ابنا السلطان مُحَمَّد الرابع وأصبح من جلسائه. ملأ الفراغَ الذي تركه الشيخ الأسطواني لأحياءِ حركة التوحيد. دعا الناسَ إلى التمسُّكِ بالكتابِ والسنة، ونبذِ الإشراكِ بالله. عليه أصدر السلطان مُحَمَّد الرابع فرمانًا يمنع فيه زيارة الأضرحة. كان الشيخ مُحَمَّد الفاني بين رجال البلاطِ الذين أقنعوا السلطان مُحَمَّد الرابع لإعلانِ الحربِ على دولة (نَمْسَى) وَفَتْحِ عَاصِمَتِهَا (فِيَنَّا). فلما انْهَزَمَ الجيشُ العثمانِيُّ في هذه المعركةِ سقطَ الشيخ مُحَمَّد الفاني من عين السلطان، فأُبعِدَ من إسطنبول وأُجْبِرَ على الإقامة في قريتهِ (كَسْتَلْ) قربَ مدينة بورصا إلى أن مات بها.

كمال، أفرادُها كانوا يتبنَّونَ فكرةَ التغريبِ، فبادروا في الخطوةِ الأولى بقمعِ شيوخِ الصوفِيَّةِ وإغلاقِ تكاياهم بغرضِ القضاءِ على الإسلامِ، ظنًّا منهم أنَّ ممارساتِ الصوفِيَّةِ (النقشبنديّين خاصَّةً) والطقوسَ التي يُقيمونَها باسمِ الدين هي الإسلامُ بعينِهِ! لأنَّ مصطفى كمال كان يجهلُ الإسلامَ، فالتبسَ عليهِ "الْمُسْلُمَانِيَّةُ" بِـ"الإِسْلاَمِ"، وكان التيَّارُ النقشبندِيُّ مِنْ أبرزِ صُوَرِ الْمُسْلُمَانِيَّةِ يومئذٍ، فقامت السلطةُ الأتاتوركِيَّةُ بقمعِ النقشبنديّينَ في بداية العهدِ الجمهورِيِّ وقتلتْ عددًا غيرَ قلِيلٍ منهم عَقِبَ مؤامراتٍ دبَّرَتْهَا.

تميَّزَتْ هذهِ المرحلةُ بحروبٍ دينيّةٍ بسببِ الاختلافِ في العقيدةِ بين الطغمةِ الحاكمةِ والمجتمَعِ. كان الغرضُ من هذه الحروبِ أصلاً القضاءَ على الإسلامِ في تركيا، لكنَّ النزاعَ في حقيقتِها كان يجري بين الإلحادِ الكماليِّ والشركِ النقشبندِيِّ لأنه لم يكن يومئذٍ شيءٌ اسمه الإسلامُ، بل كانتِ الْمُسْلُمَانِيَّةُ هي الديانَةَ التي اعْتَنَقَهَا الأتراكُ منذ أيَّامِ الفتحِ الإسلامِيِّ لبلادِهم إلى هذه الساعةِ. ولأنَّ عقيدةَ التوحيدِ لم تكن شيئًا معروفًا عند المجتمع التركِيِّ في تلك المرحلةِ لقلَّةِ الموحِّدِينَ في هذا البلد، وإنّما بدأ تعاليم التوحيد في الظهورِ والانتشارِ على الساحة التركِيَّةِ عقِبَ تنفيذ حكم الإعدامِ في الأكاديمي المصرِيِّ سيد قطب رحمه الله، ووصولِ خبره إلى المثقفين الأتراك، حيث أصبح الخبرُ ذريعةً لصحوةٍ جديدةٍ حولَ عدَّةِ مفاهيم من أصول العقيدة ودقائِقِها؛ كالتوحيد، والشرك، والولاءِ، والبراءِ، والحكم، والتحكيم ونحوها...

ظهر في منتصف القرن العشرين تيارٌ جديدٌ باسمِ "النُّورْجِيَّةِ Nurculuk" تَمَثَّلَتْ في نشاطاتِ جماعةٍ الْتَفَّتْ حولَ بَلْعَامٍ اسْمُهُ سعيدُ النورسِيُّ. اتَّخَذَ الرجلُ من القرآن الكريمِ متاعًا لِيَشْتَرِيَ بآياتِ الله ثمنًا قليلاً. تناولَ كلماتِ اللهِ السهلةَ المفهومةَ الْمُسْتَسَاغَةَ فحاولَ تفسيرَهَا عبرَ سلسلةٍ من ألفاظٍ ومصطلحاتٍ غامضةٍ لإرباكِ عقولِ البسطاءِ كَيْ يَتَعَظَّمَ في نظرِهِمْ، فَيَعُدُّوهُ من أجَلِّ المفسيرين لكتاب الله! فما لبثَ حتى تألَّقَ نجمُهُ وتحقَّقَ هدَفُهُ ودخل في سجلِّ "أولياءِ الله الذين يَتَصَرَّفُونَ في مُلْكِهِ، ويعلمون الغيبَ، وَيُقَلِّبُونَ التُّرَابَ ذَهَبًا، ويقطعون مسافاتٍ شاسِعَةً في لَمْحِ البصرِ" إلى غير ذلك (على حدِّ اعتقادِ المغترّين به) تعالى الله عَمَّا يقولُهُ الفاسقون.

ولما كان سعيدُ النورسِيُّ ذا طبيعةٍ عصبية جامحةٍ، ولم يُرِدْ في كل حياته أن يكون يومًا من الأيَّامِ الرجُلَ الثَانِيَ، فارقَ صفوفَ النقشبديّين في وقتٍ مبكّرٍ، وقالَ قولَتَهُ الْمَشْهُورةَ: "إنَّ هذا العصرَ ليس عصرَ سلوكِ طريقِ الصوفية، وإنَّما هو زمانُ إنقاذِ الإيمانِ. كثيرٌ دخلوا الْجَنَّةَ دون انتسابٍ إلى طريقةٍ

صوفيَّةٍ، لكنَّهُ لم يدخل الجَنَّةَ أحدٌ عديمُ الإيمانِ."[48] أثارَ النورسِيُّ بهذه الكلماتِ نخوةَ النقشبنديين، إذْ تَحَدَّاهُمْ، وكذَّبَ ادِّعَائَهم "أنَّهُ مَنْ لاَ شيخَ له يُرْشِدُهُ فَمُرْشِدُهُ الشيطان."[49] فغضِبَ عليه أحدُ شيوخِ النقشبنديّين (عبد الحكيم الأرواسِيُّ)، فحدثتْ بينهما جفوةٌ وخصومةٌ دامت إلى أنْ هَلَكَا.

لقد مضت على هذه التطورات أكثر من نصفِ قرنٍ وقد اشتهى الوهَّابِيُّونَ القفزَ إلى الساحةِ التركِيَّةِ في هذه السنين الأخيرة، لكنَّهُ ليس من السهلِ عليهم أنْ يخترقُوا العقباتِ التي تَعْتَرِضُهُمْ في هذا البلدِ وفي الظروفِ الراهنةِ ليدخلوا في مُعْتَرَكِ الصراعِ مع الدياناتِ الوثنيَّةِ المحلِّيَّةِ، خاصَّةً مع النقشبنديَّةِ والنورجيَّةِ، كما لابد أن يذكروا الخلفيَّةَ التاريخيَّةَ السوداءَ التي تَضَافَرَتْ على أحداثٍ دامية بين الحكومة العثمانيَّةِ والحركةِ السلفيَّةِ. لذا، يبدو أنَّ الطريقَ وعرٌ والعقبةَ كؤودٌ أمام الوهّابِيّين في هذا البلدِ الذي يطمعون أن يتوغّلوا فيه ويراودوا الشعبَ الصوفِيَّ عَنْ نفسِهِ؛ لأنهم يصطدمون هناك بموانعَ لا يستطيعون تَجَاوُزَهَا:

أوَّلُها سياسِيٌّ له خلفيةٌ تمتدُّ إلى أيامِ محمَّد بنَ سعودٍ أمير الدرعِيَّةِ الذي تفرَّغَ لِنُصْرَةِ محمَّد بن عبد الوهّاب (رحمهما الله تعالى)، وأعلنَ الحربَ على عَبَّادِ القبورِ. فكان ذلك بدايةَ ظهورِ الخُصُومَةِ والعداوةِ بين العربِ الحجازيّين والأتراك، دامت إلى اليوم. ويكادُ جميعُ النقشبنديّين الأتراكِ وكثيرٍ مِنْ

[48] هذه كلمات سعيد النورسي باللغة التركية:

Zaman tarikat zamanı değil, imanı kurtarmak zamanıdır. Tarikatsız Cennete giden pek çok, fakat imansız Cennete giden yoktur.

Risale-i Nur Külliyatı, Mektubat, Onaltıncı Mektup. :المصدر

[49] يقصدون من اتخاذ الشيخ، أنْ ينضمَّ الشخصُ إلى السلك الصوفِيّ تحتَ نظارةِ راهبٍ من رهبانهم المعروفِ بصفة شيخ الطريقة، فينصاعَ له في كلِّ ما يأمُرُهُ ولو كان حرامًا! لمزيدٍ من المعرفة حول ضرورة الانتساب إلى شيخ من شيوخ الطريقة في اعتقاد النقشبنديّين، يُوصَى بمراجعةِ المصادرِ التالية:

* نعمة الله بن عمر، الرسالة المدنية ص/ **26** مخطوطة دمشق – **1213** هـ.

* أحمد البقاعي، رسالة في آداب الطريقة النقشبنديّة ص/ **36**. مخطوطة **1249** هـ.

* محمّد بن سليمان البغداديّ، الحديقة النديّة ص/ **39**. بغداد/**1234**هـ. مستنسخة من قبل مكتبة الحقيقة. إسطنبول–**1992**م.

* أحمد ضياء الدين الْكُمُوشْخَانَوِيّ، جامع الأصول ص/ **61**، **116**. ط. **1276** هـ.

* محمّد بن عبد الله الخانيّ، البهجة السنيّة في آداب الطريقة النقشبنديّة، ص/ **4** طبعة مصر – **1319**هـ.

* محمّد أمين الكرديّ الأربلي، تنوير القلوب في معاملة علام الغيوب ص/ **525**. طبعة مصر – **1384** هـ.

* أحمد الفاروقيّ السرهنديّ، المنتخبات، المكتوب رقم/**61**

* عبد المجيد بن محمّد بن محمّد الخانيّ، السعادة الأبدية فيما جاء به النقشبنديّة، ص/ **12**. مكتبة الحقيقة. إسطنبول – **1992**م.

* علي قدري، الرسالة البهائية (ترجمة: رحمي سرين) ص/ **133** إسطنبول–**1994**م.

* A. Faruk Meyan, Şah-ı Nakşibend. Pg. 35 Çile Publishing İstanbul-1970

غيرهم يَبْغُضُونَ العربَ وَيَمْقُتُونَهُمْ ويُلقونَ عليهم اللائِمةَ؛ يُكْثِرُونَ من مَقُولَتِهم الشهيرةِ: "إنَّ العربَ خَوَنَةٌ طعنونا من وراءِ ظهورنا!"

والسببُ الثاني: يتمثَّلُ في الْمُسْلُمَانِيَّةِ (Müslümanlık)، وهي دينُ الأتراكِ الذي اختزلوه عن الإسلامِ بِأَخْذِ أجزاءَ منه ومَزَجُوهَا (طوالَ قرونٍ) بِمُعْتَقَدَاتِهِمْ الوثنية. إنَّهم من المستحيلِ أنْ يرتدُّوا عن هذا الدِّينِ ويعتنقوا الإسلامَ بسهولةٍ، لأنَّ الْمُسْلُمَانِيَّةَ (Müslümanlık) قد تأصلتْ في كيانِهم وهي مسيطرةٌ على وجدانِهم وراسِخَةٌ في أعماقِ ضمائرهم...

والسبب الثالثُ: هو بُعدُ الوهابِيّين عن الأسلوبِ الحكيم في الدعوةِ، وجهلُهُمْ بأحوالِ أهلِ البِدَعِ والضلالِ، ودقائقِ مُعْتَقَدَاتِهِمْ.. ومن أعظمِ البراهين على هذه الحقيقةِ أنَّ أحدًا من الوهّابيّين لم يتعرَّف على الديانة (الْمُسْلُمَانِيَّةِ Müslümanlık) إلى هذه الساعة، ولم يردْ هذا المصطلحُ حتَّى في كتابٍ واحدٍ من بين جميعِ مؤلَّفاتِهم على كثرتِها، وذلك على رغم علاقاتِهِمْ مع آلاَفِ الأتراكِ خاصَّةً أيام الحجِّ ومع وجودِ عملائِهم الذين يتحدَّثون باللغةِ التركيَّةِ ويُقِيمون في أكبرِ مدنِ تركيا!

بهذه المناسبةِ يجبُ الوقوفُ بُرْهَةً على معتقداتِ الوهابِيّين، والكشّفُ عن مساويهم لأجلِ الحذرِ من الوقوعِ في ضلالاتِهم، ولِلانتباهِ إلى مواطن التضليلِ في بعضِ أقوالِهم التي يتظاهرون بها "أنَّهم سلفيّونَ أهلُ التوحيدِ الخالِصِ متمسكون بعقيدةِ أهلِ السنة والجماعةِ"... يتخفَّوْنَ وراءَ هذه الْمُسَمَّيَاتِ لاختلاقِ صلةٍ يتذرَّعون بها الإنتماءَ إلى السلفِ الصالح مكرًا وخديعة. إنّما يفعلون ذلك عند طعنِهِمْ في الفِرَقِ البِدعِيَّةِ وأهلِ الأهواءِ ليميّزوا بذلك أنفسَهم عنها، بل هم من أضَلِّها.

إنَّ الإنسانَ الوهّابِيَّ لَمَّا كان بِحُكْمِ نشأتِهِ الخويصريَّةِ: يرفُضُ مُعْظَمَ قوانينِ الكونِ والحياةِ، وَيُكَذِّبُ الْبَدَهِيَّاتِ وَالْمُسَلَّمَاتِ العلميةَ ويكفرُ بها؛ يمنعهُ الجهلُ المطبِقُ أنْ يُصَدِّقَ أنَّ هذا الكوكبَ (الذي نعيشُ على تجاعيدِهِ من السهولِ والوديانِ والجبالِ ونسَمِّيه الأرضَ)، يمنعهُ الجهلُ أنْ يُصَدِّقَ أنه جِرْمٌ كرويٌّ، كما قال تعالى: وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا[50]، سماوِيٌّ، له فلكٌ أيْ مدارٌ مُعَيَّنٌ يدورُ عبرَهُ حَولَ الشمسِ وينجُمُ من هذا الدَّوَرَانِ المواسمُ الأربعةُ، كما يدورُ حولَ نفسِهِ وينجُمُ من هذا الدَّوَرَانِ تَعَاقُبُ اللَّيلِ والنهارِ، وقد أجمع علماءُ الهيئة على هذه الحقائق. لكنَّ الجهلَ بها يُوَرِّطُ الوهَّابِيَّ في حماقاتٍ أبشعُها أنه لا يكادُ يُدرِكُ مفهومَ العلُوِّ على حقيقتِهِ، كما لا يُدْرِكُ الفرقَ بين

[50] النازعات/**30**

مفاهيمِ (العلوّ والارتِفَاعِ والتدنّي). لذلك يعتقِدُ "أنَّ الجِسْمَ يَعْلُو حقِيقَةً إذا غادرَ الأرضَ إلى جهةِ الفضاءِ"، والحالُ أنَّ ذلك ارتفاعٌ وليس عُلُوًّا. كذلك يعتقِدُ "أنَّ الجِسْمَ ينحدرُ إلى أسفَلَ إذا دنى من جهة الفضاءِ إلى الأرضِ!" والحال أنَّ ذلك انْجِرَارٌ إلى سطحِ الكوكبِ بحكم جازبيةِ الأرضِ (وليس تدنِّيًا في الحقيقةِ). لكنَّهُ لا ينفكُّ هذا الاعتقادُ الفاسِدُ من الإنسانِ الوهَّابِيِّ (كما ادَّعَى ذلك أحدُ كبارِ الوهابِيّين الذي يُدعى ابن باز!).[51]

إن الوهابِيّين لا يكادون يفهمون: أنَّ الارتفاعَ من الأرضِ إلى جهة الفضاءِ ليسَ بِعُلُوٍّ في الحقيقةِ، وإنما هو أمرٌ نسبِيٌّ إضافِيٌّ، كما أنَّ الهبوطَ من مستوًى مرتفِعٍ إلى الأرضِ ليسَ بِسُفْلٍ في الحقيقةِ. ولذلك يستحيلُ على الوهَّابِيّ أن يفهمَ معنى الآية الكريمةِ "الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى"[52] ومعنى حديثِ الجارِيَةِ وما يتصلُ بهما من أمورٍ دقيقةٍ يؤيّدها الكتابُ والسنةُ والفطرةُ والعقلُ والعلم...

لقد وقع الوهّابيّون في كمينٍ صنعوه بأيديهم، فالتفَّتْ حِبالُهُ حولَ خِناقِهِمْ بذاتهم. ذلك لَمَّا التبسَ عليهم مفهومُ العُلُوّ بِمفهومِ الارتِفاعِ، والتبسَ عليهم (في الوقتِ ذاتِهِ) مفهومُ السُّمُوّ بمفهومِ الصعودِ؛ فَاتَهُمْ أنْ يَحْظَوْا ولو قليلاً مِنْ أسرارِ العربِيَّةِ فيُدْرِكُوا أنه كمْ مِنْ سخيفٍ يصعَدُ إلى أعماقِ الفضاءِ ويرتَفِعُ فوقَ رؤوسِ الخلائِقِ تُلاحظُهُ العيُونُ ولا ترى ما به من اللؤمِ والدنائَةِ، وأنه لا حظَّ له من العُلُوّ قيدَ نملةٍ. كما فاتَهُمْ أنْ يُدْرِكُوا أنه كمْ مِنْ شريفٍ يُسْحَقُ بالأقدامِ على الأرضِ ولا يخسرُ شيئًا من عُلُوّ مقامِهِ عندَ اللهِ وسُمُوّ قدرِهِ عند الأتقياءِ الشرفاء. إن الوهّابِيّين لو استطاعوا أن يتأمّلوا في مثل هذا القدرِ من بساطةِ الأمر لكفاهم مؤنة الخوضِ في خصوماتٍ عنيفةٍ وكتابةِ ما لا يُحصى من الردودِ على من يتهمونهم بـ"المبتدعة وأهلِ الأهواءِ". هكذا انغلقتْ أبوَابُ الحجَّةِ عليهم فسقطوا في درك الأشعريةِ والماتريدية فلم يَسَعْهُمْ إلاَّ أن يسلكوا طريقَ الكلامِيّينَ الذين طالما يطعنون فيهم ويُبَدّعونهم ويفسّقونهم... لذلك جاءتْ رُدُودُ الوهَّابِيّينَ على الكلامِيّينَ كُلُّها بنفسِ الأسلوبِ الفلسَفِيّ دون جدوى. وهكذا وقعوا في تناقضٍ فاحشٍ مع أنفسِهم فأساؤوا الأدَبَ حيالَ مقامِ الرَّبِّ تعالى حين أصرّوا على ترديد ذلك السؤال العتيد على كلِّ صعيدٍ ومن غير مناسبةٍ: "أين الله! أين الله!..".

---

[51] ادَّعى عبد العزيز بن عبد الله بن باز: "أنَّ الأرضَ سَاكِنَةٌ قارَّةٌ (يعني: لا تتحرَّك!). ورد ذلك في رسالةٍ له سمَّاها: (الأدلة النقلية والحسية على إمكان الصعود إلى الكواكب وعلى جريان الشمس والقمر وسكون الأرض". وردت في هذه الرسالة تناقضاتٍ وتجاوزاتٍ للثوابت العلمية ما يدلُّ على مدى جهل الوهابيين بحقائق الكون والحياة.

[52] طه/5

لقد ارتكبَ الوهَّابِيَّون هذه البدعَةَ بوقاحةٍ متذرِّعين بحديث الجاريةِ الذي ورد فيه أنَّ النبِيَّ ﷺ إنّما وجَّهَ فيه هذا السؤالَ إلى جاريةٍ خِلْوٍ من أدنى بصيصِ العلمِ والمعرفةِ والثَّقافةِ. يشهد على ذلك أنَّ سيِّدَها كانَ شاكًّا في إيمانها (وهو يريد أن يعتقَ رقبةً مؤمنةً) وهي مغمورةٌ في ظلمةِ الجهلِ والعمى، فأتى بها إلى الرسولِ الكريمِ ليمتحِنَهَا أهي مؤمنةٌ أم ما زالت هي على الكفر.

وردَ في شرح النووي على صحيح مسلم؛ يقول الشارحُ موضِّحًا للحديثِ آنفِ الذكرِ: "كان المرادُ امتحانَها هل هي مؤمنةٌ موحِّدةٌ تُقِرُّ بأنَّ الخالقَ المدبِّرَ الفعَّالَ هو اللهُ وحدهُ، وهو الذي إذا دعاه الدَّاعِي استقبلَ السماءَ كما إذا صلَّى المصلِّي استقبلَ الكعبةَ وليس ذلك لأنه منحصرٌ في السماءِ كما أنه ليس منحصرًا في جهةِ الكعبةِ، بل ذلك لأنَّ السماءَ قبلةُ الداعينَ، كما أنَّ الكعبةَ قبلةُ المصلِّين؛ أو هي مِنْ عَبَدَةِ الأوثانِ العابدين للأوثانِ التي بين أيديهم. فلمَّا قالت: في السماءِ عُلِمَ أنَّها موحِّدةٌ وليستْ عابدةً للأوثان".[53]

يكادُ من المستحيلِ أن يتدبَّرَ الإنسانُ الوهابِيُّ مدى رصانةِ هذه العباراتِ الصادرةِ من قريحةِ عالمٍ عَرَفَ حدَّهُ وخافَ مقامَ ربِّهِ أن يتجاوزَ هذا القدرَ من الحدِّ فيتطاولَ على جنابِ الربِّ العظيم فيخوضَ في صفاته بالعقلِ البشرِيِّ العاجزِ عن استيعاب معانيها المتناهية الْمُمْتَنِعَةِ على فهم الإنسان. والله تعالى يقول: "لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا..."[54] لكنَّ الوهَّابِيِّين تشبَّثوا بكلمة (السماءِ) ليجعلوا منها مكانًا (على حدِّ اعتقادِهم) ينحصِرُ فيه الربُّ تعالى عن ذلك علُوًّا كبيرا. نعم ولا شكَّ: "لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ.[55]". ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِير.[56]

---

[53] الحافظ محي الدين أبو زكريا يحي بن شرف النووي، المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج، الجزء الخامس، ص/**22**، دار إحياء التراث العربي الطبعة الثانية، بيروت-**1392**هـ.

[54] البقرة/**286**

[55] الشورى/**4**

[56] الحج/**62**

لقد ابتذل الوهّابيُّونَ عددًا من مصطلحاتِ علمِ العقيدة؛ كالتعطيلِ، والتأويلِ، والتمثيلِ، والتفويضِ، والعلُوِّ والاستواءِ... تناولوها في لغطٍ وخاضوا في تعريفاتِها لإثباتِ الصِّفاتِ (بحسبِ عقليَّتِهِم الخُوَيْصِرِيَّةِ)، دون روِيَّةٍ وبأسلوبٍ كلامِيٍّ على غرارِ خصومِهِم الأشاعِرَةِ والماتريديةِ، فافتضحوا بذاتِ أقلامِهِم وعَبْرَ زُكامٍ من كُتُبِهِم التي حملت من الغث والسمين، فغدَتْ حجَّةً عليهم إلى يوم القيامة. لأنهم في النهاية "رِجَالُ دِينٍ!" والمعروفُ مِنْ رَجُلِ الدِّينِ قديمًا أنّه يقضي فترةَ شبابِهِ في دراسةِ العلومِ النقليَّةِ، وإحصاءِ قواعد العربية، وهذه الفترةُ أجزلُ أيامِهِ عطاءً وخصوبةً، أما مابعدها فابتلاءٌ مرير. ثم يخرجُ إلى الساحةِ لِيُرْشِدَ الناسَ وهو خِلوٌ من العلمِ بقوانينِ الكونِ والحياةِ. والحالُ أنَّ الدِّينَ يحيطُ بجميعِ الكائناتِ، ونصوصُ الكتابِ والسنةِ شاهدةٌ على هذه الحقيقةِ..

وإذا كان عبد العزيز ابن باز (وهوشيخُ مشائخ الطائفة الوهابية في هذا العصر)، إذا كان هو يجهل كُرَوِيَّةَ الأرضِ، ويدَّعِي "أنَّهَا مسطَّحَةٌ، مستقِرَّةٌ لا حَراكَ لها." وإذا كان هذا الإنسانُ لا يكادُ يُدرِكُ أنَّ هذه الكرةَ التي نعيشُ على ظهرِها تدورُ حولَ نفسِها في كلِّ أربعٍ وعشرين ساعةً، وأنها تدورُ حولَ الشمسِ في مدَّةٍ نسمِّيها (السَّنَةَ)، فكيفَ بالوهَّابِيِّينَ أن يتفلسفوا حولَ مفهومِ (العلُوِّ) و (السماءِ) و (الاستواءِ)؟.. وهل يُعقَلُ أنْ يُدرِكَ رِجالُ الدينِ هذه المفاهيمَ على حقيقتِها وهم خِلوٌ من المعرفةِ بأدنى معلومةٍ من دقائقِ علم الهيئة وأحوالِ الفلك وما فيها من أجرامٍ سماوية كلٌّ في فلكٍ يسبحون. هذا، فضلاً عن جهلِهِم بعلومٍ أخرى كتاريخ الأقوامِ، وتاريخ الأديانِ والمذاهبِ، وعلوم الأرضِ، وعلم الإجتماعِ، وعلم الأحياءِ، وعلم النفسِ، وعلم الفيزياءِ، وعلم الرياضياتِ، وعلم الكيمياءِ، وعلم النباتِ والأعشابِ وما يتصل بها من فروعٍ...

يتشدّقُ الوهَّابِيُّونَ بملأ أفواههم حين يذمّون الأسلوبَ الكلامِيَّ وهم يخوضون في تأويل صفاتِ الربِّ تعالى بالأسلوبِ نفسِهِ؛ وهل يعلمون شيئًا من آدابِ علم الكلامِ وأصوله وتاريخه ورجاله؟! وهو لا يخفى فَنٌ من الفنون الجليلةِ في ذاته، وإن كان الاستدلالُ من خلالِ ضوابِطِهِ في بيانِ مسائلِ العقيدة منافِيًا لتعاليم الكتابِ والسنة.

وجملة القول: إنَّ الوهَّابِيِّنَ طائفةٌ بَدَوِيَّةُ الروحِ، بدعِيَّةٌ، على مثالِ الأشاعِرَةِ والماتريدية، يَفْضُلُونَ عنهم بنزعتهم إلى التهجُّمِ والتهوُّرِ السفيهِ والعجلةِ... تعرّضوا لقضايا العقيدةِ تحت لافتة (السلفِيَّةِ) بدعوى محاربة الشركِ وإحياءِ التوحيدِ، لكنَّهم انتهجوا لأنفسهم طريقًا ملتويًا غيرَ مباشِرٍ في تناولِ المصطلحات. ذلك أنّهم تعمّدوا الهجومَ على أهلِ البِدَعِ في معظمِ بحوثِهِم وتناسوا أنهم يشاركون

خصومَهم في ارتكابِ البِدَعِ، فتعرَّوْا أمامَ جمهورِ أهلِ العلمِ لَمَّا تبيّنَ أنّهم لم ينطلقوا من الكتابِ والسنةِ رأسًا وبطريقٍ مباشرٍ في أغلبِ تَصَدِّيهم لِمسائِلِ العقيدةِ، وخوضِهم في مناقشةِ صفاتِ اللهِ تبارك وتعالى بالاسلوبِ الكلامِيّ، وبتحريف مفهوم (العلوّ) و(الاستواءِ) خاصَّةً، ولم يقفوا في ذلك عند الحدودِ المنصوصة في الكتابِ والسنةِ وما جاء في بيانها من أقوال أهل العلم. ومن أشهرِها القولُ الفصلُ الْمُتَضَمِّنُ لِلحقّ الْخَالِصِ الذي نطق به إمامُ المسلمين في عصره أبو عبد الله مالك بن أنس ﷺ حين سأله مبتدعٌ ضالٌّ عن الاستواء، فقال: "الاستواء معلومٌ، والكيفُ مجهولٌ، والإيمانُ بِهِ واجبٌ، والسؤالُ عنه بدعةٌ، وأظنُّكَ زِنْدِيقًا، أخرِجُوهُ من المسجد!"[57]

من غرائبِ الأمورِ أنَّ هذه المقولةَ قد أعادَهَا الوهَّابِيُّونَ في كتاباتِهِمْ بأعْدادٍ يصعب حصرُهَا، مع ذلك لم يحذروا مِنَ الوقوعِ فيما وقعَ فيه هذا الزنديقُ، وقد سقطوا بذلك إلى الدركِ الذي سقطَ فيه الأشاعِرَةُ والماتريديةُ في تأويل المفهومين (العُلُوِّ والاستِوَاءِ)، وحَذَوْا حَذْوَهُمْ في جدالِ أمورٍ متشابِهَةٍ لا يعلمُ حقيقتَها ألاَّ اللهُ، فتناسَوْا ما رُوِي عن ابنِ عبّاسٍ رضي اللهُ عنهُ أنّهُ قال: "إنّ التّفسيرَ على أربعةِ أوجُهٍ: تفسيرٌ تعرفُهُ العربُ من كلامها، وتفسيرٌ لا يُعذرُ أحدٌ بجهالَتِهِ، وتفسيرٌ تعلمُهُ العُلماءُ، وتفسيرٌ لا يعلمُهُ إلاَّ اللهُ، مَنِ ادّعى عِلْمَهُ فهُو كَاذِبٌ".

إنما دَفَعَتْهُمْ إلى هذا السلوكِ الفاحشِ أوّلاً تَقْلِيدُهُم الأعمى لابنِ تَيْمِيَّةَ الحَرَّانِيّ وابنِ القيّمِ الجوزيةِ (الَّذَيْنِ وَقَعَ مِنْهُمَا عَثَرَاتٌ مع جلالةِ قَدْرِهِمَا، ولكلِّ جوادٍ كبوةٌ) رحمهما الله تعالى، وثانيًا طبيعتُهُم العنيفةُ حَثَّتْهُمْ على تَجَشُّمِ المخاصمةِ والمشاجرةِ، فَانْهَمَكُوا في اللَّومِ والمعاتبةِ والإتّهامِ قَبلَ الدعوةِ والنصيحةِ والدلالةِ والإرشادِ... لعلَّ هذه الطبيعةُ الْخُوَيْصِرِيَّةُ المتجبّرةُ هي التي دَفَعَتْهُمْ إلى الخوضِ فيما لاَ يَسْتَوْعِبُهُ العقلُ البشريُّ، فأقْحَمُوا أنفسَهم فيما لا قِبَلَ لهم بِهِ مِنْ إشكالِيَّاتٍ افْتَضَحُوا عندما توغلوا فيها من غير رويَّةٍ، وعجزوا عن الخروج منها، فأثارَهم ذلك على الأشاعرةِ والرافضةِ خاصّةً، فتبنّوا الْعُنْفَ في خطابِهم وتصرُّفاتِهم، وظلُّوا في ظُلْمَةِ دُنْيَاهُم الصَّغِيرَةِ يعمهون.

***

3) العُنْفُ:

[57] وفي رواية قال للسائل: "ما أراك إلا رجل سوء! وأمر به فَأُخْرِجَ".

العُنْفُ لغةً: هو ضدُّ الرِّفْقِ، والعُنْف يُطلَقُ بمعنى الْقَسْوَةِ، والوحشِيَّةِ، والتعسُّفِ، والزَّهْوِ، والتبجُّحِ التي حرَّمَها الإسلامُ وحدَّ منها بشروط. وأمَّا اصطلاحًا فقد اختلفتْ آراءُ العلماءِ والفلاسفةِ وتعددتْ تفسيراتُهُمْ له. فهو خطابٌ أو فعلٌ مؤذٍ – لا شكَّ – ومُدَمِّرٌ في كثيرٍ من الحالاتِ، يرتكبُهُ شخصٌ، أو عِصَابَةٌ، أو مُوَظَّفٌ في مؤسَّسَةٍ أمنيَّةٍ أو نظامٌ سياسِيٌّ يلجأ إلى استعمالِ القوةِ ضد الآخرِ.

يختلف الغَرَضُ في اللُّجُوءِ إلى القوةِ؛ فقد تُستخدَمُ كوسيلةٍ لفرضِ مظاهرِ الظُّلْمِ والاضطهادِ، كما تُستخدَمُ أيضًا كأداةٍ لمقاومةِ الاستبدادِ والغطرسةِ والقهرِ والهيمنة، أو لِتنفيذِ العقوباتِ الشرعيةِ في الدولة الإسلامية، أو للدفاعِ المشروعِ بحسبِ الحالِ والظروف... إنَّ الوسائلَ تتبعُ المقاصِدَ في أحكامها، فوسيلةُ المحرَّمِ محرمةٌ، ووسيلةُ الواجبِ واجبة، وكذلك الأمرُ في بقية الأحكام.

هنا أسئلةٌ تَفْرِضُ نفسَها على المتأمِّلِ في مشكلةِ العنفِ، من أهمِّها: السؤالُ عمَّا إذا كان العنفُ طبيعةً فطريَّةً أو هو مكتسبٌ تُولِدُهُ دوافعُ الحياةِ والنفسِ البشريَّةِ، وما هي الأسبابُ التي تَدْفَعُهُ إلى استخدامِ العنفِ...

لقد أثبتتِ الدراساتُ حول الطبيعةِ البشرية أنَّ نزعةَ العنفِ متأصِّلةٌ في كيانِ الإنسانِ، (بل في طِينَةِ الكائناتِ الحيَّةِ كلِّها على السواءِ) كما تُنبؤُنا الدراساتُ التاريخيَّةُ أنَّ الإنسانَ قد مارسَ العنفَ عبرَ ماضيهِ السحيقِ من غيرِ هَوادةٍ، ولا يزالُ هو يمارسُهُ اليومَ بأشكالٍ من الوحشِيَّةِ في مختلفِ أصقاعِ الأرضِ خاصةً في الشرقِ الأوسطِ.

إنَّ تاريخَ البشريةِ مليءٌ بأحداثٍ رهيبةٍ أليمةٍ من لدن آدمَ إلى هذه الساعةِ. لقد ورد في القرآن الكريم أن أحدَ ابْنَيْ آدمَ لِصُلْبِهِ بالذات، قَتَلَ أخاهُ، وهو أوَّلُ مَنْ سَنَّ القتْلَ. واللهُ تعالى يقول: "فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ.[58]" لقد شهِدَ العالمُ حروبًا مدمِّرَةً كاسحةً جارفةً، واغتيالاتٍ، وأشكالاً مُرَوِّعَةً من القتلِ والفتْكِ والسحقِ والتعذيبِ ما تقشعرُّ له الجلود. كم يَقُصُّ علينا التاريخُ أنَّه وقعتْ نزاعاتٌ بين أممٍ قد أبَادَهَا اللهُ ولم يَعُدْ لها أثرٌ إلاَّ أطلالاً، نشبتْ بشرارةٍ فما لبثتْ حتى تحوَّلَتْ إلى صِراعاتٍ ومعاركَ طاحنةٍ بين جيوشِها العارمةِ على أمتدادِ السنين حصدتْ من الأرواح ما يعجزُ الألْسِنَةُ عن وصفِهِ وحصرِ ما أسفرَ عنه من الخرابِ والدمار.

---

[58] المائدة/30

هذا، ومن غرائب الأمور أن الدِّينَ الإسلاميَّ الذي رَكَّزَتْ تَعَالِيمُهُ على تزكيةِ النفسِ والتحلِّي بمكارمِ الأخلاقِ من الإخاءِ، والتعاونِ، والبِرِّ، والرحمةِ، والمودَّةِ، والوفاقِ، والصدقِ، والأمانةِ، والإحسانِ، وحُسنِ النيَّةِ، والوفاءِ بالوعدِ، وتطهيرِ القلبِ، وتخليصهِ من الشوائب... على رغم ذلك فقد افترق المسلمون إلى أحزابٍ متناحِرَةٍ، وشِيَعٍ متطاحنةٍ، يجري بينها نزاعٌ شديدٌ وقتالٌ محتَدَمٌ خاصةً في هذه الأيام.

لعلَّ هذا المشهدَ يقودُنا بسهولةٍ إلى أن مَرَدَّ اختلافِ الناسِ، والسببَ الرئيسَ الذي يدفعُهم إلى اسعمالِ العنفِ، هو اختلافُهم في العقيدةِ؛ يعني ذلك أنّهم إذا اختلفوا في الإيمانِ بمصدرِ تلك القدرة الفائقةِ العملاقةِ الخارقة التي خلقتْ الكائناتِ بجميع ذراتها وأجرامِها وأحداثِها من العدم، اختلفوا في كلِّ شيءٍ يشاطرونه من مالٍ ومُلْكٍ وزينةٍ ونعمةٍ وفكرةٍ وصفةٍ ومصلحة... وعندما نقارنُ اللغةَ والعقيدةَ –على سبيل المثال– من حيثُ تأثيرُهُمَا على الأفرادِ والمجتمعاتِ، لا نجدُ في اختلافِ اللغةِ عاملاً مثيرًا للنزاعِ المؤدي إلى القتال والتناحُر. فقد يتكوَّنُ الشعبُ الواحدُ من طوائفَ عرقيةٍ متباينةٍ لِكلٍّ منها لغةٌ خاصةٌ، مع ذلكَ تتعايَشُ هذه الفصائلُ في جوٍّ من الوفاقِ، إلاَّ إذا دفعتِ العنصريَّةُ طائفةً منها ضِدَّ الأُخْرَى (كما هو الحالُ في تركيا والبلاد المغربية). لكنَّنا نكادُ نعثرُ وراءَ كُلِّ صراعٍ بين طائفتين: أنَّ نِزَاعَهُمَا نَاشِئٌ في أصْلِهِ مِن اخْتِلاَفِهِمْ في العقيدةِ وهم جميعًا يتحدثون بلغةٍ واحدة. فالمسلمون، إنما اختلفوا وتنازعوا وانْشَقُّوا إلى مذاهبَ وأحزابٍ متناحرةٍ لأنّهم اختلفوا في العقيدةِ وليس في اللغةِ كما هو الحالُ في سوريا والعراق.

إن المآسيَ التي يعانيها الإنسانُ فردًا وجماعةً، أكثرُها ناشئةٌ من اللجوءِ إلى شكلٍ من أشكالِ العنفِ والسطوِ. وتختلفُ الأغراضُ التي يتَّخِذُ الإنسانُ من هذا التصرّفِ الخطيرِ وسيلةً لتحقيقها. ينبغي هنا أن نلاحظَ أنَّ العنفَ هو ظاهرةٌ اجتماعيةٌ، وما يجلبُ الاهتمامَ: أنَّ هذه الظاهرةَ إنما ينتشرُ موازيًا للنموّ العقلِي مع تراجعِ الفضيلةِ أو انتفائِهَا في الإنسانِ! نهتدي إلى التثبُّتِ من هذه الحقيقة بالتأمُّلِ في شخصيةِ الطغاةِ. ذلك أنَّ كُلَّ طاغيةٍ إنما تمكَّنَ من الوصول إلى قمةِ الْحُكْمِ بدهائِهِ ومكرِهِ في استدراج جماعةٍ من العُمَلاَءِ واستغلالِهِمْ في أغراضِهِ، ولم يستخدمْهم في استبدادِه وفسادِهِ وجناياتِهِ إلاَّ لأنه كانَ عديمَ الإيمانِ مَيّتَ الضمير. ولا يختلفُ في هذين الصفتين "المسلم" والشيوعي الملحد والمسيحيُّ والمجوسِي وغيرهم من منتسبي بقية الأديانِ... ولا شك في أنَّ هذه القاعدةَ تَنْطَبِقُ على جميع الطغاة، بصرف النظر عن دياناتهم ومعتقداتهم، كالطاغيتين الرومانِيَّين الوثنِيَّين: كاليغولا،

ونيرون؛ والطاغيةِ "المسلم": الحجاج بنِ يوسفَ الثقفيّ؛ والطاغيَتَيْن المغوليَّين: جنكيزخان، وهولاكو الوثنيَّين؛ والطغاة المسحيّين: قيصرِ روسيا: إيفانِ الرهيب، والطاغيةِ الألمانيّ: هِتْلَرْ، والطاغيةِ الزيمبابويّ: روبرتْ موغابي، والطاغية الصربيّ سلوبودان ميلوسيفيتش؛ والطغاةِ الشيوعيّين: ستالين، ولينين، وبريجنيف؛ والطغاة "المسلمِينَ" المعاصرين: عيدي أمين، وصدام حسين، والقذافي، وحافظ الأسد، وخَلَفِهِ وغيرهم...

إنَّ المؤمِنَ الموحِّدَ المتأمِّلَ في هولاءِ الأشخاصِ وأشباهِهِمْ، لا يكادُ يشكُّ في أنَّ أحدًا منهم لم يكنْ يحملُ في قلبِهِ بصيصًا من الإيمانِ بالله واليوم الآخرِ، حتى صدام حسين الذي نطق بالشهادتين قبيل تنفيذ إعدامه. بدليل تصرفاتهم الوحشية الغاشمةِ التي تشهد عليهم بصورة وثائقية مؤكدة.

يجب على الباحثِ في قضيةِ العُنفِ أنْ يتناولها بتأمّلٍ وتركيزٍ أولاً على موقفِ الإسلام من هذه الظاهرة. ذلك لأن المناطق الآهلة بالمسلمين ومنها الشرق الأوسط بالتحديد تُعَدُّ اليومَ – ويا للأسف الشديد– من أكثرِ البقاعِ التي تجري فيها استخدامُ العنفِ، وقد أفضى إلى فِتَنٍ وتناحُرٍ وحروبٍ مذهبيَّةٍ وطائفيَّةٍ تفاقمتْ على مُعظَمِ ساحاتِهَا، مع أنها من المناطقِ التي قامتْ عليها الحضارةُ الإسلاميَّةُ وانتشرتْ على أرجائِها بيوتُ العلمِ من المدارسِ والجامعاتِ والمكتباتِ الضخمةِ الْمُكْتَظَّةِ بمؤلَّفاتٍ قَيِّمَةٍ انبثقتْ منها أشتاتُ العلومِ والمعارفِ والإكتشافات.. كما نشأَ ونبغَ في هذه المنطقَةِ الْخَصْبَةِ الْحَيَّةِ ما لا يُحصَى من الأنبياءِ والعلماءِ والصالحين والعباقِرَةِ والرُّوَّادِ والأبطالِ والمصلحين...

يجب على الباحثِ أن يعلم أوَّلاً: أنَّ الإسلامَ أوَّلُ دينٍ عَالَمِيٍّ بَيَّن طبائعَ الظلمِ وحدودَهَا ومخاطرَهَا ونصَّ على منعِها بشدةٍ، وعاقبَ الظالمَ وهدَّدَهُ بالعذابِ الأليم في الآخرة، كما جاءَ لنشرِ روحِ السلامِ والمحبَّةِ والإخاءِ والتعاونِ على البرّ والتقوى. وفي ذلك آياتٌ وأحاديثُ كثيرة، فعلى سبيل المثال يقول اللهُ تعالى: "وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا، وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ" (المائدة/2). وَيقول تعالى: "إنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُون" (النحل/90). وَيقول تعالى: "وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا" (طه/111). وقد أخذ الله تعالى الظالمين وأخبرنا بما أنزل عليهم من عقوباتٍ رهيبة ليكونوا عبرةً لمن يعتبر، فقال تعالى: " وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ؛ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لاَ يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاء، وَأَنذِرِ النَّاسَ

يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ، أَوَلَمْ تَكُونُواْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ" (إبراهيم/**42–45**). وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ﷺ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: "اتَّقُوا الظُّلْمَ ، فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ". وعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما أنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسَّلم بعث معاذًا إلى اليمن فقال: "اتَّقِ دعوةَ المظلومِ فإنه ليس بينه وبين اللهِ حجاب" (متفق عليه). وعَنِ الْعَلاَءِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "أَتَدْرُونَ مَنِ الْمُفْلِسُ؟ قَالُوا: الْمُفْلِسُ مَنْ لاَ دِرْهَمَ لَهُ وَلاَ مَتَاعَ، فَقَالَ: إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلاَةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ" رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي الصَّحِيحِ.

هذا هو موقفُ الإسلامِ من الظلمِ؛ فقد حَرَّمَ الإسلامُ القهرَ والعنفَ والتعذيبَ والإرغامَ والإجبارَ والتهديدَ والتنكيلَ والتشهيرَ والتنقيصَ والتشنيعَ والتهميشَ والاستغلالَ بكل أشكلها (إلاَّ بالحق الذي وردت شروطه في الفقه، وذلك لتوفير الأمنِ والسلامِ، ولإنصافِ المظلومِ وإقامةِ العدلِ بتنفيذِ العقوبة).

هذا، ومن القواعدِ العامَّةِ التي شَرَعَهَا الإسلامُ في العلاقاتِ البشريَّةِ: أن يَتَوَخَّى الإنسانُ العدلَ في علاقاتِهِ مع أخيه الإنسانِ مهما اختلفا في الدِّينِ والعقيدةِ والإتِّجاهِ السياسِيّ والأذواقِ والعاداتِ؛ بأنْ يُعطِيَ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، فلا يَظْلِمَ أحَدًا. فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ، "أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى الله عَلَيه وسَلَّم خَطَبَ النَّاسَ فَقَالَ: إِنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَعْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، إِنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ قد فَرَضَ فَرَائِضَ، وَسَنَّ سُنَنًا، وَحَدَّ حُدُودًا، فَأَحَلَّ حَلاَلاً، وَحَرَّمَ حَرَامًا، وَشَرَعَ الإِسْلاَمَ فَجَعَلَهُ سَهْلاً وَاسِعًا، وَلَمْ يَجْعَلْهُ ضَيِّقًا." فَعَلَى المسلمِ خاصةً أنْ يلتزمَ جانبَ العدلِ مع كُلِّ إنسانٍ، سواءٌ كان قويًّا أو ضعيفًا، غنيًّا أو فقيرًا، مسلمًا أو كافِرًا... فلا تسمحَ له مكانتُهُ الإجتماعيَّةُ مهما كان مرموقًا وجيهًا وموقَّرًا، لا تسمحَ له أنْ يعتدِيَ على حقوقِ الآخرين أبدًا.

مع كُلِّ هذه المعالِمِ الواضحةِ والتنبيهاتِ الأكيدةِ في الإسلامِ على أهميةِ العدلِ والرفقِ، والحلمِ، والعفوِ واللُّطفِ والتسامُحِ والتساهُلِ في معاملةِ الناسِ، فقد انتشرتْ اعمالُ العنفِ والسطْوِ

واستعمالُ القوَّةِ ضدَّ الغيرِ (وفيهم كثيرٌ من الأبرياءِ العُزَّلِ)، وظهرتْ في السنين الأخيرةِ عصاباتٌ مِنَ الْمُرْتَزِقَةِ الغافلين انسحبوا من وراءِ أشخاصٍ وتنظيماتٍ مشبوهةٍ تَدَّعِي الجهادَ لإقامةِ دولةٍ على أساسِ نظامِ الإسلامِ وأحكامِهِ. قامتْ هذه العصاباتُ (الْمُنْطَلِقَةُ مِنَ نَزَعَاتٍ خارجيَّةٍ) بتصعيدِ فِتَنٍ في غِمَارِ صِرَاعَاتٍ دُوَلِيَّةٍ بين أطرافِ القُوَى الْعُظْمَى (وهي بالتحديد: الولاياتُ المتحدةُ الأميركيَّةُ، والدولةُ الصهيونيَّةُ، وَدُوَلُ الإتِّحادِ الأُوروبِيِّ، وروسيا، والصينُ، وإيران).

هذه الدولُ لَمَّا شاهدتْ (بعدَ الخريفِ العَرَبِيّ) ما حلَّ بالمسلمين من الضعفِ والهوانِ والشِّقاقِ والشَّغَبِ والفَوْضَى، وجدتْ الفرصةَ سانحةً، فنهضتْ لضربِ الإسلامِ والمسلمين، واستئصالِ بصيصِ الإيمانِ من قلوبِهِمْ، والقضاءِ على الدِّينِ الحنيفِ من أساسِهِ.

إن أعداءَ الإسلام (من الصليبيّين والصهاينَةِ ومجوسِ الْفُرْسِ)، لم يألوا جهدًا في محاربةِ هذا الدين والقضاءِ عليه بِكُلِّ وسيلةٍ من قديم الزمان إلى اليوم، فقد لجؤوا إلى أشكالٍ من المؤامراتِ لتدميرِ الإسلامِ وأهلِهِ دون رحمةٍ. وأخيرًا لَمَّا قامتْ الدولةُ العِبْرِيَّةُ الْمَزْعُومَةُ على أرضِ فلسطين عا **1948**م.، وبدأ اليهودُ بأعمالِ القمعِ والقتلِ والتشريدِ في أهلها، وتطورتْ الأوضاعُ حتى تذرَّعَتْ بها الدولةُ الروسيَّةُ والأميركيَّةُ فاحْتَلَّتَا مناطقَ من أرضِ الإسلامِ في أفغانستانَ، والعراقِ، وسوريا والصومالِ وغيرها، ثارتْ حفيظةُ المسلمين حيالَ البلطجة والعنجهية التي مارسها الكفار الأمريكان والروس، فانْبَرَى بعضُ الشخصياتِ لمقاومَةِ هؤلاءِ الأعداءِ ولكن من غيرِ رَوِيَّةٍ وعِلْمٍ وبصيرةٍ بالأمورِ، لأنَّهم أصلاً لم يكونوا عسكريّينَ ولا خُبَرَاءَ في الأمورِ السياسيَّةِ، بل كانوا شيوخًا، ورِجَالَ أعمالٍ وتُجَّارًا مَدَنِيِّينَ لا يعلمون شيئًا من فنونِ الحربِ والقتال.

فهذا أسامةُ بن لادن رحمه الله تعالى وغفر له ولنا. وهو مِنْ مشاهيرِ مَنْ شَمَّروا ساعدَ الجدِّ فتصدَّوْا لجهادِ الكفار وإجلائِهِمْ من البقاع الْمُحْتَلَّةِ في الوطنِ الإسلامِيّ، لَكِنهُ انطلقَ مِنْ غيرِ منهجٍ شرعِيٍّ سليمٍ، ومن غير كَفَائةٍ شخصيَّةٍ، ولا عن علمٍ وَرَوِيَّةٍ، ولم يكن هو ومَنْ معه ذَوَيْ رُؤْيةٍ واضحةٍ، واختصاصاتٍ قِتَالِيَّةٍ، ولم يخرُجْ هو على رأسِ جيوشٍ مُدَرَّبَةٍ. بل كانت الفلولُ التابعةُ له مُرْتَزِقَةً، أغلبُهُمْ جَهَلَةٌ غافلون عن حقيقةِ الإسلامِ والإيمانِ والجهادِ والأعمالِ العسكريَّةِ ومواجهةِ العدوِّ، وإنما خرجو لإشباعِ غرائزِهِمْ العُدوانيَّةِ فِي اللاَّوَعْيِ (وإنْ كانوا أصحابَ نوايا حسنةٍ)، فوجدوا ضالَّتَهُمْ عندما تَلَقَّوْا الدعوةَ إلى الجهادِ فانطلقوا لِمُجَرَّدِ التَّماهِي مع الْمُنْتَصِرِ (وهو العَدُوُّ بذاته!).

كانَ مُعظمُ منطلقاتِ بن لادن وأكثرُ قراراتِهِ ومحاولاتِهِ وأعمالِهِ خطأً ووبالاً عليه، لأنه لم يكن –في الحقيقةِ– قائدًا عسكريًّا ولا رائدًا محنَّكًا في السياسة ومناوراتها، بل كان مثقَّفًا حِجَازِيًّا من أصلٍ حضرَمِيّ، مهندسًا وشاعرًا وتاجرًا ليس إلاَّ... فضلاً عن أنَّهُ كان ذا موقفٍ خُوَيْصِرِيٍّ جُهَيمَانِيٍّ ونزعةٍ خَارِجِيَّةٍ وَهَّابِيَّةٍ، لكنَّ الوهابيّين بِذاتِهم رفضوهُ، وسحبَتْ الحكومةُ الوهابِيَّةُ منه الجنسيةَ الحجازِيَّةَ، ونَقَمَ منهُ علماءُ الوهابية وأنكروا أفعاله!

أسَّسَ بْنُ لاَدِنْ تنظيمًا عسكريًّا باسمِ (القاعدةِ)، وركِبَ رأسَهُ فدخل في متاهاتٍ خطيرةٍ فجلبَ الويلاتِ على المسلمين، أسفرتْ مغامراتُهُ عن مأساةٍ رهيبةٍ في منطقةِ الشرقِ الأوسطِ راحتْ ضحيتَهَا ملايينُ الناسِ. وجاءتِ الطامَّةُ الكُبْرى حين انبهرَتْ بِهِ العقولُ وتأثَّرَتْ به العاطفةُ المكبوتَةُ في الشبابِ المسلم فدفعتْ بهمْ إلى معسكراتِهِ من كُلِّ أصقاعِ العالَمِ الإسلاميّ على اختلافِ أعراقهم وانتماءاتِهم القوميَّةِ مِنْ عربٍ وكُرْدٍ وتُرْكٍ وبَرْبَرٍ وغيرهم، وَسَحَبَتْهُمْ نَزَعَاتُهُمْ الهجوميَّةُ إليه، فتهافتوا عليه من كلِّ حدبٍ وصوبٍ وقد أسْكَرَتْهُمْ خمرةُ الحماسِ، ونشوةُ النصرِ وهم عن حقيقةِ الظروفِ غافلون. فلجؤا إلى استعمالِ القُوَّةِ وممارسةِ القتالِ في مواجهةٍ عدوٍّ لا قِبَلَ لهم به، مع جهلهم بمدى قدراتِهِ الهائلةِ، وأسلحتِهِ العملاقةِ، وجَبَهَاتِهِ العديدةِ، وكثرةِ عُمَلاَئِهِ في الداخل. كما كانوا مغترّين بعددٍ من المتشيّخين الذين أثاروهم بفتيا واهية لا تعتمد على أساسٍ من الشريعة الإسلاميَّةِ، ولا على إجماع علماء الأمة.

قديمًا كان ولا يزال لأعداءِ الإسلامِ أغراضٌ وأهدافٌ ومناهجُ مدروسةٌ للإيقاعِ بالمسلمين على حين غرةٍ منهم. وقد بلغ الضعفُ والهوانُ والشتاتُ والشقاق بالأمة مَبْلَغَهَا. لم يقع المسلمون في أتونِ الفسادِ والفتن على مدى تاريخهم بالقدر الذي وقعوا فيه منذ ثلاثةِ قرونٍ تقريبًا، وقد أنهكَتْهُمْ الحروبُ الأهلية فتفكَّكَتْ أوصالُ الأُمَّةِ وأصبحَ شَبَحُ الموتِ يُلاَحِقُ كُلَّ إنسانٍ على امتداد أرضِ الإسلامِ من ضفافِ المحيطِ الأطلسي إلى أعماقِ القارَّةِ الهنديَّةِ. هذا المشهدُ الرهيبُ أثارَ طَمَعَ الحلفِ الصهيونيّ– الصليبِيّ العالَمِيّ نحوَ القضاءِ على أمَّةِ الإسلامِ، فانقضَّ عليها انقضاضَ النمر على فريستِهِ بدءًا من فلسطين ومرورًا بأفغانستان إلى أن احتلتْ القواتُ الأميركيَّةُ العراقَ بعد سلسلَةٍ من الحروب في منطقة الخليج العربي. فما لبثَ حتى أثارت هذه الغطرسةُ القلوبَ الغَيُورَةَ وما أقلَّها! فنهضَت جماعاتٌ من أصحابِ هذه القلوبِ الطيِّبَةِ وهي لا تمتازُ بالنباهة والدهاءِ، فانطلقتْ لإنقاذِ الأمةِ بسذاجتِهَا وهي قِلَّةٌ مِنْ أخلاطٍ معظمُهم شبابٌ أخِلاَّءُ من السلاحِ، يجهلون فنون القتالِ، نَهَضوا للهجومِ على عدوٍّ لو أرادَ أنْ يسحقَهُمْ ويُفْنِيَهُمْ عن بكرةِ أبيهم في غضونِ أيامٍ

قليلةٍ لَفَعَلَ. لكنَّه أرادَ أنْ يتلاعبَ بهم تلاعُبَ القطِّ بالفأرِ، لِيذبَحَهُمْ في نهاية اللُّعْبَةِ حتى يتشحَّطوا في دمائِهم ثم يَغْرِقُوا فيه تمامًا فلا تقومَ للمسلمين قائمةٌ على وجهِ البسيطةِ بعد ذلك.

فإنَّ ما فَعَلَتْهُ الجنودُ الأميركِيُّونَ من حصادِ الأرواحِ في العراقِ بين فَتْكٍ وسفكٍ للدماءِ، وتخريبٍ وتدميرٍ... فضلاً عمَّا ارتكبُوا من السلبِ والنهبِ وهَتْكِ الأعراضِ وألوانٍ من الشناعات، يعجز اللسانُ عن وصفها، وذلك ما بين أعوام **2003–2011**م.

من الملفت؛ أنَّ هذه الْقِلَّةَ الثَّائِرَةَ نشأتْ أخيرًا في العراقِ، مهدِ الْفِتَنِ من لدُنْ آدمَ إلى اليومِ. نشأتْ فَوْرَ انسحابِ القُوَّاتِ الأميركيةِ منها، وأعداءُ الإسلامِ يتربَّصون بالشعبِ العراقِيِّ ويعلمون بالتأكيد أنهم لم يجدوا في الوطن الإسلاميّ أرضًا أمْثَلَ من العراقِ لإشعالِ نار الفتنة فيها، لِتَنَوُّعِ الميْزاتِ الإجتماعيَّةِ والدينيَّةِ في سُكَّانِهَا، وفِي تاريخها المشوبِ بسلسلةٍ من المآسي. كما عَلِمَ الإعداءُ أن هذه الأمَّةَ بدأتْ تَتَحَرَّكُ نحوَ التحرُّرِ والانعتَاقِ، بدأتْ تَنْتَفِضُ بِكُلِّ ما أوتِيَتْ من قوَّةٍ على حُكَّامِهَا مع انفجارِ "الربيع العربي" في تونسَ وليبيا ومصر... فجُنَّ جنونُ مِلَّةِ الكُفْرِ، (والكفرُ مِلَّةٌ وَاحِدَةٌ) وصارتْ تَرْتَعِدُ خوفًا وهلعًا وهي تنظرُ إلى هذه الأمَّةِ أنَّهَا تريدُ أنْ تعودَ إلى أصَالَتِهَا ومَعْدِنِهَا الكريمِ، وتتحرَّكَ شيئًا فشيئًا لِتُقِيمَ مؤسَّسَةَ الخلافةِ الراشدةِ على منهاج النبوة من جديد. ازدادَ هذا الخوفُ والرُّعْبُ في قلوبِ الكُفَّارِ وأحَسُّوا بالخطرِ يَحْدِقُ بِعُملائِهِمْ المخلِصين في منطقةِ الربيعِ العربِيّ، فما لبثوا حتى أثاروا ما كان بين الشيعةِ والسنةِ قديمًا من العداوة بعد أنْ كانت نائمةً، فأغرَوْا بين الطائفتينِ الفتنةَ، فاندلعتْ حروبٌ ضاريةٌ تتصاعدُ نيرانُها بين "الْعَلاَقِمَةِ" وَ"الْعَفَالِقَةِ"، هُدِّمَتْ أثناءَها صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ، كما دُمِّرتْ متاحفُ ومعالِمُ تاريخيَّةٌ، وأهْدِرَتْ دماءُ جماعات غفيرة من المدنيّين العُزَّلِ، فأتاحت الفرصةُ للحلفِ الصهيونِيّ– الصليبِيّ العالَمِيّ أنْ يَعُدَّ مشروعًا خطيرًا ومخطَّطًا رهيبًا يجمع به آلافَ الشبابِ المسلمِ السنيّين العربِ بشمالِ العراق. فتَمَّ له ذلك في أمدٍ قصيرٍ، فقام بتضليلِهم وإغرائِهم على الشيعةِ أوَّلاً تحتَ مُسَمَّى "الإنتقامِ والأخذِ بثأرِ صدام حسين"، ثم جرتْ (على خلفيَّةِ هذا الْمُخَطَّطِ) حروبٌ طاحنةٌ بين الفصائل العِرْقِيَّةِ والدينيَّةِ في كل أنحاءِ العراقِ، فلم تَخْلُ جماعةٌ من هذه الفصائلِ (من شيعةٍ، وسُنَّةٍ، وعربٍ، وكُرْدٍ، وتُرْكَمَانٍ) الاَّ اشتركتْ في هذه الجناياتِ وأُزهِقَتْ أرواحُ ملايينَ من سكان هذا البلدِ أغلبُها أبرياءُ فتحوَّلَتْ الساحةُ العراقِيَّةُ على مَدَى سنين إلى مذابحَ سالتْ في كل بُقعةٍ منها يومِيًّا شلالاتٌ من الدماء.

فلما رأى الحلفُ الصهيونيُّ- الصليبيُّ العالَمِيُّ القلةَ العربيَّةَ السُّنِّيَّةَ مُنَاهِضةً لأطماعِهِ (بينما الشيعةُ والأكرادُ —وهم الأكثريَّةُ- كانوا دائمًا جبهةً عميلةً سخَّرَتْ نَفْسَهَا لِتَحْقيقِ أهدافِ العدُوِّ على الساحةِ العراقِيةِ بل في منطقةِ الهلالِ الخصيبِ كُلِّهَا)، قامتْ أميركا بالتعاونِ مع إسرائيلَ والدولِ الأوربيَّةِ وتركيا وإيران، لسحبِ القلةِ العربيَّةِ السُّنِّيَةِ العراقِيَّةِ إلى كمينٍ خطيرٍ ولاستخدامِها في تهييج الحروب على الساحة السوريَّةِ، واسْتِنْزَافِ الدمِ العربِيِّ وطاقاتِهِ وقدراتِهِ أولاً، ثم القضاءِ على هذه القلَّةِ المُسْتَغَلَةِ الْمُغَفَّلَةِ بعد انتهاءِ توظيفها. هذا كان الهدفُ الرئيسُ ضِمْنَ مشروعٍ متكامِلٍ يهيِّئُ السيطرةَ للحلف وعملائِهِ على المنطقةِ بصورةٍ نهائيَّةٍ.

والحالُ هذهِ، يجبُ على التجمعاتِ السلفيَّةِ والموحّدين أن يتَّخذوا الموقفَ الأمثلَ حيالَ هذا المشهدِ الرهيبِ، وأن يأخذوا الدروسَ والعِبَرَ من الحروبِ الجاريَةِ بين طوائِفِ المشركين والخوارج في الشرق الأوسط وقد سَلَّطَ اللهُ بعضَهم على بعضٍ!

ينبغي اغتنامُ الفرصةِ في خِضَمِّ هذا التَّنَاحُرِ والإقتتالِ الذي خاضَتْهُ فصائِلُ الجاهِلِيَّةِ من العربِ والبربر، والكردِ والتركِ والفرسِ... وأفضلُ أشكالِ اغتنامِ الفرصةِ: هو التعاونُ على تنشيطِ حملةٍ علميةٍ وثقافيةٍ في صفوفِ أهلِ التوحيدِ، ورفعُ مُسْتَوَى الشبابِ الموحّدين في فهمِ واقعِ العصرِ والأحداثِ الجاريةِ على الوطنِ الإسلامِيِّ، وتحذيرِهِمْ من استعمالِ العنفِ، والإغترارِ بالخوارجِ المسلَّحين، وتنويرِ عقولِ الناشئةِ بوعيٍ يُضِيءُ طريقَهُمْ في مسيرةِ الحياةِ، وفي التعامُلِ مع الْعَقْلِيَّاتِ المتخلِّفة، والمجتمعاتِ الجاهِلِيّةِ، وَالْفِرَقِ الكافرَةِ، والجماعاتِ المشبوهةِ، وذلك بخطوات هادئةٍ وفي حدودِ كتابِ اللهِ وسنَّةِ رسوله الكريمِ.

إنَّ مِنْ الآياتِ الباهرةِ، أنْ أبتلى الله تعالى هذه الشعوبَ المتطرِّفَةَ في حِبَالِ حكوماتٍ ظالمةٍ تسومُها سوءَ العذابِ، وقد أوقعَ اللهُ تباركَ وتعالى الأتراكَ والعربَ والبربرَ والأكرادَ ومجوسَ الفرسِ في دَوَّامَةِ حروبٍ مذهبيَّةٍ وعرقِيَّةٍ داميَةٍ، يلعبُ بهم الْحِلْفُ الصليبِيُّ—الصهيونِيُّ مِنَ الخارج، بالتعاوُنِ مع الْحِلْفِ النقشبندِيِّ — الوهابِيِّ وأجهزةِ مُخَابَرَاتِهَا في الداخل. وهم يتناحرون ويذبحُ بعضُهُمْ البعضَ جزاءً بما فعلوا من التشويهِ للدِّين الحنيفِ، وتعطيلِ الشريعةِ المطهَّرةِ، وإحلالِ الديموقراطيَّةِ والْمُلْكِ العَضوضِ مَحَلَّ النظامِ الإسلامِيِّ، وتشجيعِ مؤسساتِ الربا، وقَمْعِ أهلِ التوحيدِ الخالصِ وقهرِهِم بأنْماطٍ من الإذلالِ والتشريدِ والتعذيبِ... لا شكَّ في أنَّ هذه الشعوبَ قد خانوا اللهَ ورسولَهُ وتعاونوا فيما بينهم من جانب، ومع أعداءِ الأُمَّةِ من جانبٍ آخرَ على هَدْمِ الإسلامِ، والحجةُ قائمةٌ عليهم بما لا

يُحصى من الدلائل القاطعةِ والبراهين الساطعةِ. وقد نبذوا الوفاقَ والتعاوُنَ على البرّ والتقوَى، وتبنّوا الإرهابَ، فَأَرْهَبَهُمُ اللهُ بأيدي شبابِهم الْخُوَيْصِرِيِّين، وَالْجُهَيْمَانيِّين، واللاَّدِنيِّين، والداعِشِيِّين، وَالبُوُكُوحَرَامِيِّين، والأتاتوركِيِّين، والمجرمين ضمنَ عصاباتِ المافيا، والإرهابيِّين في شبكات: بِي كَ كَ، وDHKPC، وغيرها... وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَام.

***

4) الإرهابُ:

الإرهاب في اللُّغةِ: لفظٌ يُطلَقُ بمعنى الترويعِ والإخافةِ وإنزالِ الرُّعبِ في قلبِ فردٍ أو في نفوسِ أفرادِ مجتمعٍ بأسرِهِمْ. وفي اللغات الأجنبية يُعَبَّرُ بكلمةِ (Terrorism). وأمَّا في الاصطلاحِ: فهو مظهرٌ من مظاهرِ الْعُنْفِ الذي يمارِسُهُ الإنسانُ ضدَّ شخصٍ بعينِهِ أو يقصِدُ به مؤسسةً أو مجتمعًا أو دولةً لغرضٍ مَّا.. اتخذه الإنسانُ منذ وجودِهِ ضدَّ من اسْتِهْدَفَهُ بعداءٍ لذريعةٍ أثارتْهُ، كالدِّفاعِ والثَّأْرِ، وقد لم تكن مُلِحَّةً، كالمنافسةِ، والطمعِ، وضعفِ الخصمِ، والغطرسةِ وما أشبه...

إنَّ ممارسَةَ الإرهابِ لم يقتصر على الشخصِ فحسبُ، بل قديمًا استخدمَتْهُ جَمَاعاتٌ ومؤسَّساتٌ ومجتمعاتٌ ودول... إلاَّ أنَّ أساليبَ الإرهابِ قد تطوَّرَتْ مع تطوُّرِ الآلاتِ والوسائِلِ التَّقْنِيَّةِ والعلاقاتِ السياسيَّةِ والاجتماعيَّةِ بين الدولِ والمجتمعاتِ. كما أنَّ الإرهابَ –فيما سبق– لم يكنْ له نفسُ الخطورةِ التي اكْتَسَاهَا اليومَ، من حيث أساليبُهُ وزيادةُ العملياتِ وحجمُ الأضرارِ والتدميرِ، وزيادةُ أعدادِ الضحايا، وغيرُهَا..

إنَّ مفهومَ الإرهابِ أخذَ يجذِبُ اهتمامَ الإنسانِ وأشغلَ الناسَ منذُ أوائلِ السبعينات من القرن المنصرمِ، وأضحى مصطلحُ (الإرهابِ) من أكثرِ الاصطلاحاتِ شيوعًا في العالَمِ، لأنَّ نِسبةَ الجريمةِ وأشكالَهَا بدأتْ تزدادُ وتَتنوَّعُ، وأصبحَ الإرهابُ واقعًا يُثيرُ القلقَ في نفوسِ أكثير الناسِ، وانتشرَ

الخوفُ في ربوعِ المجتمعاتِ، فغدى الإنسانُ لا يأمَنُ على نفسِهِ حتى في البلادِ المتمكّنَةِ من إحْكَامِ السيطرة الأمنيةِ.

بدأت الدولُ والمجتمعاتُ تأخذُ هذه الظاهرةَ نُصْبَ عينِهَا، وانكبَّ العلماءُ على دراسةِ هذا الموضوعِ أكثرَ من أيِّ ظاهرةٍ اجتماعيةٍ أو سياسيةٍ أُخرَى في عصرنا إلى حدٍّ يعتقدُ الإنسانُ اليومَ أن الإرهابَ هو الخطرُ الوحيدُ البادي للعيان.

يشتملُ مفهومُ الإرهابِ على معانٍ مختلفةٍ كالتهديدِ، والإخافةِ، وإشاعةِ الرُّعْبِ، وَالأفعالِ الإجراميةِ من قتلٍ جماعيٍّ، وجرحٍ، وإتلافٍ، وتفجيرٍ للمنشآتِ العامَّةِ، وتدميرٍ للزروعِ والمحاصيلِ والأثاثِ والممتلكاتِ، وتحطيمٍ للسكك الحديدية والقناطرِ، وتسميمٍ لِمياهِ الشُّرْبِ ونشرِ الأمراضِ، وقيامٍ بمختلفِ أشكالِ السَّطْوِ والهجومِ واستخدامِ الأسلحة...

أمَّا أسبابُ الإرهابِ؛ فقد تَنَاوَلَهَا الخبراءُ والمفكِّرون والباحثون، ودرسوها من وجوهٍ وتوسَّعوا في تحليلها، فرأوْهَا متعدِّدةً، واتَّفقوا على أنَّ الإرهابَ لا يأتي اعتباطًا، بل لظهوره أسبابٌ؛ منها ما هي تَرْبَوِيَّةٌ ثَقَافِيَّةٌ، ومنها اجتماعيةٌ، ومنها اقتصاديةٌ، ومنها سياسيةٌ، ومنها نفسيةٌ... وَقد تجتمعُ عددٌ منها أو كُلُّهَا فتتداخَلُ وتتفاعَلُ فينشأُ منها فكرٌ متطرِّفٌ يدفعُ الشخصَ أو الجماعةَ إلى استعمالِ العنفِ ضِدَّ الغيرِ.

للبيئة ونمطِ الحياةِ تأثيرٌ كبيرٌ في تَوَجُّهَاتِ الإنسانِ. فإنَّ أيَّ قصورٍ في تربيتِهِ قد يكون أوَّلَ دافعٍ يجعلُهُ عُرْضةً للإنحرافِ عن التفكيرِ السليمِ، فيُميلُ به إلى استخدامِ القوَّةِ والاشتراكِ مع الإرهابيِّين. كذلك الأزماتُ الاجتماعيةُ والعائليَّةُ أيضًا قد تدفعُ الفردَ إلى التطرُّفِ والغلوِّ في الفكرِ والعقيدةِ، فتزيدُ من نُزُوعِهِ إلى العنفِ. وقد تكونُ ظروفُهُ الإقتصاديَّةُ مُتَدَهْوِرَةً، ليس لقصورِهِ، بل لأسبابٍ سياسيَّةٍ واجتماعيَّةٍ ناجمةٍ عن القهرِ الساحِقِ في بلدِهِ، ولطغيانِ النظامِ واستبدادِ الحُكَّامِ، وانتشارِ الفسادِ، وتَغَلُّبِ شبكاتِ الْمَافْيَا على المؤسساتِ... فيرى الشخصُ كلَّ الأبوابِ مسدودةً في وجههِ لِمُجَرَّدِ التزامهِ جانبَ العِفَّةِ واجتنابِهِ عن أكلِ الحرامِ، فلا يجدُ ما يُوَفِّرُ بهِ حاجاتِهِ الضروريةَ، ولا مَن يأخذُ بيدِهِ، فتضطَّرِبُ حياتُهُ... فلا شكَّ في أنَّ أكثرَ مَنْ يتعرَّضونَ لهذه الحالةِ يمتلؤون غيظًا وغضبًا على مجتمعِهِمْ وعلى نظامِ دولتِهِمْ. هذه الحالةُ من الشعورِ يُولِدُ في كيانِ الإنسان نزعةً من التخلِّي عن المسؤوليةِ الوطنيَّةِ والارتماءِ في جحيم الإرهاب.

من الجديرِ بالإخْطارِ والتنبيهِ على أنَّ أغلبَ سُكَّانِ دُولِ الشرقِ الأوسطِ مُصابون بهذا الشعورِ وقد نبتَتْ في نفوسهم هذه النَّزْعَةُ الخطيرةُ إلى حدٍّ لا يُستبعَدُ أنْ تَثُورَ جماعاتٌ غفيرةٌ من شبابِ هذه البُلدانِ في مُستَقْبَلٍ قريبٍ فيلتحقوا بتنظيماتٍ سِرِّيَّةٍ وإرهابيَّةٍ للانتقامِ من هذه الدولِ الظالمةِ فتتفاقمَ الفتنةُ وتشتغلَ نيرانُ حروبٍ ضاريةٍ دامية مُدَمِّرَةٍ في عمومِ أنحاءِ المنطقة. وقد بدأ ارهاصاتُ هذه الفتنةِ العظيمةِ منذ اندلاعِ ثورات الربيع العربي، يوم أضرمَ الشابُّ التونسِيُّ مُحَمَّد البوعزيزي النارَ في جسمِهِ[59]. يدلُّ ذلك على أنَّ أيَّامًا عصيبةً تنتظرُ هذه الدولَ قبل انتهاءِ النصفِ الأوَّلِ من العصرِ الجاري!

أما المصدرُ الرئيسُ الذي تَنْبَثِقُ منه جميعُ أشكالِ الإرهابِ ويُغَذِّي كُلَّ التَّنْظِيمَاتِ الإرهابيَّةِ في العالَمِ، فهي الإرهابُ الدُّوَلِيُّ من غير أدنى شكٍّ. ينبغي إذَنْ لِكُلِّ عاقلٍ أنْ يعلمَ أنَّ جميعَ الأعمالِ الإرهابيةِ اليومَ في الشرقِ الأوسطِ بدءًا من الإرهابِ الإسرائيلِيِّ ومرورًا بالإرهابِ النُّصَيْرِيِّ، والحُوثِيِّ، والحزبِ اللهِ الرافضِيِّ، والإرهابِ اللاَّدِينِيِّ والدَّاعِشِيِّ، وَجرائمِ الْفَتُّوشِين الأتراك وغيرِها من أعمالِ العنفِ والحروبِ الأهليةِ والإنقلاباتِ العسكريةِ، ليستْ إلاَّ بتدبيرِ شبكاتٍ إستخباراتيَّةٍ وعسكريةٍ تابعةٍ لِلْقُوَى الْعَالمية، وعلى رأسها الدولةُ الأميركيَّةُ والدولةُ العبرية.

لهذا؛ لاَ يُعْذَرُ الإرهابيُّونَ الخوارجُ الذين يَدَّعون: "أنَّهم إنما انطلقوا لدفعِ صَوْلَةِ الكفرِ، والتغلُّبِ على الأنظمةِ الظالمةِ المتحكِّمَةِ في رقابِ شعوبِ المنطقةِ، والإطاحةِ بعُمَلاءِ الغَرْبِ، والقضاءِ على الديمقراطيةِ والعلمانيةِ الكافرةِ، وإقامةِ دولةٍ إسلاميَّةٍ يعيشُ الناسُ في ظِلِّهَا أحرارًا آمنين.". إنَّ هذا الإدّعاءَ باطِلٌ، ولا أساسَ له من الصحةِ إطلاقًا. بل تَصَيَّدَهُم وَجَلَبَهم الحلفُ الصليبِيُّ–الصهيونِيُّ إلى صفُوفِهِ بعد أنْ غَسَلَ أدْمِغَتَهُم، ولا يعدو تنظيم (داعش) عن عصابةٍ صَنَعَتْهُ وَرَبَّتْهُ الشبكاتُ الأميركيةُ–الإسرائيليةُ كبقيَّةِ التنظيماتِ الإرهابيَّةِ (الشرق–أوسطيةِ)، كما أنَّ لِكُلِّ دَولةٍ ذاتِ أغلبيَّةٍ

---

[59] هو شابٌّ تونسِيٌّ اسْمُهُ: طارق الطيب مُحَمَّد البوعزيزي، قام يومَ الجمعة 17 ديسمبر/كانون الأول عامَ 2010م بإضرامِ النارِ في نفسِهِ أمامَ مَقَرِّ ولايةِ سيدي بوزيد احتجاجًا على مُصَادَرَةِ السلطاتِ البلديَّةِ في مدينةِ (سيدي بو زيد) لعربةٍ كان يبيعُ عليها الخُضَارَ والفواكهَ لكسبِ رزقِهِ، وللتنديدِ برفضِ سلطاتِ المحافظةِ قبولَ شكوَى أرادَ تقديمَهَا في حقِّ الشرطيَّةِ فادية حمدي التي صَفَعَتْهُ أمامَ الملأِ وقالتْ له: بالفرنسية: "Dégage" أي إرْحَلْ، فأصبحتْ هذه الكلمةُ شعارَ الثورةِ للإطاحةِ بالرئيس زين العابدين بن علي، وكذلك شعارَ الثوراتِ العربيَّةِ المتلاحقة.

المصدر:

https://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%85%D8%AD%D9%85%D8%AF_%D8%A7%D9%84%D8%A8%D9%88%D8%B9%D8%B2%D9%8A%D8%B2%D9%8A

مُسْلِمَةٍ في هذه المنطقةِ مساهمةٌ ومشاركةٌ بشكلٍ من الأشكالِ مع الحلفِ الصليبِيِّ–الصهيونِيِّ، ودورٌ قام الحلفُ بتحديدِهِ وتكييفِهِ وتوجيهِهِ، لاحتواءِ الوطن الإسلامي والاستيلاءِ على المسلمين وتطبيعهم وتحويلهم إلى عبيدٍ يخدمونه لتحقيق أهدافه. وأما عصابةُ (داعش) على وجه الخصوص، فقد تم تجنيدُهَا وتوظيفُهَا كطليعةٍ في مقدمة قوات الإحتلال الأميركي–الإسرائلي للمنطقة، جمعتْ ضِمْنَ تركيبِهَا بين حُثالةٍ من الْمُرْتَزِقَةِ البعثيَّةِ–الْعَفْلَقِيَّةِ وَالصَّدَّامِيَّةِ وَالخوارجِ تحت سقفٍ واحدٍ سُمِيَّ أخيرًا (الدولة الإسلامية!)[60] ولا شكَّ في أنَّ الحلفَ الصلِيبِيَّ–الصهيونِيَّ هو الذي آوى –في الوقتِ ذاته– رأسَ تنظيمِ الحشاشين الجُدُد (فتح الله گولن) في بنسيلوانيا (Pennsylvania)، وهو الذي أثاره على النظامِ التركي في 15 تموز/يوليو 2016م. كحملةٍ تُمَهِّدُ الوسطَ لاحتلال المنطقة.

هناكَ براهينُ قاطعةٌ على أنَّ الدولةَ الأميركيَّةَ، والدولةَ الإسرائيلِيَّةَ، والدُّوَلَ الأوربيَّةَ الصليبِيَّةَ هي التي تَقِفُ وراءَ هذه التنظيماتِ الإرهابيَّةِ. وهذه خلاصةٌ للدلائل على الحقائق المذكورة آنفًا:

ظهرَ تنظيمُ الخوارجِ الحجازيةُ بعنوانِ (القاعدةِ) في أفغانستان، وشاركَ القوَّاتِ الأميركيةَ لاستنزافِ الاتحادِ السوفيتي، أسفرتْ عن خروجِ الجيش الروسِيِّ من المنطقة مهزومًا، فتصاعدَتْ نَشَاطاتُ

---

[60] يقول: الفيلسوف والمفكر العربي المعاصر الدكتور عبدالله النفيسي، حول داعش ومن يُمَوِّلُهَا وما هي أهدافُ، ومن هم قادَتُهَا، ولِمَنْ ولاؤُهم...

يقول: "هي مشروعُ خذلانِ الثورةِ السوريَّةِ، والالتفافُ على أهدافِها؛ معظمُ أفرادِ داعش هم مجاهدون مخلصون، جاؤوا بنيَّةٍ طيِّبَةٍ لنصرة السوريّين، ولكنْ لاَ يعرفون مَنْ يقودُهم. وإخلاصُهُمْ الزائدُ يجعلُهُمْ لا يُفَكِّرون بذلك. مُعظمُ الْقادةِ الداعشيّين رَافِضَةٌ أو ضُبَّاطُ مُخَابَرَاتٍ مِنْ جنسيَّاتٍ مختلفةٍ، دَرَّبَتْهم دُوَلُهُمْ على اتْقَانِ التَّطَرُّفِ، ووضعتْ بِيَدِهِمْ الْمالَ ليكونوا قادةً. وهذا هو سِرُّ توافُرِ الدَّعْمِ الجَيِّدِ لهم. وأغلبُ الدَّعْمِ الْمَالِيِّ يأتيهِمْ من إيران. الغِنَى الْمَادِيُّ والبَزَخُ سِمَةٌ مِنْ سماتِ تصرُّفَاتِهِمْ، فلا ياكلون إلاَّ المشوِيَّاتِ، حتَّى بعضُ الثوار صار يُطْلِقُ النُّكَتَ على ذلك، ويُصَنِّفُ الثوارَ السوريّين أهلَ فلافلَ، والمهاجرين أهلَ لَحْمٍ!.

تم تصنيعُهُمْ لِوَسْمِ الثورةِ السوريَّةِ بالارهابِ، وكذريعةٍ لِخِذْلاَنِ المجتمعِ الدُّوَلِيِّ لَهَا، وهذا ما تَمَّ فِعْلاً. كُلُّ سُلُوكِهِمْ الْمُوَجَّهُ كان ضِدَّ مصلحةِ الثورةِ السوريَّةِ، لأنَّ مصدَرَهُ قيادَتُهُمْ الْمُخَابَرَاتِيَّةُ وليس عَنَاصِرَهُمْ الْمُغَرَّرَ بِهِمْ.

أعلنوا عن دولةِ العراقِ والشامِ في اثناءِ اجتماعٍ للدُّوَلِ الثَّمَانِ الكبارِ، بشأنِ مناقشةِ الأزمةِ السوريَّةِ، مِمَّا أدَّى إلى فَضِّ الاجتماعِ دونَ اتِّخَاذِ أيِّ اجراءٍ بسببِ هذا الاعلان. تَمَّ توجيهُهُمْ لاحتلالِ المناطقِ المحرَّرَةِ؟!. وفي كثير من الأحيانِ كان طريقُهُمْ يَمُرُّ في مناطقَ خاضعةٍ لسيطرةِ النظامِ، فيميلون عنها وصولاً للمناطقِ الْمُحَرَّرَةِ بِحِجَجٍ واهيةٍ، ويقتلون دون ضابطٍ شرعِيٍّ، ويمارسون فِقْهًا مُتَشَدِّدًا يُنْسَبُ إلى الاسلامِ زُورًا.

أَدْرَكَ الثوَّارُ خطورةَ مشروعِهِم المشبوهِ "احتلالِ سورية" وإقامةِ دولةٍ أكثرَ دِكْتَاتُورِيَّةً ووحشيَّةً من دولةِ النظامِ النُّصَيْرِيِّ، فانفجروا في وجوهِهِمْ كَالْبُرْكَانِ.

مِنْ ممارساتِهِم الاستفزازيَّةِ، احتلالُ الْمَقَرَّاتِ وَمُصَادَرَةُ السلاحِ، وَالخطفُ على الحواجزِ، وقطعُ الرؤوسِ، وإرهابُ المواطنين، والاستيلاءُ على المؤسَّسَاتِ التي بأيدِي الثُّوَّارِ بزعمِ أنَّهُمْ هم دولة الاسلام، والزَّوَاجُ مِنَ الْفَتَيَاتِ السوريَّاتِ بالترغيبِ والترهيب. وأخيرًا حدثَ الصِّدامُ الْمُسَلَّحُ معهم، وها هي أحكامُهُمْ بالرِّدَّةِ والقتلِ على كُلِّ مَنْ يخالِفُهُمْ بِتُهْمَةِ الصَّحَوَاتِ على غرار الصحوات في العراق ووو... ولا أجهلُ مِمَّنْ يؤيِّدُهُمْ ويُدَافِعُ عنهم مُتَذَرِّعًا بسوءِ الثُّوَّارِ السوريّينَ أو السياسيّين وأنَّ أمريكا وغيرَهَا وراءَ الاعتداءِ عليهم... بل هم صناعةٌ أمريكيَّةٌ إيرانيَّةٌ أَسَدِيَّةٌ مالكيَّةٌ... هم حِصانُ الجهل (طروادة) الذي امْتَطَاهُ الْمُغْرِضُونَ ضِدَّ الثورةِ السوريَّةِ.

بكُلِّ أسفٍ: داعش سَتُسَبِّبُ للشعبِ السورِيِّ مَأْسَاةً كَبِيرةً، ولكن ليس لها مستقبل في سورية إن شاء الله."

الخوارجِ بالدعمِ الأميركيِّ أعوامًا، ثُمَّ نُفِّذَتْ هجماتُ الحادي عشر من أيلول عامَ **2001**م. بمساهمة الطرفين (الخارجي–الأميركي) أدَّتْ إلى انهيارِ مَبْنَيَي مركزِ التجارةِ العالَمِيِّ في نيويورك (وذلك لتعمية الرأي العامِّ العالمِيِّ، لها قِصَّةٌ طويلة لا يتَّسِعُ المقامُ لذكرها). احتلت القواتُ الأميركيةُ العراقَ عام **2003**م.، أُعْدِمَ صدَّام حسين يوم العيدِ الأضحَى في **30** ديسمبر **2006**م. وذلك على سبيل التهديد لِجميعِ المسلمين في العالَمِ واستخفافًا بالمقدسات الإسلامية... ثم بقيتْ اللُّعبةُ لُغْزًا إلى اليومِ، وربما ستبقى في أدراجِ ملفاتِ الاستخباراتِ الاميركيَّةِ إلى أجلٍ غيرِ مسمى!

دامت اللُّعْبةُ الثُّنائيَّةُ حتى أوْلَدَتْ تنظيمَ "التوحيدِ والجهادِ" الذي انصهرَ بعدَ فترةٍ مع بعضِ فصائلِ "المقاومة العراقية" بزعامةِ أبي مصعب الزرقاوِيِّ "في مواجهةِ الاحتلالِ الأمريكِيِّ" بِحَسَبِ اللُّعْبَةِ.! وقد امتدَّتْ إلى اليوم وتحوَّلَتْ إلى مَسرَحِيَّةٍ دُوَلِيَّةٍ في أنحاءِ العراقِ وسوريا. ولا علمَ لأحدٍ متى وكيف سَتَنْتَهِي. إلاَّ أنَّ الْمُلْفِتَ من أسرارِ هذه اللُّعْبَةِ (بالقدرِ الذي يتبيَّنُ للباحث): أن الشبكاتِ الاستخباراتيَّةَ–العسكريَّةَ الْغَرْبِيَّةَ التي تولَّتْ إدارةَ هذه الدوَّامةِ لتأجيج الفتنة في الشرق الأوسطِ، اتصلتْ بالعناصرِ النازعةِ إلى الفكر الخارِجِيِّ في بادئ الأمرِ، واستخدمتْهَا في تحقيقِ أهدافِهَا الإرهابيَّةِ. إنَّمَا اختارتْ الخوارجَ لهذه المهمَّةِ لخبرتها بِتَعَصُّبِهِمْ وميولِهِمْ إلى استعمالِ القوةِ لدى أدنى فرصةٍ، وقد اهتدتْ الشبكاتُ الغربيةُ (وعلى رأسِهَا وكالةُ المخابراتِ المركزيةِ الأمريكيةِ CIA) إلى قدرٍ كبيرٍ من المعرفةِ بطبائعِ المذاهبِ الفكريَّةِ والدينيَّةِ في البلادِ الإسلاميَّةِ، بالاستفادة من الدراسات الإستشراقيَّةِ التي لها حجمٌ كبير وأثرٌ بالغ في توجيه الإستعمار الغربي على الأراضي الإسلامية.

يُحَاوِلُ بعضُ الخبراءِ إثارةَ الرأيِ العامِّ الإسلاميِّ: أن التنظيماتِ الإرهابيَّةَ تختبئُ وراءَ ستارِ الجهادِ وتتَّخِذُ من هذا المفهومِ المقدسِ ذريعةً لأغراضِها. وهذا أمرٌ هامٌّ يجب انتباهُ المجتمعِ الإسلامِيِّ له في غايةٍ من التثبُّتِ واليقظة. ذلك أنَّ شبكاتِ المافيا العالميَّةَ فجَّرَتْ حربًا ثقافِيَّةً –على أثرِ تفجيرِ بُرْجَيِ التجارةِ في أميركا– أسفرتْ عن ظهورِ مفاهيمَ جديدةٍ ودعاياتٍ كثيفةٍ تُغذِّي السياسةَ العالميَّةَ منذ **11** أيلول **2001**م. وذلك في ظلِّ الهيمنةِ الأميركية لضربِ العالمِ الإسلامِيِّ. فكان الجهادُ من أهمِّ المفاهيمِ التي اهتمَّتْ بها في تسييسِ حربِها الصليبيَّةِ الجديدة، فتناولتْها بأبشعِ أشكالِ الإستغلالِ والخداع.

كان من أشد آثارِ هذا الإستغلالِ تخريبًا وتدميرًا لِلْقِيَمِ، وأخبثِها تحريفًا ونشويهًا للحقائق: إلباسُ مفهومِ الجهادِ بمفهومِ الإرهابِ. لا شكَّ في أنَّ الحقلَ الاستخباراتِيَّ والجاسوسِيَّ الغربِيَّ قد اكتسبَ تجارُبَ عظيمةً وخبرةً فائقةً متعدِّدَةَ الأبعادِ في استيعابِ المصطلحاتِ الإسلامِيَّةِ، لا تكادُ مراكزُ هذا الحقلِ تجهل شيئًا من قِيَمِ المسلمين وآدابِهِمْ وعلومِهِمْ وثقافتِهِمْ، فلا يَصْعُبُ عليها تكييفُ هذه المصطلحاتِ والمفاهيمِ، وتزويرُها وتشويهُها لِتحقيقِ مصالحِهَا وأهدافِها. فوجدتْ في مفهومِ الجِهَادِ ضالَّتَهَا المنشودةَ لتتَّخِذَهَا وسيلةً لإرباكِ العقولِ وتأجيجِ الفِتَنِ. فانطلاقًا من هذه المحاولةِ الماكرةِ بدأتْ تجمُّعاتٌ مشبوهةٌ تظهرُ في ميدان السباقِ على الساحتين العراقِيَّةِ والسوريةِ، تَتَسَتَّرُ وراءَ مقولَةِ "الجهادِ في سبيلِ اللهِ". لكنَّ هذه العصاباتِ –في واقعِ الأمر– لم تتكوَّنْ من تلقاءِ نفسِها بصورةٍ طبيعيةٍ وانْدِفاعًا من الغيرةِ لِدِينِ اللهِ، والغضبِ لانتهاكِ حُرُمَاتِهِ، ودفاعًا عن الوطن الإسلامِيِّ وأعراضِ المسلمين... بل أولدَتْها ظروفُ مرحلةِ احتلالِ العراقِ (وهي الصفحةُ الأخيرةُ للحروبِ الصليبيَّةِ– الصهيونيَّةِ التي شنَّها الغربُ بعد قيام الدولة العِبْرِيَّةِ في فلسطين.)

نعم، ربما ليس تنظيم (داعش) هو صنيعُ الدولة الأميركية بشكلٍ مباشر، إلاَّ أنَّ الحلفَ الأميركِيَّ– الصهيونِيَّ هو الذي مهّدَ الوسطَ الْمُتَاحَ لظهورِ هذه العصابةِ الخطيرة. وقد جاءَ تفصيلٌ عقلانِيٌّ واضحٌ لهذه الحقيقةِ على لسانِ الكاتبِ عبدِ الباري عطوان، يقول:

«أميركا لم تُؤَسِّسْ تنظيمَ الدولةِ الإسلاميةِ، في اعتقادنا، مثلما يُرَوِّجُ الكثيرون في المنطقة على وسائل التواصل الإجتماعِيِّ، ولكنَّهَا خلقتْ الحاضنةَ لقيامِ التنظيمِ بسببِ سياساتِها التدميرية والعدائيةِ للعربِ والمسلمين، من خلالِ احتلالِهَا العراقَ أوّلاً ومن خلالِ حُلَفَائِها في بغدادَ ودولٍ خليجيّةٍ وعربِيَّةٍ عديدةٍ. فسياساتُ القهرِ والإقصاءِ والتهميشِ والإزلالِ التي مُورِسَتْ على أبناءِ الطائفةِ السُّنِّيَّةِ في العراقِ أثناءَ فترةِ الاحتلالِ التي امتدَّتْ أكثرَ من **11** عامًا هَيَّئَتْ البيئةَ الملائِمَةَ لنمُوِّ "بَذْرَةِ" الدولة الإسلامِيَّةِ وترعرُعِهَا وامتدادِها، وتكوينِ "النموزجِ" الذي يجذبُ عشرات الآلافِ من الشبابِ الإسلامِيِّ المُحبَطِ في مختلف أنحاء العالَمِ.»

«"الدولةُ الإسلامِيَّةُ" هي النتاجُ الطبيعِيُّ لاحتلالِ أميركا للعراقِ، وبَذْرُ بُذُرِ الطائِفِيَّةِ فيه، والانحيازُ إلى طائفةٍ وإهمالُ وإزلالُ أخرى، انطلاقًا من نزعةِ الإنتقامِ والثأرِيَّةِ. وزادتْ هذه النزعةُ تَبَنِّيَ بَعْضِ أبناءِ الطائفةِ السُّنِّيَّةِ نهجَ المقاومةِ للاحتلالِ والعمليةِ السياسيةِ المنبثقةِ من رحِمِهِ، وهذا لا يعني أنَّ

بعضَ أبناءِ الطائِفَةِ الشيعِيَّةِ لم يُشارِكوا في هذه المقاومةِ، فالبعضُ منهم قاومَ الاحتلالَ بشراسَةٍ، ولكنَّهُم كانوا الاستثناءَ وليسَ القاعِدَةَ.[61]»

هذه الحقائقُ (وكثيرٌ من أمثالِها) تبرهنُ أنَّ مفهومَ الجهادِ مُسْتَغَلٌّ استغلالاً ماكرًا بطريقِ التلبيسِ، والتضليل، وغسل الأدمغةِ، وخداعِ المشاعر، واستثارةِ العواطف... لذا، يتأكَّدُ هنا بالمناسبةِ الوقوفُ على مفهومِ الجهادِ خاصّةً، لكونه الآلةَ الأساسيةَ لِنشرِ رايَةِ التوحيدِ، وتبليغِ الرسالةِ المحمديةِ العالميةِ، ولِكَثْرَةِ الإختلافِ في تأويلِهِ، ولتمييزه عن مفهوم الإرهاب.

***

5) الجهاد:

الجهادِ (لغةً): هو الْجَهْدُ وبذلُ الطاقةِ. أمَّا في مصطلحِ الفقهِ الإسلاميِّ: فهو بذلُ الْجَهدِ في قِتالِ الْكُفَّارِ والمشركين وَمَنْ فِي حُكْمِهِمْ ممن يُضْمِرُ الشرَّ للمسلمين. هذا هو تعريفُ الجهادِ الأكبر. وللجهادِ أعمالٌ ترتيبيَّةٌ مَرْحَلِيَّةٌ، وهي أربعُ خطواتٍ.

الخطوةُ الأولى: يُهَيِّئُ فيها المؤمنُ باطِنَهُ بالاحتسابِ أجرَهُ عندَ الله؛ يبدأ بتربية نفسِهِ أوَّلاً، (وهو فرضُ عين). وهذا الجهادُ يشتمل على ما يجبُ تحقيقُهُ في النِّيَّةِ وتنفيذُ (بَعْضِهَا) على الجوارحِ؛ يتمثَّلُ في ترويضِ النفسِ على الفضائِلِ، وهي كثيرةٌ، كالصبرِ، والأناةِ، والحلمِ، والقناعةِ، والجودِ، والتضحية، والعفَّةِ، والوَقار، والإخلاصِ، والزُّهدِ، والتقوى، والتواضُعِ، وصفاءِ السريرةِ، وحُسْنِ الظنّ، والصفحِ عن عثراتِ الناسِ وزلاَّتهم، وتوقيرِ العالِمِ وذِي الشيب، واحترامِ القِيَمِ الساميَةِ، والرحمةِ بالعاجزِ، والتزامِ الأدبِ في المجالِسِ، ومراعاةِ آدابِ المعاشرةِ، والإهتمامِ بالنظافةِ، وبذلِ الجهدِ في دراسةِ وتدريس العلومِ، والحُظْوَةِ بأوفى نصيبٍ من ثقافةِ العصرِ، وأداءِ الفرائضِ في أوقاتها وفي حدودِ شروطها، واجتنابِ المناهي والبدعِ، والحذرِ من الوقوعِ في حبالِ الصوفيةِ خاصَّةً، لأنهم أضرُّ العناصرِ بالجهادِ ومن ألدِّ أعداءِ المجاهدين!. كما يجب على المستعدّ للجهادِ أن ينصحَ

[61] المصدر: عبد الباري عطوان، مقدمة كتاب "الدولة الإسلاميّة؛ الجذور، التوحّش، المستقبل،" ص/12. دار الساقي–2015م. بيروت، لبنان.

القاصرين ويُرَغِّبَهُم في المشاركة، وينقادَ لأميرِ المؤمنين ونُوَّابِهِ ورجالِ سُلْطَتِهِ[62].. ولا شكَّ في أنَّ التَّحَلِّيَ بهذه الخِصَالِ الحميدَةِ، والكفَّ عن أضْدَادِهَا من الْمُحَرَّمَاتِ والمكارِهِ والرزائِلِ يوجبُ على الإنسانِ مجاهدةً كبيرةً في تهذيبِ نفسِهِ والبحثِ عن سُبُلِ الخيرِ والصوابِ، ومقاومةِ الْهَوَى ...

يَتَبَيَّنُ من هذا؛ أن المرحلةَ التمهيدِيَّةَ للجهادِ لها أهميّةٌ بالغةٌ، إذ هي القاعدةُ الأساسيَّةُ التي ترتكزُ عليها بقيَّةُ الأعمالِ الجهاديَّةِ. ذلك أنَّ الفردَ لا يتمكَّنُ من الإنطلاقِ إلى ميدانِ الجهادِ الفعلِيِّ بأنْ يتحمّلَ المسؤولِيَّةَ ويفتدِيَ بماله ونفسِهِ لإعلاءِ كلمة اللهِ إلاَّ بعدَ أنْ يتخلَّصَ من رسوباتِ الكفرِ بجميع أشكالِهِ (من الشركِ، والنفاقِ، والإلحادِ، والزندقة، والإرتدادِ)... وأن يمتازَ بيقظةٍ تبعثُهُ للقيامِ بأعباءِ مهمَّةِ الجهادِ. ذلك، أنَّ للجهادِ أهدافٌ وغاياتٌ ساميةٌ تتنوَّعُ بحسبِ ظُرُوفِ المسلمين، وتُحَمِّلُ عليهم مسؤوليةً عظيمةً، بخاصَّةٍ إذا كانَتِ الأُمَّةُ كُلُّهَا في أسرِ مِلَّةِ الكفرِ (كما هيَ الحالُ في عصرِنَا، ولا حول ولا قوة إلاَّ بِاللهِ!). تتمثَّلُ هذه الأهدافُ أوَّلاً في تمهيدِ الوسطِ لتثقيفِ المسلمين وتهذيبِهِمْ، ونفخِ الوعْيِ الأخلاقِيِّ والسياسِيِّ في نفوسِهِمْ، وإيقاظِهِمْ من نوْمِ الغفلةِ الذي أوقعَهُمْ في أسرِ عَالَمِ الْكُفْرِ، لِكَيْ يَتَنَبَّهُوا أوَّلاً إلى ما يفعلُ بهم الْحِلْفُ الصِّهْيُونِيُّ–الصَّلِيبِيُّ العالَمِيُّ من القمعِ والقتلِ والتشريدِ والإهانةِ والسحقِ والإذلالِ في فلسطينَ وسوريا والعراقِ، والشيشانَ، وكشميرَ وغيرِها من بلادِ المسلمين؛ وليفطَنوا إلى ما يصنعُ بهم الكُفْرُ الْعَوْلَمِيُّ من تفريقِ الكلمةِ وتمزيقِ الصفوفِ، وما يُؤَجِّجُ في بلادِهِمْ من نيرانِ الفتن الْمَذْهَبِيَّةِ والطَّائِفِيَّةِ... وليستعدُّوا لمواجهةِ التحدِّياتِ، والتيَّاراتِ التي صَهَرَتْهُمْ في مُسْتَنْقَعِ الكفرِ العلمانِيِّ، والصوفِيِّ، والقبورِيِّ، والعنصرِيِّ... وليتأهَّبُوا في النهايةِ صفًّا واحدًا لمقاومةِ أعداءِ الإسلامِ ومؤامراتِهِمْ وهجماتِهِمْ تحت رايةِ التوحيدِ، واللهُ على نصرِهِمْ لقدير...

يتعيّنُ هنا التنبيهُ بأشدِّ ما يكون؛ على أنَّ استخدامَ السلاحِ لتحرير الأُمَّةِ (وهِيَ ما زالت في أسر ملةِ الكفرِ) وبالٌ وجنايةٌ على الإسلامِ والمسلمينَ من غيرِ أدنى شَكٍّ. ذلك أنَّ ظروفَ الأُمَّةِ المحمديةِ اليومَ أشبهُ ما يكونُ بظروفِ المسلمين في العهدِ المكّيِّ، بل الأمةُ اليومَ تعاني أشدَّ قسوةً مِمَّا تعرَّضَ له المسلمون الأوائلُ. فلنا في رسولِ الله صلى الله عليه وسلّمَ أسوةٌ حسنةٌ أن نمتثِلَ موقِفَهُ يومئذٍ وهو يكفُّ عن مواجهة المشركين بالسلاح. لقد كانت العلاقةُ بين المسلمين والمشركين في تلك الفترةِ مقصورةً على التبليغِ والدعوةِ والإرشادِ فحسبُ. ولم يكنْ أحدٌ من المسلمين يتناولُ سيفَهُ في وجهِ

[62] هذا إذا كانت الدولةُ الإسلامِيَّةُ على قيد الوجود. أمّا في عصرِنا – ومن سوءِ الحظِّ– فلا وجودَ لها على مسرح التاريخ، وقد خسرها المسلمون منذ نهاية الخلافةِ الراشدةِ يوم تنازل الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، وذلك عام **41** من الهجرة النبوية عليه السلام، الموافق لعام **661** من ميلادِ المسيح عليه السلام.

المشركين، إذ كانوا ضُعَفَاءَ، وبعضهم يُعَذَّبُون، كبِلالٍ بنِ رَبَاحٍ، وصهيبٍ بنِ سنانَ، وعمَّارٍ بنِ ياسرٍ وغيرِهم... ولكنَّهم أختاروا الصبرَ على الأذَى في دين الله، واحتسبوا لكُلِّ ما تكبَّدوه من محنةٍ وعذابٍ حتى نصرهم اللهُ على أعدائهم نصرًا عزيزًا.

يجب هنا التنبيهُ كُلَّ التنبيهِ على إنَّ السلاحَ ليس هو أوَّلَ وسيلةٍ يلجأُ المؤمِنُ إلى استخدامهَا خاصةً إذا كانَ العدوُّ أقوى منه، وفي ذلك خطرٌ عظيمٌ وإثارةٌ لحفيظةِ العدوّ، إذ يَتَحَرَّقُ للانقضاضِ على المسلمين بأشدّ أساليبِ التدمير، فيتطوَّرُ عنهُ مصائبُ وفِتَنٌ هائلةٌ تَعُمُّ المسلمين بِوَيْلاَتِهَا من تشريدٍ وقتلٍ وإبادةٍ واستباحةٍ للْحُرُمَاتِ، كما هي الحالةُ على الساحةِ السورية والعراقِيَّةِ... في ذلك أيضًا عُدولٌ عن المنهجِ الأحوطِ الذي سارَ عليه النبي صلى الله عليه وسلَّمَ.

فلا ننسى ما أسفر عن أفاعيل ابنِ لاَدِنْ ومَنْ على شاكلتِهِ من رموزِ الفكرِ الخارجيّ الخويصرِيّ إذ عدلوا عن المنهج النبوي، فصرفوا أموالاً طائلةً في حروبِهِمْ على جحافلِ الكُفْرِ ذهبَ كُلُّها سُدًا، بالإضافةِ إلى ما أريقتْ من دماءِ آلافِ شبابِ الأُمَّةِ على يدِ الكفارِ دون جدوى، كما تفاقمت الفتنُ وانتشرتْ نيرانُها على ساحةٍ واسعةٍ من أرضِ الإسلامِ نتيجةَ غطرسةِ الخوارِجِ وانطلاقاتِهِمْ الهمجيَّةِ في وجهِ الحلفِ الصليبِيّ–الصهيونِيّ مع انتفاءِ التكافؤ بين الطرفين، عدا ما يختفي وراءَ هذه الظروفِ المظلمةِ من ملابساتٍ ليس هذا مقامَ الخوضِ فيها.

والخطوة الثانيةُ في عملِ الجهادِ: هو الإرشادُ والتهذِيبِ والإصلاحِ؛ يتوجه ذلك على أهلِ العلْمِ والخبرةِ. ولا يجوز لأحدٍ منهم التغافل أو التكاسُلُ عن هذه المهمّةِ. وقد ورد الأمر في الكتابِ العزيز بدعوةِ الناسِ إلى الصراطِ السويِّ في قوله تعالى: "ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ.[63]" وقال تعالى: "فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِين.[64]" تتمثل هذه الخطوةُ من عملِ الجهادِ في تهذيبِ المسلمين، وتوحيدِ صفوفِهم، وتصحيح ما فَسَدَ من عقائدِهم، وتنقيَتِها من كُفْرِيَّاتِ الْمَلاَحِدَةِ، وشِرْكِيَّاتِ الزنادقةِ، وهَرْطُوقِيّاتِ الْمُعْتَزِلَةِ، ومُغَالَطَاتِ الفلاسفةِ، وَتَهافُتِ الْجَهْمِيَّةِ، وَسَقَطَاتِ الْمُرْجِئَةِ، وَحَمَاقَاتِ الْمُجَسِّمَةِ وَالْمُشَبِّهَةِ، وَبِدَعِ الباطنية الرَّافِضَةِ

[63] النحل/125
[64] آل عمران/159

وَتضليلات الصُّوفِيَّةِ... كما يجبُ أن يكون من أهدافِ هذه المرحلةِ الجهاديةِ: محاربةُ العُجْمَةِ في الدِّينِ واللُّغَةِ وإحباطُ الْمُسْلُمَانيَّةِ (Müslümanlık)، وهي ديانةٌ وثنيةٌ خطيرةٌ إخْتَلَقَهَا أعجامُ الْفُرْسِ وَالتُّرْكِ انتقامًا من الإسلامِ للزرادشتية والشامانية والبوذيةِ!. ومن أهدافِ الجهادِ أيضًا: تطهيرُ عاداتِ المسلمين وأعرافِهِمْ وعَقْلِيَّاتِهِمْ من سائرِ البِدَعِ والخُرافاتِ، وتحذيرُهُمْ من الأساطيرِ والإسرائيليَّاتِ، وَكِفاحُ المشعوذينَ والسَّحَرَةِ والمتعصِّبين والسماسرةِ الذين يَسْتَغِلُّون العواطفَ ويَتَّجِرُونَ بالدين والقِيَمِ الْمُقَدَّسَةِ، يجبُ إفشاءُ مساويهم، وتنبيهُ العامَّةِ بِكُلِّ وسائلِ الإعلامِ على ضلالاتهم، وخطورةِ ما يبثُّونَ مِنَ الزندقة القبوريَّةِ... كذلك يجب بذلُ الجهودِ لأجلِ التأليفِ بين قلوبِ المؤمنين، والعملُ على توحيدِ صُفُوفِهِمْ، وبعثُ روحِ الإخاءِ، ونشرُ الْمَحَبَّةِ والتعاونِ على البِرِّ والتقوى في مُجْتَمَعَاتِهِم، وإحلالُ السلامِ في ربوعِهِمْ، والنهوضُ بالأُمَّةِ المحمدِيَّةِ في جميعِ مجالاتِ الحياة... كما يجب على الْمُسْتَعِدِّ لِلجِهَادِ: أن يسعَى وَيَبْذُلَ ما يَمْلِكُ من العلم والجاهِ والمالِ لتربيةِ أفرادِ المجتمعِ، وتعليمِهِمْ، وتدريسِهِمْ في ضوءِ الكتابِ والسنةِ، وإرشادِهِمْ إلى الصراطِ المستقيمِ، وترسيخِ التوحيدِ والعقيدة الصحيحةِ في قلوبِهِم، وبثِّ الْوَعْيِ في نفوسِهِمْ... ويجب مع ذلك مقاومةُ السلبيَّاتِ وتذليلُ العقباتِ بِرَدِّ الشُّبُهَاتِ ومحاربةِ الزنادقةِ من الصوفيَّةِ والقبوريِّينَ، وإحباطُ إعمالِ المنافقين الْمُنْدَسِّيَن في صفوفِ الأمةِ، وإرشادُ الْفَسَقَةِ من أهلِ البِدَعِ والمنكرَاتِ، ومقاومةُ الطواغيتِ والمشركين المتحكِّمِين في رِقابِ أفرادِ المجتمعِ، وتحذيرُ الجاهلين من الوقوعِ في حِبالِ أهل الضلالِ، والقيامُ بتبليغِ الرسالةِ المحمديَّةِ إلى عامَّةِ الناسِ، وبدعوتِهم إلى هدي الإسلامِ والتوحيدِ الخالصِ بأفضل أساليب الجَدَلِ متى دعتْ الحاجةُ لها... كما يجب على أغنياءِ المؤمنين ووُجهائِهم وأصحابِ الكلمةِ النافذةِ منهم أن يكونوا رِدْءًا للعلماءِ والمرشدين في جهادِهم. هذا النوعُ من الجهادِ يُعَدُّ من فروضِ العين أيضًا. لأنه إذا بطلَ فسدتِ الحياةُ كُلُّهَا.

إنما تأتي بعد كلِّ هذه الخطواتِ التمهيديَّةِ والاستعدادِيَّةِ مرحلةُ إقامةِ دولةٍ إسلامِيَّةٍ على المنهج النبويِّ، وحمايتِها عسكريًّا وسياسِيًّا واقتصادِيًّا، وعلمِيًّا، وثقافِيًّا، وأخلاقِيًّا... وإنما بعد هذه الأعمالِ التكميلِيَّةِ يجبُ الإثخانُ في الأرضِ، بإرهابِ مِلَّةِ الكفرِ، وبالعملِ على إذلالِها، وأحباطِ خطرِها على المسلمين، وَرِدِّ اعتدائِها... ويجب مع ذلك حفظُ الثغورِ، وإقامةُ الحدودِ على العُصاةِ والجُنَاةِ، وكشفُ المنافقين وإرغامُ أنفِهِمْ، ومواصلةُ المسيرةِ الْمُثْلَى بالمواكبةُ مع الأُممِ الراقيةِ في التقدُّمِ والسباقِ العِلْمِيِّ والحضارِيِّ بشوقٍ ورغبةٍ وطمأنينةٍ، وتأسيسُ العدالةِ الإجتماعيَّةِ على غرارِ دولةِ الرسولِ الكريمِ ﷺ، وخلفائِهِ الراشدين رضوان الله عليهم، بحيثُ يأمَنُ في ظِلِّهَا كُلُّ إنسانٍ على نفسِهِ ومالِهِ وعِرْضِهِ، ويتذوَّقُ الهناءَ والعافِيَةَ في حِمَاهُ كلُّ فردٍ من مُسْلِمٍ وذمِيٍّ، ومواطنٍ وأجنبِيٍّ،

ومقيمٍ ومسافرٍ؛ ويتمتَّعُ الجمهورُ في كَنفِهِ بأقصَى وأوسعِ ما يمكنُ من الحقوقِ والحرّيَّةِ أينما توجَّهَ، أو انتقل، أو أقامَ، من أرجاءِ الدولة الإسلامية، وَفَّقَ اللهُ جلَّ سلطانُهُ المؤمنينَ لإقامَتِهَا في عاجلٍ قريب.

وردتْ آياتٌ وأحاديثُ كثيرةٌ في فضلِ الجهاد، وهو ركنٌ من أركانِ الإسلامِ، لأنه تضحيةٌ وجودٌ بالنفسِ والنفيسِ في سبيلِ الله، وَالجُودُ بالنفسِ من أغلى غاياتِ الجودِ. يقول ابن قيم الجوزية رحمه الله: "مَهْرُ المحبةِ والجَنَّةِ بذلُ النفس والمالِ لِمالكِهِما الذى اشتراهما من المؤمنين، فما للجبان المُعرِضِ المُفْلِس وسَوْمِ هذه السلعة، باللهِ ما هُزِلَتْ فَيَسْتَامَهَا المفلسون، ولا كَسَدَت، فيبيعَهَا بالنسيئةِ المُعْسِرُونَ، لقد أُقيمَتْ للعرضِ فى سوقِ مَن يُرِيد، فلم يرضَ رَبُّهَا لها بثمنٍ دونَ بذلِ النفوسِ، فتأخَّرَ البطَّالون، وقام الْمُحِبُّونَ ينتظرون أيُّهُم يصلُحُ أنْ يكونَ نفسُهُ الثمنَ، فدارتِ السِّلعةُ بينهم، ووقعتْ فى يدِ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الكَافِرِينَ."[65]

إنَّ أحدًا من السلفِ الصالحِ لم يردْ عنه أنّه عدَّ الجهادَ رُكنًا سادِسًا للاسلام، إلاَّ أنَّ اهتمامَ العلماءِ بالموضوعِ جعل بعضَهم يعُدُّه في منزلةِ الركنِ السادسِ للدِّينِ الحنيفِ، والمعروف أنهم حصروا أركانَ الإسلامِ في الخمسةِ فحسب. وللمجاهدِ كرامةٌ تَجِلُّ عن الوصفِ. قال تعالى: "إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ" (التوبة/**111**) وقال تعالى: يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (الصف/**10**، **11**) وقال تعالى: وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (العنكبوت/**69**) وقال تعالى: وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ * الَّذِينَ اسْتَجَابُوا للهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ * الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ، فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (آل عمران: **169 – 173**) وقال تعالى: لاَ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا * دَرَجَاتٍ

[65] المائدة/**54**.

مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (النساء/**95**، **96**). وفي هذا البابِ آيات وأحاديثُ كثيرةٌ مَلأَتْ بطونَ الكُتُبِ.

ولَمَّا كان الجهادُ على هذا القدرِ من الفضلِ العظيم والأهمية البالغةِ، فكانَ في تركِهِ من الخطرِ العظيم على المسلمين، وهذا ما جعلَ أهلَ العلمِ يرونَ أنَّ التطوُّعَ بالجهادِ من أفضلِ الأعمالِ الصالحةِ. وقد اتفق العلماءُ على أن الجهادَ أفضلُ من الحجّ والعمرةِ، ومن صلاةِ التطوعِ، وصومِ التطوعِ. وقد ورد في حديث معاذ بن جبل ﷺ، أنَّ النبيَّ عليه الصلاة والسلام قال: "رأسُ الأمرِ الإسلامُ، وعمودُهُ الصلاةُ، وذِرْوَةُ سَنَامِهِ الجهاد."

والخطوة الثالثة: هي المرحلةُ التكميليَّةُ قبلَ النفير، من ميزاتِهَا: أن تكونَ قد تحققتْ فيها ثورةٌ علميةٌ وثقافيَّةٌ على مستوى الأمّةِ، وازدهرَ الوطنُ الإسلاميُّ في المجالاتِ الصناعيّةِ والتقنيَّةِ والإقتصاديّةِ، وأن يكونَ لاَ أقلَّ ثُلُثُ الأُمَّةِ يحظَى من العلمِ والمعرفةِ على المستوى الجامعِيّ؛ يهجُرُ الناسُ الفواحِشَ، وَيتَّصِفون بالرَّزَانَةِ في سلوكهم، ويلتزمون جانب الفضائِلِ في تعاملهم، تجري علاقاتُهم على أساسِ الإحترامِ المتبادِلِ... فالأُمَّةُ يومئذٍ تستحقُّ أن توصَفَ بالمجتمع الرشيدِ. عند ذلك لا شكَّ في أنَّ أفرادَ مثلِ هذا المجتمعِ يتمتعونَ بأقصى حدٍّ من الحرّيَّةِ، ويتساوونَ في ممارسةِ الحقوقِ والفُرَصِ. وهذا يُقَوِّي الصِّلَةَ فيما بينهم، ويبعثُ في نفوسِهم روحَ التعاوُنِ على البر والتقوى، ويُشَجِّعُهُمْ على التأهُّبِ لإعلانِ استقلالِ الأمّةِ من أسرِ مِلَّةِ الْكُفرِ بتحقيقِ أمورٍ ليس هذا مقام سردها. يجب على الدعاةِ في مثل هذه المرحلة أن يُكَوِّنُوا مجلسًا استشاريًّا ويختاروا شخصًا من بينهم رئيسًا للمجلِسِ. ويجب أن تتوفَّرَ في هذا المجلسِ شروطٌ، أهمُّها: أنْ يكونَ جميعُ الأعضاءِ حامِلِي مؤهَّلاتٍ علميَّةٍ في تخصُّصاتٍ متنوّعةٍ تُمَكِّنُهُم من تقديمِ آراءٍ، ومناقشةِ قضايا، وإصدارِ قراراتٍ يتمُّ بها تسييرُ أعمالِ الدِّفاعِ، وإعلانُ الاستقلالِ، واستتبابُ الأمنِ والنظامِ أثناءَ النفيرِ والجهادِ الفعلِيّ... وقد لا يجوز الإعلانُ عن هذه الإنطلاقةِ قبل التثبّتِ من موافقة أكثر المجتمع عليها! لأنَّ أي مجتمع لا يخلو من الخونةِ والمنافقين والمغرضين والمعارضين وأهل الأهواء...

والخطوة الرابعة: هي مرحلةُ الإنطلاقِ الفعلِي؛ يُفتَرَضُ أنَّ أكثرَ من نصفِ الأمةِ يمتازُ في هذه المرحلةِ بالعقيدةِ الصحيحةِ، والسلوكِ الرفيعِ، والوعي بضرورةِ الخلاصِ من نير أُمَّةِ الكفر. عند ذلك يجب على أهلِ الحلّ والعقدِ أنَّ يُعلِنُوا أنَّ أُمَّةَ التوحيدِ قد أصبحَتْ تملِكُ إستقلالَهَا. إلاَّ أنَّ عملاءَ الكفارِ في الداخِلِ سيبرزون إلى الساحةِ عاجلاً، وسيستنكرون هذا الإعلانَ بـ"أنه خروجٌ على النظامِ وأنه

جنون وغطرسةٌ، لأنَّ في ذلك خطرٌ على المجتمعِ، وذريعة لانقضاضِ السلطةِ الحاكمة عليه وفتكه..." وقد يتجرَّأُ هؤلاءِ العملاءُ على تنديدِ المسئولين عن الإعلانِ بـ"أنَّهم رِجْعِيُّونَ، أعداءُ العلمِ والحضارةِ، متخلِّفون، يتحاكمون إلى الدِّينِ وقد مَضَى عَصْرُهُ..." إلى غير ذلك من اتهامات أهل الكفر. علمًا بأنَّ هذه الفئةَ لا يزالُ لها وجودٌ وحضورٌ وغلبةٌ في المجتمعات الشرق–أوسطية وهي تتحكم في رقاب هذه الشعوبِ، ومن أبرزها وأقواها (الأتاتوركيون) و(السبطائيون المعروفون بـ"اليهود الدونما") في تركيا!

يجب في هذه الحالة أوّلاً وقبلَ كلِّ شيءٍ: كبحُ جماحِ هذه الفئة المنافقةِ، ثمَّ الاستعدادُ لجهادِ الكفار والمشركين في ساحةِ المعركةِ بالكفاح المسلّحِ وباللجوءِ إلى كُلِّ طريقةٍ من طرائقِ استعمالِ العنفِ والترهيبِ، وإدخالِ الرُّعْبِ في قلوبِهم، وإنزالِ ضرباتٍ قاصمةٍ على جموعِهِمْ الْمُسَلَّحِةِ، وإرغامِهِمْ على الإستسلامِ بِأَنْ يدفعوا الجزيةَ عن يدٍ وهم صاغرون، أو ينصرفوا وهم منهزمون، وفقًا لقولِهِ تعالى: "وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِين."[66] وقال تعالى: "وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِير."[67] وعن عبد الله بن عمر ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: "أُمِرْتُ أنْ أقاتلَ الناسَ حتى يشهدوا أنْ لا إله إلا الله وأنَّ محمدًا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوه عصموا مني دماءَهم وأموالَهم، وحسابُهم على الله." وذلك لدفعِ شَرِّهِمْ، والدفاعِ عن أرضِ الإسلامِ، ومنعِ الكفارِ الحَرْبِيِّين من إهراقِ دماءِ المسلمين وهَتْكِ أعراضِهِمْ ونَهْبِ أموالِهِمْ، وللحفاظِ على السلام في الداخل والخارج. هذا النوع من الجهاد، فرضٌ من فروضِ الكفاية يتم إعلانُهُ، وتحديدُ وقتِهِ، وأساليبِهِ الحربيَّةِ وأشكالِ تنفيذِها إلى غيرِ ذلك من التفاصيلِ، يتمُّ كلُّ ذلك من قِبَلِ مجلسِ الأُمَّةِ، ويبدأ الاستعدادُ الفعليُّ وتنفيذُ الأعمالِ الجهادية بعد موافقةِ أميرِ المؤمنين.

أمّا جوازُ استخدامِ السلاحِ وإعلانِ الحربِ على العدوِّ، فإنه يتوقفُ على الإيمان الصادقِ أولاً وقبل كلِّ شَيءٍ، لكنه ليسَ هو الشرطَ الوحيدَ، بل يجبُ مع ذلك أن تتوفّرَ شروطٌ أخرى تُحَدِّدُهُ الظروفُ لا محالةَ. ولا يجوز لأحدٍ أن يُبْدِيَ الرأيَ في أمرِ الجهادِ إلاَّ أن يكونَ من أهل الإختصاصِ وقليلٌ مَّاهم. وهذه شروط عامةٌ لإعلانِ الجهاد بالترتيب:

---

[66] البقرة/193

[67] الأنفال/39

أولاً: يجبُ وجودُ رايةٍ ذاتِ سلطانٍ معترفٍ بها، بإجماعِ علماءِ الأمةِ، وفقًا لما رُوِيَ عن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ: "لن تجتمعَ أمتي على الضلالة أبدًا، فعليكم بالجماعة، فإن يدَ اللهِ على الجماعة"[68] ومِنَ الشططِ القولُ بانقراضِ العلمِ والعلماءِ، وأنَّ الأمةَ لم تعدْ قادرةً على النهوضِ بأعباءِ الجهادِ وإحياءِ دولةٍ على أساسِ الكتابِ والسنةِ. بل الحقيقةُ خلافُ ذلك، ولكنَّ الظروفَ –لا شك– قاسيةٌ، والطُّرُقُ وَعْرَةٌ، وَالسُّبُلُ شائكةٌ، والعلماءُ يعانون أشكالاً رهيبةً من الإضطهادِ والتعذيبِ، قُتِلَ جمٌّ غفيرٌ منهم في السنين الأخيرة، والبقيَّةُ مشرَّدون مبعثَرُونَ في أنحاءِ العالم، لا يجدون مكانًا آمنًا للاجتماعِ والتشاورِ، وقد ملأ فراغَهم جماعَاتٌ مِنَ الْمُعَمَّمِينَ من رجالِ الدين، والسحرةِ، وشُيُوخِ الطُّرُقِ الصُّوفيَّةِ الْمُشَعْوِذِينَ، وخواجواتِ السلاطين...

ثانيًا) أنْ يكونَ القصدُ من الجهادِ: محضَ الإعلاَءِ لكلمةِ اللهِ وأنْ يكونَ الدِّينُ كُلُّهُ لله، بإقامةِ دولةٍ إسلامِيَّةٍ قويَّةٍ، –إنْ كانتْ قد إضمحلّتْ، كما هو الحالُ في عصرِنا– وتطبيقَ أحكامِ الشريعةِ المطهَّرَةِ، وتأسيسَ العدالةِ على أساسِها، وإرساءَ دعائمِ السلام، وتمكينَ أفرادِ المجتمعِ من مُمَارَسَةِ حُرِّيَّاتِهِمْ، وذلك بالقضاءِ على جميعِ أشكالِ العُبُودِيَّةِ لغيرِ اللهِ: من العِلْمَانِيَّةِ، والقبوريّةِ والعنصرية، والرَّفْضِ، والتَّصَوُّفِ، واليمينيَّةِ، واليساريَّةِ، والرأسماليَّةِ، والشيوعيَّة، والإشتراكيَّةِ وغيرِها... فإنْ كان الجهادُ عن جهلٍ بضوابطِهِ، أو من مُنْطَلَقِ الهوى ومجرَّدِ الحماسِ، أو بإغراءِ مِلَّةِ الكُفْرِ، (كما هو الحالُ بالنسبةِ لِجِهَادِ الخوارجِ الجُدُدِ (اللاَّدِينِيّين وَالدَّوَاعِشِ ونحوهم)، فلا يصحُّ جهادُهُمْ، بل يجبُ على المسلمين قتالُهُمْ، والقضاءُ على جموعِهِمْ، لإزالةِ خطرِهِمْ وقطعِ صلةِ الكفارِ بهم.

ثالثًا) تبليغُ رسالةِ اللهِ إلى الأُمَمِ الكافرةِ، وذلك بعد انتهاءِ مَرَاحِلِ الجهادِ التمهيدِيِّ وجِهادِ الإعْدَادِ والاسْتِعْدَادِ، كما فعل الرسول ﷺ. فإنه عليه السلام، أكملَ الجهادَ التمهيدِيَّ في العهد المكِّيّ، وأكمل جهادَ الإعدادِ والاستعدادِ في أوائل العهد المدنِيّ، ثم باشر الجهادَ المسلّحَ في أواخر العهد المدنِيّ فنصره الله على أعدائِهِ في الداخل والخارج، وثبَّتَ أقدامَ المسلمين.

إنَّ قضيةَ الجهادِ لها أهميّةٌ قصوى لارتباطها المباشر بالإيمانِ، لأنَّ الأعمالَ الصالحةَ هي من صميم الإيمانِ، ولأنَّ الإيمانَ يزيدُ وينقصُ بسببِ العملِ؛ ذلك إذا كان صالحًا زادَ به الإيمانُ، وإذا كانَ فاسِدًا نقص به الإيمان. ومن هذا الْمُنْطَلَقِ يَتَحَرَّكُ ضميرُ الإنسانِ المؤمنِ الموحّدِ عند كُلِّ مشهدٍ؛ يأمرُ بالمعروفِ، وينهَى عن المنكرِ، لله يُحِبُّ، ولله يَغْضِبُ، ولله يأخُذُ، ولله يُعطي... ولا شكَّ في أنه

---

[68] رواه الطبراني.

يفرحُ إذا كانت الأمةُ في سعةِ الرزقِ وبسطةِ العيشِ قَوِيَّةً، مُتَمَاسِكَةَ الأجزاءِ، مُتَرَاصَّةَ الصفوفِ، تتمتَّعُ بالأمنِ والإطمئنانِ... ويأسفُ المؤمن الموَّحِدُ ويحزن إذا وجدَ الأُمَّةَ تتقلّبُ في دوامةٍ من البؤسِ والشقاءِ، وقد تشتتَ شملُها، وتفرقتْ صفوفُهَا، تتكالبُ عليها الأعداءُ بشتَّى أشكالِ التسلُّطِ والغزو الثقافِيّ والنفوذِ السياسِيّ، والإحتواءِ الإقتصادِيّ، والحربِ العسكرِيّ...

هذا، –وبالمناسبةِ– لَمَّا تدهورتْ حالةُ الأمّةِ ودخل الشقاقُ بين أجزائِها، وسادَ الفوضَى على الوطن الإسلامِيّ بكاملِهِ، واحتلَّ الكُفَّارُ مناطقَ واسعةً منه، وقتلوا ملايينَ من المسلمين، وهتكوا أعراضَهُمْ بعد النصفِ الثاني من القرنِ العشرين.. ثارتْ غيرةُ جماعاتٍ من شبابِ الأمّةِ فتصدَّوْا لحربِ الكفارِ من الروسِ والأميركيين والأوربيين في تلك المناطق المحتلَّةِ، إلاَّ أنَّ هذه الإنطلاقةَ بدأتْ على غيرِ بصيرةٍ ودون تأهُّبٍ مَرْحَلِيّ على أساسِ خطةٍ عسكرِيَّةٍ قويَّةٍ مدروسَةٍ وشاملةٍ... فأدَّتْ إلى هزيمةٍ منكرةٍ في صفوفِ "المجاهدين"، خاصّةً فإنَّ القيادَةَ لما كانتْ في يدِ طائفةٍ من الوهَّابيّين الخوارجِ الذين نهضوا في وجهِ عدوٍ عملاقٍ لا قبل لهم به، باءوا بفشلٍ ذريع، وهذا تلميحٌ وجيزٌ إلى بعضِ أسبابه.

أولاً: إنَّ هؤلاءِ الذين تصدَّوْا لِحربِ مِلَّةِ الكُفْرِ (بصفةِ المجاهدين) كانوا جهلةً بظروفِ الأمةِ وقضاياها الروحية والأخلاقِيَّةِ؛ لم يكونوا على علمٍ بما أصابها من العمى والضلالِ؛ لم يكن لهم إطِّلاعٌ واسعٌ على الدواعي التي فرَّقَت صفوفَ الأمَّةِ المحمّديةِ وشتَّتَ شملَهَا من العنصريَّةِ، والعصبِيَّةِ القوميَّةِ، والطائفيَّةِ، والمذهبيَّةِ؛ وما أفسدَ عقيدَتَهَا، من العلمانيَّةِ، والأتاتوركيَّةِ، والناصريَّةِ، والبعثيَّةِ، والوهابيَّةِ، والفتوشيَّةِ، والنورجيَّةِ، والتكفيريَّةِ، والقبوريَّةِ، والتصوُّفِ، وأشكالٍ غريبةٍ من البِدَعِ والخرافةِ والزَّنْدَقِةِ والإلحاد...

ثانيًا: كانوا جهلةً بتفوقِ أُمَّةِ الكفرِ في الفنون والتقنية، يعجزون عن المقارنةِ بين أمة الإسلامِ وأمة الكفرِ وَتقديرِ البُعدِ السحيق والبونِ الشاسِعِ بينهما من حيث إمكاناتِ الطرفين وقدراتهما الإقتصادية والصناعية والعسكرية. فقاموا بمغامرةٍ خطيرةٍ أقحمو أنفسهم في أتون الحروبِ مع الروسِ ثم مع الولايات المتحدة الأميركية. فأثاروا بذلك عالَمَ الكفر على أنفسهم وعلى الوطن الإسلامِيّ بأسره.

ثالثًا: عمدوا إلى حملِ سلاحٍ يصنعُهُ العدُوُّ فأصبحوا بذلك عالةً على الكفارِ، وهذا فَضَحَهُمْ، وأوْقَعَهُمْ في تناقضاتٍ رهيبةٍ مع أنفسهم، وكَشَفَ عن سوءِ تعامُلِهِمْ، وخِسَّةِ شأنهم، وتفاهةِ حِيَلِهِم،

وانتفاءِ الكرامةِ والفضيلة فيهم. إذ لا وجودَ لأدنى شَكٍّ في أنَّ خوارجَ العصرِ (سواءً اللاَّدِينيَّةَ والدَّاعِشِيَّةَ) لا قُدْرَةَ لهم على صُنْعِ بندقيَّةٍ فما فوقها من أنواعِ السلاحِ، كما لا شكَّ في أنهم لم يحصلوا على تلك الأسلحةِ الضخمةِ والكم الهائل من العتادِ والذخيرة إلاَّ بطريق التفاوضِ والتساومِ والتعاون مع صُنَّاعِهَا الأميركيّين والروس وحتى اليهودِ! فكيفَ إذنْ يجوزَ أنْ يُعْطِيَهُم الأميركيُّونَ أو الرُّوسُ الأسلحةَ ليعودوا يحاربونهما بنفس الأسلحةِ؟! هل يَقْبَلُ هذا أحدٌ رزقه الله شمةً من العقل!

رابعًا: تجاهلوا وجودَ القواعد العسكريَّةِ[69] على أراضِي الدولِ العميلة للولايات المتحدة الأميركية وروسيَا، كما تغافلوا عن العلاقاتِ السياسية والتجارية الضخمة بين هذه الدول وبين إسرائيل.

هذا بالإضافةِ إلى ما أقحموا أنفسَهم فيه من التعجيلِ والطيش والتهوُّرِ، وما أصابهم من الإرتباكِ في أمرِهِمْ، وما جَنَوْا على أنفسِهِمْ وعلى فلولِهِمْ الْمُرْتَزَقَةِ عندما تورَّطوا في مُسْتَنْقَعِ التعاوُنِ والتفاهُمِ مع الأميركيّين وغيرِهِمْ من أعداءِ الأُمَّةِ، لِمُجرَّدِ الحصولِ على الأسلحة والعتادِ.

ما زالت عصاباتِ الخوارجِ في مختلف بقاعِ الوطن الإسلاميّ (في أفغانستان، واليمن، والعراقِ، وسوريا، ومناطق من إفريقيا) تواصِلُ نشاطاتِها. إلاَّ أنها لم تَنَلْ القبولَ عند جمهورِ علماءِ الأمَّةِ إلى اليوم. بل صدرتْ خُطَبٌ وتصريحاتٌ وفتاوى على ألسنةِ جماعةٍ من العلماءِ تصبُّ في جملتِهَا: أن هولاءِ مُتَطَرِّفونَ من أهلِ الأهواءِ، عاثوا فسادًا؛ شوَّهوا شعيرةَ الجهادِ، كما شوَّهوا الصورةَ الوضَّاءَةَ للإسلامِ، وانحرفوا بِجِنَايَاتِهِمْ عن سماحةِ الدين الحنيفِ ووسطيتِهِ؛ فأثاروا بأفاعيلِهِمْ أُمَّةَ الكُفْرِ على المسلمين في كل بقاعِ الأرضِ. ومن أشهر الأدلة على هذه الحقيقة تهديداتُ الرئيس الأميركِيّ الجديدِ دونالد ترامب، التي توعَّدَ فيها المسلمين بأنه سيمنعهم من الدخولِ إلى الولايات المتحدة الأميركية.

---

[69] للدول العملاقة من أمة الكفر علاقات متينة مع عملائِها من الدول القزمة في المناطق الإسلامِيّةِ، ولها قواعد عسكرية في تلك المناطق. وهذه قائمة بأسمائِها: 1) معسكر الدوحة الأميركية، ومعسكر عريفان، معسكر فرجينار، في الكويت. 2) قاعدة (قرية الإسكان الأميركية)، وقاعدة الملك عبد العزيز في الظهران، وهناك 12 قاعدة أميركية أخرى في الدولة الوهابية. 3) قاعدة العديد الجوية الأميركية، وقاعدة السيلية، جنوب غرب الدوحة، ومجموعة مسلحة تابعة لسلاح الجو البريطاني في قطر. 4) قاعدة الشيخ عيسى، والأسطول البحري الأميركي في المنامة، وقاعدة بريطانية بحرية في ميناء سلمان –بحرين. 5) قواعد جوية أميركية في كل من السيب، وثمريت، وجزيرة المصير، في عُمان. 6) أربع قواعد بحرية أميركية في موانِىء زايد وجبل علي ودبي والفجيرة، وقاعدة جوية أميركية ومستودعات متعددة لأغراض الدعم اللوجيستي، قاعدة عسكرية فرنسية "بحرية جوية" في أبوظبي–الإمارات. 7) قاعدة قنا القريبة من مدينة الأقصر، وقاعدة جوية غربي القاهرة، غالبا ما تستخدمها القوات الجوية الأميركية لأغراض التزود بالوقود ومهام دعم الجسر الجوي. 8) قواعد عسكرية أميركية قدَّرَهَا بعضُ الخبراء العسكريين بحوالي 75 قاعدة في مختلف أنحاء العراق. 9) قوات عسكرية أميركية تتمركز في لَيْمُونِيَّة، قاعدة عسكرية يابانية على الجانب الشمالي من مطار العاصمة، وقاعدة صينية لوجيستية – جيبوتي. 10) مطار عسكري في منطقة الرميلان الواقعة تحت سيطرة أكراد سوريا. 11) قاعدة طرطوس الروسية البحرية، قاعدة جوية روسية في حميميم، في اللاذقية، ومطاري حلب والمزة، في العاصمة دمشق–سوريا. 12) أكثر من عشرين قاعدةً عسكرية للناتو والقوات الأميركية في تركيا.

هكذا انهزم الخوارجُ في معارِكِهِم مع مِلَّةِ الْكُفْرِ لِمَا اشْتَبَهَ عليهم معنَى الجهادِ، كما اشتَبَهَ عليهم كثيرٌ من معاني نصوص الكتابِ والسنّةِ، فشوَّهوا بذلك سُمْعَةَ الإسلامِ حتى انتشرت الكراهيةُ للدين الحنيف بين المجتمعات في أوروبا وأميركا، وشاعَ التعبير عن هذه الكراهية بمقولة "إسلاموفوبيا Islamophobia" بالإنجليزية.

***

6) الفكر الخارِجيُّ:

إنَّ الفكرَ الخارِجيَّ ليس أمرًا حديثًا في الأمة المحمدية، بل لها تجربةٌ متميّزَةٌ في الإصطدامِ بهذا الفكر الأسود يوم كان الإسلامُ في مهده. ظهر بوادرُ الفكرِ الخارِجِيِّ لأوَّلِ مرةٍ حين اعْتَرَضَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم رَجُلٌ اسْمُهُ حُرْقُوصُ بْنُ زُهَيْرٍ، يُدْعَى ذَا الْخُوَيْصِرَةِ التَّمِيمِيَّ، والرسولُ ﷺ يُقَسِّمُ آنذاكَ غنائمَ حُنينٍ، فيُعطِي المهاجرينَ ولاَ يُعطِي الأنصارَ، فقامَ هذا الرجلُ الشقِيُّ في وجهِ النبي عليه السلام يَطْعَنُ بِقِسْمَتِهِ في عُنْجُهِيَّةٍ، فقال –ولبئس ما قال–: "هذه قِسمةٌ ما أُريد بها وجهُ الله! وفي روايةٍ قال: "اعْدِلْ يا رسول الله!"، وفي روايةٍ: "إنَّك تُقَسِّمُ ولاَ نرى عَدْلاً"، وفي روايةٍ: "ما أراكَ عَدَلْتَ في الْقِسْمَةِ، وفي روايةٍ: يا رسول الله اتَّقِ الله!

جاءَتْ قِصَّةُ هذا الرجلِ فِي حَدِيثٍ طَوِيلٍ عَنْ قُتَيْبَةَ، عَنْ عَبْدِ الْوَاحِدِ، عَنْ عُمَارَةَ بْنِ الْقَعْقَاعِ بْنِ شُبْرُمَةَ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي نُعْمٍ، قَالَ سَمِعْتُ أَبَا سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ يَقُولُ بَعَثَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ الْيَمَنِ بِذُهَيْبَةٍ فِي أَدِيمٍ مَقْرُوظٍ لَمْ تُحَصَّلْ مِنْ تُرَابِهَا، قَالَ فَقَسَمَهَا بَيْنَ أَرْبَعَةِ نَفرٍ: بَيْنَ عُيَيْنَةَ بْنِ بَدْرٍ، وَأَقْرَعَ بْنِ حابِسٍ، وَزَيْدِ الْخَيْلِ، وَالرَّابِعُ إِمَّا عَلْقَمَةُ، وَإِمَّا عَامِرُ بْنُ الطُّفَيْلِ. فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ كُنَّا نَحْنُ أَحَقَّ بِهَذَا مِنْ هَؤُلاءِ قَالَ فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: أَلاَ تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي السَّمَاءِ يَأْتِينِي خَبَرُ السَّمَاءِ صَبَاحًا وَمَسَاءً؟! قَالَ: فَقَامَ رَجُلٌ غَائِرُ الْعَيْنَيْنِ، مُشْرِفُ الْوَجْنَتَيْنِ، نَاشِزُ الْجَبْهَةِ، كَثُّ اللِّحْيَةِ، مَحْلُوقُ الرَّأْسِ، مُشَمَّرُ الإِزَارِ.. فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهُ اتَّقِ اللهُ! قَالَ: وَيْلَكَ أَوَلَسْتُ أَحَقَّ أَهْلِ الأَرْضِ أَنْ يَتَّقِيَ اللهَ! قَالَ: ثُمَّ وَلَّى الرَّجُلُ. قَالَ: خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ: يَا رَسُولَ اللهُ أَلاَ أَضْرِبُ عُنُقَهُ؟ قَالَ: لاَ، لَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ يُصَلِّي. فَقَالَ خَالِدٌ: وَكَمْ مِنْ مُصَلٍّ يَقُولُ بِلِسَانِهِ مَا لَيْسَ فِي قَلْبِهِ. قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنِّي لَمْ أُومَرْ أَنْ أَنْقُبَ عَنْ قُلُوبِ النَّاسِ وَلاَ أَشُقَّ بُطُونَهُمْ. قَالَ: ثُمَّ نَظَرَ إِلَيْهِ وَهُوَ مُقَفٍّ،

فَقَالَ إِنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ ضِئْضِئِ هَذَا قَوْمٌ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهُ رَطْبًا لاَ يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنْ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنْ الرَّمِيَّةِ، وَأَظُنُّهُ قَالَ لَئِنْ أَدْرَكْتُهُمْ لأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ ثَمُودَ.

فالخوارجُ (كما هو معروفٌ من تاريخهِمْ الملطَّخِ بالدماءِ) طائفةٌ مُتَعَصِّبَةٌ، مُتَطَرِّفَةٌ، مُعظَمُهُمْ في كُلِّ عصرٍ: أعرابٌ من سُكَّانِ منطقةِ (نجد)، متشدِّدُون في أمورِ الدين من غير رويةٍ، وقد أدرجهم التاريخ في قائمة أهلِ الأهواءِ والعنادِ والتمرُّد؛ يتأوَّلون آياتِ القرآنِ والأحاديثَ النبويَّةَ على غيرِ معانيها الصحيحةِ. إنَّهم في الحقيقةِ أوغادٌ، فقراءُ الثقافةِ، مُتَعَالِمُونَ في تَطَفُّلٍ، يتَّسمُونَ بِقِصَرِ النظر، لا يمتازُ أحدُهُمْ برسوخٍ في العلوم الشرعية، بل يتلقَّفون المفاهيمَ من هنا وهناكَ ويَلْتَقِطُونَهَا من غير وعيٍ ولاَ تَثَبُّتٍ. فيهم متشيّخون جُبِلُوا على التشدُّدِ، والتسرُّعِ؛ يأخذونَ بالأدلَّةِ التي فيها التكفيرُ، يستدلُّون بآياتٍ نزلتْ بحقِّ الكُفَّارِ، فَيُطَبِّقونَهَا على المؤمنين. كذلك يأخذونَ بأحاديثِ الوعيد دون النظر في أحاديث التبشير والوعد. غافلونَ عما يجري داخلَ الوطن الإسلاميِّ من الفسادِ، وارتكابِ الجنايات، والتجارةِ بالدِّينِ، وما يفعلُهُ جنودُ الشركِ والإلحادِ المبعثرون في المجتمعاتِ الإسلامِيّةَ كالصوفيةِ والعلمانيين والبعثِيِّين، والإشتراكيين والأتاتوركيّين، وغيرهم... غافلون عن أفاعيل هؤلاءِ المشركين والملاحدةِ من تشويهٍ للإسلامِ، وإهانةٍ للقِيَمِ الساميَةِ، وإفسادٍ لعقائِدِ الناسِ، وتغرير للشبابِ... يَتَعَامَوْنَ عن هذه الفِرَقِ الكافرَةِ وما ترتكبُ من تدميرٍ للدِّين والأخلاقِ، لكنَّهم يَتَصَدَّوْنَ لعملاقِ الكفر الصليبي–الصهيوني الذي يتلاعبُ بهم، ويتذرع بضوضائهم لضربِ الأمةِ المنكوبة واستأصالها. مع كلِّ هذا العمى والضلالِ، يتصف الخوارج بحبِّ الفداء والرغبةِ في الموت، والاستهدافِ للمخاطر من غير دافعٍ قويٍّ، كما أنهم أشد الفرق تَدَيُّنًا في جملتِها.

خرجت في السنين الأخيرةِ عصاباتٌ بِدَعْوَى الجهادِ (وهم أبعدُ خلق الله من مفهوم الجهادِ وأجهلُهم بحقيقتِهِ)، تجهَّزَتْ بالأسلحةِ، تأتيها السلاحُ من الدُّوَلِ التي أعلنتْ الحربَ على الإسلامِ والمسلمين؛ مثل أميركا وإسرائيل. بينما الشباب الذين يقعون في حبالِ هذه العصاباتِ يجهلون ما يجري بين قَادَتِهِمْ وبين أعداءِ الإسلام من التعأملِ والتعاونِ، وهم يرمون المسلمين بالكفرِ والشرك؛ ويتسارعُون إلى إخراجِهِمْ من الْمِلَّةِ، ويستحلُّون بذلك دِماءَ كثيرٍ من الأبرياءِ. ولا يتورَّعُون من ارتكابِ الفريَةِ على العلماءِ بالتبديع والزيغ والعمالةِ للحكامِ وأنظمةِ الكُفْرِ، على غرار الخوارجِ الذين كانوا يُكَفِّرونَ أميرَ المؤمنين عليًّا ابنَ أبي طالبٍ والصحابَةَ الذين معه ﷺ.

وفي الواقع كان أميرُ المؤمنين عليٌّ ابْنُ أبي طالبٍ قد ابْتُلِيَ بالخوارج أشدَّ البلاءِ. وقد جاءَ في الحديث: عَنْ سَعْد بن أبي وقاص ﷺ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلاءً؟ قَالَ: الأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ، فَيُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ دِينُهُ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلاؤُهُ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَمَا يَبْرَحُ الْبَلاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ مَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ[70].

تمرَّدَ الخوارجُ في وجهِهِ وقد ضاقتِ الدنيا عليه بمارَحُبَتْ، فاشتدُّوا عليه (بعد حادثة التَّحْكِيمِ)، وخرجوا يُحرِّضونَ الناسَ عليه، وهدَّدوهُ وأعلنوا صراحةَ تَكْفِيرِهُمْ له ولِجماعةٍ من الصحابة، وقالوا: مَنْ كَفَرَ وَجَبَ قَتْلُهُ، لأنَّهُ أصبحَ مُرْتَدًّا، وبهذا استباحوا دِماءَ مَنْ رَضِيَ بالتحكيم وزادَ فحشُهُمْ وكَثُرَتْ جرائِمُهُمْ. فنهضَ أميرُ المؤمنين عليٌّ ابْنُ أبي طالبٍ لِقتالِهِمْ، لكنَّه بَادَأَهُمْ بالنصيحةِ قبل ذلك؛ أنْ يكفُّوا عن إهراقِ الدماءِ وارتكاب المحارم. فلم يكنْ لهم جوابٌ إلا أن تنادوا بينهم: "لا تخاطبوهم، ولا تُكَلِّمُوهُمْ، وتهيَّأُوا للقاءِ الرَّبِّ عزَّ وجلَّ، الرَّوَاحُ الرَّوَاحُ إلى الجَنَّةِ..." كان هذا شعارُهُمْ. والقصَّةُ طويلَةٌ، ملأتْ بطونَ الكتبِ قديمًا وحديثًا. فما ليث حتّى اسْتُشْهِدَ أميرُ المؤمنين عليٌّ ابْنُ أبي طالبٍ على يدِ شقيٍّ منهم اسمهُ عبدُ الرحمنِ بْنُ عَمْرِو بْنِ مُلْجَمٍ الْمُرَادِيُّ عليه لعنةُ الله إلى أبد الآبدين. وذلك فجرَ يوم **21** رمضان **40** هـ، الموافق **27** يناير **661**م. وكَرَّمَ اللهُ تعالى وجهَ أميرِ المؤمنين وعليه سلامُ اللهِ ورحمتُهُ ورِضْوانُه.

إنَّ الخوارجَ لم تتغيَّرْ طبيعتُهُمْ مِنْ يومِ ظهورِهِمْ إلى هذه الساعةِ؛ دأبُهُمْ وَدِيدَنُهُمْ التعصبُ، والتمرُّدُ، والإصرارُ، والْعِنادُ الْمَحْضُ، والغلُوُّ، والبغيُّ، والعدوانُ، وعدمُ الإعتِدادِ بالمخاطَبِ. لذا، لاَ يُمَهِّلُونَ أحدًا يقعُ في أيديهِمْ حتَّى يُبَيِّنَ حُجَّتَهُ، بل يتعمَّدون قتلَهُ بِوَحْشِيَّةٍ ومِنْ غيرِ اعْتِمادٍ على دليلٍ مُبَرِّرٍ. كلُّ ذلك لِجَهْلِهِم بأصولِ الدِّينِ واغْتِرَارِهِمْ بالْمُتَشَيِّخِينَ منهم الذين يتصدَّوْنَ للفِتْيَا من غيرِ كفائَةٍ، وقد كَثُرَ عَدَدُهُمْ في السنين الأخيرةِ بسببِ ضَعفِ الأُمَّةِ وشَتَاتِ شَمْلِهَا، واستيلاءِ الخوفِ على قُلُوبِ عُلمائِهَا. وقد أشار النبي ﷺ إلى هذه الحقيقة في حديثٍ عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما يَقُولُ: "سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ لاَ يَنْزِعُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ النَّاسِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعُلَمَاءَ حَتَّى إِذَا لَمْ يَتْرُكْ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالاً فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّو."[71]

---

[70] أخرجه الترمذيُّ

[71] رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صحِيحِهِ، وَأَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ مِنْ أَوْجُه.

إنَّ الحركاتِ الخارجيةَ التي امتدَّتْ عبرَ تاريخِ الأُمَّةِ أشبهُ ما تكون بالانفجاراتِ الْبُرْكانية التي تَهْدَأُ حينًا وتثورُ حينًا آخر. ولا شكَّ في أنَّ لِكلِّ ثورَةٍ من ثوراتِ الخوارجِ أسباب هامَّةٌ:

إنَّ أوَّلَ فرقةٍ من الخوارجِ الذين تَمرَّدوا على أميرِ المؤمنين عليِّ ابْنِ أبِي طالبٍ ﷺ، إنما خرجوا عليه بسبب التحكيم. لأنهم أنكروا عليه إعراضَهُ عن مواصلةِ قِتَالِ الْبُغاةِ (وهم معاويةُ ابن أبي سفيانَ وأنصارُهُ الشاميُّون)، وَاخْتِيَارَهُ الْمفاوَضَةَ معهم بتحكيمِ الرجالِ، فقالوا له: "أتُحَكِّمُونَ فِي دِينِ اللهِ الرِّجَالَ وعندكم كتاب الله؟!" ذلك أنَّ قتالَ البُغاةِ فرضٌ ولا محلَّ في ذلك للمفاوضةِ، إذِ الطاعةُ لأولي الأمر مَنْصُوصٌ في كتاب اللهِ بصراحةٍ، والله تعالى يقول: "يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ، فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً." (النساء: **59**). فذهبَ المتمرِّدُون إلى أنَّ عليًا رضي اللهُ عنه تَهَاوَنَ بهذا الأمرِ الصريحِ الوارِدِ في كتابِ اللهِ، فيجبُ إذًا تكفيرُهُ وَقِتَالُهُ، كما يجبُ قتالُ البغاةِ في الوقتِ نفسِهِ. فقاتلَهم عليٌّ ﷺ، وَجَرَت بينَهُ وبين الخوارجِ حروبٌ داميةٌ، ولم يبرحوا حتى قضوا على حياتِهِ حيلَةً وغِيلَةً.

دامَ ثورات الخوارِجِ على مدى عهد الأمويّين، كان السببُ الرئيسُ لاستمرارِهِمْ في شَنِّ الحربِ على الْحُكْمِ الأمويّ: هو مُصُالَحَةَ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ مع مُعَاوِيَةَ، فأغضبَ ذلك رؤوسَ الخوارجِ إذْ عَدُّوا هذا التصالُحَ خطرًا على وجودِهِمْ، فبدؤوا يُكَثِّفون ضَرَبَاتِهِمْ على السلطةِ المركزيَّةِ في دمشقَ، فكانت حروبُ مروانَ بْنِ محمدٍ آخرِ الخلفاءِ الأمويّين معهم سببًا في تشتيتِ شملِهِ وإزالةِ الدولةِ الأمويَّةِ عن الحكم بعد **91** عامًا.

دامتْ ثوراتُ الخوارجِ وانتفاضاتُهم أيضًا في أوائلِ الْحُكْمِ العباسيّ، إلاَّ أنَّهم انهزموا أمامَ جيشٍ عارمٍ جهَّزَهُ هارون الرشيدُ، فمزَّقَ فلولَهم، فلم تَقُمْ لهم قائمةٌ في فِارِسَ والعراقِ والجزيرةِ العربيَّةِ بعد ذلكَ. إلاَّ أنهم فَرُّوا إلى شمالِ أفريقيا، واستمالوا جماعاتٍ من البربرِ ذوي البأسِ الشديد، فأسَّسُوا هناك الدولةَ الرُّسْتَمِيَّةَ، كان معظمُ رعايا هذه الدولةِ ينتمون للمذهبِ الإباضي. تتَّفِقُ عقيدتُهم مع عقيدةِ أهل السُّنَّة في الكثير، وتختلف معهم في القليل. لو لا يَنْفَوْنَ رؤيَةَ الله في الآخرة. ويعتقدون خلودَ مُرْتَكِبِ الكبائرِ في النار.

والدولةُ الرستميَّةُ أسَّسها عبد الرحمن بن رُسْتَمْ من أصلٍ فارسِيٍّ عام 776م.، وكانت قاعدتُها مدينةُ تَاهَرتْ بالجزائر. وكان إمامُهُمْ عبدُ الرحمنِ بْنُ رُسْتَمْ عادلاً مُصْلِحًا، ساعيًا إلى ازدهارِ الحياةِ العامَّةِ في أنحاءِ دولتِهِ. قامت علاقاتٌ متينةٌ بين الدولةِ الأمويَّةِ في الأندلس والرستميين على أسس الصداقةِ المتبادلة، ثمَّ اشتعلتْ نيرانُ الفتنةِ في قِمَّةِ هذه الدولةِ نتيجة الصراعِ بين أفرادِ أُسرةِ الإمامةِ. ولم يَلْبَثْ حتى انْقَضَّتْ عليها الدولةُ الْعُبَيْدِيَّةُ سنة 909م. فأزالتْهَا عن مَسْرَحِ التاريخ. لا تزال بقاياهم اليومَ في شمال أفريقيا، ولكنهم يشمئزُّون من تسميتهم بالخوارج.

خَمِدَتْ نارُ الخوارجِ وسَكَنَتْ لَهَبُهَا قرونًا، ولكنَّ جَمْرَهَا بَقِيَتْ في النفوسِ حتى أنْهَكَتِ الفِتَنُ الأُمَّةَ الْمُحَمَّدِيَّةَ وعمَّ الفسادُ في جميع أنحاءِ الوطن الإسلامِيِّ، وماتَ الضميرُ واضمحلَّ الفضائلُ، وانطفأتْ شُعْلَةُ الإيمانِ في صدورِ مُعْظَمِ المسلمين، عند ذلك ثارتْ ثورةُ قِلَّةٍ من هذه الأُمَّةِ وهم يؤمنون باللهِ واليوم الآخر بصدقٍ وإخلاصٍ، فحملوا السلاحَ في وجه الوحشية والوثنية والتدميرية التي بدأت تقلع آخِرَ لَبِنَةٍ من قلعةِ الفضيلةِ والإنسانية. ونحن مهما اتَّهَمْنَا هذه القلةَ واحتقرناهم بأنّهم خوارج متعصبون، لا يعرفون إلاَّ الْفَتْكَ والقمعَ وإهْرَاقَ الدماءِ، لابُدَّ أن نقف لحظةً فنذكرَ تلك المقولَةَ الشهيرةَ التي قالها أميرُ المؤمنون علي ابن أبي طالب بالذات في الخوارج الذين كانوا ألدَّ أعدائِه، وهو في آخر عهده من هذه الدنيا.

قد ورد في المصادر التاريخية أنه ﷺ نَهَى عن قِتَالِ الخوارجِ بقوله. "لاَ تَقْتُلُوا الْخَوَارِجَ مِنْ بَعْدِي، فَإِنَّهُ لَيْسَ مَنْ طَلَبَ الْحَقَّ فَأَخْطَأَهُ كَمَنْ طَلَبَ الْبَاطِلَ فَأَصَابَهُ" نعم، إن الْخَوَارِجَ طائفةٌ إرهابيةٌ لا شك في ذلك، يَقتلون ويُدَمِّرون ويُحَرِّقُونَ وَيُخَرِّبون... لكنَّهم يحاربون الأنظمةَ الظالمةَ والمستبدِّين من الطواغيت الذين هم فراعنةُ العصرِ وأئمةُ الضلالِ وكبارُ جنود الشيطانِ... فَلَنَا العبرة إذًا في قوله تعالى: "وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ." (البقرة/251) ويقول تعالى: "وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ." (الحج/40)"

ذلك عندما تَخْلُو القلوبُ من مخافةِ الله بهجرةِ الإيمان منها، وتَنْعَدِمُ المودَّةُ والرَّحْمَةُ بين المسلمين، ويتغلَّبُ الْقَوِيُّ على الضعيفِ قهرًا، وتَشيعُ الفاحشةُ، ويَعُمُّ الفسادُ، ويتجبَّرُ الحكّام، فيركبون على رقابِ الناس، ويستأثرون بأموالٍ طائلةٍ يَسْرِقونها من الخزانة العامةِ، فيكون ذلك هو السببَ لقيامِ لفيفٍ من المجتمعِ ضِدَّ الحكومات. يقول العلامة جلال الدين عبد الرحن السيوطي: "أجرَى اللهُ

تعالى عادتَهُ: إنَّ العامَّةَ إذا زادَ فسادُها وانتهكوا حُرُمَاتِ الله، ولم تُقَمْ عليهم الحْدودُ، أرسلَ اللهُ عليهم آيَةً في إِثْرِ آيَةٍ، فإنْ لم ينجَعْ ذلك فيهم أتَاهُمْ بعذابٍ من عندِهِ، وسَلَّطَ عليهم مَنْ لا يستطيعونَ له دفاعا!"

إن الذين أطلقَ عَلَيْهِمْ الوثنيُون لَقَبَ "الداعشيَّةِ الإرهابِيَّةِ"، وأجمعتْ جماهيرُ المشركين (في الداخل والخارجِ) على قِتَالِهِمْ؛ أولئك لم يَحْمِلُوا السلاحَ أصلاً لِيَقْتُلُوا المسلمين، ولا ليحاربوا الإسلامَ أبدًا. وإنما خرجوا لِيُنْقِذوا الأُمَّةَ من مخالب الوحوشِ الصليبي–الصهيوني، ولكنَّهم أخطؤوا الطريقَ والأسلوبَ حين أهملو إنقاذَ الأمةِ أوّلاً من مخالب الوحش الدَّاخِلِيّ المتمثل في: الفِرقةِ الأتاتوركية الفاشِيَّةِ، والملاحدةِ النقشبندية، والرافضة عَبَدَةِ الجيفِ، والوهابيةِ أكَلَةِ الحرام... والأدهى والأمر؛ أنَّ كِلْتَيَ الفرقتين، سواءِ الْمُتَّهِمِينَ والْمُسْتَهْدَفِينَ قد وَقَعَتَا في حِبَالِ الْعَمَالَةِ للحلف الصليبي–الصهيوني. هذا ما يَتْرُكُ سليمَ العقل والإيمانِ حائرًا حيال المشهد. فيجب علينا إذًا أن لا نَتَخَطَّى هنا مقولةَ أميرِ المؤمنين عليِ ابْنِ أَبِي طالبٍ كرَّمَ الله تعالى وجهه التي سبق ذكرُهَا آنفًا، وهي قوله: "لاَ تَقْتُلُوا الْخَوَارِجَ مِنْ بَعْدِي، فَإِنَّهُ لَيْسَ مَنْ طَلَبَ الْحَقَّ فَأَخْطَأَهُ كَمَنْ طَلَبَ الْبَاطِلَ فَأَصَابَهُ" كما يجب علينا أن لا نَنْسَى أنَّ عمالةَ مُعْظَمِ "الداعشيين" لأعداءِ الإسلامِ ناشئةٌ من الجهلِ، لكنَّ عمالةَ المشركين (من الأتاتوركيّين، والنقشبنديّين، والرافضةِ) عمالتَهم للحلفِ الصليبي–الصهيوني، ناشئةٌ عن علمٍ وشعورٍ ووعيٍ...

فهلاَّ فطنَّا لِمَا فَطَنَ له أحدُ أهلِ العدلِ وهو يقول: "فَلَوْ وجدْنَا في صحيفةِ حياةِ الخوارجِ نُقطَةً بيضاءَ، فهذه النقطةُ الْمُشِعَّةُ التي اعترفَ بها الإمامُ عليٌّ عندَ توصيفِهِم بقوله، «لاَ تَقْتُلُوا الْخَوَارِجَ مِنْ بَعْدِي، فَإِنَّهُ لَيْسَ مَنْ طَلَبَ الْحَقَّ فَأَخْطَأَهُ كَمَنْ طَلَبَ الْبَاطِلَ فَأَصَابَهُ.»

فوجئ المجتمعُ الإسلامِيُّ بالخوارج والأُمَّةُ الفتيَّةُ على سَجِيَّتِها الْمُسْتَمِدَّةِ من الوحيِ يومئذٍ، ترفضُ ما لا ينسجمُ مع هذه الطبيعةِ النقِيَّةِ. لذا فَشِلَ الخوارجُ في النهايَةِ رغم صمودِهم الشديدِ وصفوفِهِم المتماسكةِ، وهجماتِهم المتواصلةِ طِوالَ القرنِ الأول من التاريخ الإسلامِيّ. كما فَشِلَتْ كلُّ محاولةٍ بدعيَّةٍ في تلك المرحلة. فلمَّا دخلتْ طوائفُ مختلفةٌ من الأعاجامِ إلى حظيرة الإسلامِ كالفرسِ، والتُّرْكِ، والبربرِ، والدَّيْلَمِ، والهنودِ، وغيرِهِمْ بدأتْ أشكالٌ غريبةٌ من المعتقداتِ، والمصطلحات، والعاداتِ، تتسرَّبُ إلى حياةِ المسلمين.

لقد كان بعضُ هذه الشعوبِ يكره العربَ لغلبةِ الإسلامِ على دينهِ القديمِ، كالفرسِ. أخذتْهم العزةُ بالإثمِ فتمسَّكوا بألزرادشتيَّةِ في ضمائرهم؛ أظهروا الإسلامَ وأبطنوا المجوسِيَّةَ، ولم يكتفوا بهذا القدرِ، بل عمدوا إلى تبديلِ اسمِ الدينِ الجديدِ فأطلقوا عليه اسمًا آخر، وهو "مُسَلْمَاني". ثم استعارَهُ الأتراكُ منهم مع تحريفٍ في النطقِ به. فَتَحَوَّلَ هذا المصطلحُ في اللغةِ التُّرْكِيَّةِ إلى "مُسْلُمَانْلِكْ Müslümanlık". والغريب، أن علماءَ العربِ قد أغفلوا هذه البدعةَ الخطيرةَ، فلم يُسمَع أن أحدًا منهم تناولها، وأعلنَّ حكمَ الإسلامِ فيها.

***

7) الديانة الْمُسْلُمَانِيَّةُ Müslümanlık:

إنَّ إحدى أهمِّ الدواهي التي تُعَانِيهَا الأُمَّةُ: هي التي تتمثل في هَرْطَقَةٍ اخْتَلَقَهَا قُدَمَاءُ الأتراكِ قَبْلَ قرونٍ وسَمَّوْهَا (الْمُسْلُمَانِيَّةَ Müslümanlık)، لِيَتَّخِذوهَا دِينًا بَدِيلاً عن الإسلام! ذلك يبدو أنَّهم أُصِيبُوا بِذُعْرٍ شديدٍ أيَّامَ زحفِ الجيوشِ الإمويَّةِ على بلادِهِمْ، فأخْفَقُوا وامتلئوا غيظًا على العربِ، ولَمَّا اضطرُّوا أن يعتنقُوا الإسلامَ (وربما فُرِضَ عليهم أن يُسْلِموا)، كَرِهُوا أن يَتَشَابَهُوا بالعربِ في الانتماءِ إلى هذا الدِّينِ الجديدِ، فَسَمَّوْهُ بهذا الإسمِ الغريب.. يبدو ذلك من أقوى الإحتمالات.

أسلم الأتراك في مرحلةٍ مبكِّرةٍ من التاريخِ الإسلاميِّ وهم يومئذٍ متأثِّرون بالدياناتِ الهنديَّةِ والثقافةِ الفارسِيَّةِ. اعتنقوا الإسلامَ بعد فتحِ بلادِ ماوراءِ النهر، على يد قتيبةَ بْنِ مسلمِ الباهليِّ (669–715م.)، في عهدِ عبدِ الملكِ بْنِ مروانَ الأمويِّ. فأسلمتْ جماهيرُ غفيرةٌ منهم خاصَّةً بعدَ فتحِ مدينةِ سَمَرْقَنْد (عام 705م.)، ومدينةِ بُخَارَى (عام 709م.) فَوْرَ انتصارِ الجيوشِ الإموية على أهلِهِمَا. إلاَّ أنَّ التاريخ لا يُقَدِّمُ لنا تفصيلاً دقيقًا عن مَدَى تَطَابُقِ عقائدِهِمْ مع عقيدةِ أهلِ السنةِ والجماعةِ في تلك المرحلةِ، هناك اختلافاتٌ كثيرةٌ تمنعُ كشفَ الغُمُوضِ عن هذه المسألة.

هذا، ولَمَّا انْتَبَهَ بعضُ الأكادِيمِيّين الأتراك في السنين الأخيرةِ إلى أنَّ الإسلامَ قد شاعت تَسْمِيَتُهُ بكلمةِ (Müslümanlık) بين الْعَامَّةِ، تناولَ الأستاذُ الذكتور أحمد ياشار أوجاك Ahmet Yaşar Ocak بخاصَّةٍ، تناوَلَ الموضوعَ لكنْ بِتَحَفُّظٍ شديدٍ ولم يتوسَّعْ فيه، لِعِلْمِهِ أنَّ مُجَرَّدَ إشارةٍ منه إلى الْفَرْقِ بينَ الإسلامِ والْمُسْلُمَانِيَّةِ سَيُؤَدِّي إلى ضَجَّةٍ لن يَجِدَ هو حِيلَةً لإسكاتِهَا وإيقافِهَا. وللأستاذِ

مقولةٌ مُلفِتَةٌ تُنْبِئُ عن مَدَى تخَوُّفِهِ عن الخوضِ في هذه المشكلة، إذ يقول: "الإقدامُ على دِرَاسَةِ الإسلامِ في تاريخِ التُّرْكِ والدولةِ التُّرْكِيَّةِ، معناه: الغبثُ بِخَلِيَّةِ النَّحْلِ."[72] هذه الكلمات تحمل في طياتِها معانيَ خطيرةً ولها أهمية كبيرة خاصّةً وقد قالها عالِمٌ من أفذاذ علماءِ الأتراك.

لا شَكَ في أنَّ الأتراك قد ساهموا في نشرِ رايةِ الإسلام وفي إنشاءِ حضارتِهِ، وامتازُوا خاصةً بحمايتِهِمْ للوطن الإسلامِيّ طوالَ قرون، لأنَّهم قومٌ جُبِلُوا على الروحِ العسكرِيَّةِ، نشئوا على التأهبِ لمواجهة العدوّ وشبُّوا وشابُو على الاستعدادِ لقتالِهِ، كانوا مَوْضِعَ ثقةِ الخلفاءِ العباسيِّين، منهم مَنْ تَدَرَّجَ في المناصبِ حتى صَارَ من المقرَّبِينَ للخلِيفةِ، كالقائدِ التُّرْكِيّ طولون[73] وابْنِهِ أحمد، كذلك طُوغْرُلْ بك السلجوقي، وقد جرت بين الطرفين علاقاتٌ صهرية، كما نبغ فيهم رجالٌ صالحون وعلماءُ ومجاهدون...

مع هذه الحقائق التاريخية قد حدثتْ أخطاءٌ كبيرةٌ في تَعَامُلِ الأتراكِ مع الاسلامِ، وذلك عند تَعَرُّفِهِمْ علَى هذا الدِّينِ الجديدِ لأوَّلِ مرةٍ، ربما لِغرابةٍ بَقِيَتْ عليهم في وجه الإسلام، وظهرتْ نَزَعَاتٌ بِدْعِيَّةٌ وَتَيَّارَاتُ خَطِيرَةٌ في تاريخِهم. ولعلَّ مِنْ أخطرِ ما اختلقوه مِنَ الْبِدَعِ: هو تَسْمِيَتُهُمْ للاسلامِ بكلمةِ (Müslümanlık)، وهي كلمةٌ مُحَرَّفَةٌ وَمُرَكَّبَةٌ مِنْ ثَلاَثَةِ أجْزَاءَ: (مُسْلُمْ + آنْ + لِكْ): فالجزءُ الأَوَّلُ (مُسْلُمْ)، محرَّفٌ من كلمة (مُسْلِمٍ) وهي عربيَّةٌ. والجزءُ الثاني (آنْ)، هِيَّ لاَحِقةٌ في اللُّغَةِ الفارسيَّةِ، تُضَافُ إلى الإسمِ كأداةٍ لِلْجَمْعِ، وأحيانًا للنِّسْبَةِ، كما جاءت في كلمة (مُسْلُمَانْلِكْ Müslümanlık). والجزءُ الثالث (لِكْ)، هي لاَحِقةٌ في اللُّغَةِ التُّرْكِيَّةِ تُضَافُ إلى الإسمِ كأداةٍ لِلْمصدريَّةِ.

فقد ألْغَواْ بذلك مبدءًا من أهمّ المبادئِ في الإسلامِ وهو (التَّوْقِيفِيَّةُ)، ضربوه عُرْضَ الحَائِطِ بدون أدنى مبالاةٍ وقد أغفله علماؤُهم على مدى القرون إلى اليوم. لا شكَّ في أنَّ كُلَّ ما وَرَدَ في الكتابِ

[72] هذه كلماتُهُ باللغة التركية مع ذكرِ مصدرها:
«Türk ve Türkiye Tarihinde İslam'ı çalışmak yahut Arı kovanına çomak sokmak», Prof. Dr. Ahmet Yaşar Ocak, Türkiye'nin sosyal tarihinde İslam'ın Macerası. Baskı/3. İstanbul-2015.

[73] هو مؤسس السلالة الطولونية، كان من الجنود الأتراك في جيش العباسيين. تدرَّجَ في الرُّتَبِ حتى أصبح رئيسَ الحرسِ الخاصّ بالخليفة العباسي في بغداد. نالَ ابنُهُ أحمدُ (**868–884**م.) هذه الرتبةَ سنةَ **854**م. ثم أصبح سنة **868**م. واليًا على مِصْرَ من قبل الخليفة. التحق أحمدُ بْنُ طولون ببلاطِ الخليفة المستعين بالله في (**248–252**هـ./**862–866**م.)، ونالَ تقديره. كذلك طوغرل بك السلجوقي (**995–1063**) الذي دخل بغدادَ عام **1055**م. وهو مؤسّسُ الدولة السلجوقيَّةِ، أعلن تبعيَّةَ دولتِهِ للخلافةِ العباسيَّةِ في سنة (**1058**)م. في أيَّامِ القائِمِ بأمرِ اللهِ العباسيِّ (**1001–1075**). كانتِ العلاقَةُ بينهما متينَةً إلى حدٍّ بالغ. يدلُّ على ذلك أن الخليفةَ زَوَّجَهُ ابْنَتَهُ السيِّدَةَ فاطمة. وهذا يُعَدُّ حَدَثًا نادرًا من نوعِهِ لِقِلَّةِ نظائِرِهِ في العلاقاتِ التُّرْكِيَّة–العربيَّةِ،

والسنةِ توقِيفِيَّةٌ؛ لا يجوز لأحدٍ بوجهٍ من الوجوهِ أنْ يتصرَّفَ بأدنى شيءٍ في نصٍّ من نصوصِ هذين المصدرين العظيمَيْنِ المصونَيْنِ. فإنَّ كتابَ اللهِ عزَّ وجلَّ ذِكْرٌ حَيٌّ خالدٌ مصون من أنْ يَأْتِيَ أحدٌ بزيادةٍ عليهِ أو يَنْقُصَ منه شيئًا، أو يُغَيِّرَ في صورتِهِ وسِيَاقه. كذلك السُّنَّةُ المحمديَّةُ المطهَّرَةُ مصونةٌ من كُلِّ أشكالِ التحريفِ والتزييف.

إنَّ (الإسلامَ) هو الاسمُ التَّوْقِيفِيُّ الْعَلَمُ الَّذِي أطلقهُ اللهُ على هذا الدين، واختارَهُ وارتضَاهُ سبحانَهُ لِخَلْقِهِ من الإنسِ والجْنِّ ليعبدوه على أساسِهِ ومبادِئِه. وهو في الوقت نفسِهِ اسمٌ لِكُلِّ الرسالاتِ التي أنزلها اللهُ تعالى وبعث بها جميعَ رُسُلِهِ وكَلَّفَهُمْ بتبليغِها من لدن آدمَ إلى محمدٍ عليهم صلوات الله تعالى وسلامه أجمعين. وقد أثبتَ اللهُ جلَّ سُلطانه هذا الإسمَ في كتابِهِ العزيز، فقال: "إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلاَمِ...[74] فمن يملكُ أنْ يُغَيِّرَ هذَا الإِسْمَ من تلقاءِ نفسِهِ إلاَّ زنديقٌ يتربّصُ بالاسلام الدوائرَ، أو فاسِقٌ شقِيٌّ أوغافِلٌ عن هذا القانونِ الإلهِيِّ العظيم.

ومن غرائب الأمور أنه لا يكادُ يوجد شخص من الأتراك والأكرادِ يُقِرُّ بأنَّهُ مُسْلِمٌ، أو يُجِيبُ على سؤالِ مَنْ يَسْأَلُهُ عن دِينِهِ، إلاَّ قال: (أَنَا مُسْلُمَانْ (ben müslumanım) باللغة التركية، أو قال: (أز مُسُلْمَانِمْ) باللغة الكردية، بينما غَيْرُهُمْ من المسلمين في جميع أنحاء العالَمِ، يُعَبِّرُونَ عن انتمائِهم للدِّين الإسلاميّ بالوجهِ الصحيحِ، حتى أولئك الذين لا يُتْقِنُونَ العربيةَ، فالمُسْلِمُ الإنجليزيُّ مثلاً يقوال (I'm muslim). ومن الغَرَابَةِ بمكان، أنَّ علماءَ العربِ غفلوا عن هذه البدعةِ على مدى قرونٍ إلى يومنا هذا، بحيثُ لم يتناولْ أحدٌ منهم هذه البدعةَ الخطيرةَ ولو في سطورٍ وجيزةٍ بحثًا لفتح باب النقاشِ على أقلِّ تقدير، لعلَّ يتنبَّهُ إليها علماءُ الأمَّةِ فيسرعوا إلى إرشادِ الأتراكِ والأكرادِ وإنقاذِهِم من هذا الكفرِ البواح.

قد يعترِضُ بعضُ الناسِ قائلاً: "إنَّ هذا الإختلافَ ناشِئٌ من اختلافِ اللُّغةِ، لا يستحقُّ الاكتراثَ له.. والانشغالُ والانهماكُ فيه فضولٌ بل مبالغةٌ لا طائل تحتَهَا، لأنَّ الشخصَ إذا كانَ ينطِقُ بكلمةِ الشهادةِ، ويؤمنُ باللهِ، وملائكتِهِ، وكُتُبِهِ، ورُسُلِهِ، وباليومِ الآخِرِ، وبالقدَرِ؛ ويؤدِّي فرائضَهُ وفقًا للكتابِ والسُّنَّةِ، فأين الخطرُ والضَّرَرُ من هذهِ التّسميَةِ!"

[74] آل عمران/19

إنَّ الدفاعَ بمثلِ هذهِ الصيغةِ الْوَاهِيَةِ – في الحقيقةِ – ضربٌ من المراوغةِ والْمُجَازَفَةِ والتَّحَزْلُقِ، وخروجٌ على ما أثْبَتَهُ اللهُ في كتابِهِ – تقدستْ كلماتُهُ–، فقد سَمَّى دِينَهُ (الإسلامَ)، وهذا شيءٌ توقيفيٌّ لا دخلَ للبشَرِ فيه. ولعلَّ هذهِ التسميةَ تدخلُ تحتَ قوله تعالى: "وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ."[75] وقد نبَّهَ سبحانه المؤمنين على أن لا يخرجوا من حدودِ كتابِهِ وسنَّةِ رسوله ﷺ بقوله: "وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَاب."[76]

إنَّ (الْمُسْلُمَانيَّةَ) ليستْ محضَ تحريفٍ في الاسمِ وحسبُ، بل هي رمزٌ لرُكَامٍ مِنَ البِدَعِ والعاداتِ والمعتقداتِ الدَّخيلةِ، تسرَّبت من الديانات القديمةِ للأتراكِ وامتدَّتْ إلى اليومِ عبرَ ممارساتِهِم لها، وتفاعُلِهِمْ معها منذ أيَّامِ تَعَرُّفِهِمْ على الإسلام. يتمثَّلُ هذا الخليطُ في شِبْهِ دينٍ مستقلٍّ عن الإسلامِ، ويتميَّزُ عنه بفروقٍ كبيرةٍ في كِلاَ جَانِبَيْهَا الْعَقَدِيّ والعمليّ. مِنْ أهمِّ هذه الفروقِ الخطيرةِ: أنَّ المسلمانيَّةَ تَتَبَنَّى فِكْرَةَ الإرجاءِ. ذلك أنَّ الإيمانَ (عندَ الشخصِ التركِيّ المسلمانِ): هو مجرَّدُ "التصديقِ بالقلْبِ، والإقرارِ باللسان"[77] فحسبُ، وأمّا العملُ (في اعتقادِهِ)، فليس من الإيمانِ في شيءٍ، والإيمانُ عند الْمُسْلُمَانِيّينَ لا يزيدُ ولا ينقص بأداءِ العملِ أو بتركِهِ. بل الإرجاءُ (على عكس ذلك تمامًا) دسيسةٌ يهودية، يقول أحد مشاهير علماءِ المسلمين المعاصرين (الشيخ عبد الرحمن الدوسري رحمه الله تعالى): "إن الدعواتِ لِمجرَّدِ إيمانٍ خالٍ من العملِ هي إفكٌ وخداعٌ وتلبيسٌ، بل هي من دسّ اليهود على أيدي الجهمية، وفروعِها من المرجئة كالماسونية، وغيرهم، إذ متى انفصمت الصلة بين الإيمان والعمل، فلن نستطيعَ أن نبنِيَ قُوَّةً روحيَّةً نقدرُ على نشرِهَا والدفعِ بمدِّهَا في أنحاءِ المعمورةِ، بل إذا انفصمتْ الصلةُ بين الإيمانِ والعملِ فَقَدَ المسلمُ قُوَّتَهُ الروحيَّةَ, وصارَ وجودُهُ مهدَّدًا بالخطرِ الذي يُزيلُ شخصيَّتَهُ أو يُذِيبُهَا في بوتقةِ غيرِهِ، لأنَّهُ لا يستطيعُ أنْ يُنَمِّيَ قُوَّةً روحيَّةً يصمدُ بها أمامَ أعدائِهِ، فضلاً عن أنْ يَزْحَفَ بها عليهم"[78]

---

[75] المائدة/13

[76] الحشر/7

[77] يكاد جميع المصادر التي ألفها الأتراك المسلمان في العقيدة تحتوي على هذه الصيغة في تعريف الإيمان: İman: Kalp ile tasdik, dil ile ikrardır. على سبيل المثال راجع الروابط التالية:
http://www.ilimdunyasi.com/huccetullahil-baliga/iman-kalp-ile-tasdik-dil-ile-ikrardir/?wap2
https://sorularlaislamiyet.com/mezhebler-acisinda-imani-aciklar-misiniz-0
https://eodev.com/gorev/3973290

[78] الشيخ عبد الرحمن الدوسري، صفوة الآثار والمفاهيم من تفسير القرآن العظيم:187/1

تلتبس الْمُسْلُمَانيَّةُ بالإسلامِ خاصَّةً على العربِ لِمَلاَمِحَ تسودُ صورَتَهَا الخارجيَّةَ، أخذَها الأتراكُ من الإسلامِ، واستعملوها كَغِلاَفٍ لِمُعْتَقَدَاتِهِمْ وطقوسِهم القديمةِ، فلا يكادُ الإنسانُ العربيُّ، (حتى العلماءُ والمثقَّفون منهم) اليومَ يميِّز بين الديانَتَيْن (الإسلامِ وَالْمُسْلُمَانِيَّةِ) بسبب المشابَهَةِ الناجمةِ من هذا التركيب الذي يغلِبُ عليه الطابعُ الإسلاميُّ، إذ أنَّ الْمُسْلُمَانِيّينَ أيضًا يصلُّون، ويصومون، ويحجُّون، ويزكُّون كالمسلمين، ويؤدِّي كثيرٌ منهم العباداتِ المفروضةَ في الإسلامِ، كذلك كثيرٌ منهم من يواظبون على النوافلِ، ويتصدَّقون، ويتطوَّعون بأعمال البِرّ، ويساهمون في خدماتِ الإغاثَةِ والإسعافِ والمعاونَةِ ونشرِ الفضائِلِ وغيرِها من الخيرات... والحال هذه، يقول تعالى: وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ * أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ. [النور: 39، 40]

ومن أرادَ المزيدَ من المعرفةِ حول هذا الدِّينِ الزائفِ المستحدَثِ، عليه بمراجعةِ الكتابِ الموسوم (تركيا في ضوءِ الحقائق). ولا يفوتنا أنْ نُشيرَ إلى ما كانَ لهذا الدِّينِ من آثارٍ هدامَةٍ وَمُضَلِّلَةٍ على سلوكِ المجتمعِ التُّرْكِيِّ، وتبعاتٍ سياسيَّةٍ سَدَّتْ في وَجْهِهِمْ أبوابَ التَّعَرُّفِ على الإسلامِ الصحيحِ، وتَرَكَتْهُمْ في ظلماتِ العلمانيَّةِ والديمقراطيَّةِ والعصبية والأَتَاتُورْكِيَّةِ يعمهون.

***

8) الوثنيَّةُ الأَتَاتُورْكِيَّةُ Kamalism:

الأتاتوركية (في الواقع): ديانةٌ طارئةٌ وسلاحٌ مضادٌّ للقِيَمِ الروحيةِ بلا مراء، اخْتَلَقَتْهَا قِلَّةٌ من زنادقةِ اليهودِ المندسّين منذ قرونٍ في قلبِ المجتمعِ التُّرْكِيِّ (الْمُسْلُمَان)، كانوا يتربَّصُون به وينتهزُون الفرصةَ للإيقاعِ بِعَقْلِيَّتِهِ الْهَشَّةِ على حين غرةٍ منه. إنما اختلقوا هذا الدِّينَ في ثوبِ أيديولوجيةٍ غريبةٍ مكرًا ومن مُنْطَلَقِ الْعَدَاءِ السافر لِمفهومِ الدِّينِ أصلاً، ولاسْتِئْصَالِ أركانِ الإسلامِ بخاصّةٍ، فأقدموا على تنفيذِ مشروعِهِمْ يومَ تلقَّوا الدَّعْمَ من الغربِ في غمرةِ الحربِ العالميَّةِ الأولى وأرْبَكُوا ضميرَ أُمَّةٍ بأسرِها وهي تتشحَّطُ يومئذٍ في دَمِها.

اجتمعَ رهطٌ من اليهودِ السبطائيّين في خفاءٍ فورَ موتِ مصطفى كمال عام **1938**م. واتَّفقوا مبدئيًّا على اختلاقِ دينٍ جديدٍ يقومُ على أساسِ التبجيلِ والتعظيمِ والتقديسِ لكلّ ما يَمُتُّ بِصِلَةٍ إلى هذا الرجلِ. وأجمعوا على أنْ يستخدِموه في القضاءِ على الإسلامِ بطريقةٍ مباشرة. ثم ما لَبِثَ حتى حَوَّلُوهُ إلى أيديولوجية دَهْرِيَّةٍ، وقدَّمُوهَا كمنهجٍ تَرْبَوِيٍّ وإصلاَحِيٍّ يستَمِدُّ من الْعِلْمِ الْمُعَاصِرِ ويَتَبَنَّى رفعَ مُسْتَوَى المجتمعِ لِمُوَاكَبَةِ "الحضارةِ الغربيَّةِ الراقية."

تَبَنَّتْ الحكوماتُ التركيَّةُ فكرةَ "الأتاتوركيةِ" كدستورٍ أساسِيٍّ وأصدرتْ جميعَ تشريعاتِها على أساسِ هذا الدستور. بيدَ أنَّها فَشِلَتْ في صِراعِهَا مع التيارِ النَّقْشَبَنْدِيّ الذي طالَمَا حاولَ تشويهَ قِيَمِ الدِّينِ الحنيفِ بِطريقةٍ ماكرةٍ بعد أنْ انخرطَ النَّقْشَبَنْدِيُّونَ في سلكِ السياسَةِ (منذ بدايةِ السبعينيَّاتِ مِنَ القرنِ العشرين)، وبدؤوا ينافسون الكمالِيّين في السيطرةِ على الدولةِ. ولَمَّا اشتدَّ ساعِدُهُمْ خاصةً بعد الصحوة التي انتشرتْ في صفوفِهِمْ، ونشأ فيهم شخصيَّاتٌ حُذَّاقٌ برعوا في السياسة مثل نجم الدين أربكان وتُرْغوت أوزال، زادوا في احتكارِهِمْ لتعاليم الإسلامِ في نشرِ الطريقة النقشبندية التي تَتَمَثَّلُ في مَزِيجٍ مِنِ أذْكَارٍ إسْلاَمِيَّةٍ مع سِلْسِلَةٍ من هَرْطَقَاتِ الْبُوذِيَّةِ وخُزَعْبَلاَتِ مَجُوسِ الْهِنْدِ، ولا يزال هذا التيَّارُ الخطيرُ يواصل جهودَهُ لتحويلِ الإسلام بِكَامِلِهِ إلى الْمُسْلُمَانِيَّةِ، ولكنْ بطريقةٍ غيرِ مباشرة.

وبرغم الإنتصارِ الذي أحرزَهُ النَّقْشَبَنْدِيُّونَ في صراعِهِمْ مع الكمالِيّين، فإنَّ عددًا غيرَ قليلٍ مِنَ الْكُتَّابِ والباحثين من العصابةِ الكماليَّةِ يبذلون قُصَارَى جهودِهِمْ في الدعاية للأيديولوجية الأتاتوركيةِ (Ataturkism or Kamalism) ويدافعون عنها ويعملون على نشرِهَا وترسِيخِها على غرار قدمائهم الذين جعلوا منها ديانةً يعتنقها الملايين منذ قرنٍ تقريبًا. وهذه الجهودُ مستمرَّةٌ حتى اليومِ، على رغمِ الحركاتِ المضادّةِ لها. نعم، بذلَ الكماليُّون كُلَّ طاقاتِهِمْ لترسيخِ الفكرةِ الأتاتوركيَّةِ وتأكيدِهَا في النفوسِ، واستخدموا جميعَ مؤسَّسَاتِ الدولةِ التُّرْكِيَّةِ وقدراتِها الماليَّةِ ليجعلوا من هذهِ الفكرةِ "ديانةً للأُمَّةِ التُّرْكِيَّةِ" لِتستغنِيَ بها عن الْمُسْلُمَانِيَّةِ، وتنقطعَ بذلك الصِّلَةُ التِي تَرْبِطُهَا بالإسلامِ، فتمكَّنُوا من تحقيقِ هَدَفِهِمْ إلى حدٍّ كبير، وقد فاقَ عددُ الذين يعتنقون هذه العقيدةَ كَدِينٍ رسميّ للمجتمعِ التُّرْكِيّ (أكثر من أيديولوجية سياسية) بجانب الْمُسْلُمَانِيَّةِ، قد فاق عَدَدُهُمْ على كثيرٍ من الشرائحِ الدينيَّةِ والعرقية في المجتمعِ التُّرْكِيّ. هذا، ولا شكَّ في أنَّ الإعتناقَ لِدِيَانَتَيْنِ اثْنَتَيْنِ يُعَدُّ

من الأمور الغريبةِ، لأنَّ أيَّ دينٍ لا يُعقَلُ أن يوافقَ دينًا آخر في كُلِّ تعاليمِهِ. زد على ذلك؛ أن الأتاتوركيةَّ دِينٌ مختلقٌ لا يعتمدُ على وَحْيٍ إلهيٍّ (وإن كان له مَعْبَدٌ وَكِتَابٌ وَمَنَاسِكُ...)

إن الأتاتوركية لم تكن إبداعا غَرْبِيًّا، بل نَسَجَتْهُ نُخْبَةٌ من اليهودِ الْمَحَلِّيِّينَ الْمُتَسَتِّرِينَ بغطاءٍ بسيط جدًّا كَفَاهُمْ مؤنةَ أيِّ محاولةٍ لإقناعِ المجتمع "أنهم مسلمون". كان هذا الغطاءُ هو أسماءَهُمْ التي لم يَسْتَغْرِبْهَا أحدُ لِمُجَانَسَتِهَا أسماءَ سائرِ الناسِ. وهم بالتحديد: حسن علي يوجيل، و وِدَاد نديم ثور، ونادر نادي، ودكتورة آفت إينان، وفالح رفقي أطاي، وأحمد أمين يلمان. استطاعَ هؤلاءِ الذين لم يزدْ عددُهُمْ عن خمسة أشخاصٍ، أن يُخَطِّطُوا هذا المشروعَ الرهيبَ والغريبَ، ويسحروا بهذه المحاولة الجريئَةِ عقولَ مئاتِ الآلافِ ويجعلوا كُلَّ فردٍ منهم مُؤْمِنًا بالفكرةِ الأتاتوركية مُتَفَانِيًا فيها بحيث تكفِيهِ إشارةٌ ليفتَدِيَ بنفسِهِ في سبيلها!

أصبح اليومَ ملايينُ الأتراك يتقبَّلون الأتاتوركيَّةَ كبديلٍ عن الإسلامِ مع أنَّهم لا يَتَحَرَّجُونَ من الْمُسْلُمَانِيَّةِ فِي الْوَقْتِ ذَاتِهِ، تلك أنَّها صنيعةُ الأجدادِ الذين استطاعوا أنْ يَنْسِجُوا مُعْظَمَ تعاليمِها ومناسِكِها بإيحاءاتٍ من البوذية والشامانية والمسيحية... فهي إذن لا تَتَعَارَضُ مع الأتاتوركيةِ مِنْ بَاطِنِهَا، كما تُضَاهِي الإسلامَ من خَارِجِهَا الذي يَتَمَثَّلُ في غلافٍ مُزَخْرَفٍ بالصلاةِ والصومِ والحجِّ والزكاةِ والنوافلِ الواردَةِ في السُّنَّةِ النَّبَوِيَّة. وهذا القدْرُ من اللُّعْبَةِ وَالْمَكْرِ يكفي لتعميةِ الأغبياءِ من الوهابيّين والحثالَةِ مِنَ الْعَرَبِ والجماهيرِ المغمورَةِ في أوحالِ الجهلِ والتقلِيدِ.

نَشِبَ الخلافُ بين الأتاتوركيين وَالإسْلاَمَوِيِّين (النَّقْشَبَنْدِيِّينَ) بعد موتِ مصطفى كمالٍ ودامَ حتى اليوم، لكنَّ مناهضةَ الإسْلاَمَوِيِّين للجبهةِ الكماليةِ والحروبَ التي جرتْ بين الطرفين طِوالَ ثمانين عامًا لم تكنْ ناشئةً من موقفِ الأتاتوركِيِّين ضِدَّ الإسلامِ، بل كان صراعًا سياسيًّا محضًا، وَرُدُودَ فعلٍ من جماهير الصوفية المتمرِّدِينَ على السلطةِ. ذلك أنَّ الإسْلاَمَوِيِّين (وهم النقشبنديون بالتحديد)، لم يكونوا أصلاً على عهدٍ مع الإسلامِ في حدودِ الكتابِ والسنةِ، بل كانوا مُتَعَصِّبِينَ لِلْمُسْلُمَانِيَّةِ التي لا علاقةَ لها بالإسلامِ في صميمها، وإنما هي ديانةٌ تَلْتَبِسُ على الجاهلِ مِنَ خارجهَا عمومًا، اخْتَلَقَهَا قدماءُ الأتراكِ منذ قرون للتَّمَايُزِ عن العربِ، واتَّخذها أجيالُهُمْ بالتقليدِ الأعمى أبًا عن جدٍّ وَهِيَ الوشاح الذي يرتديه التيَّارُ النقشبندِيُّ في الوقت الراهن.

***

9) التَّيَّارُ النَّقْشَبَنْدِيّ:

الطريقةُ النقشبنديَّةُ سلوكٌ صوفِيٌّ، له تَعَالِيمُ تجمعُ بين أذكارٍ إسلاميَّةٍ ومَفَاهِيمَ بوذيَّةٍ، وعقائِدَ إلْحَادِيَّةٍ، ولهذهِ الطريقةِ طقوسٌ غريبةٌ يتمُّ إجراؤُها في خفاءٍ. انتشرتْ بين الأتراكِ خاصَّةً، ثمَّ تسرَّبَتْ إلى مجتمعاتٍ كانت تحت حُكْمِهِم كالأكرادِ والشراكسةِ والبُنطُسِ وغيرِهم... لأنَّها نشأت بجهودِ زنادقةٍ من قومِهِم في بلادِ ماوراء النهر قبل قرون، وهي وطنهم الأصليُّ.

إنَّ الأتراك قد نشؤوا على التصوُّفِ منذ أيامِ تَعَرُّفِهِمْ على الإسلامِ. يبدو من الْمُعْطَيَاتِ التاريخيَّةِ أنَّ نُزوعَهُمْ إلى الفِكْرِ الصوفِيِّ ناشِئٌ من أسبابٍ تَرْبِطُهُمْ بماضيهم قبل الإسلامِ، وتدلُّ على أنَّهُمْ لم يَتَخَلَّوْا عن كثيرٍ من عقائِدِهِمْ القديمةِ ولم يَتَخَلَّصُوا من رسوباتِ الوثنيَّةِ الهنديَّةِ التي كانوا يعتنِقونَهَا بِجَرِّ الجِوَارِ، لأنَّهُمْ كانوا على مَقْرُبَةٍ من المنطقةِ الهنديَّةِ وعلى صلةٍ مع سُكَّانِهَا. هذا وليس خافِيًا على حُذَّاقِ الباحثين أنَّ مُعْظَمَ سُكَّانِ الْمُدُنِ من الأتراك كانوا على مذهب (مَاهَايَانَا Mahayana) المتفرّعِ من البوذِيَّةِ. ولَمَّا الْتَقَطُوا من الإسلامِ ما أعْجَبَهُمْ من المناسكِ والأمورِ التي تتماشى مع طبيعتهم العسكرية، كصلاةِ الجماعةِ، وأعمالِ الجهادِ الْمُسَلَّحِ، والتضحيةِ وما أشبه، أخذوا من هذا الدِّينِ الجديدِ أمورًا كالذكرِ والدعاءِ ومزجوها بتعاليم البوذية فتكوَّنَتْ من هذا التركيب الغريبِ دينًا جديدًا سَمَّوْهَا (الْمُسْلُمَانِيَّةَ Müslümanlık)، ثم جعلوا من هذا الدِّينِ الزائفِ الْمُسْتَحْدَثِ غلافًا لعديدٍ من تياراتٍ صوفِيَّةٍ أسَّسُوهَا على مدى تاريخهم. فكان من آخرِ هذه التياراتِ وأكثرِها انتشارًا هي الطريقةَ النقشبندِيَّةَ.

كانت الطريقةُ النقشبنديَّةُ مجهولةً في المجتمع العثمانِيِّ حتى بِدايةِ القرن الثامن عشر الميلادي. ثمَّ ظهر رجلٌ كردِيُّ الأصلِ في مدينةِ السليمانيَّةِ العراقِيَّةِ اسمه خالدٌ البغداديُّ، بدأ بِنَشْرِهَا عَقِبَ رِحلةٍ قامَ بها إلى الهند سنة 1810م. وَعادَ منها بعد عام. كَثُرَ فيه القالُ والقيلُ؛ مع ذلك تهافتتْ عليه جماعةٌ من مَلاَلِي الأكرادِ ومُشَعْوِذِي العربِ في العراقِ، وبَالَغُو في تعظيمِهِ وتبجيلِهِ إلى حدِّ التأليه ولَقَّبُوهُ بِ(ذي الجناحين)، وَلكنْ اتَّهَمَهُ عَدَدٌ مِنَ العلماءِ بالزَّنْدَقَةِ وحَذَّرُو الناسَ من أباطيلِهِ، وحاولوا تَفْنِيدَهُ بكتاباتٍ ورسائِلَ، إلاَّ أن المتواطئين معه استطاعوا أن يَتَغَلَّبُوا على معارضِيهِ في أمدٍ قصير بأشدِّ ما يمكن من المقابلة بالمثل.

فلما تأكدتْ قِمَّةُ الدولة العثمانيَّةِ من التعاونِ معه في معالجَةِ أزَمَاتٍ خَطِيرةٍ كانت الدولةُ قد وقعتْ في حِبَالِهَا، أقَرَّتْهُ على كُلِّ ما يَدَّعِي الرجلُ لنفسِهِ من السلطةِ المعنويَّةِ والإتصالِ بـ"السادات النقشبندية" المقبورين منذ قرون! تُبَرْهِنُ على صدور هذه الهرطقةِ من خالد البغدادي رسالةٌ بعثَ بها إلى وزيرِ التعليمِ يومئذٍ (محمَّد أسعد أفندي)، يُحَذِّرُهُ من التَّعَامُلِ مع رجلٍ اسمُهُ عبد الوهاب السوسي، كان البغدادي أرسله إلى أسطنبولَ لِبثِّ دَعْوَتِهِ في عاصمةِ الدولة. إلاَّ أن السوسيَّ احتكرَ نيابَتَهُ عن البغداديّ وخانَهُ بتشويهِ تَعَالِيمِهِ واستِخْدَامِهَا في مصالِحِهِ.

كان خالدٌ البغداديُّ زنديقًا جريئًا، محترفًا في فنونِ الزَّنْدَقَةِ واختلاقِ أشكالٍ من البدعِ، فكان شَرُّهُ مستطيرًا. لم يتألَّمْ ضميرُ هذا الرجلِ وهو يدعو الناسَ إلى عبادةِ اللهِ والإشراكِ به في آنٍ واحد! ولم يَتَوَرَّعْ عن الإضرارِ بالاسلامِ وهدمِ أركانِهِ بمزجِ مفاهيمَ خطيرةٍ أخَذَهَا من البوذيَّةِ وَمَزَجَهَا بتعاليمِ الدِّينِ الْحَنِيفِ. تَلَقَّى مبادئَ البوذيَّةِ في الديارِ الهنديَّةِ من شخصٍ مشعوذٍ اسمه عبد الله الدهلوي، وأضافَ إليها صِيَغًا من الآياتِ القرآنيَّةِ، والدعاءِ والأذكارِ المأخوذةِ من السُّنَّةِ النبويَّةِ، واختلَقَ لهذا التركيبِ طقوسًا ومناسكَ فَطَوَّرَهَا على هيئةِ دينٍ مُتَكَامِلٍ. ثم جَنَّدَ في العراقِ جماعةً من الملالِي لِيَبُثُّوها ما أمْكَنَهُمْ، واغترَّ به عددٌ كبير من أهلِ العلمِ مثل محمود شهاب الدين الآلوسي، وابن عابدين الدمشقي الفقيه. فحالفه الحظُّ بعد أن نجحَ في تطبيعِ علاقاتِهِ مع الْوُلاَةِ والأمراءِ الْمَحَلِّيّين وكَسَبَ ثقةَ العاهلِ الثمانِيِّ السلطان محمود الثاني، فتمكَّنَ بفعلِ ذلك من نشرِ معتقداتِهِ على كافَّةِ أرجاءِ المملكةِ العثمانيَّةِ، فاعْتَنَقَتْهَا جماعاتٌ من الأتراكِ والأكرادِ والعربِ وغيرهم في أناضولَ، وبلادِ قوقاز، وشِبْهِ جزيرةِ بَلْقَانَ، كما انتشرتْ طريقتُهُ في بعضِ البلادِ الأوروبيَّةِ بفعل الأتراكِ الوافدِينَ والمهاجرين إلى تلك البقاع في السنن الأخيرة.

استطاعَ البغدادِيُّ أنْ يفْتِنَ ملايينَ الناسِ في دينهم، إذ كانت الدولةُ العثمانيَّةُ في حَيْصَ بَيْصَ، فَأَرْخَتِ السُّلْطَةُ له العنانَ لِكَسْبِ دَعْمِهِ ضدَّ السلفيِّينَ الذين كانوا يَدْعُونَ الأُمَّةَ إلى توحيدِ اللهِ ونبذِ الأوثانِ، والتَّخَلِّي عن الحياةِ الجاهليَّةِ، وعدمِ الطاعةِ لأولياءِ الأمورِ في معصيَةِ اللهِ... فسنحتْ الفرصةُ للبغدادِيِّ وطارَ صِيتُهُ في الآفاقِ، فاعتقدَ فيه ملايينُ الناسِ "أنه الغوثُ الأعظمُ، وَالْقُطْبُ الأفخمُ، الذي فَوَّضَ إليهِ الرَّبُّ تدبيرَ السماواتِ والإرضِ، له جناحانِ يطيرُ بهما حيثُ يشاءُ، وينوبُ عن الله ويتصرَّفُ فِي مُلْكِهِ..." إلى غير ذلك من موبِقَاتِ الإيمان.

لقد كانت الجاهليةُ عادتْ، وسادتْ في عمومِ أرجاءِ الوطنِ الإسلاميّ، ومِنْ أمراضِها السرطانُ الصوفِيُّ كان في تلك المرحلةِ منتشرًا بشكلٍ ذريعٍ في ظلّ انعدامِ الوَعْيِ وانتفاءِ المسئوليَّةِ. اندلعت في هذه المرحلةِ حُروبٌ وعِصياناتٌ في الداخل والخارجِ قصمتْ ظهرَ الدولةِ، كما تسرَّبَتْ أفكارٌ إلحادِيَّةٌ إلى المجتمعِ العثمانِيّ من الغربِ (من فرنسا بخاصَّةٍ) تبثُّها المحافلُ الماسونيَّةُ، ولم يكن ثمَّ من يدعو الناسَ إلى توحيدِ اللهِ إلاَّ القليلَ من العلماءِ، ولكنَّ أحدًا منهم لم يَشْعُرْ في نفسهِ بالْجُرْأةِ على المارقين، وكانت الظروفُ بِكُلِّيَتِهَا مُواتيةً على نحوٍ خاصٍّ لتفخيمِ شأنِ البغداديّ وتصعيدِ سُمْعَتِهِ وتوسيعِ شُهْرَتِهِ، ونشر طريقتِه (النقشبندِيَّةِ)... فانبرتْ طائفَةٌ من وَزَاوِزَةِ الْمَلاَلِي والشيوخِ الْمُشَعْوِذِينَ يتشدَّقُونَ بإِطْرَائِهِ ويدافعون عنه، وَيَرُدُّونَ على مَنْ يُدْحِضُ أبَاطِيلَهُ. لذا من تصدَّى للردِّ على خالدِ البغدادِيِّ تَعَرَّض للسَّحْقِ كما حدث ذلك للشيخ معروفِ البرزَنْجِيِّ وعبدِ الوهابِ السوسِيِّ مع أنَّهُما أيضًا كانا صوفِيَّيْنِ مشعوذَين من أمثالِ البغدادِيِّ، كما ذهبَ الشخ عثمان الجليلي وحَالَتْ أفَنْدِي أيضًا ضحيةَ مُعَارَضَتِهِما لِخالِدِ البغداديّ. أما حَالَتْ أفندي، فكان من أبرزِ رجال البلاطِ، نُفِذَ فيه حُكْمُ الإعدامِ بأمرٍ من السلطان محمود الثاني. فَفَسُحَ بعد ذلك المجالُ للرَّجُلِ وخَلَتْ له الساحةُ وانْدَحَرَ جميعُ خصومِهِ وانصرفوا مخافَةَ مُوَاجَهَتِهِ.

قفزتْ النقشينديَّةُ من بلادِ الهندِ إلى العراق على يدِ خالدِ البغدادِيِّ عامَ **1811**م. بالتحديد، وقِصَّتُها طويلةٌ، فكانتْ طامةً كُبْرَى على الأمةِ لانتشارِها السريعِ، فما لبثتْ حتى لَقِيَتْ قبولاً من قِبَلِ سُلْطَةِ الدولةِ. ذلك أن الحكومةَ العثمانيَّةَ كانتْ قد حلَّتْ الجيشَ الإنكشارِيَّ ثمَّ قمعتْ بقاياهُ المتمرّدِين لِمَخَاطِرِهِ على النظامِ، وكان هذا الجيشُ مُعْتَنِقًا للعقائدِ البكتاشِيَّةِ، وهي أيضًا تيَّارٌ صوفِيٌّ خطيرٌ. فلمَّا أُبِيدَتْ فُلُولُهُمْ عن بكرةِ أبِيهَا يوم **15** حزيران/يونيو **1826**م.، أحَلَّتْ الحكومةُ النقشبنديِّينَ في ثَكَنَاتِهِمْ، وخصَّصَتْ لهم جميعَ تكايَا الْبَكْتَاشِيِّينَ. كُلُّ ذلك لِكَسْبِ النقشينديّين وتجنيدِيهِمْ في حربِ "الوهابية"، واتِّخاذِهِمْ سَدًّا أمامَ انتشارِ عقيدةِ التوحيد في المجتمع العثمانِيّ.

للطريقة النقشبندية طقوسٌ غريبةٌ ومناسكُ وأشكالٌ من العبادةِ شبيهةٌ بأساليبِ الهنودِ اليوغيين. وَلِدَفْعِ التُّهَمِ عن أنفسِمْ يُقيمُون طقوسَهُمْ في أمَاكِنَ خَاصَّةٍ ولا يسمحون لمشاركةِ مَنْ ليس منهم. مع ذلك يحضرون المساجدَ ويصلُّون ويصومونَ ويحجُّونَ على غرار المسلمين. إلاَّ أنَّهم ما داموا لا

يتحاشَوْنَ مِنْ مُشَابَهَةِ مجوسِ الهندِ في العبادةِ، فلا محالةَ يُعَدُّونَ فرقَةً من الفرقِ الضَالَّةِ الكافرةِ كالنُّصَيْرِيَّةِ، والإسماعيليَّةِ، والدروزِ، والقاديانيَّةِ، والبهائيَّةِ ولا شكَّ...[79]

***

ظهرت الطريقةُ النقشبنديَّةُ في القرنِ السادس عشر الميلادِي (على وجه التقريب) في بلادِ ماوراءِ النهر، بجهودِ عددٍ من الزنادقةِ والمشعوذينَ كانوا قد انتحلوا صفاتٍ روحِيَّةً؛ ابتدعوا أساليبَ من التعبُّدِ على أساسِ التركيزِ والتأمُّلِ العميقِ، وتكرارِ لفظٍ معيَّنٍ بأعدَادٍ كبيرةٍ مع انتهاجِ حياةٍ يسودُها التقشُّفُ وإهمالُ التدبيرِ، ومجاهدةُ النفسِ برياضاتٍ شاقّةٍ... لكنهم كانوا يَدْعُونَ الناسَ إلى ممارسَةِ هذه الأشكالِ من التعبُّدِ باسم الإسلامِ، ويدَّعونَ أنها أفضلُ سُبُلِ التهذيبِ للنفسِ، وأنفعُها للتخلُّصِ من مخاطر الشهوات، وأمثلُها لكسبِ القربِ من الله تعالى! فنالت القبولَ هذه الأذكارُ والعباداتُ الدخيلةُ عندَ كثيرٍ من الناسِ العامّيّينَ، لجهلِهم بمبدإ التوقيفِيَّةَ في الإسلامِ. والطامةُ الكبرى أنَّ بعضَ الشخصِيَّاتِ المعروفِينَ بسمةِ العلمِ من أمثالِ ابن حجر الهيتمي، ومحمود شهاب الدين الآلوسي، وابنِ عابدين الدمشقي الفقيه، وقعوا في حبالِ هؤلاءِ الزنادقة، فاغترّوُا بهم وشهدو لهم بالصلاحِ لجهلهم بِعِدَّةِ أمورٍ.

منها: أنهم لم يدرسوا تاريخ الأديانِ والمذاهبِ فلم يكن لهم رصيدٌ من المعرفةِ ليُدرِكوا كيفيةَ الخلطِ بين مصطلحاتِ المشركين وتعاليم الإسلامِ؛ كيفَ يتحزلقُ الزنديقُ حين يلتقطُ أنماطًا من مناسكِ أهلِ الشركِ فيمزجها بالأذكارِ والدعاءِ في الإسلامِ، ثمَّ يزعم "أنها وسائل التقرُّبِ إلى الله، وهي مأثورةٌ من النبِيِّ صلى الله عليه وسلمَ" افتراءً على الله ورسولِه. لأنَّ الزنديقَ على علمٍ ويقين تامّ بأنه لو دَعَى الناسَ من أهلِ الإسلامِ (بصراحةٍ) إلى ذكر اللهِ على طريقة أهل الكفرِ (لأنَّ الْكُفَّارَ أيضًا يذكرون الله بأساليبَ انتهجها لهم رُهْبَانُهُمْ)، لو دعى المسلمين ليذكروا الله ويتنسّكوا بتلك الأساليب، لما أطاعَهمْ أحدٌ إلاَّ من أعْمَى اللهُ قَلْبَهُ بالجهلِ والْحَمَاقَةِ.

ومن هذه الأمورِ التي يجهلها عامَّةُ رجالُ الدين: أنَّ الزندقةَ لا تكونُ إلاَّ من جنسِ الدعاءِ والصلاةِ والأذكارِ والمناسك. إذ يأتِي الزنديقُ بضروبٍ من أذكارِ أهلِ الكفرِ، وَدُعَائِهِمْ، وَصَلَوَاتِهِم، ثمَّ يُضِيفُ إليها آياتٍ من القرآنِ الكريمِ، وأذكارٍ مأثورةٍ من السنةِ، ويَنْسِبُهَا إلى الإسلامِ، ويَعُدُّهَا من وسائل

[79] لِمزيدٍ من المعرفة حول هذا التيار الصوفيّ، راجع: فريد صلاح الهاشمي، الطريقة النقشبندية بين ماضيها وحاضرها، (والكتاب متوفر على المواقع في الشبكة العنكبوتية)

القربات... فلا يكادُ الجاهلُ يُمَيِّزُ في هذا التركيبِ الغامضِ بين ما هو مأخوذٌ من تعاليم الدين الحنيفِ وبين ما هو مأخوذٌ من مستنقعاتِ الكفرِ. كـ(صلاةِ الرابطةِ) و (الختمة الخواجكانية) وترداد لفظ الجلالة خمسة آلافِ مرةٍ كلَّ يومٍ... لكنَّ الهيتميَّ والآلوسيَّ وابْنَ عابدين ما بالُهُمْ لم يَتَنَبَّهُوا إلى هذه المحاولات الماكرةِ (وهم من أهل العلم!) على حدِّ قولِ مَنْ يدَّعِي ذلك؟!

ومن هذه الأمورِ أيضًا: أنَّ معظَمَ رجالِ الدِّينِ التبس عليهم الفرقُ بين الفضائِلِ التي جاءَ بها الإسلامُ وبين ما قد يُشَبَّهُ بها في الدياناتِ الكفرِيَّةِ من سلوكيَّاتٍ أخلاقِيَّةٍ. فالصبرُ، والقناعةُ، ولينُ الجانِبِ، وكظم الغيظِ، والعفوُ والتسامحُ، والزهدُ، والخشوعُ في العبادةِ، والتضرُّعُ إلى اللهِ بالدعاءِ، كلُّها قد جاءت الوصِيَّةُ بها في الكتابِ والسُّنَّةِ. وهي من جملة الفضائِلِ التي جاءَ بها الإسلامُ. ولا يخفى أنَّ المسيحِيَّةَ والبوذِيَّةَ مثلاً، تهتمُّ كلٌّ منهما أيضًا بأشكالٍ مُلْتَبَسَةٍ بهذه الخصالِ؛ لكنَّ نظرةَ الإسلامِ تختلفُ كلَّ الإختلافِ عن نظرةِ الدياناتِ الكفرِيَّةِ إلى هذه الفضائِلِ. وقد منعتْ ضوابِطُ الدِّينِ الحنيفِ التشبُّهَ بالكفارِ منعًا باتًّا بقانون (التوقيفيَّةِ)، وفي ذلك حكمٌ قطعِيٌّ صارمٍ. قال تعالى: "وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ."[80] كما حكم الإسلامُ على مَنْ تشبَّهَ بأهلِ الكُفرِ أنَّهُ كافِرٌ حالٌّ ربقةَ الإسلامِ من عنتقه لا محالة.

كذلك الأذكارُ والأدعِيَةُ في الإسلامِ كلُّها مضبوطَةٌ في حدودِ الكتابِ والسنَّةِ. إذًا لا يجوزُ لأحدٍ (كائنًا مَن كانَ) أنْ يقتَبِسَ شكلاً من أشكالِ الذكرِ والدعاءِ والتعبُّدِ من أيِّ ديانةٍ بحجّةِ أنَّ الغرَضَ من أدائِها ليسَ إلاَّ التقرُّبَ إلى اللهِ. فيتعيَّنُ هنا التنبيهُ بخاصَّةٍ على أنَّ صلاةَ الرابطَةِ في الطريقةِ النقشبندِيَّةِ، لا تعدو عن شكلٍ من طقوسِ مجوسِ الهندِ، وقد ثَبَتَ بالبراهين أنَّ صناديدَ هذه الطريقةِ قد اقتبسوها وأجْرَوْا عليها بعضَ الشيءِ من التعديلِ بطريقةٍ ماكرةٍ للتعميةِ، وهي في الحقيقةِ مأخوذةٌ من (الْيُوغَا)، وهو شكلٌ من طقوسِ كفارِ الهندِ، يمتدُّ أصلُها إلى تعاليم الراهب بيتنجل Patanjali.

إنَّ رِجَالَ الدِّين (بخلافِ العلماءِ) يجهلون هذه الحقيقةَ، لأنَّهم عمومًا يجهلون خفايا أساليبِ الزنادقةِ في التضليلِ، وغسلِ الأدمغةِ، وتسحيرِ العقولِ، يجهلون مكنوناتِ حِيَلِهم في اختلاقِ البِدعِ والخرافاتِ والأساطيرِ. لذا لا يكفي الانتباه إلى أكاذيبِ الصوفِيَّةِ وأنماطِ دجلِيَّاتهم فحسبُ، بل يجب التفطُّن – في الوقتِ ذاتِهِ – إلى الفرقِ بين العالمِ و"رجل الدين". فهذا الأخيرُ مصطلحٌ مقتبسٌ

---

[80] الحشر/7

أيضًا من قِيَمِ الكُفَّارِ، ينبغي التمييز بينهما والتحذير من الإعتدادِ برجالِ الدين واعتبارِهم من طبقة العلماء.

***

إنَّ النقشبنديّينَ لهم ألاعيبُ خطيرةٌ في صناعة التضليلِ وإلباسِ الحقّ بالباطلِ؛ يَتَصَيَّدُونَ بها الجهلةَ وَيُرَسِّخُونَ عقائدَهم في أعماقِ الإنسانِ الْمُنْسَحِبِ وراءَهُمْ والواقعِ في حبالِهم، فيتحوَّلُ إلى آلةٍ في يد شيخ الجماعةِ يلعبُ به ويستخدمه في تحقيق أغراضِهِ دونَ أيّ اعتراضٍ من هذا الجاهِلِ أن يعصيَ له أمرًا، ولو كانَ حرامًا بيّنَ الْحُرْمَةِ. كما لو أمره بفعلِ الزنا أو شُرْبِ الخمرِ وحتى بارْتِكَابِ جنايةِ القتلِ، لا يتردَّدُ في الاستجابة له أبدًا إلاَّ من رحم ربّي!

بذل النقشبنديونَ الأتراك في السنين الأخيرةِ جهودًا بالغَةً وعنايةً خاصَّةً في إصدارِ كتبٍ ومجلاَّتٍ وإنشاءِ شركاتٍ وأوقافٍ وجمعياتٍ وإذاعاتٍ وفضائيَّاتٍ يستخدمونها في بَثِّ عَقَائِدِهِمْ والدفاعِ عنها، وهي– في الوقتِ ذاته – أسلحةٌ فتّاكةٌ في أيديهم يستعملونها لضربِ خصومِهم، خاصَّةً في هجماتهم على أهلِ التوحيدِ بضراوةٍ وعنفٍ؛ لا يألونَ جهدًا في تشنيعِ "السلفيّين" وسبِّهم، ورميهم بالزندقة، وبالخيانة العظمى ومعاداة الدولة التركِيَّةِ. يصفونهم بالإرهابية، والداعشية، والوهابية...

إنَّ كفرياتِ النقشبنديّين، وتلاعُبَهم بالدين، ونشاطاتِهم الهدَّامَةَ لا حصرَ لها في الحقيقة؛ أمّا تلخيصُها (تفادِيًا للإسهابِ والإملالِ)، فيمكن في أربعةِ نقاطٍ رئيسة (مع ذكرِ نبذةٍ من أسبابها وجذورها التاريخية):

أوَّلُها: أنهم يتنطعون بإصرارٍ بالغٍ وبدون أيّ مناسبةٍ، ليصرفوا الإنتباهَ عن توحيد الألوهِيَّةِ، فيتشدّقون في خُطَبِهِمْ ومَوَاعِظِهِمْ وَمَجَالِسِهِمْ بإِكْثَارِ ما يدلُّ على ربوبيَّتِهِ تعالى: أنه الخالقُ، وأنه الرازقُ، وأنه المدبِّرُ، وأنه المحي والمميتُ... إلى غير ذلك مِمَّا لا يَجْحَدُهُ جُمُوعُ أهلِ الكفرِ من اليهودِ والنصارى والمجوسِ، وحتى الملحدون الذين يُنكرون ربوبيَّةَ اللهِ في ظاهرهم مع أنهم يستيقنونها في أعماقِ ضمائِرهم.

ولا يكادُ أحدٌ من شيوخ النقشبنديَّةِ وخواجواتِهِمْ وملالِيهِمْ ينبس ببنت شفةٍ في توحيد الأُلُوهِيَّةِ بإفرادِ اللهِ تعالى بالعبادةِ. لم يَرِدْ أنَّ شيخًا من شيوخ النقشبندِيَّةِ (المعاصرين منهم خاصَّةً)، لم يَرِدْ أنَّهُ نطقَ في مجلِسِهِ، أو نَبَّهَ مريديه على أنَّ الله تعالى هو الإلهُ الواحدُ الأحدُ الفردُ الصمدُ الذي لا يُعْبَدُ إلاَّ إيَاهُ؛ لا يُصَلّى، ولا يُدْعَى، ولا يُذبَحُ، ولا يُنذَرُ، ولا يُحَجُّ، ولا يُعتَمَرُ، ولا يُتصَدَّقُ إلاَّ له سبحانه ابتغاء وَجْهِهِ تعالى. وأنّه من يتوجّهْ إلى غيرِهِ بأدنى شيءٍ من هذه المقاصدِ يحِلْ ربقةَ الإسلامِ من عُنُقِهِ؛ لا تُؤكَلُ ذبيحتُهُ، ولا تجوز مناكحتُهُ، ولاَ يُؤْذَنُ له بالدخولِ إلى المسجد لأنه نجسٌ بِنَصِّ قولِهِ تعالى: "يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا."[81]، ولا يَرِثُ المسلِمَ ولا يرثُهُ المسلمُ، وتسقطُ ولايتُهُ، ويسقطُ حقُّهُ في الحضانة، ولا يُصَلَّى عليه إذا ماتَ، ولا يُدفَنُ في مقابِرِ المسلمين. نعم، يتجنَّبُ شيوخُ النقشبندِيَّةِ الإقرارَ بهذه الحقائِقِ التوحيدِيَّةِ مع أنَّ كُلَّهَا من أحكامِ المشرِكِ في الدنيا، وأمّا فيما يتعلّقُ به في الآخرَةِ: فإنَّ الله تعالى قد بيَّنَ حُكْمَهُ فيه بقولِهِ تعالى : "إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا."[82] وهذه المعلوماتُ كُلُّها مشروحةٌ في مصادر الفقه الإسلامِيّ. لكنَّ الصوفِيَّةَ عامَّةً والنقشبندِيّينَ خاصَّةً يتجاهلونها ويتعمّدونَ كَتْمَهَا ولا يكادُ يُسمَعُ من أحدِهِمْ أنه تلى هذه الآيَةَ الكرِمَةَ جهرًا. بل يكرهون قرائَتَهَا وتِلاَوتَهَا جهرًا، وإذا نَبَّهَهُم أحدٌ على كفرِهِم هذا، وطلَبَ منهم أن يتأمَّلوا في معناها، ثاروا عليهِ وطردوه من مجلسِهِم، وشتموا به، ورموه بالزندقةِ، ووصفوه أنه وهّابِيٌّ ضالٌّ عدوٌّ لأولِيَاءِ الله، بل آذوهُ بالعنف إن قدروا عليه...

إنَّ موقِفَهم هذا إنما هو ناشِئٌ من تَأْلِيهِهِمْ لشيوخِهم وكبرائِهِ، ومن البراهين الواضحةِ على كُفْرِهِمْ هذا: أَنَّهم مَشْغُولُونَ ومُنْهَمِكُونَ في ذكرِ مَنْ نَالَ من بينهم قدرًا من الشهرة حتّى وصفوه بالولايةِ، وإذا ماتَ بَنَوْا عليه قُبَّةً، وَتَضَرَّعُو إليه لقضاءِ حاجاتهم ليسَ ذلك إلاَّ لِعَدَمِ اعْتِدَادِهِمْ بِتوحيدِ اللهِ في أولوهِيَّتِهِ. إنّما ينسبونَ كلَّ ما ينالون من سَعَةٍ وَنعمةٍ، إلى هذا المشهورِ المعظَّمِ في قلوبِهم (بصفة الولِيّ الفُلاَنِيّ) لاعْتِقَادِهِمْ أنَّها مِنْ بركاتِهِ. "وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لاَ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ." لا شكَّ في أن ذلك كفرٌ صريح وإشراكٌ بالله، لأنَّ ذلك أبشعُ ضُروبِ النكرانِ بجميله تعالى، وغفلةٌ وتجاهلٌ لقولِهِ سبحانه: "وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا

---

[81] التوبة/28

[82] النساء/48

إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ."[83] واللهُ تعالى يُكَذِّبُهُم بهذهِ الكلماتِ المقدَّسَةِ:" قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ."[84]

ومن أكبر علاماتِ كُفْرِهِمْ إذا أكثرَ أحدٌ في مجلسٍ لهم من القولِ في توحيدِ الله بالعبادةِ، تجدهم يتحرَّجونَ من ذلك ويضيقُ صدورُهُم، وقد يتجرَّأُ بعضُهم بالاعتراضِ على هذا الواعظِ وفي عنجهيَّةٍ بقوله: "يا شيخ: نحن لا نجهل أنَّ اللهَ واحدٌ، لكنْ مَا لُكَ تَشُحُّ بذكرِ الأولياءِ وكَرَامَاتِهِمْ وَبَرَكَاتِهِمْ وجَاهُمْ وَشَفَاعَتِهِمْ لنا!". إن الله تعالى قد وصفَ هولاءِ الْغَرْقَى في مُسْتَنْقَعَاتِ الكفر (وإن تَرَاءَوْا في مظاهر المسلمين بصلواتهم وصيامِهم وجُمُعَاتِهِمْ وَجَمَاعَاتِهِمْ..) قد وصفهم الله تعالى بقوله: "أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لاَ يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلاَ يَعْقِلُونَ * قُلْ للهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَإِذَا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ."[85]

النقطةُ الثانيةُ: هي أنَّ هذا الْكُفْرَ (آنِفَ الذِّكْرِ) مُنْبَثَقٌ أصلاً من تأليهِ النقشبنديّين للإنسانِ الْمَيِّتَ. إنَّ الطريقةَ النقشبنديَّةَ انتهجتْ هذا الْمُعْتَقَدَ خاصَّةً لِصَدِّ الوجوهِ عن توحيدِ الله في العبادةِ. ذلك أنَّ هذا الاعتقادَ له أصلٌ ممتَدٌّ إلى حُقْبَةِ ما قبلَ الإسلامِ من تاريخِ الأتراك. تدلُّ البحوثُ والوثائق أنَّ هذا القومَ كانوا ولا يزالون يُقَدِّسُونَ أرواحَ مَوْتَاهُمْ، ويعتقدونَ أنَّ لهم هيمنةً على حياةِ الْمُجْتَمَعِ وَمُقَدَّرَاتِهِ، فكانو يتوجَّهونَ إليهم بالدعاءِ والتضرُّعِ، ويخافونَ لَعْنَتَهُمْ.. كما كانوا يُقَدِّسُون أيضًا الكُهَنَةَ والعرَّافِينَ ومَنْ يأتيهم بشعوذةٍ؛ كاستخدامِ رموزٍ وثنيةٍ في الرُّقْيَةِ لمن يطلب منهم الشفاءَ. إنَّما هؤلاءِ كانوا رجالَ الدينِ عند الأتراكِ في عصور ما قبل الإسلامِ. فلمَّا تعرَّفوا على الإسلامِ واختزلوا منه (الْمُسْلُمَانِيَّةَ Müslümanlık) كَدِيَانَةٍ بَدِيلَةٍ عن الدِّينِ الحنيف لِيَسْتَقِلُّوا بها عن العربِ، وَيَتَمَايَزُوا عنهم بِطَابِعِهِمِ القديمِ وخصوصِيَّاتِهِمْ المحلِّيَّةِ والقوميَّةِ، تشبّثوا بالصوفِيَّةِ الذين وجدوهم أقربَ سلوكًا لِكُهَنَتِهِمْ ومُشَعْوِذِيهِمْ في العهدِ الوثنيِّ، وإذا الْتَقَوْا بعلماءِ الإسلامِ استغربوهم، فلم يطمئنُّوا إليهم، لِمَا وجدوهم يُشَدِّدُون النكيرَ على الكُهَّانِ والعرَّافِينَ والصوفيَّةِ وأفعالِهم من البدعِ والخرافاتِ والكفريَّاتِ... فلما استقوَوْا واشتدَّتْ سواعِدُهُم منذُ ظهورِ خالدِ البغداديِّ، بدأ

[83] إبراهيم/34

[84] الملك/30

[85] الزمر/43 – 45

شيوخُهُم يُنَافِسُونَ عُلَماءَ الإسلامِ وَيُزَاحِمُونَهُمْ ويُضَيِّقونَ عليهم الخناقَ، إلى أنْ تَجَرَّءُوا عليهم بِتَقْبِيحَاتِهِمْ وتَشَنِيعاتِهِمْ والدُّخولِ في أعرَاضِهِمْ والتشهير بهم لدى كلِّ فرصةٍ.

بلغ بهم الانهماكُ في تقديسِ الإنسانِ الميّتِ والقبورِ إلى حدٍّ إذا عثروا على كتابٍ لزنديقٍ من القبورِيّينَ على شاكلتِهم، أثاروا عاصفةً من الدعاياتِ له، وبادروا بطبعِهِ ونشرِهِ حتى ولو كان مدوَّنًا باللغةِ العربيَّةُ (مع أنّ الأتراك هم أبعد الناسِ إلى العربيَّةِ)، وتسابقوا وبالغوا في إطراءِ مؤلِّفِهُ بأنّهُ عَلاَّمةٌ فهَّامةٌ ألْمَعِيٌّ عبقرِيٌّ منقطع النظيرِ في علمه، لاَ أحَدَ يُدَانِيهِ مهما تَبَحَّرَ في أشتاتِ العلومِ!

على سبيل المثال، ظهر زنديقٌ خُرَافِيٌّ قبورِيٌّ من مُشْرِكي الديار الباكستانيةِ يُدعَى (حمد الله الداجوي)، صدر له كتابٌ سمّاه (البصائر لمنكري التوسُّلِ بالمقابر) وقد حشد فيه من أباطيل القبورِيَّة وتأليه الْمَوْتَى ما يتعجَّب منه ويتألّمُ كُلُّ مؤمنٍ بسلطانِ الله. كتبه ردًّا على كتابٍ أَلَّفَهُ العالِمُ السلفِيُّ الشيخ طاهرُ الْفَنْجَفِيرِيّ. قال هذا القبورِيُّ في مَقْطَعٍ مِنْ كِتَابِهِ: "فلمَّا كان بعضُ المتشدِّدين يُنكرُ التوسُّلَ بالذواتِ الفاضلةِ وسماعِ الموتَى وغيرِهما من المسائِلِ التي يتعصَّبُ فيها وَيُسِيئُ الأدبَ في شأنِ الصُّلَحَاءِ والعلماءِ الرَّبَّانيّين، وأفرطَ في شأنِ الْمُتَوَسِّلِينَ وشَنَّعَ عليهم تشنيعًا بليغًا حيث سمَّاهم مشركين وغيرَ ذلك من الخرافات في شأنِ العلماءِ الصالحين، فأردتُ الذَّبَّ عنهم غيرةً في دين الله"[86]

بل قد ذبَّ هذا الزنديقَ عن صناديد المشركين غيرةً في دين الشيطانِ، إذ لا يخفى من كلامِ هذا الضالِّ المدعُوِّ (داجوي) أنّه يكفرُ بقولِهِ تعالى "وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ * إِنْ تَدْعُوهُمْ لاَ يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ، وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلاَ يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ."[87]

إنَّ هذا الحقيرَ ومَنْ على شاكِلَتِهِ من المشركين لا يعبئون بهذا النصِّ القُرْآنِيِّ الذي لا يختلفُ عليه عَدْلاَنِ ولا ينتطح فيه عَنْزان. لانَّ فيه تكذيبُهم، وَهَدْمُ دينهم الباطِلِ من أساسِهِ. يدلُّ على ذلكَ أنَّ

[86] حمد الله الداجوي، من مقدّمةِ كتابِ (البصائر لمنكري التوسل بأهلِ المقابر). هذا الكتابُ يحتلُّ مكانًا هامًّا بين الْكُتُبِ التي تقومُ بنشرِها وتوزيعها مجانًا شركةٌ عملاقَةٌ للنقشبنديّين الأتراك العنصريّين، اسْمُهَا (شركة إخلاص)، مقرّها الرئيس في مدينة إسطنبول، يملكها أتباعُ رجلٍ اسْمُهُ (حسين حلمي إشيك)، كان ضابطًا عسكرِيًّا نَذَرَ كُلَّ حَيَاتِهِ لنشرِ الطريقة النقشبنديةِ واتخاذِها آلةً لتتريك الإسلامِ، لذلك لم يألُ جهدًا في الردِّ على السلفِيّين، والوهابيّين بخاصَّةٍ.

[87] فاطر/**13، 14**

النقشبنديّين الأتراكَ قد تجاهلوا هذه الآيةَ الكريمةَ واهتمُّوا بكتابِ هذا الباكستانِيِّ الذي ليسَ من سكانِ بلدِهِمْ، ولا عنصرًا من عرقِهِم، ورغمَ جهلِهِم بالعربِيَّةِ! وبهذه المناسبَةِ تحسُنُ الإشارةُ إلى أنَّ مَنْ يطلُب المزيدَ من المعرفةِ بعدمِ سماعِ الموتى أبدًا، عليه بِمُدَارَسَةِ الكتابِ الموسومِ (الآياتُ البَيِّنات في عدمِ سماعِ الأمواتِ) للعلاَّمةِ السلفِيِّ الجليل نعمان بن محمود الآلوسِيِّ البغدادِي.[88]

النقطةُ الثالِثَةُ: أنَّ الأتراكَ عامَّةً يجهلون مَبْدَأَ (التوقِفِيَّةِ)، والنقشبنديُّون خاصَّةً يتجاهلونها اتِّبَاعًا لشيوخِهِمْ الذين لا يعتدُّونَ بأذكارِ النبِيِّ ودُعائِهِ ومناسِكِهِ المأثورةِ صلى الله عليه وسلَّمَ. وإنما يهتمُّونَ بالأذكارِ والطقوسِ التي جاءَ بها خالدُ البغدادِيُّ من الهند. وهي كلُّها مأخوذةٌ من البوذِيَّةِ. إلاَّ أنَّ خالدًا البغدادِيَّ كان قد زينَّ هذه الأذكارَ والرموزَ والطقوسَ المجوسِيَّةَ بإضافَةِ آياتٍ قرآنِيَّةٍ وأذكارٍ مشروعةٍ إليها، فاختلقَ منها تراكيبَ غريبَةً لا يكادُ المسلمُ الجاهِلُ وحتى كثيرٌ من العلماءِ لا يكادونَ يُمَيِّزونَ بين عناصرِ هذه التراكِيبِ ما هو مأخوذٌ من الهندوسِيَّةِ وما هو مأخوذٌ من الإسلامِ، فيقعونَ في حبالِهِم ويعدِلُون عن جادَّةِ الصوابِ وهم غافلون عن كُنهِ هذه الألاَعيبِ.

من هذه الكفريات (على سبيلِ المثال): اعترافهم (جهارًا ومن غير تَحَفُّظٍ) أنَّ طريقةَ تَعَبُّدِهم تعتمدُ على العملِ بِعِدَّةِ مُصْطَلَحَاتٍ فارسيّةٍ (وهي غريبةٌ ودخيلةٌ لا أثَرَ لها في الكتابِ والسنةِ).[89]

ومن كفرِيَّاتِهِم أيْضًا: اختلاقُهم طريقةً غريبةً للذكر وفق مبادئِ مجوسِ الهند، بَعْدَ تَرْجَمَةِ مصطلحاتهم إلى العربية واحتكارِ لفظ (الجلالة) على سبيلِ التَّعْمِيَةِ. يقول عبد المجيد بن مُحَمَّد الخانِي في وصفِ طريقةِ هذا الذكرِ بالحرفِ الواحد:

"ذكرُ لفظ الجلالة باللَّطَائِفِ الخمسِ، وهي: الروحُ، والسِّرُّ، والخفِيُّ، والأخفَى، والنفسُ.. فيذكرُ (المريدُ) اللهَ تعالى أوَّلاً بلسانِ الروحِ الخيالِيِّ، وهي لطيفةٌ تحتَ الثدي الأيمنِ. ثُمَّ السِّرِّ، وهي لطيفةٌ في

[88] من عجائب القَدَرِ أنَّ هذا العالِمَ الرَّبَّانِيَّ هو ابنُ محمود شهاب الدين الآلوسِيّ، مؤَلِّفِ التفسيرِ الشهير (روح المعاني)، ومحمودُ الآلوسِيُّ هذا، على رغم ما يعترِفُ جمعٌ من أهلِ المعارِفِ: أنَّه كان موسوعةً علميَّةً في كثيرٍ من مواضيعِ الدِّينِ واللُّغَةِ من فقهٍ، وقراءاتٍ، ونحوٍ، وصرفٍ، وبلاغةٍ؛ عالماً باختلافِ المذاهبِ، مُطَّلِعًا على الْمِلَلِ والنِّحَلِ، لكنَّهُ كان – في الوقتِ ذاتِهِ – نازِعًا إلى الصوفِيَّةِ مُحِبًّا لهم. ورثاؤُهُ لِكَبِيرِ زَنَادِقَةِ عصرِهِ، خالدِ البغدَادِيّ، يُعَدُّ شامةَ عارٍ على جبينهِ إلى يومِ القيامة! ولعل في ذلك حكمةٌ كما قوله تعالى: "يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ."

[89] قد مرَّ ذكرُها في باب (الفوضَى الدِينِيُّ) ص/

يسارِ الصدرِ. ثُمَّ الخَفِيّ، وهي لطيفةٌ في يمينِهِ. ثُمَّ الأخفى، وهي لطيفةٌ في وسَطِهِ. ثُمَّ النفسِ الناطِقَةِ، وهي لطيفةٌ في الدماغِ على هذا الترتيب. فإذا رسخَ الذكرُ في لطيفة النفسِ نقَلَهُ إلى لطيفة الجَسَدِ. وهي: أن يذكرَ اللهَ تعالى بجميعِ جسَدِهِ مستحضِرًا للذاتِ العلِيَّةِ في نظرِ قلبِهِ..."[90]

يمتدُّ وصفُ عبد المجيد الخانِيّ على هذا المنوالِ من الغرابةِ والغموضِ في صيغةٍ تبعثُ الحيرةَ في قلبِ كلّ من له علم بكتاب الله تعالى وسنّة رسوله ﷺ، ويفزع من خطورتها ومن جرأة من استقاها من مستنقعات الشرك وأَلْصَقَهَا بالإسلامِ افتراءً وزورًا.

ومن كفريات النقشبنديّينَ في اختلاقِ أساليبِ الذِّكْرِ على الطريقة الهندوسِيَّةِ: ذكرُ النفيِ والإثباتِ. يقول عبد المجيد بن مُحَمَّد الخانِيّ أيضًا:

"المرادُ بالنفيِ والإثباتِ: كلمةُ التوحيدِ (لا إله إلاَّ الله). وهذا الذكرُ المباركُ يعلِّمُهُ المرشِدُ للمريدِ بعد ذكرِ اسم الذاتِ باللَّطائِفِ والتمكُّنِ من سلطانِ الذكرِ، وآدابُهُ: هي آدابُ الذكر الأوّلِ، غيرَ أنَّهُ بعدَ أن يُلصِقَ اللِّسَانَ والأسنانَ والشفةَ كالأوَّلِ، يحبِسُ النفَسَ تحتَ سُرَّتِهِ ويتخيَّلُ منها (لا) مُمْتَدَّةً إلى مُنتهى دِماغِهِ، ويتخيَّلُ من دماغِهِ نقشَ (إله) مُمْتَدَّةً إلى كَتِفِهِ الأيمنِ، ويتخيَّلُ من كَتِفهِ الأيمنِ نقشَ (إلاَّ الله) مارًّا بها على اللَّطائِفِ الخمسِ ضارِبًا بلفظِ الجلالةِ على القلبِ منفذًا إلى قعرِهِ بقوَّةٍ يتأثَّرُ بحرارَتِهَا جميعُ البدنِ مع ملاحظةِ معنى هذه الجملةِ: وهو أنه لا مقصودَ إلاَّ ذاتُ اللهِ تعالى، وينفي بشقِّ النفيِ جميعَ المحدثات الإلهِيَةِ، وينظرها بنظر الفناءِ، ويقولُ في آخرها بِلِسَانِ القلبِ: (مُحَمَّد رسول الله) ويقصِدُ بها أنه مُتَّبعٌ له ويكرّرُها على قدر قوةِ نَفَسِهِ، ويُطلِقُ نَفَسَهُ من فَمِهِ على الوترِ من العددِ، وهو المسمَّى عند ساداتِنا بـ(الوقوفِ العددِيّ)، ويقولُ بقلبِهِ قبلَ إطلاقِ كلِّ نَفَسٍ (إلهي أنت مقصودي ورضاكَ مطلوبي)"

تمتدَّ عباراتُ الْخَانِيّ على هذا النمطِ أيضًا. ويَظْهَرُ من خلالِ هذه التعريفاتِ الثعلبانيةِ أنَّ هذه الطائفةَ الخطيرةَ قد نسجتْ خيوطَهَا في أشكالٍ من المكرِ والخديعةِ لإختلاقِ تركيباتٍ وعباراتٍ وأركانٍ غريبةٍ تجمع بين ألفاظٍ من أذكار المسلمين وأصولٍ من الديانة البوذِيَّةِ، وذلك لإرباكِ قطعانِ

---

[90] عبد المجيد بن مُحَمَّد الخاني، السعادةُ الأبدِيَة فيما جاء به النقشبندية، المصدر: -Hakikat Kitabevi, Daruşşafaka Cad. 57/A İstanbul 1992

الجهلةِ في المجتمع الإسلاميّ وحلِّ ربقةِ الإسلامِ من أعناقهم دونَ أنْ يشعروا ويتنبّهو إلى ما يقعونَ فيه من سوءِ العاقبة والعياذُ بالله!

***

للنقشبنديّينَ أكاذيبُ وأباطيلُ وأساطيرُ ومفترياتٌ على الله ورسوله، وقصصٌ خرافِيَّةٌ موضوعةٌ لا أساسَ لها من الصحةِ وقد حشدوها في بطونِ ركامٍ من كُتُبِهم التي دوَّنوها باللغة الركِيَّةِ[91] لتشويشِ العقولِ واستمالةِ القلوبِ الغافلةِ واستغلالِ الضمائرِ، ينسبونها إلى شيوخهم بدعوى الخوارق والكرامات لتفخيم شأنهم وتوسيعِ نطاقِ شهرتهم وإلقاءِ هيبتِهم على الناسِ. وهذه المحاولة منهم نمطٌ من أنماطِ المكرِ والتضليل والاحتيال، يقترفونها لِيخدعو بهذهِ الطريقة قُطعانَ من السفهاءِ وحثالةِ البشر، ولِيُسَخِّروهم في تحقيق أغراضٍ مخصوصة.

من هذه الأكاذيبِ (على سبيل المثال): حكايةٌ ينقلونها عن شخصٍ يُدعى (مولانا ذاده نظام الدين). يقول: "كان يومًا من أقصر أيامِ الشتاءِ، كنتُ أنا بِصُحبةِ الشيخ عبيدِ الله الأحرار، نسافرُ من قريةٍ إلى أخرى. أدَّينا صلاةَ العصرِ في أثناءِ سَفَرِنا، ثمَّ بدأتِ الشمسُ في الإسفرارِ واقتربتْ مِنْ خَطِّ الأفقِ وكانتْ نقطةُ الوصولِ بعيدةً في الغايةِ، ولم يكن من الْمُتَوَقَّعِ أنْ نصِلَ قبلَ ساعاتٍ مؤَخَّرَةٍ من اللَّيلِ، كما لم يكنْ بِقُرْبِنَا مكانٌ نأوي إليه ونحن في مفازة مترامية الأطرافِ. أخذتُ أتأمّلُ بقلقٍ: أنَّ المقصِدَ بعيدٌ، واللَّيلَ مُقْبِلٌ، والطريقَ مُرْعِبٌ، وليسَ ثَمَّ مكانٌ نلجأُ إليه، فما إذًا حيلتُنا! ومع هذا كان الشيخ يسوقُ جوادَهُ بسرعةٍ ولم يبدُ عليه أثرٌ من القلق. بينما كان ينتابني هذه الخطراتُ فإذا بالشيخ التفتَ إِلَيَّ وقال لي: "أأنت خائفٌ؟ فسكتُّ، ثُمَّ قال لي: "أطْلِقِ العنانَ لجوادِكَ وعَجِّلْ، لَعَلَّنا نصلُ قبلَ غروبِ الشمسِ." وعليه زدنا في الإسراعِ وقطعنا مسافةً طويلةً. فجمعتُ همّي وإذا بالشمسِ فكأنَّها واقفةٌ على ألأُفُقِ مُسَمَّرَةٌ لا تبرحُ مكانَهَا. وما إنْ دخلنا القريَةَ غابت الشمسُ بسرعةٍ وَغَشِيَنَا حَلَكُ الظلامُ!"[92]

---

[91] من أشدِّ هذه الْكُتُبِ خطرًا على الإسلامِ وتعاليمِه: موسوعةٌ أَعَدَّتْهَا شركةٌ عِمْلاقةٌ للنقشبنديّين في إسطنبول. والموسوعةُ عنوانها: (İslam Alimleri Ansiklopedisi). وثَمَّ كتابٌ ضخم بعنوان (Tam İlmihal-Saadet-i Ebediyye) أَلَّفَهُ متشيخٌ منهم، كان رجلاً عسكرِيًّا، انخرطَ في سلك الدولة العميقةِ ودخل في مغامرةٍ طوالَ نصفِ قرنٍ، وعملَ مستميتًا لتشويه صورة الإسلامِ وتَتْرِيكِهِ ببثِّ تعاليم النقشبندية.

[92] المصدر: İslam Alimleri Ansklopedisi 13/118. İhlas Matbaacılık Gazetecilik ve Sağlık Hizmetleri A.Ş. İstanbul. وهذا نَصُّ الْقِصَّةِ باللُّغةِ التُّرْكِيَّةِ وقد عَرَّبْتُهَا بِنَفْسِي من غيرِ حاجَةٍ إلى مُترجم (المؤلّف):

«Mevlânâ-zâde Nizâmeddîn anlatır: "Kış zamanıydı. Günlerin en kısa olduğu bir mevsimde Ubeydullah-ı Ahrâr hazretleriyle bir köyden bir köye gidiyorduk. İkindi namazını yolda kıldık. Güneş solmaya başlamış ve ufuk çizgisine yaklaşmıştı. Menzilimiz gâyet uzaktı ve bu vaziyette oraya gecenin

اختلق مَن اختلقَ من النقشبنديّين هذه القصَّةَ الخياليَّةَ لِيُوهِمَ بها أنَّ الشمسَ وقفتْ على الأفقِ تنتظرُ هذا الشيخَ وتبعثُ عليه أشِعَّتَهَا حتَّى يدخُلَ هوَ القريَةَ في ضوءِ النهارِ ولا يُزعِجَهُ ظلامُ الليلِ! فيعدّونَ هذه القصةَ الخُرافِيَّةَ من جملة كراماتِهِ.

للنقشبنديّين أيضًا قصصٌ قد صاغوها في إطراءِ أحمدَ الفاروقِيَّ السرهندِيَّ الذي يُعَظِّمُونه بعنوان (الإمامِ الربّانِيّ!)، يستحيل أنْ يَجْمَعَها باحثٌ دونَ أن يستعينَ بغيرِه. حشدوها في موسوعةٍ لهم باللغة التركِيَّةِ[93] ما يضيقُ المقامُ لأحصاءِ عَدَدِهَا، فضلاً عن نقلِ جزءٍ منها.

من هذه الهذيانات: وَرَدَ في الموسوعةِ آنفةِ الذكرِ: أنَّ رجلاً سَمِعَ مناقِبَ (الإمامِ الربَّانِيّ) وهو في بلدٍ بعيدٍ من مَقَرِّه. فسافر إلى مدينة سرهند ليزورهُ، لكنّه اتفق أنْ وصل ليلاً فنزلَ ضيفًا في بيتِ أحدٍ من أهل المدينة. وقصَّ عليه أمرَهُ: أنه إنَّما جاءَ ليستفيدَ من الإمامِ الربانِيّ، وأنْ يَدْرُسَ عليه، وأنه مُتَشَوّقٌ للقائِهِ ولهذا أنَّه مغمورٌ في السعادة. إلاَّ أنَّ صاحِبَّ الدَّرِ كان يبغضُ الإمامَ، فأخذَ يتطاول عليه بالتقبيح والتشنيع، فتضايق منه الضيفُ، فتضرَّعَ إلى الإمامِ الربَّانِيّ في قلبِهِ وخَاطَبَهُ في نفسِهِ قائلاً: إنَّما قصدتُكَ لوجهِ الله ونويتُ أن أقومَ بخدمتِك، لكنَّ هذا الرجلَ يريدُ أن يُحَرِّمَني من هذه السعادةِ. فلم ينتهِ الضيفُ من هَمَسَاتِهِ بعدُ حتَّى فوجِئَ أهلُ البيتِ بالإمامِ وبيده سيفٌ مسلول، فانقضَّ على صاحب البيتِ فقطعه إربًا إربًا. فلما أصبح الضيفُ ودخل على الإمام، وأرادَ أن يُعَبِّرَ عمَّا حدثَ معه في اللَّيلةِ البارحةِ، بَادَرَهُ الإمامُ بقولِهِ: لا تذكرْ شيئًا في النهار من أخبار الليل!. وذلك ليكتمَ كَرَامَتَه.[94]

---

geç saatlerinden evvel varmak ihtimâli yoktu. Etrafta ise barınılacak hiç bir yer yoktu. Her taraf bozkır. Kendi kendime düşünmeye başladım: "Menzil ırak, vakit akşam, yol korkunç, hava soğuk, sığınılacak yer yok ; hâlimiz ne olacak?" Ubeydullah-ı Ahrâr hazretleri atını hızla sürüp gidiyor ve hiç bir telâş eseri göstermiyordu. İçimden bu düşünceler geçince başlarını bana döndürdüler ve, "Yoksa korkuyor musun ?" diye sordular. Sükût ettim. "Atını sıkı sürüp yol almaya bak ! Belki güneş batmadan menzilimize ulaşırız." buyurdu. Böylece atlarımızı sıkı sürerek yol almaya başladık. Bir hayli yol aldıktan sonra, dikkat ettim ki, güneş sanki yerinde duruyordu. Ufka yakın bir noktada ve göğe çivilenmiş gibiydi. Köye girer girmez, sanki güneş söndürülmüş gibi, birden bire zifirî karanlıklar içinde kaldık. »

[93] المصدر السابق.

[94] المصدر: İslam Alimleri Ansklopedisi 15/347. İhlas Matbaacılık Gazetecilik ve Sağlık Hizmetleri A.Ş. İstanbul. وهذا نَصُّ الْقِصَّةِ باللُّغةِ التُّرْكِيَّةِ وقد عَرَّبْتُهَا بِنَفْسِي من غيرِ حاجَةٍ إلى مُترجم (المؤلّف):

«Çok uzak memlekette bulunan bir azîz, İmâm-ı Rabbânî hazretlerinin medhini duyup, Serhend şehrine geldi ve birinin evinde misâfir kaldı. İmâm-ı Rabbânî'den istifâde etmek için geldiğini, ona talebe olmak şerefine kavuşmak istediğini, bunun için çok neşeli olduğunu söyleyince, ev sâhibi İmâm-ı Rabbânî'yi kötülemeye başladı. Misâfir çok üzüldü.Mahcûb oldu. İmâm-ı Rabbânî'ye sığınıp

إنَّ هذه الخزعبلاتِ وآلافَ آلافِ أمثالِها تُلفِتُ الإنتباهَ إلى أنَّ كثيرًا من التيّارات الصوفِيَّةِ، والطريقةَ النقشبندِيَّةَ على وجهِ الخصوصِ، إنَّما ظهرتْ في الأتراكِ وفشتْ في مُجتَمَعاتِهِم لأسبَابٍ ثلاثٍ:

أوّلُها: أنَّ التاريخَ لا يشهَدُ بِأدنى إشارةٍ إلى أيِّ شخصٍ أو فِئَةٍ من أهلِ الدعوةِ قاموا أوَّلَ مَرَّةٍ بتبليغِ رسالةِ الإسلامِ إليهم. وهذا يؤَكِّدُ على أنَّ تعرُّفَهم على الدين الجديدِ جاءَ عفوِيًّا واعْتِبَاطًا ومن غيرِ مرشِدٍ يدلُّهُم على اعتناقِ تعاليمه بوعيٍ وفق الكتابِ والسنّةِ.

والسبَبُ الثاني هو: أنهم كانوا يجهلونَ الكتابةَ والقراءَةَ (وحتّى رؤساؤَهم وملوكَهم!)، إذْ كانُو بِعُمُومِهِمْ بدوًا، مع أنَّ الإسلامَ دينٌ له مبادِئُ رصينةٌ يستحيلُ استيعابُها من غيرِ دراسةٍ وممارسةٍ وتعليم، خاصَّةً على قومٍ لم يتحضّروا.

والسبَبُ الثالِثُ هو: تهافُتُهم على الإسلامِ عن بكرةِ أبيهم وفي أمدٍ قصيرٍ جدًّا، لعلّهم تابعوا رؤساءَهُمْ وَمُلُوكَهُمْ في ذلك اغْتباطًا وتَقْليدًا لَهُمْ، وذلك طابعٌ راسِخٌ فيهم. بالاضافةِ إلى هذه الأسبابِ: فإنَّ مبدأ (التوقيفِيَّةِ) ظلَّتْ مجهولَةً لا يعرِفُهُ الأتراكُ ولا يعترفونَ بها، وحتى علماؤُهم لا يعبئونَ بهذا المصطلَحِ، ولا يتداولونه في نواديهم ومؤسَّساتِهِم العلمِيَّةِ أبدًا. وربما يتجاهلون شمولِيَّةَ هذا المبدأِ كقاعدةٍ أساسِيَّةٍ يرتكز عليها الدين الإسلامِيُّ بكلِّيَتِهِ الجامعةِ. نعم، حتى علماؤُهم يتجاهلون هذا المبدأ العظيمَ، لماذا؟!

لأنَّهم لا يكادونَ يشعرون بالأملِ في استجابة الناسِ للدعوةِ إلى توحيدِ الله بعد مضِيّ ألفِ سنةٍ عليهم وقد رسخت الْمُسْلُمَانِيَّةُ (Müslümanlık) في أعماقهم. "إنَّ الفرصةَ قد فاتت" بحسبِ اعتقادِهم. إنَّ صَمْتَهُمْ في كثيرٍ من الأحيانِ، وتأويلاتِهم، وذرائعَهم التي يتشبّثون بها، كلُّ ذلك تدلُّ على أنهم لا يرجون فائدةً من مناقشةِ هذه المسألةِ وكأنَّهم يقولون بلسانِ حالِهِمْ: "هل يستطيعُ أحدٌ أن يُزَعْزِعَ إيمانَ الأتراكِ بآلافٍ من أولياءِهم (بدءًا من أحمد الْيَسَوِيّ، إلى خالد البغدادِيّ وإلى

---

kalbinden; "Ben yalnızAllah rızâsı için, size hizmet niyeti ile gelmiştim. Şu şahıs, beni bu saâdetten mahrum etmek istiyor." dedi. Bu sırada İmâm-ı Rabbânî birdenbire yalın kılıç gözüküverdi. Hâllerini inkâr eden, o şahsa gereken cezayı verdi ve evden çıktı. O azîz sabahleyin mübârek huzûruna kavuşunca, geceki hâdiseyi arz etmek istedi. Fakat İmâm-ı Rabbânî hazretleri; "Gece olanı, gündüz anlatma!" buyurup, kerâmetini gizledi.»

المعاصرين من شيوخِهم الذين هم على نهج أسلافِهم؟!) أين له أنْ يُغَيِّرَ حتى عقيدةَ شخصٍ واحدٍ من النقشبنديّين في خالدِ البغداديِّ الذي كانتْ لعنتُهُ تساوي لعنةَ الله في اعتقادهم؟!". ألم يَدَّعِ خالدُ البغدادِيُّ في رسالةٍ له أنَّهُ طردَ عبدَ الوهابِ السوسِيِّ من دِينِهِ وقد أخذَ في ذلك موافقةَ جميع سادَاتِهِ: (أي من أبي بكر الصديق، وسلمان الفارسِي، وقاسم بن مُحَمَّد، وجعفر الصادق، وأبي يزيد البسطامِيّ، وأبي الحسن الخرقانيّ، وأبي علي الفارمديّ، وأبي يعقوب الهمدانيّ، وعبد الخالق الْغُجْدُوَانِيّ، وعارف الرِّيوَگَرِيِّ، ومحمود الإنْجِيرْفَغْنَوِيِّ، وعلِيِّ الرَّامِتَنِيّ، ومحمّد بَابَا السمَّاسِيِّ، وأمير كُلاَلْ، ومحمّد بهاء الدين البُخَارِيّ، ومحمّد علاء الدين العطّارِ، ويعقوب الچرخِي، وعبيد الله الأحرار، ومحمّد زاهد الْبَدَخْشِي، ودرويش محمّد السمرقنديّ، ومحمّد الْخُوَاجَگِي، ومحمّد باقي الكابُلِيّ، وأحمد الفاروقيّ السرهنديّ، ومحمّد معصوم الفاروقي، ومحمّد سيف الدين الفاروقيّ، ومحمّد الْبَدَوَانِيَ، وشمس الدين مَظْهَر، وعبد الله الدَّهْلَوِيّ...). نعم يدَّعي خالدُ البغدادِيُّ (الذي عاشَ بين أعوام: 1778م./1192هـ –1826م./1242هـ.) يدَّعِي بألفاظٍ صريحةٍ أنَّ هؤلاءِ، (وعددُهم ثمانيةٌ وعشرون شخصًا) قد وافقوه في قرارِهِ بطردِ عبد الوهابِ السوسِيِّ من الطريقة النقشبندِيَّةِ![95]

من ذا الذي يستطِعْ أن يُوَجِّهَ أدنى انتقادٍ إلى خالدِ البغدَادِيِّ في تُرْكِيَا، ما دامَ هذا الكذِبُ الفاحِشُ يُعدُّ كرامةً عظيمةً من كراماته في اعتقادِ النقشبنديّين؟! لذلك من الخطر الشديد على أيِّ إنسانٍ أن يتجرّأَ فَيُرَكِّزَ على مفهومِ (التوقِيفِيَّةِ) بأن يدعوَ الناسَ إلى الإيمانِ باللهِ وحدَه لاشريكَ له، وأنَّ الإعتقادَ بتصرُّفِ الْمَوْتَى في خَلْقِهِ وَمُلْكِهِ شركٌ يُخْرِجُهُ من الملَّةِ.

يظهر من مواقف الأكاديميين الإلهيَّاتِيِّين (أي أساتذةِ الكلِّيَّاتِ المسمّاةِ بالإلهيَّات) بخاصَّةٍ، "أن التركِيزَ على مسائِلِ التوحيدِ، وعلى مفهومِ (التوقيفِيَّةِ) عَبَثٌ، لأنَّ الأتراك أصلاً يُقِرُّونَ بأنهم منتسبون

---

[95] وهذا نصُّ رِسَالَةٍ له تشهدُ على هذا الإدِّعاءِ الخطيرِ والكذب الفاحشِ، بعثَ بها إلى أحدِ مُرِيدِيهِ في إسطنبول:

" بعد السلام، من العام الأول، الفقير تبرّأتُ من عبد الوهّاب لما ظهر منه من الأمور المخالفة للطريقة والشريعة، وأنه صار سببًا للدّسائس الّتي اختلقها المتشيّخون حتّى توهّم كثير من الناس في حقّنا أمورًا لا تليق بأراذل العوامّ، وأردتُ أن أكتب هذا إلى الآستانة العليّة – صينت عن البليّة – ليعلم الناس أنّه مطرود عن الطريق، فلا يلتفت إليه أحدٌ لئلاّ يصير مظهرًا لجلال سادات الطريقة البهيّة البهائيّة. فتوسّل بي وجعل روحانية مشائخ السلسلة شفيعًا أن لا أكتُب هذا. وحلف الأيمان المؤكّدة أنّه يكتب هذا المضمون بخطّه. ثم ظهر أنّه بلّغ تقريرًا مع بعض المرسِلين من طرفه وتحريرًا إلى بعض المخلصين: أنّه كان بعض إخوانه في الطريقة افتروا عليه عندي، ثم ظهر افتراؤهم لديَّ، وأنّه صار مثل الأوّل وأكثر، حتّى أنّ بعضكم ترك طلب الدعاء والمكاتبة إلى بعض أهل الطريقة رعاية لجانبه. والمرء يُعذَرُ لجهله.

فالآن أخبركم بأنّي وجميع رجال السلسلة تبرّأنا من عبد الوهّاب. فهو مطرود عن الطريقة. فكلُّ مَنْ تصادق معه لأجل الطريقة فليتركْ مُصَادَقَتَهُ وَمُكَاتَبَتَهُ، وإلاّ فهو برئٌ من إمداد هذا الفقير وإمداد السادات الكرام. ولا أرضى أن يكاتبني؛ ولا أن يستمدّ همّتي بعد وصول هذا المكتوب إليه. وأنت مأمور بإيصاله إلى كلِّ مُخلصٍ. فمن كان مريدَ الطريقة فليُظهِرِ الْبَرَاءَةَ منه، ومن كان مريدَ نفسهِ فلا يلومنَّ إلاّ نفسَه إذا هلك مع الهالكين». المصدر: عبد المجيد بن محمّد بن محمّد الخانيّ، الحدائق الورديّة في حقائق أجلاء النقشبنديّة، ص/232 ؛ مُحَمَّد أسعد صاحب، بغية الواجد، النسخة القديمة المطبوعة في دمشق، ص/130.

للإسلامِ، ولا بأسَ أن يكون بعضُهُم نقشبندِيّين أو منخرطين في جماعاتٍ متباينةٍ أخرى من الصوفِيَّةِ وغير الصوفِيَّةِ، فكلُّهم معترفون بالإسلامِ ومعتزُّون به، وهذا فيه كفايةٌ لإبراءِ ساحةِ المجتمع التركِيّ بما فيه من الفسقةِ والملحدين سدًّا لبابِ الفتنةِ."

يبرهن هذا الرأيُ الْمُجْمَعُ عليه عند عُقَلاَءِ القطاعِ المحافظِ المتديّن في تُرْكِيَا: أنَّ إثارةَ مفهوم (التوقيفِيَّةِ) ومناقشةَ مسائِلِ التوحِيدِ بعد ألفِ سنةٍ من اعتناقِ الأتراكِ للدِّيَانَةِ (الْمُسلُمانيّة Müslümanlık) محاولةٌ يائسةٌ لا طائلَ تَحْتَهَا. ذلك أنَّ المسلمانيَّةَ بطقوسِها ومناسِكِها الخاصَّةِ وصبغتِها المحلِّيَّةِ (كرمزٍ للقوميَّةِ التركِيَّةِ)، أصبحتْ بِناءً عملاقًا تغذَّت من الفكرِ الصوفِيّ على مدى ألفِ سنةٍ، وتعتمدُ اليومَ على عددٍ من التيَّارات الصوفِيَّةِ وآخرها الطريقةُ النقشبندِيَّةُ، وبالأحرى؛ فإنَّ المسلمانِيَّةَ تتجسَّدُ اليومَ في الدِّينِ النقشبندِيّ الذي يستحيلُ أن يتخلّى عنها الأتراك، ويعتنقوا الإسلامَ الذي يَرْقُدُ بين دَفَّتَيِ القرآنِ وفي بطونِ أمهات كتب السنة.

النقطةُ الرَّابِعَةُ: هي تَتْرِيكُ الإسْلاَمِ، وهي من أهم أهدافِ الطريقة النقشبندِيَّةِ ومِنْ أخطرِ دَسَائِسِهَا الْكُفْرِيَّةِ. لأنَّ هذه المحاولةَ فيها تجزئةٌ لِلأُمَّةِ إلى جبهةٍ تركيةٍ تُمَثِّلُهَا الديانة (الْمُسْلُمَانِيَّةُ Müslümanlık) والمذهبُ (الحنفانِيُّ Hanafism) في ظاهرها، وَتُعَضِّدُهَا الطريقةُ النقشبنديَّةُ من باطنها؛ وإلى جبهةٍ عربِيَّةٍ تمثِّلُها (الإسلامُ) الذي يحدِّدُهُ القرآن والسُّنَّةُ.

إنَّ النقشبنديّينَ مهما تخزلقوا في دفاعهم: "أنَّ مُعْتَقَدَ سَادَتِهِمْ هو معتقدُ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ، ومَبْنَى طريقِهم على حفظِ أحكامِ الشريعةِ المطهَّرَةِ..." كما يزعمه محمدُ بْنُ عبدِ اللهِ الخانِيّ،[96] لكنهم يكذِّبونَ أنفسَهُمْ بما حشدوا في بطونِ كُتُبِهِمْ من أباطيلِ الْفُرْسِ والهنود،[97] وقد زادَ عليها معاصروهم ما يبرهن على محاولتهم لتتريك الإسلامِ، بحيث يستحيل حَصْرُهُ من أنماطِ الأكاذيبِ والتحريفِ

[96] محمد بن عبد الله الخاني، البهجة السنية في آداب الطريقة النقشبندية، ص/3. المطبعة الميمنية، مصر، بلا تاريخ.

[97] هذه جملةٌ من كتبهم التي تشهد عليهم، يبذلون جهودَهم في طبعها ونشرها علنًا، ويوزّعون بعضها مجّانًا للدعاية:

- السعادة الأبدية بما جاء به النقشبندية (عربي العبارة)، من تأليف: عبد المجيد بن محمد الخاني، Hakikat Kitabevi, İstanbul-1992
- Saadet-i Ebediyye (تركي العبارة)، من تأليف: حسين حلمي إيشك، Hakikat Kitabevi, İstanbul-1999
- بُغْيَةُ الواجد، (عربي العبارة)، من تأليف: محمد أسعد صاحب، مطبعة الترقّي، دمشق– **1334**هـ.
- علماء المسلمين والوهابية، مجموعة كُتُب (عربي العبارة)، جمعها: حسين حلمي إيشك، مكتبة إيشيق، إسطنبول–**1392**هـ.
- البهجة السنية في آداب الطريقة النقشبندية، (عربي العبارة)، من تأليف: محمد بن عبد الله الخاني، المطبعة الميمنية، مصر، بلا تاريخ.
- روح الفرقان، تفسير إشاري لجماعة تشرشنبه، (تركي العبارة)، مكتبة سِراج، إسطنبول–**1991**م.
- Rabıta ve Tevessül، (تركي العبارة)، من تأليف جماعة من النقشبنديين، Umran Yayınları, İstanbul-1994

والتخريف والتأويل... أقلُّها تَرَحُّمُهُمْ على أحدِ قدمائِهم في عهدهم الوثني اسمه: (أوغوز خان Oğuz Han).

ورد ذلك في كتابٍ للنقشبنديّين العنصريّين من تأليف شيخهم حسين حلمي إيشيك (**1911–2001**م.)، (عنوانه: السعادة الأبدية،[98] في طبعته السابعة والسبعين) وهو يشرح ترجمةَ أوغوز خان، يقول بالحرف الواحد: " أُوغُوزْ خَان رحمةُ اللهِ تعالى عليه: إنَّ الأتراكَ قديمًا كانو منقسمين إلى تُرْكِ الشرقِ وتُرْكِ الغرب، فَالشَّرْقِيُّونَ منهم كانوا خَمْسَ قبائلَ، والْغَرْبِيُّون كانوا خَمْسَ عَشْرَةَ قَبِيلَةً. كانتْ قبيلةُ أُويْغُورْ مِنْ أتراكِ المنطقةِ الشرقيَّةِ، أمَّا قبيلةُ أُوغُوزْ وَالْكِرْجِيز، فَإِنَّهُمَا كانَتَا مِنْ قبائلِ المنطقةِ الْغَرْبِيَّةِ. كانوا قد انتشروا في أنحاءِ الهندِ وإيران والعراقِ منذ خمسةِ آلافِ سنةٍ قبل الهجرة النبويةِ." وهذا كذب محضٌ لا أساسَ له من الصحةِ، ولا يملك أحدٌ أقلَّ دليل على ذلك. وإنما تَفَوَّهَ بهذا الباطِلِ لِيُمَوِّهَ أنَّ الأتراكَ كانوا مسلمين قبل قرونٍ من ظهورِ الإسلامِ! وهذا لا شكَّ لعبةٌ صبيانيَّةٌ لا يكادُ أحدٌ يُصَدِّقُها، لكنَّهَا في الحقيقةِ تُضْمِرُ في مطاويها أنَّ الأتراكَ كانوا ولا يزالون في غِنى عن العربِ ودينهم، وفي ذلك همساتٌ شيطانية تدعو إلى فتنةٍ خفِيَّةٍ وإرهاصاتٍ تهدِّدُ بها الطريقةُ النقشبندِيةُ كيانَ الأمة المحمّدِيَّةِ.

***

10) الْعِلْمَانِيَّةُ Laicisme:

العلمانيةُ: مصطلحٌ غَرِيبٌ فِيهِ غموضٌ يحتمِلُ مَعَانِيَ اجْتماعيَّةٍ وسياسيَّةٍ وفلسفِيَّةٍ في الخطابِ التحليلِيّ، لَكِنَّهُ مَا يَزَالُ غَيْرَ مُحَدَّدِ الْمَعَالِمِ وَالأبْعَادِ لِكثرةِ ما دَارَ ولاَ يزالُ يدورُ حولَهُ من النقاشِ وما حَدَثَ من الجِدَالِ الحادِّ في تفسيرِهِ بين مختلفِ طبقاتِ المثقَّفِين من رجالِ السياسةِ والعلمِ والدِّينِ، وما أثارتْ من استجاباتٍ متضارِبَةٍ ومتناقضة...

[98] وهذا نصُّ كَلاَمِهِ باللُّغَة التُّرْكِيَّة:

«Oguz Han rahmetullahi Teala aleyh: Eski Turkler, sark ve garb turkleri diye ikiye ayrilmisdi. Sark turkleri bes, garb turkleri onbes kabile idi. Uygurlar sark, Oguz ve Kirgizlar da garb turklerinden idi. Hicretden besbin sene önce Hind Iran ve Iraka yayilmislardi.» Huseyin Hilmi Isik, Tam Ilmihal, Hakikat Kitabevi, 79. Publishing, page: 1157. Istanbul/1999.

وأما الضبطُ اللُّغَويُّ لهذهِ الكلمةِ من حيثَ الإشتقاقُ، فهي: "العِلْمَانِيَّةُ" (بِكَسْرِ الْعَيْنِ) نِسْبَةً إلَى الْعِلْمِ، بمعنى أنَّ الحياةَ في جميعِ أنحاءِ الكونِ، كذلك نشاطاتِ الإنسانِ في جميع مجالات المعيشة دائرةٌ في حدودِ الْعِلْمِ الْمَعْقُولِ الذي يعتمِدُ على المنطقِ البَشَرِيّ والحواسّ الخمسِ فحسبُ. وأمَّا من حيث المفهومُ الأصليُّ، فهي: "العَلْمَانِيَّةُ" (بِفَتْحِ الْعَيْنِ وسكونِ اللاَّمِ) نِسْبَةً إِلِى "الْعَلْمِ" بِمَعْنَى "الْعَالَمِ" فَيُوحِي ذلك: أنَّ هذا المشهدَ من الحياةِ كُلِّهَا يُلزِمُ الإنسانَ أنْ لا يعتقِدَ بغيرِهِ، وأنَّ الظَّوَاهِرَ من الأَحْدَاثِ كُلِّهَا مُرْتَبِطةٌ بالزَّمَانِ وَبِالدُّنْيَا، ولا علاقةَ لها بأيَّةِ مَاوَرَائِيَّاتٍ جاءَ به الدِّينُ؛ كالمعجزةِ والسحْرِ، وكحياةِ الآخرة، والحسابِ والجزاءِ...

نعم، العِلْمَانِيَّةُ مصطلحٌ غريبٌ على اللُّغةِ العربية، غريبٌ في صيغتِهِ، غيرُ واضحٍ في مدلولِهِ. نشأت هذه الغرابةُ أولاً مِنْ ترجمةٍ ماكرةٍ تَعَمَّدَهَا مَنْ نَقَلَ كَلِمَةَ (secularism) من الإنجليزية أو مَنْ نَقَلَ كَلِمَةَ (laicité) من الفرنسية إلى اللغة العربية في مُقَابَلَةِ "العِلْمَانِيَّةِ" ذلك أنَّ هذه الْكَلِمَةَ لاَ صلةَ لها بمفهوم (الْعِلْمِ) على الإطلاقِ. بل كلمةُ الْعِلمِ في اللغةِ الإنجليزية والفرنسية معناها: (Science)، والمذهب العلمِيُّ يُطلَقُ عليهِ مُصْطَلَحُ (Scientism)، أمَّا الترجمةُ الصحيحةُ لكلمةِ (Secularism) فهي: "اللاَّدِينِيَّةُ" أو "الدُّنْيَوِيَّةُ" ولاَ تعني "الْعِلْمَانِيَّةَ بوجهٍ من الوجوهِ. هكذا حاول المستشرقون إخفاءَ حقيقةِ هذه الفكرةِ حتى لاَ تواجِهَ ردودَ فعلِ الإنسانِ العربِيّ فتتسرَّبُ إلى النفوسِ بسهولةٍ وتنالَ القبولَ في المجتمعاتِ العربية والإسلاميةِ.

كان هذا الغموضُ اللغوِيُّ فرصةً للدَّجَلِ على الناس، يُقَدِّمُهَا أنصارُهَا على أنَّها تعني: الاعتمادَ على الْعِلم، وأنّهم إنَّما يريدون: أنْ تعتمدَ الحياةُ في مُقَوِّمَاتِهَا على أسُسِ العلم الصحيح. وهذا مقصودٌ ومحضُ ذريعةٍ يتشبثون بها لِتَبْقَى أهدافُهم مختفيَةً وراءَ لفظِ العلمِ.. ومِنْ مَكْرِ الغربيّين؛ أنَّ تَعْرِيفاتِهِمْ لِمفهومِ "العلمانيةِ، كُلُّها تصبُّ في معنًى واحدٍ؛ تتمثَّلُ في قولهم: "الْعِلْمَانِيَّةُ تعني: فَصْلَ الدِّين عَنِ الدَّوْلَةِ." وهذا أكثرُ التعريفاتِ شيوعًا للعلمانيةِ، سواء في الغرب أو في الشرق.

هذا، وثَمَّ نَظْرَتَانِ في الوقوفِ من العلمانية؛ نظرةٌ ترى أنْ تكونَ المؤسَّسةُ الدينيَّةُ مفصولةً عن الدولةِ ولكنَّ الفردَ يكونُ حرًّا في ممارسَةِ مناسِكِهِ ويبقَى مفهومُ الدِّينِ محصورًا في حدودِ الضمير والوجدانِ. وأما النَّظْرَةُ الثانيَةُ: فإنَّها لا تعني فصلَ الدين عن الدولةِ وحسب، وإنما ترى عَزْلَ كلّ القِيَم الدينيَّة عن الدولة، كذلك عن نشاطاتِ الإنسانِ وتفكيرِهِ وتَصَرُّفَاتِهِ، بحيث تُنْزَعُ القَداسَةُ عن جميعِ مجالاتِ الْحياةِ.

نشأت العلمانيةُ أصلاً كنتيجةٍ للطغيانِ الكنسِيّ، إثْرَ صراعٍ مريرٍ جرى قرونًا من الزمن بين رجال الدين وبين جماهير الناسِ على الساحة الأوربية. لقد كانتْ سُلطةُ الكنيسةِ في القرونِ الوُسْطَى فوقَ سُلطةِ الأباطِرَةِ والملوكِ، وكان رجالُ الدِّين يملكونَ فرضَ عقوباتٍ صارمةٍ على أي إنسانٍ مهما كان مَنْصِبُهُ ومكانتُهُ السياسيَّةُ والاجتماعيَّةُ، فتحوَّلوا إلى طواغيتَ يسومون الناسَ سوءَ العذابِ؛ كانوا يبيعون المناصبَ والوظائفَ كالسِّلَعِ، ويُؤَجِّرُونَ أرضَ الجنَّةِ بالوثائقِ والصكُوكِ، وَتَذَاكِرِ الغُفْرَانِ، وكانوا يَتَمَتَّعُونَ بأموالٍ وثرواتٍ طائلةٍ وَيَتَقَلَّبُونَ في ألوانٍ من النَّعيم......

ولما سَئِمَ المجتمعاتُ الأوربيَّةُ من قهرِ الكنيسةِ بعد أنْ ناهضتْ العلمَ، وأفضَى طغيانُها إلى تعذيبِ العلماءِ وقتلِهِمْ وانتهى الأمرُ إلى نِزَاعٍ شديد بينها وبين الملوكِ واحتَدَمَ الخِصَامُ بين الطرفين، أسفر غضبُ المجتمعاتِ الأوربية في وجه الكنيسةِ عن ظهورِ فكرةٍ أسْمَوْهَا :الْعِلْمَانِيَّةَ" لكنَّها تمثَّلَتْ في ردِّ فعلٍ خاطِئٍ لدينٍ مُحَرَّفٍ، فجاءت الثمرةُ خبيثةً وهي "اللاَّدِينِيَّةُ" التي يُحاوِلُ المدافعون لهذه الفكرةِ بقولِهِم: إنَّ العلمانيَّة لا تعني "اللاَّدِينِيَّةَ، وإنَّما هي حيادٌ تامٌّ حيالَ الدِّين والتَّدَيُّنِ" وهي في حقيقتِها مقولةٌ ماكرةٌ يرفُضُهَا العقلُ والْعِلْمُ بالبراهينِ القاطعةِ:

أولاً: ترفضُ العلمانيَّةُ وجودَ خالقٍ للكونِ، وقد أثبتَ العِلْمُ والْعَقْلُ: انَّهُ لا شيءَ يحدُثُ فى الكونِ من قبيلِ الصدْفَةِ أو خَارِجَ القوانينِ الْكونيَّةِ. كلُّ فعلٍ له رَدُّ فعلٍ أو عَاقِبَةٌ، كما نزرعُ ثم نحصدُ، فلاَبُدَّ إذَنْ من وجودِ خَالِقٍ وصانعٍ لِلعالَمِ: ذِي حياةٍ، وسميعٍ، وبصيرٍ؛ يحيطُ كُلَّ شيءٍ بِعِلْمِهِ، وقديرٍ على كل شيءٍ...

ثانيًا: الإلحادُ العلمانيُّ جرأةٌ جنونيَّةٌ يرفُضُها الْعِلْمُ والعقلُ؛ ذلك أنَّ التباحُثَ والتساؤُلَ عن وجودِ صانعِ الكونِ وخالقِهِ ومُدَبِّرِهِ أصْلاً لغوٌ وباطلٌ، فالكونُ كُلُّهُ بِذَرَّاتِه وأجرامِهِ وأحداثِهِ أدلَّةٌ واضحةٌ بَيِّنَةٌ يلمِسُها الإنسانُ وَيَتَدَبَّرُهَا وَيَتَعَقَّلُهَا بفِطرتِهِ السليمةِ، ويهتدي بذلك إلى أنَّ لِهذا العَالَمِ مُبْدِعٌ. وإنما التباحثُ والتساؤل عن وجودِ الخالِقِ ضربٌ من الحماقة، يُحَيِّرُ العقلَ ويُرْبِكُهُ كما لو سألَ سائلٌ بقوله: "ما اسْمِي؟ هَلْ أنَا زيدٌ أو عمرٌ أو بكرٌ؟.."

ثالثًا: ترفضُ العلمانيَّةُ أن يَتَدَخَّلَ الدِّينُ في شؤونِ الحياةِ والسياسةِ بخاصَّةٍ، بينما الأدِلَّةُ العلميَّةُ على كثرتِهَا تُبَرْهِنُ على أنَّ الدِّينَ هو المصدرُ الأولُ الذي انبثقتْ منه قوانينُ الحياةِ، كَوْنِيَّةً كانتْ أو

تَشْرِيعِيَّةً؛ فالكون كُلُّهُ إبداعٌ إلَهِيٌّ مُعْجِزٌ، يستحيلُ على العقلِ أن يُدرِكَ أسرارَهُ إلاَّ بِقَدْرِ مَا قد يَسْتَكْشِفُهُ بالأسبابِ، لِيَقِفَ عند حدِّهِ، أما الْعِلْمَانِيُّ، فإنَّه يتمرَّدُ على السدودِ العملاقةِ التي تمنعُهُ عن أكثرِ ما اسْتَكْشَفَهُ بالأسبابِ، فيحاولُ اقتحامَهُ عبثًا مهما بلغ علمُهُ وقدرتُهُ، فيعودُ يُلحِدُ بالحقِّ الذي لا مِرْيَةَ فيه لِيُنَفِّسَ بذلك عن كَبْتِهِ وَعَجْزِهِ وخيبتِهِ فَحَسْبُ. كذلك تشريعُ الدِّينِ قَوَانِينَهُ التي تشمَلُ جميعَ مجالاتِ الحياةِ، كانتْ إذ لَمْ تكنْ العلمانيَّةُ شيئًا مذكورًا؛ فاضطرَّتْ العلمانيَّةُ أنْ تستقِيَ مُعظمَ قوانِينِهِ من مصادرِ الدِّينِ، وهي عَالَةٌ عليه إلى اليوم. والبراهينُ كثيرةٌ على ذلك. منها: أن زواجَ المحارمِ ممنوعٌ في البلادِ العلمانيَّةِ وقد حرَّمَهُ الدين منذ قرونٍ سحيقة، فلاَ يُسْمَحُ في البلادِ العلمانيَّةِ مثلاً أنْ يَتَزَوَّجَ الرجلُ بِأمِّهِ أو بِنْتِهِ أو أُخْتِهِ، وإنِ ادَّعَوْا أن هذا التحريمَ إنّما جَرَى تشريعُهُ تماشيًا مع الأعرافِ وتفاديًا لما قد ينجم عن ذلك من ردودِ فعل العامَّةِ.

ومن أدلّةِ سَبْقِ الدِّينِ العلمانيةَ في الرسوخ والقدم: أنَّ لِلدِّينِ هيمةٌ بالغةٌ على عقولِ أكثرِ الرعايا للبلادِ العلمانيَّةِ، وعلى ضمائرِهِمْ وعواطِفِهِمْ، تظهرُ ذلك من خلالِ تصرُّفاتِهِمْ السياسِيَّةِ والأجتماعيَّةِ.. على سبيلِ المثال: لم توافقْ الإتحادُ الأوربِيُّ على عضويَّةِ الدولةِ التركيَّةِ برغم عَلْمَنَتِهَا، ذلك لأنَّ رعايا هذه الدولةِ ليسوا مسيحيّين، بل ينتمون إلى الْمُسْلُمَانِيَّةِ، وإن كانت مُشَوَّهَةً، لكنَّهَا تتميز بملامحِ من الإسلام. لذلك لايزال الإتحادُ يماطلُ في قبولِهَا وهي تتملَّقُ وتَتَزَلَّفُ له منذ نصفِ قرنٍ، وإنما يرفضُها الإتحادُ الأوروبِيُّ من منطلقِ العاطفة الصليبية ليس إلاَّ. وهذا يبرهن على أن العلمانيَّةَ كثيرًا مّا تُتَّخَذُ وسِيلَةً لاحْتِكَارِ الدِّين. كالعلمانيةِ التُّرْكِيَّةِ بالضبط. ذلك أنَّ قِمَّةَ الدولةَّ التركيةِ تدَّعِي بأنَّ النظامَها قائمٌ على أساسِ العلمانيةِ، بل نظامُها قائمٌ على العقيدةِ "الأتاتوركيةِ" وهِيَّ في صميمها ديانةٌ مُسْتَحْدَثَةٌ في ثوبِ إيديولوجية غريبة يصعب تعريفها.

ظهرت بوادِرُ العلمانيةِ في سياسةِ الدولةِ العثمانيةِ مع ظهورِ أماراتِ التداعِي في بِنْيَتِهَا أيام السلطان عبد المجيد بن السلطان محمود الثاني تحت سمةِ التحديثِ والإصلاحات. بدأ تطبيق العلمانية مع الإعلانِ عن الرسم الملكي المعروف ب" فرمان التنظيمات" في قصر الزهور (گُلْخَانَهْ) يومَ الثالث من تشرين الثاني (نوفمبر) سنةَ **1839**م. دعا السلطان عبد المجيد وُجَهَاءَ القومِ وارباَبَ الحكمِ إلى حديقةِ القصرِ حيث قُرِئَ البيانُ الذي كان قد صاغه الصدر الأعظم مصطفى رشيد باشا. كان البيان يَنُصُّ على: أنَّ الدولةَ مسؤولةٌ عن الحفاظِ على حياةِ الرعايَا وكرامتِهِمْ وممتلكاتِهِمْ بغضِّ النظرِ عن معتقداتِهِم الدينية. وتضمنُ الدولةُ طريقةً صحيحةً لتوزيعِ الضرائب وَجِبَايَتِهَا، وتنظيم أمور الجندية مع تحديد أمدِها واجراء المحاكمات عَلَنًا...

كانت هذه الإنطلاقةُ لا شكَ من نتائجِ ضغوط الدُّوَلِ الأوروبيَّةِ على الإمبراطورية العثمانية. كان الغربُ –في تلك المرحلة– يُمْلِي على الحكومةِ العثمانيَّةِ ما يريد، ويحاولُ تضييقَ الخناقِ عليها بذريعةِ توسيعِ الحرِّيَّاتِ، لكنَّهُ في الحقيقةِ كان يُمَهِّدُ السبيلَ لحربٍ شعواءَ يَشُنُّهَا على هذه الدولةِ العملاقةِ التي أصابَتْهَا الشيخوخةُ ونخرتْ العصياناتُ والإنتفاضاتُ جِسْمَهَا، فاستغلَّ أوروبا هذه الفرصةَ لِتَنْقَضَّ عليها وتُقَوِّضَهَا من أساسِهَا وَتُمَزِّقَهَا بضربةٍ قاصمةٍ لا تقومُ لها قائمةٌ بعد ذلك أبدًا. فتحققتْ للغربِ أمنيَّتُهَا بانتهاءِ الحربِ العالميَّةِ الأولى التي تركتْ الدولةَ العثمانيَّةَ رُكَامًا من حُطامٍ نبتتْ على أنقاضِها عِدَّةُ دُوَلٍ قَزَمَةٍ من ضِمْنِهَا تركيا.

لكن الغربَ لم يترك هذه الدولَ سُدًى، بل اسْتَغَلَّها وجعلها أُلعُوبةً يستخدِمها في تحقيقِ أهدافه الصليبيَّةِ بالتعاونِ مع دولةٍ أخرى أقامها في قلب الوطن الإسلامِيّ عام 1948م. (وهي الدولة الصهيونية). وكان من أهمِّ ألاَعِيبِ الغربِ –بعد أن فتك بوحدة الشرق الأوسط وقطَّعها إربًا إربًا، طبقًا لمشروعِ ساكس بيكو Sykes Picot.– كان من أهمِّ ألاغيبه فرضُ العلمانيَّةِ على تُرْكِيَا، ونَصْبُ الطواغيتِ من عُمَلاَئِهِ على كُلِّ دولةٍ عربيَّةٍ أنشأها على أنقاضِ الإمبراطورية العثمانية. فاستغلُّوا الدِّينَ وتلاعبوا بالقِيَمِ الساميةِ. فكانت العلمانيَّةُ التركيَّةُ طَامَّةً كُبْرى يَكِلُّ اللِّسانُ عن وصفِ مساويها، وحارت العقولُ في تعريفِها وتفسيرِها.

تواطأ مصطفى كمال مع حلفائِهِ الغربيِّين على دَحْرِ الإسلامِ عن الساحةِ بعد أن ساهم معهم في هدمِ الدولةِ العثمانيَّةِ ومذبَحَةِ جَنَاقْقَلْعَه الوحشيَّةِ التي لا تزالُ أسرارُها الرهيبةُ خافِيَةً على المجتمعِ التُّرْكِيِّ إلى هذه الساعةِ! فلمَّا نجحَ في تأسيسِ الجمهوريَّةِ التُّرْكِيَّةِ بالتعاونِ مع حلفائِهِ الثلاثة (إنجلترا وفرانسا وإيطاليا)، أزالَ من الدُّستورِ المادَّةَ التي كانتْ تَنُصُّ على أنَّ "دينَ الدولةِ هو الإسلامُ" وذلك في سنةِ 1924م. لقد كان المجالُ فسيحًا أمامَ الرجلِ يتصرّفُ كيفَ يشاءُ لأنّهُ كان قد أزالَ أكبرَ عَقَبَةٍ تَعْتَرِضُهُ لو دامتْ، وهي الطبقةُ المثقَّفَةُ التي ساقها إلى جبهة القتالِ في غاليبولو Gelibolu فقضى عليها الجيشُ البريطانِيِّ عن بكرةِ أبيها. ويُقَدَّرُ الضحايا من الجيش التركي بمأتَيْنِ وخمسينَ ألفَ قتيلٍ على ضفافِ قناةِ جَنَاقْقَلْعَه، كان فيهم جماهيرُ طلابُ الثانوية وحتى طُلاَّبُ كُلِّيَّاتِ الطِّبِّ!.

هكذا خَلَتِ الساحةُ لمصطفى كمال، فتمكَّنَ من تنفيذ "إصلاحَاتِهِ!" التي كان من ضمنِها فرضُ العلمانيَّةِ على حين لم يكن ثَمَّ مَنْ يفهمُ شيئًا عن هذه المفاجأةِ لضُمُورٍ كان قد شَلَّ الوعيَ الشعبِيَّ، كما كان الشعورُ بحقيقةِ الإسلامِ ولا يزال مضمحلاًّ في المجتمع التركي. فما لَبِثَتِ العلمانيَّةُ حتى تَحَوَّلَتْ إلى دين غريبٍ تحت سِمَة "الأَتَاتُورْكِيَّةِ" فَوْرَ موتِ مصطفى كمال. ساهم في اختلاقِ هذا الدين الزائفِ شرذمةٌ من المفتتنين به، وربما كانوا ينافقونه في حياته لِمُجَرَّدِ كسبِ الْمَصَالِحِ، فلمَّا مات الرجلُ استغلُّوا شهرتَهُ للحفاظِ على مكانتِهِمْ، واستمرُّوا في لَعْبِهِمْ بالعقولِ، فَسَاعَدَتْهُمْ ظروفُ العصرِ وقد تاهَ الشعبُ يومئذٍ في سباتٍ عميقٍ، وغطَّ في ظلماتٍ من الجهلِ، فَعَمَّتْ الفوضَى مُجْمَلَ تعاليمِ الدِّينِ والأفكارِ والآراءِ، وانقلبَ كُلُّ شيءٍ رأسًا على عقب؛ فغابتْ القِيَمُ الإنسانيَّةُ، وأهلكتْ العَبْثِيَّةُ كُلَّ النوايا الحسنةِ، واختفتِ الثقةُ، وَقَسَتْ القلوبُ، وزالتْ الرحمةُ، فاستشاطتْ الناشئةٌ عَصَبِيَّةً نكراءَ، فكان من تبعاتِهَا الفسادُ، والقهرُ الرأسماليُّ، والدولةُ العميقةُ، والإنقلاباتُ العسكريَّةُ، والصراعاتُ السياسيَّةُ، وظُهُورُ تنظيماتٍ سريةٍ وعصاباتٍ إرهابيَّةٍ مختلفةِ الإتِّجاهاتِ، كانت أشدَّها شراسةً وتدميرًا: العصاباتُ العرقِيَّةُ.

***

11) العصبيَّةُ القوميةُ والعرقيَّةُ:

كلمةُ العصبيّةِ لها تعريفاتٌ ومعانٍ، أكثرُها شُيوعًا: أنْ يدْعُوَ الرجلُ إلى نُصرةِ عَصَبَتِهِ، ويتواطأَ معهم على مَنْ يُناوِئُهُمْ، ظالمين كانوا أو مظلومين.. وَبِتَعْرِيفٍ أخرَ: أنْ ينتصرَ المرءُ لشخصٍ من عشيرتهِ أو لِجَمَاعةٍ تجمعُ بينهم رابطةُ الدَّمِ أو رابطةُ الْحِلْفِ أو الوَلاَءِ، وإنْ كانُوا على باطلٍ، يرى المرءُ المتعصّبُ دائمًا شِرارَ قومِهِ خيرًا من خِيَارِ قومٍ آخرين. ومنه يقال: تَعَصَّبُوا عليهم إذا تَجَمَّعُوا، فإذا تَجَمَّعُوا عَلَى فريقٍ آخرَ قِيلَ: تَعَصَّبُوا..

إن العصبيَّةَ القوميَّةَ مرفوضةٌ ومُحَرَّمَةٌ في الإسلامِ؛ تعتمدُ الرابطةُ بين المسلمين على أساسِ الأُخُوَّةِ الإيمانيَّةِ فحسب، تَنُصُّ على هذهِ القاعدةِ العالميةِ العظيمةِ تعاليمُ الدِّينِ الحنيفِ. قال تعالى: "إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ. (الحجرات/10) ومن هذا الْمُنْطَلَقِ لا يجوز تفضيلُ طائفةٍ على بقيَّةِ الطوائِفِ، ولا الموالاةُ لجماعةٍ دون أُخْرَى، ولا الإنتصارُ لفريقٍ على غيرِهِ على أساسِ القوميَّةِ والطائفيَّةِ والقبليَّةِ والمذهبِيَّةِ. بل يجبُ الإنتصارُ لشخصٍ أو قومٍ على أساسِ العدالةِ إذا كانوا على الحقِّ، في مواجهة شخصٍ أو قومٍ وهم على غير هدًى.

والفرقُ بين صاحبِ الحقِّ وصاهبِ الْهَوَى يظهرُ لك: إذا نبَّهْتَهُ على خَطَئِهِ فِي الاستدلالِ والاحتجاجِ، اسْتَقْبَلَ ذلك فِي هدوءٍ وموافقةٍ وارتياحٍ، فهذا لا شكَّ على بصيرةٍ من الحقِّ والإستقامةِ. وأَمَّا إذا نازعكَ وأبَى إلاَّ أنَّهُ على حقٍّ وصاحبُهُ على باطلٍ فهو صاحبُ هَوًى. والله تعالى ينصح عامةَ المؤمنين أن يُصلِحوا بين إخوتِهم إذا اقتتلَ فريقان منهم، فقال تعالى: "وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُون." (الحجرات/**9**، **10**)

وثمة آياتٌ فِي كتابِ اللهِ تدلُّ على أن رابطةَ المسلمِ هو الإيمانُ وَالإسلامُ، وليستْ الدَّمَ ولاَ اللُّغَةَ ولاَ الْعُرْفَ ولا غيرَ هذِهِ المفاهيمِ. من هذه الآيات قولُهُ تعالى: "لاَ تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ، أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ، وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا، رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ، أُولَئِكَ حِزْبُ اللهِ، أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ." (المجادلة/**22**) وقولُهُ تعالى: "وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ، يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ، أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ، إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ" (التوبة/**71**) وقولُهُ تعالى "قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ: إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ، كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ." (الممتحنة/**4**). ومن الأحاديث النبوية ما رواه البخاريُّ عن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله رضي الله عنهما. قَالَ: كُنَّا فِي غَزَاةٍ، فَكَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ! فقَالَ الأَنْصَارِيُّ: يَا لَلأَنصار! وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ: يَا لَلْمُهَاجِرِينَ! فَسَمِعَ ذَاكَ رَسُولُ الله ﷺ، فقَالَ: «مَا بَالُ دَعْوَى جَاهِلِيَّةٍ؟» قَالُوا: يَا رَسُولَ الله! كَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلاً مِنَ الأَنصَارِ. فَقَالَ: «دَعُوهَا، فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ»"

إنَّ هذه البراهينَ القاطعةَ من كتابِ الله وسُنَّةِ رسوله صلّى اللهُ عليه وسلم كُلَّها تدلُّ على أن فكرةَ القومية والعرقية والعنصرية تتعارض مع العقيدةِ القرآنيَّةِ وتعاليمِ الشريعةِ الإسلاميَّةِ تمامًا. فالتمييز الْعُنْصُرِيُّ إذنْ أمرٌ محرَّمٌ في الإسلام، كما لا يجوز التوفيق بين القومية والإسلام كرابطةٍ بين المسلمين. إنَّ شريعةَ اللهِ ينضوي تحتَها كُلُّ قومٍ وجنسٍ من المسلمين مهما اختلفتْ أعراقُهم وأعرافُهم ولغاتُهم

وألوانُهم، فهم أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ لقوله تعالى: "إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ. (الأنبياء/**92**)

إنَّ العصبيةَ القوميَّةَ لم تكُنْ مما يُلْفِتُ الإنتباهَ في المجتمعاتِ الإسلامِية على مدى قرونٍ، وإنما بدأ الشعورُ بِهَا في نهاية القرنِ الثامن عشر على أثر التطورات التي تعاقبتْ الثورةَ الصناعِيَّةَ في أوروبا، فكان من تَبِعَاتِهَا: أنَّ الإنسانَ في جميعِ أنحاءِ العالَمِ نشأ في نفسهِ تعلُّقٌ شديدٌ بقومِهِ تعلقًا لم يكن مألوفًا ولا معهودًا من ذي قبل، فاستشاطَ نزوعًا إلى تبجيلِهِ بصفاتٍ رفيعة خياليةٍ كما جاءَ في مقولةٍ للزعيم التركي مصطفى كمال، يقول: "الْمَرْءُ التُّرْكِيُّ يَعْدِلُ الْعَالَمَ كُلَّهُ.[99]" يعني: إنَّ أيَّ شخصٍ من الأتراك أشرفُ وأكرمُ من أبناءِ البشرية جَمْعَاءَ. إنَّ هذه النظرةَ السقيمةَ للإنسانِ العنصرِيّ الذي تلوَّثَتْ بِهَا عاطفتُهُ في تبجيلِ عُنْصُرِهِ وتقديسِ قومِهِ إلى هذه الدرجةِ من الغُلُوّ والفسادِ، تُوحِي في الوقتِ ذاتِهِ أنَّهُ ينظرُ إلى بقيَّةِ الناسِ بعينِ الإحتقار، بل يراهم جميعًا على مستوى الْحَشَرَاتِ. وقد تَبْلُغُ الكراهيةُ في نفسِ الإنسانِ العنصرِيّ إلى حدٍّ يَوَدُّ لو يهلكُ كُلُّ مَنْ ليس من قومِهِ وتَضْمَحِلُّ الشعوبُ جميعًا لِيَسُودَ قومُه فحسب، "لأنَّ الكونَ قد خُلِقَ ليكونَ مُسَخَّرًا لِقومِهِ." (على حدِّ رأيه).

تُحاولُ كَثْرَةٌ من العنصريّين إخفاءَ بَشاعةِ العصبيَّةِ القوميَّةِ تحت ستار "الوطنيَّةِ" وقد أصبحتْ من الْمُسَلَّمَاتِ الواقعيَّةِ التي لا بُدَّ مِنْهَا، لذا نشأتْ من هذا النفاقِ إشكاليَّةُ صُعُوبَةِ التَّخَلّي عنها، حتى أثارَ الماكرون إصباغ الشرعية عليها من خلال الافتراء على النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمقولةٍ موضوعةٍ مُنْكَرَةٍ لا أصلَ لها، كقولِهِمْ "حُبُّ الْوَطَنِ من الإيمان"

ولا شكَّ في أنَّ هذه النظرةَ مناقضةٌ للطبيعة، وتتعارضُ مع القِيَمِ الإسلاميَّةِ. إذ جعل الله جميع الناسِ سواسيةً في المسؤوليةِ (بشروطها)، ولم يجعل لأحدٍ فضلا على آخر إلاَّ بالتقوى. يبرهن على هذه الحقيقةِ قولُهُ تعالى: "يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ. (الحجرات/**13**) من المعجزاتِ الإلهيَّةِ وآياتِ اللهِ الباهرةِ أنَّ البديعَ العظيمَ خلقَ البشرَ مختلفين في طبائِعِهم، وميولِهِمْ، وأخلاقِهِمْ، والوَانِهِمْ، ولُغَاتِهِمْ... قال تعالى: "وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ. (المائدة/**48**) وقال تعالى: "وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ

[99] Bir Türk dünyaya bedeldir.

رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِين."[100] وقال تعالى: "وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ...[101]

هذه الآياتُ المقدسةُ تُبيِّنُ لنا أنَّ العصبيَّةَ القوميَّة والتمييزَ العنصرِيَّ ليستْ من العدالةِ ولاَ من الحكمةِ في شيءٍ. بل إنها نزْعةٌ مَرَضِيَّةٌ، وَمَوْقِفٌ عُنْجُهِيٌّ ظَالِمٌ، وغَطْرَسَةٌ تَرْفُضُهَا الفطرةُ وسائرُ الأديانِ فضلاً عن الإسلامِ والعلمِ والعقلِ السليمِ والقلبِ الطاهر...

كثيرًا مَّا يَتَسَتَّرُ الْعُنْصُرِيُّون بِوشاحِ "حُبِّ الوطنِ" تحت شعارِ "الوطنيَّةِ"[102] لإخْفاءِ مَا يُضْمِرُون من العصبيَّةِ وإكراهِ بقيَّةِ الطوائفِ. لا شكَّ في إنَّ هذه اللَّفظةَ مُسْتَحْدَثَةٌ دخيلةٌ، لا تَمُتُّ بِصِلَةٍ إلى الإسلامِ، اسْتَحْدَثَهَا الْمَارِقُونَ –المتبعثرون في صفوف الأمة– تَشَبُّهًا بالكفارِ، وتشبُّثًا بِعَقَائِدِهِمْ وعَادَاتِهِمْ، وهي من أسبابِ الإختلافِ والإنشقاقِ والإضرارِ بوحدةِ أمَّةِ الإسلامِ وتقسِيمِهَا إلى قومِيَّاتٍ وأجناسٍ تتصارع فيما بينها.

وأمَّا مسألةُ "حُبِّ الوطنِ" والدفاعِ عنهُ، من وُجْهَةِ نظرِ الإسلامِ: فإنَّ المسلمَ مُطَالَبٌ بِحُبِّ بلادِ المسلمين جميعِها، والدفاعِ عنها، (دون أيِّ تفريق بينها، ودون تفضيلِ بعضِها على بعضٍ، وبشرطِ أن تكون تلك البلادُ خاضعةً لحكمٍ إسلامِيٍّ صحيح) سواء كان موطنُهُ الذي وُلِدَ فيه جزءًا منها أو لم يكن، ما دام أنها أوطانُ المسلمين. لأنَّ ذلك من مقتضيات الولاء والبراء في الإسلام، ولأنَّ الواجبَ على المسلمِ أن يَعْقِدَ ولاءَهُ وَبَرَاءَهُ مِنْ أجلِ الإسلام فحسبُ، لا من أجل شعارات أخرى. يؤكد على ذلك قولُهُ تعالَى: إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ * وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ. (المائدة/55، 56).

---

[100] هود/118، 119

[101] النحل/93

[102] تقابلُها في اللغة التركية كلمة Milliyetçilik

وَرَدَ في تقريرٍ لِمُنَظَّمَةِ الأُمَمِ الْمُتَّحِدةِ: أنَّ عَشْرةَ دُوَلٍ انتشرتْ فيها الفاشيةُ أكثرَ منها في بقيَّةِ دولِ العالمِ. وهي بالترتيب مِنْ (أشدَّ إلى أخَفَّ في العنصريَّةِ): الولاياتُ المتَّحِدَةُ الأمريكيَّةُ، ثم إسبانيا، ثم جنوب إفريقيا، ثم إسرائيل، ثم رواندا، ثم بريطانيا، ثم أرجنتين، ثم روسيا، ثم المانيا ، ثم النمسا.[103]

من الغريب أنَّنا لا نجدُ أيَّ ذكرٍ للدولةِ التركيَّةِ في هذه القائمةِ! بينما البلدُ يعاني وسطًا مُلْتَهِبًا بأعمالٍ إرهابيَّةٍ في السنواتِ الأخيرة. وإنْ دلَّ هذا المشهدُ الدامِي على حقيقةٍ إنما يدُلُّ على أنَّ تُرْكِيَا وقعتْ في هذا المستنقع الْمُفْعَمِ بالعنفِ نتيجةَ صراعٍ وحروبٍ تجري بين تجمعاتٍ عنصريةٍ تأتي على رأسِها الدولةُ العميقةُ، وهي منظمةٌ سريّةٌ تابعةٌ للحكومات التركية (تقوم بحياكة مؤامراتٍ لِحمايَةِ العُنصرِ التُّرْكِيِّ والحفاظِ على مكانتِهِ الحاكمةِ في تَسْيِيسِ جميعِ الأَقَلِّيَّاتِ الدينيَّةِ والعرقيَّةِ من العربِ والكردِ بخاصَّةٍ، وصهرِها في البوتقة التركية، وَتُؤَجِّجُ الْفِتْنَةَ بِدَعْمِ التنظيم الإرهابي "بي كَ كَ" لأجل استمرارِ القلاقِلِ في المنطقة الكرديةِ لتكون ذريعةً في سحق الأكرادِ، ومعذرةً للحكومة أمامَ الرأي العام العالمي!.)

في الحقيقة –كما يقول الكاتب أحمد خضر الزين– "كانت سياسةُ بعثِ القوميَّاتِ وإثارةِ العصبِيَّاتِ العرقيَّةِ واحدةً من الْخُطَطِ التي اسْتَخْدَمَهَا أعداءُ الدولةِ العثمانيةِ في محاولةِ القضاءِ عليها.[104] ويصدُقُ الكاتبُ عندما يقول " وقد لعبتْ الدوائرُ والجمعيَّاتُ اليهودِيَّةُ دورًا بارزًا في نشرِ فكرةِ القوميَّةِ. (...) فقد سَعَتْ هذه القُوَى إلى إيجادِ وسيلةٍ لِخَلْخَلَةِ هذَا البناءِ الْمُتَمَاسِكِ، ولم تجدْ أفضلَ وأسرعَ من تذكيةِ روحِ القوميَّةِ بين مختلفِ الشعوبِ داخلَ الدولةِ. وكانتِ البدايَةُ بالعُنْصُرِ التُّرْكِيِّ، لذلك راحتْ تلك القُوَى الاستعماريَّةُ تَنْبُشُ الْمَاضِيَ الْبَائِدَ وَتَبْعَثُ الأَفْكَارَ الْجَاهِلِيَّةَ التي أَمَاتَهَا الإِسْلاَمُ فَابتدعوا فكرةَ القوميَّةِ التُّرْكِيَّةِ أو (الْيَنِي تُورَانْ Yeni Turan) أَوْ الطُّورَانِيَّةِ الجديدةِ لِتَتْبَعَهَا القوميَّةُ العربِيَّةُ وغيرُهَا من القوميَّاتِ."[105]

ظهرت بوادرُ العنصريةِ التركيَّةِ في المجتمعِ العثمانِيِّ هكذا بظهورِ جمعيَّةٍ أَسَّسَتْهَا فئةٌ من طلبةِ الطِبِّ كانوا رَهْطًا من شبابِ الأتراك. ولا يخفى على رجال البحثِ والدراسةِ أنَّ الدافعَ من وراءِ هولاءِ

---

[103] تقرير منظمة الأمم المتحدة لبداية عام **2012**

[104] http://www.turkey-post.net/p-149025

[105] المصدر: http://webcache.googleusercontent.com/search?q=cache:MVssN67JB1oJ:www.turkey-post.net/p-149025/+&cd=1&hl=tr&ct=clnk&gl=tr

الأغرَّاءِ كان هو تلك القُوى والجمعيَّاتُ اليهودِيَّةُ التي طرق لها الكاتب أحمد خضر الزين في مقاله. ثم تطورتْ المشكلةُ عبر سلسلةٍ من الْفِتَنِ كانت تُحَرِّكُهَا جمعيةُ الإتحادِ والترقِّي بالتنسيق مع حلفائها الثلاثة (بريطانيا وفرنسا وإيطاليا)، فما لبث حتى سقطت الدولة العثمانية في وسطِ شغبٍ وجوٍّ من الفوضى. لكنَّ المسرحية اسْتمرَّتْ على الوتيرةِ نفسِها في العهدِ الجمهوريِّ وبلغتْ السياسَةُ العنصرِيَّةُ أشدَّ ما يكون بالقهرِ ومحاولَةِ صهرِ العربِ والأكرادِ في بوتقةِ القوميَّةِ التركيَّةِ دامتْ قُرَابَةَ سبعين عامًا. فلمَّا اشتَدَّتْ الممارساتُ الظالمةُ خاصَّةً ضدَّ الأقَلِّيَّتَيْنِ العربِيَّةِ والكردية نهضَ الأكرادُ للدفاعِ عن حقوقِهِمْ، لكنَّهم أخطئوا وجهَ الصوابِ في أسلوبِ الدفاعِ؛ لجأتْ منهم جماعاتٌ إلى مقابَلَةِ العنفِ بالعنفِ، فنشأتْ من بينهم (سنة **1978**م.) عصابةٌ إرهابيةٌ في جنوبِ شرقِ تركيا باسمِ منظَّمَةِ (بي كَ كَ)، أعلنت التمرُّدَ الْمُسَلَّحَ ضِدَّ النظامِ التركي وقد تَمَّ اعتقالُ زعيمِ المنظَّمةِ (عبد الله أوجلان) في عمليةٍ أمنيَّةٍ سرِّيَّةٍ نفَّذَتْها المخابراتُ الأميركية في كينيا شباط /فبراير عام **1999**م. وسَلَّمَتْهَا للسلطاتِ التركية. غير أن القتالَ دائرٌ والحروبَ سِجَالٌ بين الطرفين منذ ثلاثين عامًا راحت ضحيتها أكثرُ مِنْ مأئةِ ألفِ روحٍ بينها أطفالٌ وشيوخٌ ونساءُ وغيرُهم من الأبرياء.

اشتدَّ الصراعُ العنصرِيُّ بين هذا التنظيمِ الإرهابيّ وبين القواتِ المسلحةِ التركية وبلغَ شأوًا بعيدًا من الحدِّ في هذه الأيامِ، أسفرتْ عنه كراهيةٌ بدأتْ تَدُبُّ في نفسِ أيِّ إنسانٍ ضِدَّ كُلِّ عنصرٍ ليسَ من قومِهِ. فالتركِيُّ يبغضُ العَرَبِيَّ والكردِيَّ، والكردِيُّ يبعضُ العَرَبِيَّ وَالتُّرْكِيَّ، وقد حار العربِيُّ في أمرِهِ، لأنه كانَ مهضومًا أصلاً (منذ عام **1920**م.) عندما قُطِعَتْ صِلَتُهُ الِّتي كانتْ تِرْبِطُ بينهُ وبين الوطن الأمِّ والأمَّةِ العربية، وقبل أن تندلعَ كلُّ هذه الحروبِ بين الأكرادِ والأتراك.

ثَمَّ مَصْدَرَانِ خَطِيرَانِ تَتَغَذَّى بِهِمَا العنصريَّةُ التُّرْكِيَّةُ، يكادُ جميعُ الباحثين والعلماءِ قد غفلوا عنهما، وهي الدِّينُ الْمُسْلُمَانِيُّ والطريقةُ النقشبنديَّةُ التي هي الدِعَامَةُ الْكُبْرَى لهذا الدِّينِ الْمُبْتَدَعِ وعِمَادُهُ الذي يقوم عليه. نعم، الْمُسْلُمَانِيَّةُ (Müslümanlık) دينٌ عنصرِيٌّ اخْتَلَقَهُ مجوسُ الفُرْسِ بعد سقوطِ دولتهم على يَدِ الصحابةِ رضوان اللهِ عليهم، فأحدثوا هذا الدين انتقَامًا من الإسلامِ والمسلمين، ثمَّ نَفَخُوهُ في رَوْعِ الأتراكِ الذين زحفوا على الأراضي الإيرانية وحكموها منذ **971** من الميلادِ قرونًا. تأثَّرَ الأتراكُ بهذا الدين إلى حدودٍ بعيدةٍ طِوالَ تلكَ الْحُقْبَةِ التي عَايَشُوا الفرسَ وشاطروهم الحياةَ على مداها وامتصُّوا الكثيرَ من عقائدهم، فجاءَ إسلامُهُمْ مُشَوَّهًا، وسُنِّيَّتُهُمْ مَشُوبَةً بهرطقاتِ المجوسِ وخُرَافَاتِ الصوفِيَّةِ وأباطِيلِهَا. وكان من أثرِ ذلكَ أَنَّهُمْ تَمَايَزُوا بالعنصريةِ التُّرْكِيَّةِ، لأنَّهم وجدوا أنفسَهُمْ في ظلِّ هذا الدين مُسْتَقِلِّينَ عن أمَّةِ الإسلامِ بعقائِدَ لا تَتَّفِقُ وعقيدةِ أهلِ السنَّةِ والجماعةِ

كما لا تتفق مع عقائدِ الشيعة. فبعدتْ الشُّقَّةُ بين الأتراكِ وغيرهم من المسلمين مع الزمانِ خاصّةً بعد أن انتشرتْ الطريقةُ النَّقْشَبَنْدِيَّةُ، والتيَّارُ النُّورْجِيُّ، والأفكارُ الْفَتُّوشِيَّةُ في المجتمعِ التُّرْكِيِّ المعاصرِ الذي يَضُمُّ في الوقتِ ذاتِهِ الأكرادَ والعربَ الأصلِيِّين وأقلياتٍ أخرى. ولا يفوتنا ذكرُ دافعٍ آخرَ كان له أثرٌ كبيرٌ في نشأةِ الشعورِ بالعنصريةِ في نفوسِ الأتراك وتَضَخُّمِهِ مع الزمان؛ ألاَ وهو الخوفُ أو التخوف من ظِلِّ الأجنبِيِّ. يبدو أن هذا الشعورَ بدأ يدبُّ في رَوْعِ الأتراكِ منذُ أيامِ إنهيارِ الدولة العثمانيةِ، عندما تحالفتْ الدولُ الأوربيَّةُ على قِتَالِهِمْ والاستيلاءِ على منطقةِ أناضول، وهي وطنُهُمْ الذي سكنوه منذ ثمانمائة وخمسين عامًا، عادوا يذكرونَ بِدايةِ نزوحِهم من الأراضي الفارسية وانتقالِهم إلى منطقةِ أرْمِينْيَا التي تسمى اليوم "شرقي آناضول" فور انتصارِهم على القوَّاتِ البيزنطيَّةِ في معركةِ مَلاَزْكِرْد عام **1071**م. وقد حالت الساحةُ الإيرانيَّةُ بينهم وبين وطنهم الأم، وأنهم في حصارٍ يمنعهم من الإتصالِ بالبقية من بني جلدتهم في بلادِ ماوراء النهر (منطقةِ تركستان اليوم). فأصابهم ذعرٌ شديدٌ مَلأَ قلوبَهُمْ بكراهيَّةِ مَنْ ليسَ مِنْ عِرْقِهِمْ. فكان للعربِ والكردِ أكبرُ نصيبٍ من هذه الكراهية. ولَمَّا كان العربُ من الأقلِّيَّاتِ الضعيفةِ، تَمَّ صَهْرُهُمْ في البوتقةِ التُّرْكِيَّةِ بسهولةٍ وفي بِضعِ سنين، ولكنَّ الأكرادَ استطاعوا أن يحافظون على شيءٍ من لغتِهِمْ وعاداتِهِمْ، لكثرةِ عددهم، فنهضوا في وجهِ العنصريَّةِ التركيَّةِ في السنين الأخيرةِ، والصراع مستمرٌّ بين الطرفين إلى هذه الساعة.

إنَّ العنصريةَ مرضٌ إجتماعِيٌّ عُضَالٌ، ومصدرٌ لأشتاتٍ من الفسادِ. لم يبتلِ بهذا المرضِ مجتمَعٌ إلاَّ وأنْهَكَهُ بأزماتٍ مُدَمِّرَةٍ تركتْهُ هزيلاً فتكالبتْ عليه الأممُ حتى فتكتْ بأوصالهِ وقضتْ عليه فأصبحَ في خبرَ كانَ. هذا، ومن مساوي العصبية العرقِيَّةِ أنَّ أيَّ دولةٍ ترتكبُ جريمةَ التمييزِ العنصرِيِّ؛ تُفَضِّلُ طائفَةً من رعاياها وتُحاوِلُ قهرَ بقيَّةِ الطوائِفِ منهم، لا يَلْبَثُ حتى يَنْدَلِعُ النزاعُ بين قادتِها ثم يسري ذالك إلى المجتمعِ بأسرِهِ، فينقسمون إلى فئاتٍ متناحرةٍ يذبح بَعْضُهُمْ بعضًا، وقد بدأت تظهرُ بوادرُ فتنةٍ ناشئة من الصراعِ بين العُنْصُرِيَّتَيْنِ التركية والكردية لو انفجرتْ لن تتمكَّنَ الدولةُ التُّرْكِيَّةُ من إخمادِ نيرانِها وهي على وشكِ التفاقم في أرجاءِ الوطن التُّرْكِيِّ يَسْتَحِسُّها كلُّ إنسانٍ خاصَّةً بعد الثورة "الفَتُّوشِيَّةِ" التي قامَ بها العسكريُّون من أتباعِ فتح الله گولن.

إنَّ هذهِ العصابةَ مهما فَشِلَتْ في محاولتها الإنقلابيَّةِ ليلةَ **15** تموز/يوليو **2016**م، إلاَّ أنَّها لن تتخلَّى أبدًا عن إخذِ الثأرِ من "الْمَافْيَا الطَّيُّوشِيَّةِ". رغمَ أنَّ كِلَي الفريقينِ من عنصرٍ واحد يجمعهما الدمُ التركِيُّ! إلاَّ أن القتال بينهما يرتبط مع دافع العنصرية بطريق غير مباشر؛ ذلك إنَّ هذا النزاعَ الدَّمَوِيَّ الذي انْدَلَعَ بين التَجَمُّعَيْنِ من الأتراك (الفتوشية والطيوشية)، أنما مَرَدُّهُ إلى المنافسةِ في قهرِ

الأقلياتِ من الأكرادِ والعربِ؛ ذلك، لَمَّا أقْدَمَتْ حكومةُ (حزبِ العدالةِ والتنميَةِ) على التفاوضِ مع المنشقّين الأكراد، وتراجعتْ قدرًا يسيرًا عن ممارسةِ الضغوط عليهم، (ولا نَنْسَى أنها كانتْ إحدَى جَبْهَتَيِ الصراعِ)، فلم يلبثْ حتى ثار عليها الفريقُ الآخرُ، (أي عصابةُ فتح الله گولن)، فَعَدَّ هذا التراجُعَ من الخيانة، فاندلع بينهما القتالُ، ولا تزالُ الحكومةُ تواصلُ مُلاَحَقتَهَا لِكُلِّ مَنْ تَشُمُّ فيه أدنى رائحةٍ من الفتوشية! وهذا يبرهن (من ناحيةٍ أخرى) على أن نزعةَ العنصريَّةِ قد تختلفُ من شخصٍ لآخر، ومن طائفةٍ لأُخْرَى، فتَتَنَافَسَانِ في ممارسةِ القهرِ على حسبِ اشتدادِ هذه النزعةِ فيهما، فتكون إحداهما أشدَّ عنصريَّةً من صَاحِبَتِهَا، وقد تتحول المنافسةُ بينهما إلى قتالٍ ينتقمُ الله به من الطرفين.

كلُّ هذه الجرائِمُ والأحداثُ الدمويَّةُ والصراعُ على السلطةِ يدلُّ بوضوحٍ على أنَّ كلمةَ (الديمقراطيةِ) التي يلوكُها السياسيون الأتراك حتى من غير مناسبةٍ، لا تمتُّ بصلةٍ إلى مفهومِ الحريةِ في هذا البلد. ولعلَّ مَنْ يتصدَّى للدفاعِ فيقول: "إنَّ النظامَ السياسِيَّ في تركيا يعتمد على انتخاباتٍ حُرَّةٍ، تُعادُ على فتراتٍ متعاقبةٍ وفي مواعيدَ تُحَدَّدُ بموافقةِ أغلبيَّةِ النُّوَّابِ الذين ينتمون إلى أحزابٍ مُتَعَدِّدَةٍ ذواتِ اتجاهات مختلفة. ألاَ يدلُّ هذا على أنَّ النظامَ في الدولةِ التركيَّةِ قائمٌ على مبدأ الحرية!" بلى، ولكنَّ هذه صورةٌ خادِعَةٌ تلوحَ لمن يَتَلَهَّى بها، ويغفل عمَّا يَتَخَفَّى ورائَها، ولا يَتَعَرَّى إلاَّ للباحِثِ الحاذِقِ البصيرِ. وليس هذا مقامُ الخوضِ فها.

***

12) الخِدَاعُ الدِّيمُقْرَاطِيُّ:

الديمقراطيةُ من أكثرِ المصطلحات السياسيَّةِ شيوعًا والأكثرِ غموضًا في الوقتِ ذاتِهِ. وهي لفظةٌ يونانيةُ الأصل بمعنى "سُلْطَةِ الشَّعْب". يزعُمُ مَنْ يعتمدُ هذا التعريفَ "أن الشعبَ في النظامِ الديمقراطِيِّ هو الذي يحكمُ نَفْسَهُ بِنَفْسِهِ، وأنَّها مصدرُ القانونِ الذي تخضعُ له المجتمعُ والدولةُ، وأنَّها تقوم أساسًا على مبدأ سيادة الأمة..." كما يزعم بعضُ الأكاديمِيِّين "أنَّ الديمقراطيةَ التي عرفها المجتمعُ اليونانِيُّ، وعلى الوجه الأخص مدينةُ أثينا، لا تُعَبِّرُ عن الديمقراطيةِ الحقيقيَّةِ بِصورتِها الْحالِيَّةِ. وقد يُرَادُ بهذهِ الصيغةِ أنَّ الاستحالاتِ الْمُتَتَالِيَةَ التي تعرَّضَتْ لها الديمقراطيةُ عَبْرَ أحقابٍ زمنية جعلتها تكسِبُ النُّضْجَ إلى أن بلغتْ مستوى الكمالِ في عصرِنا." بينما اختلفت الآراءُ في تعريفِ الديمقراطيَّةِ وتقييمِها بين مدحٍ وذمٍّ، واختلفَ الْمُحَلِّلُونَ لهذهِ الفكرةِ بين مؤيِّدينَ ومعارِضِين؛ فقال بعضُهم: "إنَّها انتشرتْ بالتَّدَرُّجِ كبديلٍ حَضارِيٍّ في مختلفِ أنحاءِ العالَمِ للأنظمةِ الديكتاتوريَّةِ." وقال الْبعضُ الآخرُ: إنَّها فِكرةُ الصراعِ التاريخِيِّ الْمُتَكَرِرِ بين "السادَةِ" وَ"الْعَبِيدِ". وجاءَ في نظريَّةِ فوكوياما: "أنَّ الديمقراطيَّةَ قد أثبتتْ في تجارُبَ مُتَكَرِّرَةٍ منذُ الثورةِ الفرنسيَّةِ وحتى وقتِنا هذا؛ أنَّها أفضلُ النُّظُمِ التي عَرَفَهَا الانسانُ أخلاَقِيًّا وسياسِيًّا واقتصادِيًّا!"

من الملفتِ أن المؤيِّدين للفكر الديمقراطِيِّ والْمُعْجَبِينَ بِهِ، ليس كُلُّهُمْ متحرِّرين من الدِّين أو منتسبين إلى الدياناتِ القديمةِ الْمُحَرَّفَةِ، بل من الغريبِ أنَّ فيهم مَنْ يُقِرُّ بانتمائِهِ إلى الإسلامِ، ويعتزُّ به، ولا يمتنعُ من وصفِ عَامَّةِ غيرِ المسلمين بِ"مِلَّةِ الْكُفْرِ"[106]. قد يكون إعجابُ هؤلاءِ بالديمقراطية ناشئًا من انبهارهم بكثرة عدد المؤيدين لها، غير أن الكثرة والأغلبية ليست دائما دليلاً على إثبات الحق وبيان وجه الصواب. تبرهن على هذه الحقيقة قوله تعالى: "قُلْ لاَ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ. (المائدة/100).

ورغم الإعجابِ الذي يُبديه كثيرٌ من المنتسبين للإسلامِ في نظرتهم إلى الديمقراطيَّةِ، فإنَّ عالمًا مسيحيًا (وهو الدكتور حنا عيسى، أستاذ القانون الدولي) يقول: "الديمقراطيةُ نظامٌ يُتِيحُ لِلشعبِ حُكْمَ نَفْسِهِ بِنَفْسِهِ، وهو قيمةٌ إنسانيَّةٌ عاليةٌ بِحَدِّ ذاتِها، إلاَّ أنَّ لها مَسَاوِئَ عديدةً كتأجيجِ الصراعاتِ الدينيَّةِ والعرقيَّةِ لِمَا تَفرضُهُ الإتجاهاتُ المتضاربةُ بين فصائل الشعبِ، فتظهَرُ الفوارِقُ القوميَّةُ واللُّغَوِيَّةُ والدينيَّةُ خلالَ عمليةِ الدِّيمُقْرَطَةِ بالإنتقالِ من حُكْمٍ غيرِ دِيمُقْرَاطِيّ". ثم يُعَدِّدُ الدكتور حَنَّا

---

[106] وهي مقولةٌ للسَّلَفِ استنبطوها من كلامِ اللهِ الْمُقَدَّسِ كقولِهِ تعالى: " وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ" (الأنفال/**73**)، وقولِهِ تعالى: "وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ" (البقرة/**120**)، وقولِهِ تعالى: "وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً" (التوبة/**36**)...

ثمانيةَ عشر ضربًا من مساوي الديمقراطية تقوم حجةً على من يعتقد "أنَّ الديمقراطيَّةَ لا زالتْ أقلَّ أنظمةِ الحُكْمِ سُوءا."[107]

يتَّضِحُ من كُلِّ هذه الآراءِ المتباينةِ أنَّ النظامَ الديمقراطِيَّ وإن كان موضِعَ إعجابِ كثيرين من أهلِ النظرِ والخبرة، إلاَّ أنَّ فريقًا آخر (رغم اختلافهم في الانتماء الدينِيّ والعرقِيّ لا يَقِلُّون عددًا من الْمُعْجَبِينَ، وقد يزيدون عليهم)، يَقِفُونَ من هذا النظامِ موقفًا سلبِيًّا. ذلك أن الْمُعْجَبِينَ بالديمقراطيَّةِ إنما حُجَّتُهم: أنَّ المواطنين يتمتَّعون بحرِّيَّةِ التعبيرِ، والتظاهُرِ، والإضرابِ، وغيرِهَا من الممارساتِ التي تُمَكِّنُهُمْ من محاسَبَةِ المسؤولين على تصرُّفاتِهم وقراراتِهم في الحكم والإدارة. غيرَ أنَّ هذا الفريقَ المخالِفَ يحاول تكذيبَهُمْ بجملةِ ردودٍ وانتقاداتٍ، كما أفادَ الدكتور حَنَّا عيسى في حديثه عن مثالب الديموقراطية، منها: "أنَّ الفائزين في الإنتخاباتِ لا يملكون فرصةً كافيةً تُمَكِّنُهُمْ من ممارسةِ سياسةٍ حكيمةٍ، وتنفيذِ مشاريعَ نافعةٍ تُلَبِّي حاجةِ المجتمعِ، وتأتي بالنهوضِ والإزدهارِ، ذلك أن الفترة التي تَفْصِلُ بين كُلِّ حملتين للانتخاباتِ قَصِيرةٌ الْمَدَى جدًّا لا تسمحُ للحكومةِ الفائزةِ بالتركيز على معالجةِ القضايا. ومن هذه الأسباب أيضًا: ارتفاعُ تكلفةِ الإنتخاباتِ لإنتاجِ حكومةِ الأثرياءِ والتي تكون صورةً عن قلةٍ قليلةٍ من الناخبين. ذلك من أكبرِ حِيَلِ الديمقراطيَّةِ: أنَّها دائِمًا تتمثل في سُلطةِ أقليةٍ ثَرِيَّةٍ تتحكَّمُ في رقابِ اكثريَّةٍ لا طاقةَ لها في مواجهةِ هذهِ الأقليَّةِ؛ فيكون الرأيُ في ظاهرهِ لمجموعِ الشعب، أمَّا في حقيقتِهِ فهو رأيُ قلةٍ من الشعبِ تمكَّنتْ من السيطرةِ على الحُكْمِ بأشكالٍ من الحِيَلِ. ومن هذه الأسابِ: أنَّ الديمقراطيةَ تضعُ مقاليدَ الحُكْمِ في أيدِي عامَّةِ الشعبِ وهي طبقةٌ فَوْضَوِيَّةٌ جَاهِلَةٌ بأساليبِ الحُكْمِ، وليس عندَهَا استعدادٌ طبيعِيٌّ له، وأنَّ مبدأَ المساواةِ لا محلَّ له مع وجودِ الفوارقِ الكبيرَةِ بين الافرادِ بعضِهِمْ بعضًا من حيثُ الاستعدَادُ الذِّهْنِيُّ ودرجةُ التعليمِ والثقافةِ، ودرجةُ الاهتمامِ بالمسائِلِ العامَّةِ، والمعرفَةُ التخصُّصِيَّةُ بالنسبةِ إلى المشكلاتِ السياسيَّةِ... ومن هذه الأسابِ: أنَّ الديمقراطيَّةَ تؤدِّي إلى النَّيلِ من الحُرِّيَةِ الفرديَّة، وإلى الاستبدادِ البرلمانِيّ وتحكُّمِ الغالِبيَّةِ البرلمانيَّةِ، وهو أشدُّ أنواعِ الاستبدادِ، لأنَّهُ معسولٌ، إذ يحمِلُ اسمَ السيادَةِ الشعبيَّةِ." وقد أصابَ الدكتور حنا عيسى بأبلغِ كلمةٍ من الصدقِ والأمانة حين قال: "الديمقراطيةُ خَطِرَةٌ لكونِها تخلعُ طلاءً من الذهبِ على الأغلالِ التي تُقَيِّدُ بها الناسَ فتجعلُهُمْ أقلَّ ميلاً إلى التَّمَرُّدِ والثورَةِ على قيودِ النظامِ القائِمِ."

[107] المصدر:

http://www.abouna.org/content/%D9%85%D8%B3%D8%A7%D9%88%D8%A6-%D8%A7%D9%84%D8%AF%D9%8A%D9%85%D9%82%D8%B1%D8%A7%D8%B7%D9%8A%D8%A9

أما الديموقراطيةُ من وجُهَةِ نظرِ الإسلامِ؛ فإنَّها شريعةٌ جاهليةٌ قديمةٌ اختلقَهَا قُدَمَاءُ اليونان في العصر الهيلنستي، وربما كانوا في فترةٍ من الرُّسُلِ (الله تعالى أعلم). يتَّضِحُ في ضوءِ الْمُعْطَيَاتِ التاريخيَّةِ أنه لم تكن الأمورُ والأحوالُ مُعَقَّدَةً يومئذٍ بخلاف ما نحن عليه في هذا العصر، وكان حقُّ الإنتخابِ قاصرًا على الأحرارِ دون العبيد. فَسَهُلَ عليهم معالجةُ القضايا، وكانت الفرصةُ سانحةً لِجَرْيِ الإتصالِ بين الناخب والمنتَخَبِ فمهَّدتْ ظروفُ العصرِ للطرفين قدرًا كبيرًا من المساهمةِ والتعاون، حتى إذا ازدادتْ الكثافةُ السكانيَّةُ وتطوَّرَتْ الأمورُ خاصَّةً بعد ظهورِ المسيحيَّةِ وطُغيانِ الكنيسَةِ، فلم يَلْبَثْ حتى انفجرتْ الثوراتُ على الطغيان الكهنوتِيّ وعلى فسادِ الْقِسِّيسِينَ والرهبان، فاستوحتْ الشعوبُ الأوروبيةُ من الأفكارِ اليونانيَّةِ القديمةِ فَطَوَّرُوهَا إلى نظامٍ يَحْتَكِرُهُ الأقوياءُ في استغلالِ الضعفاءِ وقهرِهِمْ من خلالِ أحزابٍ سياسيَّةٍ، ومؤتمراتٍ واجتماعاتٍ ومناقشاتٍ، كُلُّهَا تزويرٌ وتدليسٌ وغشٌّ وَتَلَوُّنٌ واحتيالٌ وخداع...

ثمَّ إن هذا النظام لا حدودَ له في التطبيق، بل يختلف ويتلوَّنُ في كُلِّ بلدٍ بحسبِ ما يُضْفَى عليه من الجاذبية الْمُصْطَنَعَةِ فيتحوَّلُ في كثيرٍ من الدول إلى صورةٍ لا حقيقةَ لها، ومجردِ شعاراتٍ يُخدَعُ بها الناسُ، وإنما الحاكمُ الفِعليُّ هي الطُّغْمَةُ الْمُتَغَلِّبَةُ بطريقِ الْخُدْعَةِ المتمثِّلَةِ في الإنتخابات، والشعبُ مقهورٌ مغلوبٌ على أمرِهِ. ولا أدلَّ على ذلك من أنَّ هذه الديمقراطيَّةَ إذا أتت بما لا يهواه الْحُكَّامُ وطؤوها بأقدامهم، وتناسوا كُلَّ ما تعهَّدوه أيام الإنتخاباتِ من وعودٍ معسولة بألوانٍ من الكذب البواح. فإنَّ وقائعَ تزويرِ الانتخابات، وكبتَ الحرّيَّاتِ وتكميمَ أفواهِ مَنْ يتكلَّمون بالحق: حقائقُ يعلمُها الجميعُ، لا تحتاج إلى أيِّ استدلال.

لذا يأبى الإسلامُ هذا الشكلَ من السياسةِ ويرغبُ عنه المؤمنون بالله واليوم الآخر لما فيه من ضروبِ الظُّلمِ الْمُوَشَّحِ بِزَخَارِفَ شيطانيَّةٍ تلتبسُ على الأغبياءِ العوامِّ، ولا شك في أن العوامَّ من كل مجتمعٍ جنود إبليسَ، وهو الذي يُقْنِعُهُمْ بما يَظْهَرُ من الحقّ الذي يُرَادُ به الباطلُ. لا شكَّ في أنَّ الديمقراطيَّةَ شكلٌ من أشكالِ الكفر، وإنّها زندقَةٌ وخروجٌ على كتابِ اللهِ وسنة رسولِهِ، وإشراكٌ بالله. لماذا؟ لأنَّهُ حُكْمٌ بغيرِ ما أنزلَ اللهُ، واللهُ تعالى يقول: "وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ.[108] ويقول: "فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ.[109] ويقول عزَّ وجلَّ: "ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ.[110]

---

[108] المائد/44

[109] النساء/65

ثمَّ مَنْ يدَّعي أنَّ الشُّورَى الذي جاء به الإسلامُ هي الديمقراطيَّةُ بعينها. ويحاولُ تبريرَ ذلك بقوله: "إذا عرض أمرٌ ولم نجدْ نصًّا صريحًا من الكتاب والسنة يعالجه، فكيف نُحَدِّدُ موقفَنا منه بِحُكْمٍ فنطمئنَّ عليه؟" ثم يُجيب على سؤالِهِ بنفسِهِ: "هنا يجب أن يَصْدُرَ فيه حُكْمٌ بإجماعِ أهل الشورى، يكون بمنزلةِ الإستنباطِ من الكتاب والسنة. وهذا ما يجري في ما يسمى "مجلس الشعب" أو "البرلمان" في البلادِ الديمقراطية التي يحكمها المسلمون. إذن لاَ فرقَ بين الشورى في الإسلام وبين الديمقراطية."

إنَّ التوفيقَ بين الشورى في الإسلامِ وبين الديمقراطيةِ بمثلِ هذه الصيغةِ الواهيةِ وأشباهِهَا لا يمكن أنْ ينالَ القبولَ عندَ أهلِ الإختصاصِ في حقلِ العلومِ الإسلامِيَّةِ، كما لن تُمَثِّلَ تعبيرًا رصينًا عن العلاقةِ بينَ ذلكما المفهومين في ميزان العقل والمنطق السليم، وإنْ باتتْ تُصِرُّ جماعةٌ من النازعين إلى الثقافة الغربية على مَدِّهَا، منهم بخاصةٍ أنيس مُحَمَّد صالح ومن على شاكلته. وقد جرت مناقشاتٌ حادةٌ ولا تزال حولَ ما إذا كانت الديمقراطيةُ عينَ الشورى في الإسلامِ أو لا صلة بينهما على الإطلاقِ.

إن الشورى في الإسلام يستمدُّ قُوَّتَهُ من النص القرآني "وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُم..."[111]، ومجيئُ النصِّ بصيغةِ الخبرِ يؤكد أنَّهُ فرضٌ حتمِيٌّ، وأنّ النصَّ مطلقٌ وليسَ مقيدًا بشورى الأنصار قبل إسلامهم، كما أنَّ نزولَ الآيةِ الكريمةِ في العهدِ الْمَكِّيِّ، –أي قبلَ قيامِ الدولةِ الإسلاميَّةِ– يدُلُّ على أنَّ الشورَى أعمُّ وأشملُ من أنْ يكونَ مؤسسةً تابعةً لمفهومِ الدولةِ ومنحصرًا في إطارها المحدَّدِ. بل إنَّهُ يَشْمَلُ حياةَ المسلمين في جميع المجالات وفي كلِّ الظروفِ بأوسع مدلولِهِ حتى وإنْ لم تكن لهم دولةٌ.

أمَّا الديمقراطية فإنها نظام بشرِيٌّ إختَلَقَهُ جيلٌ من قُدَمَاءِ اليونان؛ يَجعلُ سلطةَ التشريعِ للشعبِ أو مَنْ ينوبُ عنه (كأعضاءِ الْبَرْلَمَانِ) فيكونُ الحكمُ فيه لغيرِ الله تعالى. وما أدلَّ على هذهِ الحقيقةِ من نصوصِ الدساتيرِ التي تعتمدُ عليها أنظمةُ مُعظمِ الدولِ في عصرِنا، ومنها الدولةُ التركيَّةُ. جاءَ في المادة الثانية من دستورها: "إنَّ الجمهوريةَ التركيَّةَ: جمهوريَّةٌ ديمقراطيَّةٌ عِلْمَانِيَّةٌ اجتماعيَّةٌ؛ تقومُ على سيادةِ القانونِ؛ في حدودِ مفاهيمِ السلم والتضامن الوطنِيِّ والعدالةِ، مع احترامِ حقوقِ الإنسانِ والولاءِ لِقَومِيَّةِ أتاتورك، وتقومُ على المبادءِ الأساسيَّةِ الواردةِ في الديباجةِ." هذا، وليس من القليلِ ما يَسمعُ كلُّ إنسانٍ في تركيا الْهُتَافَ الذي يُرَدِّدُهُ ملايينُ الناسِ بأصواتٍ عاليةٍ في الشوارعِ وعلى

---

[110] الجاثية/18

[111] الشورى/38

شاشاتِ التلفازِ، يقولون فيه: «Hakimiyet milletindir» أي الحُكْمُ (أو السلطةُ) للشعبِ. فلا شك في أن هذا أحدُ صُوَرِ الإشراكِ بالله في الطاعةِ والانقيادِ أو في التشريع. قال الله تعالى: "إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ.[112] وقال تعالى: فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ.[113] وقال تعالى: أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ.[114] وقال تعالى: مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً.[115] وقال تعالى: وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ.[116] وقال تعالى: وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ.[117] وقال تعالى: وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ.[118] وقال تعالى: أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ، وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ.[119]

إنَّ البونَ الشاسعَ الذي يَحُولُ بين الشورَى الإسلامِيّ وبين الديمقراطيةِ اليونانيَّةِ يظهرُ بوضوحٍ بالغٍ عندما نُقَارِنُ بين المفهومينِ من خلالِ بعضِ المزايا لِكُلٍّ منهما، وهذه نبذة منها:

*** إنَّ العبرةَ (في النظام الديمقراطي) ليستْ بالإجماع، وإنما بالأكثريَّةِ، لذا تصدُرُ القوانينُ في هذا النظامِ وتُلزِمَ الشعبَ كُلَّهُ باتفاقِ الأغلبية، ولو كانت مخالِفَةً للفطرةِ، والدِّينِ، والعقل... ولا يخفى ما قد سبق تشريعُهُ في بعضِ الدولِ الديمقراطيةِ، ما يُعَدُّ خروجًا فاضحًا على الفطرةِ؛ كالإجهاض، وزواج المثليين، والفوائدِ الربويَّةِ، وإباحةِ الزنا، وشربِ الخمرِ، وما يُسمَّى بـ"القتلِ الرحيم Euthanasia"... لكنَّ الإسلامَ قد حرَّم هذه الأمورَ كلها وفقًا للفطرةِ وحفاظًا على كرامةِ الإنسانِ وحياتِهِ وتحقيقًا للعدالةِ والأمنِ وسلامةِ الفردِ والمجتمعِ... كما لا يَصْدُرُ القرارُ في الشورى الإسلامِيّ إلاَّ بالإجماعِ وليس بالأكثريَّةِ.**

[112] يوسف/40
[113] غافر/12
[114] التين/8
[115] الكهف/26
[116] المائد/44
[117] المائدة/45
[118] المائدة/47
[119] المائدة/50

* إنَّ الشورى تكون فيما ليس فيه حكمٌ شرعِيٌّ يستنِدُ الى نَصٍّ من قُرآنٍ أو سُنَّةٍ، (بشرطِ ألاَّ يكون أيُّ قرارٍ صادرٍ من مجلس الشورىَ مخالِفًا لنصٍّ من نصوصِ الكتابِ والسنّةِ.)[120] أمَّا الديمقراطِيَّةُ فهي من وضعِ البشرِ الذين لا يُقِرُّون أصلاً بهيمنة الله على الكونِ، بل يَعُدُّونَ الإيمانَ به تعالى أمرًا مفتوحًا للنقاشِ، لخروجهِ عن نطاقِ العقلِ البشرِيّ. لذلك لا عبرةَ بالكتابِ والسنةِ عندَهم. وبناءً عليه فإنَّ الأحكامَ والقوانينَ والقراراتِ (في الدولِ الديمقراطيةِ العلمانيَّةِ الصِّرْفةِ) تصدرُ باتفاقِ أغلبيةٍ تمتنعُ جماعةٌ مِنْ إفرادِها عن الإقرارِ جهرًا بحتميَّةِ حُكْمِ اللهِ، خوفًا على أنفسِهم ومصالحِهم، أو نفاقًا، وإنْ كان بعضُهم يُقِرُّهُ في ضميرِهِ سِرًّا، كما هو الحالُ في البرلمانِ التُّركِيّ. وهذا يدلُّ دلالةً صريحةً على أنَّ الصِّدْقَ والأمانةَ لا محلَّ لهما في النظامِ الديمقراطِيّ العِلْمانِيّ على الإطلاقِ.

* الشورى في الإسلام نظامٌ يقومُ على أُسُسٍ ومَبَادئَ أخلاقيَّةٍ قطعيَّةٍ لا يجوز العدولُ عنها بوجهٍ من الوجوهِ. ومن أهمّ هذه الأسُسِ: الصدقُ والأمانةُ والتوَقِّي عن الحرام، ومن خالف في شيءٍ من هذه الأسُسِ يُطرَدُ من مجلس الشورى ويُعاقبُ على فعله. أما الديمقراطية، فإنها خلطٌ بين الحلالِ والحرامِ والحقّ والباطلِ والحَسَنِ والقبيحِ، وَعبثٌ بالمفاهيم؛ لا مانعَ فيها من قولِ الكذِبِ والزور والفريةِ والبهتانِ وكثيرٍ من المحرماتِ الْمُخِلَّةِ بالعِفَّةِ والمروءةِ؛ كالزنا، وشُربِ الخمر، وأكلِ الربا... وأبشعُ وأخطرُ من كلّ ذلك ما يُرْتَكَبُ مِنْ موبقاتِ الإيمانِ كالاستهزاءِ بالقِيَمِ المقدسَةِ، وتحقيرِ الشريعةِ الإسلامية ووصفِها بقانون الغابةِ أثناءَ المناقشاتِ تحتِ ثقفِ البرلمان وعلى رؤوسِ الأشهادِ. أمَّا الدلائلُ على هذه الحقيقةِ فَأكثرُ مما يُعَدُّ ويُحصَى. على سبيل المثال؛ يجرى في البرلمان التُّرْكِيّ بين الفينَةِ والأُخْرَى مُنَاقشاتٌ حادّةٌ بين أعضاءِ الحزبِ الحاكمِ والمعارضةِ مصحوبةً بِعِراكٍ وخِصامٍ ومُشَاتَمَةٍ بكلماتٍ بذيئةٍ تَمُجُّهَا الأسماعُ ويَنْدَى لها الجبين، ويهاجمُ بعضُهم بعضًا وقد يلجئون إلى استعمالِ العنفِ بِالْمُلاَكَمَةِ والضربِ... ولا يمنعهم كُلُّ ذلك من البقاءِ في المنصبِ وممارسةِ السياسةِ، وتستمرُّ عضويَّتُهُمْ في مجلسِ الشعبِ مع دوامِ حصانتِهِمْ البرلمانية إلى أيَّامِ دورةِ الإنتحاباتِ القادمة. ومن الجدير بالإشارةِ؛ أنَّ أكثرَ أعضاءِ البرلمانِ التركِيّ (مع هذا الخلطِ والعبثِ والانسلاخ من الإيمان والكرامةِ) يعتزُّون بِالْمُسْلُمَانِيَّةِ (اعتقادًا منهم أنَّهَا الإسلامُ، مع أنَّ الْمُسْلُمَانِيَّةَ لا تَمُتُّ بِصِلَةٍ إلى الإسلامِ، وإنما هي ديانةٌ مُسْتَحْدَثَةٌ وَثَنِيَّةٌ تافهةٌ من صُنْعِ مجوسِ الْفُرْسِ، أو مختزلةٌ من الإسلامِ بطريق التحريف والتشويه، كالنُّصَيْرِيَّةِ، والإسماعيلِيَّةِ، والدُّرْزِيَّةِ، والقاديانيَّةِ، والْبَهَائِيَّةِ،...)

---

[120] ذلك أن الشورى لها نطاق محدّدٌ، وهو أن أي مسألة (مهما كانت) إذا وُجِدَ فيها نصٌّ من الكتابِ أو السنةِ، فليست محلاًّ للشورى. وقد يُخطِئُ مَنْ يحمِلُ كلمةَ (أَمْرُهُمْ) على إطلاقِها في الآية الكريمة "وَأَمْرُهُمْ شُورَى.."، ويجعلها تشمل كل شئون المسلمين في جميع نواحي الحياةِ، غير أن ذلك ليس هو المرادُ من النص القرآنِيّ كما أجمع على هذه الحقيقة الراسخون في العلم بكتاب الله.

إمّا الاعتقادُ: بأنَّ الديمقراطيَّةَ نظامٌ فيهِ التسامُحُ والحرّيَّةُ، من وُجهةِ نظرِ العامَّةَ وأرذالِ البشر؛ فَنَعَمْ، ولا شك في ذلك أنَّ الإنسانَ الذي يعيشُ في ظلِّ الديمقراطية هو حرٌّ في كثير من تصرفاته وأقواله كالتطاول على الله، والطعنِ في الأنبياءِ والرسالاتِ والمقدساتِ، حرٌّ في الإرتدادِ عن دينه في أي لحظةٍ، حُرٌّ في ممارساتٍ مخزيةٍ مخدشةٍ للحياءِ... كل ذلك بحجة "حرية الرأي"، مع أن هذه الفضائح تساهم في إفساد الفردِ والمجتمعِ، وتفتحُ أبوابَ الفوضى في الدين والسلوكِ والعاداتِ ثم تتطور فتُؤَدّي إلى متاهاتٍ وأخطارٍ تُهَدِّدُ حياةَ الناسِ وقد تنجم عن سقوطِ الدولة وانقراضها.

بالرغم من هذه الحريات (!) التي يتمتَّع بها المواطنُ التُّرْكِيُّ، يُمْنَعُ منعًا باتًّا أنْ يتجرّأ أحدٌ على إهانةِ مصطفى كمال بأدنى كَلِمَةٍ، وإذا ثبتَ على أحدٍ أنه تطاوَلَ عليهِ فإنه يُدانُ ويُعاقَبُ بالسجن لمدَّةٍ لا تقلُّ عن ثلاثِ سنواتٍ وقد تُضَاعَفُ العقوبَةُ إلى خمسِ سنوات، بموجب المادة: **5816** من قانون العقوبات.

* يشترطُ في من يُنْتَخَبُ لِعُضْوِيَّةِ مجلسِ الشورى الإسلامِيّ، أن يكون على مستوى من العلمِ بالفقهِ، مثقّفًا مُهَذَّبًا واعِيًا؛ يمتازُ بمكارمِ الإخلاقِ والفضائلِ المعروفةِ في الإسلامِ، غيرَ مُتَّهَمٍ بِالْحَادٍ، أو فسقٍ، أو جريمةٍ، أو جناية... وأمَّا النظامُ الديمقراطِيُّ، فلا اعتبارَ فيه لبعضِ هذه الضوابِطِ، لذا ليس من القليلِ بين أعضاءِ المجالسِ النِّيَابِيَّةِ مَنْ يَتَلَبَّسُ بالفسقِ والإلحادِ والشركِ والزَّنْدَقَةِ وأنواعِ الفَوَاحِشِ...

يمكنُ تلخيصُ هذهِ المقارنةِ السريعةِ؛ أنَّ الغايةَ من الشورى الإسلامِيّ هيَ القضاءُ الكاملُ على جميع أشكالِ الظلمِ والاستبدادِ، وعلى الثُّنائيةِ غير المتكافِئَةِ في العلاقات البشرية. وأمّا الغايَةُ في النظامِ الديمقراطِيّ (التُرْكِيّ) فإنّما هيَ قسطٌ مِنَ الحُرّيَةِ يتصرَّفُ الفردُ في نطاقها المحدَّدِ بشروطٍ وأمورٍ، وهِيَ:

* أنْ يكتفِيَ بإختيارِ أحدِ الأحزابِ السياسِيَّةِ يومَ الإقتراعِ وهو في أغلبِ الإحوالِ يجهلُ مَنْ سوفَ ينوبُون عنه في الدفاعِ عن حقوقِهِ ومصالحِهِ في مجلسِ الشعبِ طِوالَ سنوات؛ يجهل أحوالَهم وسلوكَهم وشخصيَّاتِهِمْ تمامًا أو يكاد. وَثَمَّ درعٌ رهيب (من البواباتِ ورجالِ الأمنِ)، يمنعُهُ عن الإتصالِ بِنُوَّابِهِ في المجلس الذين لا يُبالون ولا يعتدُّون به أبدًا. بعكسِ المرأِ المسلمِ في الدولةِ الإسلاميةِ الذي له حقُّ الإتّصالِ بمن شاءَ من أعضاءِ مجلسِ الشورى وحتى بالخليفةِ نفسِهِ وبكلِّ سهولةٍ. يؤكدُّ على هذه

الحقيقةِ جميعُ الوثائقِ التي نَقَلَتْ إلينا نماذجَ رائعةً من حياةِ الرسول صلى الله عليه وسلَّمَ وحياةِ الخلفاءِ الراشدين والصحابةِ عليهم الرضوان.

* للمواطنِ حريةُ إبداءِ الرأيِ شفاهًا وكتابةً؛ له أنْ يُعَبِّرَ عن أفكارِهِ ومشاعرِهِ ومشاهداته وخبراته، وقد لا يُعاقَبُ على دفاعهِ عن الشريعةِ الإسلامِيّةِ (كنتيجةٍ لما أُجْرِيَ بعضُ تعديلاتٍ على قانونِ العقوباتِ في السنين الأخيرةِ تحت ضغطِ الإتحادِ الأوروبِيّ!)، وقد يتجاهله القضاءُ إذا استنكرَ جوازَ زواجِ الأخِ من أخْتِهِ من الرضاعةِ (إذ هو مسموحٌ منذ قيام الجمهورية إلى هذه الساعةِ في ظل الديمقراطية النقشبنديَّةِ التركية!).. أمَّا إذا تجرَّأَ مواطنٌ على أن يقول (على سبيل المثال): "كان مصطفى كمال يُرَبِّتُ على رأسِ الحمارِ في مزرعتِهِ" فقد يدخُلُ تحت طائِلَةِ القانون، "لأنه يكون قد أهانَ بكرامةِ الزعيمِ الماجد!" وهو لا شك من أكبر أصنامِ الأُمَّةِ التركية، لايجوز لأحدٍ أن يتطاوَلَ عليه بأدنى سَلْبِيَّةٍ.

* المواطن التركِيُّ حُرٌّ في كثير من الأمور المعيشية؛ له أن يطوفَ في الشوارِعِ، ويقومَ برحلاتٍ إلى أيِّ مكانٍ من الوطن التركِيّ، وأن يزاوِلَ من الحِرَفِ والمِهَنِ ما شاءَ.. أمَّا إذا أبدعَ المواطنُ جهازًا يُسَهِّلُ شيئًا من سُبُلِ الحياةِ (وليس له مَنْ يَحْمِيهِ في البرلمان أو الوزارات)، فسرعان ما يتحرَّكُ مافيا الديمقراطيَّةِ لِيُثَبِّطَهُ ويُعَرْقِلَهُ، أو يغتصبَ إبداعَهُ فَيَنْقُلَهُ إلى شركةٍ تستغلُّهُ وَتُنَمِّيهِ لِنَفْسِهَا! كذلك إذا ألَّفَ كَاتِبٌ أو بَاحِثٌ كتابًا إهتمَّ فيه بشيءٍ من قضايا حقوقِ الإنسانِ، وعجز القضاءُ عن اختلاقِ ذريعةٍ لِيَحْكُمَ عليه بِعُقُوبَةٍ، لا يلبثُ حتى يقعُ فريسةً بين مخالبِ "الدولة العميقةِ" وهي شبكةٌ خطيرةٌ في يدِ الحكوماتِ التُّرْكِيَّةِ منذ قيام الجمهورية (عام **1923**م) إلى اليوم، يستخدمُهَا الحزبُ الحاكمُ لتوطيدِ سيطرتِها، فيستخدمُها في إزالةِ كُلِّ عقبةٍ تعترضُهُ وبدون أدنى رحمةٍ.[121]

---

[121] هذه الشبكةُ، لها وجودٌ عادةً في كلِّ دولةٍ، فهي آليةٌ على غرار المنظمات السرّيَّةِ، تتكون من عناصرَ مدرَّبِينَ على أعمالِ الجاسوسيَّةِ، وحياكة المؤامراتِ، وملاحقةِ المستهدَفِينَ، وتوريطهم في أعمالٍ إجرامِيَّةٍ على حين غفلةٍ منهم، لقمعهم وقتلهم. هذه الشبكةُ تتمتَّعُ بِحَصانَةٍ فولاذيةٍ تكفلها الحكومةُ. لذا، تَظَلُّ الجرائمُ والجناياتُ التي ترتكبها "الدولةُ العميقةُ" (على حسابِ الدولة القانونية!) تَظَلُّ مستورةً يستحيل الكشفُ عنها، ويجهلها المجتمعُ إلى حينٍ تتهيَّئُ الفرصةُ لباحِثٍ جَرِيءٍ يُفشِيها، أو مُعْتَرِفٍ من أفرادِ الشبكةِ الذي قد حَلَّ رِبقَتَهَا من عنقِهِ لسببٍ مّا يتجرَّأُ على البوح بأسرارِهِ. و"الدولةُ العميقةُ (هذه الشبكة المشبوهة): "هي مجموعة من التحالفات وشبكات العلاقات الممتدة داخل جسد الوطن، والمبعثرةِ في مؤسسات الدولة أفقيًا ورأسيًا بدون شكل او تنظيم محدد وملموس، وهي تَشْمَلُ أعضاءَ البرلمانِ، وسياسيينَ، ورجالَ أعمالٍ ورجالَ أمنٍ، وفنانينَ وإعلاميّين... وبتعريفٍ آخَرَ: هي شبكة مصالِحَ متشابِكَةٍ وَمُتَرَابِطَةٍ لا يَعْرِفُ افرادُهَا بعضَهم بعضًا، لكنَّهم يعملون لِهدفٍ مشترَكٍ، وهو الدفاع عن مصالِحِهِمْ وامتيازَاتِهِمْ خارجَ إطار القانون والمجتمع والدولة، بمعنى آخر دولةٌ داخلَ الدولةِ أوْ دولةٌ فوقَ الدولةِ."

* لا يعترفُ الإسلامُ بالطبقِيَّةِ ولا يسمحُ لظهورِ طبقاتٍ إجتماعِيَّةٍ أبدًا. أفرادُ الأمةِ كلُّهم سواسيةٌ، قال تعالى: "إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ.[122] وقال تعالى: "يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ.[123] وقال النبي ﷺ: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَى"[124]

يتساوى أفرادُ الأُمَّةِ في القصاصِ والدِّياتِ، لا فضلَ فيها لشريفٍ على وضيعٍ، ولا كبيرٍ على صغيرٍ، ولا ذكرٍ على أنثى. وهم يدٌ على من سِوَاهُمْ. يعني: أَنَّهُمْ مجتمِعون يدًا واحدة على غيرِهِمْ مِنْ أربابِ الْمِلَلِ والأديانِ، فلا يَسَعُ أحدًا منهم أنْ يتقاعس ويتخاذل عن نُصْرَةِ أخيهِ المسلم. والفردُ يُعَدُّ في المجتمع الإسلامِيّ لَبِنَةً في كيان الأُمَّةِ، له حقوقٌ ومسؤلِيَّاتٌ على الأُمَّةِ، كما للأُمَّةِ حقوقٌ ومسؤولِيَّاتٌ عليه. لذا، لا يَسمحُ الإسلامُ بتهميشِهِ وإهمالِهِ، ذلك أنَّ الأُمَّةَ تستمِدُّ قُوَّتَها وعزتَها وكرامتَها من هذا التماسُكِ والتعاوُنِ بين الفردِ والجماعةِ. يبرهن على اهتمام الإسلام بالعدل والمساواة بين أفراد الأمة حادثةٌ وقعتْ في عهد عمر بن الخطاب رضِيَ اللهُ عنه، الذي نُقِشَ اسْمُهُ في سجل التاريخ بحروفٍ ذهبيَّةٍ لاهتمامِهِ الشديدِ بإقامةِ العدلِ، وذلك مما يَتَبَنَّاهُ الإسلامُ ويأمرُ به: نعم، إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ، يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ.[125] إمَّا أن تتفوَّق المبادِئُ أو الأشخاصُ، فإذا تَفَوَّقَتْ المبادئُ فالأُمَّةُ بخير.

ينقلُ لنا التاريخُ تلك الحادثةَ؛ أنَّ ملكَ الغساسنةِ جبلةَ بْنَ الأيهمِ أعلن عن إسلامِهِ فرحَّب به عمرُ أشدَّ الترحيبِ، فكان من أمرِ هذا الملكِ أنه في أثناءِ طوافِهِ حَوْلَ الكعبةِ، داس بَدَوِيٌّ من فزارةَ طَرَفَ رِدَاءِهِ فانخلعَ رداؤُه عن كَتِفِهِ، فالتفتَ إلى هذا البدوِيِّ وضَرَبَهُ ضربةً هَشَمَتْ أنفَهُ، فشكا البدوِيُّ جبلةَ بْنَ الأيهمِ إلى عُمَرَ، فاستدعى عمرُ هذا الملكَ وقال له: أصحيحٌ ما ادَّعَى هذا

[122] الحجرات/10

[123] الحجرات/13.

[124] مسند أحمد (47/ 478)
حَدَّثَنَا أَبُو عَمْرِو بْنُ حَمْدَانَ، قَالَ: ثَنَا الْحَسَنُ بْنُ سُفْيَانَ، قَالَ: ثَنَا الْعَلَاءُ بْنُ سَلَمَةَ الْبَصْرِيُّ قَالَ: ثَنَا شَيْبَةُ أَبُو قِلَابَةَ الْقَيْسِيُّ، عَنِ الْجُرَيْرِيِّ، عَنْ أَبِي نَضْرَةَ، عَنْ جَابِرٍ، رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ قَالَ: " خَطَبَنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَسَطَ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ، فَقَالَ: الحديث.

[125] النحل/90

الفزارِيُّ الجريحُ؟ فقال جبلةُ: لستُ ممن يُنْكِرُ شيئًا، أنا أدَّبْتُ الفتى، أدركتُ حَقِّي بِيَدِي، فقال عمرُ: أرَضِيَ الفتى؟ لابد من إرضائِهِ، مازالَ ظِفْرُكَ عالقًا بدمائِهِ أو يهشمنَّ الآن أنفَكَ وتنالَ ما فعلَتْهُ كَفُّكَ. قال الملكُ: كيف ذاك يا أمير؟ هو سُوقَةٌ وأنا عَرْشٌ وتاجٌ، كيف ترضى أن يَخِرَّ النجمُ أرضًا؟ فقال عمر: نزواتُ الجاهلِيَّةِ ورياحُ الْعُنْجُهِيَّةِ، قد دفنَّاها، أقَمْنَا فوقَهَا صرحاً جديدًا فَتَسَاوَى الناسُ أحرارًا لدينا وعبيدًا. فقال جبلةُ: كان وهمًا مَّا جرى في خَلَدِي أيِّ عندك أقوى وأعَزُّ، أنا مرتَدٌّ إذا أكْرَهْتَنِي، فقال عمرُ: عنقُ المرتَدِّ بالسيف تُحَزُّ. عالَمٌ نَبْنِيهِ، كُلُّ صَدْعٍ فيه بِشَبَا السيف يُدَاوَى، وأعزُّ الناسِ بالعبد بالصعلوك تُسَاوَى. هذا هو الإسلام، دينُ العدلِ والمساواةِ والفضائل، كلُّ أفرادِ الأمة في الإسلامِ سواسيَّةٌ كأسنان المشط. وهذا يستوجبُ أنْ لا يكون للفرديَّةِ الْمُغَالِيَةِ مكانٌ في المنهج الإسلامِيِّ؛ لأنَّ صلاحَهُ موقوفٌ على كونِهِ جزءاً من بناءِ الأمةِ. وهذا يسدُّ بابَ المنافسةِ السياسيَّةِ التي هي مبدأُ الفتنةِ والفسادِ والإرهابِ والقمعِ والقتالِ والإنهيارِ الخلقِيِّ...

أمّا الديمقراطِيَّةُ فإنها نظامٌ يخلو تمامًا من الفضائل الإنسانيَّةِ؛ فإنَّنَا لا نجدُ لِمكارمِ الأخلاقِ من وجودٍ في أيِّ نظامٍ ديمقراطِيٍّ على مستوى العلَمِ، لانجدُ أبدًا في أيِّ دولةٍ ديمقراطِيَّةٍ يُرَكِّزُ النظامُ على ترسيخِ الخصالِ الحميدةِ من الشكرِ، والصبرِ، والقناعةِ، والحلمِ، والحياءِ، والسخاءِ، والكرمِ، والمروؤةِ، والشجاعةِ، والغيرةِ، والمواساةِ، وتوقيرِ العالِمِ، واحترامِ ذِي الشيبِ، والتواضُعِ، والإخلاصِ، والصراحةِ، وطهارةِ النفسِ، ونظافةِ البدنِ، وحُسْنِ العِشْرَةِ، ولِينِ الجانبِ، وبشاشةِ الوجهِ، وكَظْمِ الغيظِ، ومُلازمةِ الهدوءِ والسكينةِ، واللَّطافَةِ عند الاستقبالِ والتودِيعِ، ومراعاةِ النظامِ، والاتِّزَانِ في السلوكِ، والاعتدالِ في التعامُلِ، وإغاثَةِ الملهوفِ، ومساعدةِ المحتاجِ وأمثالِها... وإنّما الديمقراطيةُ نظامٌ دستورِيٌّ يَتَبَنَّى وضعَ تشريعاتٍ وقوانينَ بشريَّةٍ تُناسِبُ كُلَّ دولةٍ وتركيبَتَهَا الثقافيَّةَ والإجتماعيَّةَ، وهي مستمدَّةٌ من التجارُبِ والفلسفاتِ، تُعَانِي في صمِيمِها من انحلالٍ في المبادِئِ والفكر...

من أكبرَ عيوبِ الديمقراطية أنَّها تُفَضِّلُ مصلحةَ الفردِ على الجماعةِ تبعًا لمن يرسمُ هذه القوانين معتمِدًا على نزعاتِهِ السياسِيَّةِ والمصلحيَّةِ والأنانيَّةِ التي يستحيلُ أن تُثمِرَ عن آراءٍ إنسانيَّةٍ، ونصوصٍ يمكن تأسيسُ عدالةٍ اجتماعيةٍ بها، بأن لا تكون ثمَّ تبعيةٌ ولا ظلمٌ ولا استغلال...

أمّا الديمقراطيةُ التركِيَّةُ، فإنها قد دفعتْ المجتمعَ إلى انقسامٍ طَائِفِيٍّ رهيبٍ، وانشقاقٍ مذهبِيٍّ خطيرٍ، وفَرَّقَتْهُ إلى طبقاتٍ إجتماعيةٍ معاديةٍ، ومتناحرةٍ. يأتِي على رأسِ أزمةِ الخلافاتِ المذهبية والطائفِيَّةِ في تركيا، الصراعُ التاريخِيُّ بين القطاعين السُّنِّيِّ والعلوِيِّ من جانبٍ، وبين الطغمة الحاكمة والأكرادِ من

جانبٍ آخر. فقد انقسَمَ الشعبُ إلى جناحين رئيسين على الصعيدِ السياسِيِّ منذ إعلانِ النظامِ التعدُّدِيّ وظهورِ الأحزابِ السياسيَّةِ بدافعِ هذا الصراعِ الذي دامَ طِوالَ قرونٍ في العهد العثماني. قد تَبَنَّتْ الطائفةُ السنِّيَّةُ الإتجاهَ اليمينيَّ في سلوكِها السياسِيّ بدافعِ الأفكارِ المتوافدةِ من الغربِ الذي تَرْبِطَ عادةً بين مصطلحِ اليمينيَّةِ (السياسِيَّةِ) وبين الدِّينِ. يؤكدُّ على هذا الواقع: أنَّ الإعلامَ الغربِيَّ يُطْلِقُ بِكَثْرَةٍ عَبْرَ مقولاتِه صِفَةَ "اليَمِينِ الْمُتَدَيِّن" على الأحزابِ السياسيَّةِ ذاتِ التوجُّهِ الإسلامِيّ في الدولِ العربيَّةِ.

وإلى جانبِ ذلك بدأ صراعٌ شديدٌ بين جماعتين من السَّنَّةِ (وهي أكثريَّةُ المجتمعِ التُّرْكِيِّ)؛ فريقٌ منهما انحازوا إلى رجب طيب أردوغان (رئيسِ الجمهوريَّةِ الحالي)، والفريقُ الثاني بَايَعُوا رَجُلَ دينٍ اسْمُهُ فتح الله گولن، وتفانَوا في محبتِهِ، فجعلوا منه شِبهَ إلهٍ يعبدونه. انتظمَ هؤلاءِ فيما بينهم بأشكالٍ غريبةٍ من الحِيَلِ وفي غايةٍ من التلوُّنِ والسرِّيَّةِ طوالَ عقودٍ من الزمن، وتمكّنوا من التدرُّجِ إلى مناصبَ عاليةٍ وتبعْثروا عبر أجهزة الدولةِ، من القضاءِ والأمن والإستخبارات والقوات المسلحة... نفذوا إلى أدقِّ شرايين الدولة التركية، فحصلوا على كلِّ أسرارِهَا. ثم قامو بمحاولة إنقلابٍ عسكريٍّ للإطاحة بالرئيس أردوغان وحكومتِهِ ليلة **15** تموز **2016**م. لكنهم فشلوا في محاولتهم.

كان المجتمعُ التركِيُّ أصلاً مُفَرَّقًا إلى فصائلَ وكُتَلٍ اجتماعيَّةٍ، وجماعاتٍ من الصوفِيَّةِ في العهد العثمانِيِّ، بل ومنذ بداية تعرُّفِ الأتراكِ على الإسلامِ.. كانت هذه الكتَلُ والجماعاتُ مختلفةً في العقيدةِ والسلوك والإتجاهات السياسيّةِ. فلمَّا تغلّبَ الطاغيةُ مصطفى كمال على المجتمعِ عام **1920**م. فورَ سقوطِ الدولة العثمانية، وأعلنَ نظامَهُ باسم "الجمهورية التركية" عام **1923**م، حاولَ أعوانُهُ بعد موتِهِ القضاءَ على ما بَقِيَ من آثارِ الإسلامِ بإيجادِ مسمَّيَاتٍ غريبةٍ، واختلقوا عقائدَ سياسيَّةً تحت سِمَةِ "الأتَاتُورْكِيَّة" لِيَمْلَؤُوا بِهَا الفراغَ الدِّينِيَّ، فأملوا هذه الفكرَةَ التي لم يتمكَّنُوا من إدراجِها إلى قائمةِ أيِّ دينٍ أو فلسفةٍ أو حتى أسطورةٍ؛ أملوها على المجتمع بِهُتَافَاتٍ: "الجمهورية"، "الحرية"، "التقدُّمِيَّة"، "الوطنية" مع تكرارٍ متواصلٍ قرابة قرن... ثم غَلَّفُوا هذه المقولاتِ بالعلمانية"، ثم أضافوا إليها "الديمقراطيةَ" عام **1945**م. وهي بداية عهدِ التعدُّدِيَّةِ والحزبيَّةِ في تركيا.

هكذا أدخلوا البلدَ والمجتمعَ في دوامةٍ خطيرةٍ منذ أوَّلِ خطوةٍ من قيامِ النظامِ الجمهورِيّ (إن جاز إطلاقُ هذه الصفةِ على تركيا!) غير أن "الديمقراطية التركيةَ" لم تتمكّنْ من سدِّ الفَجَوَاتِ التي كانت منذ القديم تفصلُ بين هذه الفِرَقِ والطوائفِ (على رأسِها السنة والعلوية والجماعاتُ الصوفِيَّةُ)، بل

ازدادتْ الفجوةُ بينها عُمقًا سحيقًا وبُعْدًا شاسِعًا يومًا بعدَ يوم، منذ أيّامِ حكومة عدنان مندريس (ما بين 1950-1960م.) ثم اشتعلَ الأرضُ فجأةً ودون سابِقِ إنذارٍ بمظاهر الفوضى والإنفلات الأمنِيّ، وَالْتَهَبَتْ الشوارِعُ في الْمُدُنِ الكبيرةِ (في إسطنبول وإزمير، وأنقره وغيرِها)، بقيامِ مظاهرات عارمةٍ واحتجاجاتٍ ضخمةٍ وإضطراباتٍ شلّتِ الحياةَ، وانتشرَتْ القلاقلُ فتحوَّلَتْ إلى صدامٍ وقتالٍ بين الفِرَقِ والأحزابِ اليمينيَّةِ واليساريَّةِ تارةً، وبين هذه الفِرَقِ وقوات الأمن تارةً أخرى. ثمَّ دخلتْ تركيا مرحلةً خَيَّمَ عليها الظلامُ السياسِيُّ بظهورِ عديدٍ من التنظيمات السرّيَةِ والإرهابِيَّةِ يأتي على رأسِها عصابةُ (بِ كَ كَ PKK)، و (دي هاش كا بي ج DHKPC)، و (إبدا ج İbda-C)، وأخيرًا عصابةُ فتح الله گولن Fethullah Gülen **التي أُطلِقَ عليها أسماءٌ عديدةٌ منها: "الحشاشون الجدد"، و"الفتوشِيَّةُ"، و"الدولة الموازية"...**

هذه الحقائقُ كلُّها تبرهن على الفشل الذريع الذي تعرضتْ له "الديمقراطيةُ التركيَّةُ"، والحكومةُ تعاني الآنَ من أزماتٍ معقَّدةٍ مع الإتحادِ الأوربِيِّ من جانبٍ، ومع الدول المجاورةِ (سوريا، والعراق، وإيران، وروسيا)، تحاولُ أن تُخفِيَ عجزَها في مواجهةِ التحدّياتِ الإجتماعية والإعلامية والسياسية والإقتصادية، والصراعِ مع الأحزابِ المعارِضةِ والتنظيمات الإرهابية في الداخل... تتخبَّطُ تركيا حاليًّا في مستنقعِ هذه الديموقراطية وَأَمَامَهَا عقباتٌ رهيبةٌ تَسُدُّ طريقَها وتُنْبِئُ عن مستقبلٍ مظلمٍ وهي تتجاهلُ ما أحدق بها من مخاطِرَ أعدَّتْها ظروفُ الْعَوْلَمَةِ. هذا على رغم الدعاياتِ الرَّنَانَةِ التي تَبُثُّهَا "العصابَةُ الطيوشيَّةُ"، والإعلامُ الْمُشْتَرَى لتحريفِ الحقائقِ، وتشويهِ الواقعِ، وتزويرِ المشهدِ، ولكن هيهات النجاة ولات حين مناص!

***

13) فكرةُ الْعَوْلَمَةِ:

وَرَدَ تَعْرِيفٌ بَسِيطٌ لِهَذَا الْمُصْطَلَحِ فِي مُعْجَمِ أَلَكْتَرُونِي وَهَذَا نَصُّهُ:" الْعَوْلَمَةُ: هِيَ حُرِّيَّةُ إنْتِقَالِ الْمَعْلُومَاتِ وَتَدَفُّقِ رُءُوسِ الأَمْوَالِ وَالسِّلَعِ وَالتِّكْنُولُوجْيَا وَالأَفْكَارِ وَالْمُنْتَجَاتِ الإِعْلاَمِيَّةِ وَالثَّقَافِيَّةِ وَالْبَشَرِ أَنْفُسِهِمْ بَيْنَ جَمِيعِ الْمُجْتَمَعَاتِ الإِنْسَانِيَّةِ حَيْثُ تَجْرِي الْحَيَاةُ فِي الْعَالَمِ كَمَكَانٍ وَاحِدٍ أَوْ قَرْيَةٍ وَاحِدَةٍ صَغِيرَةٍ. تَرْفَعُ الشَّرِكَاتُ الْعِمْلاَقَةُ شَعَارَ الْعَوْلَمَةِ لِتَسْتَطِيعَ التَّوَغُّلَ دَاخِلَ جَمِيعِ الدُّوَلِ بِلاَ قَيْدٍ". جَاءَ تَعْرِيفُهَا الأَمْثَلُ عَلَى لِسَانِ الْكَاتِبِ مبارك عامر بقنه، يَقُولُ: لَفْظَةُ الْعَوْلَمَةِ هِيَ تَرْجَمَةٌ

لِلْمُصْطَلَحِ الإِنْجِلِيزِيِّ (Globalization) وَبَعْضُهُمْ يُتَرْجِمُهَا بِالْكَوْنِيَّةِ، وَبَعْضُهُمْ يُتَرْجِمُهَا بِالْكَوْكَبِيَّةِ، وَبَعْضُهُمْ بِالشُّوْمَلَةِ، إلاَّ أَنَّهُ فِي الآوِنَةِ الأَخِيرَةِ اشْتَهَرَ بَيْنَ الْبَاحِثِينَ مُصْطَلَحُ الْعَوْلَمَةِ وَأَصْبَحَ هُوَ أَكْثَرُ التَّرْجَمَاتِ شُيُوعًا بَيْنَ أَهْلِ السَّيَاسَةِ وَالاقْتِصَادِ وَالإِعْلاَمِ.[126]

وَالْكَلِمَةُ بِالْمَعْنَى اللُّغَوِيِّ تَعْنِي: تَعْمِيمَ الشَّيْءِ وَإِكْسَابَهُ الصِّبْغَةَ الْعَالَمِيَّةَ وَتَوْسِيعَ دَائِرَتِهِ لِيَشْمَلَ الْعَالَمَ كُلَّهُ. وَيَقُولُ أحد الكُتَّابِ: "إنَّ الْمَعْرِفَةَ بِوَاقِعِ (الْعَوْلَمَةِ) أضْحَتْ ضَرُورَةً سِيَاسِيَّةً وَاقْتِصَادِيَّةً لِتَوْضِيحِ الأَسَالِيبِ وَالْوَسَائِلِ الْجَدِيدَةِ لِلدِّفَاعِ عَنْ مَصَالِحِ الشُّعوبَ الضَّعِيفَةِ وَالْمُتَأَخِّرَةِ فِي وَجْهِ أَنْظِمَةِ الْعَوْلَمَةِ الأَكْثَرِ حَدَاثَةً فِي السَّيْطَرَةِ وَالاسْتِغْلاَلِ وَالأَكْثَرِ شَرَاسَةً فِي انْطِلاَقِ التَّوَحُّشِ الرَّأْسْمَالِيِّ فِي أَعْلَى قُدْرَاتِهِ مِنْ حَيْثُ اسْتِخْدَامُ أَرْقَى مُنْجَزَاتِ الْعِلْمِ وَالتِّكْنُولُوجْيَا وَالْمَعْلُومَاتِيَّةِ وَشَبَكَاتِ الاتِّصَالِ، بِهَدَفٍ أَسَاسِيٍّ، لاسِتِثْمَارِ شُعُوبِ الْعَالَمِ وَتَحْوِيلِ كُلِّ قُدْرَاتِهَا إِلَى مُؤَسَّسَاتٍ هَائِلَةٍ تَمْلِكُهَا شَرِكَاتٌ مَحْدُودَةُ الْعَدَدِ، تُسَيْطِرُ عَلَى كَوْكَبِ الأَرْضِ وَالْفَضَاءِ الْخَارِجِيِّ وَالْحُكُومَاتِ.[127]

فَالْعَوْلَمَةُ إذَنْ يجوزَ أنْ نقولَ (كخلاصَةٍ لكلِّ هذه الآراءِ وغيرِها من تعليقاتٍ وتفسيراتٍ): هِيَ التَّدَاخُلُ الْوَاضِحُ لأُمُورِ السِّيَاسَةِ وَالاقْتِصَادِ وَالاجْتِمَاعِ وَالثَّقَافَةِ وَالسُّلُوكِ دُونَ اعْتِدَادٍ يُذْكَرُ بِالْحُدُودِ السِّيَاسِيَّةِ لِلدُّوَلِ ذَاتِ السِّيَادَةِ، أَوِ الانْتِمَاءِ إِلَى وَطَنٍ مُحَدَّدٍ أَوِ لِدَوْلَةٍ مُعَيَّنَةٍ، وَدُونَ حَاجَةٍ إِلَى إِجْرَاءَاتٍ حُكُومِيَّةٍ. فهِيَ (باختصارٍ شديد): إِكْسَابُ الشَّيْءِ طَابِعًا عَالَمِيًّا، وَجَعْلُ نِطَاقِهِ وَتَطْبِيقِهِ عَالَمِيًا."[128]

العولمةُ –في الواقعِ–: هي تنفيذٌ وتطبيقٌ لِحصيلةٍ عملاقةٍ من العلمِ والتقنيَةِ ظفرَ بها الغربيون، وهي تعبيرٌ –في الوقتِ ذاتِهِ– عن هَيْمَنةٍ وَسَيْطَرَةٍ على الْكُرَةِ الأرضِيَّةِ حَقَّقُوهَا بعد جهودٍ بالغةٍ، وبحوثٍ، وتنقيبٍ، ودراساتٍ، وكشوفاتٍ، وإبداعاتٍ بالتعاوُنِ فيما بينهم طِوالَ قرنين من الزمن، تبهرُ لها العقول. هذه هي العولمةُ في حقيقةِ الحالِ، بِغَضِّ النَّظَرِ عن اختلافِ الآراءُ حولَ أهدافِها ومدى تَوَافُقِهَا وَتَعَارُضِهَا مع الأديانِ والأعراف.

---

[126] المصدر: http://www.saaid.net/Doat/mubarak/5.htm

[127] المصدر: مجلة الفنون المسرحية، مُحَمَّد فتاح التميمي: عولمة–الخطاب–المسرحي–في–مسرحية–انتظار/http://atitheatre.ae/

[128] المصدر: فريد صلاح الهاشمي، المعجم الموسوعي الفريد لألفاظ اللغة العربية، (باب العين)، غير مطبوع.

للعولمة مظاهرُ متناقضةُ وأهدافٌ خطيرة غَابَتْ عن علمِ أغلبِ الناسِ، وحتَّى العلماءُ ورجالُ البحثِ والدراسَةِ لم يَتمكَّنوا إلى الآن من المعرفة بأهمّ أسرارِ هذه الحركة العالمية الغامضةِ. ولِكَيْ نَكْشِفَ ما يَتَيَسَّرُ منها، يناسبُ هنا أن نَتَخيَّلَ الْعَوْلَمَةَ قَبْلِ كل شيءٍ في ثلاثِ صُوَرٍ مُتَبَايِنَةٍ لا رابعَ لَهَا: عَوْلَمَةٍ خَضْرَاءَ، وعَوْلَمَةٍ زَرْقَاءَ، وعَوْلَمَةٍ سَوْدَاءَ.

أمَّا العولَمَةُ الخضراءُ: فلا تعدو عن حُلْمٍ. لأنَّ سيرَها التاريخِيَّ توقّفَ عند مَقْتَلِ أميرِ المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ. ويبدو أنها لن تتحقّقَ إلاَّ بعد ظهور المهدي عليه السلام، فقد ورد في الأحاديث النبوية الصحيحة أن الله تبارك وتعالى يُخْرِجُ في آخر الزمان رجلاً صالحًا من أهل بيت النبوة يُؤيد به الدينَ، فيملأُ الأرضَ عدلاً وسلامًا كما مُلئتْ جورًا وظلمًا، تنعم الأمَّةُ المحمديَّةُ في عهده بِهناءٍ وسلامٍ وعافِيَةٍ وافرةٍ إن شاءَ الله تعالى.

وأمَّا العولَمَةُ الزرقاءُ: فهي هذه المرحلةُ الزمنيَّةُ العصيبَةُ التي تَغَلَّبَتْ فيها أمَّةُ الكفرِ على أُمَّةِ الاسلامِ لِحِكْمَةٍ، والله عزَّ وجلَّ وحده أعلمُ بحقيقتها، وقد تكون بلاءً يمتحنُ اللهُ به عبادهُ، فالْحُكْمُ له، "وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ"[129] أو قد تكونُ ذريعةَ عِقابٍ يُعذِّبُ اللهُ بها العصاةَ من عبادِهِ الذين أبطرَتْهم النعمةُ، فكفروا بِأنْعُمِ اللهِ، لِيُذِيقَهُمْ وبالَ أمرِهِمْ، وَيَحْشُرَهُمْ زُرْقا؟

وأمَّا العولَمَةُ السوداءُ: فهي أيضًا هذه المرحلةُ الزمنيَّةُ عينُها بالنسبةِ لأَهل التوحيدِ الخالصِ وَكَأنَّ الأيَةَ الكريمةَ "أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ[130]" تُخَاطِبُهُمْ، كما خاطبتْ أصحابَ النبيّ عليه الصلاةُ والسلام وعليهم الرضوان، حين أصابَهُم ما أصابهم من الْجُهْدِ والعُسْرِ وأنواعِ الشدائِدِ في حرب المشركين. لعل الله سبحانه أن يُنْزِلَ الهزيمةَ بقهرِهِ وبطشِهِ على جَبَهاتِ الأَمَّةِ الزرقاءِ الْمُتَحَكِّمَةِ في الأمة المحمدية، وأن يُحَوِّلَ عَوْلَمَتَهَا العوجاءَ بأجهزتِها وأسلِحَتِها وجيوشِها إلى وحوشٍ كاسِرةٍ تفتك بها، وجحيمٍ تَلْتَهِمُ أوصالَهَا، ويَنْصُرَ الْمُوَحِّدِينَ، وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيم.

هذا، وإنَّمَا حَظِيَ أصحابُ العولمة الزرقاء (أي الغربيُّون) ذلك التَّفَوُّقَ العِلْمِيَّ والنجاحَ الباهرَ في جميعِ مجالاَتِ الحياةِ –ولا شكَّ– بفضلِ سَعْيِهِمْ الدؤوبِ، وإخلاصِهِم في العملِ، والتزامِهِمْ بالمبدئيَّةِ

[129] الرعد/41

[130] آل عمران:142

وَمُرَاعَاتِهِمْ للنظامِ بكلِّ إهتمامٍ ودِقَّة. هذه الحقائقُ التي لا مِرَاءَ فيها يُصَدِّقُها عامَّةُ المسلمين؛ تصيبُهُم الصدمةُ عند حلولِهِمْ في بلدٍ من بلادِ الغربِ، وتبهرُ الحضارةُ الغربيةُ عقولَهُمْ، يشعرونَ بالأسفِ والنقصِ أمَامَ النظامِ السائدِ على الحياةِ في جميع أنحاءِ أوروبا وأميركا... وذلك، مع كراهيةِ أكثرِهِم لأهلِ الغربِ بأنَّهُمْ كفارٌ وأعداءٌ للأمّةِ؛ حاربوا الإسلامَ والمسلمين قرونًا. ولا شكَّ أيضًا في أنَّ شهادةَ العدُوِّ لعدُوِّهِ لَمِنْ أبلغِ الشهاداتِ صدقًا وعدلاً، وأتمِّها بيانًا، وأوكدِهَا حُجَّةً وإثْبَاتًا للواقِعِ. لكنَّ في كل ذلك دروس وعِبَرٌ لابد من التأمُّل فيها.

بالمناسبةِ، وحتى نعودَ –بعد قليل– إلى مسألةِ (الْعَوْلَمَةِ) مجدَّدًا لِمُوَاصَلَةِ الموضوعِ، يجبُ الإقرارُ هُنَا بأنَّ هذه الحقيقَةَ التي يستحيلُ أنْ يغفلها مُثَقَّفٌ أو يَتَغَافَلَ عنها عاقلٌ (مهما كانتْ عقيدتُهُ واتجاهُهُ السياسِيُّ وانتماؤه العرقِيُّ)، تُبَرْهِنُ على حقائقَ أخرى يمكن اختصارُها على سبيل الإعتراف: بأنَّ المسلمين (ما عدا قلةٍ قليلةٍ جدًّا في كلِّ عصرٍ)، لم يكونوا أصلاً على الصراطِ المستقيم – بعد عهد الخلفاء الراشدين– على مدى تاريخهم، برغم ما تَرِدُ هذه الكلمةُ الطيبةُ المقدسةُ على ألسنتهم ملايينَ الْمَرَّاتِ في صلواتهم يومِيًّا! لم يكونوا إذًا صادقين مع أنفسهم، و"إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ."

وهل تحتاج هذه الحقيقةُ إلى برهانٍ والمشهدُ أمامَ عيونِنَا! أين أمة الإسلامِ من أمة الكفرِ في النهضةِ والرقِيِّ والإزدهارِ والغلبةِ والهيمنة؟ هذا برغم انتسابِ أبناءِ هذه الأمةِ إلى دينِ خاتَمِ الأنبياءِ والمرسلين، وفي أيديهم كتابُ الله الذي "لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ.[131]"، كذلك سنةُ رسولِهِ الكريم ﷺ مضبوطةً بأحكمِ أساليبِ القيدِ والتدوين. فعلينا إذن نتسائلَ:

* لماذا استطاعَتْ أمّةُ الكفرِ أن تَتَمَكَّنَ من تحقيقِ هذا القدرِ العظيم من النهضةِ والتقدُّمِ والازدهارِ والتفوُّقِ، وهِيَ غريقةٌ في غفلةٍ من ربِّها؛ كِتَابُهَا مُحَرَّفٌ، عقيدتُها باطلةٌ، شريعتُها إباحيةٌ، أبناؤها يتقلّبون في أمواجٍ من الشرك والكفرِ البواحِ والحرام، يرتكبون أشتاتًا من الرذيلةِ؛ وقد انتشر بينهم أشكالٌ من الشذوذ كاللواطِ، وزواج المثلين، وفعلِ الفاحشةِ حتى مع المحارم؟..

[131] فصلت/42

*** هل يندي جبينُ إنسانٍ واحدٍ من المسلمين حين يشاهدُ ما لا يُحْصَى من الأجهزةِ والآلياتِ، والمعدَّات، ووسائلِ النقلِ، والعقاقير وغيرها من مختلف الأدواتِ التي يستخدمها في مجالات حياته أنَّ معظمَهَا من اختراعِ أمَّةِ الكفرِ، وأنَّ أمَّتَهُ عالةٌ عليها؟**

*** هل ينطبق قولُهُ تعالى "كنتم خير أمةٍ..." على المسلمين بأجمعهم اليومَ وهم يتناحرون، يذبح بعضهم البعضُ؟**

*** هل تعلمون بوجودِ عِصابةٍ إرهابيَّةٍ نشأتْ في بلادِ الغربِ من أمثالِ: بِي كَ كَ، وداعش، والقاعدة، والفتُّوشية، وبوكو حرام، وDHKPC. وغيرها، ما عدا قليل من حركات تمردية وقد انتهى خطرها بطريق المصالحة؟**

*** هل ظهرَ في أوروبا أو في أميركا طواغيت من أمثال: جمال عبد الناصر، وعيدي أمين، ومعمر القذافي، وحافظ الأسد، وبشار الأسد، وزين العابدين بن على، وصدام حسين، وحسني مبارك وعلي عبد الله صالح، وغيرهم (ما عدا هتلر، وتشاويشسكو)؟**

*** لماذا قُتِلَ جماعةٌ من زعماءِ العربِ والمسلمين شنقًا أو غيلةً مثل: عبد الله الأول (ملك الأردن)[132]، وفيصل الثاني (ملك العراق)[133] ونوري السعيد (رئيس الوزراءِ العراقي)[134]، وعدنان مندريس (رئيس وزراء تركيا)[135] وعبد الكريم قاسم (الطاغية العراقي)[136]، وفيصل بن عبد العزيز (ملك الوهابية)[137]، ومجيب الرحمن (حاكم بنغلادش)[138]، وذو الفقار علي بوتو (رئيس وزراءِ باكستا)[139] ونهاد أريم (رئيس وزراءِ تركيا)[140]، وبشير الجميل (رئيس الجمهورية اللبنانية)[141]، ومُحَمَّد**

---

[132] قُتِلَ غيلةً برصاصٍ أطلقة عليه خياطٌ فلسطيني يُدعى مصطفى شكري عشي، وهو في طريقه إلى المسجد الأقصى لصلاةِ الجمعة، وذلك في القدس يوم: **20** تموز/يوليو **1951**م.

[133] قُتِلَ رميًا بالرصاصِ، في أعقابِ انقلابٍ عسكريٍّ يومَ **14** تموز/يوليو **1958**م.

[134] قُتِلَ رميًا بأعيرةٍ ناريَّةٍ أطلَقَتْهَا عليه مفرزةٌ عسكريةٌ مكلَّفةٌ من قِبَلِ وزارة الدفاعِ لِحُكُومَةِ الثورةِ العراقيَّةِ في منطقة البتاويين بالعاصمة بغداد يومَ: **15** تموز/يوليو **1958**م.

[135] أعدِمَ شنقًا في جزيرة إمرالي قربَ إسطنبول، يومَ **17** أيلول/سبتمبر **1961** م

[136] أعدِمَ رميًا بالرصاصِ في: **9** فبراير **1963**

[137] قُتِلَ غيلةً على يدِ ابن أخيه: الأمير فيصل بن مساعد بن عبد العزيز آل سعود، بإطلاق النار عليه وهو يستقبل وزير النفط الكويتي عبد المطلب الكاظمي في مكتبة بالديوان الملكي في: **25** مارس **1975**

[138] قُتِلَ غِيلةً في: **15** أغسطس **1975**م.

[139] أعدِمَ شنقًا في: **4** أبريل/نيسان **1979**م.

[140] قُتِلَ برصاص الإرهابيّين من أقصى اليسار، أثناءَ خروجِهِ مِنْ نادِي دَرَاجُوسْ البحري، في إسطنبول يوم: **19** يوليو **1980**م.

ضياء الحق (حاكم باكستا)[142]، وترغوت أوزال (رئيس الجمهورية التركية)[143]، ورفيق الحريري (رئيس وزراءِ لبنان)[144]، وصدام حسين (الطاغية العراقي)[145]، ومعمر القذافي (الطاغية الليبي)...[146]. هؤلاء كُلُّهُمْ (ما عدا بشير الجميل) كانوا يَدَّعون أنهم مؤمنين من أمة مُحَمَّد، والله تعالى يقول: "قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ...[147]"

* ماذا تعني موجاتُ الهجرةِ التي تتدفّقُ كالسيلِ العارِمِ من بلادِ المسلمين إلى أوروبَا؟ هاجرَ في السنين الأخيرةِ ملايينُ الناسِ من البلادِ العربية والإسلاميةِ إلى أنحاءِ الغربِ، هَرَبًا من القتلِ والإبادةِ... هل سمعتم أنَّ شخصًا أميركيًّا أو شخصًا من مواطني الدول الأوروبية لجأ إلى إحدى البلادِ العربيَّةِ والإسلامِيَّةِ هربًا من الظلم أو خوفًا من العقوبة؟ هذا، ومن الْمُلْفِتِ أنَّ الجاسوسَ الأميركِيَّ: أدوارد سنوفدن Edward Snowden مثلاً، لم يُفَكِّرْ في اللُّجوءِ إلى بلدٍ عربِيٍّ أو إسلامِيٍّ، بل اختارَ روسيا. لعله اعتقد أن جميعَ البلادِ العربيَّةِ والإسلاميَّةِ ضعيفةٌ لا تختلف عن دول أميركا اللاتينية في ميزاتِها الْهَشَّةِ الْمُتَدَاعِيَةِ، فلا تقوى على حمايته في وجهِ الولايات المتحدة الأميركية.

إن مثل هذه التساؤلات يمكن الإكثارُ منها إلى حدٍّ يصيب المتابعُ لها بالمللِ، وفي هذا القدر كفاية للمتأمل.

ولعلَّ هذه المقارنةَ الوجيزةَ تكفي لِتَدُلَّنا إلى فهمِ ما جعلَ من أُمَّةِ الكفرِ عِملاقًا لا حيلةَ لـ"أمةِ الإسلامِ" في وجهها. فهلاَّ اتفقت الدولُ الإسلامِيَّةُ على عقدِ حلفٍ شِبهِ بـ"الإتِّحادِ الأوروبي" أو تعاونت فيما بينها لإيجادِ عولمةٍ خضراءَ تُنَافِسُ عولمةَ الحلف المسيحي–الصهيوني الزرقاء؟ وهيهات ذلك!

---

[141] قُتِلَ غيلةً في محاولة تفجير سيارته في: 14 أيلول/سبتمبر 1982م.

[142] قُتِلَ غيلةً في محاولة تفجير الطائرة التي استقلَّها وبرفقتِهِ السفيرُ الأمريكِيُّ في باكستان أرنولد رافيل والجنرال الأمريكي هربرت واسوم. وذلك في: 17 أغسطس 1988م.

[143] قُتِلَ بطريقِ دسّ السمّ في طعامِهِ، مات يوم 17 أبريل 1993م. أخرِجَ جثمانُهُ من مدفنِهِ يوم 02 أكتوبر 2012م وتم تشريحه، كشف التقرير الطبي أنه يمكن أن يكون قد مات مسموما بِعَنَاصِرَ فلزيةٍ منها: كادميوم، وبولونيوم، وامريكيوم...

[144] قُتِلَ غيلةً في محاولةِ تفجيرِ ألغامٍ زُرِعَ بجانبِ ممرِّهِ، تمَّ تفجيرها أثناءَ مرورِ موكِبِهِ في: 14 شباط/فبراير 2005م.

[145] أعدِمَ شنقًا في: 30 ديسمبر 2006م. أول يوم العيد الأضحى.

[146] قُتِلَ سحقًا أثناءَ ثورةٍ شعبيَّةٍ على يد الثوارِ بمدينة سرت الليبية في: 20 أكتوبر 2011م.

[147] الحجرات/14

نستطيعُ أن نقولَ إذًا بصراحةٍ: أنَّ علماءَ الإسلامِ اليومَ مهما بالغوا في مناهضتِهم لِلْعَوْلَمَةِ ودندنوا حولَ مخاطرِهَا عبرَ خُطَبِهِمْ، وكِتاباتِهِمْ، ومقالاتِهم، ومحاضراتهم الفضفاضة، فإنَّ كلَّ محاولاتِهم لن تُغَيِّرَ شيئًا من هذا المشهدِ الْمُرْعِبِ الذي تاهتْ الأمةُ في ظلامِهِ. أليس كل ذلك أشكالٌ من التشدُّقِ والتنطُّعِ واستعراضِ البلاغةِ الخاليَةِ من الإخلاصِ والعفاف!.. لذا، لا نجاةَ للأمَّةِ (حيالَ العولمةِ الزرقاء) إلاَّ أنْ تؤْمِنَ بالنظامِ والمبدئيَّةِ، (ليس اتِّبَاعًا لأمّةِ الكفرِ، بل اتِّبَاعًا للكتابِ والسنَّةِ)، وذلك بعد أن تؤمنَ بالله وباليوم الآخرِ. إن الله تعالى يقول: "يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ.[148]" هذه معجزةٌ قرآنية ربما تُخْبِرُنَا عن الذين يقولونَ آمنَّا (بأفواههم) ولم تؤمن قلوبُهم، "يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُون.[149]" وإلاَّ، فأين الأمّةُ من قوله تعالى: "إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ.[150]"، "وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ.[151]" أين هذه الأمةُ المتحزّبةُ المتناحرةُ من جيلِ الصحابةِ الْمُلْتفّين حولَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم، والذين مَدَحَهُمُ الله بقوله: "أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ.[152]"

لقد كان ذلك الجيلُ التقيُّ النّقِيُّ الطاهِرُ بمنزلةِ اللَّبِنةِ الأولى لِبناءِ صرحِ (الْعَوْلَمَةِ الخضراءِ) لولا اختفَى بغْتَةً عندما كَشَّرَ النفاقُ عن أنيابِهِ في وجه الخليفةِ الراشدِ عليّ ابْنِ أبي طالِبٍ ﷺ، والْتَحَفَ المنافقون يومئذٍ بوشاحِ الإجتهادِ، والذريعةُ كانت مواتيةً (يطول الكلامُ فيها)، فجَهَّزُوا لإشعالِ نيرانِ الفتنَةِ لِتَسْحَبَهَا قِطَارُ التاريخِ إلى يَوْمِنَا، ولتُطْبَخَ عليها الأطعِمَةُ السامةُ على مدى **1500** عام فَيَأْكلَهَا المسلمون ليجدوا أنفسهم بعد **15** قرنًا أمامَ عاصفةِ "العولمة الزرقاء" وهي تَهُزُّ أركانَهُمْ، وهم في غفلة لا يكادون حتى يفطنوا أنَّهم قد بَغَوْا على الله، فأذاقهم الله وبالَ أمرِهِمْ في أسرِ الحلفِ المسيحِيِّ–الصهيونِي.

نَدِمَ البُغاة ولاتَ ساعةَ مَنْدَمِ * والبغيُ مَرْتَعُ مُبْتَغيهِ وَخِيمُ.

---

[148] الصف/**10،11**

[149] آل عمران/**167**

[150] الأنبياء/**92**

[151] المؤمنون/**52**

[152] الفتح/**29**

لكن على رغم ما حَظِيَتْ أَمَّةُ الكُفْرِ من النجاحِ الباهرِ، والتَّفَوُّقِ العظيمِ في المجالاتِ العلميَّةِ والتقنيَّةِ، واستطاعتْ أنْ تبْسُطَ سُلْطَانَهَا على الكرة الأرضيَّةِ.. على رغم ذاك فقد بدأتْ تظهر بوادرُ الهزيمةِ في صفوفِها كنتيجةٍ لاستغنائِها عن الله وطغيانِها (وليس لغلبة المسلمين عليها!). والجديرُ بالإشارةِ: أنَّ الطغيانَ ينشأ عادةً من الاستغناءِ. كما جاءَ في قوله تعالى: كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى." العلق/6،7[153] ويحسن الإشارةُ هنا أيضًا إلى أنَّهُ لم تسغنِ أُمَّةٌ عن الله إلا سَخِطَ عليها وأنزل بها أليمَ عِقَابِهِ الذي لا مردَّ له، مهما كانت قويةً وغالبةً على بقِيَّةِ الأممِ.

إنَّ أمَّةَ الكفرِ لَمَّا عَزَمَتْ على بناءِ عَوْلَمَتِهَا الزرقاءِ لاحتواءِ المسلمين، بدأت تُنَفِّذُ مؤامراتِهَا عَبْرَ بَرْنَامَجٍ مَرْحَلِيٍّ مَاكِرٍ وخطيرٍ؛ أقدَمَتْ في خطوتِها الأولى على إفسادِ عقيدةِ المسلمين، وتدميرِ أخلاقِهِمْ، وَمَحْوِ ثقافتِهِمْ، ثم قامت بِبثِّ بذورِ الشقاقِ بين صفوفِهِمْ، وتفريقِ جموعِهِمْ، وتشتِيتِ شملِهِم، وإذلالِهِم، وسَحْقِهِمْ، تمهيدًا للقضاءِ على الأمةِ المحمديةِ. وفي غضونِ ذلك استعرضَتْ قُدْرَتَهَا بتصنيعِ أسلحةٍ فتَّاكَةٍ ومُبِيدَةٍ، وبتجارُبِهَا النوويَّةِ، واختراعِ جراثيمَ لِنَشْرِ الأَوْبِئَةِ (كالأيدز AIDS)، وبإفسادِ تركيبةِ الجيناتِ لبذورِ النبات وغيرِهَا من أشكالِ التدميرِ للطبيعةِ وتلويث البيئةِ والإضرارِ بصحةِ البشرِ... كلُّ ذلك لإدخالِ الرُّعبِ والهيبةِ في قلوبِ المسلمين، وإيهامِهِمْ أنَّ العولمةَ الزرقاءَ قادرةٌ على إرغامِ أمَّةِ الإسلامِ وصَهْرِهَا في بوتقةِ الكُفْرِ الصليبِيِّ– الصهيونِيِّ، والقضاءِ على هُوِيَّتِهَا. إلاَّ أن هذه المؤامراتِ والجناياتِ مَا لَبِثَتْ حتى بَدَأتْ تُهَدِّدُ مُدَبِّرِيهَا ومرتكبيها بالذات.

من هذه التهديدات على سبيل المثال: أنَّ الفواكهَ والخضارَ وكثيرًا من الموادِّ الغذائيَّةِ التي لَعِبَ الصهاينةُ بموادِّهَا الأساسِيَّةِ تجاوزتْ أضرارُها ومخاطِرُها حدودَ بلادِ المسلمين وبدأتْ تنتشرُ في بلادِ أُمَّةِ الْكُفْرِ في الأوانِ الأخيرةِ. ومنها: أن أجواءَ الكرةِ الأرضيَّةِ (وطبقةَ الأوزون بالتحديد) حدثَ فيها خَلَلٌ بفعلِ غازاتٍ تعمَّدَتْ أُمَّةُ الْكُفْرِ تَصْنِيعَهَا بخاصةٍ لاستغلالِها واحتكارِها لأجلِ الإفسادِ بالصِحَّةِ العامَّةِ في الوطنِ الإسلامِيِّ، إلاَّ أنَّ مساوِيَها بدأتْ تعودُ على صُنَّاعِها بالذات. ومنها: أنَّ أمّةَ الكفرِ كوّنَتْ في السنين الأخيرةِ جيوشًا من الشبابِ الطائشين والغوغاء في مناطق متختلفة من الوطن الإسلامِيِّ لإثارة الفتن بين المسلمين، إلاَّ أن هذه العصابَاتِ بدأت تُدِير أسلِحَتَها نحو الذين جَنَّدُوها وبضراوة.

---

[153] العلق/6،7

تبرهن على هذه الحقيقة الإنقلاباتُ العسكريةُ وأعمالُ السطوِ والإرهابِ التي سَاهَمَتْ في إثارَتِهَا الشبكاتُ الاستخباراتيَّةُ الأوروبِيَّةُ والأميركِيَّةُ والإسرائيليَّةُ... على سبيل المثال: أنَّ جميع الإنقلاباتِ التي حدثتْ على أرضِ العراقِ كانت وراءَها الشبكةُ الإستخباراتيَّةُ البريطانيَّة. وجميعَ الإنقلاباتِ التي حدثتْ على أرضِ تركيا كانت وراءَها الشبكةُ الإستخباراتيَّةُ الأميركيَّةُ. وما أدَلَّ على هذه الحقيقةِ ما جرى من علاقاتِ التعاوُنِ بين أميركا والعصابَتَيْنِ اللاَّدِينِيَّةِ وَالدَّاعِشِيَّةِ وقد فشت أسرارُها. كما احتضنتْ الحكومةُ الأميركيَّةُ رأسَ العصابةِ الفتوشِيَّة (فتح الله كولن) الذي حاول أتباعُهُ الوُثُوبَ على سلطةِ الدولةِ التركيَّةِ في انقلابِهِمْ الفاشِلِ ليلةَ **15** تموز عام **2016**م.

إنَّ السجلَّ الأسودَ للعولمة الزرقاءِ يبدأُ أصلاً بالحروبِ التي شنتها أمةُ الكفرِ على الإمبراطورية العثمانيةِ قبل قرنٍ. ولكن الله تعالى أربكَ أمةَ الصليبِ وأوقعها في الكمين الذي نَصَبَتْهَا –ليكون المسلمون فحسب هم الضحايا–، ولكن الله فرَّقَ صفوفَ الصليبِيّين، وسَلَّطَ بعضَهم على بعضٍ، وعذَّبَهُم بأيديهم، وهذه قصةُ أسرارِها بإيجاز.

***

14) الْخِلاَفُ وَالنِّزَاعُ وَالْحُرُوبُ وَعَوَامِلُ إنْهِيَارِ الأُمَّةِ:

وردتْ تعريفاتٌ عديدةٌ في المصادرِ العلميَّةِ لِمَفْهوم "الخلافِ"، خُلاصتُها. "أنَّه هو التباينُ في الرأي بين طرفين أو أكثر، وله أسبابٌ متنوعةٌ؛ كحرصِ الإنسانِ على الإستقلالِ الفردِيّ، وتفاوت الأَفهامِ، وتبايُنِ المواهبِ والمهاراتِ، والمقاصد... ومن الخلافِ ما هو مقبول، وما هو مذموم. وقد صنَّفَهُ العلماءُ وشرحوه في مظانِّهِ.

والاختلافُ سُنَّةٌ فطريَّةٌ من سُنَنِ الحياة، وَجِبِلَّةٌ بشرِيَّةٌ. قال تعالى: "وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ."[154] وقال تعالى: "وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ..."[155] وفي ذلك آيات كثيرة. ومتى كان الاختلافُ على أساسٍ من الْحُجَّةِ والبُرْهانِ وكان لِمَحْضِ طلبِ الحقِ، والرغبةِ في الوصولِ للحقائِق فهو مقبولٌ

[154] المائدة/**48**

[155] هود/**118**،**119**

ونافع. وأمَّا إذا كان ناشِئًا عن هوًى أو تهاونٍ بالمبادءِ والثوابتِ العلميَّةِ، أو جُحودٍ أو تعصُّبٍ، فهو مذمومٌ وضارٌّ ومدمّرٌ للنظام.

لقد كان السلف الصالحون يختلفون فيما بينهم، إلاَّ أنَّ اختلافَهم كانَ ناشئًا عن علمٍ ومن منطلقِ الحُجَّةِ والبرهانِ، خاليًا من التعصُّبِ والحرصِ على الغلبةِ، بل إعانةً على التسامُحِ والتطاوُعِ، وليس على التصارُعِ والتنازُعِ، كما كان طلبًا للوصولِ إلى التكامُلِ والحْوارِ البَنَّاءِ... رُوِيَ أنَّ الإمامَ الشافعِيَّ ﷺ قال: "ماناظرتُ أحدًا قطُّ فأحببتُ أن يُخْطِىءَ. وقال: ما كَلَّمْتُ أحدًا قط إلا احببتُ أن يُوَفَّقَ، ويُسَدَّدَ، ويُعَانَ، ويكونَ عليهِ رعايةٌ من الله تعالي وحفظٌ؛ وما كلَّمْتُ أحدًا قطُّ وأنا أبالِي أنْ يبيِّنَ اللهُ الحقَّ علي لسانِي أو علي لسانه."[156] لذلك نجحَ سلَفُ هذه الأُمَّةِ في بناءِ صرحٍ متينٍ من العلومِ والآدابِ ومكارِمِ الأخلاق، خَلَّدَتْ ذكرَهم بحروفٍ ذهبيَّةٍ في سجل التاريخ، فذهبوا بشرف الدنيا وكرامةِ الآخرة. رضوان الله عليهم أجمعين.

ولما اختلَّتْ العقيدةُ وانتفخَتْ صدورُ بعضِ الْمُتَعَالِمِينَ بِوساوِس الشيطانِ، اختلَّ منهجُهُمْ وساءَ سلوكُهُمْ قبل انصرامِ عهد السلف، فَبَدَأ العدولُ عن الوسطيَّةِ والإعتدالِ شيئًا فشيئًا، حتّى نَشِبَتْ فتنةُ المذهبِيَّةَ، فكانت أوَّلُ فرقةٍ عَقَدِيَّةٍ عدلتْ عن العقيدة الصحيحة: هي الخوارجُ. ثم ظهرتْ بعدَهم الشيعةُ، ثم المرجئةُ، ثم المعتزلةُ، ثم الجَهْمِيَّةُ... ثم تَشَعَّبَتْ كلٌّ مِنْ هذه الفِرَقِ إلى عديدٍ من الفروعِ، فاحتدم الصراعُ الفكرِيُّ والعقدِيُّ فيما بينها من جانبٍ، وفيما بينها بين أهل السنة والجماعة من جانبٍ آخرَ. وهذه المنازعاتُ، سواءٌ التي دارتْ فيما بين تلك الْفِرَقِ، وما جرتْ بينها وبين أهل السنة والجماعة، كانت في البداية أجتهاديةً وفي حدودِ المناظرة والمجادلة والمساجلة فحسب. لكنَّ الأمرَ لَمَّا تجاوز مستوى النقدِ العلمِيّ إلى حدودِ الْمُعَاتَبَةِ والمشاتمةِ والملاعنةِ والمغالبةِ، أخذتْ المواقفُ طابِعًا من البُغْضِ والعداوة، فأفضى إلى استعمالِ العنفِ ومحاولةِ الإرغامِ والإكراه. فما لبثَ حتى اندلعتْ حروبٌ مذهبيَّةٌ وقتالٌ لأجل الإملاءِ قسرًا، ولا تزال تعصِفُ بالأمة إلى هذه الساعة.

كانت سلطةُ الدولةِ الإسلاميَّةِ في عهدِ الصحابةِ، وفي العهدِ الأموي، وخلالَ أغلب العهد العباسِيّ تَحْرِصُ على حِمايةِ عقيدةِ أهلِ السنةِ والجماعةِ، وتَقِفُ في وجهِ النزاعِ وقوفًا صارِمًا باتِّخاذِ احتياطاتٍ نظاميَّةٍ، وبفضلِ جهودِ العلماءِ وإرشاداتِهم. ولذلك لم تَلْبَثْ فتنةُ "خلقِ القرآنِ" طويلةً حتى خَمَدَتْ

[156] أبو حامد مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن مُحَمَّد الغزالي، فاتحة العلوم، ص/33، المطبعة الحسينية، القاهرة–1322هـ.

وَزَالَ خطرُها. كما عُوقِبَ الحسينُ بنُ منصورِ الحلاَّج، (رأسُ الزنادقةِ) وأمثالُهُ لَمَّا خيفَ أن يَسْتَفْحِلَ أمرُهُم وتتفاقمَ شرُّهُمْ وتنتشرَ كفرياتهم في المجتمع.

كانت الْمُسَالَمَةُ والعدالةُ هما الأساسُ لسياساتِ الدولة الإسلامِيَّةِ الداخليَّةِ منها والخارجِيَّةِ، امتثالاً بما ورد من التأكيد عليهما في الكتابِ العزيز والسنةِ النبوية المطهرة. إنَّ اللهَ تعالى يقول: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ."[157] ويقول تعالى: "وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ."[158]، ويقول تعالى: "لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ."[159]، ويقول تعالى: "فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً."[160] ويقول تعالى: "أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ..."[161]، ويقول تعالى: "وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا." (البقرة/**190**). كل هذه الآيات البينات تبرهن على أن الإسلامَ لم يُشَرِّعِ القتالَ وإهراقَ الدمِ إلاَّ لرفعِ العدوانِ، وإحباطِ الطغيانِ، وحمايةِ النفوسِ والأعراضِ والأوطانِ من ظلم الجبابرة ومداهمة العدوّ... ولذلك جديرٌ بالجهادِ أنْ يوصفَ بأنه "دَفْعٌ حَضَارِيٌّ لاَ صِرَاعٌ"، كما ورد على لسانِ بعضِ علماءِ المسلمين.

إنَّ السلمَ هي من القواعد الأصليَّةِ في الشريعة الإسلامية. أمَّا الحربُ فليست كذلك، وإنما يَتَبَنَّى الإسلامُ في علاقاتها مع سائرِ الأُمَمِ والطوائفِ على أساسِ الحكمةِ، والموعظةِ الحسنةِ، والمجادلةِ بالحسنى والإقناع، وعدمِ اللجوءِ إلى منطقِ القوةِ إلا لضرورة. ذلك لأنَّ الحربَ ظاهرةٌ وحشيةٌ، وجِنايَةٌ عظيمةٌ تَلَبَّسَتْ بها المجتمعاتُ الإنسانيَّةُ مِنْ لَدُنْ آدَمَ إلى يومِنَا هذا. تَنْشَبُ عادةً بسببِ المنافسةِ بين طَرَفَيِ النزاعِ، والتهارشِ على المصلحة؛ يريدُ أحدُهما أنْ يفرِضَ سلطانَهُ على الآخَرِ، ويعملَ على قهرِهِ وإذْلاَلِهِ. يؤدّي ذلك إلى مَتاهاتٍ وانتِهاكاتٍ من التشريدِ والقمعِ والقتلِ والإبادة... ولهذا لا يرى الإسلامُ إعلانَ الحربِ إلاَّ أن تكونَ آخِرَ الخياراتِ، بل ليستْ هِيَ أصلاً

---

[157] البقرة/**208**

[158] الأنفال/**61**

[159] الممتحنة/**9**

[160] النساء/**90**

[161] الحج/**39،40**

من خياراتِ الإسلامِ في شيءٍ ما لم يضطرَّ المسلمون للدفاعِ عن أنفسِهِمْ وأعراضِهِمْ وأوطانِهِمْ... كما حدثَ تقريبًا في كل معركةٍ خاضوها؛ كموقفهم في صدِّ الحروبِ الصليبيةِ وغيرِها.

لكنَّ أعداءَ الإسلامِ والمسلمين، خاصةً الشعوبَ الغربيَّةَ المسيحيَّةَ منهم، لم يألوا جهدًا في الهجوم على المسلمين عند كل فرصةٍ وبإستمرارٍ على مدى التاريخ الإسلامِيّ من بدايتِهِ إلى اليوم. إندفعوا بجيوشهم العارمةِ على الوطن الإسلامِيّ خاصّةً كُلَّما وجدو المسلمين في ضَعْفٍ وشتاتٍ. إلاَّ أن المسلمين كانوا هم الغالبين على أعدائِهِمْ مع قِلَّةِ عددِهِمْ، ونقصِ قُوتِهِمْ وبساطةِ عَتَادِهِمْ، يوم كانوا أقوياءَ في عقيدتِهِمْ مخلصين لله في دينهِمْ... فهذه حربُ أجنادين التي تصدَّى فيها قِلَّةٌ من المسلمين الأوائلِ لِرَدِّ غطرسةِ الدولةِ البيزنطيَّةِ يوم 28 جمادى الأولى سنة 13 من الهجرةِ النبويَّةِ عليه السلام. هجمَ الرومُ على دارِ الإسلامِ بجيشٍ جرارٍ قِوَامُهُ مِئَةُ ألفِ مقاتلٍ، بينما الجيشُ الإسلامِيُّ لم يكنْ يربو عن 30 ألفًا أغلبُهُمْ مشاةٌ. ولكنَّ اللهَ تبارَكَ وتعالى أعزَّهُمْ بنصرٍ من عندِهِ جزاءً بما صبرو وثبتوا في وجه العدُوِّ، واحتسبوا أجورَهُمْ عند الله. تلك أوَّلُ معركةٍ يخوضها المسلمون للدفاعِ عن دينِهِمْ ووطنِهِمْ وأعراضِهِم، وحمايتِها من الهجمةِ الصليبيَّةِ الكافرة التي كانت تريدُ أن تَخْنُقَ الدولةَ الإسلاميَّةَ الفتيَّةَ وهي في مهدِهَا.

مُنِيَتْ القوَّاتُ البيزنطيةُ بالهزيمةِ كذلك أمامَ الجيشِ الإسلامِيّ في معركةِ اليرموكِ، وهي معركةٌ خالدة بشَّرَتْ بِبُزُوغِ فجرٍ جديدٍ من التوسُّعِ والعزَّةِ والْمِنْعةِ للمسلمين. كان عددُ جيش المسلمين أقلَّ من ثلاثين ألفَ مقاتلٍ، وقيل أكثر من ذلك بقليل، بينما كان عددُ جيشِ الرّومِ يقارِبُ الْمِئَتَين وأربعين ألفًا. بدأ القتالُ يوم 20 أغسطس عامَ 636 من ميلاد المسيح عليه السلام. قُتِلَ منهم خلالَ اليومين الأوّلَيْنِ ما يقاربُ مَئَةً وعشرين ألفًا؛ دخل في قلوبهم الرعبُ ولاَذوا بالفرارِ وانهزموا هزيمةً منكرةً. أمَّا عددُ شهداءِ المسلمين فكانَ قُرَابَةَ ثلاثَةِ آلافٍ فحسب.

نعم، قد تركَ سلفُ هذه الأُمَّةِ الصالحون وراءَهُم بطولاتٍ مجيدةً في الدهاءِ القِتَالِيّ، والتفاوُضِ السياسِيّ، يومَ كانوا على العقيدةِ الصحيحةِ وقلوبُهُمْ عامرةٌ بالإيمانِ الصادقِ فظفروا بانتصاراتٍ مؤزرةٍ على أعدائِهِمْ من المجوسِ والصليبِيّين، كانتصارِهِمْ في معركةِ القادسيَّةِ، وحطّينَ، وعين جالوت، والزلاَّقةِ، وَمَلاَزْكَردْ وغيرِهَا من المعارِكِ الكُبْرَى التي كانتْ أيامًا مشهودَةً غيَّرَتْ وجهَ التاريخِ، وأثَّرَتْ في مسيرتِهِ.

لكنَّ الأمَّةَ لَمَّا عدلتْ عن الصراطِ المستقيمِ بالتقليدِ الأعمَى لليهودِ، والنصارَى، والفلاسفةِ، واليوغِيَّةِ البوذيّين، والمشعوذين ... وظهرَ قرنُ الشرِّ بانتشارِ الفكرِ الصوفِيِّ الباطِنِيِّ على ساحاتِها تحت وِشاحِ الزُّهدِ والتقوى، وَبُنِيَتْ بِجانِبِ مساجِدِهَا تَكَايَا المجوسِ وزوايا الرهبنةِ[162] وَخَانَقَاهَاتِ الرياضةِ[163]، إحياءً لذكرى الأجدادِ الذين كانوا قبل الإسلام معتنقين للديانةِ البوذيَّةِ. كما أرْبَكَتِ الفلسفةُ عُلَمَائَها حتى صاروا يُمَجِّدُن الْعَقْلَ ويُقَدِّمُونَهَا على الكتابِ والسنةِ... بدأتْ ظلمةُ الخذلانِ تُخَيِّمُ على المسلمين والخليفةُ العباسِيُّ قد أصبح دُمْيَةً يتلاعبُ به الوزيرُ الرافضِيُّ. والمجتمعُ تائهٌ تتلاطَمُ به موجاتُ الشقاقِ والخلافاتِ المذهبِيةِ، فَهُزِمُوا في عُقْرِ دارِهم عندَما زَحْفِ هُولاَكُو المغولِي الذي دَاهَمَ الوطنَ الإسلامِيَّ بجحافِلِهِ الوحشيَّةِ ودخل بغدادَ عاصمةَ الدولةِ الإسلاميَّةِ عنوةً (عامَ 656هـ. 1258م.) فاستباحَهَا وَدَمَّرَهَا وأحْرَقَ مكتباتِهَا الزاخرةَ بنفائسِ الْكُتُبِ، وقتلَ الخليفةَ وأهلَهُ.[164]

---

[162] كلمة زوايا صيغة جمعٍ، مفردها: زاوية وهي مشتقة من الفعل "انزوى، ينزوي" بمعنى اتخذ ركنا، كما أنها مأخوذة من فعل "زوى" و "أزوى" بمعنى ابتعد وانعزل، كما في كتب اللغة سميت كذلك لأن الذين فكروا في بنائها أول مرة هم من المتصوفة والمرابطين، اختاروا الانزواء بمكانها والابتعاد عن صخب العمران وضجيجه طلبا للهدوء والسكون اللذين يساعدان على التأمل والرياضة الروحية.

بنيت الزوايا والتكايا بعد صدر الإسلامِ في الحقبة التي تعرفت طوائفُ من الأعجامِ على الدين الإسلامِيِّ واعتنقوه بغير رويةٍ ومعرفةٍ بحقيقته، فاستصحبوا من دياناتهم القديمةِ عاداتٍ ومناسك مزجوها بتعاليم الإسلام. فكانت من جملة هذه العاداتِ البدعية بناءُ التكايا والزوايا للتعبد والرياضة فيها على أساليب الديانات الهندية. فانتشرت في الوطن الإسلامِيّ بجهود الصوفِيَّةِ وأهل الشعوذة. هدمت وسويت بالأرضِ ما كان قد بني منها في مهبطِ الوحي بجهودِ السلفيين، وبقيت الأخرى التي ما زال كثير منها في مصر، وسوريا، والعراق، وتركيا بخاصّةٍ.

[163] الخانقاه (معرب فارسية: خانگاه) هو المكان الذي ينقطع فيه المتصوف للعبادة، اقتضت وظيفتها أن يكون لها تخطيط خاص، فهى تجمع بين تخطيط المسجد والمدرسة ويضاف إلى هذين التخطيطين الغرف التي يختلى أو ينقطع بها المتصوف للعبادة والتي عرفت في العمارة الإسلامية باسم الخلاوى. في العصر المملوكي اطلقت كلمة خانقاه على المجموعات الدينية الكاملة للسلاطين مثل خانقاه السلطان بيبرس الجاشنكير ومسجد الأشرف برسباي وضريحه بقرافة المماليك. (المصدر: https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%AE%D8%A7%D9%86%D9%82%D8%A7%D9%87)

[164] يقول الأستاذ حسن السوداني عن مقتل المستعصم بالله آخر الخلفاء العباسيين:

"لقد اتفق ابنُ العلقمِيّ والطوسِيُّ مع ملةِ الكُفْرِ ضدَّ الخلافةِ الإسلاميةِ بحُجةِ الدفاعِ عن أنصارِ الإمام علي ﷺ وشيعتِهِ. ومعرف أن الطوسِيَّ يسمَّى أستاذَ البشرِ والعقلِ الحادي عشر، وسلطانَ المحقّقين وأستاذَ الحكماءِ والمتكلّمين وأصله من طوس وهي من توابعِ مدينةِ قُمْ، ويعتبر الطُّوسِيُّ فخرَ الحكماءِ ومؤيّدَ الفضلاءِ ونصيرَ الملَّةِ، ولا ندري هل كان هولاكو مِنْ هؤلاء الفُضلاءِ الذين أيَّدَهمُ الطوسِيُّ؟ وهل كان المغول هي الْمِلَّةَ التي نَصَرَهَا الطُّوسِيُّ على المسلِمين فهتكتْ الأعراضَ وخرَّبتْ مركز الحضارةِ الإسلاميةِ؟ لقد كان الطوسِيُّ وابنُ العلقمِيّ من حاشيةِ هولاكو، وهو يُخَرِّبُ ضريحَ الإمامِ موسَى الكاظم، فلم يَبْدُ منهما مَا يَنُمُّ عن اعتراضٍ!

تُجْمِعُ المصادِرُ التي وصفتْ الساعاتِ الأخيرةَ من حياةِ الخلافةِ العباسيَّةِ الإسلاميَّةِ على أنَّ هولاكو قد استشارَ أحدَ المنجِّمينَ قبلَ أن يبدأ غزوتَهُ و كان المنجِّمُ الْفَلَكِيُّ حسامُ الدين مُسْلِمًا غيورًا على المسلمين وحياتِهِمْ، فقرأ له ما يلي: "إنَّ كُلَّ مَنْ تجاسرَ على التصدّي للخلافةِ والزحفِ بالجيشِ إلى بغدادَ لم يبقَ له العرشُ ولا الحياةُ، وإذا أبَى الْمَلِكُ أنْ يَسْتَمِعَ إلى نُصْحِهِ وتمسَّكَ برأيِهِ فَسَيَنْتجُ عنه ستُّ مَهَالِكَ: تموتُ الخيلُ، و يَمْرَضُ الجُنْدُ، لن تَطْلُعَ الشمسُ ولم ينزِلِ الْمَطَرُ ثم يموتُ الخانُ الأعظمُ.

لكن مستشاري هولاكو قالوا بغزوِ بغدادَ وعدمِ الاستماعِ لرأيِ الْمُنَجِّمِ، فاستدعَى هولاكو العلاَّمَةَ نُصَيْر الدِّين الطُّوسِيَّ الذي نفا ما قاله حسامُ الدين وطمأنَ هولاكو بأنه لا توجدُ موانعُ شرعيَّةٌ تَحُولُ دون إقدامهِ على الغزوِ، ولم يقفْ الطوسِيُّ عند هذا الحدِّ، بل أصدرَ فتوى يؤيّدُ فيها وُجهةَ نظرِهِ بالأدلّةِ العقليَّةِ والنقليَّةِ

بدأت تتضعضع حالةُ الأُمَّةِ منذ تلك الحقبة، وانفصمتْ عُرَاهَا، وتفرقتْ إلى دويلاتٍ صغيرةٍ وضعيفةٍ حتى طمعتْ الشعوبُ الغربيَّةُ في الاستيلاءِ عليها، وما لبث حتى تقاسموا بُلْدَانَهَا، وكادتْ الأمَّةُ أنْ تضمحِلَّ وتنزاحَ عن مسرح التاريخ تمامًا، لولا أن هَيَّأَ اللهُ لها الدولةَ العثمانيَّةَ لِتَحْمِلَ رايَتَها من جديدٍ وإنْ لم تكنْ على منهجِ الخلافةِ الراشدةِ. ولكنَّ اللهَ جعلها معقلاً تَحَصَّنَ بها قِلَّةٌ من الصالحين فحملوا تراثَ الأمةِ تحت مظلةِ هذه الدولةِ العملاقةِ مدة **627** عامًا من الزمن حتى انهارَتْ على يدِ الحلف المسيحي- الصهيوني عام **1920**م. فشاعتْ الفاحشةُ بعد ذلك في المجتمعات الإسلامية على غرارِ شعوبِ الغربِ المسيحيَّةِ، وانتشرَ بينهم الفُسُوقُ والفجورُ والخرافاتُ، وشذوذٌ، فهانت الأعراضُ، واختلطَ الربا بطعَامِ مُعْظَمِهِمْ، وخَلَتْ قلوبُهم من الرحمةِ والشَّفَقَةِ على خلق الله... فوصلَ الأمرُ إلى حدٍّ من الضلالةِ والفوضى حتى قامتْ عصاباتٌ منهم اليومَ بِالعَمَالَةِ لأعداءِ الإسلامِ في الداخلِ تحت سِمَةِ "الدولةِ الإسلاميَّةِ" يزعمون أنهم يجاهدون في سبيلِ اللهِ وهم في الحقيقة وحوشٌ ضاريةٌ من الخوارجِ، أصبحوا عقبةً خطيرةً أمامَ الصحوةِ الإسلاميَّةِ في عصرِنا.

لاَبُدَّ هنا وبهذه المناسبةِ أن نعودَ بُرْهةً إلى بزوغِ فجرٍ صحتْ هذه الأمةُ معه من نومِها العميقِ بعد قرونٍ، وبدأتْ اليقظةُ تَنْبِضُ في جسدِها لأوَّلِ مرَّةٍ في قلبِ صحراءِ نَجْدٍ بظهورِ الدعوةِ إلى توحيد الله سبحانه، ونبذِ الإشراك به.

أراد الله تعالى أنْ يظهرَ داعيةٌ مُصلِحٌ من عبادِهِ الصالحين اسمُهُ مُحَمَّد بنُ عبدِ الوهَّاب رحمه الله. نهضَ بعزيمةٍ قويَّةٍ، وصدقٍ، وصبرٍ، ويقينٍ، وإخلاصٍ، (وإن لم يكن عن علم موفور)، انطلقَ بمسؤوليةِ ورثَةِ الأنبياءِ والمرسلين صلواتُ الله وسلامُهُ عليهم، لأجلِ إحياءِ التوحيدِ الخالصِ. كان ظهورُهُ شبيهًا

وأعطَى أمثلةً على أنَّ كثيرًا من أصحابِ الرسولِ قُتِلُوا ولمْ تقعْ الكارثَةُ، وغزا هولاكو بغدادَ بفتوَى الطوسِيّ وبمعلوماتِ ابْنِ العلقمِيّ، وهما وزيراهُ الفارسِيَّانِ، ولم يستسلِمْ المستعصمُ، فقد أشارَ عليه البعضُ بأنْ ينزِلَ بالسفينةِ إلى البصرةِ ويقيمَ في إحدَى الجُزُرِ حتى تسنَحَ الفرصةُ ويأتِيَهُ نصرُ اللهِ، لكنَّ وزيرَهُ ابْنَ العلقمِيّ خدعه بأنَّ الأمورَ ستسيرُ على مَا يرامُ لو التقَى بِهولاكو.

فخرج المستعصمُ ومعه **1200** شخصيَّةٌ مِنْ قضاةٍ ووُجَهَاءَ وعلماءَ، فقتلهم هولاكو مرةً واحدةً، ووضعَ المستعصمَ في صُرَّةٍ مِنَ الْقُمَاشِ وداسَتْهُ سَنَابِكُ الخيلِ، وكان قتلَى بغدادَ كما تقولُ المصادرُ المعتدِلَةُ: **800** ألفِ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ كانوا هُمْ ضحايا ابْنِ العلقمِيّ والطُّوسِيّ والأخِيرُ كان قد أصدرَ فتوَى بِجَوَازِ قتلِ المستعصمِ حين تَرَدَّدَ هولاكو عن قِتْلِهِ، فَأفهمهُ الطُّوسِيُّ أنَّ مَنْ هو خيرٌ منهُ قد قُتِلَ ولم تُمْطَرِ الدنيا دَمًا، وقد اسْتُبِيحَتْ بغدادُ في اليومِ العاشرِ من شباطَ، عامَ **1258**م. ولم يكن ذلك اليومُ آخرَ نَكْبَةٍ حَلَّتْ بالأمَّةِ على يدِ الوزراءِ الْفُرْسِ ولاَبِسِي الْعِمَامَةِ الْفَارِسِيَّةِ الْمَجُوسِيَّةِ."

بفجرٍ جديدٍ أطلَّ بنورِهِ على الوطن الإسلاميِّ بعد ليلٍ طالَ عصورًا اختفتْ في سوادِ ظلماتِهِ حقيقةُ التوحيد.

بدأ الشيخُ بالنصيحةِ ونشرِ المعرفةِ، فأرشدَ الناسَ أولاً إلى العقيدةِ الصحيحةِ التي كان عليه الرسولُ الكريمُ عليه السلام وأصحابُهُ عليهم الرضوان، وحَذَّرَ مَنْ حولَهُ من الإشراكِ بالله، ثم توسَّعَ في دعوتِهِ فوجَّهَهَا إلى الزعماءِ وإلى كافةِ أبناءِ المجتمع من الأعرابِ وأهل الحضر؛ دعاهم إلى نبذِ كُلِّ ما يعبدون من دونِ الله. ثم بعد أنْ أخذ شوطًا في تمهيدِ السبيلِ بالتبليغِ والدعوةِ والنصيحةِ بدأ بإعلانِ الحربِ على الشركياتِ من عبادة الأوثانِ، والبِدَعِ، والخرافاتِ، فعرضَ بذلك نفسَهُ للمخاطر.

لكنه ظَلَّ صامدًا على ما هو عليه من الحقِّ، قويَّ الأملِ، متوكِّلاً على ربِّهِ الذي لم يخذله عندما أمره حاكمُ منطقةِ الْعُيَيْنَةِ عثمان بن معمر بالخروجِ من أرْضِهِ، وتوعَّدَه سليمانُ بنُ عريعر الخالِدِيُّ أميرُ منطقةِ الإحساءِ. فسخَّرَ اللهُ له أميرَ الدرعيةِ محمَّدَ بنَ سعودٍ الذي قام بِنُصْرَتِهِ، وأيَّده، وحمل رعيَّتَهُ على الاستجابةِ لدعوتِهِ، وباشر بهدمِ رموزِ الشركِ في أنحاءِ المنطقةِ التي يحكمها، فأزالَ جميعَها من القِبابِ والأضرحةِ والمزاراتِ والمشاهِدِ التي كان الناسُ يشدُّون الرحالَ إليها، ويعكفون عليها، ويطوفون حولها، ويتضرَّعون إليها لقضاءِ حوائجِهِمْ وشفاءِ مرضاهم، وتوسيعِ أرزاقِهم حتى تمَّ تطهيرُ المنطقةِ من تلك الأرجاس تمامًا.

وما إنْ ذاعَ صِيتُهُ، وأخذتْ دعوتُهُ –إلى العقيدةِ الحنيفةِ– تَسْرَعُ في الإنتشار، ويزدادُ ناصروهُ حتى هَبَّتْ سُلُطَاتُ الدولةِ العثمانيَّةِ لإحباطِ جهادِهِ واحتواءِ مؤيِّدِيهِ، والقضاءِ عليهم جميعًا بدون رحمة، كما هو حالُ أهل الشركِ في معاملةِ أهلِ التوحيدِ في كُلِّ عصرٍ. ذلك أنَ الطوائفَ المنتسبةَ إلى الإسلامِ من مُكَوِّناتِ المجتمعِ العثمانِيِّ (عربًا وعجمًا)، معظمُ أفرادِها كانوا أهلَ الشركِ البواحِ، ولم يكنْ فيهم مِنْ أهلِ التوحيدِ الخالصِ إلاَّ قلةً مستضعفين، قلَّمَا يتجرَّءون على مواجهة المشركين لكثرتِهم وغلبتِهم. خاصّةً وأنَّ الطريقةَ النقشبندِيَّةَ قفزتْ من الهندِ إلى الديار العثمانية في تلك الحقبةِ بواسطة خالدِ البغدادِيِّ الذي كان ولا شكَّ من أخطر الزنادقة الذين ظهروا على مدى التاريخ الإسلامِيِّ، كما كان الرجلُ من ألدِّ أعداءِ أهلِ التوحيد. وخُطُورَتُهُ تكمُنُ في أنَّ بدعتَهُ انتشرتْ في أوساطِ الْمُجْتَمَعِ العثمانِيِّ أسرعَ مِنْ انتشارِ النارِ في الهشيم. وحالفَهُ الحظُّ أنْ انْصاعَ له السلطانُ العثمانِيُّ محمودِ الثاني، وأرخى له العنانَ فانخرطَ رجالُ بلاطِهِ في سلك البغدادي، وحتَّى الأميرةُ عادلة بنتُ السلطان محمود بالذَّات اعتنقتْ عقيدةَ البغدادِيِّ فكانتْ تَتَعَبَّدُ على الطريقتِهِ الهندوسِيَّةِ. وإنما

دانت الحكومةُ العثمانيةُ لخالدِ البغدادِيّ لِمَا كان يجاهرُ من الكراهية والبُغْضِ للشيخ مُحَّد بن عبد الوهاب ودعوتِهِ. فتعاونتِ الحكومةُ مع البغدادِيّ إلى أبعدِ الحدودِ لكسبِ الجموعِ الْمُلْتَفَّةِ حولَهُ واستغلالِهِم في حربِ أهل التوحيد.

وأمّا الطريقةُ النقشبنديةُ (وما أدراكَ ما النقشبندية!!!) فإنّها تيارٌ صوفِيٌّ خطيرٌ من امتدادِ الدياناتِ الهندِيَّةِ. وإنَّ خطورتَها تكمُنُ في تركيبِ تعاليمِهَا الماكرةِ التي تجمعُ بين مَبَادِئِ مذهبِ (مَاهَايَانَا البوذِيّ) وكثيرٍ من الأذكارِ والدعواتِ المأخوذةِ من الإسلامِ. فيحصل بها إرتباكٌ شديدٌ في أوساطِ الجماعاتِ الساذِجَةِ البعيدةِ عن حقيقةِ التوحيدِ الذين يجهلون التمييزَ بين ما هو من الإسلامِ وما مُزِجَ بِهِ من تعاليمِ أهلِ الكفر. فيستغِلُّهُم الدَّجاجِلَةُ والزنادقةُ من شيوخِ النقشبندية.

يُفتَرَضُ أنَّ خالدَ البغداديَّ كانَ من عُمَلاَءِ الدولة البريطانية، وثَمَّةَ دلائلُ تؤكد على هذه الحقيقةِ، منها: أنَّ شخصًا هِنْدِيًّا اسْمُهُ (مِيرْزَا رَحِيم أَللهِ بِيكْ) المعروف بلقب: "مُحَّد دَرْوِيشْ عظيمآبادي"[165] زارَهُ في بَلَدِهِ (مدينةِ السليمانيَّةِ العراقيَّةِ) عام 1810م. وذلك فَجْأَةً دُونَ سَابِقِ إِنْذَارٍ! واجتمعَ به في خَلاَءٍ، وعرضَ عليه أنْ يصاحِبَه في عودتِهِ إلى الهند، فقال له مِيرْزَا رَحِيم: «إنّ لي شيخًا كاملاً مرشدًا عالمًا عارفًا بمنازِلِ السائرين إلى ملكِ الملوك، خبيرًا بدقائقِ الإرشادِ والسلوكِ، نَقْشَبَنْدِيَّ الطريقة، مُحَّدِيّ الأخلاقِ، عَلَمًا في علمِ الحقيقةِ. فَسِرْ مَعِيَ حتّى نَرْحَلَ إلى خِدْمَتِهِ في جِهَانْآبَاذْ، وقد سمعتُ منه إشارةً بوصولِ مِثْلِكَ ثم إلى المراد».[166] ولا يخفى ما في هذه الكلمات التي يُطْلِقُهَا مِيرْزَا رَحِيم من الشعوذةِ وادّعاءِ علمِ الغيبِ في قولِهِ: "وقد سمعتُ منه إشارةً بوصولِ مِثْلِكَ ثم إلى المراد"، يعزو هذا العلمَ إلى شيخِهِ (عبد الله الدهلوي)، والله يعلم إنه لكاذبٌ. وَمِنْ هذهِ الدَّلائِلِ أيضًا: كلماتُ الشيخ معروف البرزنجِيّ الذِي اتَّهَمَ بها خالدًا البغدادِيَّ وهو من معاصريهِ ومن معارِضِيهِ، يقول: «إنَّ الأكرادَ كلَّهُمْ قد اتَّبَعُوهُ. وملأَ بِبِدْعَتِهِ الآفاقَ، وإنَّه يَدَّعي التصرُّفَ في الكائناتِ، ويدَّعِي عِلْمَ الْغيبِ، وإنَّه ذهبَ إلى الهندِ فتعلَّم من السَّحَرَةِ الجُوكِيّةِ ومن نصارى الإنجليزِ دينًا ظهرَ عِنْدَهُمْ».[167] وَمِنْ هذهِ الدَّلائِلِ أيضًا: أنَّ الشبكةَ الإستخباراتيَّةَ الإنجليزيَّةَ لَمَّا اختلقتْ لَقَبَ

---

165 هذه القصَّةَ نقلها عدةُ رجالٍ من النقشبنديّين الّذين تصدّوا لترجمة خالد البغداديّ، منهم قسيم الكُفْرَوِيّ في تركيا. سجل هذه الحكاية في الصفحة الثالثة بعد المائة من كتابه: Nakşibendiliğin Kuruluşu ve Yayılışı. حصل المؤلّف بهذا الكتاب على شهادة الدكتوراه من جامعة إسطنبول–كلية الآداب عام 1949م. وهذا الكتاب المدوَّن باللّغة التركيّة، أعدّه المؤلّفُ على الآلة الكاتبة. وهي نسخة واحدة لا ثانية لها حتّى الآن، مودعة في خزانة معهد التركيات بمدينة إسطنبول، ومسجّلة تحت رقم/337.

166 عبد المجيد بن محمّد بن محمّد الخانيّ، الحدائق الورديّة في حقائق أجلاء النقشبنديّة ص/226.

167 * محمّد أمين السويدي، دفع الظلوم عن الوقوع في عرض هذا المظلوم (ديباجة)؛ مكتبة السليمانية، خزانة أسعد افندي رقم/1404. إسطنبول.

* محمّد مطيع الحافظ – نزار أباظه، علماء دمشق وأعيانها في القرن الثالث عشر الهجري 304/1.

"الوَهَّابِيَّةِ" لإِلْصَاقِهِ بأتْبَاعِ الشيخ مُحَمَّد بنِ عبدِ الوهاب، سُرْعَانَ ما بدأ البغدادِيُّ باستعمالِ هذا اللَّقَبِ في مُرَاسَلاَتِهِ على سبيلِ التشنيعِ والتبشيعِ لهم؛ يقول الغدادِيُّ في رسالةٍ جوابيَّةٍ إلى عبد القادر الحيدري، وهو أحدُ نُوَّابِهِ الذين كانو يبثُّون عقيدتَهُ، يقول:

«ثمّ بشّرتُمْ فيها دَاعِيَكُمْ ببعضِ الأخبارِ السارَّةِ من جهةِ الحرَمَيْنِ الشريفين، وغَلَبَةِ عساكرِ الإسلامِ وانتظامِ أمرِهِمْ، وذِلَّةِ الْفِرْقَةِ الْمَخْذُولَةِ الْوَهَّابِيَّةِ وَقُرْبِهِمْ على الدَّمارِ وَالبَوار، ووقوفِهِمْ على شَفَا جُرُفٍ هَار».[168]

يبدو أنَّ البغدادِيَّ ظَلَّ يَتَشَدَّقُ بأمثالِ هذه العباراتِ حتى انتشرَ استعمالُ هذا اللقبِ بين طوائفِ رعايا الدولةِ العثمانيَّةِ منَ العربِ والتُّرْكِ وَالْكُرْدِ وَغَيْرِهِم. فشاعَ ذلك على لسان النقشبنديِّينَ الأتراكِ بخاصَّةٍ؛ استعملوه بكثافةٍ وداموا على نشرِ الكراهيةِ للشيخ مُحَمَّد بنِ عبدِ الوهَّابِ وأتباعِهِ، كذلك في العهدِ الجمهورِيِّ، بعدَ أن تصدَّى رجلٌ مُتَشَيِّخٌ من هذه النحلةِ اسْمُهُ (حسين حلمي إشك Hüseyin Hilmi Işık)؛ قامَ بالدعاية لاستعمالِ هذا اللقبِ في كتاباتِهِ،[169] فانتشرتْ الكراهيةُ لِعامَّةِ العربِ في تركيا بتعميمِ صفة "الوهابية" على الأمَّةِ العربيَّةِ بأجمعها، ممَّا جعل الأتراكَ يتهمون الإنسانَ العربِيِّ – من أي بلدٍ كان – بأنه وهابِيٌّ متعصِّبٌ بعيدٌ عن التسامح، لا يحترم الأمواتَ... إلى غير ذلك من تعيير وتحقير.

ولكنَّ اللهَ تعالى هيَّأ للشيح مُحَمَّد بن عبد الوهاب أسبابَ التوفيقِ، فانتشرت دعوتُهُ، وَكَثُرَ أنصارُهُ، وَتَعَرَّفتْ جماهيرُ من الناسِ على توحيدِ اللهِ تبارك وتعالى، فنبذوا عبادةَ الأوثانِ بحمد الله، وقد كان معظمُ الناسِ (قبل ذلك) يَبْنُونَ القبابَ على بعضِ رجال الصوفِيّةِ، ثم يعكفون عليها، ويتمسحون

---

168 راجع المصادر التالي:

* محمّد أسعد الصاحب، بغية الواجد ص/ **172**: الرقعة الثالثة والأربعون من مكتوبات خالد البغداديّ؛ كتبها إلى خليفته عبد القادر الحيدريّ؛

ضياء يوسف العظمة، جيش رجال الطريقة النقشبندية بالعراق، المكتب العربي للمعارف.

* المصدر السابق، ص/ **183**: الرقعة الخمسون من مكتوبات خالد البغداديّ؛ كتبها أيضًا إلى خليفته عبد القادر الحيدريّ؛

* عبد الكريم البياري المدرّس، منشورات المجمع العلمي الكرماني، (تذكار الرجال)، الرقعة السادسة والثلاثون. مكتبة الحقيقة إسطنبول–**1992**م. (هذه الرسالة منضمة إلى رسالة أخرى اسمها مكاتيب شريفة لعبد الله الدهلويّ، كلتاهما بين دفتين في مجلد واحد.)

169 **وحسين حلمي ايشيق هذا (1911–2001م.)، كان رجلاً عسكرِيًّا، تعرّفَ على أحدِ شيوخِ النقشبنديَّةِ اسمه عبد الحكيم الأرواسِي، فلازمه فترةً طويلة وتأثَّرَ به. أطلقَ لسانَهُ في الحَطِّ من شأنِ أهلِ التوحيدِ، ونالهم بأشكالٍ من التحقير والفريةِ في كتاباته التي يزعم أحد المفتتنين به "أن عدد الكتب التي نشرها سبع وخمسون مصنفا من العربية، وثلاث وعشرون مصنفا من الفارسية، وثلاث مصنفات أوردية، وأربع عشرة من التركية.. ومقدار الكتب التي أمر بترجمتها من هذه الكتب إلى للغات: الفرنسية والألمانية والإنجليزية والروسية، وإلى لغاتٍ أخرى بلغت مائةً وتسعةً وأربعين كتابًا. وجميع هذه الكتب طبعت في دار الحقيقة للنشر والطباعة"**

بها، بل ويذبحون القرابينَ عندها تَقَرُّبًا إلى المقبورين فيها؛ يطلبون منهم الشفاعةَ، ويدعونهم لتفريج الكروب، وكشفِ النوائبِ، وقضاءِ الحاجات...

لقد كانتْ جبهةُ الهجومِ على الشيخ مُحَّد بنِ عبدِ الوهاب قويةً هائلةً، لأنَّ جميعَ القُوَى التابعةِ للدولةِ العثمانيَّةِ كانتْ مُتَّفِقَةً على حربِهِ، بل كانتْ حربُها على الدعوةِ التوحيديَّةِ أشدَّ منها على الشيخ مُحَّد بنِ عبدِ الوهاب. لذا، كانت الإتِّهاماتُ الموجَّهَةُ إلى حركةِ التوحيد، تعدِلُ في قسوتِها الهجماتِ العسكرِيَّةَ على أتباعِ الشيخ مُحَّد بنِ عبدِ الوهاب.

كان خصومُ الشيخ – ولا يزالون – يتَّهمونَهُ بأنه "خرج على الخليفةِ العثماني"، فهو إذًا باغٍ قد شقَّ عصا الطاعةِ لأمير المؤمنين، يقاتلُ خليفةَ المسلمين. وهذا من أعظمِ الْبُهْتَانِ. تؤكِّدُ على ذلك رسالتُهُ لأهلِ القصيمِ، يقول فيها. "وأرى وجوبَ السمعِ والطاعةِ لأئمَّةِ المسلمينَ بَرِّهِمْ وَفَاجِرِهِمْ ما لم يأمروا بمعصيةِ اللهِ، ومَنْ وُلِيَ الخلافةَ، واجتمعَ عليه الناسُ، ورضوا به، وغَلَبَهُمْ بسيفِهِ حتى صار خليفةً، وجبتْ طاعتُهُ وحَرُمَ الخروجُ عليه."[170]

ثم إنَّه لم يكن رجلاً سياسِيًّا ولا عسكريًا، ولم يستعمل سلاحًا قطُّ، ولم يكن هو أصلاً خارجًا على القواتِ العثمانيةِ بصورةٍ فعليَّةٍ، إذ لم يحضر ميدانَ القتالِ أبدًا. ولكنه كان داعيةً يدعو الناسَ إلى توحيد الربِّ تعالى، وينهاهم عن الإشراكِ به فحسب. هذا، ولو فرضنا أنه قد خرجَ على القوات العثمانيةِ، فإنَّما لأجل قتال المشركين والحدِّ من شرورِهم، إذ الجيشُ العثمانِيُّ كان – في الحقيقة – يقاتلُ التوحيدَ، وإن كان هدفُهُ الغلبةَ على القواتِ النجديَّةَ باعتبارهم متمردين على الدولة العثمانية، بله أنَّ المنطقةَ النجديةَ لم تكن يومئذٍ ضِمْنَ المناطقِ الخاضعةِ للسلطة العثمانيةِ، بل كانت إمارةً صغيرةً مستقلّةً. وأهل نجد – كسائر القبائل العربية– كانوا قد تأثروا بمعتقدات الأتراكِ وأنماطِ تَعَبُّدِهِمْ وعاداتِهِم بِحُكْمِ الإحتكاكِ معهم في مواسم الحجِّ، فكانوا يزورون الإضرحةَ، ويطوفون بها، ويتَّخِذونها أندادًا من دون الله... وهذا الذي أثارَ حفيظةَ الشيح مُحَّد بن عبد الوهاب إلى أن نهضَ بِدَعْوَةِ الناسِ إلى العقيدِ الحنيفة، وَبِنَهْيِهِمْ عن الإشراكِ بالله.

بدأت الصحوةُ الإسلامِيَّةُ لأولِ مرّةٍ وأخذتْ في النموِّ خاصةً بعد وفاةِ الشيح مُحَّد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى، حتى استيقظَ جمعٌ من العلماءِ على أثرِهِ فأشادوا بِجُهُودِهِ، وأثنَوْا عليه، ودافعوا عنه،

[170] مجموعة مؤلَّفات الشيخ مُحَّد بن عبد الوهاب: 11/5.

وبذلوا جهودًا كبيرةً ومتواصلةً لنشرِ دعوةِ الجماهيرِ المغفَّلةِ إلى التوحيدِ، ونبذِ عبادةِ الأوثان. وعددٌ من العلماءِ، – مع ما لا تخلوا مؤلَّفَاتُهُمْ من مناقضاتٍ لأصولِ الدِّينِ وأصول العقيدة – قد تأثَّرُوا بِحَرَكَةِ الشيخ مُحَّمد بن عبد الوهاب، من أمثالِ: أحمد خان الهندي، وجمال الدين الأفغاني، ومُحَّمد عبده ومُحَّمد رشيد رضا، وعبد الحميد بن باديس، وغيرِهِمْ... فلا يُستبعدُ أن يكون هؤلاءِ وكثيرٌ من غيرِهِمْ متأثِّرِينَ بالشيخ مُحَّمد بن عبد الوهاب بانسياقٍ في اللاوعي وإنْ لم تَخْلُصْ عقائدُ بعضِهِم من الشوائب. هذا، عدا مَنْ نشئوا على عقيدةِ التوحيدِ الخالصِ من أولئك الذين رَبَّاهُمْ الشخ رشيد رضا رحمه الله تعالى.[171]

لَمَّا أحسَّ الغربُ بهذه الصحوةِ، نَهضَ لإثارةِ الشَّغَبِ في الوطنِ الإسلاميِّ الذي كانتْ الدولةُ العثمانيَّةُ يومئذٍ تُهَيْمِنُ على جزءٍ كبيرٍ منها، وقد كانت الظروفُ مواتيةً لتحقيقِ هذا الغرضِ، أولاً: لأن الجهلَ، والتخلُّفَ، والمسكنةَ والركونَ إلى الأرضِ، والتعصُّبَ المذهبِيَّ، والنعرات الطائفيَّةَ كانت قد أنهكت الأمةَ منذ عصورٍ وخلقت فجوات خطيرةً بين صفوفهَا. قام الغربُ وبخاصَّةٍ حكومتا البريطانيةِ والفرنسيةِ بنسجِ مؤامراتٍ هدَّامَةٍ للإيقاعِ بالدولة العثمانيَّةِ التي كانتْ مُزَعْزَعَةَ الأركانِ، مغلوبةً على أمرِها في أيام السلطان محمود الثاني؛ كانتْ للدولةِ الفرنسيةِ خاصَّةً هيمنةٌ بالغةٌ على "الباب العالي"،[172] بلغتْ إلى حدٍّ يُصْدِرُ سفيرها (مسيو سابستياني)[173] تعليماتٍ إلى الحكومةِ العثمانيةِ، وهي تنفّذُها رأسًا، ولا تسعُها الردُّ أو الإعتراضُ عليه في شيءٍ منها. وكان من جملةِ هذه الضغوطِ: أنَّ الحكومةَ الفرنسيةَ رفضتْ السفيرَ العثمانِيَّ (حالتْ أفندي)، حين عرفتْ أنه يبغضُ خالدًا البغدادِيَّ، إذ كان حالت أفندي يُحَذِّرُ السلطانَ من التساهُلِ مع البغدادِيّ وَيُنَبِهُهُ على مكائدِهِ، وشعوذتِهِ، وتلوُّنِهِ، وطريقتِهِ الماكرةِ في استمالة الناسِ...

لكن السلطان محمود إنصاعَ لتوصيات السفير الفرنسي، فأمر بقتلِ حالتْ أفندي، فَأُعْدِمَ في مدينة قونيا عام 1823م.. لعلَّهُ أرادَ بتصرُّفِهِ هذا أن يحصلَ على دعم النقشبندِيّين لكثرتِهم، ولأَنَّهُ كان يحتاجُ إلى كسب الدعمِ من الفرقةِ الخالدِيَّةِ، وقد كانت الدولةُ في تلك الحُقْبَةِ مُعَرَّضَةً لِهجماتٍ من

---

[171] يأتي على رأسِهِمْ كُلٌّ من: الشيخ يوسف ياسين، والشيخ أمين الحسيني، والشيخ عبد الرزاق المليحآبادي الهندي، والشيخ مُحَّمد بسيوني عمران من جاوة بأندونيسيا، والشيخ مُحَّمد بهجت البيطار من سوريا، والشيخ مُحَّمد حامد الفقي (مؤسس جماعة أنصار السنة المحمدية)، والشيخ مُحَّمد عبد الرزاق حمزة (من أئمة الحرم المكي)، والشيخ عبد الظاهر أبو السمح (من أئمة الحرم المكي)، والشيخ عبد السميع البطل (من علماء مصر)، والشيخ مُحَّمد أبو زيد...

[172] مصطلح "الباب العالي" هو اسم أطلِقَ على مقر الحكومة العثمانية في إسطنبول.

[173] Horace François Sébastiani 1806–1812

الخارِجِ، كما تَعصِفُ بها عِصْيَانَاتٌ في الداخل. فابتهجَ النقشبنديُّونَ بهذه الحادثةِ وعدُّوها من كراماتِ خالدِ البغدادِيّ، فازدادوا شراسةً على أهلِ التوحيد. وكان خالدُ البغداديُّ يُحَرِّضُهُم على الْحُنَفَاءِ الموحّدين، ويصفُ السلفيّين بـ"الوهابية" على سبيلِ التحقيرِ لهم والاستهزاءِ، ويُظْهِرُ الشماتَةَ بِهِمْ إذا بلغهُ خبرُ هزيمةِ السلفيّين وغلبهِ القُوَّاتِ العثمانيةِ والمصريةِ عليهم.

هذا، ومن الأمور الغريبة أنْ لم يلبث طويلاً حتى نشأتْ في المملكةِ الوهابيةِ طائفةٌ من المنتحلين لهذه الدعوةِ، فسرقوها (كما سُرِقَتْ الثوراتُ العربيَّةُ في أيامنا)، وَغَلَبَ الأدعياءُ على المخلصين لكثرتهم وهيمنتِهِمْ على الدولة. فانصهرَ السلفِيُّونَ في غَمْرِهِمْ مع الزمانِ. ولا شكَّ في أنَّ صفة "الوهابية" تُلاَئِمُ هؤلاءِ الأدْعِيَاءِ. نعم، إنهم وهابِيُّون وليسوا من السلفية في شيءٍ. وستأتي قصة الوهابية في المقاطع التالية أن شاء الله تعالى.

تضعضعت حالةُ الدولةَ العثمانيةَ بسرعةٍ شديدةٍ بعد أيام السلطان محمود الثاني، وقِصَّتُها مشروحةٌ بإسهابٍ في مؤَلَّفَاتِ المتأخِّرين من رجالِ البحث في مجالِ التاريخ. انْصبَّتْ عليها ويلاتٌ فأخفقتْ إخفاقًا ذريعًا ودخلتْ مرحلةَ الإحتضارِ قُبَيْلَ اندلاعِ الحربِ الْعَالَمِيَّةِ الأُولى. يؤكّد على ذلك تسميةُ الصليبيّين لها بـ"رَجُلِ أوروبا المريض Sick man of Europ". حيث اتَّفقوا على اقتسامِ أراضيها. وأُطلِقَ هذا اللقبُ عليها في آخر عهدِها على مسرحِ التاريخِ، وقد كانتْ مُشْرِفَةً على الإنهيارِ عَقِبَ الهزائمِ التي مُنِيَتْ بها في جبهاتٍ متعددةٍ.

إنَّ قيصرَ روسيَا نيكولاي الأوَّل Nicholas Pavlovich Romanov هو الذي أطلقَ هذا اللقبَ على الدولةِ العثمانيَّةِ يوم **09** يناير سنةَ **1853**م. أثناءَ اجتماعٍ حَضَرَهُ في مدينة سانت بيتسبورغ Saint Petesburg، ثم شاعَ هذا الاسمُ بعد ذلك، واستعملَتْهُ جميعُ الدُّوَلُ الأوربيَّةُ الأخرى.

هذه المؤامرةُ التي لا تكتُمُها أُمَّةُ الصليبِ وهي مشروعٌ خطيرٌ نفَّذَتْها بالتعاونِ فيما بينها بتفجيرِ حربٍ جَهَنَّمِيَّةٍ، احترقَتْ هي بالذَّات في أتونها ما بين **28** يوليو **1914**م.-**11** نوفمبر **1918**م. هي حقيقَةٌ تبرهن – وَلاَ شكَّ – على مدى غضبِ مِلَّةِ الكُفْرِ على المسلمين وعداوتها للاسلامِ.[174]

[174] اعترافاتُهُم بهذه الحقيقةِ مُسَجَّلَةٌ في عديدٍ من مصادِرِهِمْ وموسوعاتها، وهذا مثال واحد منها:

"Sick man of Europe" is a label given to a European country experiencing a time of economic difficulty or impoverishment. The term was first used in the mid-19th century to describe the Ottoman Empire, but has since been applied at one time or another to nearly every other major country in Europe.
https://en.wikipedia.org/wiki/Sick_man_of_Europe

ومن أقوى أدِلَّةِ هذه العداوةِ كلمةُ الرئيسِ الأميركي الأسبق جورج بوش فَوْرَ أحداثِ **11** أيلول **2001**م. وهو يقول: "هذه حربٌ صَلِيبِيَّةٌ.. هذه حربٌ على الإرهابِ ستأخذُ وقتًا. والشعبُ الأمريكي يجب أن يكون صبورًا. وأنا أيضًا سأتَحَلَّي بالصبر."[175] أمّا قصدُهُ من الإرهابِ فلم يكن إلاَّ إشارةً إلى الإسلامِ وإنِ لم يُصَرِّحْ بِهِ. لكنَّهُ لَمَّا انتبَهَ إلى خطورةِ ما ينطوي عليه كلامُهُ هذا، عادَ بعد أسبوعٍ من الوقتِ فَزَارَ مسجدًا يوم **17** سبتمبر **2001**م. وقال هنالك في تصريح له: " Islam is peace أي الإسلامُ سِلْمٌ". غيرَ أنَّ عودَتَهُ هذه لم تكن إلاَّ الْتِوَاءً ونفاقًا وخِداعًا ومراوغةً لا ترتاح إليها نفس إنسانٍ ذي لُبٍ ولا يُصَدِّقُهَا المنطق السليم.

نعم لا شكَّ في إنَّ الإسلامَ سِلمٌ، وأخلاقٌ، ونظامٌ، وفضيلةٌ، ورحمةٌ... سواء أقَرَّ بوش وغيرُهُ من أعداءِ الإسلامِ هذه الحقيقةَ أو كتموها، لن يزيد إقرارُهُمْ الإسلامَ كمالاً، بل كفاهُ رفعةً وعلوًّا أنْ يكون الله تبارك وتعالى قد اختاره وارتضاهُ دينًا قويمًا للأمة المحمدية، وخاتِمًا لرسالاته. فقال تعالى: "إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَام..."[176] وقال تعالى: "الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا."[177] وقال تعالى: "قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِين."[178] وقال تعالى: "وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ."[179] لكنَّ شهادةَ الْكُفَّارِ والمنافقينَ لَغْوٌ لاَ قيمةَ لَهَا ولو كانوا صادقين فيها، "وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُون."[180]

ليس خافيًا على أهل العلم والبحثِ أنَّ جميعَ شعوبِ الغربِ قد شبُّوا على العداءِ السافرِ للاسلامِ منذ قرون. والحروبُ الصليبيَّةُ أقوى الدلائلِ على هذا العداءِ المتأصّلِ في نفوسِ الغربيّين إلى اليوم. فالحملاتُ الصليبيَّةُ التي انْهالتْ على الوطنِ الإسلاميّ طِوالَ قرونٍ، لم تنطلقْ إلاَّ مِنْ عقيدةٍ عدائيَّةٍ، وكراهيةٍ راسخةٍ في كيانِ الإنسانِ الغربِيّ. والدافعُ الوحيدُ الذي ظلَّ يُحَرِّكُ ذلك الحقدَ الدفينَ

---

[175] وهذا نص كلامه بالإنجليزية: " This crusade, this war on terrorism is gonna take awhile. And the American people must be patient. I'm gonna be patient" نقلته عدد كبير من أجهزة الإعلام ومنها:
http://edition.cnn.com/2001/US/09/16/gen.bush.terrorism /

[176] آل عمران/**19**

[177] المائدة/**3**

[178] الأنعام/**161**

[179] آل عمران/**85**

[180] المنافقون/**1**

والحروبَ المنبثَقَةَ منه، كان هو الدِّينَ المسِيحِيَّ المشوَّهَ. ولا يزالُ هذا الحقدُ يدفعُ العالَمَ النصرانِيَّ إلى الحربِ على المسلمين إلى هذه الساعة.

***

15) الوهَّابِيَّة:

يقول الأستاذ الدكتور ناصر عبد الكريم العقل في دِفاعِهِ عن (الوهابية): "وحيث قد اشتهرتْ عندَ غيرِ أهلِها، وعند الجاهلين بحقيقتِها باسمِ (الْوَهَّابِيَّةِ) فإنَّ هذا الوصفَ انطلقَ أوَّلًا من الخصوم، وكانوا يُطلِقونه على سبيلِ التنفيرِ واللَّمْزِ والتعييرِ، ويزعمون أنه مذهبٌ مُبْتَدَعٌ في الإسلام، أو مذهبٌ خامِسٌ. وهذا ظلمٌ. فهي ليستْ سِوَى الإسلامِ والسنَّةِ كما جاء بها النبي ﷺ وسار عليها السلف الصالح."[181]

غير أنَّ الشيخ عبد الكريم العقل وكثيرًا من أمثاله من العلماءِ (سامحهم الله)، قد فاتتهم المعرِفَةُ بمفهوم (الاستحالة) في العقائد والأفكارِ أنَّها كيف تتبدَّلُ وتتغيَّرُ مع الزمان.. فهذا الدينُ الإسلامِيُّ الحنيفُ، على رغم أساسِهِ المتين، - وكتابُ اللهِ بين أيدينا كما أوحاهُ سبحانه، كذلك سنةُ رسولِهِ عليه السلام، كما ضَبَطَهَا أساطينُ الأُمَّةِ قبل خمسةَ عَشَرَ قَرْنًا لم تَعْتَرِيهِمَا شائبةٌ - على رغم ذلك فقد عدلَ ملايينُ الناسِ من هذه الأُمَّةِ عن الصراطِ المستقيم بتأويلاتِهِم المضلِّلَةِ، وتفسيراتِهِم الهدَّامَةِ المدمِّرةِ، ومفترياتِهِمْ على اللهِ ورسولِهِ بما ألقى الشيطانُ في أمانِيِّهِمْ... وهل يخفى على أهلِ العلمِ أنَّ الأُمَّةَ قد افترقتْ إلى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً كما ورد ذلك عن النبي ﷺ، وفي هذا الحديث لعبرةٌ لأولي الألبابِ: "عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «افْتَرَقَتِ الْيَهُودُ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَافْتَرَقَتِ النَّصَارَى عَلَى اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً»"[182]

ألم نجد اليوم عشراتٍ من المذاهبِ والتَّيَّارَاتِ الصوفيةِ؛ كلٌّ منها تَدَّعِي أنها أفضلُ طريقةٍ تُرْشِدُ الإنسانَ إلى السعادةِ في الدنيا والأخرةِ؟ فهذه الإسماعيليةُ، والنُّصَيْرِيَّةُ، وَالدُّرْزِيَّةُ، وَالنَّقْشَبَنْدِيَّةُ،

[181] ناصر عبد الكريم العقل، إسلامٌ لا وهابية، المقدمة، ص/6. المكتبة الشاملة.

[182] صحيح ابن حبان، رقم طبعة باوزير: 6214. والحديث حسن صحيح.

وَالْقَادْيَانِيَّةُ، وَالْبَهَائِيَّةُ، وَالنُّورْجِيَّةُ، والفتوشِيَّةُ (الديانةُ التي اخْتَلَقَهَا فتح الله گولن التُّرْكِي) وكثيرٌ من غيرِها... كلٌّ منها تَدَّعِي أنَّهَا على حقٍّ وهدًى واستقامةٍ، وأنَّ غيرَهَا على باطلٍ وضلالٍ! ألاَ يجوز ذلك بحق (الوهابيَّةِ) الذين يَدَّعون أنَّهُمْ على منهجِ السلفِ الصالحِ، والسلفُ – في الواقع – براءٌ منهم!

لقد غفل كثيرٌ من علمائِنا عمّا اخْتُلِقَ من شَتَّى المذاهبِ والأديانِ على مَرِّ الزمانِ افتراءً على الله، وما وُضِعَ على ألسنةِ أنبيائِهِ وَرُسُلِهِ من ضروبِ الكذِبِ والباطلِ مُلِأت بِهَا بُطُونُ الكُتُبِ، كما قد فَاتَ الكثيرين من علمائِنا: أنَّ هذا الدِّينَ الذي تَكَفَّلَ اللهُ تعالى بحفظِ كتابه وهو يقول "إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ."[183] قد أُولِعَ به الزَّنَادِقةُ والْمَلاَحِدَةُ من أِشكالِ التأويل الباطل، والتفسير الشاذِّ لآياتِهِ. وطالما استغلُّوهُ في تحقيقِ أغراضِهِمْ الخبيثة... والغريب أنَّ أكثرَ علمائنا يتغافلون عن هذا الجانبِ؛ يكادونَ يجهلون تاريخ المذاهب والأديانِ، ولا يحفِلون بما أخرجه رجالُ البحثِ والإختصاصِ وأثبتوه في مُصَنَّفَاتِهِمْ من عقائدَ مُخْتَلَقَةٍ، وفلسفاتٍ، وأيديولوجياتٍ، وأساطيرَ، وَقِصَصٍ مزعومةٍ باسمِ "كَرَامَاتِ الأولياء"... ولا يعبئون بهذا المجالِ الذي لا يستغني عنه أهلُ العلمِ الشرعِيِّ أبدًا.

لقد حان أنْ نتسائل الآن عن (الوهابِيةِ) ما إذا هي نفسُ الدعوى التي تحملَّ الشيخ مُحَّمد بن عبد الوهاب أعبائَها، أم هيَ صورتُهَا الْمُحَرَّفةُ وَالْمُشَوَّهَةُ التي نَسَجَهَا واخْتَلَقَهَا أصحابُ المصالحِ من خواجوات الملوك، واتَّجَرَ بِهَا الْمُتَزَمِّتُونَ من الجهلةِ الخُوَيْصِرِيَّةِ؟!

ثَمَّةَ مشابهَةٌ كبيرةٌ بين الوهابِيَّةِ والخوارجِ في عصرِنا، مع ما بينهما من التنافر والتباغض؛ فَكِلْتَا الطائفتين تتَّسِمَانِ بِالنزوعِ إلى الغطرسةِ والعنفِ والتعصُّبِ والتقليدِ الأعمى، والجهلِ بحقيقةِ الإسلام؛ إذًا لا ينبغي نسبةُ الوهابِيَّةِ إلى الشيخ مُحَّمد بن عبد الوهاب أبدًا. إنَّ الشيخ مُحَّمد بن عبد الوهاب رحمه الله ما كان خارجِيًّا ولا وَهَّابِيًّا، ولكن كان حنيفًا مسلمًا وما كان من الْمُبْتَدِعِين، على مثالِ خليلِ الرحمنِ الذي قال تعالى في وصفه: "مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِين."

[183] الحجر/9

فقد انبرى كثيرٌ من أهلِ العلمِ للدفاعِ عن الوهَّابيَّةِ، بتشميل دعوةِ الشيخ مُحَّد بن عبد الوهاب على الجيلِ المعاصرِ من سكان نجد، فيردُّون على الناقدين لهذا الجيلِ، ويكادون يعتذرون لمعظم الوهابيين بحججٍ واهيَةٍ. من هؤلاء مَنْ يقول: "قد يجدون في تجاوزاتِ بعضِ المنتسبين للدعوةِ ما يتذرَّعون به في نقدها..."[184] كأنَّ هناكَ حالاتٌ استثنائيةُ لا ينبغي تعميمُها، أو يجبُ الإغضاءُ عنها! والحال يكفينا بيانُ أحدِ أفرادِ الأسرةِ المالكةِ للدولةِ الوهَّابيَّةِ، يكفينا مونةَ القولِ عن السلطة الوهابِيَّةِ، ويكادُ يُلَخِّصُ لنَا مَشْهَدَ هَذَا الْمُجْتَمَعِ بِرُمَّتِهِ وبأوجز العبارت.[185]

---

[184] ناصر عبد الكريم العقل، إسلامٌ لا وهابية، المقدمة، ص/6. المكتبة الشاملة.

[185] هذا نص بيان الأمير خالد بن فرحان بن عبدالعزيز الفرحان آل سعود، يقول:

" بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد:

فقد كانت لى تجربة شخصية وعائلية مريرة جدا مع من بيدهم السلطة فى المملكة العربية السعودية، والذى سوف يتبنَّي طرحَها علي الجمهور فيما بعد أخى مجتهد بتويتر، وأخى الدكتور سعد الفقيه بقناة الاصلاح، و أشكر الله الذى أنار لي بصيرتي من خلال تجربتي الشخصية القاسية مع النظام الحاكم بالمملكة حيث جعلنى أتذوّق طعمّ الظلم منذ كنت طفلاً والى الأن، لكى أنعم بما يحس به الكثير من أخوتى من أبناء الشعب، وأن أكون واحدًا منهم، فأدركتُ مدي تفشِّي الظلمِ بجميع أنواعه واشكاله، والأستئثارَ بالسلطة، وأكل الحقوق، والتضيق علي الحرّيَّات، واحتقار القضاء، والتلاعب بالدِّين وغيرها من الممارساتِ الغيرِ انسانيَّةِ التى تضرب بعرض الحائط، قواعدَ واحكامِ الشريعةِ الاسلاميّةِ والقوانين والمواثيق الدولية الخاصة بحماية حقوق الانسان والحُرِّيَّاتِ العامّة وغيرها... وقد قادتني هذة التجربةُ القاسيةُ التي لم تعد شخصية الى مجموعة من الاستناجات اجد من الواجب شرعيا وأدبيا أن أعلنها للملأ براءةً للذِّمَّة وبيانًا للحقيقة.

أولا: أعلن متفاخرًا أنشقاقي عن العائلةِ الحاكمةِ السعوديّةِ، حيث أنّ السلطة فى المملكة لا تلتزم بشرع الله ولا حتى بالنظام الوضعي، وسياستُهم وقراراتُهم وتصرّفاتُهم تحكمها إرادتُهم وأهوائُهم الشخصيةُ فقط. وكل ما يُصدِرُهُ النظامُ من اعتبار مزعوم للشرع والنظام إنما يُدارُ بطريقةٍ شكليّةٍ لِيُعْطَى انطباعًا كاذبًا بالالتزام بالشرع.

ثانيا: إن اعتقاد الذين بيدهم السلطة بالمملكة أنّ الدولةَ ملك لهم بمقدّراتِه وأرضة وشعبه فهو اعتقاد خيالي، نابعٌ من اعتقادات وتصورات وقناعات وهمية.

ثالثا: مثلما رفض الذين بيدهم السلطة أطروحات الاصلاح التي قدمت لهم من رموزٍ شعبيّةٍ كثيرة لها
مكانتُها واحترامُها وشعبيتُها في قلوب الشعب وعاملوها بالقمع والعنف، فقد رفضوا أيضا أطروحات الاصلاح التي قدمت لهم من داخل الأسرة الحاكمة حيث عاملوا بعضَها بالتضييق وسوء الظن والبعضَ الاخرَ بالعنف والقمع.

رابعًا: إن المشاكل التى نمر بها فى بلادنا هى مشاكل ليست مؤقتّةً أو سطحيةً، فهى ليست متمثلةً فقط في حجم البطالة أو ضعف الرواتب أو سوء توزيع الثروات والمقدرات والخدمات...الخ، بل هى مشاكلُ عميقةٌ وحقيقيّةٌ مرتبطةٌ بالفساد السياسِيِّ والمالِ وسوءِ استغلالِ السلطةِ، والادارة الامنيةِ، وتبعية القضاءِ ومجلس الشوري للسلطة التنفيذية، بما يكبت طموحاتِ وابداعاتِ الشعب واستغلاله لصالح قلة قليلة، وقد اثبتت التجارب السابقة انه لاَ يمكن علاج ذلك إلا من خلال تغيير جوهري شامل.

خامسا: إنّ مَنْ بيدهم الأمر يتجاهلون عن عمد الواقع المرير في المملكة وصرخات الشعب المقهور ويصرون على استفزاز الشعب من خلال حالة البزخ الخرافى الذي يعيشونه ولا يأبأوا إلاَّ لمصالحهم الشخصية الذاتية بلا أعتبار لمصلحة الدولة أو الشعب أو حتي الأمن القومى.

سادسا: أنّ كلَّ ما يُرَدِّدُهُ دُعاةُ الاصلاح من انتقاداتٍ للأوضاع السياسية والأقتصادية والقضائية والأجتماعية والخدماتيّة والأمنية وسوء أستخدام الدين ....الخ، كله صحيح وموضوعى بل وأبعد من
ذلك بكثير.

إنَّ الذين يدافعون عن الجيلِ الوهابِيِّ المعاصِرِ، يقعون في أخطاءٍ كبيرةٍ مُنْسَحِبِين من وراءِ ما في اللاَّوَعْيِ عندما يكتمون حقائقَ اجتماعيةً لِشَعْبِهِمْ. ذلك أنَّ الخارطةَ الدينيةَ والمذهبيةَ والقبليَّةَ تُكذِّبُهُم وتُفشِي أسرارَهم. إذ أنَّ شَعْبَهُمْ –كأيِّ شعبٍ آخر – لا يعدو عن مجتمعٍ مكوَّنٍ من أقلِّيَّاتٍ دينيةٍ ومذهبيَّةٍ وقبلِيَّةٍ مهما اتفقوا على إخفاءِ هذا الواقع. ولا يزيدُ القِطاعُ الوهَابِيُّ عن 32.12% من مجموعِ سكانِ المملكةِ كُلِّهِ، يكادُ جميعُهُمْ يسكنون في منطقة نجد. ولكن الجبهةَ التي تدافعُ عن الوهابيَّةِ، تحاوِلُ أن تُضَخِّمَ هذه الطائفةَ من حيث العددُ بخاصَّةٍ، وتُزَيِّنُ المشهدَ بأنَّ سكانَ المملكةِ الوهَّابِيَّةِ كُلَّهُمْ سَلَفِيُّونَ. وهذا لا أساسَ له من الصحة.

إنَّ الموحِّدِين الحنفاءَ المخلصين الذين نهضوا لأجلِ إحياءِ الدين المحمديِّ في وسطِ عالَمٍ أظلمَ على الأمَّةِ بِجَوِّهِ الخانقِ الوخيمِ قبل قرنين من الزمن؛ إنّما كانوا قلَّةً من الصالحين وعلى رأسِهِمْ مُحَمَّد بن عبد الوهاب تَغَمَّدَهُمُ اللهُ بواسعِ رحمتِهِ، افتَدَوْا – في جهادِهِمْ، وحربِهم على الْوَثَنِيَّةِ – بكُلِّ ما يملكون وهم في قلبِ صحراءَ قاحلةٍ يجهلُهم العالَمُ، فنصرهم اللهُ على الشركِ ورموزِهِ، وأظهرَ بِهِم حقيقةَ التوحيد. فهل نجدُ اليومَ وجهًا من المشابهةِ بين المعاصرين من الجماعاتِ الوهابيَّةِ وبين تلك القِلَّةِ الصالحةِ؟

هذا السؤالُ إنما يسهلُ الردُّ عليهِ بعد كشفِ القناعِ عن وجهِ الطائفةِ الوهابيَّةِ إذا تأمّلنا قليلاً في جوانبَ من طبيعةِ أفرادِها، وهذه نبذةٌ منها:

سابعا: أؤكِّد من خلال معرفتى الجيدة بمن بيدهم السلطةُ بالمملكةِ أنَّ الغرورَ قد أَعمَى بصائرَهم، بحيث أنّهم لا يستجيبون للنصائح أو المكاتبات أو الخطابات... فالذي يمكنهم داخليًّا هو آلةُ القمع، وخارجيًّا المصالِحُ التى تأتي علي حساب حقوق الأنسان وحماية الحرِّيات، بحيث لا يمكن تحقيق أيّ تغييرٍ إلاَّ بوسيلةٍ من وسائل الضغط سواءا السياسيٍّ أو الاعلامِيِّ أو الشعبى. ولا ينبغى التعويل في التغيير إلاَّ من خلال الجهد الداخلِيِّ الشعبى.

بناءا على ذلك؛ فإنّني أُعلن دعمي لكل التيَّارات الاصلاحيّة الصادقةِ الهادفةِ الأمينةِ على مصلحةِ الوطنِ والمواطنِ، وخاصةً حركةِ الاصلاحِ بقيادة د. سعد الفقيه، وأطلبُ من كلِّ الأمراء الصامتين الذين يوافقونني الرأيَ، إعلانَ موقفهم، والتوقُّفَ عن السكوت والسلبية، والاستعدادَ لتحمُّلِ التَّبِعَاتِ إرضاءًا لله والوطن.

أسأل الله أن يوفِّقَنَا وكلَّ الساعين للاصلاح فى بلدنا لمرادهم، ويُنْقِذَ بلادَنَا من الظلم والفساد والاستبداد...
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاتة .
خالد بن فرحان بن عبدالعزيز الفرحان آل سعود"

1) إن الوهابيّين – في الحقيقة – أعرابٌ، معظمُهُمْ على شاكلةِ حُرْقُوصِ بْنِ زُهَيْرٍ، المعروف بِذِي الْخُوَيْصِرَةِ التَّمِيمِيّ الذي قام في وجه النبي عليه السلام، يَطْعَنُ في قِسْمَتِهِ لِغنائِمِ حنين. إنَّ هذا القومَ يكادُ عمومهم يتجاهلون بل يجهلون العالمَ الخارجِيَّ وهم قابعون على أنفسهم، يتوغلون في مُدَارَسَةِ السنةِ النبويةِ وقد أُولِعُوا بِهَا لِذاتِها وحسب، فانْهَمَكُوا في مُجَرَّدِ نقلِها، وتخريجها، وتبويبِها، ومناقشة مصطلحِها وأسانيدها وما إلى ذلك حتىَّ أعْمَاهُمْ الإنشغالُ بمثلِ هذه السطحيَّةِ من النظرةِ القاصِرَةِ عن شُمُولِيَّتِهَا العالمية.. بل السنةُ النبويةُ المطهَّرَةُ في صَمِيمِهَا مَنْهَلٌ مُنْصَبٌّ من الوحي الإلْهِيّ، بإيزاءِ كتابِ اللهِ عزَّ وجَلَّ؛ يقوم الدينُ الإسلامِيُّ على هذين الأسَاسَيْنِ العظيمين. ولا شكَّ في أنَّ كلاًّ من كتابِ اللهِ وسنةِ رسولِهِ معجزةٌ خالدةٌ تتَّسمُ نصوصُهما بالشمولِ والبيانِ والصلاحِ لكل زمانٍ ومكان، تُنيرُ طريقَ كلِّ إنسانٍ يطلبُ النجاةَ والنجاحَ والفلاحَ في جميعِ مجالاتِ الحياة.

لكنَّ الوهابيّين الأجلافَ الجفاةَ حُرِمُوا من التفطُّنِ إلى الأسرارِ المكنونةِ في كتابِ اللهِ وسنةِ رسولِهِ الكريمِ صلى الله عليه وسلّمَ، لِمَا غلبهم من الفقرِ الثقافِيّ، والغِلْظَةِ، وضِيقِ الصدرِ... فاحتبسوا عن إدراكِ مقاصدِهما العالَمِيَّةِ، وجرَّدُوا السنةَ خاصّةً من روحِها، وَفَرَّغُوا ألفاظَها من معانِيها حتى بَقِيَتْ مجرَّدَ صِيَغٍ يلوكونها، لِيُشَارَ إليهِمْ "أنهم أهلُ الحديث"!

هكذا حصروها في إطارٍ ضيّقٍ دون أن يُدرِكوا علاقةَ هذا العلمِ الجليلِ بجميعِ قضايا الكونِ والحياةِ.. يبرهن على هذه الحقيقةِ أنَّ آلافًا من الطلبةِ الوهابيّين يدرسون العلومَ الإسلامِيَّةَ، أكثرُهم يتخصَّصون في العقيدةِ والحديثِ فحسبُ. مع ذلك يعجزون عن الاهتداءِ إلى فَهْمِ المتغيّرات والمستجدَّاتِ بفضلِ إيحاءات هذين العلمين الجليلين وهم حيارى في وجهِ كُلِّ جَديد. وإذا لَقُوا أحدًا من غير نحلتِهِمْ بادروه بَادِئَ بَدْءٍ بذلك السؤال الغليظِ الجافِي المتداوَلِ على ألسنتِهِمْ: "– أين الله؟". يتربَّصون بِكلِّ إنسانٍ يَلْقَوْنَهُ لأوّلِ مرةٍ ليغالطوه بهذا السؤالِ العتيد، فيتباحثون عما في ضميرِهِ وينقبون خَفَايَا مُعتقداتِهِ حتى إذا عثروا على سَقْطَةٍ بدرتْ منه، رَمَوْهُ بالشركِ والكفرِ والزندقةِ...

2) من ميّزاتِ الوهابيَّةِ؛ أنَّهم نازعون إلى الهجومِ في خطابِهِمْ، أكثرَ منه إلى الدعوةِ والإرشادِ. ولهذا يخلو أسلوبُهم من الرِّفْقِ واللِّينِ والهدوءِ والحكمة... تحوَّلوا بهذه الطبيعةِ القاسيةِ إلى طائفةٍ من الخوارجِ، وقد غرَّهُمْ الغلوُّ والعِنادُ عن الإعتدادِ بالاتّهاماتِ الموجَّهَةِ إليهم، فلم يعبئوا بما أجمعَ عليه العالَمُ من تسميتِهِم بـ"الخارجيَّةِ" و"الوهَّابِيَّةِ". وعلى رغم ما يتمتَّعون به من الثراءِ والرخاءِ والرفاهية،

وما يملكون من الوسائلِ والآلياتِ الحديثةِ لم يُكْسِبْهُمْ ذلك تواضعًا وحِلْمًا وتقديرًا لمن يَسْبِقُهُمْ معرفةً وثقافةً، بل قد زادهم غطرسةً، وصدورًا ضيّقةً حَرِجَةً، ومُكَابَرَةً للعقول.

3) سَحَبَتْهُمْ الأنانيَّةُ إلى عِراكٍ فيما بينهم، يشتُمُ بعضُهم البعضَ، ويُكذِّبُ أحدُهم الآخرَ، يحاولُ غوغاؤُهم لِيَنْتَشْلُوا من "علمائِهِمْ" الفتاوَى فيستغِلُّوها في مَنَارِهِمْ السخيفةِ من تكفيرِ الناسِ وتفسيقِهِمْ، وتسفِيهِهم، وتشنِيعِهِم. ومَنْ شكَّ في ذلك فليراجعْ – على سبيل المثال – محاولةَ بعضِ رعاعِهِمْ لِتكفيرِ سيد قطب رحمه الله، في نِقاشِهِ مع الشيخ محمَّد حسان، والشيخ ناصر الدين الألباني وغيرهما...[186]

4) أفرغَ الوهَّابيُّونَ كُلَّ طاقاتِهِمْ في الردِّ على مَذَاهِبَ عَقَدِيَّةٍ بِدعيَّةٍ قديمةٍ ومحدودةٍ كانتْ لها أصولٌ كلاميَّةٌ وَمبادِئُ فلسفيةٌ يمكن استيعابُها ووعيُها، والردُّ عليها في ضوء الكتابِ والسنةِ في وقتها، لكنَّها قد اندرسَ بعضُها، ولم تَعُدْ لبقيَّتِهَا صِفَةٌ مذهبِيَّةٌ يَستحقُّ النقاشَ (ما عدا الرَّافِضِيَّةِ، والأشعريَّةِ، والماتريديَّةِ)، لأنَّ هذه التيارات قد خرجتْ من طورِ المذهبيَّةِ؛ وتحوَّلَ كلٌّ منها إلى خلطٍ، وعَبْثٍ، وزوبعةٍ من الهزياناتِ، وجَلَبَةٍ من أصواتِ البهائم.. فلا تُخاطِبُ العقلَ السليمَ، إذًا يجب إسقاطُها من الإعتبارِ، وعدمُ الإعتدادِ بالذين لا يزالون يعتنقونها، اللهم إلاَّ أن يُقْصَدَ إرشادُهُم وإنقاذُهم من الدوَّامةِ الوجدانيَّةِ، ومِنْ أسرِ الزندقةِ التي وقعوا فيها، إلى نور الإيمان، ورحاب العقيدة الصحيحة.

كانت تلك المذاهب القديمة المتهالكة هي بالتحديد: الخارجيةُ، والقدريةُ، والاعتزالُ، والجهميةُ، والجبريةُ، والإرجاءُ... فقد تقادمتْ هذه المذاهبُ وغرقتْ في أعماقِ التاريخ، ولم يَعُدْ أحدٌ يهتمُّ بها في عصرِنا، وقد حلَّ محلَّها تيَّاراتٌ فكريَّةٌ جديدةٌ؛ كالديمقراطيةِ، والعلمانيةِ، والشيوعيةِ، والإشتراكيةِ، واللِّيبَرَالِيَّةِ، والأتاتوركِيّةِ... لكنَّ الإنسانَ الوهابِيَّ جاهلٌ بتاريخِ المذاهبِ والأديانِ، غافلٌ عن حقيقةِ ما يحدثُ في أيَّامِنا من تطوراتٍ فكريةٍ وسياسيةٍ واجتماعية.. كما يجهلُ ما قد حَدَثَ على مدى تاريخِ البشرِ من تيَّاراتٍ عقديَّةٍ، ومذاهبَ فلسفيَّةٍ، وطرائقَ باطنيَّةٍ، وهو يعيش في عالَمٍ موهومٍ على غرار الصوفِيَّةِ. لذلك لم يَفْطَنْ الوهابِيُّون حتّى إلى الديَانَةِ الْمُسْلُمَانيَّةِ Müslümanlık، التي يَعْتَنِقُهَا

---

[186] راجع هذا الرابط:

http://twitmail.com/email/285075054/9/47261
https://www.facebook.com/permalink.php?id=1023766397715893&story_fbid=1039150912844108

الأتراكُ منذ ألفِ عامٍ، برغم ما تجري بين الوهابيّين والأتراكِ من علاقاتٍ تجاريَّةٍ وسياسيَّةٍ، ولقاءاتٍ كثيفةٍ بينهما في أيَّامِ الحجّ، وأثناءَ زياراتِ الأتراكِ للعمرة... رغم كُلّ ذلك لم يشعُرْ الوهابيُّون –إلى هذه الساعةِ – أنّ (الْمُسْلُمَانِيَّةَ) دينٌ وثنيٌّ اختلقهُ قُدَمَاءُ الأتراك، واعتنقوه بِنَوْعٍ من الإنسياقِ والتماهي، ليتمايزوا به عن سائرِ المسلمين (وبخاصَّةٍ عن أهل التوحيد!)، فتشبَّثَتْ أجيالُهُمْ بها إلى يومِنا هذا.

5) اتَّخَذَ الوهابيُّون من الرافضةِ ذريعةً للحطِّ من شأن السلالةِ الهاشميَّةِ التي هي من امتدادِ آلِ بيت الرسولِ ﷺ؛ تجاهلوها تمامًا، وأسقطوها من الإعتبارِ لِمَا تُكِنُّ صدورُهم من البُغْضِ لهذهِ الأسرةِ الشريفة (لأسبابٍ ليس هذا مقامُ سردِها!)، وناصبوها بالعداوة وإن لم يجهروا بحقدِهِم الدفين لها في كتاباتهم، وتصريحاتهم، خوفًا من ردودِ فعلٍ تعترضُهُم من مختلفِ أنحاءِ العالَمِ الإسلامِيّ، وقد تُؤَدِّي تلك إلى إفشاءِ ما يحملونه من الروح الأمويّ الإرهابِيّ الخبيثِ، بإيزاءِ ما يَتَّسِمُونَ به من الطبيعةِ الخارجيةِ اللئيمةِ، فَتُمَهِّدَ السبيلَ لسوءِ سمعتهم لدى جميعِ المسلمين. ومن مكرِهِمْ أيَضًا: أنَّهم يكتمون أسرارَ أدعياءِ الهاشميَّةِ ومغامراتِ المنتحلين، كذلك خوفًا من أنْ يتعرَّضوا لهجماتٍ وتشنيعاتٍ قد تثيرُها المحافلُ الماسونيَّةُ والشبكاتُ الإستخباراتيَّةُ الإنجليزية!

6) تجاهل الوهابيُّون جميعَ أهلِ التوحيدِ الذين ليسوا من عِرْقِهِمْ؛ وهذا يدلُّ على أَنَّهُمْ قومٌ جاهليٌّ فاشِيٌّ، يَتَبَرَّمُونَ بأهلِ التوحيدِ من غيرِ العربِ استنكافًا؛ والله تعالى يقول: " وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلاَ يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا."[187] نعم، إن الوهابيّين، يضربون مَبْدَأَ "الأُخُوَّةِ في الإيمانِ" عُرْضَ الحائطِ، وقد رَكَّزَ الإسلامُ عليها وَهَتَفَ بها في قولِهِ تعالى: "إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ..."[188] لكِنَّ الوهابيّين يسدُّون عيونَهُمْ وآذانَهُمْ عن هذه الحقيقة فتقوم عليهم الحجّةُ بكشفِ موقِفِهِم الصامتِ من الحكومةِ التركيّة الصُّوفيَّةِ، وهي تُحَرِّضُ سُلُطَاتَهَا على السلفيّين الأتراك والأكرادِ، والشرْطةُ التركيَّةُ تلاحِقُهُمْ، وَتُدَاهِمُ بُيُوتَهُمْ بين حين وآخر، وتَجْمَعُهُمْ في حُجُرُاتٍ خاصَّةٍ للتعذيبِ. ربما يَتَفَلْسَفُ بعضُ الوهابيّين لِيَطْمِسُوا على هذه الحقيقة بطريقِ المغالطةِ؛ ليقولوا: "إنَّ تركيا اليوم، ليستْ هي تركيا التي كان يقودها زعماءُ مُنْسلِخون من الدِّين أو علمانيُّون، بل تغيَّرَتْ منذ انتقالِ زمامِ الحُكْمِ إلى حزبِ العدالةِ والتنمِيَةِ الإسلامِيّ، فتحوّلت تركيا إلى دولةٍ

[187] النساء/173.

[188] الحجرات/10.

إسلاميةٍ". نعم، هكذا قد يدافع الوهابيُّون عن الحكومة التركيَّةِ النقشبندية، وبمثل هذا الكذب الفاحشِ بُغيةَ كسبِ دَعْمِهَا وتأييدِهَا في حربِ داعش. ولإنِ كان هذا افتراضًا، لكنَّهُ لاَ يُسْتَبْعَدُ أنْ يلجأ الوهابيُّون إلى كلِّ أشكالِ الْحِيَلةِ لِيَتَبَرَّءُوا من العصابةِ اللاَّدِنِيَّةِ وَالدَّاعِشِيَّةِ اللَّتَيْنِ هم الذين رَبَّوْهُمَا في أحضانهم. لأنهم أصلاً محترفون في صناعةِ الكذبِ والتزوير.[189]

---

[189] ولِكاتِبِ هذه السطورِ قِصَّةٌ طويلةٌ مع الوهابيِّين، لا تخلو من الفائدةِ لِمَنْ يجهلُ حقيقةَ هذهِ النِّحْلَةِ الغريبة. أحببتُ إختصارَهَا فَأَبَتْ إلاَّ أن تكونَ مُفَصَّلَةً. وإليكم الْقِصَّةُ بِحذافيرِهَا:

إنَّ علماءَ الوهابيَّةَ ومثقَّفِيهم وغيرَهُمْ من الجماعاتِ التي "يحاربون الشرك" (على حدِّ قولهم)، كلُّهم يعلمون ما بذلتُ من الجهودِ في محاربةِ الدِّينِ التُّرْكِيِّ الْمُسْتَحْدَثِ الذي أثبتُّ بالدلائلِ القاطعةِ أنه غيرُ الدِّينِ الذي ارتضاه الله لنا دينًا وسمَّاهُ الإسلامَ. "إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ * فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ. (آل عمران/19، 20)؛ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ. (آل عمران/85)؛ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ... (7الحج/78). الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا. (المائدة/3) هذا هو الدين الذي ارتضاه الله لأمة مُحَمَّد ﷺ (الإسلام)، وليس (مُسْلُمَانْلِك Müslümanlık)

لقد أعلنتُ منذُ فترةٍ (في بحثي الموسوم: تركيا في ضوء الحقائق)، أنَّ (الْمُسْلُمَانِيَّةَ Müslümanlık) ليس هو الدينَ الذي بعث الله به محمدًا ﷺ. كما يعلمُ الوهابيُّونَ حجمَ البحوثِ التي قد صدرتْ بِقَلَمِي منذ أربعين عامًا، ولهم علمٌ أيضًا بضخامةِ هذه البحوث والدراساتِ التي لم يَسْبِقْ لأحدٍ غيري أن أَقْحَمَ نفسهُ في حربِ الزنادقةِ فقامَ بتحقيقِ مِعْشَارِها. إنَّ الوهابيِّين يعلمون حقَّ العلمِ ما كَلَّفَنِي في تحقيقِ هذه الأعمالِ، مع ذلك تقاعسَ عنِّي كُلُّهم، وتجاهلو أعمالي، فلم يَمُدُّوني حتى بنسخةٍ من الكُتُبِ المعتمدَة (وما أكْثَرَهَا عندهم). فضلاً عمَّا أثارُوا حولي من الشكوكِ، وجعلوني تحت المراقبة. والحمد لله الذي قد أغناني عن مساعدتهم بفضلِ ما أنعم علَيَّ من المعرفةِ الواسعةِ في علم التوحيد ويَسَّرَ لي الأسبابَ لِدِرَاسَةِ لُغَاتٍ عديدةٍ فَأَتْقَنْتُهَا بِكَرَمِهِ وإحْسَانِهِ، وله سبحانه الْمِنَّةُ على ما رزقني الغلبةَ، ونَصَرَنِي في مجادلةِ الْبَلاَعِمَةِ وصناديدِ المشركين.

لقد كنتُ أُحْسِنُ الظنَّ بالوهابيِّين في أوَّلِ الأمرِ لِمَا كان يلوح لي أنَّ علمائَهم يكافحون البِدَعَ ويُرَكِّزُونَ على نشرِ السُّنَّةِ، ويدْعون ملَّةَ الكفرِ إلى هديِ الإسلامِ... فكنتُ آمل أنْ تُمَكِّنَنِي الحكومةُ الوهَّابِيَّةُ من الإقامةِ في بُقعةٍ آمنةٍ من أرضِ الحجازِ لأقومَ بتنفيذِ أكبرِ مشروعٍ للبحوثِ حول زَنْدَقَةِ الصوفيَّةِ (وهي في الحقيقة أعظمُ خطورةً من زَنْدَقَةِ الرافضةِ ومؤامراتِ أعداءِ الإسلامِ على اختلافِهم في مشارقِ الأرضِ ومغارِبِهَا لِتشويهِ الدين الحنيف)، لتكونَ هذه البحوثُ التي وفَّقَنِي اللهُ لتحقيقِهَا ينبوعًا يَنْهَلُ منه العلماءُ ورجالُ الإرشادِ والإصلاحِ فيكشفوا الستارَ عن فضائحِ النقشينديّين الأتراك بخاصَّةٍ، ويُنَبِّهوا الأمَّةَ على خطورةِ هذا العدوِّ الماكر اللَّدودِ، وعن الدَّمَارِ الذي قد أَلْحَقَهُ بالدينِ الحنيفِ على مدى تاريخِنَا في المناطقِ التي يسكنُهَا الأتراكُ والأكرادُ بخاصّة. لكنَّ الحكومةَ الوهابيَّةَ (على عكسِ ذلك تمامًا) أرسلتْ رجلين من عناصرِ مُخَابَرَاتِهَا إلى داري، ولا أظنُّ أنها فعلتْ ذلك إلاَّ لِتَوَجُّسِهَا الخوفَ مِنِّي ما إذا كنتُ أُشَارِكُ أعداءَهَا. واللهُ تعالى يعلم أَنِّي بريءٌ من كل مَنْ عاداها ومَنْ ويعاديها بعد اليوم. وكم دافعتُ عنها أنَّها قلعةُ الإسلامِ الوحيدةُ التي تقومُ بحراسةِ مهبطِ الوحي والإلهام. وهذه نبذةٌ من قصتي مع الرجلين الحجازيَّيْن:

اتّصل بي شخص هاتفيًّا يتكلّم بالعربية، بتاريخ: 06/رجب/1427هـ، الموافق: 31 /يوليو/2006 الإثنين، فَزَعَمَ أنّه يتّصلُ من مَكَّة المكرمة، وطلب مني تحديدَ موعدٍ يزورني فيه وافدًا إلى إسطنبول. فوافقتُ على طلبهِ: بأنْ نجتمعَ في منزلي بمدينة إسطنبول، في تمامِ الساعةِ الثانيةِ بعد الظهر، يوم 08/رجب/1427، الموافق: 02 أغسطس/2006 الأربعاء. وإذا بشخصين عَرَبِيَّيْنِ ومعهما شابٌّ تركي حضروا في الوقت المحدَّدِ وبصورةٍ دقيقةٍ، فاعتراني شكٌّ في أمرِهِمْ بسببِ هذه الدِّقَّةِ. لأنَّ المعروفَ من العربِ أنَّ أكثرَهم لا يهتمُّون بالمواعيد، ولا يوفون بعهودهم، ولا يكاد احدٌ منهم يلتزمُ بالتوقيتَ (لما اشتهر منهم أنَّ أغلبهم غير أهل الثقة!). فحدَّثَتْني نفسي بأنَّهما قد يكونان من رجالِ المخابراتِ! فالتزمتُ جانبَ الحيطةِ في حواري معهما باقتصادٍ بالغٍ في التعبير، واعتذرتُ لهما: "نعم، إِنّي لا شكَّ رجلٌ عربيٌّ من أسرةٍ عربيَّةٍ تسكنُ في هذه البلادِ منذ قرون، لكنِّي مُسْتَعْرَبٌ، نشأتُ في تركيا وتعلمتُ العربيَّةَ من خلالِ الدراسة وليس بالتفاعل مع الناسِ، وقد أشعُرُ بعجزٍ في التعبير أحيانًا..." فَابْتَسَمَا، وأجابني أحدُهما: "لا بأسَ، كلامُكَ فصيح، ويعجبُني بلاغتُك! وإذا أتاحتْ لك الفرصةُ فإقمتَ في بلدٍ عربِيٍّ سوف تتفادى ما فاتك إنشاء الله.." ثم استهلاً بعد التحيَّةِ بالتعريف عن نفسهما؛ أنَّ أحدهما الدكتور مُحَمَّد بن عبد الله المقدي، والثاني، عبد الرحمن بن مُحَمَّد بن على الهرفي.

إذًا يجب على كل مؤمنٍ رَزَقَهُ اللهُ مَلَكَةَ التفريقِ بين الحقّ والباطلِ، وهو في الوقتِ ذاته خبيرٌ بحقيقةِ الأحداثِ التي جرتْ في هذه المنطقةِ منذ ثلاثةِ قرون – على أَقَلِّ تقدير– أن لاَ يُخْطِئَ في المقارنةِ بين دعوةِ الشيخ مُحَّد بن عبد الوهاب، وبين أهدافِ الوهابيّين اليومَ، حتى لا يقعَ في حِبَالِهِمْ فَيُشَارِكَهُمْ فِي وَبَالِهِمْ.

لقد كانت دعوةُ الشيخ مُحَّد بن عبد الوهاب انطلاقةً جريئةً تتمثلُ – بَادِئَ بَدْءٍ – في إعلانِ الحربِ على الشركِ، والقيام بالدفاعِ عن العقيدةِ الحنيفة. ذلك أنَّ عاداتِ الأتراكِ وأساليبَ تعبُّدِهِم كانتْ قد تَسَرَّبَتْ إلى المجتمعاتِ العربيَّةِ أيَّامَ هَيْمَنَتِهِمْ التي دامتْ قرونًا على المناطقِ العربية، وبِحُكْمِ

على رغم الظروف النفسيَّةِ التي اعترتْني في تلك اللحظاتِ، اسْتَقْبَلْتُهُمَا استقبالَ الرجل المؤمنِ المخلصِ لأخيهِ المؤمنِ، وبدأتْ الجلسةُ واستمرَّ بيني وبينهما حوارٌ دافِئٌ قُرَابَةَ ساعتين. ثم بعد مغادرتِهِمَا دامتْ المراسلةُ بيننا، ونُشِرَتْ نُبْذَةٌ من قصَّةِ حياتي في الموقعِ الألكتروني المعروفِ بعنوان (الصوفيَّةِ). ولا أشُكُّ في أنهما لم يكونا إلاَّ مبعوثَيْنِ للحكومةِ الوهابيَّةِ ولم يأتياني إلاَّ لِجَسِّ النَّبْضِ، ولِيَتَبَيَّنَا ما إذا كنتُ من رموزِ المعارضةِ للنظامِ الوهابي! واللهُ يعلمُ أنِّي لم أكنْ رجلاً سياسيًّا، ولم أُمارس السياسةَ ولم أَنْتَمِ إلى حزبٍ سياسِيٍّ في حياتي، ولم أركَنْ إلى أيِّ شكلٍ من أشكال السياسات، ولم أعتقدْ أنَّ أيًّا منها سياسةٌ راشدةٌ موافقةٌ لسياسةِ الرسولِ الكريم عليه الصلاة والسلام، وسياسةِ خلفائِهِ الراشدين عليهم الرضوان...

لقد يعلمُ كثير من الناسِ أنِّي أخذتُ على عاتقي (منذ فترةٍ تربو عن أربعين عامًا)، أنْ أَكْشِفَ الستارَ عن مساوي النقشبنديةِ، وهي طائفةٌ خطيرةٌ تُعَكِّرُ صَفْوَةَ الإسلامِ بما اخْتَلَقَتْ على حسابِ الدين الحنيفِ من بِدَعٍ شنيعةٍ تَبُثُّهَا بين المسلمين في تركيا خاصَّةً. فَنَهَضْتُ بهذه الْمُهِمَّةِ، وتحمّلتُ المسئوليَّةَ بعد أنْ توكلتُ على اللهِ تعالى مستعينًا به سبحانه، وأعلنتُ الحربَ على صَنَادِيدِهِمْ، وفيهم رهطٌ من أسرتي. أَلَّفْتُ كتابًا بعنوان: ((الطريقة النقشبندية بين ماضيها وحاضرها))، وهو غيرُ مطبوعٍ حتى الآن. إلاَّ أنَّ صورتَهُ الألكترونيةَ منتشرةٌ عبرَ الشبكةِ العنكبوتيَّةِ، يقرؤها آلافٌ من الناسِ والحمد للهِ. كما أَلَّفْتُ كتابًا آخرَ في الموضوعِ نفسهِ باللغةِ التُّرْكِيَّةِ بعنوان Tarikatta Rabıta Ve Nakşibendilik وهو مطبوعٌ ومُنْتَشِرٌ في أنحاءِ تركيا. ورغم ذلك يَتَجَاهَلُني معظمُ الأتراك، خاصَّةً الأكاديميُّون ورجالُ الدِّين منهم، لشدَّةِ ما في صدورهم من الحقد والعداوةِ التي تُكِنُّهَا لِمُؤَلِّفِه؛ وقد بلغني أنَّ أحدًا من علماءِ العربِ ومُثَقَّفِيهم، إذا سألهم عنّي، نظر التركيُّ إليه في استغرابٍ ثم زعم أنَّه لم يسمعْ قطُّ شخصًا اسمه فريد الدين!

فلمَّا قدَّرَ اللهُ لي تأليفَ هذا الكتابِ الذي سَمَّيْتُهُ: ((الطريقة النقشبندية بين ماضيها وحاضرها))، ويسَّرَ الأسبابَ حتى جمعتُ فيه حقائقَ وأسرارًا للطائفةِ النقشبنديَّةِ مِمَّا لم يصلْ إليها أحدٌ من العلماءِ والباحثينَ، أحببتُ أنْ يطَّلِعَ عليها علماءُ عصرِنا، ورجالُ الدعوةِ الإرشادِ، ليقوموا بتنبيهِ المسلين وَلِيُحَذِّرُوهُمْ من خطرِ التَّطَرُّفِ الصوفِيّ، ولِيَسْتَقْوَوْا به في الدفاعِ عن تعاليمِ الإسلامِ. ولكنَّني اصطدمتُ بخيبةِ الأملِ كلَّما عرضتُ هذا الموضوعَ الهامَّ على رجالِ العلمِ والعملِ، والأثرياءِ وأصحابِ الكلمةِ النافذةِ خاصَّةً من أبناءِ الجزيرةِ العربية، لظنِّي فيهم خاصَّةً أنَّهم أهلُ الحديث، وأنَّ مِنْ علماءِ الحجازِ مَن اشتهرَ بالدفاعِ عن العقيدةِ السلفيَّةِ الحنيفةِ، فما وَجدتُ لأحدهِمْ مِنْ عَهْدٍ ووجدتُ أكثرَهُمْ متجاهلين! (وهذا من علامات النفاق والعياذ بالله!).

لقد أمسكتُ القولَ عن هذا الإِتِّهَامِ الخطير منذ سنين إلى اليوم، حتى لا أَقَعَ في مثالب المسلمين دون رَوِيَّةٍ، ولكنّي لَمَّا اطَّلعتُ على نفاقِ كثيرٍ منهم وبخاصَّةٍ لَمَّا أَطْلَعَنِي رَبِّي على جَلِيَّةِ أمرِ الطائفة الوهابيَّةِ، أردتُ أنْ أقومَ هذه الْمَرَّةَ بكشفِ الستارِ عن نفاقِ رجالِ العلم في الجزيرةِ العربية (إن كان يجوز إطلاقُ هذه الصفةِ عليهم!)

والأدهى والأَمَرُّ؛ أنَّ الرجلين (الحجازِيَّيْنِ الَّذَيْنِ مرَّ ذكرُهما)، أثارا أملى أنَّهما سوف يبذلان جُهُودَهُمَا لنشرِ هذا الكتابِ في الحجازِ، وَجَرَتْ مراسلاتٌ بيني وبين أحدِهما (مُحَّد المقدي) ، إلاَّ أن النفاقَ الوهابِيَ حال بيني وبين أملي، ولا يزالُ الكتابُ على حالِهِ مهجورًا في مَكْتَبَتِي، والله تعالى المستعان.

من خلال هذه العلاقات التي كشفتْ لي حقائقَ عن الوهابيّين، لاحَ لي (بعد بحثٍ دقيقٍ في أفكارِهِمْ وطبائِعهم، وأعرافِهم، وتاريخِهم، ومواقِفِهم وأسلوبِ تعامُلِهِمْ) أنهم قومٌ بدوٌ نزحوا من صحاري نجد وأنتشروا في أنحاء الجزيرة، فحالفهم الحظُّ أنْ قبضوا على زمام الحُكمِ، فاستقلُّوا من الدَّوْلةِ العثمانيَّةِ.

الإختلاطِ والإحتكاكِ انتشرتْ عقائدُهُمْ التي استورثوها من أيَّامِ جاهليَّتِهِمْ وهم على دينٍ اسْمُهُ "الْمُسْلُمَانِيَّةُ Müslümanlık". فلم ينتبهِ العربُ في كُلِّ تلك الحُقْبَةِ إلى خطورةِ هذا الدِّينِ الزائفِ المستمِدِّ من تبجيل الأمواتِ، وهو معتقدٌ مُتَأَصِّلٌ في ضمائرِ الأتراك؛ يؤمنون بأنَّ مَنْ ماتَ من أفرادِ الأسرةِ، له صلةٌ قويَّةٌ بأهلِهِ، يتصرّفُ في أمورِهِمْ، بشكلٍ مَّا، ويؤثِّرُ على حَظِّ العائلةِ ومصيرِهَا. فَلِلْمَيّتِ بهذا الإعتبارِ شأنٌ من القَدَاسَةِ عند الأتراك، ما زالوا يُعَظِّمونهُ بأشكالٍ من العباداتِ؛ يُضَحُّونَ لِرُوحِهِ، بُغْيَةَ كسبِ رِضاهُ، وإنْ كانوا يزعمونَ أنَّهم إنما يتصدَّقون بِلَحْمِ الأضحيةِ طالبين له المغفرةَ من الله! لكنَّ المقصودَ الحقيقِيَّ من هذه الصدقةِ لا يكادُ يتوارَى بغموضٍ بين الزعم والضمير، والله تعالى أعلم بأسرار القلوب.

غفل العربُ طيلةَ قرونٍ عن استحالةِ الأفكارِ والتَّغَيُّراتِ التي تطرأ على المعتقداتِ وَالدياناتِ عادةً. فأقامَ الأتراكُ في جميع أرجاءِ الحجازيةِ أضْرِحَةً، وبَنَوْا على قبورِ الصحابةِ والصالحين قِبَابًا عملاقةً يطوفون حولَهَا، ويتوسَّلونَ بها في دعائِهِم، فاجتاحتْ الأوثانُ أنحاءَ المنطقةِ بما فيها البقاعَ المقدسةَ، فاجتمعتْ جاهليَّةُ الأتراكِ بجاهليَّةِ العربِ، فانطمستْ نورُ الإيمانِ من القلوبِ.

لقد كان المشهدُ مُذْهِلاً للناظرِ؛ إذ كان الناسُ يصلُّون للهِ وَيَسُبُّونَهُ في صلاتهم! نعم؛ ما من شكٍّ في أنَّ الإنسانَ إذا كان يلاحِظُ شخصًا على سبيلِ التعظيمِ له في صلاتِهِ، أو يتوسَّلُ إلى ميتٍ، أو يطلبُ منه قضاءَ حاجتِهِ، أو يتوجه إلى قبرٍ بالدعاءِ والتَّضَرُّعِ إليه (إلاَّ بطلب المغفرة له من الله)، فقد حل ربقةَ الإسلامِ من عنقهِ لا محالة.

لَمَّا بَلَغَتِ الحالَةُ بالناسِ من الإشراكِ بالله إلى هذا المستوى الخطيرِ، نَهَضَ مُحَمَّد بنُ عبدِ الوهَّابِ (**1703–1792**م.) رحمه الله تعالى، للدفاعِ عن العقيدة الحنيفةِ، فأعلنَ الحربَ على الشركِ العثمانِيّ، والوثنيَّةِ الصوفيَّةِ، فَأجابَهُ قومُهُ وانطلقوا لِنُصْرَتِهِ، لكنَّهم انتفضوا بمجرَّدِ الروحِ البدويَّةِ المجبولةِ على القهرِ والسطوِ والإزلالِ، وليس عن وعيٍ بحقيةِ التوحيدِ ونشرِ رايتِهِ وبثِّ تعاليمِهِ العالميَّةِ الخالدة. فظلُّوا على سذاجتِهِمْ التي سَحَبَتْهُمْ إلى حماقاتٍ لا حصر لها، وقد مضى على ثورتهم أكثر من قرنين وهم ما زالوا أبعدَ الناسِ من العلومِ والمعارفِ والثقافةِ العالمية. تشبَّثوا بالحديثِ النبوِيِّ فَحَسْبُ، وتركوا بقيَّةَ العلومِ، فانتشرَ فيهم التطرُّفُ والرُّوحُ الخارجيَّةُ حتى نبتتْ بذورُ الإرهابِ من بين ظهرانيهم، أنطلقوا يحاربون الشركَ والوثنيةَ في طَيْشٍ وتَهَوُّرٍ وعلى غير بصيرة وهدىً من الله، فدمَّروا أوثانَ الأتراك العثمانيين قبل أن يتعرَّفوا على دينيهم (الْمُسْلُمَانِيَّةِ Müslümanlık)، وَطالما

التبَسَ عليهم الْمُسْلُمَانِيَّةُ بالإسلامِ إلى هذه الساعةِ؛ فظنوا "أنَّها الإسلامُ الْمُشَوَّهُ المشبوعُ بالبدعِ والخرافيَّاتِ"، والحقيقة عكس ذلك تمامًا، بل الوهابيُّون لم يُفَكِّرُوا يومًا من الأيامِ: أنَّ الأتراكَ لم يعتنقوا الإسلامَ عن طيبةِ قلبٍ، وصفاءِ سريرةٍ، ورحابةِ صدرٍ أصلاً، منذ أوَّلِ أمرِهِمْ (أيَّامَ فتحِ الجيشِ الإسلاميِّ منطقةَ تركستان عام 707 من ميلادِ عيسى عليه السلام.) بل قاوموه بشدةٍ ورفضوه بعنفٍ، ثم تظاهروا باعتناقِهِ عن كراهيةٍ. والدليلُ القاطعُ على ذالك: أنَّ أيَّ عنصرٍ تُرْكِيٍّ تسألُهُ عن دينه حتى في هذه الأيامِ وبعد مُضِيِّ ألفٍ وثلاثمِائَةِ عامٍ على فتح تُرْكِسْتَانَ، لاَ يجيبك أنَّهُ (مُسْلِمٌ!)، بل يقول "الحمد لله أنا مُسْلُمَانْ Elhamdülillah ben müslümanım". يَأْبَى الإنسانُ التركِيُّ أنْ ينطِقَ بكلمةِ "مُسلِم"! هكذا يجيبكَ تعبيرًا عن كراهيَّتِهِ للأميرِ الأمَوِيِّ قتيبةَ بنَ (مُسْلِم)! الذي فتح بخارى وسمرقند ومناطقَ واسعةً من بلادِ التُّرْكِ، وتمييزًا لـ"الْمُسْلُمانِيَّةِ" عن الإسلامِ... "لأن الإسلامَ الذي جاءَ به محمدٌ ﷺ إنما هو دين العرب فحسب!" في ضمير الإنسانِ التُّرْكِيِّ من غير قصدٍ ووعي منه، لأنه شبيهٌ بِالوَهَّابِيِّ مقلِّدٌ محضٌ وجاهلٌ بالتاريخ.

لَمَّا فتحَ المسلمون بلادَهم، تَدَارَكَ الأتراكُ لأنفسِهم دينًا شبيهًا بالإسلامِ في ظاهره، تَعْمِيَةً للفاتحين يومئذٍ؛ أخذوا معتقداتٍ من البوذيَّةِ والمانويَّةِ والزرادشتيَّةِ، فضمُّوا إليها مناسِكَ وعباداتٍ من الإسلامِ؛ كالصلاةِ والصومِ والحجِّ والزكاتِ والنوافل... إنما فعلوا ذلك ليحافظوا على استقلالِهِمْ الدينِيِّ الذي هو أساسُ استقلالِهِم السياسيِّ. ذلك من طبيعة الأتراك؛ أنهم قلَّمَا يستسلمون لغيرِ بني جِلْدَتِهم، فلا يُؤَمِّرون على دولتِهم أحدًا من غير بني قومِهم (بخلاف العرب والكرد والفرسِ)، اللهم إلاَّ إذا غَلَبَهُمْ رجل أجنبِيٌّ بعد أنْ يتوارَى بقوميَّتِهِمْ، ويتعصَّبَ بعصبِيَّتِهِمْ كما فعل ذلك مصطفى كمال الذي لم يَثْبُتْ أنه تُرْكِيُّ الأصل، بل زعم بعضُ البَحَثَةِ أنه يهوديٌّ، أو خَزَرِيٌّ. (والخزرُ Hazarlar: قبيلةٌ من الأتراكِ، تَهَوَّدوا في سالف أيَّامِهِمْ ثم أبادهم الله على يدِ العبَّاسيِّين).

يكادُ الوهابيُّون كلُّهم يجهلون هذه الحقائقَ، كما يجهلون أشكالَ الشركِ وضُروبَ الزَّنْدَقَةِ لانتفاءِ الثقافةِ فيهم، فلا تكادُ تجد شخصًا من علماءِ الوهابيِّين وباحثِيهم: أنْ اكْتَرَثَ للرَّدِّ على دَجَّالٍ أو زِنْدِيقٍ يُضلُّ الناسَ ويَلْبِسُ عليهم الحقَّ بالباطل، ويُروِّجُ أكاذيبَهُ فيسحرُ العقولَ ويسحبُها من ورائِهِ... لأنَّ الوهابيَّ لا يعلم شيئًا عن خالد البغدادي (على سبيل المثال)، وهو أعظمُ زِنْديقٍ في تاريخ الإسلامِ، جاء بالطريقة النقشبندية من بلادِ الهندِ عام 1811م. وبثَّها في جميعِ أنحاء المملكة

العثمانيَّةِ وهو يُقيمُ يومئذٍ على مقربةٍ من بلاد الوهابيَّةِ وهم غافلون عنه! وقد أثبتُّ بعون الله تعالى أنَّ الطريقةَ النقشبنديَّةَ شُعبةٌ من مذهبِ (ماهايانا Mahayana) الْمُتَفَرِّعِ من الديانة البوذية[190].

عاشَ البغداديُّ أيامَ نشوب ثورة الشيخ مُحَمَّد بن عبد الوهاب، وحرَّضَ عليهم جيوشَ الدولةِ العثمانيَّةِ، وأضلَّ ملايين الناسِ فأخرجهم عن الملَّةِ، ولا يزال تُبَّاعُهُ من الخواجوات (الجُوجَوَاتِ)[191] يواصلون ترويجَ مشربِهِ الخبيثِ في أنحاءِ تركيا، والحكومةُ التركيةُ اليومَ متواطئةٌ مع النقشبنديِّينَ في هذه الجنايَةِ! كما أنَّ الحكومةَ الوهابيَّةَ هي الأخرى ترتبطُ معها بعلاقةٍ قويَّةٍ في هذه الأوان لاستغلال الحرب في سوريا من جهةٍ، ومحاربَةِ تنظيمِ داعشِ الإرهابيِّ من جهةٍ أخرى.

لا تقتصرُ غفلةُ الوهابيِّين عن هذا الزِّنْدِيقِ فحسب، ولكنَّهم يكادون يغفلون عن جميع زناقة الأتراك خاصةً (وما أكثرهم)[192].

---

[190] راجع: "الطريقة النقشبندية بين ماضيها وحاضرها"، لكاتبِ هذهِ العُجالَةِ: فريد صلاح الهاشمي Feriduddin AYDIN

[191] كلمة (جوجه cüce): صفةٌ في اللغة التركية، تطلقُ على الإنسانِ القصيرِ القامةِ بمعنى: قَزَمٍ. وَلفظُ (جُوجَوَات): جمعُ (جوجه cüce)، أي: أقزامٌ، وَقُزُمٌ وَقَزَامَى، كُلُّهَا صِيَغُ جمعٍ بمعنًى واحدٍ.

[192] ويحسن بهذه المناسبة أن أذكرَ أسماءَ جماعةٍ من مشاهير زنادقةِ الأتراك والأكرادِ الذين عملوا على تدمير الإسلامِ منذ القرنَيْنِ الأخيرَيْن، ولا نجد أحدًا من علماء الوهابيِّينَ أنه أفرَدَ كتابًا في ضبطهم، والردِّ عليهم وتنبيهِ المسلمين على خطورة نشاطاتهم، والدعوة إلى إحباطِ أعمالهم. وهذه أسماءِ مشاهيرهم من أقدمهم بالترتيب الزمني إلى معاصريهم:

خالد البغدادي، عبد الوهاب السوسي، إسماعيل الأناراني، محمّد بن عبد الله الخاني، محمّد أمين بن محمّد صالح الطبقجلي، إسماعيل الشيرواني، عثمان الطويلائي، عمر بن عثمان الطويلائي، مُحَمَّد أمين الكردي الأربلي، عبد القادر الديملاني، محمّد امين بن علي السويدي، محمّد المجذوب العمادي، مصطفى الْكُلْعَنْبَرِيّ، ملاّ عباس الكوكي، ملاّ هداية الله الأربلي، عبد القادر الحيدري، إسماعيل فقير الله التِلواني، ممدوح التلواني، إبراهيم حقي الأرض الرومي، إبراهيم الفصيح، أحمد الأربلي الخطيب، عبد المجيد بن محمّد بن محمّد الخاني، أحمد الأغربوزي، أحمد البقاعي، عصمت غريب الله، أسعد صاحب، أحمد ضياء الدين الكموشخانوي، طه الشمزيني، أحمد القسطموني، عبد الله الأرزنجاني، عبد الله الخرباني، عبد الله الهروي، عبد الله المكي، عبد الفتّاح الكردي العقري، عبيد الله الحيدري، حسن حلمي القسطموني، عبيد الله الهكاري، أسعد الخسخيري، مُحَمَّد الحزين الفرسافي الهاشمي (جَدُّ مؤلِفِ هذا الكتاب) وجماعةٌ من أبنائِهِ، عبد القهّار الذوقيدي، الخطَّاب الأسعردي، مُحَمَّد الكُفروي البتليسي وابناه: عبد الهادي الكُفروي وعبد الباقي الكُفروي، حسين الباصرتي البوطي، حامد الماrديني، خالد الزيباري، خالد الزيلاني، خالد الجزري، نور الدين البريفكاني، عبد الرحمن الكردي العقري، صبغة الله الأرواسي، شهاب الدين بن صبغة الله الأرواسي، عبد الرحمن التاغي، فتح الله الورقانسي، ضياء الدين النورشيني، مُلاَّ سليم الهزاني، سعيد النورسي، فتح الله العينكافي، عبد الحكيم الجزنوي، أسعد الأربلي، سعيد البالوي، سعيد النورسي، زاهد الكوثري، عبد الحكيم الأرواسي، أحمد مكّي بن عبد الحكيم الأرواسي، أحمد الخزنوي وأبناؤه علاء ومطاع وعزالدين، علي حيد الآخِسْقَوِي، كنعان الرفاعي، حسين حلمي إيشك، نجيب فاضل قيصاكوريك، كمال بِلاف أوغلو، شمس الدين يشيل، مظفر أوزاك، سعيد سيدا الجزري، خليل بن فتح الله العينكافي، سليمان حلمي طُوناخان، إسماعيل حقي أهرامجي أوغلو، مُحَمَّد زاهد كوثري، ملا عبد الحكيم البلوانسي وابنُهُ مُحَمَّد راشد أرول وأحفاده، نجم الدين أربكان، جمال الدين قبلان، ناظم القبرصي، مُحَمَّد شوكت إيجي، أحمد آقجندوز، عرفان جندوز، موسى كاظم الحزيني الهاشمي (حفيد الشيخ مُحَمَّد الحزين الفرسافِي)، قدير مصر أوغلو، عمر أنكوت، ياشار نوري، عدنان أوكتار، فتح الله گولن، حيدر باش، نهاد خطيب أوغلو، محمود أوسطى عثمان أوغلو، أحمد محمود أونلو (جُبَّلِي أحمد)، إسكندر أورانوس أوغلو، وعمر مشالي (ملحدٌ كردِيٌّ من أمثال جيكرخون).

وهذه أسماء مشاهير الزنادقة من العرب الذين عاشوا منذ القرنَيْنِ الأخيرَيْن من أقدمهم بالترتيب الزمني إلى معاصريهم: حسين الدوسري، أحمد بن زيني دحلان، إسماعيل النبهاني، مُحَمَّد بن سليمان البغدادي، أحمد سليمان الأروادي، محمود أبو رية الذي قال فيه مصطفى السباعي: "جاهلٌ يبتغي الشُهرةَ في أوساطِ العلماءِ،

***

16) الصراعاتُ الطائفيَّةُ والمذهبيَّةُ:

لفظُ الطائفيَّةِ لغةً: اسمٌ مؤنَّثٌ منسوبٌ إلى (طائِفة)، ومصدرٌ صِناعِيٌّ مأخوذٌ من كلمةِ (طائِفة)[193]. والطائفيّةُ؛ تُطلَقُ للتعبيرِ عن التعصُّبِ لطائفةٍ أو جماعةٍ ذاتِ مذهبٍ معيَّن أو عرقٍ واحدٍ أو دين تعتنقه أغلبيتُهَا، وليستْ مجرَّدَ انتماءٍ.

أما الإنتماءُ: فهو من المزايا الفطرية التي جُبِلَ عليها الإنسان، وهو الانتسابُ إلى شيءٍ مَّا، مقرونًا بِالْمَحَبَّةَ والتوقيرِ له، والتمسُّكِ به مع اليقين. وهو شعورٌ ثابتٌ وعاطفةٌ راسخةٌ في أعماقِ ضميرِ الإنسانِ لا تفارقُهُ في الأغلَبِ إلاَّ إذَا تزعزعَ يقينُهُ لسببٍ شديد الوقعِ.

وفاجرٌ يبتغى الشهرةَ بإثارةِ أهلِ الخيرِ، ولعمري إنَّ أشقى النّاسِ من ابتغى الشهرةَ عندَ المنحرفينَ والموتورينَ بلعنةِ اللهِ والملائكةِ والنّاسِ أجمعينَ."، إسماعيل بن أدهم، علي بن عبد الرزاق، طه حسين، فهد العسكر، أحمد كفتارو، رجب ديب الدمشقي، يوسف السيد هاشم الرفاعي الكويتي، راشد بن إبراهيم المريخي البحريني، عبد الحي العمري المغربي، عبد الكريم مراد المغربي، سعيد رمضان البوطي، علي بن عبد الرحمن المعروف بالحبيب الجفري، مُحَمَّد علوي مالكي، سيد القمني، سعد الدين هلالي، مصطفى محمود، مُحَمَّد أركون، عمر خالد، مسعود معتز، حسن حنفي، مالك شبل، مُحَمَّد سعيد العشماوي، عادل ضاهر، على جمعة، مفتى الديار المصرية السابق ، وأسامة الرفاعي اللبناني (مفتي مدينة عكار–لبنان).

ملاحظةٌ: إني لم أطرق إلى زنديق من الرافضةِ، لأنَّ الروافض كلهم زنادقةٌ أصلاً ولا شكَّ.

[193] والفرقُ بينهما: أَنَّ الاسْمَ إِذَا كَانَ مُنْتَهِيًا بِيَاءٍ مُشَدَّدَةٍ وَتَاءٍ مربوطةٍ (يَّة)، ولم يرد وصفًا، فهو مَصْدَرٌ صِنَاعِيٌّ وَلَيْسَ اسْمًا مَنْسُوبًا. نحو: الدِّيمُقْرَاطِيَّةُ نِظَامٌ زَائِفٌ. فَكَلِمَةُ (الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ) فِي هَذَا الْمِثَالِ مَصْدَرٌ صِنَاعِيٌّ وَلَيْسَتْ اسْمًا مَنْسُوبًا، لأَنَّهَا لَمْ تَرِدْ صِفَةً، بَلْ هِيَ مُبْتَدَأٌ. وَقَوْلُهُمْ: الْوَطَنِيَّةُ شُعُورٌ نَبِيلٌ (أيضًا مَصْدَرٌ صِنَاعِيٌّ) لأَنَّهَا لَمْ تَقَعْ صِفَةً، بَلْ هِيَ مُبْتَدَأٌ. وإمّا إذا كَانَ (هَذَا الاسْمُ الْمُنْتَهِي بِالْيَاءِ الْمُشَدَّدَةِ وَالتَّاءِ الْمَرْبُوطَةِ) نَعْتًا فهو:اسْمٌ مَنْسُوبٌ، وَلاَ يُقَالُ لَهُ "مَصْدَرٌ صِنَاعِيٌّ" نحو: الْمَنْتُوجَاتُ الْوَطَنِيَّةُ أَفْضَلُ مِنَ الْمُسْتَوْرَدَةِ (فَكَلِمَةُ الْوَطَنِيَّةِ هُنَا: اسْمٌ مَنْسُوبٌ إِلَى الْوَطَنِ)، لأَنَّهَا جَاءَتْ صِفَةً لِ(الْمَنْتُوجَاتِ). (المصدر: المعجم الموسوعي الفريد لألفاظ اللغة العربية)

يشعرُ الإنسانُ بالانتماءِ إلى دينِه، ولُغَتِه، وثقافتِه، ووطَنِه، ومُجْتَمَعِه، وعشيرتِه... وقد يتنوَّعُ الإنتماءُ من حيثُ الأفكارُ والمعتقداتُ وغيرُهما، ويتعدَّدُ ويختلفُ بحسبِ هذه المفاهيمِ والقِيَمِ؛ كالإنتماءِ إلى فِرقَةٍ دينيةٍ، أو مذهبٍ فقهيٍّ، أو طائفةٍ عرقِيَةٍ، أو حزبٍ سياسِيٍّ، أو حتى إلى عصابةٍ إرهابِيَّةٍ ونحوِها. ويتَّسِمُ بعضُ الإنتماءَاتِ بأهمِّيةٍ بالغةٍ لانتشارِهِ الواسع ورسوخِهِ في قلوبِ الملايين، فَيُصْبِحُ عاملاً لتكوينِ أمةٍ أو مجتمعٍ أو حِلْفٍ يكون له شأنٌ عظيمٌ. وإنما يمتازُ بهذه المكانةِ خاصةً الإنتماءُ الدِينِيُّ والسياسِيُّ والأيديولوجِيُّ.

تختلف الإنتماءاتُ أيضًا من حيث مشروعيتُها؛ ذلك إذا كان الإنتماءُ يتبنَّى السِّلْمَ والتعارُفَ وَالتعاونَ على البر والتقوى فهو انتماءٌ إيجابِيٌّ، وقد ثبتَتْ مشروعيَّتُهُ بِنَصِّ القرآنِ الكريمِ، قال تعالى: "يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِير." وأمّا إذا كان الغرضُ من الإنتماءِ تفضيلَ الشخصِ قومَهُ على قومٍ آخرَ، أو الهيمنةَ على الغيرِ بالاستغلالِ والاستبدادِ والتسلُّطِ والجبرِ والسحقِ ونحوِها، فهو انتماءٌ سَلْبِيٌّ ظالِمٌ، يُنبِئُ عن الشعورِ بالعُنصرية أو الطائفِيَّةِ أو المذهبِيَّةِ. وهي مرفوضةٌ في الإسلامِ، كذلك في معظمِ النُّظُمِ والقوانين الدُّوَلِيَّةِ. هكذا تتبلورُ ما هيةُ العصبيةِ والطائفيَّةِ والمذهبيَّةِ من خلالِ المقارنةِ بين أهدافِ الإنتماءِ الصحيح والانتماءِ الخطأ.

لفظَةُ (الطائفيةِ) تفيدُ العصبيَّةَ لطائفةٍ معيَّنَةٍ، وهي تعبيرٌ عن العنصريةِ وبينهما عمومٌ وخصوصٌ؛ فالعنصرية أعمُّ من الطائفيةِ، لأن الطائفيةَ تُطلَقُ على نطاقٍ ضيِّقٍ، وأمَّا العنصريَّةُ فإنها تفيدُ العصبيَّةَ لِعِرْقٍ بكاملِهِ، والعرقُ تسميةٌ أوسعُ شمولاً، إذْ تُطلَقُ على جماعةٍ كبيرةٍ يبلغُ عددُها الملايينَ من الناس. أمَّا الطائفةُ: فإنَّها يُفْتَرَضُ أن لا يتجاوزَ نطاقُها بِضعةَ آلافٍ من البشر، إلاَّ أنَّ الطَّائِفِيَّةَ قد لا تقلُّ وَقْعًا وتأثيرًا من العنصريَّةِ، وقد تَفْضُلُ عنها باعتبارِ تبعاتِهَا أشدَّ خطورةً وأكثر تدميرًا. لأنَّ الإنسانَ الطائفِيَّ يتبنَّى رأيًا فكريًّا، أو مذهَبًا فقهيًّا، أو معتَقَدًا دِينِيًّا، لا يشاركه فيه إلاَّ قِلَّةٌ من أتباعِ مجتمعِهِ، وقد يُعَدُّ رَأْيُ الطائفَةِ أو مذهبُهُ أو معتقدُهُ مرفوضًا عند الأكثريَّةِ ومن الأمور الشاذّةِ، فيتعرَّضُ أفرادُ هذه الطائفَةِ لضغوطٍ شديدةٍ بصورةٍ مُسْتَمِرَّةٍ من قِبَلِ أبناءِ شعبِهِ، حيث يرى هؤلاءِ أنفسَهم واقعين في حبالٍ قد التفَّ بِخِنَاقِهِمْ، مُسْتَضْعَفِين ومسحوقين... لا يُسْعِفُهُم مُجَرَّدُ الجَدَلِ وآلَةُ الكلامِ كَسِلاَحَيْنِ يدافعُون بهما في وجهِ كثرةٍ غالبةٍ تحاولُ احتوائَهم؛ فيلجأ مثلُ هؤلاءِ المضطهدين إلى استعمالِ العنفِ، يأتي عليهم بِكَوَارِثَ مأساويةٍ تضاعِفُ من عذابِهِمْ.

والفرقُ بين العنصريةِ والطائفِيَّةَ في السلوكِ والتعامُلِ: أنَّ العنصريَّةَ تتَّسِمُ بالغطرسةِ واحتقارِ الغيرِ، وهي ناشئةٌ من محضِ قصدِ التغلُّبِ والتَّسَلُّطِ على الضعيفِ، بُغْيَةَ سحقِهِ وإرغامِهِ وقهرِهِ وصهرِهِ... يقصد العنصريَّ ذلك في تعمُّدٍ واستكبارٍ وعنجهيَّةٍ. لكن الطائفِيَّةَ تتمثَّلُ في ردِّ فعلٍ شديدٍ تقومُ به أقلِّيَّةٌ ضدَّ أكثريَّةٍ للدفاعِ عن نفسِها، إلاَّ أنها تخرجُ من حدودِ الدفاعِ المعتدلِ إلى الإنتفاضِ والتمرُّدِ بطريقِ الإنتقامِ وشنّ الهجومِ، يُسْفِرُ عن جناياتٍ وشرٍّ مستطيرٍ وفوضى. لذا، لا يجدُ الطائفيُّ مبرّرًا يُقَدِّمُهَا للعقلِ السليمِ لكي يُعْذَرَ، ولا كونُ الطائفةِ مقهورَةً يبيحُ لها استغلالَ مُعُانَاتِها ذريعةً لارتكابِ الجناياتِ تحتَ سمة الإنتقامِ مهما كانت على حق. إذ لا يخفى أن الخروج عن حدودِ الإعتدالِ والحكمةِ في المخاصمة والنزاعِ عقبةٌ تسدُّ سبيلَ الحوارِ والتجاوبِ في الأغلبِ، وعندما تحلُّ الطائفةُ رِبْقَةَ الإنتماءِ إلى مجتمعِهِ قطعًا وتضمحلُّ الصلةُ بينهما، إذًا تتأزَّمُ الأمورُ وتمتنع الأسبابُ وتستعصي الحلولُ، وقد يؤدِّي ذلك إلى تطوُّراتٍ خطيرةٍ تعودُ بالخرابِ والدمارِ على الطائفةِ أكثر منه على المجتمع، خاصّةً إذا كان في أصل النزاعِ ارتباطٌ بِمُعْتَقَدٍ أو عبادةٍ.

وهنا يجب على الباحث ان يحتاطَ في الْحُكْمِ على أحدِ جَانِبَيِ النزاعِ؛ ذلك أن الطائفةَ قد لا تكون في كل الأحوال هي المسؤولةَ عن المشاكلِ التى تَحْدُثُ بينها وبين المجتمعِ الذي هي جزءٌ منه. بل التاريخُ يشهدُ على أنَّ النظامَ الذي يُمَثِّلُ الأكثريَّةَ، يتعمَّدُ الظلمَ في معاملةِ جزءٍ من المجتمعِ، لخاصِّيَّةٍ تُمَيِّزُهَا عن الغالبيَّةِ العظمَى، وهذا واقعٌ في أغلبِ الأحوالِ، فتنفجرُ الطائفةُ المضطهدةُ عندئذٍ وتنفلتُ من العقالِ، وقد لا يَتَمَكَّنُ النظامُ من إخمادِ ثورتِها فيتفاقم النزاعُ، وتستفحل الفتنةُ، وتستحيلُ السيطرةُ على الطائفة الثائرة، وتبقى الوبالُ معلَّقًا في عنق المجتمع بأسرِهِ.

نعم لا شكَّ في أن الطائفيَّةَ ظاهرةٌ مرضِيَّةٌ تُفسِدُ الأخلاقَ والسلوكَ، وَتختلُّ بها العلاقاتُ البشرية والنظامُ الاجتماعِيُّ. "لأنها تَجَاوُزٌ لِحدودِ الاختلافِ الصحيحِ الذي يندرجُ تحتَ مفهومِ التنوُّعِ، لكنها تدخلُ في نطاقِ اختلافِ التضادِّ ومحاولةِ نفيِ الآخَرِ، وعدمِ قبولِهِ، والقضاءِ على الْمُغَايِرِ أو الْمُفَارِقِ طائفيًّا"، (كما يقول الدكتور طه العلواني).[194] غير أنَّ القضيَّةَ أوسعُ نطاقًا وشمولاً من مجرَّدِ الإعترافِ بهذه الحقيقةِ. إذ أنَّ أصلَ مشكلَةِ الطائفيَّةِ تَكْمُنُ في الأسبابِ التي تُثيرُها وتؤدِّي إلى اندلاعِ هذه الفتنةِ قبلَ أن تكونَ قد نشبتْ شَرارَتُها الأولى. ذلك، إنَّ أيَّ مجتمعٍ يعمُّ فيه الفسادُ؛

[194] http://www.aljazeera.net/programs/religionandlife

وينتشرُ فيه الظلمُ والقهرُ والفاحشةُ والارتشاءُ والربا، ويتسلَّطُ فيه القويُّ على الضعيفِ، ويسودُ فيه الاستغلالُ والطبقيةُ والمحسوبيَّةُ... لابدَّ أن تُثيرَ هذه الفضائحُ حفيظَةَ قِلَّةٍ منه، فتنتفضَ للتَّخَلُّصِ من هذا الجحيم. هكذا تبدأ تدُبُّ الطائفيَّةُ في خطوتها الأولى. وإذا كانت الطائفيَّةُ تتمثَّلُ في تمرُّدِ مثلِ هذه القلَّةِ ونضالِهَا لمكافحة الفسادِ، والدفاعِ عن الحقوقِ والقِيَمِ والأخلاقِ، ومطالبةِ المجتمعِ بالرجوعِ إلى نصابِ العدالةِ والحقِّ... فلا يُعقلُ أنْ تَلْقَى ثورتُها نكيرًا من أيِّ شخصٍ ذي حَمِيَّةٍ إنسانيَّةٍ وفطرةٍ سليمةٍ أبدًا، وإن كانت هذه القِلَّةُ تعبُدُ القردَ والحجرَ والشجر...

إنَّ هذه الحقِقَةَ تكشفُ لنا أسرارَ الاستقرارِ الذي تتمتَّعُ به شعوبُ الغربِ وهي على دين محرَّفٍ لا علاقةَ له بالمسيحِ عليه السلام، ولا بالوحي الذي أُنزِلَ عليه. كما أنَّ هذه الحقيقةَ نفسَها تكشِفُ لنا أيضًا أسرارَ الشَّغَبِ والْفِتَنِ والحروبِ والقتالِ والمذابحِ التي تجري في أنحاءِ الوطن الإسلامي، خاصةً في الشرق الأوسطِ، مع أنَّ المجتمعاتِ القاطنةَ في هذه المناطقِ تزعم أنها تدين بالإسلامِ والإسلامُ براءٌ منها، ما عدا قلّةٍ من أهل التوحيدِ الخالصِ، أفرادُها مبعثرةٌ في هذه الساحةَ المترامية الأطرافِ وهم مستضعفون يعانون من الاضطهادِ والقمع والسجون والتعذيب...

هذه الحقيقةُ نفسُها تُفَسِّرُ لنا انْتِشارَ الطائفيةِ والمذهبيَّةِ في أرجاءِ الوطن الإسلامِيّ بشكلٍ ذريع، كما تُنْبِئُنَا عن أسبابِ ظهورِ عصاباتٍ ارهابيَّةٍ تحت سمةِ الجهادِ والدفاعِ عن الْقِيَمِ الإسلاميَّةِ، تلك التي تزعمُ أنَّها تريدُ إقامةَ دولةٍ ذاتِ نظامٍ إسلامِيّ على مثالِ الخلافةِ الراشدة. إذًا يجب هنا التركيزُ على الأوضاعِ السياسية والإجتماعية التي تسودُ على المجتمعات الْمَحْسُوبَةِ من الإسلامِ كذبًا وزورًا.

إن المشهدَ لِواقعِ العالَمِ الإسلاَمِيّ مُخْجِلٌ، بل مُخِيفٌ ورهيبٌ للغايةِ، خاصَّةً في الأيام التي أودِعَتْ هذه السُّطُرُ في ذاكرةِ التاريخ لتكونَ عِبْرَةً للأجيالِ القادمة؛ هذه المسرحيَّةُ المظلِمَةُ السوداء، ينعكسُ من خلالِهَا ما يقشعرُّ منه الجِْلْدُ وَيَنْدَى له الجبينُ من القهر والسحقِ والتعذيبِ والقمع والتشريدِ والإقتتالِ والتناحُرِ... قد تَحَوَّلَ مُعظمُ أرجاءِ الوطنِ الإسلامِيّ إلى مُعْتَرَكٍ لاقتحامِ الحرماتِ، والتمرُّدِ على الله بأشكالٍ من الشركِ والكفرِ والنفاقِ والإلحادِ والزندقةِ؛ وبارتكابِ أنواعِ الذنوبِ من الخيانة والكذِبِ والبهتانِ والفجورِ والفاحشةِ والسرقةِ والإغتصابِ والنهبِ والسلبِ وخلعِ لباسِ الحياءِ والعياذُ بالله!... وقد انفصمتْ شخصيةُ الإنسانِ الذي تحوِي بطاقةُ هُوِيَّتِهِ كلمةَ "الإسلامِ" والاسلامُ بعيدٌ عنه بُعدَ السماءِ من الأرضِ. تجدُ الملايين من هذه الشخصِيَّةِ الخبيثةِ والخطيرةِ عَبْرَ الشوارِعِ، والميادينِ، والمطاراتِ، والأسواقِ، والمجالسِ، والأنديةِ، والمحلاَّتِ التجاريَّةِ، والمصانعِ، والمعسكرات،

وفي كلّ مكانٍ... أبدانُهُمْ متواريَةٌ في أثوابٍ رشيقةٍ وأذهانُهُمْ تتراقصُ فيها خطراتٌ آثمةٌ؛ مساجدُهُمْ مكتظَّةٌ بجماعاتِهِمْ، عامرةٌ بصفوفِهِمْ المتراصّةِ، وقلوبُهُمْ خربَةٌ من هَدْيِ اللهِ وتقواه. وإذا كَلَّمْتَ أحدًا منهم تراه تتناثرُ من بين شفتَيْهِ ألوانٌ من الكذِبِ على الله ورسولِهِ؛ يتنطَّعُ، ويتشدَّقُ، ويَتَفَلْسَفُ، ويجازفُ ويُرَاوِغُ بكلماتٍ طنَّانَةٍ، وتفسيراتٍ بدعِيَّةٍ وحكايات للصوفِيَّةِ، وإسرائيلِيَاتٍ، وفتاوى للبلاعمةِ، كُلُّ ذلك من وحي الشيطان... فيبدو لك في النهاية أنه إمَّا نقشبندِيٌّ، أو نورجِيٌّ، أو فتوشِيٌّ، أو طَيُّشِيٌّ، أو رافِضِيٌّ، أو أتاتوركِيٌّ، أو يسارِيٌّ، أو يمينِيٌّ، أو وهابِيٌّ، أو إخوانِيٌّ، أو لادِينٌّ، أو داعشِيٌّ، أو عفلقِيٌّ، أو علقمِيٌّ أو صدَّامِيٌّ... ويتسلسل هذا التنوعُ الغريب الذي لا يكاد ينتهي، ولا يَمُتُّ إلى الإسلام بأدنى صلةٍ، على رغم ما يَدَّعِي جَمِيعُهُمْ أنهم مسلمون! بل كُلُّ واحدٍ من هؤلاءِ يَتَّجِرُ بِالدِّين، ويستغِلُّ العواطِفَ، ويُمَثِّلُ طائفةً من الزنادقةِ. منها ما هي صوفِيَّةٌ قبوريةٌ تَعْبُدُ الجيفَ وتتقلبُ في أوحالِ الشركِ، ومنها ما هي علمانيَّةٌ تدفع بأن الدين لا علاقة له بالحياةِ الاجتماعية غير المسجد والمقبرة... على رغم ما يزعمُ كُلُّ مُنْتَسِبِي هذه الطوائفِ أنّهم مسلمون!

يقول ابن القيم رحمه الله في أمثالِ هؤلاء الأدعياءِ:

وإذَا ذَكَرْتَ اللهَ تَوْحِيدًا رَأَيْ * تَ وُجُوهَهُمْ مَكْسُوفَةَ الأَلْوَانِ
بَلْ يَنْظُرونُ إلَيْكَ شَزْرًا مِثْلَ مَا * نَظَرَ التُّيُوسُ إلَى عَصَا الجُوبَانِ
وَإذَا ذَكَرْتَ بِمِدْحَةِ شُرَكَاءِهِمْ * يَتَبَاشَرُونَ تَبَاشُرَ الْفَرْحَانِ
واللهِ مَا شَمُّوا رَوَائِحَ دِينِهِ * يَا زَكْمَةً أعْيَتْ طَبِيبَ زَمَانِ.

ومن هذه الطوائف ما هِي خارجيةٌ تكفيرِيّةٌ خُوَيْصِرِيَّةٌ تَدَّعِي أنَّهَا توحيديَّةٌ، والتوحيد براءٌ منها، لكن في الواقع كُلُّهَا فِرَقٌ جاهلِيَّةٌ تغامرُ بسلاحِ الدِّين وقد أعيتْ بها المذاهبُ. هذا فضلاً عن طوائفَ أخْرَى قد انفصلتْ عن الإسلامِ منذ قرونٍ مثل الإسماعيليَّةِ، والقرامطةِ، وإخوان الصفا، والنُّصيريَّةِ، والدرزية، والبابية، والبهائية، والقاديانية، ومئاتٍ من الطرقِ الصوفِيَّةِ الإباحية والقبوريَّةِ... هذا هو العالَمُ الإسلامِيُّ الذي يتمرغُ في أوحالِ الطائفِيَّةَ والمذهبِيَّةِ.

إنَّ فتنةَ الطائفيةِ والمذهبِيَّةِ التي تفاقمتْ على أرضِ الإسلامِ وحوَّلَتْ الشرقَ الأوسطَ إلى جحيمٍ، خاصةً بعد ظهورِ فكرةِ الْعَوْلَمَةِ وبشكل مفاجىء، لابُدَّ أنْ يكونَ لها تفسيرٌ معقولٌ يتماشى مع المسار التاريخي لظروفِ العصر وَمَكَامِنِ السياساتِ الْمُتَلاَطِمَةِ في المرحلةِ الراهنة.

اندلعتْ الثوراتُ العربيَّةُ وسُمِّيَتْ في أيَّامِ نشوبها بـ"الربيعِ العربِيّ" تفاؤُلاً بانْدِحارِ رموزِ الإستعمارِ الغربِيّ الْمُتَمَثِّلَةِ في عددٍ من الطواغيتِ، مثل على بن زين العابدين، والقذافي، وحسني مبارك... ودامَ الأملُ لِتَكْسَحَ الثورةُ بقيَّةَ الطواغيتِ وأنْظِمَتَهَا لِيَحِلَّ محلَّهُمْ رجالٌ شُرفاءُ أُمناءُ يتمتَّعون بِثِقَةِ شعوبِهِمْ. إلاَّ أنَّ سزاجةَ "الْمُسْلِمِ؟" الْمُعَاصِرِ مَنَعَتْهُ عن فهمِ ما يَتَخَفَّى وراءَ هذه الثوراتِ، برغمِ ما ظَلَّ يشاهِدُ منذ سنين عاصفةً من الحروبِ في أفغامستان، والشيشان، والخليج... فلم يُدْرِكْ أنَّ "الربيعَ العربِيَّ" لا يجوز أنْ يكونَ نتاجَ عقلِ الإنسانِ (الْمُتَأَسْلِم) الصوفي القبورِيّ، ولا من إبداعِ الإنسانِ (الوهابي الْمُتَزَمِّت)، ولا من أفانينِ الإنسانِ (العصراني العلماني الْمُغْتَرّ)... إنَّ هذه النمازجَ الثلاثَةَ التي تُمَثِّلُ معظَمَ الناسِ في هذه المنطقةِ، لا يَعْدُونَ في الحقيقةِ عن مسوخِ الشيطانِ الشرق–أوسطِيّ الأخرس. فأين لهذا الغمر الذي ضرب الله عليه الذِّلَّةَ والمسكنةَ أن يُدرِكَ أنَّ الْعَوْلَمَةَ في صميمِها كانت تسميةً اختلقَها الغربُ، لِيُطْلِقَها على مشروعٍ يتوارى بها الْحَلْفُ المسيحِيُّ–الصهيونِيُّ، ولِيَتَّخِذَها ستارًا ينسِجُ وراءها مؤامراتٍ، ويثيرُ فِتَنًا طَائِفِيَّةً وَمَذْهَبِيَّةً، تُمَهِّدُ له السبيلَ للقضاءِ على "العالَمِ الإسلامِي" في نهاية اللُّعبة.

هكذا جُنَّ جنونُ الطائفيَّةِ والمذهبيَّةِ في العراقِ وسوريا، وقد كانت لها مقدِّمَاتٌ تتسلسلُ عبرَ التاريخِ الإسلامِيّ منذ عهدِ بني أُميَّةَ إلى أيَّامنا. هذه المنطقةُ لم تكن يومًا من الأيامِ دارَ استقرارٍ وأمنٍ وطمأنينةٍ وهناءٍ للناسِ في الواقع، بل كانت مسرحيَّةً للقتالِ والتناحُرِ والمذابح بدءًا من الحروبِ العربية–البيزنطية، والفتنة التي ابْتُلِيَ بها أصحابُ النبي عليه السلام فورَ مقتلِ عثمان بنِ عفان ﷺ، إلى فتنةِ الحجَّاجِ بنِ يوسفِ الثقفِيّ، ودبيب الاعتزالِ والإرجاءِ وَالتَّجَهُّمِ في العقيدةِ، وفتنةِ القرامطةِ، وفتنة "خلق القرآنِ"، وسقوط الدولة العباسِيَّةِ على يد حيوشِ المغولِ، وظهور الإسماعيلية والدرزية والنصيريةِ، وبقيَّةِ الفِرَقِ الرافضِيَّةِ، ومرورًا بالحروبِ الصليبيَّةِ، وانتشارِ الفكرِ الصوفِيّ والبِدَعِ والشركيَّاتِ الْمُنْبَثَقَةِ من الدِّيَانَةِ الْمُسْلُمَانِيَّةِ، والحركاتِ الاستعمارية، والحربِ العالميَّةِ الأولى، وانهيارِ الإمبراطوريَّةِ العثمانيَّةِ، ووصولاً إلى قيامِ الدولةِ الإسرائيليَّةِ في قلبِ الوطنِ الإسلامِيّ، ووُثوبِ الحلفِ المسيحِيّ–الصهيونِيّ على العالَمِ الإسلامي، وتجنيدهِ للطوائفِ الْمُنْشَقَّةِ عن الأُمَّةِ وضربِ بعضِها ببعضٍ في هذه الأيام.

بعد كُلِّ هذه التطوُّراتِ الْمُدَمِّرَةِ التي أدَّتْ في النهايةِ إلى إنهيارِ الأُمَّةِ، أصبحتْ الْفُرَصُ متاحةً لأعداءِ الدِّينِ الحنيفِ، وزالتْ العَقَبَاتُ من أمامِهم لينقضُّوا على ما تَبَقَّى من الأطلالِ في أنحاءِ

الساحةِ. فَأَجَهَزَ عِملاقُ الكُفرِ –الْمُتَمَثِّلِ في الدولةِ الأميركيةِ– بقواتِهِ على الشرق الأوسطِ، وهي منطقةٌ متمايزةٌ بخزائِنِهَا العلمِيَّةِ والحضارِيَّةِ للأُمَّةِ، لكي يُحَوِّلَهَا إلى صحراءَ قاحلةٍ جدباءَ نضبتْ مِيَاهُهَا، وامتنعتْ السماءُ عن سُقْيَاهَا. ولكنَّ أخطرَ سلاحٍ استخدمَهُ الغربُ وعلى رأسِها الدولةُ الأميركيَّةُ بالتعاونِ مع إسرائيل في حربِهَا على الإسلامِ، هو إثارةُ الطائفيةُ.

بدأ الغربُ في الخطوةِ الأُولَى من مشروعِهِ لتدميرِ الأُمَّةِ، بِزَرْعِ بذورِ الإلحادِ العلمانِيِّ في المجتمعاتِ التي تَدينُ بالإسلام، وذلك بطريقتين: بإِقْدامٍ مباشرْ من خلالِ مخطَّطاتِهِ الإستعمارِيَّةِ. حيثُ كانت مؤسَّساتُ الاحتلالِ الغربيَّةِ مهيمِنةً على منطقةٍ واسعةٍ من الوطنِ العربي؛ مثل الجزائر، وتونس، وليبيا، ومصر، وسوريا، والعراق، وفلسطين، والأردن، ومنطقة الخليج، واليمن وغيرها... أدْخَلَتْ الدُّوَلُ الغربيةُ الإلحادَ العلمانِيَّ إلى هذه المنطقةِ وبثَّهُ من خلالِ الاحتكاكِ والتعايُشِ، والإملاءِ، والمقرَّرَاتِ الدراسيةِ، والإعلامِ والموضا وغيرها... وحاوَلَ من جهةٍ أخرى بثَّ هذه الفكرةِ الإلحاديَّةِ بطريقٍ غيرِ مباشر؛ وذلك بالتعاونِ مع عُمَلاَئِهِ داخلَ أجزاءٍ من أرضِ الإسلامِ الَّتي لم يَتَمَكَّنْ من الهيمنةِ عليهَا بالاحتلالِ، وهي تركيا بالتحديد.

لَمَّا نَجَحَ الغربُ في ترويضِ قِلَّةٍ على الإلحادِ العلمانِيِّ وسانَدَهَا في الوثوبِ على السلطةِ، أحسَّتْ هذه الْقِلَّةُ في نفسِها بِثِقَةٍ بالغةٍ، خاصَّةً وأنَّهَا تلقتْ الدَّعْمَ من حليفِها القويّ بصورةٍ متواصلةٍ يُشجِّعُها على التحكُّمِ في رقابِ الأكثرِيَّةِ الضعيفة، فانتهجتْ سلوكًا ظالِمًا مع المجتمعِ الذي كان جزءًا منه إلى الأمسِ، وسامَتْهُ سوءَ العذابِ، وانفصمتْ الْعُرَى بين الطرفين، بل تعدَّى الخلافُ إلى مزيدٍ من الأزماتِ السياسيَّةِ والاجتماعيَّةِ في صفوفِ الناسِ بمثلِ هذا التطورِ المفاجئِ، وبدأ الشقاقُ يدبُّ في جسمِ الشعبِ الواحِدِ وَيَمْتَدُّ عبرَ بقيَّةِ مكونَاتِهِ الْعِرْقِيَّةِ والدِّينِيَّةِ، فظهرتْ هكذا حركةٌ طائفِيّةٌ في ثوبٍ من الإلحادِ تحتَ سمة (العلمانيةِ)، خاصَّةً في تركيا والجزائر وتونس.

أصبح العلمانيُّون في كلِّ بلدٍ من هذه البُلْدَانِ طائفةً عميلةً للغربِ، تَتَمَتَّعُ بِدعمه، مُتمايزةً بتصرُّفاتِهَا الاستبدادية كَطُغْمَةٍ حاكمةٍ، تُساهمُ في تغريبِ الشعبِ، وتحويلِهِ إلى مَطِيَّةٍ للدولِ الأوربيَّةِ بوسائلَ عديدةٍ، خاصّةً من خلالِ العملِ السياسِيّ وبطريقِ الإملاءِ التعليمِيّ. جاء هذا النمطُ من الطائفيةِ بخطورةٍ أثارتْ أنماطًا أخرى للطائفيَّةِ في المنطقة؛ منها الطائفيةُ العرقِيّةُ، والطائفيةُ المذهبِيّةُ، والطائفية الأيديولوجيةُ... إنما هذا الإنشقاقُ والتَّفَرُّقُ في صفوف شعوبِ المنطقةِ نشأ (في واقعِ

الأمرِ) من النزعةِ الإنعزالِيّةِ التي جاءتْ بها الطائفيَّةُ الإلحادِيَّةُ؛ فَكلُّ أشكالِ التياراتِ اليسارِيَّةِ، واليمينيَّةِ، وَالمذهبيَّةِ، والفاشِيَّةِ، والتنظيمات الإرهابيةِ، إنما كانت من تبعاتِ الطائفيةِ الإلحادِيَّةِ.

وعلى سبيل المثال؛ أسفرتْ الطائفيَّةُ الإلحاديَّةُ في تركيا عن ظهورِ تَكَتُّلاَتٍ أيديولوجيةٍ في نهايةِ العقدِ الخامسِ من القرنِ العشرين، كانت لهذا التطور أسبابٌ سياسيةٌ واجتماعية هامّةٌ. أولُها، أن العلمانيَّةَ لَمَّا قَضَتْ على القاسِمِ الْمشتركِ الذي كانَ يؤلِّفَ بين الفصائلِ العرقِيَّةِ قبل العهدِ الجمهورِيّ (ألاَ وهو الإسلامُ، وإن كان مُشَوَّهًا)، انفصمتْ عروةُ هذا القاسِمِ المشتَرَكِ، مع بدايةِ الحُكْمِ الكمالِيّ، خاصّةً بعد انتشارِ الدِّيَانَةِ "الأتاتوركِيَّةِ" فانهارتْ الوحدةُ التي كانت تقوم على أساسِ الأُخُوَّةِ الإيمانيَّةِ والإنتماءِ الإسلامِيّ، فبدأتْ تشعرُ كلُّ فصيلةٍ بالتوحُّشِ من بقية فصائلِ المجتمعِ وتَعُدُّهَا جَمَاعَةً أجنبيَّةً، وتلتزمُ جانبَ التحوُّطِ في معاملتِها. وقد تنشُبُ بينها نزاعاتٌ وقتالٌ كما حدثَ مرارًا بين الجماعاتِ السنية والعلوية؛ وبين تنظيماتٍ يمينيةٍ ويسارية، وبين العنصريّين الأتراكِ والأكرادِ، أدّى إلى وسطٍ من الفوضى والإنفلاتِ الأمنِيّ على مدى العقدِ السابعِ والثامنِ من القرنِ العشرين، فاتَّخذتْها القواتُ المسلحةُ التركِيَّةُ ذريعةً للإنقلابِ العسكرِيّ الذي تولاَّه الجنرال كنعان إفرين يوم **12** أيلو من عام **1980**م. ثم تَعَاقَبَتْهُ انقلاباتٌ عسكريةٌ أُخرى، كان آخرُها التمرُّدُ الفتُّوشِيُّ لأتباعِ فتح الله گُولَنْ ليلة **15** تموز من عام **2016**م. تُعاني تركيا اليومَ جراءَ هذه الفتن أزماتٍ أمنيةً في مواجهةِ إعمالِ العنفِ والإرهابِ.

لم يختلف الوضعُ في بقية أنحاءِ المنطقةِ عمَّا يجري على الساحةِ التركِيَّةَ خاصةً بعد اندلاعِ الغزوِ الأميركي لأفغانستان والخليج، وقد عمَّ الفوضَى الطائفِيُّ في جميعِ أنحاءِ المنطقةِ، وأعادَ التاريخُ نفسَهَا كما هبّتْ عاصفةُ الفتنِ بالأُمَّةِ قبلَ قرونٍ في صراعِ البويهيّين والسلاجقة، وصراعِ طوائفِ الملوكِ في الأندلس، وصراعِ طوائفِ الملوكِ الأتراك في أناضول، وصراعِ العثمانيّين والصفويّين، وصراعِ الفاطميّين مع غيرهم، إلى أن تَمَزَّقُ المجتمعُ الإسلامِيُّ، وتلاشتْ مفهومُ "الأُمَّةِ" تمامًا في الأيامِ التي سُجِّلَتْ هذه السطور.

***

17) مشاكلُ الأقلِّيَّاتِ:

لفظ الأقلِّيَّة في اللُّغةِ: مصدرٌ صناعيٌّ مأخوذٌ من (أَقَلّ)، مشتقٌّ من قَلَّ يَقِلُّ قِلَّةً. وهي صفةٌ تُطلَقُ على جماعةٍ مُمَيَّزَةٍ بِدِينِها أو عِرْقِها أو لَوْنِها، أو موقِفِها السياسي، تعيشُ في مجتمعٍ يفوقُها عددًا ويخالفُها بِخصائِصَ اجتماعيَّةٍ، وعكسُها أكثريَّةٌ.

إنَّ كلاً من مفهومي (الأكثريَّةِ) و(الأقلِّيَّةِ) مصطلحٌ من مصطلحاتِ علمِ السياسةِ، وهما ضِدَّانِ. ألَمَّ بهما اللُّغَويُّون والمتخصِّصون في علمَي السياسةِ والقانون، وغرقوا في مناقشاتٍ متواصلةٍ حولهما؛ بذلو جهودَهم واستعرضوا مهاراتِهِمْ ليأتوا بصياغةٍ جامعةٍ للتعريفِ بهما، فلم يتَّفِقوا عليها بعد.

ومهما اختلف أهلُ العلمِ في تعريفِهما، والتمييزِ بينهما، فإنَّ التُّهْمَةَ اتجهتْ دائمًا إلى الأكثريَّةِ وظلَّتْ هيَ المسؤولةَ عن الأقلِّيَّةِ في أغلبِ الأحوال. لقد وردتْ اتِّهاماتٌ موجّهةٌ إلى الأكثريَّةِ في مَواطِنَ كثيرةٍ من القرآنُ الكريمُ.[195] لاعتمادِها على ما تملك من القُوَّةِ، واغترارِها بما تتمتَّعُ به من الأسبابِ التي قد لا تدفعُ عنها الهزيمةَ.

---

[195] هذه قائمة التُّهَمِ الموجَّهَةِ إلى الأكثرية في القرآن الكريم، وقد وصفَ الله وتعالى أكثرَ الناسِ بالأوصاف التالية:

1– أكثر الناس لايعلمون: وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (الأعراف–**187**)؛ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (يوسف–**21**)؛ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (يوسف–**40**)؛ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (يوسف–**68**)؛ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (النحل– **38**)؛ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (الروم–**6**)؛ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (الروم–**30**)؛ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (سبأ–**28**)؛ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (سبأ–**36**)؛ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (غافر–**57**)؛ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (الجاثية–**26**)

اتَّفقَ جُلُّ أهلِ العلمِ من مختلف الأديان والمذاهب: أنَّ كُلاًّ مِنْ مفهومَيِ (الأكثريَّةِ) و(الأقلِّيَّةِ) نسبِيٌّ وليسَ قطعيًّا. ذلك أنَّ سؤالاً هامًّا –لا يجوز تَخَطِّيهِ عقلاً– يكشفُ العتمةَ عن ماهيةِ هذين المفهومين إلى حدٍ كبير، ويَظْهَرُ من خلالِ التباحثِ حقيقةُ معنى الأقليَّةِ (بخاصةٍ) أنَّ كَلْتَيْهِمَا نسبيتان. وهذا هو ذلك السؤال:

يقال مثلا: إنَّ ألأكثريَّةَ من العرقِ الواحد، يعتنقُ كلُّ أفرادِها دينًا واحدًا، إلاَّ أنَّ جماعةً منها تُخالِفُها بموقِفِها السياسِيّ وتنضمُّ إلى أقليَّةٍ أخرى فتفوقُ عددُ الأقلِّيَّتَين على عددِ هذه الأكثريَّةِ؛ أيجوزُ عقلاً أن تُطْلَقَ بعد ذلك صفةُ (الأكثريَّةِ) على تلك "الأغْلَبِيَّةِ من العرقِ الواحدِ والْمُعْتَنِقَةِ بجميعِ أفرادِها لِدِينٍ واحد" أم ينبغي أن تُطلَقَ على تلك الأقليتين وهما مختلفتان في الدِّينِ؟ لأنَّه ظهرتْ بهذه المعادلةِ أكثريَّتانِ: أكثريَّةٌ دينيَّةٌ، وأكثريَّةٌ سياسيَّةٌ! وهنا يستوجب الأمرُ الإحتكامَ إلى مصدرٍ أساسِيٍّ (كدستورٍ أو كتابٍ مقدس) قد لا يتمُّ الإتفاقُ عليه بين الأكثرية والأقلية، فيستعصي الأمرُ، وتَظَلُّ المشكلةُ قائمةً، وتفشلُ جميعُ محاولاتِ الحلول.

2– أكثر الناس لايؤمنون: وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (هود–**17**)؛ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (الرعد–**1**)؛ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (يوسف–**103**)؛ إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (غافر–**59**)؛
فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (الإسراء–**89**)

3– أكثر الناس لايشكرون: وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (البقرة– **243**)؛ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (يوسف–**38**)؛ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (الفرقان–**50**)؛
إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (غافر–**61**)

4– أكثر الناس في ضلال: وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ (الصافات–**71**)؛ وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (الأنعام– **116**)؛ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا (النساء– **66**)؛

5– الأقلية هى التي تلتزم جانب الحق: وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (الأنفال–**26**)؛ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ (هود–**40**)؛ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ (البقرة–**83**)؛ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (البقرة–**246**)؛ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (البقرة–**249**)؛ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا (النساء–**83**)

6– الأكثرية تطغى وتتمرَّد على الله؛ تُعجب بكثرتِها وتحاولُ لتقهرَ الأقلية وقد تُهزَم: لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ (التوبة–**25**).

نستنتج من هذه الفَرَضَيَّاتِ: أنَّ الأقلِّيَّةَ تُمَثِّلُ دائِمًا الطرَفَ الضعيفَ في مُواجهةِ الأكثريّةِ. يكادُ هذا يكونُ حُكْمًا عقليًّا ثابِتًا بالاستقراءِ، وَسُنَّةً جاريةً من سنن الحياةِ تجعل الضعيفَ خاضعًا للقوِيّ في أغلبِ الأحوالِ، بل في عمومِها. تُذَكِّرُنَا هذه القاعدةُ بأنَّ التغلُّبَ والتحكُّمَ ناشئانِ من القوةِ. ولا شكَّ في أنَّ القوَّة ليستْ مصدرًا للإنجازِ والتحقيقِ والإبداعِ فحسبُ، بل هي في الوقتِ ذاتِهِ مصدرٌ للسيطرةِ، والإرغامِ، والتجبُّرِ، والعُنفِ بالضرورةِ. وهذا الاستنتاجُ المنطقِيُّ والتسلسلُ السبَبِيُّ يقودُنَا إلى التأمُّلِ في نظريةِ القُوَّةِ التي تقول "إنَّ الدولةَ تكوّنتْ نتيجةً للعنفِ والقوةِ المادِّيَّةِ. فإذا كان المجتمعُ نفسُهُ قد تأسَّسَ نتيجةَ خضوعِ الضعيفِ للقوِيّ، أي نتيجةَ استعمالِ القوةِ، فإنَّ الدولةَ أيضًا، التي تنبثقُ عن المجتمعِ، إنما تكونُ مِثْلَهُ، وليدةَ العُنفِ والقوَّةِ"[196]

أمَّا القوةُ، فلا يسمح المقامُ هنا للدخولِ في شرحِ أسرارِها وآثارِها، إنَّها موضوعٌ لا يَمْتَدُّ إلى هذا البحثِ في نطاقهِ الواسِعِ، إلاَّ أن مسألة الصراعِ بين القوِيّ والضعيفِ تدعونا بالمناسبةِ إلى التنويهِ بأهميةِ القوةِ قَدْرَ صلتِها المحدودِ بها: فـ"القوة: هي القدرةُ على التأثيرِ في سلوكِ الآخَرين، أو التحكُّمُ في سلوكِهِمْ تجاه قضيةٍ معيَّنَةٍ."[197] ولما كانت القدرةُ هي الحافزُ الرئيسُ للتَّحَكُّمِ، كانت الفرصةُ متاحةً للقادر أن يتحكَّمَ في مَنْ لا يملك هذه الآلةَ، ولكنْ، هل يستغلُّ كلُّ قادرٍ قُدْرَتَهُ مطلقةً ليتغلَّبَ على الضعيفِ، أو الأمرُ خلافُ ذلك؟ إنَّ الإجابةَ على هذا السؤالِ تختلِفُ باختلافِ وجهاتِ النظرِ، وقد يطولُ النقاشُ فيها. إلاَّ إنَّ القوَّةَ (بمعنى الاستغناءِ) كانت ولا تزالُ هي الدافعَ الأساسِيَّ للطغيانِ وممارسةِ الظلم. وهذا ما جعلَ الأكثريَّةَ تَطغَى على الأقلِّيَّةِ في المجتمعاتِ البشريَّةِ عبرَ تاريخِها إلى اليوم. وذلك مِصْدَاقٌ لقولِهِ تعالى "كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى."[198]

إنَّ النزاعَ الأثنِيَّ قديمٌ قِدَمَ وجودِ البشرِ على الكُرَةِ الأرضِيَّةِ، وهو في صميمِهِ: النزاعُ المعروفُ الدائرُ بين القوِيّ والضعيفِ. يقومُ الصراعُ بين الأقلِّيَّةِ والأكثرِيَّةِ على مستوياتٍ مختلفةٍ عديدةٍ، أهمُّها الصراعُ السياسِيُّ. ذلك أنَّ الأقلِّيَّةَ جماعةٌ قليلةُ العدَدِ، وعالةٌ على الأكثَرِيَّةِ في أغلبِ الأحوالِ، وهذا الوضعُ يُعَرِّضُهَا للإهمالِ والإهانةِ والقهرِ والتهميشِ، ويزيدُ من طغيانِ الأكثريَّةِ عليها، فيمنعُها من اغتنامِ الْفُرَصِ، ويسدُّ عليها أبوابَ النشاطِ والإنتاجِ والتقدُّمِ والإزدهارِ... فلا يتمكَّنُ أفرادُهَا

---

[196] علي سعد الله، نظرية الدولة في الفكر الخلدوني. دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان، الأردن–2003م.

[197] خليل حسن، مقال بعنوان "القوة وأثرها في الأحلاف الدولية وصراعاتها"، مجلة الجيش، العدد/65، تموز 2008م.

[198] العلق/6،7.

من إعدادِ أنفسِهم بمستوياتٍ عاليَةٍ من المعرفةِ والثقافةِ، وتنشيطِ المواهبِ الكامنةِ في طبائعِهِمْ. يبقى التَّفَوُّقُ هكذا من حظِّ الأكثريّةِ باستمرارٍ، وترسبُ الأقليَّةُ على عكسِها إلى دركاتٍ من التخلُّفِ والتدهوُرِ، وتمتنعُ على أفرادِها أسبابُ المنافسةِ مع أفرادِ الإكثريَّةِ في كلِّ المجالاتِ وعلى رأسِها المجالُ السياسِيُّ. عند ذلك تنقضُّ الأكثريَّةُ على الأقلِّيَّةِ وتستبدُّ بها، فتشتَدُّ الأزماتُ بالأقلِّيَّة إلى حدودٍ غيرِ قابلةٍ للتحمُّلِ فتؤدِّي إلى انفجارِها، ومن هنا يبدأ الصراعُ بين الطرفين، وقد يكون الثمنُ باهظًا، كما حدث ذلك أثناءَ النزاعِ بين الأقليَّةِ الكُرْدِيَّةِ والأكثريَّةِ التركيَّةِ في تركيا، والنزاعُ لا يزال قائمًا.

إنَّ أيَّ مجتمعٍ بشرِيٍّ، لا يعدو عن خليطٍ من أعراقٍ مختلفةٍ ذواتِ اتجاهاتٍ فكريةٍ وسياسيةٍ ودينيةٍ متباينةٍ، جَمَعَتْ بينهَا أسبابٌ تاريخِيَّةٌ واجتماعِيَّةٌ وعسكريَّةٌ؛ كالهجراتِ، والاحتلالاتِ، والإلتجاءَاتِ وغيرِها... فكلٌّ مجتمعٍ مُؤَلَّفٌ من أقلِّيَّاتٍ أثنيَّةٍ مختلفةِ الثقافاتِ والعاداتِ والمعتقداتِ... وقد انصهرَ بعضُ هذه الجماعاتِ الأثنيَّةِ (أو كلُّها) في بوتقةِ جماعةٍ أخرى، إمَّا لكثرةِ عددِ هذه الأخيرة، أو لغلبةِ ثقافتِها أو لتفوُّقِها السياسِيِّ، أو لاجتماعِ كُلِّ هذه المزايا فيها، فتكونُ قد تضخَّمتْ مع الزمانِ واتَّسَمَت بالإكثريَّةِ مع أنها ليست متجانسةَ العناصرِ في الحقيقةِ، كما هو الحالُ للشعبِ التونسِيِّ الذي يتألَّفُ من جماعاتٍ مختلفة الأجناسِ، ومتنوعةِ اللُّغاتِ والثقافاتَ والحضاراتِ؛ كالأمازيغ والفينيقيين والأوروبيين القدامى، والإيطاليين والوندال وهم خليط بين النرويج والسويد والدنمارك الذين حاربوا الرومان واستقروا في شمال تونس آخر المطافِ، وتزوجوا من البربر واندمجوا فيهم. وفي القرن الثامن فتح العربُ المسلمون البلاد، فتوافدتْ إليها قبيلتا بني سليمٍ وبني هلال، كما توافدت إليها عددٌ كبيرٌ من الأتراكِ والشراكسةِ إبتدءًا من القرنِ السادسَ عَشَرَ، فغلبتْ الثقافةُ العربيَّةُ الإسلامِيَّةُ على كلِّ سكان المنطقة، فاندمجتْ معظمُ هذه العناصرِ المتباينة في بعضِها البعضِ وأخذتْ تركيبةً متجانسةً بِشكْلِها الحالي. لذا، قد خَلَتْ الساحةُ التونسيَّةُ من نزاعِ الأقلياتِ بخلافِ تركيا.

أمَّا المجتمعُ القاطنُ في الساحةِ التركيَّةِ اليومَ، فإن فصائلَهُ متباينةٌ في الغايةِ لا يجمعها دين واحدٌ ولا مذهبٌ واحدٌ ولا لغةٌ واحدةٌ. بل على عكس ما يزعم الأكثريَّةُ الفاشِيَّةُ "أنَّ 99% مِنْ سُكَّانِ تركيا هم أتراكُ وَمُسْلُمَانُ!"، فإنَّ هذا الكلامَ لا يعدو عن كذبٍ محضٍ واختلاقٍ وتَلاَعُبٍ بالعقول... كما لا يجوز تسميةُ هذا المجتمعِ بـ"الشعبِ التركِيِّ" إطلاقًا، بل الأنسب: أنْ يُقالَ له "سُكَّانُ تركيا"، لسببٍ هامٍّ جدًّا:

ذلك، أنَّ الأتراكَ لَمَّا دخلوا منطقة أناضول إثرَ معركةِ ملازكيرد عام 1071م. كانت هذه البلاد – ولا شكَّ– آهلةً بِبقايا أقوامٍ عاشوا فيها وأصبحوا من رعايا الدولة البزنطية، كالأكرادِ، واللأَّزِ، والأرمن، والجورج، والسريان، وغيرهم من أجيالِ أممٍ خلتْ منذ قرونٍ وانْمَحَتْ معظمُ آثارِها؛ كالحتيّين، والفريجيّين، والليديّين، والإسبرطيّين، والكوماجين، والرومان... كلُّ هذه الجماعاتِ البشرية كانت أقلياتٍ ضِمنَ المجتمعِ البيزنطِيّ في هذه البُقعةِ الجغرافِيَّةِ المعروفةِ بـ"آسيا الصغرى" قبل زحفِ الأتراك عليها، كما لم يكن الأتراك بعمومهم شعبًا واحِدًا، بل كانوا قبائلَ مختلفةً: منهم من كانوا قد اعتنقوا المسلمانيةَّ بتأثير الفُرْسِ، ومنهم من كانوا على الديانة الشَّامَانِيَّةِ، ومنهم من كانوا مسيحيِّين ومنهم من كانوا مُتَهَوِّدِين...

لم تنعمْ دُويْلاتُ الأتراكِ باستقرارٍ في جوارِ بعضِها البعضِ قديمًا، ولا تَمَتَّعَتْ باستقلالٍ تامٍّ أيّامَ الإمبراطورِيَّةِ العبَّاسِيَّةِ، بل وحتى السلطنةُ السلجوقِيَّةُ التركيةُ التي تُعَدُّ من كبرياتِ الدولِ في عصرِها، كانتْ تابِعَةً للدولة العباسِيَّةِ بحسبِ الظاهِرِ، وإن كان الأتراك قد فرضوا يومئذٍ أنفسَهم على الخليفةِ العباسِيّ ونظامِهِ لكونهم قابضين على زمام الحكم بعد أن استوزرهم الخليفةُ وأحلَّهم محلَّ (البويهيّين الفُرْسِ). لكنهم كانوا مع ذلك يُعدّون أقَلِّيَّةً في أكثريّةٍ عربِيَّةٍ. هذه حقيقةٌ تاريخيَّةٌ يكتمها الأتراكُ، ويُخفونها اليومَ من أجيالِهِم.[199]

ومن البراهين القاطعةِ على هذه الحقيقةِ أنَّ الدولة العباسِيَّةَ لما سقطتْ عقب استيلاءِ المغول عليها، سرعان ما تَفَرَّق شملُ الأتراكِ، ونَبَتَتْ على أنقاضِ السلطنة السلجوقِيَّةُ إماراتٌ صغيرةٌ في أناضول،

---

[199] ذلك من جملةِ سياساتهم التي تتبنَّى ترسيخَ المباهاةِ والتفاخُرِ بالقومِيَّةِ التركِيَّةِ في نفوسِ الناشِئَةِ لكي يجهلوا: أنَّ الأتراكَ كانوا في مرحلةٍ من تاريخهم رعايا دولةٍ عربِيَّةٍ، وذلك يُعَدُّ من الخزيِ والعارِ في مفهومِهم. لعلَّ سياسَةَ استبشاعِ العربِ التي تبنَّتْها الحكوماتُ الأتاتوركيّةُ السابقةُ، والتي حاولتْ ترويضَ الأجيالِ على كراهيةِ العربِ طوالَ قرنٍ من الزمن كانتْ ردَّ فعلٍ على تلك الحقيقى التاريخيّةِ.

هذا، وإنَّ كراهيةُ العربِ كانت منتشرةً بين الأتراك حتى قبل العهد الجمهورِيّ، قد أثبتها عبد الرحمن الكواكبي، يقول: "فإنهم يفتخرون بمحافظتهم على غيريَّةِ رعاياهم لهم، فلم يسعوا باستتراكهم، كما أنهم لم يقبلوا أن يستعربوا؛ والمتأخرون منهم قبلوا أن يتفرنسوا أو يتألمنوا. ولا يُعقَلُ لذلك سبب غير شديد بغضُهم للعرب، كما يُستَدَلُّ عليه من أقوالهم التي تجري على ألسنتهم مجرى الأمثالِ في حق العرب: كإطلاقِهم على عربِ الحجازِ (دِيلَنْجِي عَرَب) أي العرب الشحاذين. وإطلاقِهم على المصريين (كُورْ فلاّح) بمعنى الفلاحين الأجلافِ"، و(عَرَبْ جِنْكَنَسِي) أي نَوَرُ العرب، و(قبطي عرب) أي النَّوَرُ المصرِيّين. وقولِهم عن عرب سوريا (نَه شَامِكْ شَكَرِي وَنَه عَرَبِك يُوزِي)، أي دع الشامَ وسُكَّرِيَّاتِهَا ولا تَرَ وجوهَ العرب. وتعبيرِهم بلفظِ (عرب) عن الرقيقِ وعن كلِّ حيوانٍ أسود. وقولِهم (بِيسْ عرب) أي عربي قذر. و(عرب عَقْلِي) أي عقل عربي صغير. و(عرب طبيعتي) أي ذوق عربي فاسد. و(عرب جَكَسِي) أي حَنَك عربي، كثير الهزر. وقولِهم (بَوِنِي يَابَارْ سَه مْ عرب أوله يم)، أي إنْ فعلتُ هذا أكنْ من العرب. وقولهم (نَرَدَهْ عرب نَرَدَهَ طنبور) أي أين العرب من الطنبور!" (المصدر: عبد الرحمن الكواكبي، الأعمال الكاملة ص/324–325، دراسة وتحقيق: محمّد عمارة. المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت–لبنان 1975م.)

وكانت الحروبُ بينها سجالاً، وهي غير خافيةٍ على الأتراكِ حيث لا تجد الحكومات التركية اليومَ مَهْرَبًا من ذكرِها في مقرَّراتِ التعليم.[200]

---

[200] وهذه أسماء الإمارات التركية التي نشأت على الساحة الأناضولية في عهد ملوك الطوائف، ثم جمعها العثمانيون تحت حكمهم:

Çaka Beyliği İzmir 1081-1098 إمارة جاكا في إزمير

Ahlatşahlar Beyliği (Sökmenliler) Ahlat 1110-1207 إمارة أخلاطشاهلر في أخلاط

Artuklu Beyliği (üç kol) Hasankeyf, Mardin, Harput 1102-1409إمارة أرتوكلو في حصن الكهف– ماردين

Danişmendliler Beyliği Sivas 1071-1178 إمارة دانشمند في سيواس

Dilmaçoğulları Beyliği Bitlis 1085-1398 إمارة ديلماج أوغولأّري في بتليس

İnaloğulları Beyliği Diyarbekir 1095-1183 إمارة إنال أوغولأّري في ديار بكر

Mengüçlü Beyliği Erzincan, sonra Divriği 1080-1228 إمارة منكوجلي في أرض الجان

Saltuklu Beyliği Erzurum 1072-1202 إمارة صلطوقلي في أرض الروم

Çubukoğulları Beyliği Harput 1085-1112 إمارة جوبوق أوغولأّري في خربوت

Tanrıbermiş Beyliği Efes 1074-1098 إمارة تنكري برميش في أفَسُوس

Alâiye Beyliği Alanya 1293-1421 إمارة علائية في أنطاليا

Aydınoğulları Beyliği Birgi 1308-1426 إمارة آيدن أوغةلأّري في بيرجي

Candaroğulları Beyliği Kastamonu 1299-1491إمارة جندار أوغولأّري في قاسطموني

Canik Beylikleri Samsun 1300-1400 إمارة جانك في صمصون

Çobanoğulları Beyliği Kastamonu 1227-1309 إمارة جوبان أوغولأّري في مرعش

Dulkadiroğulları Beyliği Maraş 1339-1521 إمارة عبد القادر أوغولأّري في ألبستان– مرعش

Eretna Beyliği Sivas, sonra Kayseri 1328-1381. إمارة أرتنا في سيواس والقيصرية

Erzincan Beyliği Erzincan 1379-1410. إمارة أرض الجان

Eşrefoğulları Beyliği Beyşehir 1300-1326 إمارة أشرف أوغولأّري في بيشهر

Germiyanoğulları Beyliği Kütahya 1300-1428 إمارة جرميان أوغولأّري في كُدَاهِية

Hamidoğulları Beyliği Eğirdir 1301-1423 حميد أوغولأّري في أكريدير

İnançoğulları Beyliği Denizli 1261-1368 إمارة إنانج أوغولأّري في دكيزلي

Kadı Burhaneddin Ahmed Devleti Kayseri 1381-1398 دولة قاضي برهان الدين في القيصرية

Karamanoğulları Beyliği Konya 1256-1483 إمارة قرمنلي في قونيا

Karesioğulları Beyliği Balıkesir 1297-1360 إمارة قراسي أوغولأّري في بالي كثير

Menteşeoğulları Beyliği Milas 1280-1424 إمارة منتشا أوغولأّري ميلاس

Osmanoğulları Beyliği Söğüt 1281-1922 إمارة بني عثمان في سوكوت

Pervaneoğulları Beyliği Sinop 1277-1322 إمارة بروانه أوغولأّري في سينوب

Ramazanoğulları Beyliği Adana 1325-1608 إمارة رمضان أوغولأّري في أضنه

Sâhipataoğulları Beyliği Afyonkarahisar 1275-1342 إمارة صاحب أوغولأّري في أيون قره حصار

Saruhanoğulları Beyliği Manisa 1302-1410 إمارة صاروخان أوغولأّري في مغنيسيا

Tacettinoğulları Beyliği Niksar 1303-1415 إمارة تاج الدين أوغولأّري في نكسار

Tekeoğulları Beyliği Antalya 1319-1401 إمارة تكه أوغولأّري في أنطاليا

إنَّ التنوُّعَ القَبَلِيَّ والأَثْنِيَّ والدِّينِيَّ لا يزال سائدًا في سُكَّانِ تركيا إلى اليوم، برغم انتشارِ الْمُسْلُمَانِيَّةِ بينهم. لأنَّ هذه الديانةَ لم تحظَ بقوة التأليفِ بين طوائفِ الأتراكِ وتوحيدِ صفوفِهم في أيِّ مرحلةٍ من تاريخهم.

إن الجماعاتِ العرقيَّةَ والدينيَّةَ في تركيا، تتمايَزُ بعضُها عن بعض بِفوارقَ كبيرةٍ وكثيرةٍ في المعتقدات خاصةً. تكادُ معتقدَاتُ كُلِّ طائفةٍ تتعارضُ بِرُمَّتِهَا مع معتقداتِ بقيَّةِ الطوائِفِ. ولا شكَّ في أنَّ هذه التعارضاتِ التي يطول الكلام فيها، إنما هي أصلُ جميعِ أشكالِ النزاعِ بين المكوِّناتِ الإجتماعيَّةِ في تركيا. وهذا يُنبِؤُنا بأنَّ سكانَ هذه المنطقةِ مختلفون في جميعِ اتِّجاهاتِهم الفكريَّةِ والسياسيَّةِ والدينيةِ في الوقتِ الراهنِ، "بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ، تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى"، كما كانوا على اختلافٍ دامَ قرونًا،[201] وهي عقبةٌ كبيرةٌ أمامَ كُلِّ محاولةٍ لتوحيدِ الكلمةِ والصفوفِ في هذا البلد، ويؤكِّدُ السببُ

---

[201] هذه أسماءُ جماعاتٍ أثنيةٍ يتكوَّنُ منها المجتمعُ التُّرْكِيُّ الحالي، (بالحروفِ العربية واللاتينية):

أَوَّلاً: فصائل ذوات أصولِ التركيَّةِ وهي متباينة في معتقداتها الدينية واتجاهاتها الفكرية والسياسية:

Afşar أفشار, Yörük رُحّل, Manav مناف, Türkmen توركمان , Tahtacı تَخْتَجِي, Kosovalı كوسوفي, Makedonyalı مقدوني, Bulgaristanlı بلغاري, Batı Trakyalı ترقياوي الشمالي, Rodoslu رودوسي, Oniki Adalı من جزر ثنتا عشري, Giritli كريدي, Dobrucalı دوبروجاوي, Adakaleli أداقَلْعاوي, Gacal غجال, Muhacir مهاجر, Çepni جبني, Cerit جريد, Ahıskalı آخسقاوي, Büğdüz بوغدوز, Bayat بيات, Yazır بازير, Eymür أيمور, Karabölük قَرَه بولوك, Alkaevli ألقاوي, İğdir إغدير, Yüreğir يورَجير , Dodurga دودورغا, Ulayundluğ أولايوندلوغ, Döğer دوجر, Çavuldur جاولدور, Beğdili بيكديلِّي, Abdal عبدال, Sıraç سراج, Nalcı ناجلي, Teber تَبَرْ, Barak براق, Şamlı شاملي, Bayındır بايندير, Kınık كينيك, Ortakçı أورتاقجي, Amuca عموجا, Bedrettinli بدر الديني, Karamanlı قرمانلي, Karakeçili قره كجيلي, Sarıkeçili صارو كجيلي, Torlak طورلاق, Kızılbaş قيزيلباش , Peçenek بيجناك, Çıtak جيتاق, Kıbrıslı قبرصي, Azeri آزري, Kırım Tatarı تاتاري قرمي, KazanTatarı تاتاري قازاني, Karapapak قَرَه باباق, Kırımçak قيريمجاق, Karaçay قَرَه جاي, Balkarبالقار, Özbek أوزبك, Nogay نوغاي, Kumukكوموك, Uygur أوغور, Kırgız قيرجيز.

ثانيًا: الأقليات العرقية والدينية من أصولٍ غير تركِيَّةٍ:

Boşnak بوشناق: Bosnalı, Sancaklı.

Arnavut أرنعوت: Toska, Gega.

Kürt كرد: Yezidi Kürtler

Zaza طاطا (دَيْلَمِي)

Gürcü جورجي

Çerkes شركسي: Adıge (Kavimleri: K'emguy, Yegerukay, Abadzeh, Şapsığ, Hak'uç, Hatukay, Natuhay, Kabardey, Besleney, Mahoş, Mamhığ, Bjeduğ, Jane), Abaza (Kavimleri: Aşıwua, Aşkarıwua, Apsuwa),

Çeçen شيشاني

Dağıstanlı داغستاني: Avar, Dargi, Lak, Ubıh, Oset

Lezgi لزجي

Pomak بوماك

Çingene غجر : Rom, Roman, Poşa, Dom.

Arap عرب

Laz لاز

ذاتُهُ أنَّ سكانَ تركيا مجتمعٌ يتكوّنُ من أقلياتٍ عدَّةٍ، وأنَّ مفهومَ (الأكثريَّةِ) في هذا المجتمعِ لا يعدو عن إطلاقٍ رمزيٍّ لا صِحَّةَ له، يُنْسَبُ إلى الطائفة السُّنِّيَّةِ، وهي في واقعِ الأمرِ قطاعٌ مُتَشَرْذِمٌ، قد فَرَّقَتْ النَّزَعَاتُ العرقيَّةُ والطائفيَّةُ والمذهبيَّةُ بين أجزائِها، وهي في صراعٍ مرير فيما بينها. يبرهن على هذه الحقيقةِ ما يجري بين الأقلِّيَّةِ الكردية السُّنِّيَّةِ و"الأكثرية التركيَّةِ السنية!" من خلافاتٍ لا حصرَ لها، فضلاً عما يجري بين الحزبِ العُمَّالِ الكردستانيّ (بي كَ كَ) والقواتِ المسلَّحَةِ التركيَّةِ من القتالِ منذ عقود.

ولا شكَّ في أنَّ هذا التناحرَ ظاهرةٌ من امتدادِ ثقافةِ البُغضِ والكراهيةِ الناشأةِ من الديانة الْمُسْلُمَانِيَّةِ. ويمكن الاستدلالُ بهذه الظاهرةِ على أنَّ الْمُسْلُمَانِيَّةَ هي دينُ الأقليَّةِ، بخلافِ الإسلام الذي هو دينٌ عَالَمِيٌّ يَصْلُحُ ليؤلِّفَ بين قلوبِ ملايينِ الناسِ من أقلياتٍ مختلفةِ الأعراقِ والثقافاتِ، وليجعلَ منها مُجْتَمَعًا مُتَمَاسِكًا وأمَّةً واحدةً، كما كان في عهد السلف الصالح. ولكنَّ الْمُسْلُمَانِيَّةَ دينٌ قاصرٌ عن أداءِ هذا الدورِ العالَمِيّ، لذلك لم تُفلِحْ في التأليفِ بين الأتراكِ والأكرادِ وهم جميعًا يعتنقونها، برغم ما أُلصِقَ بِهَا من قِيَمٍ إسلامِيَّةٍ، كالصلاةِ والصومِ والحج والزكاةِ وغيرِهَا...

إلى جانب ذلك فإنَّ الأتراك بذاتهم متفرّقونَ فيما بينهم فكريًّا، وسياسِيًّا، ودينِيًّا، تفرُّقًا شديدًا لا يُمكِنُ أنْ تجتمعَ كلمتُهُمْ إلاَّ أنْ يشاءَ اللهُ! ومن البراهين الدالةِ على هذه الحقيقة: التمرُّدُ العسكريُّ الفاشلُ الذي قامت به العصابةُ الفتوشِيَّةُ للإطاحةِ بالنظامِ الأردوغانِيّ ليلةَ **15** تموز من عام **2016**م. يُفتَرَضُ أنَّ جميعَ أفرادِ هذه العصابةِ (ويربو عددُهُمْ عن ملايينَ من العسكريّين، ورجالِ الأمنِ، والأكاديميّين، ورجالِ الأعمالِ، والفنَّانين، والأطباءِ، والمهندسين، ورجالِ القانونِ، والموظَّفين، وكثيرٍ من المواطنين) كلُّهُمْ عناصرُ من الأصولِ التركيَّةِ، ولم يُقِرَّ باحثٌ حتى هذه الساعةِ أنه عَثَرَ

Süryani سريان:
Ermeni أرمن: Hemşinli
Yahudi يهود: Sefarad, Aşkenaz.
Rum روم (يونان)
Asuri آشور: Nasturi, Keldani
Bahai بهائي
Afrika kökenli Türkler إفريقي
Leh بولوني
Malakan ملكان
Dürzi دروز

على اسمِ شخصٍ كردِيٍ، أو عربِيٍّ، أو شركسِيٍّ، أو من أيِّ عرقٍ آخَرَ بين أفرادِ هذه العصابةِ، كما أنَّ رأسَ الفتوشِيِّين (فتح الله گولن) رجلٌ معروفٌ بنزعتِهِ العصبِيَّةِ، واعتزازِهِ بالعنصر التركِيِّ، وعداوتِهِ الشديدةِ للأكرادِ والعربِ على وجه الخصوص. ولا يخفى (على مَنْ تَتَبَّعَ نشاطاتِهِ) ما بذل هذا الرجلُ من جهودٍ جبَّارةٍ على مدى أربعين عامًا في التركيز على (الديانةِ الْمُسْلُمَانِيَّةِ) والدِّعَايَةِ لها، بِدَعْوَى "أنها دينُ الأتراكِ، وأنَّها أفضلُ من إسلامِ العربِ، والتشيُّعِ الفارسِيِّ!"[202]

إنَّ الأتراكَ الذين لا تزيد نسبتُهُمْ عن 37% من أصل 80 مليون من سكان تركيا، مختلفون في اتجاهاتهم السياسية، مُوَزَّعُونَ على أحزابٍ سياسيةٍ عِدَّةٍ على هيئةِ أقلِّيَّاتٍ، بجانبِ اختلافِهِم في المعتقداتِ الدينيَّةِ والمذهبِيَّةِ، وهم منقسمون بين طائفةٍ سُنِّيَّةٍ (بل سُنِّيَانِيَّةٍ)، وأُخرى علويَّةٍ. وقد بلغ الشقاقُ السياسِيُّ في صفوفِهِمْ إلى حدٍّ انضمَّت كُتْلَةٌ من أصحابِ النزعاتِ اليساريةِ والرافضين للدِّينِ منهم إلى (حزبِ الفصائلِ العرقيَّةِ الديمقراطِيِّ HDP) وهو حزبٌ سياسِيٌّ، يتبنَّى "الدفاعَ عن حقوق الأكرادِ!".

[202] ورد في صحيفة (الزمان) بتاريخ: **07** يناير **2005**م. ضمن مقالة للكاتب حسين كولرجة يقوال:

"إن فتح الله گولن وأصحابَهُ كانوا ينتهجون أسلوبًا يَتَّسِمُ باللَّبَاقَةِ، يُلَبِّي حاجةَ عصرِ الإختراقِ. وهذا الأسلوب لم يكن محاولةً للقيامِ بدور التبليغ، بل كان يتبنَّى التمثيلَ مباشرةً؛ يعني تمثيلَ الرمزِ التُّرْكِيِّ الْمُسْلُمَانِ المتواضعِ الشاعرِ بالمسؤولِيَّةِ، والواثِقِ من نفسِهِ، الْمُحِبِّ للوَطَنِ، وليس ذلك الرمزَ المشغولَ بتعريفِ قِيَمِ الإسلامِ."

إنَّ لفظَ (التركِيّ) هنا يَتَّسِمُ بإهميَّةٍ بالغةٍ. ذلك؛ إنَّ الذين يشاهدون الأحداثَ بالاصغاءِ إلى الإشاعاتِ والتسرُّباتِ الإيديولوجيَّةِ من خلالِ نظارةِ الحصانِ، لعلَّهم يُخْطِئُون بتشبيهِ (مسلمانية فتح الله گولن) بالإسلامِ السعوديِّ والإيرانِيِّ، إذ يضعون كلَّها في كَفَّةٍ واحدةٍ للميزان نفسِه. مع أنَّ فتح الله گولن هو ضِدُّ هذين الأخيرَيْنِ. وبالاختصار، فإن مِنْ جملةِ ما حُبِّبَ إليه من الألفاظِ، كلمتُهُ الشهيرةُ: إنَّ الْعَالَمَ تعرَّفَ على إسلام العربِ والعجمِ فحسبُ، وأحسَّ بالكراهية لَهُمَا، لكنَّهُ سوفَ يتعرفُ على الْمُسْلُمَانِيَّةِ التُّرْكِيَّةِ وسوفَ يُحِبُّهَا"

وهذه كلمات الكاتب حسين كولرجة باللغة التركية الْمُعَرَّبَةِ في أعلاها:
«Gülen ve arkadaşları postmodern imaj çağının gereğine uygun bir taktik uyguluyorlardı. “tebliğ” değil, “temsil” etmek. Yani İslâmi değerleri anlatmak, propagandasını yapmak yerine iyi, mütevazı, sorumluluk sahibi, inançlı, yardımsever bir Müslüman-Türk olmak.

Burada Türk kavramı çok önemli. Çünkü olup biteni kulaktan dolma bilgilerle ve ideolojilerin “at gözlüğü” ile değerlendirenler Fethullah Gülen’i bir Suudi, bir İran türü Müslümanlıkla aynı kefeye koyabiliyor. Halbuki Gülen her ikisine de karşıdır. Tekrarlamayı sevdiği sözlerden biri de özetle; “Dünya şimdiye dek Arap ve Acem Müslümanlığını tanıdı ve sevmedi. Artık Türk Müslümanlığını tanıyacak ve sevecek” şeklindedir». Hüseyin Gülerce. Zaman Gazetesi; 07 Ocak 2005

كلُّ هذه الحقائقِ تدلُّ على أنَّ الأتراكَ أيضًا هم أقلِيَّةٌ، بل أقلِّيَّاتٌ أثنيَّةٌ متفرّقةٌ ومتنازِعَةٌ فيما بينها، ضمنَ سُكَّانِ تركيا. لكنَّ من الغريبِ أنَّ هذه الأقلياتِ التركِيّةَ تتراءى دومًا في هيئةِ أكثرِيَّةٍ للملاحظِ من الخارجِ، والجاهلِ بالخصائصِ الإجتماعِيّةِ لِسُكَّانِ هذا البلد، وذلك لأسباب، هي:

أولاً: أنَّ اللغةَ التركيةَ طغتْ على لغاتِ بَقِيَّةِ الأقلِّيَّاتِ في العهدِ الجمهورِيِّ، وذلك تحتَ ضغطِ السياسةِ العنصريةِ، وقد تبنَّتْها حكوماتٌ فاشِيَّةٌ تَمَسُّكًا بمنهجِ مصطفَى كمال الذي تزلَّفَ إلى الأتراكِ إبَّانَ حُكمِهِ، فكان يُكثِرُ من مباهاتِهِ بالعنصرِ التركِيِّ في كلِّ مناسبةٍ لِكسبِهِمْ من أجلِ تعزيزِ مركزِهِ، لأنَّهُ لا يزالُ مشكوكًا ومطعونًا في انتمائِهِ العرقِيِّ والنَّسَبِيِّ. هكذا استطاعَ النظامُ الكمالِيُّ أنْ يقضِيَ على اللُّغَةِ العربية تمامًا، كما أضرَّ باللُّغَةِ الكردِيَّةِ فأرْدَاهَا هزيلةً لم تعدْ تفي اليومَ بحاجةِ الإنسانِ الكردِيِّ خاصةً في المجالِ العلمِيِّ والتقنِيِّ. فانتشرت اللغةُ التركِيَّةُ في كلِّ أرجاءِ البلدِ كنتيجةٍ لسياسة الإكراهِ، حيث لا يكادُ يجهلها إلاَّ أعدادٌ قليلةٌ من سُكَّانِ القرى الكردِيَّةِ. وهذا يحملُ الأجنبيَّ على الإعتقادِ: بأنَّ الأتراكَ يمثلون الأكثريَّةَ لسكانِ تركيا، وذلك خلافُ الواقع.

ثانيًا: انْمَحَتْ معظمُ ملامحِ الأقلياتِ (غير الكردية) في بوتقةِ الثقافةِ التركية أيضًا بحكم سياسةِ الإكراهِ، وانصهرتْ هذه الأقلياتُ في غُمارِ الأتراكِ مثلَ الشراكسةِ، وشيشانيّين، والأبخازِ، والجورجِ، والموختيّين (ما عدا الأقلِّيَّةِ البُنْطُسِيَّةِ والعربِيَّةِ). ولا يكادُ أحدٌ من هذه الأقلِّيَّات يتكلم بلُغَةِ قومِهِ إلاَّ أعدادًا قليلةً يعيشون في مناطق نائيةٍ من المدن. هذا أيضًا يعزز المشهدَ: بأنَّ الأتراكَ يمثلون الأكثريَّةَ لسكانِ تركيا.

ثالِثًا: ثمَّ دافعٌ هامٌّ انبثقتْ عنها نتائجُ خطيرةٌ تُربِكُ أنجحَ الباحثين في خصائصِ المجتمعِ التركي! منها الإعتقادُ بأنَّ أكثريَّةَ سكَّانِ تركيا تتكوَّنُ من الأتراك. أمَّا ذلك الدافعُ العتيد: فهو الخوفُ من الأجنبي. ويكادُ كلُّ انسانٍ في تركيا (خاصةً العنصرُ التركيُّ) يخافُ من "مداهمةِ العدوِّ لأَرْضِ الوطنِ الغالي في أيِّ لحظٍ!" إنَّ هذا الهاجسَ الغريبَ الذي تأصَّلَ في أعماقِ قلوب الناسِ في تركيا، قد أبلاهم بهلوثةٍ جعلتْهم يعتقدون أنَّ جميعَ شعوبِ العَالَمِ أعداءٌ للشعبِ التركِيِّ، وعلى رأسِهم: العربُ، والكردُ، واليونانُ، والأرمنُ... تدُلُّ على هذه الحقيقةِ المقولةُ الشائعةُ بين الأتراك: " Türkün türkten başka dostu yoktur." **يعني لا صديقَ للتُّرْكِ غيرَ التُّرْكِ.[203] إنَّ هذا الرُّعْبَ الذي يملأُ**

[203] يؤكد على هذه الأحاسيس الخطيرة التي يملأ نفوسَ الأتراك، وثيقةٌ تحتوي على وصايا تَرَكَهَا رجلٌ من مشاهيرِ العنصريّين الأتراك، اسْمُهُ: حسين نِهَال آتْسِيزْ Hüseyin Nihal ATSIZ، يخاطبُ فيها غلامَهُ يغمور، وهذا نَصُّها معرَّبًا:

قلوبَ الأتراكِ يذكِّرُنا بقولِهِ تعالى: "سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِين."[204] والعياذ بالله!

من الجدير: أنْ تتصدّى لجنةٌ مُكَوَّنَةٌ من العلماءِ المتخصِّصين في مختلفِ العلومِ النفسيَّةِ، والدينيَّةِ، والسلوكيَّةِ، فتتناولَ هذه المشكلةَ لتشخيصِ هذا المرضِ العُضال، وعلى تعيين وتحديدِ سُبُلِ معالجتِهِ، وتحذيرِ الأجانبِ من مخاطرِهِ إذا اضطرُّوا أنْ يزوروا هذا البلد. ولا شكَّ في أنَّ للتخلُّفِ العلمِيّ، وللجهلِ بحقائقِ الكونِ والحياةِ أثرٌ كبيرٌ في إصابة المجتمع التركِيّ بمرضِ العنصريِّةِ، وهي علةٌ خطيرةٌ نشأت منها عِلَلٌ أخلاقِيَّةٌ أخرى تُهَدِّدُ مستقبَلَ هذا الشعبِ بما لا قِبَلَ له بهِ من مساوئَ وخساراتٍ وإن طال به الأمد.

***

18) التَّخلُّفُ التعليمِيُّ:

يحسُنُ هنا أوّلاً التعريفُ بمفهومِ التعليمِ، قبلَ الدخولِ في هذا المجالِ الهامّ ومشاكلِهِ التي تعاني منها الأمَّةُ على وجهِ العمومِ، والمجتمعُ التركِيُّ بخاصَّةٍ.

التعليمُ: هو نقلُ الْمُعَلِّمِ معارِفَهُ إلى تِلميذِهِ أو تلاميذِهِ، وتوسيعُ آفاقِهِم الفكريَّةِ والمنطقيَّةِ، وتنميةُ مواهِبِهِم ومهاراتِهِمْ على أساسِ مبادئَ مُعَيَّنَةٍ وَمُتَعَارَفَة.

ولدي يغمور!

اليوم قد بلغتَ من العمر عامًا ونصفَ عامٍ، وقد أكملتُ وصيتي وفرغتُ منها. أتركُ لك صورةً لي كتذكار. تمسّكْ بنصائحي وكن تركِيًّا جيّدًا.

إنَّ الشيوعيةَ تيَّارٌ يعادينا. إفهمْ هذا جيِّدًا. واعلم أنَّ اليهودَ أعداءٌ لجميعِ الشعوب قاطبةً وفي خفاء. وأنَّ الروسَ، والصينيين، والفُرسَ، واليونانيين أعداؤُنا من القديم؛ وأما البلغاريين، والألمان، والإنجليز، والفرنسيين، والعرب، والصرب، والكروات، والإسبان، والبرتوغاليين، والرومان... فإنهم أعداؤنا الجدد؛ ثم اليابانيين، والأفاغنة، والأميركيون هم أعداؤنا غدًا؛ ثم الأرمن، والأكراد، والشراكسة، والأبخاز، و البوشنق، والأرنعوت، والبوماق، واللاز، واللزكيِّين، والجورج، والشيشان، هم أعداؤُنا في الداخل.

ولكي تستطيع القيام بمنازلة هذا القدر من الأعداءِ يجب عليك أن تستعد على أفضل مستوى. والله في عونك!

أبوك: نهال آتسيز. **04** مايو **1941**م.

[204] آل عمران/**151**

للتعليم أساليبُ مختلفةٌ؛ منها ما هو تلقائيٌّ؛ كتعليمِ الطفلِ في المنزلِ وفي المحيطِ الذي يتربَّى فيه، وذلك من خلالِ ممارستِهِ لِحياتِهِ اليوميَّةِ بالاستماعِ والتعايُشِ والمساهمة... ومنها ما هو نظامِيٌّ؛ وهو التعليم الرسميُّ الذي يتلقَّاه الطفلُ في البيئة المدرسيَّةِ بالاستماعِ من الْمُعَلِّمِين والمدرِّسِينَ والأساتذةِ ذوي التخصُّصاتِ العلميةِ، يستمرُّ عبرَ مرحلتين: مرحلةِ التّعليمِ العامِّ، ومرحلةِ التعليمِ العالي أو الجامعِيِّ، ويسمَّى: التّعليمَ الفنِّيَّ أو الْمِهَنِيَّ.

للتعليمِ والتعلُّمِ أهميةٌ بالغةٌ في حياةِ الفردِ والمجتمع. وإنَّمَا بفضلِ التعليمِ يُبنى الفردُ وَيُعَدُّ لِلمستقبَلِ، وبالتعليمِ تنضُجُ مَلَكَتُهُ العقليَّةُ، فيستطيعُ أنْ يُسَاهِمَ في تطويرِ الحضارةِ ونماءِ المجتمَعِ، ويُقْضَى بذلك على الأُمِّيَّةِ. إذ لا يتحقَّقُ الانتباهُ إلى أسرارِ الكونِ والحياة، ولا يستطيعُ الانسانُ أن يتمتَّعَ بالوعيِ، ويُهذِّبَ نفسَهُ ويُعِدَّها لمواجهةِ الأهوالِ والْمُلِمَّات، ويُذَلِّلَ العقباتِ التي تعترضُهُ في مسيرتِهِ المعيشيَّةِ، ولا يمكن تسهيلُ سُبُلِ الكسبِ والنهوضِ والاكتشافِ والرفاهيةِ إلاَّ بالتعليمِ والتعلُّمِ. ولاَ يخفَى أنَّ درجةَ تطوُّرِ المجتمعاتِ إنَّمَا تُقَاسُ بِنِسَبِ المتعلّمين بها.

لقد وَرَدَ الأمرُ في القرآنِ الكريمِ بالقرائةِ وهي أوَّلُ نافذةٍ يُطِلُّ الأنسانُ مِن خلالِهَا على عَالَمِ المعرفةِ. فقال تعالى: "اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَق"[205] وأمرَ نَبِيَّهُ أنْ يَطْلُبَ مِن رَبِّهِ المزيدَ مِنَ العلمِ، فقال تعالى: "وَقُلْ رَبِّ زِدْنِى عِلْمًا"[206] كما أشاد الله تبارك وتعالى بشأن أولي العلم في كلماتِهِ الْمُقَدَّسَةِ: "شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْط...[207] " وهي إشادةٌ لامعةٌ بمكانةِ العلمِ ومنزلةِ العلماءِ، وإشارةٌ خطيرةٌ – في الوقتِ ذَاتِهِ – بأنَّ اللهَ سبحانهُ لا يُعْبَدُ إلاَّ بالعلم! فتتجلَّى وتتلخَّصُ هذه الحقيقةُ البارعةُ إجمالاً في قوله تعالى: "قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ، إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ."[208]

هذا، وإنَّ المصائبَ التي تنصبُّ اليوم على أمةِ الإسلامِ إنَّمَا مردُّهُ إلى إهمالِ المسلمين العلمَ والمعرفةَ. لقد تدهورتْ أوضاعُ التعليمِ والتَّعَلُّمِ في المجتمعاتِ التي تنتسِبُ إلى الإسلامِ إلى حدودٍ رهيبةٍ، فتحولَتْ مُعْظَمُهَا إلى جماهيرَ أُمِّيَّةٍ، وأبرزُ مثالٍ على ذلكَ ارتفاعُ نسبةِ الأُمِّيَّةِ فى العَالَمِ الإسلاَمِيِّ على **46%**، أىْ مَا يقرُبُ من نصفِ عددِ المسلمين فى العَالَمِ. وكمْ يَبْدُو هذا المشهدُ الْمُؤْلِمُ للعيانِ حين

---

[205] العلق/1

[206] طه/114

[207] آل عمران/18

[208] الزمر/9

يُنْبِؤُنَا التاريخُ أنَّ النبِيَّ ﷺ كان منذُ أربعةَ عَشَرَ قرنًا من الزمانِ يُفَرِجُ عن الأسيرِ من غزوةِ بدرٍ إذا عَلَّمَ عشرةً من أبناءِ المسلمين القراءةَ والكتابَةَ.

لقد كان المقرَّبون إلى رسولِ الله صلى الله عليه وسلّم من أصحابه (الذين لاقَوْهُ وتعلَّموا منه) كُلُّهُمْ كانوا علماءَ؛ يفوقُ بعضُهم علمًا على البعضِ الآخرِ (وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيم.) فيَجْرِي بينهم التَّعَلِيمُ وَالتَّعَلُّمُ حتى انتقلتْ مَعَارِفُهُمْ إلى التابعين، فعمدوا إلى تدوينِها، وشرحِها، وتأويلِها، وإثرائِها... فأسفرتْ جهودُ هذا الجيل الثاني (والثالث) عن إبداعِ أشتاتٍ من الفنون، وتأليف ما لا يُحصَى من مجلداتٍ من أنواعِ الكُتُبِ حتى أُنْشِأَتْ لها مكتباتٌ ضخمةٌ اكتظَّتْ بها، وسُمِّيَتْ هذه الحصيلةُ الثمينةُ من أصنافِ العلومِ والمعارفِ بعد عصرِهِمْ بـ"التراثِ". ولا يزالُ المسلمون وغيرُهُمْ ينهلون من هذا الينبوعِ على مرِّ العصورِ إلى يومِنا هذا.

دامتْ هذه المسيرةُ المعرفِيَّةُ بدون انقطاعٍ إلى منتصفِ عهدِ العباسِيِّين برغم الحروبِ والفتن التي أشْغِلِتْ المسلمين في تلك العصور. يُنْبِؤُنَا التاريخُ عن أخبارِ بعضِ الخلفاءِ الذين نذروا حياتَهم لنشرِ العلومِ والمعارفِ ورعايةِ رجالِ العلم. كانوا يولون اهتمامًا كبيرًا بالعلماءِ وطلاَّبِ العلمِ. ويأتي في مُقَدِّمَةِ هؤلاء: الخليفةُ العباسِيُّ هارون الرشيد، الذي قال عنه عبد الله بن المبارك رحمه الله تعالى: "ما رأيتُ عالمًا، ولا قارئًا للقرآن، ولا سابقًا للخيرات، ولا حافظًا للحرمات في أيَّامٍ بعد أيام رسول الله ﷺ، وأيامِ الخلفاءِ الراشدين والصحابةِ، أكثر منهم في زمنِ الرشيدِ وأيَّامِهِ. لقد كان الغلامُ يجمعُ القرآنَ وهو ابنُ ثماني سنين، ولقد كان الغلامُ يستبحِرُ في الفقهِ والعِلمِ، ويروِي الحديثَ، ويجمعُ الدواوينَ، ويناظِرُ المعلّمينَ وهو ابنُ إحدَى عَشْرَةَ سَنَةً"[209]

لقد كان اهتمامُ الرشيدِ يشملُ جميعَ علماءِ عصرِهِ دون تفريقٍ بين المسلمِ منهم والمسيحِيِّ واليهودِي؛ وعلى سبيل المثال، كان مِمَّنْ قَرَّبَهُمْ إليه: جبرائيلُ بْنُ بختيشوع بن جرجس (ت 213هـ)، النسطورِيُّ الذي احتلَّ عنده مكانةً مرموقةً وأصبحَ طبيبَهُ الخاصَّ وجليسَهُ. لم يختلف هذا الموقفُ من أهلِ العلمِ بعد الرشيدِ إلى نهايةِ العصرِ الذهبِيِّ الذي امتدَّ من منتصفِ القرنِ الثامنِ إلى القرنِ الرابع عشر الميلادي. لقد بلغ رعايةُ الخلفاءِ للعلماءِ ومحبَّتُهُم للعلمِ وتشجيعُهُم للإبداعِ إلى حدٍ إذا فرغ عالِمٌ من تأليفِ كتابٍ كان خليفةُ العصرِ يبادِرُ بشراءِ أَوَّلِ نسخَةٍ منه مقابِلَ جائزةٍ بالغةِ القدرِ

---

[209] عبد الله بن المبارك: هو أبو جعفر مُحَمَّد بن عبد الله بن المبارك القرشي بالولاء (ت 254هـ/ 868م)، قاضي حلوان (في العراق)، من حفاظ الحديث الثقات. انظر: ابن ماكولا: الإكمال 239/7، والزركلي: الأعلام 222/1.

يقدِّمُها لمؤلِّفِهِ في صورةٍ أقربَ إلى الخيال،[210] وكان من ذلك تقديرُ قيمةِ الكتابِ وَزْنَهُ ذهبًا! وقد كان من جرَّاء ذلك أن أقبل أبناءُ الأمةِ على مُدارَسَةِ العلومِ، فنُقِلَت فنونٌ مختلفةٌ إلى العربيةِ على إثرِها، ونشطتْ الصناعاتُ، وازدهرتْ بلادُ المسلمين. لقد كانت عواصمُ العالَمِ الإسلاميِّ مثل حلب، ودمشق، والكوفة، وبغداد، والقيروان، وقرطبة، والقاهرة، ومراكش، وفاس، هي مراكزَ علميَّةً، وجامعاتُها عامرةً بأعمالِ التدريس، يتوافدُ إليها جماعاتٌ غفيرةٌ من الطلبةِ من كلِّ فجٍّ عميق، في الحين الذي كانتْ الشعوبُ الصليبيَّةُ قابعةً على نفسِها في ظلماتِ الجهلِ، وعلماؤها يعانونَ من اضطهادِ الكنيسةِ يتعرَّضونَ للملاحقةِ والمحاكمةِ والقتلِ وتُحْرَقُ مُصَنَّفَاتُهُمْ...

لكنَّ من الغرابةِ بمكانٍ عظيمٍ: أن ينقلبَ هذا الازدهارُ والإنفتاحُ والرُّقِيُّ الحضاريُّ إلى جهلٍ يتفاقمُ ويسرِي في جسدِ الأُمَّةِ؛ فتتحوَّلَ جامعاتُ العلمِ الشامخةُ (على كثرتِها) إلى أبنيةٍ خاويةٍ على عروشِها، وقد خلتْ من أولئك العلماءِ العظامِ، وأعلامِ الفكرِ، ورُوَّادِ المعرفةِ، والعباقرةِ الذين كان كُلُّ واحدٍ منهم كَغُرَّةٍ في جبين الأمة. قد حلَّ محلَّهم اليومَ جموعٌ من المسوخِ البشريَّةِ المنتحلين، وهم أشباهُ الرهبانِ. مُعْظَمُهُمْ مُشَعْوِذُونَ قُبُورِيُّونَ يتَّجِرون بالدِّين، يَسْتَعْرِضُونَ ألاعيبَهُمْ بحكايةِ الأساطيرِ والقصصِ الخُرَافِيَّةِ بأساليبَ ببغائيَّةٍ، أكثرُها تحومُ حولَ "كرامات الأولياءِ"!

تغيَّرَ مفهومُ التعليمِ والتَّعلُّمِ وأساليبُهُمَا العلميَّةُ منذُ نهايةِ القرنِ الرابعِ عشر الميلادي، ولها أسبابٌ كثيرةٌ على رأسِها: العُجْمَةُ، وانتشارُ الفكرِ الصوفِيّ وما نشأ عنهما من الوثنةِ والمسكنةِ والركونِ إلى الأرضِ. وربما كان لِترجمةِ كُتُبِ الفلسفةِ دورٌ في إرباكِ عقولِ المسلمين وفتحِ بابِ الإلحادِ عليهم، وأدَّى ذلك إلى الفتورِ في عزيمتِهِمْ. ذلك أنَّ الجاهلَّ إذا ألْحَدَ، استولى عليه الوهمُ فأخذ يُقَلِّبُهُ من حالٍ إلى حالٍ حتّى يُنهِكَهُ، فيتحولُّ إلى صوفِيٍّ درويشٍ يفقدُ وعيهُ بحقيقة الكونِ والحياةِ، فيعيشُ مسكينًا وثنيًّا عديمَ الإيمانِ باللهِ على حقيقتِهِ، قبورِيًّا، ديدنُهُ الإنشغالُ بتخيُّلِ الأمواتِ، وأحوالِ أهلِ القبورِ، وزيارةِ القبابِ والأضرحةِ، والاستماعِ إلى قصص "كراماتِ الأولياءِ" ونحو ذلك.

---

[210] من هؤلاء الخلفاء الحكم المستنصر بالله (302 – 366 هـ / 915 – 976 م) تاسع أمراء الدولة الأموية في الأندلس وثاني خلفاء الأندلس بعد أبيه عبد الرحمن الناصر لدين الله، يعرف بعشقه وشغفه للعلم، كان له مكتبة ضخمة قلّما خلا من كتاب أُلِّفُ في عصرِهِ، وإذا وصل إليه كتابٌ بادر بوضع تعليق عليه بخط يده، وكانت هذه التعليقات موضع تقدير واستفادة من العلماء الذين عاصروه وأتوا بعده، فاعترفوا له بالعلم وسعة الاطلاع. وقد بذل الحكم الكثير من الأموال لاقتناء تلك الكتب التي كان يبعث رسله للبلدان لجلبها. ولما ضاقت مساحات قصرهِ عن استيعاب العدد العظيم من الكتب الواردة إليها باستمرار، أنشأ على مقربة منه مكتبة قرطبة، التي وصلت محتوياتها إلى 400 ألف مجلد، وبلغ اهتمامه بفريد الكتب أنه بعث لأبي الفرج الأصفهاني بألف دينار من الذهب ثمن نسخة منه ليرسله إليه كتابه "الأغاني". فأرسل إليه أبو الفرج بنسخة منه، فكان أن قُرِئَ الكتاب في الأندلس قبل أن يُقرَأَ في العراق موطن المؤلف!! وكتاب الأغاني من أشهر الكتب في الأدب.

هذه الظلمةُ قد خيّمتْ على أغلب المدارسِ الدينيَّةِ في مُعظمِ أنحاءِ العالَمِ الإسلامي، فاندرسَ العلمُ، وحلَّ محلَّهُ شبحُ الخرافاتِ والأساطير، لذا لا تكادُ تنفعُ تدريسُ بعضِ العلوم الإسلاميةِ: كالحديثِ، والفقهِ، والتفسير... وحتى تعليمُ العقيدةِ الصحيحةِ لم يَعُدْ يَكفِي لإزالةِ كثيرٍ من الأباطيلِ المحفورةِ في أعماقِ باطنِ الطالبِ، والباقِيَةِ في لاَوَعْيِهِ منذ أيامِ طفولتِهِ!.

إنَّ المدارسَ والجامعاتِ في جميعِ أنحاءِ العالَمِ الإسلامِيّ عمومًا وفي تركيا بخاصَّةٍ قد تحولتْ في هذا العصرِ إلى ساحاتٍ للعراكِ الإيديولوجي والصراعِ بين الفِرَقِ الطائِفِيَّةِ وَالْمَذْهَبِيَّةِ من الوهابيّين، والصوفِيَّةِ، والأتاتوركيّين، واليساريّين، والنورجيّين، والطِّيُّوشِيَّين، والفتوشيّين، والعنصريين وغيرهم... كل هذه الفرق في حربٍ دائمٍ مع بعضِهم البعض. لذا لا يكادُ يَسْلَمُ طالِبٌ من شرّهَا، ولاَ يستطيعُ أحدٌ من الطَّلبةِ الذين لا ينتمون إلى إحدَى هذه الْفِرَقِ، أن يُظْهِرَ الْجُرْءَةَ لِيُعْلِنَ حِيَادَهُ (فضلاً عن أنْ يُقِرَّ بأنَّه مِنْ أهلِ التوحيدِ الخالِصِ)، بل الذي ليس من أهلِ التوحيدِ، يضطرُّ أن يُسَايِرَ أقربَ فرقةٍ إلى عقيدتِهِ أو موقفِهِ السياسِيّ لِيَحْتَمِيَ بها، وهو ينافقها في واقع الأمر للحفاظِ بذلك على نفسِهِ ومُسْتَقْبَلِهِ. وأمّا أهلُ التوحيدِ، فيتعرَّضون لأشكالِ الأذَى من كُلِّ هذه الفِرَقِ، كما ترفُضُهم إدارةُ المدرسةِ والجامعةِ التي يواصلون دراستَهم فيها، وكثيرٌ منهم يُطْرَدون.

إنَّ هذه الحالةَ الفوضويةَ التي تعمُّ الجامِعاتِ التركيَّةَ تَسَبَّبَتْ لِتَدَهْوُرِ المستوَى التعليمِيّ في المجتمع التركِيّ بفظاعةٍ وفجاعة، فتسلسلتْ منه سلبيَّاتٌ على الحياةِ الإجتماعِيَّةِ، والإقتصادِ بخاصةٍ، وأورثَ فسادًا رهيبًا في الأخلاقِ والتعامل. كانت هجرةُ الأدمغةِ من أخطرِ الخسائرِ التي أسفر عن تَدَهْوُرِ المستوَى التعليمِيّ في تركيا.

إنَّ من أهمّ أسبابِ هذه الكارثة العظمى: غيابُ الوعي بأهميَّةِ العلمِ والعالِمِ في المجتمع التُّرْكِيّ. ذلك أنَّ عدَمَ الإعتدادِ بالإنسانِ العالِمِ والْمُبْدِعِ، مَيْزَةٌ قدِيمةٌ ومتأصّلَةٌ في العنصرِ التُّرْكِيّ. لذا لم يسبِقْ أنْ نَبَغَ في هذا القومِ عالِمٌ مُتَبَحِّرٌ اشتهرَ بِعلمِهِ وتآليفِهِ وإبداعاتِهِ إلاَّ إذا حَالَفَهُ الحظُّ أنْ خرجَ من البيئةِ التركية في عنفوانِ شبابِهِ إلى بلدٍ يحترِمُ أهلُهُ العلمَ ويساعدون طُلاَّبَهُ، ويعترفون للعالِمِ مكانتَهُ، ويستفيدون من معارِفِهِ... تبرهن على هذه الحقيقة حياةُ طائفةٍ من مشاهيرِ علماءِ الأتراك ومعاناتُهم. فابنُ سيناءِ، والزمخشرِيُّ، والإمامُ الذهبِيُّ، وألُوغْ بِيكْ، وعليّ بنُ مُحَمَّد قوشجي السمرقندي (على سبيل المثال)، وكثيرٌ من غيرِهِمْ، قد أقاموا كُلُّهم في المناطقِ التي سادتْ عليها الثقافةُ العربيَّةُ في

عصرِهِمْ. ولا يخفى على أهلِ البحثِ والدراسة معاناةُ الْمُبْدِعِ العملاق: أحمد شلبي هَزَارْفَنْ Hezarfen Ahmet Çelebi (1609–1640م.)، الذي صنع جناحين طارَ بهما من (بُرْجِ جَلَتَا Galata) حتَّى هبطَ في ساحةٍ بمنطقةِ أُسكودار، وهو أحد أحياءِ مدينة إسطنبول، وذلك في عام 1632م.، بعد أنْ مرَّ فوقَ المضيقِ وقطعَ مسافةً تُقدَّرُ بـ 3358 مترًا. لكنه لقي عقوبةً من حاكم عصره السلطان مراد العثماني الرابع، بَدَلَ أنْ يَلقَى ترحيبًا منه ومكافأةً. قيل أمر به السلطان فنُفِيَ إلى بريَّةِ (فَزَّانَ) الواقعةِ في الجنوبِ الْغَرْبِيِّ من ليبيا. وهي صحراءُ قاحلةٌ وخاليةٌ من البشرِ، فلا يُعرفُ مصيرُهُ إلى اليوم.

هذا، ومن الأمور الغريبة: أن معظم الأتراك اليوم يجهلون أسماءَ هؤلاءِ العباقرة الذين هم أجدرُ بالاعتزاز بهم من بعضِ من يؤلِّهونهم اليومَ، مثل سلاطين بني عثمان، وآتاتورك، وشيوخ الطريقة النقشبندية... مع أن كثيرًا من هؤلاءِ (وإنْ لم يكن كلُّهم) قد ظلموهم، وأربكوهم، وأضلّوهم، وألبسوا عليهم الحق بالباطل...

ذلك من المعروف؛ أنَّ الأتراك لهم مَيْزَتَانِ (الروحُ العسكريَّةُ، والبداوةُ)، لايزالون يَتَّسِمُونَ بهما إلى اليوم، وقد أشْغَلَتَاهُمْ عن الانتباهِ إلى وسيلتين من أهم وسائل المعرفة. ألا وهما القرائةُ والكتابةُ. ولهذا قلَّما تجدون شخصًا من الأتراك يتناولُ كتابًا يقرؤه أثناءَ سفرِهِ، بينما بقيَّةُ الأقوامِ وخاصةً الغربيُّون لهم شغفٌ بالقراءةِ، يحملون معهم ما يتيسَّرَ من الكُتُبِ يقرؤون منها كلَّما أتاحتْ لهم الفرصة.

ومن طبائع الأتراك: إنَّ أغلبَ المدرّسين منهم يهتمُّون بمظاهرِ تلامِذَتِهِمْ الخارجيَّةِ وتصرُّفاتِهِمْ أثناءَ التمثُّلِ، أكثرَ منها بأوضاعِهِم الدراسيَّةِ، ومستوياتِهِمْ المعرفيَّةِ ومدَى جهودِهِمْ في تطويرِ ثقافاتِهِمْ ومواهِبِهِمْ... ولعلَّ الطالبَ الذِي يهتمُّ برشاقةِ لباسِهِ وترتيبِ أدواتِهِ، ويُحْسِنُ وقوفَهُ أمامَ أولياءِ أمورِهِ، أفضلُ في نظرِ أكثرِ المدرّسِينَ والأساتذةِ مِمَّنْ يُفْلِحُ منهم في إعدادِ دروسِهِ وينجحُ في اتْقانِها. كلُّ ذلك يدلُّ على أنَّ الأتراك كانوا ولا يزالون جنودًا (كما يفخرون بذلك لدى كل مناسبَةٍ)، وقد لا يُمْكِنُ أن يتحوَّلوا إلى مجتمعٍ مدنِيٍّ يُقَدِّرُ مكانةَ العلْمِ ويرفعُها فوقُ كلِّ المصالح المعيشية.

كانت هذه لمحةً رمزيةً عن موقف الإنسانِ التُّركِيِّ من المعرفةِ والأوضاعِ التعليمية في تركيا، غير أنَّ هناكَ قطاعٌ تعليمِيٌّ آخرُ شبهُ سِرِّيٍّ لا يبدو للعيانِ، لأن السلطةَ لا تعترفُ به، لكنه يُمثِّلُ حقلاً واسِعًا ينالُ اهتمامَ الأغلبِيَّةِ السُّنِّيَّةِ من الأتراكِ والأكرادِ على السواءِ. ينبغي هنا بالمناسبةِ التَّطَرُّقُ

لهذا الحقلِ باختصار؛ وهو قطاعُ المدارسِ الدينيَّةِ–الشعبية. تنتشرُ هذه المدارسُ على ساحةٍ واسِعَةٍ في كلّ المناطقِ التي يسكنُها السُّنِّيُّون. وتتوارَى أكثرُها تحت سِمَةِ "مدرسةِ تحفيظِ القرآن" على سبيلِ التعميةِ للسلطةِ، والتلبيسِ عليها بالمدارسِ القرآنيةِ التابعةِ لرئاسةِ الشئونِ الدينيَّةِ التركِيَّةِ. لكنَّ السلطةَ على علمٍ بوجودِها وما يجري تحت سقوفها من صغيرٍ وكبير. لذا لا تُعَدُّ هذه المداعبةُ بين الطرفين مشكلةً بالنسبةِ للمدارس الدينيةِ–الشعبيَّةِ. وإنما تَتَمَحْوَرُ المشكلةُ حولَ الأوضاعِ التعليميَّةِ في هذهِ المداراسِ والقصةُ طويلة، لا يسعُ المقامُ ربما لاستيعابِ معشارِ معشارِها!

تمتدُّ جذورُ هذه المدارسِ إلى عهد السلاجقةِ، أي إلى ما قبل العهد العثمانيّ، وهي ما زالت على هيئتِها الواهيةِ المتهالكةِ: أبنيةٌ خاويةٌ لا تبدو فيها شيءٌ من أمارات الحيويَّةِ والنشاطِ، وهي أشبهُ ما تكون بمساكنِ المتسوّلين، يسودُ على كلّ منها جوٌّ داكنٌ من الجمودِ والركودِ والخْواءِ، ينبطحُ في غُرَفِهَا رهوطٌ فقيرةٌ من الطلبة، بين أيديهم نُسَخٌ من كتبٍ قديمةٍ، جلودُهَا مُرَقَّعَةٌ، كأنَّ سطورَهَا مُتَخَفِّيَةٌ وراءَ ضبابٍ على صفحاتها الصفراء، وهم عاكفون عليها يحفظون قواعدَ اللغةِ الغربية: "الكلمةُ لفظُ وُضِعَ لمعنًى مفردٍ، وهي إمَّا اسمٌ كَرَجُلٍ، وإمَّا فعلُ كَضَرَبَ، وإمَّا حرفٌ كَقَدْ..." يُرَدّدُونَ أمثالَ هذه الألغازِ على مدى سنين، وهي لاَ تُسْمِنُ ولاَ تُغْنِي مِنْ جُوعٍ...

آلافٌ مؤلفةٌ من الشبابِ يستهلكون ثلثَ أعمارِهم في هذه الأماكن العازلة عن ضياءِ الحضارة في حرمان من نسم الحياة السعيدة. ولا شكّ تنعكسُ عليهم آثارُ هذ المعاناةِ بأشكالٍ من السلبياتِ على مدى حياتِهم. يأتي على رأسِ هذة السلبيات: مشكلةُ العُجْمةِ، والعجزُ عن النطقِ الفصيحِ، والتواصلِ الناجحِ، والحوارِ المثمرِ، والاتِّصال الفعال...

إن الأساليب القديمةَ والعقيمةَ التي ما زال المدرِّسون يتشبَّثون بها في هذه المدارس البائسة كانت ولا تزال آفةً نزلتْ بمجالِ النشاطاتِ التعليميَّةِ على الساحةِ التركيةِ بأسرِها خاصةً منها المنطقة الكردية، وتحوَّلتْ إلى مرضٍ خطيرٍ وداءٍ دفينٍ، تأصَّلتْ في نفوس الأتراكِ والأكرادِ على السواءِ، وحالتْ بينهم وبين العلمِ الحقيقيّ، وجرَّدَتْهُمْ من الذَّوقِ السليمِ، وطلاقةِ اللِّسانِ، وأَبْعَدَتْهُمْ عن مُشاركةِ علماءِ الأمّةِ الإسلاميّةِ، ولم يخطُرْ على بالِ أحدٍ منهم منذ قرونٍ أنّه لابُدَّ من معالجةِ هذا المرضِ والقضاءِ عليه بالرجوع إلى (الطريقةِ المباشرةِ direct action) ونبذِ الترجمة في تعليم اللُّغة. فغدَى هذا الأسلوبُ الْمُعْوَجُّ سببًا من أسبابِ العجزِ في التعبيرِ، فلم نجدْ يومًا من الأيامِ عالِمًا من علماءِ الأتراكِ والأكرادِ على الْمِنَصَّةِ يُلْقِي خِطَابَهُ باللُّغة العربيَّةِ في الْمُحَاضَرَاتِ وَالنَّدَوَاتِ وَالْمُؤْتَمَرَاتِ

العلميَّةِ التي تُقامُ بين الفَيْنَةِ والأخرى في أرجاءِ العالمِ الإسلاميّ (إلاّ القليلَ الأقلَّ) مِمَّا أدَّى ذلك إلى سوءِ الظَّنِ بهم، وإهمالِ أسماء رجالاتهم من قائمة علماء الأمّةِ. هذا بالإضافة إلى أنهم كم تذوَّقوا مَرَارَةَ الْعَيّ كُلَّمَا حَلَّوا مجلسًا يتحدَّثُ فيه شخصيَّةٌ من علماء العرب وهم صامتون، أو يَلُوكُ أحدُهُمْ بعضَ ألفاظٍ يُرِدِّدُها في تمتمةٍ ولا يُحْسِنُ النطقَ بها، تسود على كلامه غرابةٌ من اللحن يُمَجُّ سَمَاعُهُ، ثم يرى نفسَهُ فاشلاً في التعبير؟! بينما لا شكَّ من أنَّه أفنى عمرًا غاليًا في حِفْظِ متون الصرف والنحو، وأحصى آلافَ القواعدِ... أليس ذلك من غرائب الأمور!

يكفي من التأثير السلبيّ على نشوء الجالية الكرديَّةِ (بسببِ لغتِهم): أنْ ترى الْمُدَرِّسَ – أثناءَ مُحَاضَرَتِهِ – وهو يُحاوِلُ، ويُداورُ، ويُراوِغُ، ويَتَشَدَّقُ، ويَتَنَطَّعُ، ويبذلُ كلَّ جهودِهِ، وَيُفْرِغُ كاملَ طَاقَتِهِ ليشرحَ مُصْطَلَحًا واحدًا من مصطلحاتِ الصرفِ أو النحوِ لِتِلْمِيذِهِ باللُّغةِ الكرديَّة، فيضيقُ عليه الأرضُ بما رَحُبَتْ ويَتَفَصَّدُ جبينُهُ عَرَقًا، فلا يتمكَّنُ من شرحِ ذلك المصطلحِ بوجهٍ يَفْهَمُهُ الطَّالِبُ، فيقومانِ عن الدرسِ وهما يُعَانِيَانِ تعبًا وكبتًا شديدين وخيبةً حَيَّرَتْهُمَا، وَهَزِيمَةً أَنْهَكَتْهُمَا وَهَيْهَاتَ الأمل...

إنَّ مَلاَلِيَ وشيوخَ المنطقةِ الكرديَّةِ، كذلك خواجوات الأتراك، – في الحقيقة – هم فقراءُ العلمِ والمعرفةِ، على عكسِ ما يَنْفُخُهُ قطعانُ الْجَهَلَةِ من الدعايات الكاذبة لأجل تفخيمهم. بل ينبغي وصفُهُمْ بِ(حُفَّاظِ كُتُبِ الصَّرْفِ وَالنَّحْوِ) فحسب. وهذه أسماءُ الكُتُبِ الَّتِي يَدْرُسُونَهَا وَيُدَرِّسُونَهَا بالتحديد:

1) كتابُ (نُوبَهَار): قاموسٌ منظومٌ بِاللُّغةِ الكرديَّةِ، أَلَّفَهُ الشيخ أحمدُ الْخَانِيُّ لتعليمِ الأطفالِ اللغةَ العربية.[211]
2) نهجُ الأنام: كتابٌ في العقيدةِ الأشعرية، أَلَّفَهُ الملاَّ خليلُ بنُ الملاَّ حسين الأسعِرْدِيُّ العُمَرِيُّ الشافعي.
3) كتابُ التقريب: رسالةٌ في الفقه الشافعيّ، أَلَّفَهُ شمس الدين أبو عبد الله مُحَمَّد بن القاسم.
4) فتح القريب المجيب في شرح ألفاظِ التقريبِ، أَلَّفَهُ أحمد بن الحسين.

[211] يقول الكاتبُ الكردِيُّ عبد الرحمن كلو، في تعريفِ هذا الكتاب: "نوبهارا بجوكان: هي إحدى اعمال الشاعر والفيلسوف الكردي الكبير أحمدي الخاني وهي من إحدى أعماله الأدبيةِ الرائعةِ والجريئة، دَوَّنَهَا قبل أكثر من ثلاثِ مائةِ عامٍ وبالتحديد تم انجازُ هذا العمل بتاريخ: **12 / 3 / 1683** ، حاول الخانِيُّ من خلالِ هذا العملِ تحقيقَ غايةٍ محدَّدةٍ بذاتها ألا وهي التعريفُ باللغة العربية للطفل الكردي، وتوسيعُ سعةِ مدارِكِهِ اللغويةِ، ومنظومته هذه استوعبتْ ما يقارب ألفَ كلمةٍ عربيةٍ قام بترجمتِها أو التعريف بها." المصدر: http://www.medaratkurd.com

5) كتابُ الأمثلة، في تصريف الأفعال، مؤلّفُهُ مجهولٌ.

6) كتابُ البناء، في تصريف الأفعال، مؤلّفُهُ مجهولٌ.

7) كتاب المقصود، في تصريف الأفعال، مؤلّفُهُ مجهولٌ.

8) كتاب العزّيِّ، ألَّفَهُ عبد الوهاب بن إبراهيم الزنجاني (يغلب أنه فارسِيٌّ)

9) عوامِل الجرجانِيّ، كتابٌ صغيرٌ في النحو العربِي، ألَّفَهُ عبد القاهر بن عبد الرحمن الجُرْجَانِي، (يغلب أنه فارسِيٌّ)

10) عواملُ الْبِرْكِوِيِّ، كتابٌ صغير في النحو العربِي، ألَّفَهُ مُحَمَّد البركوي (تركي الأصلِ من مدينة بالي كثير)

11) كتاب الظروف، يبحث عن مسائل الظروف في النحو العربِي، ألَّفَهُ ملاًّ يونس الهرقطيني (كردي الأصل)

12) كتاب التركيب، يتناولُ كلَّ كلمةٍ وَرَدَتْ في (عوامل الجرجاني) يشرحُ إعرابَهَا باللغةِ الكُرْدِيَّةِ.

13) سعد الله الصغير، شرحُ عواملِ الجُرْجَانِيِّ في النحو العربي مؤلّفُهُ مجهول.

14) شرحُ الْمُغْنِيّ، ألَّفَهُ مُحَمَّد ابن عبد الرحمن بن مُحَمَّد العمري الميلاني. شَرَحَ كتابَ أُستاذِهِ أحمد بن الحسن الجاربردي الكُردي.

15) كتابُ سعد الدين، للمؤلف الشهير سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني، شَرَحَ فيه كتابَ العِزّيِّ.

16) حلُّ المعاقِدِ في شرحِ القواعد، ألَّفَهُ أبو الثناء أحمد بْنُ مُحَمَّد الزيلوي (تركي الأصل)، شَرَحَ فيه كتابَ القواعدِ في مسائلِ الجملة العربيةِ للمؤلفِ ابنِ هشام عبد الله بن يوسف الأنصاري

17) حَلُّ مشكلاتِ الإشارات في مسائل المنطق والفلسفة، ألَّفَهُ ناصر الدين الطوسي، شَرَحَ فيه كتابَ الإشارات والتنبيهات لابن سيناءَ، وقد اختصره فخر الدين الرازي. وهو مشهور باسم (التلخيص)

18) كتابُ سعد الله الكبير، ألَّفَهُ سعد الدين سعد الله.

19) نتائجُ الأفكار، ألَّفَهُ مصطفى بن حمزة الرومي، شَرَحَ فيه كتابَ الإظهار للمؤلف مُحَمَّد الْبِرْكِوِيِّ.

20) شرحُ ألفيةِ بْنِ مالكٍ في النحو العربي، ألَّفَهُ جلالُ الدين بنُ عبدِ الرحمن السيوطِيُّ.

21) الفوائدُ الضيائية في النحو العربي، ألَّفَهُ نور الدين عبد الرحمن الجامي، شَرَحَ فيه الكافيةَ لابن الحاجب.

22) كتابُ إيساغوجي في المنطق، ألَّفَهُ أثيرُ الدين بنُ المفضَّلِ الأبهريُّ السَّمَرْقَنْدِيُّ.

23) كتابُ حُسَمْكَاتي في المنطق، وهو شرح إيساغوجي.

24) قولُ أحمدَ في المنطق، أَلَّفَهُ أحمد بن مُحَمَّد الخضر.

25) حاشيةُ عبدِ العفورِ على الفوائد الضيائية، ملاحظاتٌ في مسائلِ النحو. أَلَّفَهُ عبد الغفور اللاَّرِيُّ.

26) رسالةُ الْوَضْعِ في فنون الآداب، أَلَّفَهَا القاضي عضدُ الدين عبدُ الرحمن بنِ أحمدَ بنِ عبدِ الغفورِ الإِيجِيُّ.

27) رسالةُ الإستعارة، أَلَّفَهَا عصامُ الدين بنُ إبراهيمَ.

28) رسالةُ المناظرة، أَلَّفَهَا مُحَمَّد بنُ علي الإحسائِيُّ.

29) شرحُ شمسي في المنطق، للمؤلفِ محمود بن مُحَمَّد الرازي.

30) مختصرُ المعاني في علمِ البلاغةِ (المعاني، والبيان، والبديع) للمؤلف الشهير سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني.

31) شرح العقائد، للتفتازانِيّ أيضًا.

32) جمعُ الجوامعِ في أصول الفقه، للمؤلف تاجِ الدين عبدِ الوهابِ بن علي السُّبُكِيُّ.

ليس من الشطط أن نقولَ: إنَّ هذه الكتُبَ في حدِّ ذاتِها عقبةٌ كبيرةٌ تعترضُ سبيلَ طالِبِ اللغةِ العربيَّةِ وتُعَرْقِلُهُ في حياتِهِ الدِّراسيَّةِ، بل تجعلُ منه إنسانًا خاملاً، ذا شخصِيَّةٍ هزيلةٍ، سخيفَ الرأيِ، عديمَ الوعيِ بما يجري في هذا العالَمِ من الأحداثِ، وتجلبُ عليه من ألوان البؤسِ والشقاءِ، في كلِّ حياته لأسبابٍ عديدةٍ يضيق المقام عن ذكرها. لو اكْتَرَثَ لهذه الكُتُبِ باحثٌ محترفٌ ضليعٌ لِيُظهِرَ ما حَاكَتْهُ الأقلام في بطونها، ولِيَكْشِفَ الحجابَ عن طبائعِها، لَعَجَزَ لِسَانُهُ عن ذكر ما فيها من العشوائيةِ، والشذوذِ، والوعورةِ، والتعقيدِ، والغموضِ، والتلفيق، وسوء التأليفِ... وهذا مِمَّا يبعثُ النَّدَمَ في نفسِ كلِّ عاقلٍ استقى منها، ثم استيقظ من نومته ولو بعد حين.

تشبَّثَ ملالي وشيوخُ الأكرادِ والأتراك بهذه الكتبِ الجافة الخالية في معظمها من الفائدة، تشبَّثوا بها على مدى قرونٍ إلى اليومِ وهم في سُباتِهِم العميقِ، ولم يُفَكِّرْ أحدٌ منهم لحظةً في حياتِهِ أنَّ هذه الكتبَ لماذا ظلَّت مجهولةً في العالم العربِيِّ، ولماذا لا يعبأ بها عالِمٌ من علماء العربِ، ولا يدخل اسمُ أحدٍ من هذه الكتب في مُقَرَّرَاتِ التعليم في البلادِ العربية! ولماذا لم يُفَكِّرْ شيخٌ من شيوخِ الأكرادِ استبدالَ هذه الكتبِ بما تَعْتَمِدُهُ الدولُ العربِيَّةُ من الكتبِ الْمُقَرَّرَةِ لتعليمِ اللُّغةِ؟ بينما المعقول: إذا

كان الإنسانُ يطلب أيَّ لغةٍ، عليه أولاً متابعةُ الأساليبِ والأدواتِ التي يستعملُها القومُ الذي يتحدَّثُ بتلك اللُّغةِ، ويمارسُها في تعليمِها وتعلُّمِهَا.

من سوءِ حظّ الأكرادِ والأتراكِ أنَّهم اعتمدوا هذه الكتبَ العقيمةَ وأصرّوا عليها، ولم يفكّروا أنَّ أكثَرَهَا من تأليفِ عناصرَ عجميةٍ لم يتذوقوا حلاوةَ العربيةِ أبدًا، ولم تكن قَرَائِحُهُمْ خالصةً من كُدُورَاتِ الْعُجْمَةِ، (فضلا عن أنَّ بعضَهم كانوا زنادقةً!)؛ فَعِبَارَاتُهم غيرُ سَلِسَةٍ، بل عصيبةٌ مستعصيةٌ لا يسهلُ فهمُهَا، وهي كالألغازِ لا تَتَّسِمُ بالمرونةِ والوضوحِ، بعيدةٌ عن التدبُّرِ فيها لانتفاءِ سريانِ المعاني عَبْرَها بارتباطِ وتناسُقٍ وسِياقٍ... هذه الوعورةُ التي تسودُ على عباراتِ تلك الكتبِ الغريبةِ والقديمةِ قد جعلتْ مُعظمَ ملالي الأكرادِ وشيوخَهم مجبولين على الجدلِ يسحبُ بعضُهم بعضًا إلى ساحةِ النقاشِ أينما وجدوا الفرصةَ مواتيةً للمدافعةِ والمغالبةِ، بحيث لا تجدُ شخصين منهم اجْتَمَعَا في مكانٍ إلاَّ ويتربَّصُ أحدُهُما بصاحبِهِ لِيَسْبُرَ غَوْرَهُ وهو يتباحثُ عن مواطنِ الضعفِ فيهِ ليعرُضَ عليه مسألةً عويصةً فيطلُبَ منه فَكَّهَا، فَيُوَرِّطَهُ في مغالطةٍ من غيرِ مناسبَةٍ ولا سببٍ مُلِحٍّ، بل لِيَرْمِيَهُ بالجهلِ والحماقةِ فَيَشْفِيَ غليلَهُ، ولِيُثْبِتَ بذلك للمشاهدين تَفَوُّقَهُ وَمَهَارَتَهُ في حلِّ المشكلاتِ، حتى يُقِرُّوا له أنَّه عالِمٌ مُتَبَحِّرٌ.

يَأْبَى معظمُ شيوخِ الأكرادِ إلاَّ أن يُعَلِّموا تلاميذَهُم العربيَّةَ بإملاءِ هذه الكتبِ عليهم، وممارسةِ الدروسِ منها، ولا يَرْضَوْنَ بأيِّ بديلٍ عنها، فهي شِبْهُ أسفارٍ مُقَدَّسةٍ عندهم، ولا يزالون يُصِرُّونَ على هذه الطريقةِ بعنادٍ يُسْتَغرَب. لأنَّ الشيخَ الكردِيَّ لا يجدُ سبيلاً يجلبُ به انتباهَ الغيرِ إلى نفسِهِ إلاَّ إذا أثبتَ أنَّهُ "فَكَّاكُ العويصَاتِ" الواردةِ في عباراتِ المشهورين بعلومِهم (يقصدُ بذلك مؤلِّفِي هذه الكتبِ المدرسِيَّةِ القديمةِ). لذا يبدو أنَّ هذه الكتبَ لن تُسْتَبْدَلَ بغيرِها من الكتبِ السهلةِ المفيدةِ في أمَدٍ قريب.

هذه المدارسُ الأهلِيَّةُ لا تخضعُ لأيِّ قانونٍ، كما ليستْ تابعةً لأيِّ مُؤَسَّسَةٍ رسميَّةٍ. لذا لا تقومُ جهةٌ مسؤولةٌ بالاشرافِ عليها، ولا هِيَ تستفيدُ من خبرَةِ هيئةٍ مكوَّنَةٍ من العلماءِ والأكاديمِيّين. بل كلٌّ من هذه المدارسِ مستقلَّةٌ تابِعَةٌ لأحدِ المشعوذين من الخُوَاجَوَاتِ، يتصرَّفُ فيها بعفويةٍ فيلعبُ بعقلِ كلِّ مَنْ يقعُ في حبالِهِ من الشبابِ. لذا، يتخرَّجُ الطالِبُ منها مقلِّدًا، مسلوبَ الإرادَةِ، شاكًّا متردِّدًا ومرتبكًا في كُلِّ ما يتأمّلُ ويتفوّهُ بِهِ، مسكينًا متخوِّفًا، ومشعوذًا... ذِهْنِيَّتُهُ وعقليتُهُ ملوَّثَتانِ بِرُسُوبَاتِ المذهبِيَّةِ وَالطَّائِفيَّةِ، لا يكادُ يُمَيِّزُ بين الإسلامِ والْمُسْلُمَانِيَّةِ، وهو نازِعٌ إلى الجَدَلِ مع عجزِهِ عنه

وَجَهْلِهِ بأساليبِ المناظرةِ العلميَّةِ لفقرِهِ الثقافِيِّ، وهو على مُفْتَرَقِ الطُّرُقِ ينتظرُ حتى يسطادَهُ سَمَاسِرَةُ إحدَى الْفِتْنَتَيْنِ: فتنةِ النَّقْشَبَنْدِيَّةِ، أو فتْنَةِ الْخَوارج. لذا، ينقسمُ الشيوخُ والملالي في تركيا إلى فريقين خطيرين مُتَنَاحِرَيْنِ: فريقٌ منهم مُنْخَرِطُونَ في سِلْكِ الصوفيَّةِ النقشبنديَّةِ (وهم رموزُ الشعوذةِ والخرافةِ والإشراكِ)، وفريقٌ منهم مُلْتَحِقُونَ بالجهاديِّين (وهم جنودُ الإرْهَابِ والفوضَى)، فقلَّمَا ينجو طالِبٌ من أضرارِ هذه المدارسِ وسلبِيَّاتِهَا ويَتَخَرَّجُ منها مُتَمَكِّنًا من المعارفِ الإسلامِيَّةِ غَزِيرَ العلمِ، مثقَّفًا، فَطِنًا، وَاعِيًا، وَسَطِيًّا، خَلُوقًا، جريئًا، يستحِقُّ أنْ يَقتدِيَ بِهِ أبناءُ الأمَّةِ المحمديَّةِ.

ويجب هنا بالمناسبة لزومُ التنبيهِ على الفروقِ بين المجاهدِ والجهادِيِّ. فالمجاهد: عالِمٌ بأصولِ الجهادِ وضوابِطِهِ الفقهيَّةِ، مُخْلِصٌ في نيتِهِ، مُنْطَلِقٌ عن وعيٍ واطلاعٍ واسعٍ، مُحْتَاطٌ في حَمَلاَتِهِ مع إتقانٍ بالغٍ لفنونِ السياسةِ واستراتيجياتِهَا، وأساليبِ القتالِ، ومناوراتِ الحربِ، وجدالِ الخصمِ وإفحامِهِ، وإرباكِ العدوِّ، واستعمالِ السلاحِ... أو شخصٌ تابع لمن يمتاز بالصفاتِ المذكورة. أمَّا الجهادِيُّ، فإنه على عكسِ المجاهدِ: جاهلٌ بأصولِ الجهادِ وضوابِطِهِ المنصوصةِ في الفقهِ الإسلامِيِّ (وإن كان مخلصًا في نيته)، غيرُ مُنْطَلِقٍ عن وعيٍ واطلاعٍ واسعٍ، بلْ مقلِّدٌ تقليدًا أعمى، منسحبٌ من وراءِ مَنْ زيَّنَ له المشاركةَ في تنظيمٍ إرهابِيٍّ (كالعصابةِ اللاَّدنيَّةِ والداعشيَّةِ وأمثالِهِمَا)، يتظاهرُ بشعاراتٍ إسلاَمِيةٍ حماسيَّةٍ وهُتافاتٍ لإثارةِ عاطفةِ الشبابِ وتضليلِهم، وهو يجهلُ قِمَّةَ التنظيمِ (المتخفِّيَةِ التي تحرِّكُهُ)، وحقيقةَ القُوَى التي تستغِلُّهُ لإثارةِ الْفِتَنِ، وإرهاقِ دماءٍ بريئةٍ، وتدميرِ ديارِ المسلمين بِدَعْوَى قتالِ الطواغيتِ وأسيادِهم من الصهاينة والصلبيين.

كما يجب الإشارةُ إلى أنَّ أكثرَ علماءِ المسلمين ومثقَّفِيهم قد فاتَتْهُمْ المعرفةُ بهذه الحقائق الرهيبةِ التي تعانِي منها الدولةُ التركيَّةُ، وقد حجبَتْهُمْ ضبابُ الحروبِ الطائفيةِ والصراعاتِ المذهبيَّةِ والفوضَى السائدِ على أجواءِ الشرقِ الأوسطِ عن رؤية ما يتوارى بهذا الضباب، حيث لا يتمكَّنون من الإطلاعِ على خلفيةِ هذا المشهدِ المخادعِ لذلك السبب الخطير. من هؤلاءِ بخاصَّةِ العلماءُ السوريُّون الذين لجئوا إلى تركيا هربًا من مخاطرِ الحرب الأهليةِ التي فتكت بمجتمعهم.

تعتزمُ الحكومةُ التركيَّةُ في هذه الأوانِ لإملاءِ الفراغِ العلمي (في الحقل الديني، وتدريس اللغة العربية خاصةً) باستغلالِ هؤلاءِ الشخصيَّاتِ وتوظيفِهم في الجامعاتِ والمؤسَّساتِ الإرشاديَّةِ. إلاَّ أنَّ هذه المبادرةَ تفرضُ عدَّةَ تساؤلاتٍ تستوجبُ الإجابةَ عنها لتوضيحِ الرؤيةِ، كما لا تخلو من إفرازِ نتائجَ

سلبيَّةٍ قد تنعكسُ على معتقداتِ وأفكارِ المجتمعِ التركِيّ والسورِيِّ على السواءِ، فتخلخل عقيدة التوحيد للطرفين في المستقبلِ القريب.

وعَلَى ضوءِ بعضِ التوقُّعاتِ، ينبغي هنا الإدلاءُ بشيءٍ من التوضيح لِمَا قد ينجم عن هذه المبادرة، وذلك على سبيل التحذيرِ لأهلِ العلمِ من الضيوفِ، ولا شكَّ أن "أهل مكة أدرى بشعابها"، "وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ."

لا يخفى على أهلِ المعرفةِ أنَّ الغريبَ مهما كان يتمتَّعُ بِسِمَاتِ الشخصيَّةِ القوية؛ عالمًا، مؤمنًا، صابرًا وجريئًا في مواجهة الأهوال والنوازلِ، لا يخلو باطِنُهُ من هواجسِ القلقِ والريبَةِ على ما قد يُفَاجَأُ به. لأنَّه كما يقول الإمامُ الشافعي ﷺ:

إنَّ الْغَرِيبَ لهُ مَخَافَةُ سَارِقٍ * وَخُضُوعُ مَدْيونٍ وَذِلَّةُ مُوثَقِ
فَإِذَا تَذَكَّرَ أَهلَهُ وبِلاَدَهُ * فَفُؤَادُهُ كَجَنَاحِ طَيْرٍ خَافِقِ

إنَّ مُعظمَ اللاَّجئين السوريّين – بسبب هذه الحالةِ النفسيَّةِ – يعبِّرُون عن امتنانِهم للدولةِ التركيَّةِ التي "دعمتْ السوريّين والثورةَ السوريَّة منذ البداية، وحفظت كرامتَهم أكثر من غيرِها؛ ويشعر السوريُّ المقيمُ في تركيا بِلَمْسَةِ الحنوِّ التي يتركها هذا البلدُ لدى اللائذين به، سواء أتت من الحكومةِ أم من الشعبِ الودودِ القريبِ للسوريّين في عاداتهم وقِيَمِهِمْ وأخلاقِهِم..."[212] وهذا قد يجعلُ الإنسانَ السورِيَّ يشعرُ في نفسِهِ بوجوبِ الموافقةِ على كلِّ ما يطلبُ منه الأتراك، وذلك: "وفاءً منه وعرفانًا لما لَقِيَ منهم من الحفاوةِ والمساعدةِ وحُسْنِ القِرَى" وقد يكون من جملةِ هذه الطلباتِ (الموجَّهَةِ من قِبَلِ الجماعاتِ الصوفيَّةِ إلى العلماءِ السوريين بخاصةٍ) مشاركتُهُمْ في تدريسِ الطلبةِ التابعين لتلك الجماعات، وهنا تبدأ الخطورةُ! ذلك أنَّ الصوفيّةَ الأتراك يكادُ كُلُّهُمْ ينتسبون إلى "الطريقة النقشبندية"، وأغلبُ العربِ (حتّى علماؤهم، بل وحتى الوهابيُّون منهم، الذين يُكِنُّونَ كراهيةً شديدةً للصوفيةِ) يجهلون المسيرةَ التاريخيةَ لهذا التيارِ الصوفِيّ الخطير. وقلَّ مَنْ وقفَ منهم على أسرارِ هذه الطريقةِ الباطنيَّةِ وصِلَتِهَا بالديانةِ البوذيةِ، وكيفَ طَوَّرَهَا قدماءُ الأتراك فورَ فتحِ بخارَى وسمرقند، تمسُّكًا بتعاليمِ الراهبِ البوذي (بيتنجل Patanjali)، إذ كان معظم الأتراك بوذيّين قبل إسلامِهِمْ، ولمّا أسلموا لم يتخلَّوْا عن جميعِ طقوسِهم ومناسِكِهم الكُفْريَّةِ إمّا لجهلهم، أو ليتمايزوا عن

[212] سمير نشار، العضو السابق في «الائتلاف الوطني السوري»، http://www.alhayat.com

العربِ بجزءٍ من معتقداتِهم القديمةِ للحفاظِ على استقلالِهم الدينيِّ كما يحرصون على استقلالهم السياسي في كل الأزمان. وقد نجحوا في إخفاءِ هذا الدِّين وراءَ نقابٍ منسوجٍ بِطائِفَةٍ من المصطلحاتِ والأدعية والأذكارِ المأخوذةِ من الإسلام. والقصة طويلة.

إن الساحة التركية، لا تخلو بقعةٌ منها عن هذا الكمين الخطير، حيث يوشك أن يقع فيه بعضُ العلماءِ السوريِّين بِحُكْمِ احْتِكَاكِ خُوَاجَوَاتِ النَّقْشَبَنْدِيَّةِ بهم، لأسبابٍ ملحّةٍ منها:

أولاً: إنهم يريدون أنْ يسطادوا أهلَ العلمِ من العرب، فيستغلُّوهم في تعليمِ مَنْ وقع في حِبالِهم من الأطفالِ والشبابِ الأتراك؛ قد يتزلَّفُ خواجواتُ الطائفةِ النقشبندية المسيطرين على منطقة الفاتح بمدينة إسطنبول، قد يتزلَّفونَ إلى العلماءِ السوريّين خاصةً، الذين لجئوا إلى تركيا، لِيحتالوا عليهم بأشكالٍ من التملُّق والتواضع والمداهنةِ بذريعةِ الاستفادةِ من معارِفِهم، (ولا شكَّ في أنَّ هؤلاءِ الصوفِيَّةَ يحرصون على امتصاصِ علومِهم) لكنَّهم مع ذلك يريدون ليورِّطوا العلماءِ السوريِّين في الانخراطِ إلى هذا الدِّينِ الباطلِ الذي يَدَّعون أنَّه طريقةُ أولياءِ اللهِ والصالحين، كذبًا وزورًا وافتراءً على الله.

ثانيًا: إنّ خواجواتِ النقشبنديَّةِ يعلمون بالتأكيد: أنَّ مَنْ نشأ على اللغةِ التركيةِ؛ من المستحيلِ أنْ يتعلَّمَ اللغةَ العربيةَ بسهولةٍ. وقد كانوا يُرسلون جماعاتٍ من شبابِهم إلى البلادِ العربيةِ فيما سبق، ليتعلَّموا العربيةَ، فلم يَعُدْ منهم فردٌ قد أتقنَها حقَّ الإتقانِ إلاَّ آحادٌ أقامَ هنالك سنين، وبذل جهودًا بالغةً في تلقِّي الدروسِ وحفظِ المتون، كألْفِيَةِ ابْنِ مالكٍ وغيرِها... مع ذلك لم تتخلَّصْ لهجتُهُ من الرطانةِ ولا يزالُ على لسانِهِ لُكنة. فَكَمْ يتمنَّى النقشبنديُّون أنْ يستفيدوا من العلماءِ السوريِّين وقد ساقتْهُمْ عاصفةُ الأقدارِ إلى أقربِ مكانٍ تكْثُرُ فيها تَكَايَا الباطنيةِ، ويُقيمُ كبيرُ الزنادقة بالمنطقةِ نفسِها!

ثالثًا: يُرَدِّدُ النقشبنديُّون (في دعاياتِهم) أسماءَ بعضِ مَنْ اشتهروا بالعلمِ والصلاحِ (وهم في الحقيقةِ دجاجلةٌ وبلاعمةٌ، قد ضلَّ واغترَّ بهم آلافٌ من حُثالةِ البشر؛ وممن أقامَ منهم في بلاد الشامِ: كبير المشعوذين المدعو زاهد الكوثريُّ.) إنما يتذرَّعُ خواجوات النقشبندية بإكثارِ ذكرِ أولئك الزنادقةِ عند العلماءَ السوريّين لإيثارِ عاطفتهم واستغلالِهم. لعلَّ هؤلاءِ الشخصيات يُحسنون الظنَّ بهم دون أنْ يكونوا قد تثبَّتوا في معرفةِ كنههم. فهذا خالد البغدادِيُّ (على سبيلِ المثال)، وهو من مشاهير

الزنادقة المقبورين على سفوح جبل قاسيون، كان ولا يزال يجري اسْمُهُ على لسان آلافٍ مؤلَّفةٍ من جهلةِ أهل المنطقة الشامية بآياتِ التعظيم والإجلالِ، على مدى قرنين من الزمن، حتى اعتقدَ به ملايينُ الناسِ فهلكوا مع الهالكين.

ولهذا يجب على العلماءِ السوريين أن يحتاطوا في التعامل مع خواجوات الأتراك، كما يحسن أن يقوم رئيسُ رابطة العلماءِ السوريين فضيلة الشيخ ممدوح جنيد، وأمين عام الرابطة فضيلة الشيخ الدكتور مُحَمَّد ياسر المسدي أن يقوما بتنبيه إخوتهم من العلماءِ على هذه الخطورة، قبل أن يقع أحدهم في كمين النقشبنديين كما حدث ذلك مع عددٍ من زناقة العرب، وفي مقدِّمَتهم: أسامة الرفاعي[213]، وابراهيم الإحسائي[214]. ومُحَمَّد عوَّامة[215]، توافدوا من الخارج خاصةً ليبايعوا كبيرَ المشعوذين في إسطنبول، والله المستعان، ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله العلي العظيم.

***

[213] ورفعًا للالتباس يجب الإشارة هنا إلى أنَّ أسامة الرفاعي هذا الذي مرَّ ذكرُهُ، ليس هو الشيخ أسامة الرفاعِيّ ابن الشيخ عبد الكريم الرفاعي الدمشقي. بل هو رجل متشيّخٌ مشعوذ من متصوفة لبنان، وهو مفتي مدينة عكار، ترونه يرقص في "حفلة ذكر" مع جماعة من المشعوذين على شاكلته. وما أقبح بذي لحية يرقص!. للمشاهدة راجع:
https://www.youtube.com/watch?v=fvQBVhY2srI

وأما الشيخ أسامة الرفاعِيّ ابن الشيخ عبد الكريم الدمشقي، فهو خطيب جامع الشيخ عبد الكريم الرفاعي في منطقة كفرسوسة بدمشق. وهو الإبن الأكبر للعلاَّمة الراحل، صاحب تسمية المسجد (الشيخ عبد الكريم الرفاعي). وهو شخصية معروفة من علماء الشام، له شرحٌ على نظمِ نهايةِ التدريب في الفقه الشافعي.

شاهدْ أسامة الرفاعي على الرابط التالي، وهو يقبّلُ يدَ صنمِ النقشبنديِّين ويجلسُ بين يديه جلوسَ العبد بين يدي سيده، يكلمه بالعربية إلاَّ أن الصنم لا يفهمه، لأنه لا يتقن اللغة العربية، فيتوسط هناك أحد أتباعِهِ للترجمة إلى اللغة التركية. وهذا الرابط:
https://www.youtube.com/watch?v=9CmrjBO5y2o

[214] إبراهيم الأحسائيُّ: طفيليٌّ مشعوذٌ من سُكَّانِ شرقِ البلادِ الحجازيَّةِ، يدعمه تنظيمٌ خطيرٌ للنقشبنديّين البُنْطُسْ في تركيا ضمنَ مشروعِ (نَشْرِ الْمُسْلُمَانِيَّةِ التُّرْكِيَّةِ في البلادِ العربيَّةِ، يتبنَّى تتريكَ الإسلامِ)، ويعملُ على إرباكِ الوهابيّين وزعزعةِ نظامِهِمْ بخاصّةٍ. شاهدْ أيضًا إبراهيم الأحسائيُّ وهو يقبّلُ يدَ صنمِ النقشبنديّين ويجلسُ بين يديه جلوسَ العبد بين يدي سيده مثل أسامة الرفاعي شاهده على الرابط التالي:
https://www.youtube.com/watch?v=zN127OR5gpM

[215] مُحَمَّد عَوَّمة: مُشَعْوِذٌ سوريٌّ خطيرٌ، تتلمذَ على عبدِ الفتَّاحِ أبو غدة الحلبي الذي كان من ألدِّ أعداءِ أهل التوحيد. لهذا المشعوذِ صِلَةٌ قويَّةٌ بالزنديقِ النقشبنديِّ البُنْطُسِيِّ محمود أسطى عثمان أوغلو الذي يبث سمومَهُ في تركيا، ومُحَمَّد عوَّامة هذا الصوفي المشعوذ، مُعْجَبٌ بِالبُنْطُسِيِّ غايةَ الإعجابِ، بدأ يلازِمُهُ خاصّةً بعد هجرته من سورية هربًا من هول الحرب الأهلية المتفاقمة في بلاده.

19) الفَقْرُ الثَّقَافِيُّ:

الثقافةُ هي من أهم الركائز التي تُحدِّدُ طريقَ الإنسانِ في تفكيرِهِ ومواقِفِهِ من الحياةِ والمجتَمَعِ والدِّينِ والقِيَمِ... والثقافةُ بتعبيرٍ آخر هي مُحَصَّلَةٌ فكريَّةٌ وتجريبيَّةٌ يستوْفِيها الشخصُ بقدرِ ما تسمحُ له ظروفُهُ المعيشيَّةُ، وطبيعتُهُ البشريَّةُ، وكفائتُهُ العقلِيَّةُ في مدرسةِ الحياةِ منذ ولدتْهُ أمُّهُ إلى أن يلفِظَ أنفاسَهُ الأخيرةَ.

تتَّسمُ الثقافةُ بأهمِّيَّةٍ بالغةٍ، لِدَوْرِهَا العظيمِ وتأثيرِهَا العميقِ في تقويمِ اعوجاجِ الإنسانِ وتعيينِ مسيرتِه على جادَّة الأمر.. فالثقافةُ هي الأشِعَّةُ التي تُضيءُ طريقَ الشخصِ وتُوَسِّعُ أفاقَ مدارِكِهِ، فهيَ تُوجِّهُهُ نحوَ أفكارٍ أكثرَ سُمُوًّا وأكثرَ رِفعةً، فيمتازُ على ضوئِها بسُلوكٍ راقٍ ومُتميّزٍ يُصبحُ أكثرَ فهمًا مِنْ غيرِهِ، وأكثرَ قُدرةً على استيعابِ الظُروفِ مِنْ حَوْلِهِ، وفهمِ الواقعِ المُحيطِ به، كما تُعزِّزُ الطاقةَ الإيجابيَّةَ لديه فيكونُ أكثرَ تفاعُلاً وتفاؤُلاً وأكثرَ إيجابيَّةً ومرونَةً. إن الرصيدَ الثقافِيَّ كلَّما ازداد لدي الإنسانِ ازادَ من القُدرةِ على اتِّخاذِ القرارِ السليم والسديد.

إن الإختصاصَ العلمِيَّ الأكاديميَّ وحده لا يُغْنِي عن الثقافةِ، كما أنَّ مجرَدَ الثقافةِ لا تُغني عن الإختصاصِ العلمِيِّ الأكاديميِّ. فكلٌّ منهما يُكمِلُ الآخرَ، ومنهما يتولَّدُ الوعيُ. فإنَّ الداعيَةَ إذنْ لا بدَّ أنْ يمتازَ بصفتين معًا العلمِ والثقافةِ. وهذه الحقيقةُ تُذَكِّرُنَا بطائفتين متطرفتين؛ إحداهما تمتازُ بِالعلمِ والإختصاصِ وَتنقُصُهُ الثقافةُ وهم الوهَّابِيُّونَ وملالِي الأكرادِ بخاصَّةٍ، والثانيةُ تمتازُ بِالثقافةِ وَتنقصُهُ العلمُ والإختصاصُ، وهم الأكاديميون الأتراك.

إنَّ الثقافةَ هي زُبْدَةُ العلومِ والمعارفِ النَظريَّةِ التي يتلقَّاهَا الإنسانُ عن طريقِ الدراسةِ الأكاديميَّةِ (مِنْ جهةٍ)، يوفِّرُها أيامَ التعليمِ الرسمِيِّ وغيرِ الرسمِيِّ، كما هي (من جهةٍ أخرى): خلاصةُ تجارُبِهِ وخِبْرَاتِهِ

التي يكتسبُهَا في علاقاتِهِ ومشاركاتِهِ وصراعِهِ مع الناسِ، وما يستفيدُهُ عَبْرَ مسيرةِ حياتِهِ من دروسٍ وعِبَرٍ يَدَّخِرُهَا في ذاكرتِهِ...

يدعو الموضوعُ بالمناسبةِ أنْ نقفَ قليلاً على التطرُّف الوهابِيّ المتمثِّلِ في الذُّعرِ والتذمُّرِ من الشركِ، وهي حالةٌ متأصِّلةٌ لا شعوريَّةٌ في الإنسانِ الوهابِي (الْمُسْلِمِ) خاصَّةً وفي كل إنسانٍ تكفيريٍّ (مسلمٍ) من غير الوهابيّين، لا تفارقُهما أبدًا. هذه الحالةُ شبيهةٌ بنفس حالةٍ تُصاحبُ الإنسانَ التُّرْكِيَّ (الْمُسْلُمَانَ) الذي ينتابُهُ الذُّعْرُ وَالْفَزَعُ من توحيدِ الله تعالى. هاتان الحالتان، اللَّتَانِ بينهما تشابُهٌ من جهةٍ وتعارُضٌ من جهة أخرى، تجدرُ المقارنَةُ بينهما بِعُمْقٍ، لِمَا فيهما من العبرة، وما يَدَعُ الإنسانَ في حيرةٍ حِيَالَ هذه الأُمَّةِ التي تزعم أنها أمةُ مُحَمَّد!

إن الوَهَّابِيّين لَمَّا حطَّمُوا جميعَ أوثان الأتراك (الْمُسْلُمَان) في بلادِهم قبلَ قرنين من الزمن، لم يعرفوا يومئذٍ شيئًا عن مفهوم "الْمُسْلُمَانِيَّةِ" ولا كان لهم أدنى علمٍ بالفَرْقِ بين الإسلامِ وبين هذا الدِّينِ المستحدَثِ، كما أنهم لاَ يعلمون شيئًا عن هذا الفرقِ حتى هذه اللَّحْظَةِ. إنَّ هذا الجهلَ نفسَهُ منتشرٌ على الساحة التركيةِ في الوقتِ ذاتِهِ. فلا تجدُ شخصًا من الأتراكِ (الْمُسْلُمَان) يُمَيِّزُ بين الإسلامِ و"الْمُسْلُمَانِيَّةِ" إلاَّ مَنْ رَحِمَ ربِيّ. هذه الغرابَةُ إنّما هي ناشئةٌ من انتفاءِ الثقافة في الوهابيّين (والتكفيريّين)، وانتفاءِ العلمِ في الأتراك.. لأنَّ الوهابيّين (وأشباهَهُمْ من التكفيريين) هم فقراء الثقافةِ؛ حطَّمُوا جميعَ أوثان الأتراك (الْمُسْلُمَان) كما مرَّ آنفًا، ولكنَّهم اختاروا ستَّةَ رموزٍ من أهل العلم ليتخذوهم شِبْهَ أصنامٍ لأنفسِهِمْ، وهم بالتحديد: الإمام أحمد بن حنبل ﷺ، وابنُ تيميَّةَ الحرَّانِيُّ رحمه الله، وابنُ قيِّمِ الجوزيَّةِ رحمه الله، ومُحَمَّد ابْنُ عبدِ الوهَّابِ رحمه الله، وناصرُ الدينِ الألبانِيُّ رحمه الله، وعبد العزيز بن باز رحمه الله... فالثلاثةُ الأولون هم بريؤن من الوهابية، وأمَّا الثلاثة الباقون فإنهم من رموز الوهابية. وأقلُّهم ثقافةً هو عبد العزيز بن باز الذي زعم في كتابٍ له[216] " إنَّ القولَ بأنَّ الشمسَ ثابتةٌ وأنَّ الأرضَ دائرةٌ هو قولٌ شنِيعٌ ومُنْكَرٌ، ومَنْ قَالَ بِدَوَرَانِ الأرضِ وعدمِ جَرَيَانِ الشمسِ فقد كَفَرَ وَضَلَّ، ويجبُ أن يُسْتَتَابَ فإنْ تابَ وإلاَّ قُتِلَ كافرًا مرتدًّا، ويكونُ مالُهُ فيئًا لبيتِ مالِ المسلمين!" فسبحان من قال: أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ.[217]

---

[216] وهذا اسم الكتاب: الأدلة النقلية والحسية على جريان الشمس وسكون الأرض وإمكان الصعود إلى الكواكب؛ من مطبوعات الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة سنة 1395هـ.

[217] الحج/46

وأما الأتراك (وَتُبَّاعُهُمْ مِنَ الأقلِّيَّاتِ الْمُسْلُمَان)، فإنهم فُقَرَاءُ العلمِ (وعندهم شيءٌ قليل من الثقافَةِ). فلولا أنَّ هذا حقيقةُ أمرِهِمْ، لما أشركوا مع الله آلِهَةً أخرى ثمَّ كتموا ذلك بِزَعْمِهِمْ: "أنهم لا يعبدون إلاَّ الله، والدليلُ على ذلك: أنهم يصلُّون، ويصومون، ويحجُّون للهِ وحده!". هذه الحيلةُ منتشرةٌ في جميع أنحاءِ تركيا. إذ تجدُ مُعْظَمَ الأتراك والأكرادِ حتى العلويّين من الطائفتين، وَالبقيةَ مِنَ الأقلِّيَّاتِ الْمُسْلُمَان، تجدُهم ينطقون جميعًا بكلمة التوحيد "لا إله إلاَّ الله"، ولكنَّهم مع ذلك يزورون القِبَابَ والأضْرِحَةَ ويتضرَّعون إليها، ويعتقدون أن المدفونين في هذه الأماكن أولياءُ الله وخاصَّتُهُ، يعلمون الغيبَ، ويتقبَّلون الدعاءَ، ويتصرَّفون في الكونِ.. بل فرقةٌ من النقشبنديين تَعتقدُ بـ"أنَّ شيخ الطريقةِ وكيلُ اللهِ ونائبُهُ في مُلْكِهِ."[218]

إذنْ نَسْتَنْتِجُ من كلِّ هذه المقارنَةِ والتحليلِ؛ أنَّه لا يستغني الداعيةُ بالعلم عن الثقافة، ولا بالثقافةِ عن العلم، فيجب عليه أن يبذُلَ جهودَهُ لِيَحْظَى بأكبرِ قدرٍ من ثقافةِ العصرِ بجانبِ ما قد حَظِيَ من اللغةِ العربيَّةِ وعلومِ الإختصاصِ وَعلمِ أصولِ الدين.

***

إنَّ مفهومَ الثقافةِ تتعلَّق بكُلِّ أنحاءِ الحياةِ؛ تَتضمَّنُ المعرفةَ، والمعتقدَ، والفنونَ، وجميعَ الإختصاصات العلميَّةِ على اختلافيها، وآدابَ العُشرةِ، والسياسةَ، والقانونَ، والأعرافَ والعاداتِ، والعلاقاتِ الاجتماعيَّةَ وأيَّةَ مجالاتٍ أُخرى. اهتمَّ بهذا المفهوم وتَنَاولَهُ عددٌ من علماءِ التربية والسلوكِ، حظيتْ كلمةُ "الثقافةِ" بمكانٍ مرموقٍ خاصةً في الآدابِ الأوروبيَّةِ منذ بدايةِ القرنِ العشرين. أمَّا المسلمون، فإنَّهم لم يكترثوا لها إلاَّ بعد أنْ اقتبسوا معانِيَها من الغربِ. لذا، نجدُ (المتأخِّرينَ خاصةً) من علماء المسلمين في ثوبِ الرُّهبانِ ورجالِ الدين الروحانيِّينَ؛ نجدُهم خاملين، غيرَ ذوِي الرؤيةِ البعيدةِ والهمَّةِ العاليةِ، بل نراهم شِبْهَ معزولين عن النشاطاتِ الحياتيَّةِ. تنحصرُ معرفتُهم في حدودِ علوم الدين؛ كالعقيدةِ، والتفسير، والفقه، والحديثِ وما يتعلق بهذه العلوم من اللغةِ العربية والأصولِ والمصطلحاتِ فحسبُ.. دون الإلمامِ بأي إختصاصٍ من العلوم العقلية، واللُّغاتِ الأجنبِيَّةِ، فخالفوا الرسولَ الكريمَ ﷺ والسلفَ الصالحَ بهذه الهيئةِ الشاذةِ والركودِ والجمودِ، فأصبحوا دون العوامِّ في

---

[218] «Zikreden kişiye Allah'ın zatı hakkında bir düşünce geldiğinde, bu düşünceyi Allah'ın vekili ve halifesi olan kişilere çevirmekle kendini tehlikeden kurtarmış olur» (Ruhu'l-Furkan 2/74)

المعرفَةِ بأحوال الدنيا.. فكان ذلك من أهمّ أسبابِ تراجعِ المسلمين، وسقوطِ الخلافةِ، وانهيارِ الأُمَّةِ المحمَّديَّةِ.. كما أسفر ذلك عن انتشارِ الكُفرِ والشركِ، وأشكالٍ من الضلال بين صفوفِ الأسرةِ البشريةِ جمعاءَ.

إنَّ انتفاءَ الثقافةِ في الرجل العالِمِ خاصَّةً وحِرْمانَهُ منها، عَيبٌ شنيعٌ يدفعُهُ إلى متاهاتٍ من قِصَرِ النظَرِ والرأي الخاطئ، فيتحوَّلُ إلى رائدٍ من رُوَّادِ السُّنَّةِ السَّيِّئَةِ، يغترُّ الناسُ بالركون إليه، والاعتمادِ على آرائه وأقوالِهِ ومواقفهِ، وفتاواه. لأنه لا يُدرِكُ بِدْعِيَّةَ أشكالٍ كثيرةٍ من معتقدات الطبقة العاميَّةِ ومناسكِهِمْ التي استورثوها من آبائِهم الأوَّلين، والتي انتقلتْ إليهم عَبْرَ الإجيالِ بالتقليدِ المحضِ، كصلاةِ الرابطةِ التي يعبدُ فيها النقشبنديون مشائخَهم، واعتقادِ الصوفيَّةِ علمَ الغيب فيمن يُعَظِّمونهم بِسِمَةِ الأولياءِ، وبناءِ القِبَابِ عليهم، وغيرِها من معتقداتِ المشركين وعاداتهم..

فابنُ تيميةَ الحرَّانِيُ (مثلاً)، لو كان رَجلاً مثقَّفًا، وَمُشارِكًا في بعضِ العلوم النقليَّةِ (كتاريخِ الأديانِ والمذاهِبِ)، ومُتْقِنًا لِلُّغَةِ اليونانيَّةِ التي كان لها شأنٌ في عصرِهِ، بجانبِ ما كان يحظى به من أشتاتِ العلوم الدينية، لأهتدى بسهولةٍ إلى أنَّ كلمةَ "التَّصَوُّفِ" مأخوذةٌ من هذه اللُّغَةِ، ومُحَرَّفَةٌ من لفظِ "ثِيوظوفي Theosophy"، وليستْ مشتقَّةً من كلمةِ "الصوفِ"، كما يَزْعُمُهُ الصوفيةُ الجهلةُ المتطرِّفونَ، ولما قَسَمَ (ابنُ تيميةَ) التصوُّفَ إلى تصوُّفٍ إسلامِيٍّ، وتصوُّفٍ غَيْرِ إسلامِيٍّ! فقد التبسَ عليه مفهوما الزُّهْدِ والتقوَى بمفهوم التَّصَوُّفِ[219]، فشتَّانَ بينهما، وَبَعُدَتِ الشُّقَّةُ بَيْنَ الزهدِ وبين التصوفِ بُعْدَ السماءِ والأرضِ!

كذلك ابنُ حجرِ الهيتميُّ الفقيهُ الصوفِيُّ، يقول: في أخرِ فتاواهُ الحديثيَّةِ: "الطريقةُ العليَّةُ السالِمَةُ من كدوراتِ جَهَلَةِ الصوفيَّةِ هي الطريقة النقشبندية"[220] لقد كان ابنُ حجرٍ رجلاً متزمِّتًا على رغمِ باعهِ الطويلِ في علمِ الفقهِ، وإلْمَامِهِ بالحديثِ. لم يسبِق له أنْ اهتمَّ بشيءٍ من تاريخِ الأديانِ وَعِلْمِ الإجتماعِ. فكانَ جاهلاً بأساليبِ التضليلِ وحِيَلِ الزنادقةِ والمحرِّفين. لذلك تورَّطَ في مدحِ الطريقةِ

---

[219] يقول ابن تيمية في مجموعِ الفتاوى (**17/11**): "طائفة ذَمَّتْ الصوفيةَ والتصوُّفَ وقالوا أنهم مبتدعون خارجون عن السنة، ونُقِلَ عن طائفةٍ من الأئمةِ في ذلك من الكلام ما هو معرفون وتبعهم على ذلك طوائف من أهل الفقه والكلام وطائفة غلت فيهم وادعوا أنهم أفضل الخلق وأكملهم بعد الأنبياء وكلا طرفي هذه الأمور ذميم، والصواب أنهم مجتهدون في طاعةِ الله كما اجتهدَ غيرُهم من أهلِ طاعةِ الله، ففيهم السابق المقرب بحسب اجتهادِهِ، وفيهم المقتصد الذي هو من أهل اليمين، وفي كلٍّ من الصنفين من قد يجتهد فيخطيء وفيهم من يذنب فيتوب أو لا يتوب ومن المنتسبين إليهم من هو ظالم لنفسه عاص لِرَبِّهِ وقد انتسب إليهم من أهلِ البِدَعِ والزندقةِ، ولكن عند المحققين من أهل التصوف ليسوا منهم". هذه الكلمات كلها خلطٌ وعبثٌ من ابن تيمية لفقره الثقافي.

[220] الصفحة/**340**.

النقشبنديَّةِ في فتاواهُ على غيرِ بصيرةٍ، لِخُلُوِّهِ من المعرفةِ بما تعرضتْ له الطوائفُ الْمُنْتَسِبَةُ إلى الإسلامِ في بلادِ تُرْكِسْتَانَ وشبهِ القارَّةِ الهنديَّةِ من آثارِ عقائدِ البوذية والبرهمية والزرادشتية..

كذلك ابْنُ عابدين الفقيهُ الدمشقيُّ الذي كان ممن تَفَانَى في محبَّةِ خالد البغدادي الذي جاءَ بِزَنْدَقَةِ البوذيةِ وبثَّهَا في المجتمعِ العثمانيِّ فأضلَّ بها ملايين الناسِ. إنَّ هولاء العلماءَ وأمثالَهم ممن كانوا غافلين عن حقيقةِ كثيرٍ من مصطلحاتِ أهلِ الكفرِ، لِفقرِهِمْ الثقافِيِّ وجهلِهِمْ باللُّغَاتِ الإجنبيَّةِ، ولكونهم مُسْتَحْقِرِينَ مِلَّةَ الْكُفْرِ وما امتازوا بها من العلوم والمعارِفِ، تورَّطوا في أخطاءٍ جسيمة بتقييمِهِمْ السقيمِ لِطائفةٍ من مصطلحاتِ الكُفَّارِ والمشركين. لا شكَّ في أنَّ علماءَ الأُمَّةِ الذين عاشوا في ظل إمبراطورياتٍ إسلاميَّةٍ قويَّةٍ مهيبةٍ، كانوا يستخفُّون بِمِلَّةِ الكُفْرِ يستهترون بما لهم من علومٍ، وحضاراتٍ، وصناعاتٍ، وابتكارات... لم يكن موقفُ العلماءِ هذا منهم إلاَّ لأنَّهم كانوا كفارًا أو مشركين؛ فظلَّ هذا الموقفُ المكابِرُ الْمَرَضِيُّ متأصلاً في المسلمين حتى عرَّضهم للفشلِ الذريع، فأكبُّوا على وجوهِهم، فانهارتْ الأمَّةُ من جَرَّائِهِ في نهاية المطاف.

***

إنَّ التناقضاتِ الرهيبةَ التي يتقلَّبُ العالَمُ البشريُّ بين أمواجِها اليومَ عامَّةً، تُنْبِؤُنَا بأنَّ التقدُّمَ والإزدهارَ التقنيَّ والحضاريَّ الذي حقَّقَهُ الإنسانُ المعاصرُ لم يكفِ لإقامةِ الوزنِ بين العلمِ الأصولِيِّ والإطلاعِ الثقافِيِّ (بِخاصَّةِ الثقافِيَّةِ الأُميَّةِ). يدلُّ على هذه الحقيقةِ أنَّ الإنسانَ في جميع أنحاءِ العالمِ لم يزل، ولا يزال يضطرِبُ ويتذبذبُ بين هذين الحقلينِ من المعرفةِ؛ قِلَّةٌ تَخوضُ في بحرِ العلمِ الأصولِيِّ ويَتَعَامَى عن الجوِّ الثقافِيِّ العامِّيِّ الذي لا قيمةَ فيه لأحدٍ من العلماءِ ولا لشيءٍ من المؤسساتِ العلميَّةِ بجانب ما يملؤه من الزخارف والملهيات. هذه القِلَّةُ هم الأكاديميُّون ورجالُ العلم والبحثِ؛ بينما السوادُ الأعظمُ من العالمِ البشرِيِّ لا يعبأ بالعلم ولاَ بأدواتِهِ ودعائِمِهِ من الأدِلّةِ والبراهين، والوثائِقِ، وَالْمَخَابِرِ، والمكتباتِ المكتظَّةِ بأوعيَةِ المعارِفِ وابتكاراتِ العلماءِ... ترى مُعظَمَ الناسِ على مستوى العالَمِ البشرِيِّ غَرْقَى في مُستنقَعِ المنافسةِ المصلحية، مَثَلُهُمْ في ذلك لا يعدُو عن مَثَلِ الكلابِ التي تتهارَشُ على الجيفِ، تتصاعدُ أبْخِرَةُ الجهلِ النَّتِنِ من أفواهِ هذه الكثرةِ الهائلةِ حتى في أوروبا وأميركا واليابان، وهي أرقى بلاد العالمِ، وما بالُكَ بالناسِ في الشرق الأوسطِ، التي تحولتْ إلى ساحةٍ لِلْفِتَنِ المذابحِ والحروب!

نعم إنَّ الغالبيَّةَ العظمَى من الأسرةِ البشريةِ تتكوَّنُ منَ البُسَطَاءِ، والرُّزَالَةِ، والغَوْغَاءِ، وَالْحُثَالَةِ، وَالرَّعَاعِ... هذه حقيقةٌ واضحةٌ جليَّةٌ لا مِريةَ فيها. يدلُّ على ذلك ما جاءَ في مواطنَ من كتابِ اللهِ العزيز، واللهُ تعالى يقول: "وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ."؛[221] "وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ."؛[222] "وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ."؛[223] "وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ."؛[224] "فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا."[225].

هذا الغُثَاءُ الذي يطفو على نهرِ الزمانِ في كُلِّ عصرٍ، ويجري وراءَ سماسرةِ الدين ودَجَاجِلَةِ الديمقراطية وزبانيةِ العِلْمَانيةِ من غير وعيٍ في هذه الأيامِ بخاصَّةٍ؛ هذا الغُثَاءُ مغترٌّ بثقافتِهِ العامّيَّةَ والأُمّيَّةِ، فهو دائمًا آلةٌ في يدِ عصاباتِ الرأسماليَّةِ، وَمَافْيَا كُرَةِ الْقَدَمِ، والأحزابِ السياسيةِ، تتلاعبُ به، وتستغِلُّهُ، وتتسلَّقُ على أكتافِهِ لتَحْظَى بأكبرِ قدرٍ من السُّحتِ والحرام.

إذن يجب على كلِّ إنسانٍ مُتَفَتِّحٍ مُهَذَّبٍ ومحظوظٍ من العلم والثقافةِ (خاصَّةً الداعيةِ منهم)، أنْ يلتزمَ جانبَ الحيطةِ حِيَالَ رجلِ الشارع الراكِضِ من وراءِ مصالحِهِ وهو إنسانٌ عامّيٌّ والعوام كالهوامِّ أتباعُ كُلِّ ناعقٍ؛ فَرَجُلُ الشارعِ (في تركيا بِخاصَّةٍ) مقلّدٌ منسحبٌ إمَّا من وراءِ شيخٍ نقشبنديٍّ هندوسِيٍّ مشعوذٍ، أو تابعٌ لِرجلٍ سِيَاسِيٍّ غَشَّاشٍ فاسق.. كذلك يجبُ على المؤمنِ الفطنِ الْمُتَنَبِّهِ أن لا يدعَ الثقةَ في رجلِ العلمِ الأصولِيِّ الذي استقى جميعَ خبراتِهِ من الكتابِ فحسبُ وهو قابعٌ على نفسِهِ، مقطوعُ الصلة بالناسِ، يجهلُ ما يجري بينهم من معاملاتٍ ووِفاقٍ ونزاعٍ، لا حظَّ له من التجربة والحنكة عن ثغرات الحياة ومنعطفاتها. إنَّ هذين الفريقين، هما مِنْ أخطرِ مَنْ يلقاه الإنسانُ العالمُ المثقَّفُ، إذا كلّمَ الأصولِيَّ بلغةِ الثقافةِ، وخاطبَ الْمُتَثَقِّفَ بِلُغَةِ العلمِ! ذلك أنَّ مَنْ نشأ في جوِّ العلم الأصولِيِّ وقضى كُلَّ أيامِ شبابِهِ في التردُّدِ بين المنزلِ والمدرسةِ والجامعةِ والمخبرِ والمكتبَةِ، وحُرِمَ ثقافةَ عصرِهِ فإنَّهُ لا يعدو عن جهازِ تسجيلٍ، لا يشتغل إلاَّ بتحريكِ إنسانٍ له.

***

[221] (البقرة/**243**)، (غافر/**61**)، (يوسف/**21**)

[222] (الأعراف/**187**)، (يوسف/**21**)، (يوسف/**40**)، (يوسف/**68**)، (النحل/**38**)، (الروم/**6**)، (الروم/**30**)، (سبأ/**28**)، (سبأ/**36**)، (غافر/**57**)، (الجاسية/**26**)

[223] (هود/**17**)، (الرعد/**1**)، (غافر/**59**)

[224] (يوسف/**103**)

[225] (الإسراء/**89**)، (الفرقان/**50**).

20) الإنهيارُ الْخُلُقِيُّ:

إن الإنسانَ كائنٌ اجتماعِيٌّ، له علاقةٌ متعدِّدَةُ الوجوهِ مع أخيهِ الإنسانِ؛ كَعَلاَقَتِهِ القَرَابِيَّةِ، والْعَقَدِيَّةِ، والفكريَّةِ، والماليَّةِ، والسياسيَّةِ، والقوميَّةِ، والجِواريَّةِ ونحوها... يعني أنَّ هناك تعايشٌ وتفاعلٌ واحتكاكٌ متواصلٌ بين الإنسانِ وأخيهِ الإنسانِ، شاءَ أو أبَى، رَضِيَ أو لم يَرْضَ. وهذا يقتضِي منه أن يتعاملَ مع غيرِهِ (من أفرادِ المجتمعِ، كذلك مع القضايا) على أساسِ مبادِئَ معينةٍ، واحترامٍ متبادِلٍ، أكثرُها تصرُّفاتٌ أخلاقِيَّةٌ.

إنَّ هذه التصرفات، (وقد تتحوَّلُ إلى طبائعَ راسخةٍ في الإنسانِ) عُرِفَت بالْمُثُلِ العليا، ونالتْ من التأييدِ والتقديرِ على قدرٍ ثابتٍ طِوالَ تاريخِ البشريَّةِ لدى مُعظمِ الْمِلَلِ والنِّحَلِ، وهناك إتفاقٌ على أكثرِها، وهي منظومةٌ من الخصالِ الرفيعة، مُنْبَثَقَةٌ من الدِّينِ، والعُرْفِ، والتقاليدِ الإجتماعيَّةِ، مثلُ الحياءِ، وَالْعِفَّةِ، والوَقارِ، والحِيادِ، والعدالةِ، والإقتصادِ، والتواضُعِ، والإخلاصِ، والصراحةُ، والصدْقِ، والأمانةِ، والحِلْمِ، والصبرِ، والجُرْأةِ، والتَّبَصُّرِ، والْعَزِيمَةِ، والنشاطِ، والسخاءِ، وحسن الظنِّ، وإغاثةِ الملهوفِ، والوفاءِ بالعهدِ، ومساعدةِ المحتاجِ، ونُصْرَةِ المظلومِ، وتوقيرِ العالِمِ، واحترامِ ذِي الشيبِ، والرحمةِ بالصغيرِ والمنكوبِ، والأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عن المنكرِ... وقد تُسمَّى هذه الأوصافُ بـ"الفضائل"، وبـ"الخصال الحميدة"، وبـ"مكارم الأخلاقِ". هذه المزايا تُمثِّلُ ضَوَابِطَ عالَمِيَّةً شِبهَ مقدَّسَةٍ اتَّفَقَتْ عليها جماهيرُ الأمَمِ، فيتعذّرُ تجاوزُها لمن يتجرأ على التهاون بها، مخافةَ مقتِ المجتمعِ من جانبٍ، مع الاستشعارِ برقابةِ اللهِ من جانبٍ آخر.

وأضْدَادُهَا مرفوضةٌ يتعرَّضُ المتَّصِفُ بها للإدانةِ واللَّوْمِ والعتابِ، وقد يُعَاقَبُ ويُسْحَقُ، إذ لِمساوِي الأخلاقِ آثارٌ وخيمةٌ تنعكسُ على كُلِّ جوانبِ الحياةِ، تؤدِّي بالفردِ إلى سُبُلِ الإنحرافِ؛ تجلبُ القلقَ والإضطرابَ، وتُثيرُ الفِرْقَةَ، وتخلُقُ الفجوةَ بين عناصرِ المجتمعِ، فينهار لا محالةَ بانهيارِ الأخلاقِ. وهذا يذكِّرُنا بقولِ الشاعر أحمد شوقي: "إنما الأممُ الأخلاقُ ما بَقِيَتْ * فإنْ هُمُ ذَهَبَتْ أخْلاَقُهُمْ ذهبوا".

لا شكَّ في أنَّ لِمكارمِ الأخلاقِ دورٌ كبيرٌ في منعِ الإنسانِ من الإساءةِ والإجرامِ في ظلِّ غِيابِ القوانين. وهي دعامةٌ كُبرى يقوم عليها وجودُ أيِّ مجتمعٍ وحياتُها وَقُوَّتُها ونجاحُها ودِفاعُها في مواجهةِ التحدِّياتِ... وما مِنْ أسرةٍ، أو جماعةٍ بشريةٍ، أو دولةٍ أهملَها إلاَّ فقدتْ حيويَّتَهَا، واختَلَّ نظامُها، وانتشرَ فيها القلاقلُ والفوضَى، وتغلَّبَ القويُّ فيها على الضعيفِ، فتمكَّنَتْ أعداؤُها مِنَ القضاءِ عليهَا ولو بعد حين. يقول الإمَامُ السُّيُوطِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي كِتَابِهِ "حُسْن الْمُحَاضَرَة": "قَدْ أجْرَى اللهُ تَعَالَى عَادَتَهُ: إنَّ الْعَامَّةَ إذَا زَادَ فَسَادُهَا وَانْتَهَكُوا حُرُمَاتِ اللهِ، وَلَمْ تُقَمْ عَلَيْهِم الْحُدُودُ، أرْسَلَ اللهُ عَلَيْهِمْ آيَةً فِي إثْرِ آيَةٍ، فَإنْ لَمْ يَنْجَعْ ذَلِكَ فِيهِمْ أتَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ عِنِدِهِ، وَسَلَّطَ عَلَيْهِمْ مَنْ لاَ يَسْتَطِيعُونَ لَهُ دِفَاعًا"

تُذَكِّرُنا وضعُ المسلمين اليومَ بهذهِ المقولةِ الهامَّة. نعم، لقد خرجوا على هذه الضوابطِ العالَمِيَّةِ المقدَّسةِ التي يُرَكِّزُ عليها الكتابُ والسُّنَّةُ، وهانَ أمرُ الله عليهم، فهانوا على الله الواحدِ القهارِ، فسلَّط عليهم مَنْ لاَ يستطيعون له دفاعًا؛ سلَّطَ عليهم أميركا، وإسرائيلَ، ودولةَ المجوس، وجعل بَأْسَهُمْ فيما بينهم، تُحَارِبُهُمْ عشراتٌ بل مئاتٌ من التنظيمات الإرهابيَّةِ (كالعصابةِ اللادنيَّةِ، والداعشيَّةِ، والحُوثِيَّةِ، والْبُوكُوحَرَامِيَّةِ، وَالْفَتُّوشِيَّةِ، وبي كَ كَ، وDHKPC، وحزبِ الشيطانِ الرافضِيِّ اللبنانِيِّ، ومرتزقةِ النقشبندية، والأحزابِ السياسية، وعصابات المافيا)... لذا فإنَّ كلمةَ المسلمين اليومَ هي السُّفلى، ولأعدائِهم عليهم ألف سبيلٍ وسبيل؛ لأنَّهم ما عادوا يرجون لله وقارًا:

انْسلخُوا من الْقِيَمِ الإنسانيَّةِ: استبدلوا الفضيلةَ بالرذيلةِ؛ والاستقامةَ بالانحرافِ؛ وَالْحَيَاءَ بالوقاحةِ؛ والعفةَ بالفاحشةِ والمجونِ والدعارةِ؛ والوقارَ بالخفةِ والرُّعُونةِ والطيشِ؛ والحيادَ بالانحيازِ؛ والعدالةَ بالظُّلمِ؛ والإقتصادَ بالإسرافِ والتبذيرِ؛ والتواضعَ بالتفاخُرِ والتكبُّرِ والغطرسةِ؛ والإخلاصَ بالرياءِ والتملُّقِ والمداهنةِ والنفاقِ؛ والصِّدْقَ بالكذِبِ؛ والوفاءَ والأمانةَ بالخيانةِ والعمالةِ؛ والرزانةَ بالتهوُّرِ والغيظِ والغضبِ؛ والصراحةَ بالخداعِ والدسيسةِ؛ والإطمئنانَ بالشَّكِّ والتجسُّسِ؛ والصبرَ والسكينةَ بِالْجَزْعِ والقلقِ؛ والسعيَ والنشاطَ بالمسكنةِ والركونِ إلى الأرضِ، والتوحيدَ بِالْوَثَنِيَّةِ والتصوُّفِ وَالْقُبُورِيَّةِ... فشاعَ فيهم الفسادُ، وفشى فيهم الجهلُ، وانتشرت فيهم الكفرُ بأشكالِه الْخَمْسَةِ: (الشركِ، والإلحادِ، والنفاقِ، والزندقةِ، والردَّةِ)... والعياذ بالله! وهذه خطوطٌ عريضةٌ عن مشهدِ المسلمين في الوقت الراهن:

*** نبذَ "المسلمون" الأُخُوَّةَ في الله، واعتمدوا القوميَّةَ والعنصريَّةَ، وأصيبوا بمرضِ الأثرةِ والحرصِ على المصلحة الشخصيةِ؛ فتباغضوا وتناحروا، بعكس ما ورد في الكتاب العزيز من الوصايا بالتآخي والتساند والتآزر... يقولُ اللهُ تباركَ وتعالى: "إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُون."[226] ويقول تعالى: "يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ."[227] ويقول تعالى: "يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا، أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ، إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ."[228] ويقول تعالى: "وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَاب."[229] ويقول تعالى: "وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ."[230] ويقول الرسولُ ﷺ: "أَلاَ لاَ فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ، وَلاَ لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلاَ أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ، وَلاَ أَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، إِلاَّ بِالتَّقْوَى"[231] ويقول أيضًا: "إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ وَلاَ تَحَسَّسُوا وَلاَ تَجَسَّسُوا وَلاَ تَنَافَسُوا وَلاَ تَحَاسَدُوا وَلاَ تَبَاغَضُوا وَلاَ تَدَابَرُوا وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا"[232]**

والحال هذه، فإنَّ المجتمعاتِ التي تزعم أنَّها من أمةِ الإسلامِ لم تتورّعْ عن قهرِ إخْوَتِهِمْ من الأقلياتِ التي تعيشُ بين ظهرانِيها. فالأقلياتُ العرقيَّةُ والدينيَّةُ من الأكرادِ، والعربِ، والجماعاتُ السلفيَّةُ في تركيا وإيران؛ والسُّنِّيُّونَ عامَّةً، والأكرادُ، والتوركمانُ على وجه الخصوص في العراق وسوريا؛ وجماعةُ الإخوانِ المسلمين في مصر؛ والأمازيغُ، والطوارقُ في شمالِ إفريقيا؛ والبنغاليُّونَ والبشتون في باكستان؛ والأقليَّاتُ السلفيَّةُ من أهالي مناطقِ تركستان؛ وكثيرٌ من غيرِ هذه الْفِرَقِ الْعِرْقِيَّةِ والدينيَّةِ،

---

[226] **الحجرات/10**

[227] **الحجرات/13**

[228] **الحجرات/12**

[229] **المائدة/2**

[230] **آل عمران/103**

[231] **عَنْ أَبِي نَضْرَةَ، قَالَ: حَدَّثَنِي مَنْ سَمِعَ خُطْبَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي وَسَطِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ، فَقَالَ: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَلاَ إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ... إلى آخر الحديث. المصدر: غاية المقصد فى زوائد المسند، للحافظ علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي.**

[232] **عَنْ أَبِي الزِّنَادِ عَنِ الأَعْرَجِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي الصَّحِيحِ عَنْ يَحْيَى بْنِ يَحْيَى.**

تعرَّضوا في أوطانِهم لأشكالٍ رهيبةٍ تُثيرُ الدهشةَ من الإكراهِ والعنف والتنكيل. قُتِلَ منهم آلافٌ، كما تعرَّضَ مئاتُ آلافٍ منهم للتهميشِ والقمع والتشريد والتعذيبِ...

*** انتشرتْ المساوئُ الأخلاقيَّةُ بين كافةِ المجتمعاتِ الْمُنْتَسِبَةِ للإسلامِ بصورةٍ فظيعةٍ وحتى في تركيا التي تُعَدُّ أرقَى بلادِ "المسلمين". اختفتْ عقيدةُ التوحيدِ في هذا البلدِ وشاعَ الإلحادُ بين أهالِيهِ في أشكالٍ غريبةٍ بحيث لا يكادُ أحدٌ منهم ألاَّ وقد تلبَّسَ إمّا بجنايةِ الشركِ الصوفِيِّ العُنْصُرِيِّ، أو الإلحادِ الأتاتوركي؛ وَمَرَدُّ كِلَيْهِمَا إلى الديانةِ الْمُسْلُمَانِيَّةِ التي يعتنِقُها جميعُ الأتراكِ والأكرادِ، وبقيَّةُ الأقليَّاتِ التي فقدتْ ميزاتِها العرقيَّةَ واستَتْرَكتْ[233]. لذا يتعرّضُ أهلُ التوحيدِ في هذا البلدِ لألوانٍ من الإحتقارِ والتهديدِ والسحقِ والعنفِ؛ يعانِي أشدَّ العذابِ في طريقِهِ، وعملِهِ، وفي أثناءِ دراستِهِ وَرَحَلاَتِهِ، ومتابعةِ إجراءاتِهِ القانونيَّةِ، وحتى عند إقامتِهِ في دَارِهِ وهو مرفوضٌ ومُستهدَفٌ من قِبَلِ جيرانِهِ...**

[233] أي تَنَاسَتْ خصوصِيَّاتِهَا العرقيَّةَ، وتركتْ لغاتَهَا، مخافةَ أنْ تتعرَّض للعنف. انصهرَ كثيرٌ من أقلياتٍ عرقِيَّةٍ في المجتمعِ التركيِّ واختفى مُعظمُ مِيّزاتِهَا. يأتي على رأسِ هذه الأقلِّيَّاتِ: العربُ القاطنون في جنوبِي شرق تركيا. خَمْسُ مُدُنٍ في هذه المنطقةِ: أنطاكيا، وأورفا، وعينتاب، وماردين، وأسعرد، كلُّها تقعُ على تُخومِ سوريا والعراق: سكانُها ينتمون إلى قبائلَ عربيَّةٍ عريقة. أشهرُها: ربيعة، وبكر، وتغلب، ومضر، كذلك كُتَلٌ من القيسيين وبني هلال بمدينةِ أورفا وضواحيها، وبقايا من بني عمروٍ (أو بني عامرٍ) بمدينة عينتاب، وعائلاتٌ من بكر بمدينة ديار بكر... أكثرُهم انتقلوا إلى هذه البقاعِ أيامَ الفتحِ الإسلامِيِّ في جيشِ خالد بنِ الوليد، وعياض بن غنم، كما هاجر أفواجٌ من العرب إلى هذه المنطقةِ عَقِبَ سقوط الدولة العباسية على يد التاتار المغول عام **1258**م. ثم اتَّخذوها وطنًا وأقامو فيها. وهناك أيضًا عائلاتٌ من خزرج، وأوس، وبني هاشم، مبعثرةٌ في المنطقة نفسِها.

أمَّا سكانُ أنطاكيا، وأورفا (رَهَا) قديمًا، وماردين، وعينتاب، من هذه الأقلّياتِ العربيَّةِ؛ أغلبُهم احتفظوا بِلُغَتِهِمْ إلى اليومِ رغم الضغوطِ الشديدةِ التي تعرَّضُوا لها في العهدِ الجمهورِيِّ. ما زالوا يتكلَّمون بالعربية. لكنَّ جميعَ العربِ من مواطِني الدولةِ التركيةِ يجهلون الكتابةَ بالعربية، لأنها كانت ممنوعةً طوالَ ثمانين عامًا بموجب القانو، ثم أُلغِيَ القانونُ المذكورُ في عهد الرئيس ترغوت أوزال، وأُفْرِجَ عن اللغةِ العربيةِ بالقانون رقم: **2789/92**، الصادرِ بتاريخ: **20** مارس **1992**م. والذي نُشِرَ في الجريدةِ الرسمية رقم: **21177**.

هذا، ويجدر الإشارةُ بالمناسبةِ إلى سُكَّانِ مدينةِ أسعرد Siirt، الذين يكادون يفقِدُون هُوِيَّتَهُمْ العربيَّةَ تمامًا لِسَبَبَيْنِ رئيسين: أوَّلاً: لأنَّ أكثرَهم كانوا نصارى؛ فلمَّا عزمتْ الدولةُ العثمانيَّةُ (في عهدِ الإتّحاديّين) على إبادةِ الأرمن عام **1915**م. (وقد كانوا هم نصارى أيضًا)، دخلَ الذعرُ في نفوسِ أهلِ هذه المدينةِ أن يُصبحوا ضحيةَ الالتباسِ بالأرمن، فَتَشْمِلَهُمْ المذبحةُ. فتنكَّروا بالهويةِ الْمُسْلُمَانِيَّةِ–التركيةِ، فنجوا بذلك من الإبادة. ثانيًا: تقعُ مدينةُ أسْعِرْدَ في وسطِ منطقةٍ آهلةٍ بالأكراد. فكان سكانُ هذه المدينةِ العربيةِ يُكِنُّونَ للأكرادِ كراهيةً شديدةً؛ يحتقرونهم، ويستغِلُّونهم، وأحيانًا يسلبون بَضَائِعَهُمْ التي يأتون بها من قُرَاهُمْ يعرضونها للبيع. وذلك تزلُّفًا وتملُّقًا إلى الحكومة التركِيَّةِ على سبيل الاحتماءِ بها من بطشِ الأكراد. فلمّا استيقظَ الأكرادُ من نومتِهِمْ بعدَ العقدِ السادسِ من القرنِ العشرين، وبدأت النزعةُ القوميةُ تنتشر بين صفوفِهِمْ، بلغ خوفُ العربِ منهم إلى حدودِ الهلعِ، فتضاعف نفاقُهُمْ للحكومة التركية حتى أنكروا عروبِيَّتَهُمْ، وأخذوا يُسَمَّوْنَ أولادَهُمْ بأسماءَ تركية مثل: جَتِينْ Çetin، وَتَكِينْ Tekin، وَأُورْهَانْ Orhan، وَهَاكَانْ Hakan، وَأُوكْتَايْ Oktay، وَسَرْبِيلْ Serpil، وَبُورْجُو Burcu، وَدِيلَكْ Dilek،...إلخ. بعدَ أنْ كانو يُسَمَّوْنَهُمْ: محمَّد، وأحمد، وحسن، وحسين، وعلي، وصالح، وفاطمة، وعائشة، وخديجة، وليلى... إلخ. كل هذه السخافات إن دلَّتْ على شيءٍ فإنما تدلُّ على أنَّ المجتمعَ التركِيَّ يعاني من انهيارٍ خلقِيٍّ فظيعٍ يعجزُ اللسانُ عن وصفِهِ بخلافِ ما يبدو من ظاهره.

هناكَ تناقضاتٌ إلحاديةٌ مُدَمِّرَةٌ للْقِيَمِ الساميةِ والأخلاقِ الفاضلة؛ غابتْ في غِمارِها معالِمُ الإسلامِ، ولِلْمُسْلُمَانِيَّةِ بخاصّةٍ تأثيرٌ كبيرٌ في ظهورِهَا وتَفَاقُمِهَا. فكلُّ ظاهرةٍ إلحادِيَّةٍ لا شكَّ في أنَّها تساهِمُ في هدمِ الأخلاقِ، وينجُمُ منها الفوضى في العقيدةِ والفكر. وتَتَسَلْسَلُ السلبياتُ هكذا في توالٍ متواصلٍ تنعكسُ نتائجُها على جميعِ مجالاتِ الحياة من علاقاتٍ اجتماعيَّةٍ، وتوجُّهات سياسيَّةٍ، ومحصَّلاتٍ اقتصاديةٍ وتبعاتِها.

لقد بَلَغَ إسرافُ الناسِ في التَّقَوُّلِ على اللهِ، وعلى كتابِهِ، وعلى رسولِهِ، إلى حدودٍ لم يَعُدْ كثيرٌ من أفرادِ المجتمعِ التُّرْكِيِّ يبالون بما يَنْسِبُونَ إلى ربِّ العزَّةِ من البُهتانِ، والكذبِ على لسانِ نبيِّهِ، كُلَّمَا أتاحتْ لهم الفرصة. لأنَّ القوانينَ والضوابطَ في تركيا تخلو تمامًا من أدنى مادةٍ رادِعةٍ لهذه الجناية. فلا يجدُ الفردُ في هذا البلد أيَّ عقبةٍ تمنعُهُ من أنْ يَفْتَرِيَ على الله وعلى رسولِهِ لسببٍ غيرِ شديد. لذا كثيرٌ من الناسِ تراهم لا يتورَّعون من التَّفَوُّهِ بِ"قالَ اللهُ، أوْ قالَ النبيُّ كذا وكذا.." ذلك أسوةً بالزنادقة الذين انتهجوا هذه العادةَ منذ قرون.[234] "وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ."[235]

إنَّ أكبرَ فريةٍ تلبَّسَ بها الأتراك (ربما دون وعيٍ منهم بخطورتِها)، هو تَسْمِيَتُهُمْ للإسلامِ بـ"الْمُسْلُمَانِيَّةِ Müslümanlık"، وذلك أسوةً بمجوسِ الفرسِ الذين أطلقوا على الدِّينِ الحنيفِ اسمَ "مُسَلْمَانِي" بعد أنْ فَتَحَ المسلمون بلادَهُمْ، وَقَضَوْا على دولتِهِمْ. أطلقوا هذا الاسمَ الفارسيَّ على الإسلامِ

[234] على سبيل المثال، يقول الشاعر سليما تشلبي، (وهو مؤلف المولد النبوي باللغة التركية)، يزعم أنَّ النبي ﷺ رأى الله تعالى ليلة المعراج بأم عينيه في اليقظة يقول في بيت من قصيدته:

Aşikâre gördü Rabbül izzeti,
Ahirette öyle görür ümmeti…

بينما الحقيقةُ خلافُ ذلك. وقولهُ هذا فِرْيَةٌ على اللهِ وعلى رسولِهِ! قد ورد في حديثٍ مرفوعٍ عن مَسْرُوقٍ، قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فَقَالَتْ: ثَلاثٌ مَنْ تَكَلَّمَ بِوَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللَّهِ الْفِرْيَةَ: مَنْ زَعَمَ أَنَّ مُحَمَّدًا رَأَى رَبَّهُ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللَّهِ الْفِرْيَةَ، قَالَ: وَكُنْتُ مُتَّكِئًا فَجَلَسْتُ وَقُلْتُ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، انْظُرِي وَلا تَعْجَلِي، أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ: وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى سورة (النجم/**13**) وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ. (التكوير/**23**) فَقَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَا أَوَّلُ هَذِهِ الأُمَّةِ سَأَلْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: "ذَلِكَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلامُ، وَلَمْ أَرَهُ فِي صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا إِلا مَرَّتَيْنِ، رَأَيْتُهُ قَدْ هَبَطَ مِنَ السَّمَاءِ فَسَدَّ جِسْمُهُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ." أَلَمْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ. (الأنعام/**103**). قَالَ مَسْرُوقٌ: "تَفْسِيرُ هَذِهِ الآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى مَا رَوَتْ عَائِشَةُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى. (النجم/**11**) لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى. (النجم/**18**)".

هذا، ويتجرّأ كثيرٌ من الناسِ في تركيا أن يفترُوا على النبي ﷺ بأسنادِ مَا لَمْ يَقُلْهُ إليه أبدًا، ومَا لا يليقُ بِشَأْنِهِ عليه السلام أنْ يَتَلَفَّظَ به على الإطلاق. كزعمِهم على لِسَانِهِ: "أَنَا عَرَبِيٌّ وَلَيْسَ الْعَرَبُ مِنّي"!

[235] هود/**18**.

ليتمايزوا بذلك عن بقيَّةِ المسلمين (على رأسِهم العرب) في انتمائِهِمْ لهذا الدِّينِ مِمَّا يدلُّ على نفاقِهِمْ وسوءِ طويَّتِهِمْ، وحِقْدِهِمْ على الأمَّةِ المحمديَّةِ.

ولَمَّا كان بلادُ التُّرْكِ (في قديمِ أيَّامِهِم) مُلاَصِقَةً بالمنطقةِ الفارسيةِ (بالاضافةِ إلى أنَّ جماهيرَ الأتراكِ انتشروا في الْمُدُنِ الإيرانيَّةِ وأقاموا بها قرونًا قبل هِجرتِهِمْ إلى موطنِهم الحالي: تركيا)، أخذوا الشيءَ الكثيرَ من معتقداتِ المجوسِ، والمذهبِ الرافضِيِّ، والثقافةِ الفارسيَّةِ، من ضمنِها: تسميتُهُمْ للإسلامِ بـ"الْمُسْلُمَانِيَّةِ"، وهذا بهتانٌ عظيم.

إذ أنَّ كلماتِ القرآنِ كُلَّهَا توقيفيَّةٌ، ولفظُ (الإسلامِ) وردَ في القرآنِ الكريمِ أربعَ مَرَّاتٍ،[236] منها قوله تعالى: "إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَام."[237] بخاصةٍ، قد جاءت فيه كلمةُ "الإسلامِ" اسمًا مؤكَّدًا لهذا الدين. فيتبيَّنُ من خلالِ هذا البرهانِ القاطعِ والْحُجَّةِ البالغةِ: أنَّ الدِّينَ الحنيفَ الذي بعثَ الله به محمدًّا، وارتضاهُ لأمَّةِ هذا النبي الكريمِ ﷺ من عبادِهِ، لا يجوزُ تسميتُهُ بغيرِ هذا الإسم أبدًا. وأمَّا بعضُ الإطلاقاتِ التي وردتْ على ألسنةِ الناسِ كقولِهِمْ: "الدِّين الحنيف" و"الدِّين المحمديّ" و"الدِّين المبين" فإنَّها تُعَدُّ من أوصافِ البيانِ له، ونوعًا من التعريفِ به، وإجلالِ شأنِهِ، كما لها أصلٌ في الكتابِ والسُّنَّةِ. وأمَّا كلٌّ مِنْ كلمَتَيْ: «Müslümanlık» في التركية، و"مُسَلْمَانِي" في اللغةِ الفارسيَّةِ، فلا يجوزُ تسميةُ الدِّينِ الإسلامِيِّ بهما على الإطلاقِ؛ لأنَّهما كلمتان مُحَرَّفَتَانِ من لفظِ (مُسلم) تحريفًا شنيعًا، ولا صلةَ لهما بكلمةِ "الإسلام"، لفظًا ومعنىً، فلا يجوز ترجمةُ كلمة (الإسلامِ) بهما.

قد يتسائلُ البعضُ عن المناسبةِ بين هذه التسميَّةِ وبين الفسادِ الأخلاقِيِّ: هل يجوزُ عُرفًا أن تُعَدَّ هذه التسميةُ نوعًا من الوقاحةِ مثلاً؟ نعم، إنه ما من شكٍّ في أنَّ الجرأةَ على اللهِ بتغييرِ هذا الاسمِ – نظرًا لعظمةِ الجنايةِ – تُعَدُّ مِنَ الوقاحَةِ بأشدِّ ما تكون، بل هي أصلُ كلِّ وقاحةٍ اقترفها المعتنقون لهذا الدِّين الخالِي من كلِّ فضيلةٍ. ذلك أنَّ الْمُسْلُمَانِيَّة Müslümanlık تحوي في بطنِها من كلِّ بدعةٍ وضلالةٍ. ومن أبشعِ هذه الضلالاتِ أنَّ غِلاَفَها الخارجِيَ (الذي تتوارى بها من أنظارِ الأغبياءِ والجهلة) منسوجٌ من لبناتٍ سُرِقَتْ من الإسلام؛ كالصلاةِ، والصومِ، والحجِّ، والزكاةِ، والأضحية

[236] كلمة الإسلام وردت في أربع آيات من القرآن الكريم: **1**) آل عمران/**19**، **2**) آل عمران/**85**، **3**) المائدة/**3**، الصف/**7**.

[237] آل عمران/**19**

وغيرها... إنَّ هذه الحيلةَ، اقترفها مجوسُ الفرسِ أصلاً، ثمَّ وقع الأتراكُ في كمينهم (ربما دون وعيٍ)، وذلك بسببِ العجمةِ وهي بَلِيَّةٌ عظيمةٌ وعَقَبَةٌ أمامَ كلِّ مَنْ يتوجَّهُ إلى المعرفةِ بأسرارِ الكونِ والحياةِ.

أمَّا الأتراك، كما يقول الدكتور طاهر سليمان حمودة: "قد دِيفَتْ بالعجمة ألسنتُهم وبالرغم من تعلُّمِ كثيرين منهم العربيَّةَ لكونها لغةَ الدِّينِ والعلومِ فإنهم– في الغالب– افتقروا إلى الفصاحة فيها"[238] على مدى تاريخهم. وقد أنْهَكَتْهُمُ الْعُجْمَةُ في هذا العصرِ بخاصَّةٍ، ودفعتْهم إلى متاهاتٍ من الفسادِ الأخلاقي؛ معظمُها ناشئةٌ من الثغراتِ التي أسفرَتْ عنها المسلمانيَّةُ من الشعوذةِ والتصوُّفِ والقبوريَّةِ والوثنية.

يبدو أن الفجوةَ التي أحدثها الإنحرافُ عن الخطِّ الإسلامِيِّ المستقيمِ منذ قرونٍ، بعد وجودِ رُكامٍ من المعتقداتِ الباطلة، ورسوخِها في أعماقِ ضميرِ المجتمعِ التركِيِّ، قد يستحيلُ سدُّها تمامًا (بعد اليومِ، وقد فاتتْ الفرصةُ) مهما بلغت الجهودُ الإرشاديَّةُ كما لو اكترثَ لِمُعالَجتِها جمهورٌ من العلماءِ المصلحين. ذلك لأنَّ الفسادَ الأخلاقِيَّ المتفشِّيَ في هذا المجتمعِ مردُّهُ في الأصلِ إلى الفسادِ في الْمُعْتَقَدِ، وهو راسخٌ في الضمائرِ رسوخَ أسُسِ ناطحاتِ السحابِ في أعماقِ الأرض. وهذا ما يُلْفِتُ النطرَ إلى الفوارِقِ التي تُمَيِّزُ الإسلامَ عن المسلمانيَّةِ. ومن أعظم الفوارق بينهما: أنَّ الْمُسْلُمَانِيَّةَ خاليَةٌ من الأحكامِ تمامًا على غرار المسيحيَّةِ. لا حلالَ فيها ولا حرامَ.

فالكذبُ والغشُّ (على سبيل المثال)، حلالٌ عندَ معظم الْمُعْتَنِقِينَ لِلْمُسْلُمَانِيَّةِ، وهما متفشيان في المجتمعِ التركِيِّ، يدلُّ على ذلك شيوع أخبارِ الكذب والغش عبر وسائل الإعلامِ التركي يوميًا وبدون انقطاع. والبرهانُ على ذلك: بياناتٌ واعترافاتٌ لاحصر لها وردت على لسان جمهورٍ من الكتابِ والمثقفين والأكاديميين الأتراك...[239]

---

[238] طاهر سليمان حمودة، جلال الدين السيوطي عصره وحياته وآثاره وجهوده في الدرس اللغوي. المكتب الاسلامى، بيروت – 1989م.

[239] يقول أحد الأساتذة الجامعيين المتخصص في علوم النفس يدعى الأستاذ الدكتور نوزاد ترخان:

« Yeni MİT yasasında yalan makinelerinin kullanılabileceğine dair düzenlemeler yapılmasından sonra, Üsküdar Üniversitesi, Türk tipi yalan makinesi geliştirilmesi için çalışma başlattı. Üniversite'nin Kurucu Rektörü Prof. Psikiyatr Nevzat Tarhan'a göre, batıda geliştirilen kişilik testleri gibi, yalan makineleri de işlevsel olmayabilir çünkü doğu ve batı toplumlarının yalan algısı birbirinden farklı. Al Jazeera'nin sorularını yanıtlayan Tarhan'a göre, eğitim sistemi çıkar odaklı birey yetiştirdiği ve değer eğitimi vermede başarısız olduğu için Türkiye'de en çok yalanı eğitimliler söylüyor,»

كان الناسُ قديمًا يقتبسون من الإسلامِ قِيَمًا أخلاقِيَّةً ينطلقون منها ويتصرَّفون على أساسِها برغم اختلافِهم في الدِّينِ مع المسلمين الذين كانوا يعيشون بين ظهرانيهم، إذ أنَّ المجتمعَ التُّرْكِيَّ ليسَ بِكُلِّيَّتِهِ يعتنقُ الْمُسْلُمَانِيَّةَ Müslümanlık، بل كانت ولا تزال فيه جماعاتٌ من المسلمين على عقيدةِ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ، يُوَحِّدونَ اللهَ ولاَ يشركون به شيئًا، وإن كانوا قِلَّةً في أيَّامِنا على وجه الخصوص.

تمرُّ تركيا اليومَ بمرحلةٍ رهيبةٍ من الإنهيارِ الأخلاقِيِّ، والطامَّةُ الكبرى أنَّ تدميرَ الأخلاقِ يتم باستخدامِ آليةِ الدِّين. وآخر ما يبرهن على هذه الحقيقة يظهر بصورة واضحةٍ من خلال المؤامراتِ السياسيَّةِ التي قامت بها جماعةٌ من أتباعِ فتح الله گولن (وهو رجل دين)، ضد أردوغان، وحكومةِ حزبِ العدالةِ والتنمية. افتضحَ الرَّجُلُ والحكومةُ معًا في الصراع الذي اندلع بينهما بدءًا بأحداثِ 17 ديسمبر عام 2013م. فهَبَّتْ على أثرِ هذه الإنطلاقةِ الجريئَةِ التي قامتْ بها أتباعُ فتح الله گولن كتهديدٍ مُوَجَّهٍ لحكومةِ أردوغان، هَبَّتْ عاصفةٌ من الْفِتَن، ما زال معظمُ أسرارِها خافيةً حتى الآن.

استطاع گولن بِدَهَائِهِ، وذَكَائِهِ، وَلَبَاقَتِهِ، وَتَلَوُّنِهِ الشمطائيِّ أنْ يربطَ قلوبَ ملايين من الأتراك إلى نفسهِ بِتَنَطُّعَاتِهِ ومراوغاتِهِ الدَّجَلِيَّةِ التي سَحَرَ بِهَا مَسَامِعَهُمْ، كما استطاع بِنَحِيبِهِ وَبُكَائِهِ الْحَرِّ أثناءَ خطابِهِ أنْ يغسلَ أدمغتَهم طِوالَ أربعين عامًا، فتحوَّلَ آلافٌ منهم إلى دُمًى يتلاعب بهم، وهم رهنُ إشارتِهِ بحيث لو أمرَ أحدَهم أنْ يُلقِيَ نِفَسِهِ في النارِ لألقاها فيها من غير أدنى تردُّد. اختارَ من ضِمْنِ هذا الجمعِ الغفيرِ عناصرَ يثقُ بإخلاصِهم ممن احتلُّوا مناصبَ عاليَةً في مؤسَّساتِ الدولة، كما أعدَّ من بينهم شرذمةً من الضُّبَّاطِ المغترِّين به؛ نفخ في روعِهم ما يستحيلُ ضبطُهُ من ضروبِ البهتانِ على اللهِ وعلى رسولِهِ وعلى كتابِهِ، وملأَ صدورَهم بالحِقدِ والغيظِ والعداوَةِ على رجب طيب أردوغان "بأنه على دينِ العربِ، (أي الإسلامِ!)، ويَكْفُرُ بِالْمُسْلُمَانِيَّةِ"، فدسَّ هؤلاءِ المغفَّلِين في صفوفِ الجيشِ التُّرْكِيِّ، فتورَّطُوا في مؤامرةِ انقلابٍ عسكريٍّ للإطاحةِ بالرئيس أردوغان،[240] ليلةَ 15 تموز من عامِ 2016م. إلاَّ أنهم ما لبثوا حتى فَشِلُوا خلالَ ساعاتٍ معدودة، وأُلقِيَ القبضُ على

---

[240] هذه قائمة الخسارات البشرية التي أسفرتْ عن الانقلاب الفاشل في 15 تموز 2016م.:

* عدد القتلى من المواطنين الذين خرجوا لإحْبَاطِ الإنقلاب: 246 شخصًا.
* عدد الجرحى برصاصات الإنقلابيِّين: 535 شخصًا.
* عدد المتهمين من الإنقلابيّين الذين تمَّ القبض عليهم: 260 113 شخصًا.
* عدد المتمرّدين من الإنقلابيّين الْمُعْتَقَلِينَ منهم: 155 47 شخصًا.
* عدد المطلوبين من الإنقلابيّين: 863 شخصًا.

أكثرِهم. كان هذا التمرّدُ بإيغازٍ من فتح الله گولن، وباستخدامِهِ آلية الدِّين. وأمّا فتح الله گولن الذي طارَ خبرُهُ في الآفاقِ خاصَّةً بعد هذه الفتنةِ التي حَاكَهَا، فسوفَ يُشَمِّرُ الباحثون عن ساعدِ اجتهادِهم لكشفِ اللثامِ عن أسرارِ مغامراتِهِ ولن ينتهوا منها بسهولة.

شهدت تركيا صباحَ يوم **17** ديسمبر من عام **2013**م. محاولةً انقلابيةً على الحكومةِ التركيَّةِ (المنبثقةِ من حزبِ العدالةِ والتنميةِ التابعةِ للرئيس رجب طيب أردوغان) بِتُهْمَةِ "الفسادِ والرشوةِ" الْمُوَجَّهَةِ إلى عددٍ من الوُزَرَاءِ وأصحابِ المناصب. تورّطَ في هذهِ المؤامرةِ جماعةٌ من أعضاءِ الجهازين الأمنيّ والقضائيّ التَّابِعَيْنِ لِلْخُوَاجَه فتح الله گولن المسؤولِ عن تنظيمٍ سِرّيٍّ قام بإعدادِهِ منذ أربعين عامًا، يُقَدَّرُ عددُ أعضائِهِ بمئات الألوفِ، وقد بثَّهُمْ في قلبِ الدولةِ التركية. بدؤا يتحكَّمون في مؤسَّساتها منذ أعوامٍ وهم يترابطون فيما بينهم بِسِرِّيَّةٍ لم تتمكَّنْ جهازُ المخابرات التركية من كشفِها حتى منتصف سنة **2013**م.

لقد كان أردوغان على علمٍ بهذا التنظيمِ وهَيْمَنَتِهِ على الدولةِ التركيَّةِ وخطورَتِهِ منذ فترةٍ، إلاَّ أنَّه لم يكن واثقًا من نفسِهِ على إحباطِ هذه الشبكة، لِعُمْقِ توغُّلِها في جميعِ المؤسَّسات. خاصةً وأنَّ قمَّةَ هرمِها (فتح الله گولن) يقيمُ في الولاياتِ المتحدةِ، ويديرُها بالتنسيقِ مع شبكاتٍ استخباراتيَّةٍ أميركية. فانتهج أردوغان أسلوبًا مَرِنا في التعامل معه وهو يتحيَّنُ الفرصةَ لينقضَّ على تَنْظِيمِهِ في مُقْبِلٍ قريب. فكان يتملَّقُ إلى فتح الله گولن في كُلِّ مناسبةٍ ليكسبَ دَعْمَهُ، فنجحَ في ذلك أيَّامَ الإستفتاءِ على مشروعِ تعديلِ الدسوتور، فَحَيَّاهُ على تعاوُنِهِ معهُ من شُرْفَةِ مركزِ حزبِ العدالة والتنمية بأنقره وهو يقول: "أُحَيِّ جميعَ أخوتي في أنحاءِ العالَمِ، والذين قدَّموا دَعْمَهُمْ من وراءِ المحيطِ الأطلسي، (يقصد فتح الله گولن) وَأُبَارِكُ لهم". كان ذلك ليلة **12** أيلول **2010**م.

لكنه لم يلبث حتى تنكَّر لصاحِبِهِ واستعدَّ للكشفِ عن فضائحه، فبدأ يتَّخِذُ التدابير اللازمة ليقتلع جذور هذه العصابة من مؤسساتِ الدولةِ ويستأصِلَ شَأْفَتَهَا. ولم يكن أردوغان أقلَّ من فتح الله گولن دهاءًا وحنكةً في تدبيرِ المؤمرات. كما لا شكَّ في أنَّ أردوغان أيضًا – على غرارِ مصطفى كمال وكثير من زعماء الأتراك – يملك زمامَ ملايين مِمَّنْ نالوا ثقتَهُ، ولا عجب أنَّه مُدَرَّعٌ بعصابةٍ عملاقةٍ أقوى من تنظيم فتح الله گولن، أفرادُهَا متفانون فيه، متهالكون في محبَّتِهِ، بينهم فِدائيُّون بارعون في أفانين القتالِ، يعيشون في حالةٍ طارئةٍ ليقوموا بتنفيذِ أمرِهِ في لمحةِ البصرِ دون أن يتعرَّضوا لأدنى ملاحقةٍ أو إدانةٍ أو عقوبة!

قيل: إنَّ أردوغان لَمَّا عقدَ عزمَهُ على إحباطِ هذا التنظيم، بعد أنْ تمكَّنَ من المعرفةِ ببرنامجِ الإنقلابيّين ضدَّهُ، دسَّ بين صفوفِهِمْ مَنْ يُحَرِّكُهُمْ للنهوضِ قبلَ الساعةِ المقرَّرَةِ للانقلابِ، لِيَرْتَبِكُوا في أمرهم فتسرعَ إليهم الهزيمةُ! ولمَّا تأكّدَ قمةُ التنظِيمِ أنَّ الحكومةَ على علمٍ بتدبيرهم، فما كان منهم إلاَّ أن انطلقوا للانقضاضِ عليها قبل الساعة المقرَّرةِ، وقبل أن يستكملوا ترتيباتِهم للخروجِ. وقد كانت عصابةُ أردوغان أَعَدَّتْ عُدَّتَهَا للمواجهة منذ أيام. فاستطاعتْ أن تسحبَ ملايينَ الصوفيَّةِ النقشبنديّين إلى الشارعِ في جميع مدنِ تركيا لايقافِ المتمرّدين وصدِّهِمْ وإحباطِهِمْ. فانتهى الأمرُ بنجاحِ أردوغان، وفَشِلَ الإنقلابيُّون وهم الآن ينتظرون عاقبَتَهُم في السجون.

كان هذا غيضًا من فيضٍ من الفضائحِ السياسيَّةِ التي تتمرَّغُ الدولةُ التركيَّةُ اليومَ في أوْحَالِهَا. يدلُّ على ذلك في الْمُقَامِ الأوَّل؛ تصرُّفاتُ النوَّابِ وأساليبُ نقاشِهِمْ، وتشنيعُ بعضِهِم البعضَ في وسطِ عَوَاصِفَ مِنَ سبابٍ وملاكمة... لقد كان السياسيُّون الأتراك ولا يزالُ بعضُهم ينهالُ على بعضٍ بأبشعِ ألفاظِ الشتمِ تحت سقفِ البرلمان، وتجري هناك يوميًّا هجماتٌ وعِراكٌ بين أعضاءِ الأحزاب السياسيةِ؛ نائبٌ يَعُضُّ ساقَ نائب، والآخَرُ يهشم أنف أحد المعارضين، بينما السقوطُ الأخلاقِيُّ في تركيا لا تنحصرُ في إطارِ فضائحِ السياسيّين وحسب، بل الفسادُ والغشُّ والفاحشةُ والإنحرافُ والشذوذُ والخيانةُ والطائفيَّةُ والمذهبيَّةُ والقبوريَّةُ والسطوُ والإرهابُ واللُّصُوصِيَّةُ وغيرُهَا من الفوضى السلوكيةِ والفكريَّةِ والعقديَّةِ مستفحِلةٌ ومتفشّيَةٌ في جميعِ أنحاءِ البلدِ، خاصةً في المدن الكبيرة. وما أدلَّ على ذلكَ أنه لا يخلو منزلٌ ولا محلٌّ تجارِيٌّ إلاَّ وقد اقْتَحَمَهُ لُصُوصٌ ونهبوه، رغم كثرةِ (الكاميرات) المعلّقَةِ على الأبنية والأبوابِ والأسوارِ. ولما انتشر الذُّعْرُ بين العامّةِ بعدَ شيوعِ اللُّصُوصِيةِ في الْمُدُنِ، أصبح من العادةِ إنشاءُ أحياءٍ مُرَكَّبَةٍ complex ومحصَّنةٍ باسوارٍ عُلِّقَتْ عليها أجهزةُ الرقابة الألكترونيَّةُ وأحيطَتْ بأسلاكٍ شائِكةٍ، لكل من هذه الأحياءِ بَوَّابَةٌ يراقِبُ عليها حَارِسٌ مُسَلَّح.

لعل قائلاً يحاولُ أن يُخْفِيَ هذا السقوطَ بقوله: "إنَّ أيَّ مجتمعٍ لا يخلو من هذه السلبياتِ، وهي عيوبٌ طفيفةٌ ومحدودةٌ لا يجوز تشميلُها على مجتمعٍ بأكملِهِ!" نعم، إنَّ هذه التسليةَ الواهيةَ قد يُرِيحُ بها كثيرٌ من الناسِ أنفسَهم في منطقةِ الشرقِ الأوسطِ (وتركيا بُقْعَةٌ منها)، لكنَّ المشهدَ واضحٌ وضوحَ الشمسِ في ربوع النهار، ولا يسعُ المقامُ لعدِّ ما فيه من المساوي، كما يُغْنِي ذلك عن كلِّ دليلٍ، لكثرةِ ما يبدو من خلالِهِ من تجاوز حدودِ الله بارتكابِ الجنايات، والقتالِ والتناحُرِ والتلبُّسِ

بألوانِ الرذيلةِ في كلِّ ناحيةٍ منها. فقد أهانَ اللهُ سُكَّانَ هذه المنطقة الخطيرة؛ فسلَّطَ عليهم اليهودَ، والنصارى، ومجوسَ الفُرسِ، وضرب عليهم الذلةَ والمسكنةَ... وَمَن يُهِنِ اللهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ، إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآء. (الحج/18).

إنَّ الجهودَ الْمُسْتَمِيتَةَ التي تبذُلُها تركيا في هذهِ المرحلةِ لنشرِ التَّدَيُّنِ الصوفِيّ، والإعتزازِ بأمجادِ العثمانيّين، وتأليهِ التاريخِ من خلالِ الخطابِ الدِينِيّ وأجهزةِ الإعلامِ، ليستْ إلاَّ لإخفاءِ هذا المشهدِ الْمُفْعَمِ بالمساوي، وهل من محيص!

***

21) الفوضَى الدِينِيُّ:

إن الفوضَى السائدةَ على الفكرِ البشرِيّ في كلِّ العصورِ، ناشئةٌ من طبيعةِ الحياةِ. وَالحياةُ حربٌ عالميَّةٌ بدون توقُّفٍ وبلا ضوابط. فالإنسانُ والْحَيَوَانُ والنباتُ كلُّها في حربٍ شعواءَ مع نفسِها ومع بيئتِها ومع كلِّ شيءٍ... لقد حارتْ العقولُ في فهمِ أسرارِ هذه الحرب، ولن تتمكّنَ نفسٌ من الإطلاعِ على حقيقتِها إلاَّ بقدرِ ما كَشَفَ لها فاطرُ الكونِ جلَّ سلطانُهُ في قولهِ: "خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً..."[241] ولو لا أَلْهَمَهَا خالِقُها فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا لَمَا تعرَّفتْ أبدًا على مفهومِ السلمِ، ولسادتْ قانونُ الغابةِ على الحياةِ كلِّهَا، واستغرقتْ البشريةُ في أتونِ المعاركِ بلا هوادةٍ، وَظَلَّ يتشحَّطُ الإنسانُ في دَمِهِ إلى يومِ القيامةِ.

ولكنَّ اللهَ تعالى رَسَمَ للإنسانِ طريقَ الهدايةِ فيما أنزلَ على رُسُلِهِ من الشرائعِ والمواعظِ وَالْحِكَمِ، وهم صفوةٌ من خلقهِ، فبلَّغوا رسالاتِهِ، وأرشدوا عبادَهُ إلى الصراطِ المستقيم. فَتَجَلَّتْ كُلُّ شريعةٍ ملائِمَةً للعصر الذي أنزلتْ فيه وعلى أساسِ التوقيفيَّةِ وَالإيمانِ باللهِ تعالى وتخصيصهِ بالعبوديَّةِ وتنزيهِهِ من كُلِّ عيبٍ ونقص. وهو القاعدةُ المشتركةُ لجميعِ الشرائعِ التي يشملها مفهوم "الدِّينِ الحقِّ" ألاَ وهو الإسلام.

[241] الملك/2.

لقد تعرّضَتْ جميعُ الشرائعِ السابقةِ للتحريفِ والتبديل، لإخلالِ منتسبيها مبدأَ التوقيفيَّةِ، فوقعَ أتباعُها ولا يزالون في اختلافٍ على نصوصِها إلى يوم القيامة، إلاَّ القرآن الكريم، فقد تولَّى اللهُ تبارك وتعالى حفظَهُ؛ قال تعالى: "إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُون."[242] نعم، لن ينالَ نصوصَهُ شيءٌ من التحريفِ والتبديلِ، بخلافِ الكُتُبِ التي أُنزِلَتْ من قبلُ. فقد قَيَّضَ الله سبحانه طائفةً من عبادِهِ في كلِّ عصرٍ، تحفَظُ كتابَهُ عن ظهرِ قلبٍ، كما هو محفوظٌ بالكتابةِ. "فلو حاولَ إنسانٌ أن يُغَيِّرَ شكلةً في آيةٍ فأرادَ أنْ يجعلَ الرفعَ نصبًا أو النصبَ خفضًا؛ فإنَّهُ لا يستطيعُ، وَلَرَدَّ عليهِ حتّى الصبيانُ الذين في المدارسِ، وهذا من حفظِ اللهِ له، بخلافِ الكُتُبِ السابِقَةِ فإنَّ أهلَها لم يحفظوها."[243]

لكنَّ المسلمين حَرَّفُوا مَعَانِيَهُ (بالتأويل والتعطيل) إمّا لِقِصَرِ نظرِهِمْ (كما فعله الخوارجُ، والمعتزلةُ، والْجهميَّةُ)، وإمَّا بأهوائِهِمْ تعمُّدًا (كما فعله الزنادقة، والصوفية، والرَّافِضَةُ)، وإمّا لِجَهْلِهِمْ (كما فعله السُّذَّجُ من رجالِ الدين، وَالْقُطْعَانِ التابعةِ لهم من العامَّةِ)... وهكذا بدأتِ الفوضَى في العقيدةِ بعد عصرِ السلفِ الصالحِ، لكنَّهُ يُفْتَرَضُ أنَّ أكثريةَ الأُمَّةِ كانتْ على عقيدةِ أهلِ السنَّةِ والجماعةِ في ظاهرِهَا إلى مُنْتَصِفِ العهدِ العباسِيّ، والله وحده يتولى السرائر.

أمّا اليوم؛ فقد بلغتْ الفوضَى في عمومِ الدِّينِ سواءٍ في العقيدةِ والعمل. وبقِيَ أهلُ التوحيدِ الخالصِ أقلِّيَّةً مُبَعْثَرَةً في أنحاءِ الوطنِ الإسلامِيّ، وهم مُسْتَضْعَفُونَ، ومعرَّضونَ للتشريدِ والقمعِ والإبادةِ؛ قلَّةٌ منهم يقيمون في أوروبا والولاياتِ المتَّحدةِ الأميركيَّةِ، اضطرُّوا أن يتركوا أوطانَهم فنَجَوْا بأنفسِهِمْ هَرَبًا من القتلِ. وشرذمةٌ من جَهَلَتِهِمْ وقعوا في حبالِ العصاباتِ الإرهابيَّةِ الْمُؤَلَّفَةِ من خوارج العصر، لِجَهْلِهِمْ بحقيقةِ تلك العصاباتِ، ظنُّوا أنَّها كتائبُ الجهادِ حملتِ السلاحَ لإنقاذ الأمة!.

إنَّ هذا المشهدَ المأساوِيَّ يُلفِتُ هنا الإنتباهَ إلى (أسبابِ الفوضَي في الدِّينِ) على مستوى العالَمِ الإسلامِيِّ وهي كثيرةٌ؛ منها ما هي ذاتُ جذورٍ تاريخيَّةٍ، ومنها ما هي حديثَةٌ. وفي الجملة: فأنَّ أكثرَها تتمثل في محاولات زنادقةِ الصوفِيَّةِ، (وهذا إذا غضضنا الطرفَ عن الرافضةِ، لأنَّ أباطيلهم قلَّما تتسرَّبُ إلى محيطِ السنَّةِ، للنفور المتبادل بين الطرفين). أما الصوفيةُ، فإنَّهم طالما يجمعُهُم التعايُشُ مع المسلمين دون اصطدامٍ بعقبةٍ، وذلك بِحافِزِ التجانُس بينهم وبين المسلمين في الظاهر.

---

[242] الحجر/9.

[243] عبد الله بن محمَّد الغنيمان، شرح العقيدة الواسطية (عنوان: حفظ الله لكتابه من التحريف:26/6).

إنَّ الزندقةَ – في واقع الأمر – هي من أهم دوافع الإثارةِ للفوضى في الدين، وهي أيضًا من أعظم وأخطر أسبابِ النكبات التي أصابتْ المسلمين على مدى تاريخهم. كان من القديم أثرٌ كبيرٌ للزندقةِ في زعزعةِ العقيدةِ الحنيفةِ، وتهويشِ أفكارِ المسلمين، وتَلْبِيسِ الحقّ عليهم بالباطل، فأفضى ذلك إلى الإختلافِ بينهم ثم إلى التحزُّبِ والتناحُرِ، والتبس الحابل بالنابل وانقلبتِ الأومورُ رأسًا على عقب، فأصبحتِ البدعةُ بعد ذلك سُنَّةً والسُّنَّةُ بِدْعَةً إلى أنْ تفرَّقَ شمل الأُمَّةِ وانهارتْ... كانت للزَّنَادِقَةِ محاولاتٌ متواصلةٌ لإضلال الأُمَّةِ عن دينها منذ عصرِ السلفِ الصالح. فقد نبَّهَ الشافعيُّ على خطرِ التصوُّفِ فيما نَقَلَ عنه يونس بنُ عبدِ الأعلى، يقول: "سمعتُ الشافعيَّ يقول: لو أنَّ رجلاً تصوَّفَ أوَّلَ النهارِ لا يأتي الظهرُ حتّى يصير أحمق." وعنه أيضًا أنه قال: "ما لَزِمَ أحدٌ الصوفِيَّةَ أربعين يومًا فعاد عقلُهُ إليه أبدًا."[244] وبإسنادٍ عن أحمد بنِ أبي الحوارى، يقول: "حدَّثنا وكيع، قال سمعتُ سفيانَ يقول: سمعتُ عاصمًا يقول: نعرف الصوفِيَّةَ بالحماقِ إلاَّ أنهم يتستّرون بالحديث."

هذا، ومن جملةِ حماقاتِ الصوفيةِ ما يستحيلُ حصرُها؛ على سبيل المثال: وردتْ في موسوعةٍ أعدَّتْها جماعةٌ من النقشبنديين المعروفةِ بالعنصريَّةِ التركيَّةِ، والتابعةِ للمتشيّخ حسين حلمي إشك Hüseyin Hilmi Işık، وردتْ فيها إطراءٌ المؤلِّفِ أبي الفرجِ عبدِ الرحمن بْنِ الجوزيِّ عَبْرَ سيرتِهِ الذاتيَّةِ،[245] وكتابُهُ مَلِيئٌ بذكر مساوئ الصوفِيَّةِ! يدُلُّ ذلك بوضوحٍ على العقليةِ المتخلِّفَةِ للنقشبنديين الأتراك وما أسفرتْ عنها من سوءِ الفهمِ والخلطِ والتدميرِ للقيم.

نظرًا إلى الرواية المذكورة عن الشافعي ﷺ، إنَّ الحماقةَ وصفٌ ملازمٌ للصوفِيَّةِ، يؤكّدُه ما وَرَدَ من إطراءِ النقشبنديين في عصرنا لشخصيةٍ هَتَكَهُمْ قبل قرون. وهذا يفرض على المرءِ العاقلِ أن يتسائل عن الإنسانِ أو المجتمعِ الذي يمدحُ مَنْ يسُبُّهُ، ويُطِرِي مَنْ يُحَقِّرُهُ وَيُشَنِّعُهُ، هل يستطيعُ أن يفهمَ أيَّ شيءٍ على حقيقتِهِ؟! لقد أفردَ بْنُ الجوزيِّ فصولاً من كتابِهِ في أحوالِ الصوفِيَّةِ وأسهب في التعريفِ بهم عبْرَ مِئَاتِ صفحاتِهِ ممَّا يكادُ كتابُهُ القَيِّمُ بكامِلِهِ يجمعُ بين دفَّتَيْهِ ما يترُكُ العقولَ حائِرَةً في

---

[244] أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، تلبيس إبليس، تحقيق مُحَّد منير الدمشقي الأزهري، ص/**272**، **271**؛ مطبعة الوسام شارع المتنبي، بغداد–**1983**م.

[245] راجع موسوعة النقشبنديين الأتراك العنصريين وهي **18** مجلدًا بعنوان: İslam Alimleri Ansiklopedisi، وأقرأ السيرة الذاتية للمؤلف أبي الفرجِ عبدِ الرحمن بْنِ الجوزِيِّ في الصفحات: **180–199** ضمن المجلد/**6**

خبطِهِمْ وضلالاتِهِمْ وشناعاتِهِمْ وحَماقاتِهِمْ، فيتبيَّن للقارئِ من خلالِ هذا الكتابِ كيف يتلاعبُ الشيطانُ بهم.[246] كما يُنْبِئُنا ذلك عن أثرِهم في خلق الفوضى في الدين.

إن العبثَ بأصولِ الدِّينِ والقِيَمِ المقدَّسةِ، مُعْظَمُها حدثَ على لسانِ الزنادِقَةِ والْمُلْحِدِين الْمُنْدَسِّينَ في المجتمعاتِ المنتسبة للإسلام. والزندقةُ والإلحادُ شائعةٌ وراسخةٌ في المجتمعاتِ التركِيَّةِ على وجه الخصوص، لهما دافعانِ أساسِيَّانِ: العجمةُ، وخوفُ الأجنبِيّ (وسيأتي شرحُ هاتين المشكلتين إن شاء الله تعالى). لكنَّ من الغريبِ؛ أنَّ أيَّ باحثٍ لم يتجرأْ إلى اليومِ لِيُشَمِّرَ عن ساعدِ الجدِّ بالبحثِ في كُنْهِ هذين الأمرين على الساحةِ التركِيَّةِ. ولعلَّ العلماءَ تَجَنَّبُوا عن الخوضِ في هذه المسألةِ مخافةَ أنْ يتعرّضوا للسحقِ والقتلِ من قِبَلِ العنصريّين الأتراك! لأنَّ هذا المجتمعَ يأبَى إلاَّ أنْ يُفَضِّلَ الْمُسْلُمَانِيَّةَ (Müslümanlık) على الإسلامِ رغمَ ممارسةِ أفرادِهِ لكثيرٍ من شعائرِ الإسلام (كالصلاةِ والصومِ والحجِّ والزكاةِ، وغيرِها...)، لكنه يستحيل عليهم – مهما كان – أن يخلعوا رِبْقَةَ هذه الديانةِ الوثنية من أعناقِهِم، ويتنصَّلُوا من كلِّ ما في بطنِها من ألوانِ البِدَعِ والخرافاتِ والأساطير. نعم، ظَلُّوا يتنكَّرون للإسلامِ من وراءِ الْمُسْلُمَانِيَّةِ بحيث يستحيل على الإنسان التركي أنْ يعترفَ بأنَّهُ (مُسْلِمٌ) فيقولَ بِلُغَتِهِ «Ben müslimim» أو «Ben müslimeyim». ولكنَّهُ يأبى إلاَّ أن يقول «Ben müslümanım»، أي أنا مُسْلُمَان. ولهذا ينبغي هنا أولاً التركيزُ على مفهوم الزندقةِ التي هي مستنقع الفوضى في المعتقد والفكر والسلوك، ثم ذكرُ طائفةٍ من الزنادقةِ الذين كان لهم دورٌ كبيرٌ لِخَلْقِ الفوضى في الدين وغيابِ الإسلام في عصرِنا.

الزندقةُ: كلمةٌ فارسيَّةٌ مُعرَّبَةٌ، أصلها: "زَنْدَه كَرْدْ"، اصْطَلَحَهَا علماءُ الإسلامِ بمعنى "هرطقة"، وأطلقوها على كُلِّ ما أُحْدِثَ على حسابِ الدين الحنيفِ بغرضِ إفسادِهِ. وهذا التعريف يُعَدُّ من أهمِّ خصائصِها التي تُمَيِّزُ بها عن البدعةِ، وبينهما عمومٌ وخصوصٌ. فالبدعةُ أعمُّ من الزندقة؛ لأن البدعةَ المحضَ، أكثرُها تُحَدَثُ بعفويّةٍ أو بالتقليد الأعمى، ودون أن يكون فيها قصدٌ لإفساد الدين بخلافِ الزندقةِ، بل البدعةَ يرتكبُها الشخصُ طلبًا للثواب والتقرُّبِ وإن كان فيها إشراكٌ بالله، كبِدَعِ القبوريين. أمّا الزندقةُ، فإن في إحداثِها تعمُّدٌ لمحاربَةِ الدِّين وهدمِ أركانِهِ؛ كاعتناقِ عقيدةِ الحلولية والتناسُخِ، والقولِ بوحدة الوجودِ، والاستغناء عن الجنةِ، وعدم الخوف من النارِ، وتعاطي السحر والشعوذة، وإقامةِ طقوسِ الصوفِيَّةِ، والسخرية من ذات الله وصفاته تعالى اللهُ علوًّ كبيرا، (كما نُقِلَ

[246] راجع: أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، تلبيس إبليس: الباب العاشر في تلبيسه على الصوفِيَّةِ.

عن صَنَادِيدِ الصوفية) بعنوان "الشَّطَحَاتِ" ونحوِها من موبقاتِ الإيمان... هذا وقد لا يجوز تكفيرُ بعضِ المبتدِعِين، كمن يقولُ الإيمان لا يزيد ولا ينقص. وأمَّا الزنديقُ فإنَّهُ يُكَفَّرُ.

والفرقُ بين الزندقةِ والنفاقِ ظاهرٌ: فالزندقةُ علنيَّةٌ مؤوَّلَةٌ بِدسائسِ الزِّنْدِيقِ، فهو يتفلسفُ لترويجِ زندقتِهِ بِجُرْأةٍ. وأما النفاقُ: فإنّه إزدواجيَّةٌ في الموقفِ والتصرُّفِ؛ يُبطِنُ المنافقُ كفرَهُ ويُظهِرُ الإسلامِ، ولكلٍ من الزندقةِ والبدعةِ والنفاقِ مقاصدُ مختلفةٌ تجمعُها أمورٌ ثلاثةٌ: الإخلالُ بصفوة الدِّين، وإقصاءُ الإسلامِ من منبعِهِ الإلهيِّ، والإيقاعُ بالمسلمين بإثارةِ الفوضى في عقيدةِ أهلِ السُّنَّةِ والجماعة.

تتنوعُ الزندقةُ بتنوُّعِ دوافِعِهَا. ثلاثُ عَواطِفَ تُعدُّ من أهمِّ الأسبابِ التي تنشأُ منها الزندقةُ: أوَّلُها: عاطفةُ العنصريَّةِ؛ نشأتْ منها زندقةُ التشيُّعِ الفارِسِيِّ المجوسِيِّ، ومحاولةُ الأتراكِ لتتريكِ الإسلامِ في ثوبِ الْمُسْلُمَانيَّةِ Müslümanlık، وتأليهُهُمْ للأمجادِ والتاريخِ، وما يتَّصِلُ بهما من طقوسٍ وأعيادٍ ورموز... وثاني هذه العواطفِ: احتقارُ القليل من العبادةِ، وطلبُ الزيادةِ فيها، والغلوُّ والتشدُّدُ في أدائها؛ نشأت منها أذكارٌ، وحفلاتٌ، وطقوسٌ بِدْعِيَّةٌ اخْتَلَقَهَا أهلُ التصوُّفِ والمنهمكون في التقشُّفِ الروحِيِّ والمجاهداتِ النَّفسِيَّةِ. وثالثُها: التعلُّقُ بالدِّين القديم، بالنسبة لمن يعتنقُ الإسلامَ ولكنْ تَمْنَعُهُ عاطفتُهُ أنْ يتنصَّلَ من كلِّ مُعتقَداتِهِ التي كانتْ تملأُ قلبَهُ وتحتوي كيانَهُ من قبلُ، فلا يملكُ نفسَهُ من ممارسةِ بعضِ عباداتِهِ في الدين القديم. كالنقشبنديِّين الذين يقيمون "صلاةَ الرابطةِ"، وحفلةَ "الختمِ الخُوَاجگانِيّ"، وهما من إمتداد طقوسِ البوذيةِ أُجْرِيَتْ عليهما تعديلاتٌ تركيبيَّةٌ، وأُدخِلتْ فيهما أذكارٌ من الإسلامِ، كترديدِ لفظَةِ الجلالة (الله)، وكلمةِ التوحيدِ، ومقاطعَ من آيِ القرآنِ الكريم، بَدَلَ ما كان آباؤُهم وقدماؤُهم البوذيُّون يقرؤنه في صلواتِهم اليوغيَّةِ من الأذكار، كترديدِهِمْ كلمات "أومْ om، مَانِي mani، بَادْمَهْ padme، هُومْ hom..." بأعدادٍ كبيرة.

تدعونا المناسبةُ (بعد هذه التفاصيل التمهيديَّةِ) إلى ذكرِ نبذةٍ من التعريفِ بعددٍ من مشاهير الزنادقةِ، وما تفوَّهُوا به من كفريَّاتٍ، وما أحدثوا من ضروب الزندقة فأشغلوا بِها العقولَ، وأرْبَكوا بها العلماءَ، وأثاروا بها الفوضَى في العقيدةِ، وأهلكوا بها معاشرَ من العبادِ بضلالاتهم.

***

* إنَّ أوَّلَ مَنْ ابتدعَ الزندقةَ في الإسلامِ هو رجلٌ فارسِيٌّ يُدْعَى أبا هاشم الصوفِيَّ المتوفى سنةَ 150هـ. بَنَى زاويةً للعبادةِ والعُزلةِ والتقشُّفِ في مدينةِ الرملةِ بفلسطين، صدَّ الوجوهَ بذلك عن المسجدِ. وعلى هذا يُعَدُّ الرجلُ أولَّ زِنْدِيقٍ في التاريخ الإسلامي. وقيل: إنَّ رجلاً من أهلِ الكوفةِ يُدعَى عبدك المتوفى سنةَ 210هـ. هو أولُ من تَسَمَّى بـ"الصوفي". وَرَدَ ذكرُهُ في "التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع"، كان يزعم "أنَّ الدنيا كلَّها حرامٌ لا يحلُّ الأخذُ منها إلاَّ القوتَ..."[247] وقد عدّهُ الباحثون أوَّلَ زنديق ظهرَ في ربوعِ المجتمعِ الإسلامِيّ، فأضلَّ كثيرًا من الناسِ، يُطْلَقُ عليهم اسمُ (فرقةِ العبدكيةِ).

***

* وردتْ أسماءٌ لبعض الأعلام في كتب السلفيِّين، وقد اختلفوا في عقائدِهم. أحدُهم: أبو القاسم الجنيد بن مُحَّد الخزاز القواريري البغدادي المتوفي سنة 297هـ. وردَ اسْمُهُ في مصادرَ عدَّةٍ،[248] مقبولةٍ عند السلفيِّين المعاصرين. أغلبُهم يشهدون له بالصلاحِ وبراءةِ الساحةِ من الزندقة. لكنَّهُ ثَمَّ تناقضاتٌ بين أقوالِهِمْ فيه. منهم مَنْ أطراه وعدَّهُ من كبارِ الصالحين، ودافعَ عنه بأنَّ ما قيلَ في تشنيعِهِ لعلَّه مدسوسٌ عليه. ومنهم من أنكرَ عليه، ونقل عنه ما لا يُحْمَدُ عقباه...

من هذه التناقضات: ورد في حلّيةِ الأولياءِ للحافظ أبي النعيم، يقول: "سمعتُ أبا الحسن علي بن هارون بن مُحَّد، وأبا بكر مُحَّد بن أحمد المفيد، يقولان "سمعنا أبا القاسم الجنيد بن مُحَّد غيرَ مرَّةٍ يقول: عِلْمُنَا منوطٌ بالكتابِ والسنَّةِ، مَنْ لم يحفظْ القرآن، ولم يكتُبْ الحديثَ، ولم يتفقَّهْ، لا يُقْتَدَى بِهِ. وكان في أوَّلِ أمرِهِ يتفقَّهُ على مذهبِ أصحابِ الحديثِ؛ مثل أبي عبيد، وأبي ثور..."[249] لكنَّ الكاتبَ عبدَ الرحمن عبد الخالق، أوردَ في بحثِهِ الشهير "الفكر الصوفي في ضوء الكتابِ والسنة"، أوردَ أقوالاً عن الجنيدِ لا يتفوَّهُ به إلاَّ زنديقٌ مُلْحِد! وهو يقتبسُ من مصدرين فيقول: "وهذا جنيد يقول: ما أخذتُ التصوُّفَ عن القيلِ والقالِ."[250] ويقولُ أيضًا: أُحِبُّ لِلْمُبْتَدِئِ ألاَّ يُشغِلَ قلبَهُ بهذه الثلاث، وإلاَّ تغيرتْ حالُهُ: التكسُّب، وطلبُ الحديثُ، والتزوُّج... وأحبُّ للصوفِيّ أن لا يقرأ ولا

---

[247] أبو الحسن مُحَّد بن أحمد بن عبد الرحمن الملطي المتوفي سنة (377هـ.)، التنبيه والرد على أهل الأهواءِ والبدع، ص/93. مكتبة المثنى، بغداد–1968

[248] من هذه المصادر: تاريخ بغداد، للخطيب البغدبدي، وطبقات الأولياءِ لابن الملقن، وطبقات الحنابلة لأبي يعلى الفراء، وحلية الألياء لحافظ أبي النعيم...

[249] لحافظ أبي النعيم، حلية الأولياء:10/ 255

[250] أَبُو عبد الرَّحْمَن مُحَمَّد بن الْحُسَيْن بن مُوسَى السّلمِي، طبقات الصوفية، الطبقة الثانية من أئمة الصوفية، ص/131

يكتُبَ، لأنه أجمعُ لهَمِّهِ."[251] هذا هو الجنيدُ الملقَّبُ بـ"سيد الطائفة" الذي كَثُرَ اللغطُ في أمرِ عقيدتِهِ وسلوكِهِ بين السلفيّين.

يبدو أنَّ أدعياءَ السلفيَّةِ (أي الوهابيّين) الذين التبسَ عليم مفهومُ "الزُّهْدِ" بمفهوم "التصوُّفِ" يشهدون للجنيدِ بالصلاحِ اتّباعًا لابن تيمية الحرانِيّ الذي وقع في خطأٍ كبيرٍ عندما قَسَمَ التصوُّفَ إلى تصوُّفٍ إسلامِيّ وتصوُّفٍ غَيْرِ إسلامِيٍّ! مع ما لا يخفى على المحقّقين أنَّ مفهومَ "التصوفِ" مأخوذٌ من اليونانيَّةِ بلفظِهِ ومعناه. كما لم يردْ هذا اللفظُ في الكتاب العزيز ولا في السنة المطهّرةِ، ولا نطق به أحدٌ من الصحابة ﷺ. كذلك من جهلِ الوهابيّين: التباسُ (الزَّاهِدِ) عليهم بـ(الصوفِيّ). بينما الزُّهْدُ كلمة عَرَبِيَّةٌ، ومصطلحٌ إسلامِيٌّ، وهو صفةٌ من صفاتِ الصالحين، لا يمتُّ إلى (التصوُّفِ) بأدنى صلةٍ. وقد لا يجوز النطقُ بهذا المصطلحِ الدخيلِ على سبيل الكناية عن الزهدِ (والله أعلم). لأنَّ في ذلك تحريفٌ خطيرٌ، وقد ثبتَ بالأدلّةِ أنَّ استعمالَ كلمةِ (التصوُّفِ) مكانَ لفظِ (الزُّهْدِ) قد فتحَ البابَ على مصراعَيْهِ لأشكالٍ من طقوسِ الكُفَّارِ وعباداتِهِمْ؛ تسرَّبَتْ إلى مُعْتَقَدَاتِ المسلمين وتخلَّلَتْ بين مناسِكِهِمْ. وظنَّ كثيرٌ من الناسِ – قديمًا وحديثًا – أن التصوُّفَ (بِمُجْمَلِ ما قيلَ عبرَ مئاتٍ من تعريفاتِهِ المختلفة المتضاربة): "هو الإجتنابُ عن المعاصِي ونبذُ الأخلاقِ الذميمةِ، وربطُ القلبِ مع اللهِ في كلِّ لحظةٍ، والمواظبةُ على العبادةِ" ونحو ذلك..." بل هذا التعريفُ إنما ينطبقُ على الإسلامِ وليس على التصوُّفِ إطلاقًا. وثَمَّ آياتٌ قرآنيَّةٌ وأحاديثُ نبويَّةٌ غنيَّةٌ عن الذكر هنا – لِمَا يصعبُ حصرُها– تحثُّ على الأخلاقِ الحسنةِ، وتُحَذِّرُ من الوقوعِ في معصية الله تعالى. فالتجاهُلُ عن هذه الحقيقة وإحلالُ التصوُّفِ محلَّ الإسلامِ (أو محلَّ الزُّهْدِ) إذًا خلطٌ وعبثٌ وضلالةٌ، بل خيانةٌ وجنايةٌ من أشدِّها. برغم هذه الحقيقة الجليَّةِ تدلُّ بعضُ الرواياتِ على أن عددًا من العلماءِ وحتى الإمامُ أحمد بن حنبل ﷺ – وهو أحد أبرز أعلامِ السلف – قد وقع منه أنَّهُ نطقَ بهذه الكلمةِ وكأنَّهُ يَسْتَحْسِنُها. يقول القشيرِيُّ: في ترجمةِ أبي حمزةَ البغدادِيّ البزَّاز: "كان عالِمًا بالقراءاتِ، فقيهًا، وكان من أولادِ عيسى بن أبان، وكان أحمدُ بْنُ حنبل يقولُ له في المسائلِ: – ما تقول فيها يا صوفي؟"[252]

---

[251] أبو طالب المكي، قوت القلوب، 135/3

[252] أبو القاسم عبد الكريم ابن هوازن بن عبد الملك بن طلحة القشير، الرسالة القشيرية ص/26، مكتبة مصطفى البابي الحلبي بمصر–1959م.

صارَ هذا الاستعمال الخطأ فيما بعد سُنَّةً مُتَّبَعَةً للمصابين بمرض التقليدِ الأعمى، فوصفوا الزُّهَّادَ بـ"الصوفيَّةِ الأخيار" كما ورد ذلك على لسانِ أحدِ الوهابيِّين اسمه: عبد القادر بن حبيب الله السندي.[253] ولا شكَّ لهذا الخلطِ والعبثِ أثرٌ كبيرٌ في انتشارِ الفوضَى العقديّ والفكرِيّ الذي يتمرَّغُ المسلمون اليوم في أوحاله.

وأمَّا الجنيدُ، هذا الذي يُعَدُّ من جملةِ الصالحين الأوائلِ، عند كثرةٍ من الوهابيِّين، فإنَّه تُحيطُ به ضبابٌ من الريبةِ لسببين هامَّيْنِ: أحدُهما أنَّه فارسِيُّ الأصلِ من أبناءِ مدينة (نهاوند) الإيرانية، ولا ننسى أن الفرس قلَّ منهم مَنْ سَلِمَ قلبُهُ من رسوبات المجوسية، كانت ولا تزال هذه النزعةُ متأصلةً في العنصر الفارسِيّ. والسبب الثاني: أنَّ الرجلَ قد تَلَبَّسَ بالتصوُّفِ، وتشرَّبَ من أفانين سحرِهِ، واستعمل أسلوبًا ماكِرًا في إبطانِ ما كان يعتقدُهُ. لأنَّ الأقوالَ الواردةَ عنه فيما روَى القشيريُّ ضِمْنَ رسالتِهِ، تجمع بين الغث والسمين وهي متضاربةٌ، تارة يقول: "ما أخذتُ التصوُّفَ عن القيلِ والقالِ." وتارةً يقول: "عِلْمُنَا مُشَيَّدٌ بِحَدِيثِ رسول الله ﷺ"[254] والله أعلم بعاقبته.

***

* وَمِمَّنْ عُرِفَ بالزندقة من سَلَفِ الصوفيَّةِ: رجلٌ يُدعى أبا يزيد طيفور بن عيسى البسطامي المتوفى سنة **261**هـ. (وقيل سنة **234**هـ.) يعدُّ البسطامِيُّ من أوائل مَنْ كان في كلامِهِ تناقضاتٌ. وردتْ سيرتُهُ في مصادرَ عديدةٍ، منها الرسالةُ القشيريَّة، يقول المؤلف: "سُئِلَ أبو يزيد، بأيِّ شيءٍ وجدتَ هذه المعرفَةَ؟ فقالَ: ببطنٍ جائعٍ، وبدنٍ عارٍ."[255] فلا شكَّ في أنَّ هذه الكلمات لا ينطق بها إلاَّ زنديقٌ. لأنَّ التعبُّدَ بقهرِ النفسِ وتعذيبها، ليس من الإسلامِ في شيءٍ، وإنما هو ضربٌ من الزندقةِ. وهو خلافُ ما قال تعالى: "قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ، قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُون."[256] وَرُوِيَ عنه أنه قال: "لو نظرتم إلى رجلٍ أُعْطِيَ من الكراماتِ حتى يَرْتَقِيَ في الهواءِ فلا تغترُّوا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمرِ والنهْيِ، وحفظِ الحدودِ، وأداءِ الشريعةِ." فهذا كلامٌ أصابَ فيه البسطامِيُّ كَبِدَ الحقيقة. لكنه قد يكون أرادَ التعميةَ بمثل هذا الأسلوبِ، لأنَّه قد تفوَّهَ بشطحاتٍ تُنْبِئُ عن سوءِ طويَّتِهِ. وهذه كلماتٌ رُوِيَتْ عنه وفيها لفحاتٌ من الزندقة وتفريط في جنب الله من الباطل،

---

[253] ورد في فهرس المحتويات لكتابٍ أَلَّفَهُ المذكورُ بعنوان "التصوف في ميزان البحث والتحقيق: الفصل الثالث: في تراجم الصوفية الأخيارِ"، ورد فيه جمعٌ من أسماء الزُّهَّادِ وعددُهم **20** شخصًا، أوَّلُهم: إبراهيم بن بشَّار بن محمَّد أبو إسحاق الخرساني، وآخرهم: معروف الكرخي.

[254] أبو القاسم عبد الكريم ابن هوازن بن عبد الملك بن طلحة القشير، الرسالة القشيرية ص/**20**، مكتبة مصطفى البابي الحلبي بمصر–**1959**م.

[255] المصدر السابق، ص/**14**

[256] الأعراف/**32**

وهذا نصُّها: "أنكر أهلُ بسطام على أبي يزيد البسطامِيّ ما كان يقول، حتّى أنه ذكر للحسين بن عيسى أنه يقول: "لي معراجٌ كما كان للنبي ﷺ معراجٌ"، فأخرجوه من بسطام"[257] "فقد نَقَلَ عنه ابْنُ الجوزِيّ في تلبيسِ إبليسَ أشياءَ مستنْكَرَةٍ، منها: أنه سُمِع يقول: "سبحاني سبحاني ما أعظم شاني"؛ ومنها: أنه كان مرةً يمشي، فالتفتَ إلى أُناسٍ وراءَهُ فقال لهم: "إنَّني أنا الله لا إله إلا أنَا فاعبدون!"[258] كلُّ هذه الدلائلُ يبرهنُ على أنَّهُ كانَ رجلاً ضالاً منحرفًا عن جادَّة الحقِّ. لعلَّ مِنْ أهمّ أسبابِ هذا الضلالِ في سيرةِ الرجل: أنَّهُ كان من أسرةٍ فارسيَّةٍ؛ يقول القشيرِيُّ: "كانَ جَدُّهُ مَجُوسِيًّا"، فربما بقِيَتْ في أبنائِها آثارُ المجوسيَّةِ ونزعةِ الشعوبية.

يَعُدُّهُ النقشبنديُّون من أعاظِمِ ساداتِهِمْ، ويزعمون "أنه لَبِسَ خرقةَ الطريقِ ظاهرًا وباطنًا من روحانيَةِ الإمامِ جعفر الصادق ﵁."[259] وهذا كذبٌ محضٌ من أكاذيب الفرقة النقشبندية. يعترف أحد المتأخرين من أئمتهم بهذا الكذبِ فيقول: "وما اشتهر بين بعض أهل الطريق من خِدْمَةِ الشيخِ أبي يزيدٍ للإمام جعفرَ عليه السلام وصحبتِهِ له، غير صحيح. لأنّ وفاة الإمامِ جعفرِ الصادقِ ﵁، قبل ولادة الشيخ أبي يزيد. وكلّ مَنْ أخذ من الروحانيّاتِ، يسمّى «أُوَيْسِيًّا» في اصطلاح ساداتِنا النقشبنديّة."[260] لا شك في أنَّ لِشَطَحَاتِ البسطامِيِّ أثرٌ كبيرٌ في فسادِ عقيدة الأجيالِ عبر القرون.

***

* وممن اشتهر بالزندقة: جلال الدين الرومي ((604 هـ – 672هـ./1207 – 1273 م): الذي يُعَدُّ من كبارِ أعلامِ الشعر الصوفي في الأدب الفارسي. وهو عربي الأصل، فارسي النشأةِ. وردت سيرتُهُ في عديدٍ من المصادر. وأشهرُ مَنْ تناوله بالنقدِ والتحليلِ باسلوبٍ علمِيٍّ: الأستاذُ الدكتور ميكائيل بيرام، له بحثٌ قَيِّمٌ كتبهُ باللُّغةِ التُّرْكِيَّةِ حولَ صراعِ جلال الدين الرومي مع ولده علاء الدين وجُحَا الرومي. وقد أفشى الدكتور ميكائل مساوئ الرومِيِّ بإسهابٍ، وموثِّقًا بالدلائل عبرَ طيات هذا البحث.[261] جديرٌ به أنْ يُنْقَلَ إلى العربيَّةِ بمهارةٍ وأمانة. يُعدُّ جلال الدين الرومي من أخطر الزنادقة الذين ضلَّ بهم أجيالٌ من الناسِ عبر القرون، وفي يومِنا على وجه الخصوص. ولا يزال ضلالاتُهُ تنتشرُ بِوفرةٍ للجاذبيَّةِ التي تمتازُ بها أقوالُهُ في كتابِهِ الضخمِ "المثنوي". قيل: درسَ الرومِيُّ

[257] أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، تلبيس إبليس، تحقيق محمد منير الدمشقي الأزهري، ص/167؛ مطبعة الوسام شارع المتنبي، بغداد–1983م.

[258] شرح العقيدة الطحاوية لابن جبرين:114/4

[259] عبد المجيد بن محمّد بن محمّد الخانيّ، الحدائق الورديّة في حقائق أجلاء النقشبنديّة ص/ 9؛ كذلك راجع الصفحة 128 من نفس المصدر.

[260] المصدر السابق.

[261] الأستاذ الدكتور ميكائيل بيرام، Ahi Evren-Mevlânâ Mücadelesi. الطبعة الثالثة، دار: Nüve Kültür، قونيا–تركيا 2012م.

على محيي الدين بن عربي، وتلميذِهِ الشيخ صدر الدين القُونَوِي. له مقولاتٌ تُنْبِئُ بوضوحٍ أنه يعتقدُ بالحلولِ، والاتِّحادِ، ووحدةِ الوجودِ، وَيَتَبَنَّى وحدةَ الأديان. يقول في أبياتٍ له:

لقد صارَ قلبِي قابِلاً كُلَّ صورةٍ * فَمَرْعَى لِغِزْلاَن وديرٌ لرهبانِ
وبيتٌ لأوثانٍ وكعبةُ طائفٍ * وألواحُ توراةٍ ومُصحفُ قرآنِ
أدينُ بدينِ الْحُبِّ أنّى تَوَجَّهْتُ * ركائِبُهُ فَالْحُبُّ دِينِي وإِيمانِي[262]

ومن كلامه: "مسلمٌ أنا، لَكِنِّي نصرانِي، وبرهمي، وزرادشتي.[263] **يضمُّ كتابُهُ "المثنوي" كثيرًا مِنْ مسْتَبْشَعَاتِ الأقوالِ والأفعال والأفكار.**

***

* **ومن مشاهير الزنادقة الذين ظهروا في المنطقة الهندية: رجلٌ اسمه: أحمد الفاروقي السرهندي (1564–1624م.): وُلِدَ في قرية سِرْهِنْد، وهي على مقربة من مدينةِ جَانْدَكَار الواقعة في أيالة پنجاب الهندية، ومات بها. انخرطَ في سلكِ الطريقةِ النقشبندية على يدِ أحدِ رموزِها، يُدْعَى مُحَمَّد الباقي. يَعُدُّه النقشبنديُّون الحلقةَ الثالثةَ والعشرينَ من رجال سِلْسِلَتِهِمْ**[264] **يعظمونه أيَّمَا تعظيمٍ،**

---

[262] ديوان: ترجمان الأشواق ومحاضرة الأبرار، لابن عربي: ص/**402**

[263] مجلة العروة الوثقى برئاسة تحرير عبدالحكيم الطيبي، عدد **61**، لعام **1403**هـ.

[264] وأما مفهو السلسلةُ، فهي زندقةٌ اختلقها النقشبنديون ليزعموا أن شيوخهم يتصل بعضهم ببعضٍ على أساس عهدٍ خاصٍّ بينهم، من عصرنا، فينتهي بهم إلى عصر النبي ﷺ، ويربطهم به! ومعناها في مصطلحهم: أنَّ النبِيَّ ﷺ قد خصَّ أبا بكرٍ ﷺ بأسرارٍ نَفَثَهَا في رُوعِهِ (وهو الحلقةُ الأولى من هذه السلسلةِ). يزعمون أنَّ تلك الأسرار نَقَلَهَا أبو بكرٍ إلى سلمانِ الفارسِيِّ (وهو الحلقةُ الثانيةُ)، ثم انتقلتْ منه إلى القاسم بن مُحَمَّد بن أبي بكر (وهو الحلقةُ الثالثةُ)، ثم انتقلتْ منه إلى الإمامَ جعفرَ الصادقَ بنَ محمّد الباقر (وهو الحلقةُ الرابعةُ)، ثم انتقلتْ منه إلى أبي يزيد البسطاني (وهو الحلقةُ الخامسةُ)، ثم انتقلتْ منه إلى أبي الحسن على بن أبي جعفر الْخَرَقَانِيّ (وهو الحلقةُ السادسةُ)، ثم انتقلتْ منه إلى أبي عليّ الفضل بن محمّد الفارمديّ (وهو الحلقةُ السابعةُ)، ثم انتقلتْ منه إلى أبي يعقوبَ يوسفَ بنِ أيّوبَ الهمدانِيّ. (وهو الحلقةُ الثامنةُ)، ثم انتقلتْ منه إلى عبد الخالق الْغُجْدُوَانِيّ. (وهو الحلقةُ التاسعةُ) وأوّل رجلٍ تركيِّ النَشأةِ بين قدماء هذه السلسلة. والّذي أحدث ثمانيةَ أركانٍ للطريقة، ثم انتقلتْ منه إلى عارف الرِّيوَگَرِيّ (وهو الحلقةُ العاشرةُ)، ثم انتقلتْ منه إلى محمود الإِنجِيرْفَغْنَوِيّ (وهو الحلقةُ الحاديةَ عشرةَ)، ثم انتقلتْ منه إلى عليّ الرامتيِّ المعروف بـ «خواجه عزيزان» (وهو الحلقةُ الثانيةَ عشرةَ)، ثم انتقلتْ منه إلى مُحَمَّد بابا السمَّاسيّ (وهو الحلقةُ الثالثةَ عشرةَ)، ثم انتقلتْ منه إلى كُلال بن حمزة (وهو الحلقةُ الرابعةَ عشرةَ)، ثم انتقلتْ منه إلى محمّد بهاء الدين البُخَاريّ المعروف بين هذه النحلة بلقب «شاه نقشبند» (وهو الحلقةُ الخامسةَ عشرةَ)، ثم انتقلتْ منه إلى علاء الدين العطّار (وهو الحلقةُ السادسةَ عشرةَ)، ثم انتقلتْ منه إلى يعقوب الچرخِيّ (وهو الحلقةُ السابعةَ عشرةَ)، ثم انتقلتْ منه إلى عبيد الله الأحرار (وهو الحلقةُ الثامنةَ عشرةَ)، ثم انتقلتْ منه إلى محمّد زاهد البدخشيّ (وهو الحلقةُ التاسعةَ عشرةَ)، ثم انتقلتْ منه إلى الدرويش مُحَمَّد السمرقنديّ (وهو الحلقةُ العشرون)، ثم انتقلتْ منه إلى محمّد الْخُوَاجَگِي الأَمْكَنَگِي (وهو الحلقةُ الحاديةَ والعشرون)، ثم انتقلتْ منه إلى الباقي بالله الكابُلى (وهو الحلقةُ الثانيةَ والعشرون)، ثم انتقلتْ منه إلى أحمد الفاروقي السرهندي المعروف عند النقشبنديين بـ"الإمام الرباني" (وهو الحلقةُ الثالثةَ والعشرون)، ثم انتقلتْ منه إلى مُحَمَّد المعصومَ (وهو الحلقةُ الرابعةَ والعشرون)، ثم انتقلتْ منه إلى سيف الدين بن محمّد المعصوم (وهو الحلقةُ الخامسةَ والعشرون)، ثم انتقلتْ منه إلى نور محمّد البدوانيّ (وهو الحلقةُ السادسةَ والعشرون)، ثم انتقلتْ منه إلى شمس الدين حبيب الله ميرزا مظهر جان جانان (وهو الحلقةُ السابعةَ والعشرونه)، ثم انتقلتْ منه إلى غُلاَمْ علي عبد الله الدهلويّ (وهو الحلقةُ الثامنةَ والعشرون)، ثم انتقلتْ منه إلى خالد البغداديّ المعروف بين أتباعه بعنوان «مولانا خالد ذو الجناحين» (وهو الحلقةُ التاسعةَ والعشرون)... وقد أذِنَ البغدادِيُّ لِعَشَرَاتٍ (وربما لِمِئَاتٍ آخرين) أن ينوبوا عنه في بثِّ عقائِدِهِ. تتألَّفُ السلسلةُ النقشبنديَّةُ من هؤلاء الأشخاص ومَنْ يقومون مقامهم في أيامنا.

ويخلعون عليه أجلَّ الصفاتِ؛ يُلقِّبونَهُ بـ"الإمامِ الرَّبَّانِيِّ، المجدِّدِ للألفِ الثاني!" يقول مُعَرِّبُ مكتوباتِهِ مُحَمَّد مراد المنزاوي في مدحه:

«فهذه دُرَرٌ مكنوناتٌ منيفةٌ برزتْ من أصدافِ عباراتِ المكتوباتِ الشريفة للإمامِ الربّانيّ، والغوثِ الصمدانيّ، والقطبِ السُّبْحانيّ، والعارفِ الرحمانيّ، نقطةِ دائرةِ الإرشادِ، رحلة الأبدالِ والأوتادِ، قدوةِ الكمالاتِ الأفراد، واقفِ الأسرارِ الإلهيَّةِ، كاشفِ الدقائقِ المتشابهاتِ القرآنيَّةِ، برهانِ الولايَةِ الخاصَّةِ المحمّديّة.»[265]

وردت ترجمةُ السرهنديّ باللُّغةِ التُّرْكِيَّةِ في موسوعةِ جماعةٍ من النقشبنديّين الأتراك،[266] المعروفة بـ"إشِيكْجِيلاَرْ Işıkçılar"، وقد أسهبوا فيها، واستعرضوا إفانينَهُمْ في تفخيمِهِ، وعُلُوِّ شأنِهِ، وطُولِ باعِهِ في العلومِ، وعَدِّ كراماتِهِ... وقد بالغوا في إجلالِه بصيغٍ غريبةٍ لا حصرَ لِمَا فيها من ضروب الزندقةِ حتى رفعوه فوقَ مقامِ الأنبياءِ والمرسلين! إنَّ هذه المحاولةَ التي بذلَ النقشبنديُّونَ خلاَلَهَا قصارى جهودِهم ليجعلوا من الرجل ألهًا. يبدو منها أنَّ السرهنديَّ هو الذي حاكَ هذه الأكاذيبَ من تلقاءِ نفسِهِ وأملاَهَا على آلافٍ من جهلةِ الهنودِ، فانسحبوا من ورائِهِ ونقلوها عبر الأجيالِ حتى وصلتْ إلى عصرنا وساهمت في انتشار الفوضى.

لقد ترك السرهنديُّ ورائَهُ رُكامًا من رسائِلَ متفرّقةٍ كلّها بالفارسيّةِ (سوى عددٍ قليلٍ منها بعبارات عربيَّةٍ ركيكةٍ)، جُمِعَتْ في ثلاثِ مُجَلَّدَاتٍ، تتكوَّنُ من **536** مكتوبًا. بعثَها إلى هذا وذك، فلم يثْبُتْ على جانبِ الحقِّ والصوابِ في أقوالِهِ إلاَّ نادرًا، وربما للتَّعْمِيَةِ حتى لا يُرْمَى بِالزَّنْدَقَةِ، بل تذبذبَ بين الحقِّ والباطِلِ كما لا يخفَى على الباحثِ في "مكتوباتِهِ" التي تحوي من متاهاتٍ وَمَسَاوِئَ يضيقُ المقامُ عن ذكرِها وتعدادِها. عرَّبَها رجلٌ اسمه مُحَمَّد مرادِ المنزاوي، وهذا يدلُّ على أنَّ السرهندِيَّ لم يكنْ يُتْقِنُ العربيةَّ، كما يُفشي جهلَهُ بالإسلامِ في الوقتِ ذاتِهِ. أمّا اللُّغةُ العربيَّةُ فإنَّها أوَّلُ الأبوابِ التي لابُدَّ لطالب العلمِ أنْ يدخلَ منها إلى عَالَمِ المعرفةِ بكتابِ الله عزَّ وجلّ، وسنَّةِ رسوله ﷺ. يظهرُ أنَّ جهلَّ السرهنديِّ بالعربيةِ هو السببُ الرئيسُ لاستغراقِهِ في الأوهامِ والخيالاتِ التي زيَّنَها الشيطانُ له

---

[265] محمّد مراد المنزاوي المنتخبات، الديباجة ص/ **2**. مكتبة الحقيقة، إسطنبول-**1994**م. يلاحظ من هذه العبارات المشوبة بمعاني الشرك، أنَّ أتباع السرهندِيِّ أيضًا كانوا زنادقةً على شاكلته.

[266] İslam Alimleri Ansiklopedisi من إصدارات صحيفة تركيا، المجلد الخامس عشر، ص/**318-381**

فانْزَلَقَ من ورائِهَا إلى مُسْتَنْقَعِ الشركِ البَرَهْمِيِّ الهندوسِيّ حتى هلك. وربما كان مصابًا بهلوسةٍ تنتابه أحيانًا فيتخيل عن نفسِهِ ما لا حقيقةَ له من العظمة والمكانةِ، كما ورد عبر بعض هفواته.

تشهدُ عليه عديدٌ من هَذَيَانَاتِهِ التي زخرفها، وقد حاولَ لِيُخْفِيَ بعضَهَا ضمنَ لفيفٍ من مصطلحات المسلمين. من هذه الهذياناتِ الزَّنْدَقِيَّةِ – على سبيل المثال– قوله:

"قد مضتْ مدَّةٌ من استفسارِ الأصحابِ عن أحوالِ الخضرِ على نبيّنا وعليه الصلاة والسلام، ولَمَّا لم يكنْ للفقيرِ اطلاعٌ على أحوالِهِ كما ينبغي، كنتُ متوقِّفًا في الجواب، فرأيتُ اليومَ في حَلَقَةِ الصبح أنَّ إلياسَ والخضرَ عليهما السلام، حضرا في صورةِ الروحانيّين، فقال الخضرُ بالإلقاءِ الروحانِيّ: نحن من عالَمِ الأرواح، قد أعَطَى الحقُّ سبحانه أرواحَنَا قدرةً كاملةً بحيثُ تَتَشَكَّلُ وَتَتَمَثَّلُ بِصُوَرِ الأجسامِ ويصدُرُ عنها ما يصدُرُ عن الأجسامِ من الحركاتِ والسكناتِ الجسمانيَّةِ، والطاعاتِ والعباداتِ الجسديَّةِ، فقلتُ له في تلك الأثناءِ: أنتم تُصَلُّونَ الصلاةَ بمذهبِ الإمامِ الشافِعِيّ. فقال: نحن لسنا مُكَلّفِينَ بالشرائعِ، ولكن لَمَّا كانتْ كِفَايَةُ مُهِمَّاتِ قُطبِ الْمَدَارِ مربوطَةً بِنَا، وهو على مذهبِ الإمامِ الشافعيّ، نُصَلِّي نحن أيضًا وراءَهُ بمذهبِ الإمامِ الشافعيِّ ﷺ. فَعُلِمَ في ذلك الوقتِ أنَّهُ لا يترتَّبُ الجزاءُ على طاعتِهِمْ، بل تصدُرُ عنهم الطاعةُ والعبادةُ موافِقةً لأهلِ الطاعةِ، ومراعاةً لصورةِ العبادةِ، وعُلِمَ أيضًا أنَّ كمالاتِ الولايَةِ موافِقةٌ للفقهِ الشافعيّ، وكمالاتِ النبُوَّةِ، موافِقةٌ للفقهِ الحَنَفِيّ، فَعُلِمَ في ذلك الوقتِ حقيقةُ كلامِ الخواجة مُحَمَّد بارسَا قُدِّسَ سِرُّهُ، حيث ذَكَرَ في الفصولِ الستَّةِ، نقلاً أن عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام، يعملُ بعدَ نزولِهِ بمذهبِ الإمامِ أبِي حنيفة ﷺ، فوقعَ في الخاطرِ في ذلك الوقتِ أنْ نستمِدَّ بهما، وأنْ نَطْلُبَ منهما الدعاءَ"[267]

يقول السرهندي في مكتوبٍ آخر أرسله لأحد المشعوذين من أمثاله، يقول فيها:

"إنَّ مُعتقَدَ الفقيرِ (يقصد نفسَهُ) من الصِغَرِ كان مشربَ أهلِ التوحيدِ الوجودِيّ، يعني توحيدَ الوجودِ وكان والدُ الفقير قُدِّسَ سِرُّهُ[268] في ذلك المشربِ بِحَسَبِ الظاهرِ، وكان مشغولاً بهذا الطريق على

---

[267] المصدر: مكتوبات أحمد الفاروقي السرهندي. http://www.hakikatkitabevi.com/arabic/13-maktubat1.pdf، نسخة ألكترونية، المكتوب/**282**. ص/**520**.

[268] وكلمةُ "قُدِّسَ سِرُّهُ" أو "قَدَّسَ اللهُ سِرَّهُ"، بِدْعَةٌ أخذَها الصوفيَّةُ من النصارى، يتلفَّظُ بها القبوريُّون على سبيلِ الدعاءِ لشيوخِهم. لم يردْ عن النَّبِيِّ ﷺ ولا عن أحدٍ مِنْ أصحابِهِ رضوان الله عليهم مثلُ هذه الصيغةِ من الدعاءِ. بل الصيغةُ المأثورةُ هي: الدعاءُ بطلب الرحمة من الله تعالى. فقد ورد في مواطن كثيرةٍ من حديث النَّبِيِّ ﷺ أنه كان يَتَرَحَّمُ على من يليقُ بالدعاءِ له، فيقولُ "رحِمَ الله" فلانًا... كقوله: "عَن جَابِرِ بْن عَبْد الله قَالَ: قَالَ رَسُوْلُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

سبيلِ الدوامِ مع وجودِ حصولِ التوجُّهِ التامّ بِحَسَبِ الباطن إلى مرتبة اللاَّكيفيَّةِ، وبحكم ابن الفقيه نصف الفقيه، كان للفقير أيضًا حظٌّ وافرٌ من هذا المشربِ بِحَسَبِ العلمِ، وحصلتْ لي منه لذَّةٌ عظيمةٌ إلى أنْ أوصلنِي اللهُ بمحضِ كرمِهِ إلى جنابِ حضرةِ معدنِ الإرشادِ مظهرِ الحقائقِ والمعارفِ مؤيّد الدين الرضي شيخنا ومولانا وقبلتنا مُحَمَّد الباقي قدَّسَنَا اللهُ بِسِرِّهِ، فَعَلَّم الفقيرَ الطريقةَ النقشبنديَّةَ، وبذلَ التوجهَ البليغَ في حقِّ هذا المسكينِ، فانكشفَ التوحيدُ الوجودِيُّ في مدّةٍ يسيرةٍ بعد ممارسةِ هذه الطريقةِ العليَّةِ، وعرض لي غُلُوٌّ في هذا الكشفِ، وظهر شيءٌ وافرٌ من علومِ هذا المقامِ ومعارفِهِ، ولم تبقَ دقيقةٌ من دقائقِ هذه المرتبةِ غيرَ منكشفةٍ، ولاحتْ دقائقُ علومِ الشيخ محي الدين بنِ عربي ومعارفه، وشُرِّفْتُ بالتجلِّي الذاتِيّ الذي بَيَّنَهُ صاحبُ الفصوصِ، واعتقدُ أنه نهايةُ العروجِ، وقال في حقِّهِ: وما بعد هذا إلا العدمُ المحضُ"[269]

عاشَ السِّرْهِنْدِيُّ في عهدِ الطاغيةِ «أكبر شاه»[270] ثالثِ ملوكِ الدولةِ التَّيموريةِ المغوليَّةِ في الهند. شاهدَ تلك الأحداثَ الرهيبةَ الّتي أقدمَ على إجرائِها «الملك أكبر شاه» للقضاءِ على الإسلام. غير أنّنا لا نعثر على مقاومةٍ أكيدةٍ وجادّةٍ للسرهنديّ في وجهِهِ إلاّ القدرَ اليسيرَ الّذي جاء في سطورٍ ضمنَ مقدّمةِ كتابه «إثبات النبوّة»[271] بل كان السرهنديُّ منهمكًا في منافسةِ خواجوات البلاطِ الملكي، وحياكةِ دجلياتِهِ التي حَشَى بها مكتوباتِهِ، فأَرْبَكَ بها كثيرًا من الناس وأضلَّهم عن سواء السبيل.

كان هذا غَيْضًا من فَيْضٍ من زَنْدَقِيَّاتِ السرهندِيِّ، ومن أراد المزيدَ من المعرفةِ بأحوالِ هذا الرجل وعقيدتِهِ بـ"وحدة الوجودِ"، و"وحدة الشهودِ"، وأشكالٍ من كفرياتِهِ... حسبُهُ أنْ يتصفَّحَ عددًا من مكتوباتِهِ. لكنَّ الذي يجبُ أن يُنَبَّهَ عليه بعد هذه التوضيحات المختصرة هو: أنَّ لِدَجَلِيَّاتِ

رَحِمَ اللهُ عَبْدًا سَمْحًا إِذَا بَاعَ، سَمْحًا إِذَا اشْتَرَى، سَمْحًا إِذَا اقْتَضَى." وقد تنطَّعَ شيخٌ من شيوخِ الوهابيَّةِ في إجابتِهِ على سؤالٍ، يحتجُّ بحديث عبد الله بن أبي سفيان فيقول: "قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: مَا قَدَّسَ اللهُ أُمَّةً لَا يَأْخُذُونَ لِلضَّعِيفِ مِنْهُمْ حَقَّهُ غَيْرَ مُتَعْتَعٍ." يتذرع الوهابِيُّ بهذا الحديثِ ليحكم أن الدعاءَ بصيغة "قُدِّسَ سِرُّهُ" أو "قَدَّسَ اللهُ سِرَّهُ" جائزٌ! لأنه يجهل أو يتجاهل أنَّ هذه الصيغةَ سالبةٌ مع ندرتها وضعفِها؛ ورد في جامع الأحاديث (19/ 72) أخرجه الطبراني (233/24، رقم 591) قال الهيثمى (131/4): فيه أبو سعد البقال، وهو ضعيف. أمَّا الدعاءُ الموجبُ بصيغة الرحمة فقد وردت في كثير من أحاديثه عليه الصلاة والسلام ولا نجد فيها كلمة "قَدَّسَ" ولو مرةً واحدةً. وهذا مبلغ الوهابيِّينَ من العلم بحقيقة الدعاءِ، والاستدلالِ، والزندقة، والزنادقة!..

[269] المصدر السابق، المكتوب/31. ص/69،68.

270 هو محمود جلال الدين أكبر شاه بن همايون بن ظهير الدين محمّد بابر شاه. ولد عام 1542م. وتولّى السلطنة عام 1556م. وهو ابن 14 عامًا. و مات في سنة 1605م. راجع ترجمته في كتاب «رجال الفكر والدعوة في الإسلام»، الجزء الثالث ص/ 63–111. لأبي الحسن الندويّ؛ دار القلم؛ الكويت–1994م.؛ التاريخ الإسلامي، لمؤلّفه محمود شاكر، الجزء الثامن ص/422–424.

271 كتبه عام 989هـ. نشرته مكتبة الحقيقة في إسطنبول عام 1994م.

السرهندِيّ آثارٌ خطيرةٌ في هدمِ عقيدة التوحيد، وإثارة الفوضي الدِّينِيِّ الذي تتلاطم أمواجُها اليومَ بملايين المشركين في مختلفِ بقاعِ الشرقِ الأوسطِ وعلى رأسِها تركيا.

لقد كانت الساحةُ الهنديَّةُ مرتعًا للزنادقةِ قبلَ السرهنديّ وبعده. ذلك أنَّ مناخَها الروحِيَّ والاجتماعِيَّ كان ولا يزال مُتَاحًا لنشاطاتِ السَّحَرَةِ والمشعوذين. لعلَّ الدياناتِ المنتشِرَةَ في هذه المنطقةِ وما نشأ عنها من اختلافِ المعتقداتِ والصراعاتِ الدينيَّةِ أنها خلقتْ جوًّا قاتمًا تتموَّجُ خلالَ ضبابِهِ أشكالٌ غريبةٌ من الطقوسِ والتعبُّدِ. وليس من الغريبِ أن تكونَ العقائدُ البرهميَّةُ والبوذيَّةُ قد تركتْ عفونةً في أعماقِ الإنسان الهندِيّ فجعلَتْهُ أسيرًا في قبضةِ الرُّكُونِ والمسكنةِ، مغمورًا، مُشَعْوِذًا ومُتَقَشِّفًا، يُعَذِّبُ نفسَهُ بتأمُّلاتٍ طويلةِ الْمَدَى، ديدنُهُ الاشتغالُ بالطلاسِمِ والتَّمَائِمِ، والعبثُ بالمفاهيم، واختلاقُ البِدَعِ، وتسحيرُ العقولِ والعيونِ، وتشويشُ الأذهانِ بالمخارقِ والأكاذيبِ.

إن هذه الميزةَ للبيئةِ الهنديَّةِ طالما جذبتْ النفوسَ الشريرةَ إليها من مختلفِ أنحاءِ العالَمِ. لذلك لم يظهرْ زنديقٌ في العالَمِ الإسلامِيِّ إلاَّ وقد سافر إلى الهندِ لسبب غير شديد، وأقامَ بها فترةً من الزمن، واستنشق أَبْخِرَةَ سحرِها، ومارس من شَيْطَانِيَّاتِهَا وَشَمْطَائِيَّاتِهَا مثل الحسين بن منصور الحلاج، وخالد البغدادي...

***

* أمّا خالدُ البغدادِيُّ، فجديرٌ بالتركيزِ عليهِ لِمَا كان فائقًا على كثيرٍ من الزنادقةِ في اختلاقِ أشكالٍ من البدعِ والأباطيلِ، وإثارَةِ الفِتَنِ لهدمِ أركانِ الإسلامِ... فقد تركَ الرَّجُلُ وراءَهُ ألوانًا من الكفرياتِ، أغْرَقَ في لجاجها مئاتِ آلافٍ بل ملايينَ من الناسِ منذ قرنين، يتمرغون في مستنقعِ الوثنية البرهمية. لا يزالُ سحرةُ الفرقةِ الخالديَّةِ (المعروفون بشيوخ الطريقة) يمارسون أفانينهم لتضليل الناسِ في عموم أنحاءِ الشرق الأوسطِ بطريق التلقين الهندوسي، وغسل الدماغِ، واستغلالِ مصطلحاتٍ أخذوها من الإسلامِ، ستروا بها ضروبًا من تعاليم البرهمية والبوذيةِ، فجعلوا منها تراكيبَ ماكرةً للتعمية، سلخوا بها جماهيرَ غفيرةً من الإيمانِ بالله، أكثرهم أتراكٌ وأكرادٌ وجماعاتٌ من العرب المواطنين والسوريّين والعراقيين...

وخالد البغداديُّ هذا، رجلٌ من أكرادِ العراق (**1778–1826**م.)، ظهر في أواخر العهد العثماني، انبرى عددٌ من أتباعِهِ يكتبون سيرته الذاتيَّةَ، ويتنافسونَ في إثراءِ مناقبه كلٌّ على قدرِ باعِهِ في البلاغةِ، وعلى مدى كفائتِهِ في التَّنَطُّعِ. يتناقلون مدائِحَهُ بصورةٍ متواصلةٍ منذ قرنين إلى اليوم،

فأسهبوا في خلعِ صفات العظمةِ عليه، وبَالَغُوا في تفخيمِهِ، وإجلالِهِ، وأشتاتِ علومِهِ ومقامَاتِهِ، فجعلوا منه إلهًا، حتى اشتهرَ بعنوان "مولانا خالد ذو الجناحين."

لا يخفى على من يتصفَّحُ تَرَاجُمَهُ ويطَّلِعُ من خلالِهَا على الجهودِ المبذولةِ لتصعيدِ جلالِهِ وجمالِهِ وعظمتِهِ وعُلُوِّ كعبِهِ وشموخِ مقامِهِ! على لسانِ المتفانين في محبَّتِهِ؛ لا يخفى على من يُمْعِنُ النظرَ فيها بتأمُّلٍ؛ أنَّ هذا الرَّجُلَ كان قِمَّةً في تشويشِ العقولِ، واستمالةِ القلوبِ، واستغلالِ الضمائرِ، وتسحيرِ مخاطبِهِ، وتحويلِهِ إلى عبدٍ مسكينٍ متهالِكٍ بين يديه في لحظاتٍ، مهما كان منصبُهُ عاليًا، ومكانتُهُ رفيعةً بين الناس! لقد استطاعَ خالد البغداديُّ أن يفرضَ نفسَه حتى على أكبرِ حاكِمِ زمانِهِ (السلطان محمود الثاني، جدِّ السلطان عبد الحمد الثاني)، هذا فضلاً عن أيِّ شخصٍ آخر من الحُكَّامِ والوُلاتِ والأمراء...

ولهذا، فإن الفوضى الدينيَّ التي تسودُ اليومَ أنحاءَ الشرقِ الأوسطِ وتعْصِفُ بالمجتمعاتِ الآهِلَةِ في هذه المنطقةِ تضربُ بعضَهُم بِبعضٍ، لا شكَّ في أن لِمُغَامَراتِ خالدِ البغدادِيّ وتضليلاتِهِ أثرٌ هامٌّ وراءَ تفاقُمِها وانتشارِ نيرانِها رغم مُضِيِّ حُقبةٍ على موتِهِ تبلغ قرنين من الزمن.

قد يستغرِبُ بعضُ العقولِ الساذِجَةِ الرَّبْطَ بين الفِتَنِ الْمُلْتَهِبَةِ اليومَ في مختلفِ بقاعِ الشرقِ الأوسطِ، وبين تعاليم البغدادِيّ؛ لأنَّ هذه العقولَ البسيطَةَ تَجْهَلُ حقيقةَ الطريقةِ النقشبندية؛ تَجْهَلُ حياةَ خالدِ البغدادِيّ، ونشأتَهُ ومزاجَهُ، وأسرارَ رحلتِهِ إلى الهندِ؛ تَجْهَلُ ما وردَ على لسانِهِ من أقوالٍ وأشعارٍ ورسائِلَ بعثَ بها إلى هذا وذاك على غرارِ سلفِهِ (السرهندِيّ)... فقد نَقَلَتْهَا الأقلامُ وَطُبِعَتْ وَنُشِرَتْ منذ قرنين من الزمن، ولا تزالُ شركةٌ تُرْكِيَّةٌ عملاقةٌ تطبعُ وتنشُرُ آلافَ مُجَلَّدَاتٍ منها، تُوَزِّعُهَا مجانًا، وهي مشحونةٌ بألوانٍ من صِيَغِ الدفاعِ عن البغدادِيّ، مزخرفةً بحكاياتٍ مُزَوَّرَةٍ وأحاديثَ موضوعَةٍ، وقِصَصٍ أسطوريَّةٍ... كل ذلك لمقارعةِ ناقدِيهِ وإفحامِ معارضِيهِ، ومواصلة البثِ لِسُمُومِهِ... نعم، ملايينُ الناسِ اليومَ يجهلونَ ثورةَ خالدِ البغدادي، التي فجَّرَهَا، يجهلون ما حاكَ من مؤامراتٍ ومكائدَ لضرب الإسلامِ فورَ عودتِهِ من الهندِ عام **1811**م.

استخدمَ البغدادِيُّ أسلوبًا خاصًّا لِبَثِّ دينه الجديد الذي تلقاهُ من صوفية الهند اليوغِيِّين، والمستمدِّ من تعاليم البرهمية والبوذيَّةِ، احْتَرَفَهُ بأعلى درجةٍ من الإتقانِ، فتمكّن من غسلِ الأدمغةِ، وإلباسِ الحقِّ بالباطل، وتخديرِ المشاعر، وتلويثِ الأذهانِ، وإلقاءِ هيبتِهِ على كلِّ مَنْ لَقِيَه. استطاعَ الرجلُ أن

يجمعَ حولَهُ فئةً من مشعوذي ملالي العراقِ، وما لبث حتى نَفَذَ إلى قرارةِ نفوسِهم في صورة إلهٍ متربّعٍ فوق عرشِهِ، "يُطِلُّ على الكائناتِ ويطّلِعُ على أسرارِ الكونِ وما تُخْفِيهِ الصدور. يكلم الموتى، يستشير "السادات" الذين ماتوا منذ قرون"[272] فتصدَّى هؤلاء الملالي بألسِنتِهِمْ وأقلامِهِمْ للدفاعِ عنه، وتشنيع مِنْ تَجَرَّأَ عليهِ بأدنى كلمةٍ، ومَنْ سوَّلتْ له نفسُهُ أن يبوحَ بِسِرٍّ من أسرارِ بِدَعِهِ وضلالاتِهِ، هاجموهُ وأثاروا عليه المجتمعَ العثمانِيَّ بأسرِهِ من أوساطِ شبه جزيرة (بلقان) إلى ضفافِ المحيطِ الهندِيّ، فعاد ذلك المعارضُ مهزومًا مرفوضًا وملعونًا حتى لَقِيَ حتفَهُ إنْ حالفهُ الحظُّ فلم يقعْ ضحيةً، مثل كلّ مِنْ (معروفِ البرزنجي، وحَمْدِي الداغستاني، وعبد الوهابِ السوسي) وكثيرٌ غيرهم. وأمَّا الذين قُتِلُوا منهم في أماكنَ خاليةٍ، فقد ظلَّ أسماؤهم جميعًا في طي الكتمانِ، سوى (الشيح عثمان الجليلي الموصلي) الوحيد الذي قُتِلَ سحقًا تحت أقدامِ المريدين.

وكان البغداديُّ أحيانًا يتحايلُ بإظهارِ الشفقةِ على بعضِ معارضيه ليُقَالَ عنه: "إنه رحيمٌ يعاملُ خصومَهُ بالحلمِ والعفو والسماحِ، لأنه عظيم المكانةِ، لا يليق بشأنه أن ينزلَ إلى مستوى العوامِّ!" كما ينبئنا خبرٌ سَجَّلَهُ أحدُ المتفانين فيه، يقول:

«ولفّقوا من قول الزور والبهتان رسالةً بِتَكْفِيرِهِ لَمَّا زعموا من أنّه يدّعي رؤية الجانِّ، وأرسلوها إلى دمشق مع أحد هوامّ الأكراد[273] العوامّ يقال له إسماعيل الزلزلومي. فلمّا وصل إليها توسّل بعض

---

[272] غَضِبَ البغدادِيُّ على أحدِ نُوّابِهِ اسمُهُ عبد الوهابِ السوسي، فَطَرَدَهُ مِنْ دِينِهِ، ثم بعثَ برسالةٍ من مقرِّهِ (في السليمانية العراقِيَّةِ) إلى شخصٍ من بِطَانَتِهِ في إسطنبول، (يدعى: عَيْنِي أفندي) يُنَبِّهُهُ على ذلك ويُهَدِّدُ مَنْ يَثِقُ بالسوسِيّ فيقول بالحرفِ الواحد: "فالآن أخبركم بأنّي وجميعَ رجالِ السلسلةِ تبرّأنا من عبد الوهّاب. فهو مطرودٌ عن الطريقة. فكلُّ مَنْ تصادَقَ معه لأجلِ الطريقةِ فليترُكْ مُصادَقَتَهُ وَمُكَاتَبَتَهُ، وإلاّ فهو بريءٌ من إمدادِ هذا الفقيرِ وإمدادِ الساداتِ الكرام. ولا أرضَى أنْ يُكاتِبَنِي؛ ولا أنْ يستمدَّ همّتي بعد وصولِ هذا المكتوبِ إليه. وأنتَ مأمورٌ بإيصالِهِ إلى كلِّ مُخلصٍ. فمن كان مُريدَ الطريقةِ فليُظهِرِ الْبَرَاءَةَ منه، ومن كان مريدَ نفسهِ فلا يلومنَّ إلاّ نفسَه إذا هلك مع الهالكين»" المصدر: عبد المجيد بن محمّد بن محمّد الخانيّ، الحدائق الورديّة في حقائق أجلاء النقشبنديّة، ص/**232** ؛ مُحَمَّد أسعد صاحب، بغية الواجد، النسخة القديمة المطبوعة في دمشق، ص/**130**.

يفتضح البغدادِيُّ حين يقول: "فالآن أخبركم بأنّي وجميعَ رجالِ السلسلةِ تبرّأنا من عبد الوهّاب." يزعم البغدادِيُّ بهذه الزندقةِ أنه اتَّصَلَ بساداتِهِ (رجال السلسلة بدءًا من أبي بكر الصديق ﵁ إلى شيخه عبد الله الدَّهْلَوِيّ، وهم **28** شخصًا وكلهم قد ماتوا.). ثم يفتضح ثانيةً حين يأتي بأكاذيبَ أخرى، فيقول: "فكلُّ مَنْ تصادَقَ معه لأجلِ الطريقةِ فليترُكْ مُصادَقَتَهُ وَمُكَاتَبَتَهُ، وإلاّ فهو أيضًا بريءٌ من إمدادِ هذا الفقيرِ وإمدادِ الساداتِ الكرام." يزعم عبرَ هذه العبارات الوجيزة: أنَّ له ولساداته قدرةٌ عظيمةٌ يتصرَّفُون في الكون؛ يُسْعِفُون المريدين إذا طلبوا منهم الْمَدَدَ ولو حالَ بين الشيوخ والمريدين مسافاتٌ شاسعةٌ! يشير إلى ذلك في تهديده: "وإلاّ فهو أيضًا بريءٌ من إمدادِ هذا الفقيرِ وإمدادِ الساداتِ الكرام." وأمَّا وَصْفُهُ نَفْسَهُ بـ"الفقر"، فإن في ذلك تلفِيقٌ فَاحِشٌ، إذ يتظاهر بالتواضعِ مع ما به من المكابرة والطغيان والجرأة على الله.

[273] لقد كان البغدادِيُّ وبطانتُهُ يكرهون الأكرادَ لظروفِهم القاسيةِ، ولأنهم كانو مستضعفِين ولا يزالون إلى اليوم؛ كانوا يصفونهم بِـ"اللُّصُوصِ" و"قُطَّاعِ الطُّرِيقِ". يؤيد ذلك ما ورد على لسان بعض الكتاب ما نصه: "قيل ان الدولة العثمانية استفادت منه في تقليل الضغط الحاصل عليها من قبل اللصوص والقتل والنهب اذ كان الشخص لا يستطيع السفر من بلد الى آخر دون توفير الحماية العسكرية للقوافل التجارية". راجع المصدر:
https://www.facebook.com/Mawlana.khalid/posts/439655886093925

خدم الشيخ بكلّ وسيلة جميلة، واستحضرها لحضرته الجليلة ليظهر عليها. فطار خبرها إلى والي الشام، فأمر بتشهيره في البلدة وتعزيره، فمرّوا به وهو كذلك من تحت قصر الشيخ (...)، فحانت منه إلى الطريق نظرةٌ، فأمر بتحويله إلى رحابه، وتطهيره وتخويله حلةً من ثيابه، وأدناه منه، فقبّل الرجُلُ رِجْلَهُ، فعفاه.»[274]

كانت لهذه الأشكال من المسرحيات تأثيرٌ بالغٌ على أصحابِ النفوسِ المريضة من أسرى العاطفية، خاصَّةً الشيوخ والملالي المشعوذين. يأتي على رأسهم رجلٌ مُتَزَمِّتٌ متوارٍ في لباسِ أهل العلم، جاهلٌ بتاريخِ الأديانِ والمذاهب، انْبَرَى للدفاعِ عن البغدادِيِّ برسالتِهِ الشهيرة «سلّ الحسام الهنديّ في نصرة مولانا خالد النقشبنديّ». وهو "الفقيهُ" ابْنُ عابدين الدمشقِيُّ، يَرُدُّ في هذه الرسالةِ على عبد الوهّاب السوسيّ الذي اتَّهَمَ خالدًا بالسحرِ والكفرِ والزندقةِ.

انتصر يومئذٍ للبغدادِيِّ – بجانب ابن عابدين – نَفَرٌ من بُسَطَاءِ ملالِي العراقِ، مثل: محمّد أمين بن محمّد صالح الطبقجليّ، مفتي الحلّة[275]؛ وملاًّ يحيى المزوريّ[276]؛ وعبيد الله الحيدريّ؛ ومحمّد أمين السويديّ وغيرهم، كانوا متهالكين في محبَّةِ الرجلِ، يدافعون عن بِدَعِهِ وضلالاته، وثَمَّ فئةٌ أخرى من هؤلاءِ الْملالي كانوا قد شَمَّرُوا عن ساعدِ الْجِدِّ لبثِّ الدعوةِ إلى هذا التيارِ الهندِيِّ الوافدِ على يدِ خالدِ البغدادِيِّ مِمَّا زادَ في انتشارِ أشكالِ الزندقةِ على مستوى المملكة العثمانية، وهذه الزَّنْدَقِيَّاتُ (الهندوسِيَّةُ)، تحوي بين طيَّاتِهَا ما يحتارُ لها العقلُ من أشتاتِ التحريفِ والتشويهِ للقِيَمِ والفوضى في الدين.

لكنَّ البغدادِيَّ نفسَهُ لم يألُ جهدًا في التَّزَلُّفِ إلى الأتراك لأجل مصالحِهِ، يظهر ذلك من خلالِ وثائقَ وردتْ على لِسانِ مَنْ أرَّخَ له ودوَّن مناقبَهُ. وهي جديرةٌ ببحثٍ مستقل. كما تشهد على هذه الحقيقة الكلمة المشهورة (باللغة الكردية) التي اعتادَ شوخُ النقشبندية من أخلافِ البغدادِيِّ وصفَ الأكرادِ بها وهي قولهم: "كُورْمَانْجِي پيس" أي "الأكراد الأقذار". هذه الكلمة لم ترد في المصادر، لأن الشيوح يستخدمونها عبر تناجيهم فحسب خوفًا من ردود الفعل. والغريب أن معظم هؤلاء الشيوح من أصول كردية!

[274] عبد المجيد بن محمّد بن محمّد الخانيّ، الحدائق الورديّة في حقائق أجلاء النقشبنديّة ص/ 233.

[275] ألَّفَ رسالةً بعنوان: السهم الصائب لمن سَمَّى الصالح بالمبتدع الكاذب، أو دفع الظلوم في عرض هذا المظلوم، أو القول الصواب في رد ما يسمى بتحرير الخطاب. وهو كتاب ألفه في الرد على رسالة معروف النودهي البرزنجي المسماة بـ(تحرير الخطاب)

[276] له رسالة سماها (ثماني نصائح)، رد فيها على معروف البرزنجي النودهي الذي اتهم حالدا البغدادي بالزندقة والكفر.

انتشلوا مصطلحاتٍ ومفاهيمَ من الإسلامِ وأُخرَى من الهندوسِيَّةِ ثم خَلَطُوا بعضَها ببعضٍ (بعد تعريبِها من اللغة السَّنْسِكْرِيتِيَّةِ، ونقلِها من الدياناتِ الهنديَّةِ). صنعوا منها تراكيب غريبةٍ على الإسلامِ مثل:« هوُشْ دَرْدَمْ، ونظَرْ بَرْقَدَمْ، وسَفَرْ دَرْوَطَنْ... إلخ»، وبثُّوها تحتَ سِمَةِ "الذِّكْرِ، وَالدُّعَاءِ والتَّقَرُّبِ إلى اللهِ ومحبةِ أوليائِهِ ونحوِهَا..." ذلك لِتغريرِ جَهَلَةِ الأعجامِ وجذبِهم إلى ظلماتِ الشركِ الْبَرَهْمِيّ–الْبُوذِيِّ، تماشيًا مع مزاجِ الإنسانِ الساذجِ الذِي لا تكادُ نفسُهُ تشبع بِوَسَطِيَّةِ الإسلامِ وسهولَتِهِ، بل يستزيدُ من الدُّعاءِ والعبادةِ ولو كان فيها من الإشراكِ باللهِ! وقد حدث من أمثال هذه السذاجةِ حتى في أيام الرسول ﷺ. فقد ورد عن أنس بن مالك ﷺ قَالَ: جَاءَ ثَلاَثَةُ رَهْطٍ إِلَى أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ فَلَمَّا أُخْبِرُوا بِهَا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا[277] فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ فَقَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَأُصَلِّى اللَّيْلَ أَبَدًا وَقَالَ الآخَرُ: إِنِّي أَصُومُ الدَّهْرَ فَلاَ أُفْطِرُ وَقَالَ الآخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ وَلاَ أَتَزَوَّجُ أَبَدًا فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْهِمْ فَقَالَ: «أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا... أَمَا إِنِّي لأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّى وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ... فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي».[278]

إنَّ من حذاقةِ الزنادقَةِ وبراعتِهِمْ في حِياكةِ الْحِيَلِ، لاستغلالِ الضمائرِ والعواطفِ، وتشويش أفكارِ الْحَمْقَى: أَنَّهم يَنْسِبُون أمورًا ومفاهيمَ غريبَةً إلى الدِّينِ الإسلامِيِّ لإكسابِهِ مزيدًا من الجاذِبِيَّةِ، ولِيُزَيِّنوا بِدْعَتَهُم في نظرِ العامِّيِّ الجاهلِ، حتى يَسْتَحْوِذوا عليه ويتمكَّنوا بذلك من استمالَةِ قلبِهِ والتَّحُكُّمِ فيه، فيجعلوا منه دُمْيَةً يتلاعبُون به ويَسْتَخْدِمُونه لِكسبِ الشُّهرةِ، وسحبِ الحشودِ من ورائِهِم، واختلاسِ الأموالِ، وتحقيق المصالح... فالزنديقُ عندما ينهضُ لبثِّ سمومِهِ في أدمغةِ جَهَلَةِ الأعاجِمِ وعوامِّ العربِ، تراه يَمْزُجُ بين الحقِّ والباطل، ويجمعُ بين الصحيحِ والْمُفْتَرَى في صيغةٍ واحدةٍ من تُرَّهَاتِهِ؛ يتناولُ مصطلحاتٍ وَمفاهيمَ من الكتابِ والسنَّةِ، ثم يُضِيفُ إليها ما ليس في الإسلامِ في شيءٍ، يعبثُ بِالدِّينِ وَيُقَلِّبُ الحقائقَ رأسًا على عقب، فلا يستطيعُ الجاهلُ الذي يستمعُ إليه أنْ يُفَرِّقَ بين ما هو صحِيحٌ وما هو مُنْدَسٌّ من الكذبِ والزورِ عبر كلامِهِ، فينجحُ الزيديقُ هكذا في محاولتِهِ لِجَذْبِ الإنسانِ الساذجِ الْمُنْبَهِر بِهِ، فيبتهجُ حين يشاهدُ جمهورًا من حُثالةِ الْبَشَرِ وهم يستمعون إليه بأشدِّ حالةٍ من الإنتباهِ والاستغراقِ في متابعته. كما كان يحدث أثناءَ خُطَبِ الدجالِ

---

[277] أيْ عدُّوها قليلة. ومعناه بشيءٍ من التفصيل: "إنَّ هذا القدرَ من العبادةِ قليلةٌ، والنبيُّ عليه الصلاة والسلام ليس مثلنا، فهو رجل قد غفر الله له ما تقدَّمَ مِنْ ذنبِهِ وما تَأَخَّرَ، فيعبُدُ أو لا يعبد، قد أخذَ الوعدَ من اللهِ عزَّ وجلَّ ألاَّ يُعَذِّبَهُ، بل يُدْخلهُ الجنَّةَ، وأما نحن فإنَّنا نحتاجُ إلى عبادةٍ بل وإلى مشقَّةٍ في العبادةِ حتى نحظَى بشيءٍ مما حَظِيَ به النبي عليه الصلاة والسلام، قالوا: لابد أنْ نُكَلِّفَ أنفُسَنَا أعظمَ من ذلك من الأعمال والعبادة والصلاح والتقوى والطاعة وغير ذلك،"

[278] رَوَاهُ الْبُخَارِىُّ فِى الصَّحِيحِ عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِى مَرْيَمَ وَأَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ ثَابِتٍ عَنْ أَنَسٍ رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُ.

فتح الله گولن. وهو من مشاهير زنادقةِ العصر! وسيأتي الكشف عن ضلالاته بالتفصيل إن شاء الله تعالى.

***

انتشرتْ الزندقةُ في المجتمعِ العثمانِيّ خاصةً بعد ظهورِ خالدِ البغدادِيّ وامتدَّتْ إلى أيَّامِنَا، ثم طغتْ بصورةٍ مُخْزِيَةٍ في الأوانِ الأخيرةِ وانفلتتْ من العنانِ فصارَ الحبلُ على الغاربِ، خاصَّةً فِي المجتَمَعِ التُّرْكِيّ، وذلك تحت وطأةِ تياراتٍ إلحادِيَّةٍ وعنصرِيَّةٍ وأيديولوجيَّةٍ وصوفيَّةٍ متضافرة؛ منها الأتاتوركيَّةُ، واليمينيَّةُ، واليساريَّةُ، والنقشبندِيَّةُ، والنورجِيَّةُ، واللادِينِيَّةُ والداعشيةُ، والگُولَنِيَّة، ومحاولةُ تتريكِ الدِّينِ والأقلّيّاتِ،...إلخ.

لقد كان للتيارِ النقشبندِيّ حظُّ الأسدِ في تحطيم أركانِ الاسلامِ على الساحة التركية؛ أسهمتْ هذه الطريقةُ الصوفيةُ في إشاعة ألوانٍ من الزندقة والإلحادِ بين الأتراكِ والأكرادِ والأقليات القاطنةِ في تركيا أكثر من أي تيارٍ آخر. كل ذلك انبثقتْ من تعاليمِ خالدِ البغدادي الذي اقتبسها من الهندوسيَّةِ ونقلها إلى الشرقِ الأوسطِ فور عودته من الهند عام **1811**م.

ولِلْبَرْهَنَةِ على هذه الحقيقةِ نذكرُ نُبذةً من الكفرياتِ التي جاءَ بها البغدادِيُّ ومَزَجَهَا بتعاليمِ الإسلامِ تحتَ ستارِ "الذكرِ"، و"الدعاءِ"، و"التعبُّدِ"، والتقرُّبِ إلى الله"؛ نذكرُ كُلَّ مثالٍ من هذه الكفرياتِ على حدةٍ مع شيءٍ من تحليلِهِ في ضوءِ الكتابِ والسنةِ، حتى يتبيَّنَ الحق من الباطل ويفتضحَ الْمُرْتَكِبُونَ لهذهِ الجنايات:

وَرَدَ في كتابٍ اسْمُهُ "السعادة الأبدية في ما جاء به النقشبندية" للمؤلّف عبد المجيد بن مُحَّد بن عبد الله الخاني (وهو ابنُ بنتِ خالد البغدادِيّ)، يقول بالحرف الواحد:

* "كيفيةُ أخذِ العهدِ على المريد: أنْ يأمرَهُ الشيخُ بالجلوسِ بين يديهِ مُتَوَرِّكًا عكسَ تورُّكِ الصلاةِ، بأن يجلسَ على وَرِكِهِ الأيمن وَيَنْصِبَ رجلَهُ اليُسرَى، ثم يُبَيِّنَ له محلَّ القلبِ وأنه صَنَوْبَرِيُّ الشكلِ تحت الثدي الأيسرِ بِإصبعين، ثم يستغفر اللهَ الشيخُ، والمريدُ يُتَابِعُهُ: خمسًا وعشرين مرةً، ثم يقرأ الشيخُ الفاتحةَ مرَّةً والإخلاصَ ثلاثًا، ويهدي مثلَ ثوابِهَا إلى صحيفةِ حضرةِ سيد المرسلين وخاتم

النبيين سيدنا محمدٍ صلى الله عليه وسلَّمَ، ثم إلى روحانيةِ إمامِ هذه الطريقة العلية الغوث الأعظمِ سيدنا وملاذِنا وأستاذِنا سلطان العارفين الشيخ مُحَمَّد بهاء الدين (شاه نقشبند)"[279]

لو صُرِفَ النظرُ عن جميع ما دَسَّهُ النقشبنديُّون بين تعاليمِ الإسلامِ من أشتاتِ خُزَعْبَلَاتِ الهنودِ، لَكَفَى ما ورد في هذهِ السطورِ الوجيزةِ من ضروبِ الزندقة أنْ تقومَ حجةً عليهم، وكيف أنَّهم قد حَلُّوا رِبْقَةَ الإسلام من أعناقِهم بأمثالِ هذه المفترياتِ على الدين الحنيف. وهذه ملاحظاتٌ سريعةٌ على هَفَوَاتِ عبد المجيد الخاني:

أولاً: يَتَنَطَّعُ الخانيُّ بِقولِهِ: "كيفيةُ أخذِ العهدِ على المريد"؛ فيحاول أنْ يُلْبِسَ على المسلمين أنَّه لابدَّ لكلٍّ منهم أن يتَّخِذَ شيخًا من الصوفية فيتذلَّلَ بين يديهِ، وينسلِخَ من إرادَتِهِ فيُسَلِّمَهَا له بصورةٍ مُطلَقَة،[280] كما يصفُ الجلوسَ بين يديِ الشيخِ: أنْ يكونَ طالبُ العهدِ خاشعًا بين يديه، مُحَقِّرًا لِنَفْسِهِ، مُعَظِّمًا لهذا الشيخِ (الذي سيركبُ رَقَبَتَهُ فيما بعدُ ويستخدمُهُ في أغراضِهِ!). وهذه فريةٌ على الدِّينِ الحنيفِ لا تَمُتُّ بِصِلَةٍ إلى الاسلام أبدًا، ولن يتمكَّنَ النقشبنديُّون من إثباتِ هذه الْمُخْتَلَقَاتِ بأدنى دليلٍ من الكتابِ والسنَّةِ. بل الإسلامُ قد عظَّمَ شأنَ العلمِ والعالِمِ، وأوضحَ أساليب التَّعْلِيمِ وَالتَّعَلُّمِ في ضوءِ الكتابِ والسنَّةِ، وهي مشروحةٌ في مصنَّفاتِ علماءِ الإسلامِ، كما جاءَ الأمرُ بمتابعةِ أثرِ الرسول ﷺ في التَّعْلِيمِ وَالتَّعَلُّمِ، (وليس بالانزلاقِ وراءَ شيوخِ الصوفية المتزمّتين إلى مُسْتَنْقَعِ التصوف والزندقة!). قال رجلٌ لابنِ عباس رضي الله عنه: "الحمد للهِ الذي جعل هوانا على هواكم – يريد أنْ يُلْبِسَ عليه – فقال ابنُ عباسٍ رضي الله عنه: "الْهَوَى كُلُّهُ ضَلَالَةٌ"[281] نعم، لا شكَّ في أنَّ مقولاتِ الصوفيةِ وما وضعوها من مصطلحاتٍ، وما رتَّبوها من عباراتٍ مزوَّرَةٍ ومزخرفةٍ بِسِمَةِ آدابِ

---

[279] عبد المجيد بن مُحَمَّد بن عبد الله الخاني، السعادة الأبدية في ما جاء به النقشبندية، ص/**13،12**. وقف الإخلاص، مكتبة الحقيقة، إسطنبول–**1992**م.

[280] ورد في كثيرٍ من كُتُبِ الصوفيَّةِ أنه يجبُ على مريدِ الطريقةِ أنْ يكونَ مُسْتَسْلِمًا، مُنْقادًا، راضيًا، بتصرُّفاتِ الشيخِ؛ يخدُمُهُ بالمالِ والبدنِ. يقولُ الخانيُّ في كتابهِ (السعادة الأبدية فيما جاء به النقشبندية/**20**) ما نصُّهُ:"آدابُ صحبةِ المريدِ مع الشيخِ كثيرةٌ، منها وهو أهمها: أنْ يُقصّرَ اعتقادَه على شيخهِ جازمًا بأنه لا يحصلُ مطلوبُهُ إلاَّ على يدِ هذا الشيخِ. فإذا تشتّتَ نظرُهُ إلى شيخٍ آخر حُرِمَ نفعَ الأولِ، وانسدَّ عليه بابُ الإمدادِ الإلهيّ! ومنها: أن يكونَ راضِيًا بتصرُّفِ الشيخِ في أمورِهِ، مُنقادًا له، مُسَلِّمًا لأوامِرِهِ، مبادِرًا لامْتِثَالِهِ، بلا إهمالٍ ولاَ تأويل. وقد ذكرَ مُحَمَّد أمينُ الكردِيُّ شعرًا في كتابِهِ تنوير القلوب (ص/**528**) يُبَيِّنُ فيه كيف يكون موقفُ المريدِ من شيخِهِ فيقول:

وكُنْ عندَهُ كالميّتِ عند مُغْسِلٍ * يقلّبُهُ ما شاءَ وهو مطاوِعُ

ولا تعترضْ فيما جَهِلْتَ مِنَ أمْرِهِ * عليهِ فإنَّ الاعتراضَ تنازعُ

وسلِّمْ له فيما تراهُ ولو يكنْ * علَى غيرِ مشروعٍ فثَمَّ مخادعُ "

يجب على المسلمين أن يكونوا على حذر من أمثالِ هذه الأقاويل الجريئة، فإنَّ الإسلامَ بريئ منها على الإطلاق، وهي مزالِقُ الأقْدامِ إلى النار!.

[281] أَخْبَرَنَا ابْنُ الْمُبَارَكِ أَبُو عَلِيّ بْنُ الصَّوَّافِ، قَالَ: حَدَّثَنَا بِشْرُ بْنُ مُوسَى، قَالَ: حَدَّثَنَا مُعَاوِيَةُ بْنُ عَمْرٍو، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ الْفَزَارِيّ، عَنِ ابْنِ عُيَيْنَةَ، عَنْ مَعْمَرٍ، عَنِ ابْنِ طَاوُسٍ، عَنْ أَبِيهِ. الإبانة الكبرى لابن بطة.

الذِّكْرِ والدُّعاءِ، مَنْشَؤُهَا جميعًا العجمةُ، والجهلُ، وحظُّ النفس، وتقليدُ المشركين من البوذيَّة، والبرهميَّةِ، والمسيحيةِ، والفلسفة اليونانية، والاستعانَةِ بالاسرائيليَّاتِ والأساطيرِ عن هوًى... وكلُّ هوى ضلالةٌ كما قال ابنُ عباسٍ ﷺ، إنّما النجاة في اتباع الأثر. وحُكِيَ للإمامِ مالك بنِ أنسٍ ﷺ: أنَّ رجلاً حضرهُ الموتُ، فقيل له: على أيِّ دينٍ تموت؟ فقال: أموتُ على دين أبي عُمَارَةَ، وعلى مِلّةِ أبي عُمَارَةَ –كأنّه رجلٌ كان مبتدِعًا من أهلِ الأهواءِ – فقال مالكٌ: يَدَعُ المشئومُ دينَ أبِي القاسمِ ويموتُ على دين أبي عُمَارَةَ؟!"

ثانيًا: يَتَنَطَّعُ الخانِيُّ أيضًا بِوَصْفِ جلوسِ طالبِ العهد، "مُتَوَرِّكًا عكسَ تورُّكِ الصلاةِ"، و"أنْ يستغفرَ اللهَ الشيخُ، والمريدُ يُتَابِعُهُ: خمسًا وعشرين مرةً، وَأنْ يقرأَ الشيخُ الفاتحةَ مرَّةً والإخلاصَ ثلاثًا، ويهدِيَ مثلَ ثوابِها إلى صحيفةِ حضرةِ سيد المرسلين...إلخ".

أين دليلُ الخانِيّ من الكتابِ والسنةِ على هذه الترتيبات الدَّخِيلةِ، والتركيبات الْمُلْتَوِيَةِ، والتحريفاتِ الشنيعةِ! كُلَّ ذلك أكاذيب، يَتَحَزْلَقُ بها الخانِيُّ على حسابِ الدِّينِ الحنيفِ، يحاول لِيُزَخْرِفَ بها ما جاءَ به جَدُّهُ البغداديُّ من آدابِ الهندوسِ ومَزَجَ بها من الأذكارِ النبويَّةِ والآياتِ القرآنيَّةِ، لِتَعْمِيَةِ العوامِّ الهوامِّ ليس إلاَّ. يريدُ الخانِيُّ أنْ يخدعَ الجهلةَ بمثلِ هذهِ الصِيَغِ الْمُخْتَلَقَةِ، فَيَصْرِفَ اهتمامَهُم عن جهودِ علماءِ المسلمين الذين أفردوا كُتُبًا قَيِّمَةً في أدعيةِ الرسولِ ﷺ وأذكارِه الشريفةِ؛ منهم العالِمُ الرَّبَّانِيُّ الجليلُ: أبو زكريا يحيى بْنُ شرفِ النَّوَوِيُّ الدمشقِيُّ، وقد جَمَعَ أذكارَ النبي ﷺ في كتابهِ الشهير: "حِلْيَة الأبرار وشعار الأخيار في تلخيصِ الدَّعَواتِ والأذكار" المعروف بـ"الأذكار النووية". ولا يخفى على العقلِ الناضجِ ما لَفَّقَ النقشبنديُّونَ مِنْ أمثالِ ما نُقِلَ آنفًا عن الخانِيّ مِنْ تُرَّهَاتٍ ومُفْتَرَيَاتٍ احتالوا في ترتيبِها بالجمعِ بين آدابِ الإسلامِ وتعاليمِ الهندوسِ ضِمْنَ تركيباتٍ ماكرةٍ قد يعجزُ كثيرٌ من الناسِ عن التمييزَ بينها وبين المأثورِ، فيعتقدون أنَّ كلَّها من الإسلام! ويجب التأكيد هنا على أن الدعاءَ والعبادةَ في الإسلامِ (تَوْقِيفِيَّةٌ)، قد حدَّدها الكتابُ والسُّنَّةُ، وليس لأحدٍ أنْ يُغَيِّرَ شيئًا من صِياغتِها وطُرُقِ أدائِها، وهي مفصَّلةٌ في مصادرِ السنَّةِ والفقهِ الإسلامِيّ.

ثالِثًا: يَتَشَدَّقُ الْخَانِيُّ، فيقول: "ثم (يهدِي مثلَ ثوابِها) إلى روحانيةِ إمامِ هذه الطريقة العلية الغوث الأعظمِ سيِّدِنا وملاذِنا وأستاذِنا سلطان العارفين الشيخ مُحَمَّد بهاء الدين (شاه نقشبند)".

يتجرّأ الخائِنُ على أهلِ المعرفة بمثلِ هذا الأسلوب المناقض للآدابِ المتعارَفَةِ، ويتهاونُ بالأمانةِ العلميةِ، فَلاَ يفكّرُ فيما لو يَطَّلِعُ خبيرٌ متخصّصٌ في علمِ تاريخ الأديانِ والمذاهِبِ، فيكشفُ اللثامَ عن شخصيةِ هذا المجهول. لا يبالي الخائِنُ بهذا الاحتمالِ، بل يُعَظِّمُ الرجلَ بألقابٍ غريبةٍ لا يُقِرُّهَا الإسلامُ، ولا نجدُ لهذه الألفاظِ ذكرًا في الكتابِ والسنة، لاَ بنفسِ المعاني المقصودةِ عند الصوفية ولا بغيرِها، كما لا نجدُ اسمَ هذا الرجلِ ضِمنَ طبقاتِ علماءِ الإسلام أبدًا. إنَّ لَقَبَيْ "الغوثِ الأعظمِ" و"سلطان العارفين" الوارِدَينِ على لسان الخائِنِ وأمثالَهما من الصفات التي يخلعُها الصوفِيَّةُ عادةً على أوليائِهم، كُلُّها مستحدثةٌ لا أصلَ لها في الإسلامِ، كما أنَّ كُتُبَ الصوفيَّةِ الأوائِلِ أيضًا خاليةٌ من هذه الألقابِ، كالرسالةِ القشيرية على سبيل المثال. فقد وردتْ فيها جَمْهَرَةٌ من المصطلحاتِ ومعظمُها مسروقةٌ من الإسلامِ، بينما لا ذكرَ فيها لمفهومِ الغوثِ، والقطبِ، والبدل، والوتد...[282] وهي أسماءُ رُتَبِ أولياءِ الصوفيةِ.

أما (مُحَمَّد بهاء الدين البخاري)، هذا الذي يُفَخِّمُهُ الخائِنُ ويُبالِغُ النقشبنديُّونَ في تعظيمِهِ بلقبِ "شَاهِ نَقْشَبَنْد": يكادُ يُعَدُّ مِنَ المجاهيلِ، لَوْ لاَ وردَ ذكرُهُ في كتابٍ اسْمُهُ "رشحات"، أَلَّفَهُ قَصَّاصٌ من بُسَطَاءِ دراويشِ الأتراك، يُدعَى صفي الدين علي بن الحسين الكاشفي الواعظ (1462–1533م.)، كتبه باللُّغَةِ الفارسيَّةِ، ثم عَرَّبَهُ مُحَمَّد مراد القازاني، ونقله إلى اللُّغَةِ التركيَّةِ العثمانِيَّةِ مُحَمَّد شريف العباسي عام 1584م. في عهد السلطان مراد العثماني الثالث.

يزعم النقشبنديُّون أن محمدًا بهاء الدين البخاري[283] هو المؤسِّسُ للطريقةِ النقشبندية، إلاَّ أنَّ كلامَهم حولَ ظهور هذا التيارِ الصوفِيِّ، فيه تناقضاتٌ واضطرابٌ، لأنّهم تارةً يدَّعونَ أنَّ أبا بكر

---

[282] المصطلحات الواردة في الرسالة القشيرية عددها تربو على مائةِ مصطلحٍ، وهذه ألفاظُها:
الوقتُ، والمقامُ، والحالُ، والقبضُ والبسطُ، والهيبةُ والأنسُ، والتواجدُ، والوجدُ، والوجودُ، والجمعُ، والفرقُ، والفناءُ، والبقاءُ، والغيبةُ، والحضورُ، والصحوُ، والسكرُ، والذوقُ، والشربُ، والمحوُ، والإثباتُ، والسترُ، والتجلّي، والمحاضرةُ، والمكاشفةُ، والمشاهدةُ، واللوائحُ، والطوالِعُ، وللوامِعُ، والبوادِهُ، والهجومُ، والتلوينُ، والتمكينُ، والقربُ، والبعدُ، والشريعةُ، والطريقةُ، والحقيقةُ، والنَّفَسُ، والخواطرُ، وعلمُ اليقينِ، وعينُ اليقينِ، وحقُّ اليقينِ، والوارِدُ، والشاهدُ، والنَّفْسُ، والروحُ، والسرُّ، والتوبةُ، والمجاهدةُ، والخلوةُ والعُزلةُ، والتقوَى، والورعُ، والزهدُ، والصمتُ، والخوفُ، والرجاءُ، والحزنُ، والجوعُ، وتركُ الشهوةِ، والخشوعُ، والتواضُعُ، ومخالفةُ النفسِ، وذكرُ عيوبِها، والحسدُ والغيبةُ، والقناعةُ والتوكُّلُ، والشكرُ واليقين، والصبرُ والمراقبةُ، والرضا، والعبوديَّةُ، والإرادةُ، والإستقامةُ، والإخلاصُ، والصدقُ، والحياءُ، والحريةُ والذكرُ، والفُتُوَّةُ، والفراسةُ، والخُلُقُ، والجودُ، والسخاءُ، والغَيْرَةُ، والولايةُ، والدعاءُ والفقرُ، والتصوُّفُ والأدبُ، والصحبةُ، والتوحيدُ، والمعرفةُ باللهِ، والمحبّةُ، والشوقُ، وحفظُ قلوب المشائخ، وتركُ الخلافِ عليهم، والسماعُ، وإثباتُ كراماتِ الأولياءِ... (منقول من فهرس رسالة القشيرية لأبي القاسم عبد الكرين بن هوازن). يتضح من محاولة الجمعِ بين هذه الألفاظِ المتنوعِ في كتابٍ واحد، يتضح منها مدى خبطِ الصوفيةِ وعبثِهم بالمفاهيم واحتيالهم في الوضع والتزوير والإنتحالِ تحت ستار الزهد والتقوى وهم أبعد عباد الله منهما.

[283] معروفٌ بين الأتراك بلقبِ (شَاهِ نَقْشَبَنْد). لا ذكرَ له في طبقاتِ علماءِ الإسلام، شخصيتُهُ غامضةٌ. يبالغ الأتراك في إجلالِهِ، وَيُؤَلّهُهُ النقشبنديُّون بخاصَّةٍ، يَنسبون إليه كراماتٍ أسطوريَّةً لا أصلَ لها في الحقيقة. قيل وُلِدَ سنة: **718**هـ./**1318**م. ومات سنة: **791**هـ./**1389**م.

الصديق ﷺ هو أوَّلُ شيخٍ بَدَأتْ به الطريقةُ النقشبنديَّةُ! (وهذا كذِبٌ محضٌ) لأنَّ مصطلحَ "النقشبندية" لم يكُنْ شيئًا مذكورًا في أيامه ﷺ، وتارةً يزعمون أن أوَّلَ مَنْ وَضَعَ أركانَ طريقتِهم هو عبدُ الخالقِ الغُجْدَوَانِيُّ، جاءَ بثمانية مبادئَ،[284] ثم أضاف مُحَمَّد بهاء الدين إليها ثلاثةَ مَبَادِئَ أخرى[285]، فبلغتْ أحد عشر مبدءًا. كلها مأخوذةٌ من تعالِيمِ الراهبِ الهنديِّ (بيتنجل Patanjali).

إن مفهومَ "الشيخ" في الدِّين النقشبنديّ" هو صفةٌ يُطلِقُونَها على شخصيةٍ "ينوبُ عن اللهِ بالتصرُّفِ في مُلْكِهِ، ويعلمُ السِّرَّ وما يخفى، وإنه وسيطٌ بين مُرِيدِهِ وبين الله.." إلى غير ذلك مما يصعب حصره من الشرك البواحِ. تعالى الله عما يقوله الفاسقون! يبرهنُ على هذه الحقيقةِ ما تَفَوَّهَ به أحدُ الزنادقةِ المعاصرين في تركيا[286] وأملاه على رهطٍ من أنصاره، يقول: "إذا حدثتْ فكرةٌ في مُخَيِّلَةِ الذَّاكرِ حولَ ذاتِ اللهِ، يجبُ عليهِ أنْ يُحَوِّلَ هذه الفكرةَ إلى وُجْهَةِ الشيوخِ الذِّين هم وُكَلاَءُ اللهِ وخُلَفَاؤُه. إنَّما بهذه الطريقةِ يستطيعُ أنْ يُنْقِذَ المرْءُ نَفْسَهُ من الخطرِ. وهذه يُعَدُّ من فوائدِ الرابطة"[287] نعم، قد وردتْ أقوالٌ جريئةٌ على لسان شيوخِ النقشبنديَّةِ (من أمثال هذه الهزياناتِ) في مختلف مصادرهم، كلُّها تتَّفِقُ على أنَّ شيخَ الطريقةِ هو الواسطةُ بين اللهِ وبين مريدِيهِ، ولذلك ألزموا اتِّبَاعَهُمْ بالانقِيادِ المطلَقِ للشيخ. ومن أشهرِ هذه الأقوالِ تُرَّهَاتُ مُحَمَّد أمين الكردي الأربلي. يقول في كتاب له:

---

[284] وهي: "هُوشْ دَرْدَمْ، نَظَرْ بَرْقَدَمْ، سَفَرْ دَرْ وَطَنْ، خَلْوَتْ دَرْأَنْجُمَنْ، يَادْ كَرْدْ، بَازْ كَشْتْ، نِكَاهْ دَاشْتْ، يَادْ دَاشْتْ". المصدر: **محمّد أمين الكرديّ الأربلي**، تنوير القلوب في معاملة علام الغيوب ص/ **506–507**. طبعة مصر – **1384** هـ. ورد تعداد هذه المباني الأحد عشر في المصادر التالية من كتبهم بما فيها المصدر السابق: **1**) علي بن الحسين الواعظ، رشحات عين الحيات ص/ **32–41**؛ **2**) محمّد بن عبد الله الخانيّ، البهجة السنيّة في آداب الطريقة النقشبنديّة، ص/ **50–54** طبعة مصر – **1319**هـ؛ **3**) عبد المجيد بن محمّد بن محمّد الخانيّ، الحدائق الورديّة في حقائق أجلاء النقشبنديّة ص/ **112–117**؛ **4**) علي قدري، الرسالة البهائية (ترجمة: رحمي سرين) ص/ **77–93**. إسطنبول–**1994**م. **5**) Ahmed Zıyâüddîn, Hayatı Dr. İrfan Gündüz
Dr. Selcuk Eraydin, Tasavvuf ve Tarikatlar, (**6** ve Eserleri. Pg. 234-236 Seha Publishing Istanbul-1984
Faruk Meyan, Şah-i Naksibend Pg. 69-78 Cile Publishing Istanbul (**7** Pg. 376-380. Istanbul-1994

[285] وهي: "وقوف زماني، وقوف عددي، وقوف قلبي.

[286] هذا الدجال؛ أُلعوبَةٌ في يدِ الدولة السريَّةِ التابعةِ للحكوماتِ التركيَّةِ، أقامَتْهُ جهازُ المخابراتِ التركيَّةِ في حيِّ شَرْشَنْبَه بمنطقة (الفاتح) من مدينةِ إسطنبول منذ عقودٍ، حيث يكثُرُ فيها العربُ واللاجئون السوريون، وأشتاتٌ من فئات الأوْغَادِ وَالطَّغامِ. يقومُ أعوانُهُ ببثِّ الطريقة النقشبندية بين هذه الفئاتِ، ويحاولون في الوقتِ ذاته أن يَتَصَيَّدُوا العلماءَ السوريّين بخاصةٍ، وذلك لتطبيع السوريين وصهرِهم في البوتقةِ التركية، وليقضوا على المسحة العربية في العنصر العربي.

هذا الدجال – في الواقع – رجل غبِيٌّ وجاهِلٌ بالاسلامِ، كما هو من أجهل الناسِ بأمور الدنيا. لكنَّ طبولَ الدِّعَايَاتِ جمعتْ حولَهُ ملايين من الناسِ منذ أربعين عامًا لأسبابٍ، أهمها: إنه ينحدرُ من سلالةٍ بُنطُسِيّةٍ يونانية، له عشيرةٌ كثيفةٌ من هذه السلالةِ. اعتنقوا "المسلمانية Müslümanlık" عام **1461**م. وهو دين الأتراكِ، وذلك بحكم السيفِ، عقبَ فتحِ مدينة طربزون التي كانت عاصمتَهم، فاستغلَّهُمْ الغثمانيُّون في أعمالِ الجاسوسيَّةِ والضغطِ على الأروام (من بقايا البيزنطيّين من بني جلدتهم)، فتطوَّرَتِ العلاقات بين الطرفين يستفيدان منها إلى اليوم، والقصةُ يضيق عنها المقام!

[287] المصدر: RUHU’L-FURKAN، ص/**74**، المجلد/**2**. مكتبة سراج، إسطنبول–**1992**م. وهذه كلماته باللغة التركية وبالحرف الواحد:
«Zikreden kişiye Allah’ın zatı hakkında bir düşünce geldiğinde, bu düşünceyi Allah’ın vekili ve halifesi olan kişilere çevirmekle kendini tehlikeden kurtarmış olur ki, bu da rabıtanın faydalarındandır.»

"آداب المريد كثيرة جدًّا اقتصرنا على بعضِ الْمُهِمَّاتِ، وأعظمُها؛ أنْ يُوَقِّرَ المريدُ شيخَهُ ويُعَظِّمَه ظاهرًا وباطِنًا معتقِدًا أنه لا يحصلُ مقصودُهُ إلاَّ على يدِهِ، وإذا تشتّتَ نظرُهُ إلى شيخٍ آخرَ حرَّمهُ من شيخِهِ وانْسَدَّ عليه الفيضُ. ومنها: أنْ يكونَ مستسلِمًا مُنقادًا راضِيًا بتصرُّفاتِ الشيخِ، يخدمُهُ بالمالِ والبدنِ، لأنَّ جوهرَ الإرادةِ والمحبَّةِ لا يتبيّنُ إلاَّ بهذا الطريقِ. ووزنُ الصدقِ والإخلاصِ لا يُعلَمُ إلاَّ بهذا الميزانِ. ومنها: أنْ لاَ يعترضَ عليهِ فيما فَعَلَهُ ولو كان ظَاهِرُهُ حرامًا! ولا يقولَ له لِمَ فعلتَ كذا؟ لأنَّ مَنْ قالَ لشيخِهِ: لِمَ؟ لا يُفلِحُ أبدًا!"

هذه – ولا شك – كُلُّها هُرَاءٌ وهَفَوَاتٌ سخيفةٌ مستقاةٌ من الهندوسيَّةِ، ومفترياتٌ على دين الله الذي بعثَ به محمدًا ﷺ، فالاسلامُ براءٌ من هذه الشِّرْكِيَّاتِ الهنديَّةِ التي جاءَ بها خالد البغداديُّ وبثها في دِيار الاسلامِ. لا يزالُ يَتَّجِرُ بها شيوخُ النقشبنديَّةِ ويساندُهم في هذه التجارةِ الْمُحَرَّمَةِ رجالُ السياسَةِ وأصحابُ الشركاتِ لأجل مصالحهم.

أمَّا قول الكردِيّ " أنْ لاَ يعترضَ (أي المريدُ) عليهِ (أيْ على شَيْخِهِ) فيما فَعَلَهُ ولو كان ظَاهِرُهُ حرامًا"، فهو من أخطرِ وأبشعِ جناياتِ النقشبنديّين على الإسلامِ، كما هو حُجَّةٌ تقومُ عليهم إلى يوم القيامةِ، إذ يُعَدُّ قولُهم هذا تكذيبًا لِما ورد في الكتابِ والسنة من النهي عن المنكر. كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا. فقد لعن الله بني إسرائيلَ لامتناعِهم عن نَهْيِ مَنْ ارْتَكَبَ منهم المنكر. قال تعالى: "لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ، لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ."[288]

لقد جُنَّ جنُون الزندقةِ وأصبحتْ تثورُ مثل البركانِ فتنصَبُّ على جميعِ بقاعِ الشرقِ الأوسَطِ خاصَّةً منها العراق، وسوريا، ولبنان، وتركيا، فتحوّلت هذه المناطقُ إلى ميدانِ السباقِ للنقشبنديّين منذُ عادَ البغدادِيُّ من رحلتِهِ التي أثارتْ يومئذٍ تساؤلاتٍ كثيرةً، لكنَّهُ ما لبثَ حتى أسرعت الحكومةُ العثمانيَّةُ إلى مساندةِ البغداديّ لكسبِهِ واستخدامِ أنصارِهِ في حربِ الوهابيين، فأسكتتْ أصواتَ معارضِيهِ وأحبطتْ نشاطاتَهم بأشكالٍ من العقوباتِ أهونُها فرضُ الإقامةِ الإجباريَّةِ. (ومِنْ أشهرِ مَنْ تعرّضَ لهذه العقوبة: عبد الوهاب السوسي، وحمدي الداغستاي الذين أصدرَ السلطان محمود الثاني فرمانًا

[288] المائدة/78، 79

سلطانيًا بالإقامةِ الإجباريَّةِ عليهما في المدينة المنورة). ولا نبالغُ أنْ نقولَ: إنَّ الزندقةَ أخذتْ في التنامي والانتشارِ، بعد أن حصد النقشبنديُّون مكاسبَ يضيق المقامُ عن حصرِها على خلفيةِ الحروب التي دارتْ بينهم وبين الوهابيِّين عبر حقبةٍ تزيدُ عن قرنين.

ثم خلا البغداديُّ فملأَ فراغَهُ جمهورٌ من الزنادقةِ، أكثرهم كانوا من الأتراك والأكرادِ، وبعضهم كانوا عربًا، يأتي على رأس العناصر العربية منهم خمسةٌ: أولهم: مُحَمَّد أمين بن عمر بن عبد العزيز المعروف بابن عابدين الفقيه (؟) الدمشقي (**1198** هـ/**1784**–**1252** هـ/**1836**) مؤلِّفُ الرسالةِ الشهيرةِ «سلّ الحسام الهنديّ في نصرة مولانا خالد النقشبنديّ»، والذي صلَّى على جنازةِ خالدِ البغداديِّ. وثانيهم: هو الحسينُ الدوثريُّ،[289] مؤلِّفُ الكتابِ الموسوم: "الرحمة الهابطة في ذكر اسم الذات والرابطة." وثالثهم: محمود شهاب الدين أبو الثناء الحسينيُّ الآلوسِيُّ المفسر، مؤلِّفُ التفسيرِ المعروفِ بِ"روحِ المعاني في تفسيرِ القرآنِ العظيمِ والسبعِ المثاني."(**1217**–**1270** هـ)،(**1803** – **1854**م)، حَزِنَ الرجلُ حُزْنًا شديدًا على موتِ خالدِ البغداديّ وشرَحَ قصيدةَ رثاءٍ للشاعر مُحَمَّد الجواد، يقول الآلوسِيُّ في مقدِّمةِ شرحِهِ: "إذْ حظيتُ بقصيدةٍ كالقمر ليلةَ تمامِهِ، وكالزهرِ المخبُوّ في أكمامِهِ، قد حوتْ دقائقَ التصوّفِ والعلومِ، وجمعتْ بين الفصاحةِ والبلاغةِ ما فاقَ به على قصائدِ امرئِ القيسِ وعمرو بن كلثوم..."، يواصِلُ الآلوسِيُّ التعبيرَ عن أحزانِهِ على هذا المنوال عَبْرَ سجعِهِ ومُبالغاتِهِ إلى أن يقول: "رثا بها حضرةَ قطبِ دائرةِ الإرشاد، ودليلِ السبيلِ والسلوكِ إلى ملكِ الملوكِ وربِّ العبادِ (...) قُرَّةِ عين البريَّةِ، ومَفْخَرِ مشائخِ الطريقةِ النقشبندية، العابدِ الزاهدِ حضرة مولانا ضياء الدين أبي البهاء الشيخ خالد الأمويّ الكردِيّ...إلخ." هكذا يفتضحُ الآلوسِيُّ بمدحِهِ لشخصٍ أثارَ فتنةً لاتزالُ تعصفُ بملايين الناسِ، منذ قرنين من الزمن في الشرق الأوسطِ.

نعم، لقد مهّدتْ فتنةُ البغداديّ الظروفَ لاندلاعِ حروبٍ مذهبيةٍ طاحنةٍ لا تزالُ تشتعِلُ بين عشراتٍ من العصاباتِ الإرهابية في أنحاء المنطقةِ ذهبتْ ضحيَّتَها ملايينُ الأرواح. وهذه العصابات؛ فِرَقٌ تشعَّبَتْ وامتدَّتْ من النقشبنديَّةِ (كالجماعاتِ الصوفِيَّةِ المبعثرَةِ على الساحَةِ التركية) تُجَنِّدُهَا الحكومةُ التُّرْكِيَّةُ وتستخدِمُها في دحرِ المعارضين وحربِ الخوارج (اللاَّدِنيَّةِ، والداعِشيَّةِ)، كما تستخدمها أيضًا في قمعِ أهلِ التوحيدِ من الأتراك والأكراد والأقلِّيَّات...

[289] كان حيًّا سنة **1244**هـ.

ورابعُ مشاهير الْمُفْتَتِنين بالبغداديّ من خواجوات العرب: أحمد بن سليمان الأروادي اللبناني. أقام في إسطنبول فترة قصيرةً، كان له أتباعٌ من الأتراك، أشهرهم: أحمد ضياء الدين الكموشخانوي. والرجلُ الخامسُ منهم: هو يوسف بن إسماعيل بن يوسف النبهاني (1265- 1350هـ./1849- 1932م)، كان نقشبنديَّ المشربِ، إلاَّ أنه ليس من الفرقة الخالِدِيَّةِ. بل أخذ العهدَ على يدِ رجلٍ هندِيّ اسمه: إمدادُ اللهِ الفاروقي. يُعَدُّ النبهاني من أشدِّ الزنادقةِ دهاءً ومكرًا وشراسةً... كان متوغّلاً في الشعوذةِ، سَحَّارًا خطيرًا، له أثرٌ كبيرٌ في نشرِ الزندقة وإثارة الفوضى الفكريّ والديني في المنطقة. استطاعَ أنْ يَفْتِنَ الكثيرين عن دينِهم ويخلبَ ألبابَهُمْ ببلاغتِهِ السحريَّةِ، وأدبِيَّاتِه الْمُطَنْطَنَةِ. إنَّ شخصيةَ النبهانِيّ يُذَكِّرُنا بحديثٍ للنبي صلى الله عليه وسلّمُ عن أبي هُرَيْرَةَ ﷺ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَخْرُجُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ رِجَالٌ يَخْتِلُونَ الدُّنْيَا بِالدِّينِ، يَلْبَسُونَ لِلنَّاسِ جُلُودَ الضَّأْنِ مِنَ اللِّينِ، أَلْسِنَتُهُمْ أَحْلَى مِنَ السُّكَّرِ، وَقُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الذِّئَابِ، يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَبِي يَغْتَرُّونَ أَمْ عَلَيَّ يَجْتَرِئُونَ؟ فَبِي حَلَفْتُ لأَبْعَثَنَّ عَلَى أُولَئِكَ مِنْهُمْ فِتْنَةً تَدَعُ الْحَلِيمَ مِنْهُمْ حَيْرَانًا."[290]

لا يزالُ اليومَ أعدادٌ كبيرةٌ من الطبقة الخامسة والسادسة والسابعة من أخلافِ البغدادِيّ منتشرين في أنحاءِ تركيا، يمارسون تعاليمَهُ الوثنيةَ، ويقيمون طقوسَهُ حتى داخلَ المساجدِ! كلُّهم يستقون اليومَ من ثؤرِهِ، ويتنعَّمون بميراثِهِ؛ يستغلّونَ اسمَهُ في إضلالِ الناسِ وصدِّهم عن توحيدِ الله، واحتكارِ القِيَمِ لكسبِ الحطامِ والشهرةِ والرئاسةِ... اشتهروا بين قطعانِ العوامّ تحتَ سِمَةِ العلمِ بينما هم أبعدُ العبادِ من عالَمِ المعرفَةِ. يتهافتُ عليهم آلافٌ من الرعاعِ والأوغادِ من مُدْمِني الخمورِ والمخدّراتِ، بل ملايين ممن أصابتْهم نوائبُ الدهر، يقصدونهم للاستغاثة بهم تحت ضجيج الدعاياتِ. لكنَّ بعضَ أوكارِ الزندقةِ كان أكثرَ حظًّا من غيره في كسب الشهرة والمال. ولعلَّ (الأسرةَ التاغِيَّةَ الكردِيَّةَ) تأتي على رأسِ جميع منابع الزندقة النقشبندية في الشرق الأوسطِ.

اتّخذتْ هذه الأسرةُ من قرية (نُورْشِين Norşin)، مقرًّا لها، وهي تقع على مقربةٍ من مدينة (بِتْلِيس Bitlis) بشرق تركيا. تُواصِلُ نشاطَها منذ قرنين. أقامتْ هذه الأسرةُ وكرًا آخرَ نيابةً عنها في شمال سوريا قربَ مدينة قامشلي (بقرية تل معروف)، عُرِفَ بـ"التَّكِيَّةِ الْخَزْنَوِيَّةِ"، فكانت حربًا على الإسلامِ في هذه المنطقةِ وطوفانًا في إثارة الفوضى الدِّينِيّ منذ حقبةٍ تبلغ قرنًا من الزمن. وما لبث حتى فرخت الخزنويةُ أسرةً أخرى ظهرتْ أولاً بضواحي مدينة (بِتْلِيس Bitlis) المذكورة، ثمَّ نقلها جهازُ المخابراتِ إلى قريةٍ اسمها (مَنْزِل) قُرْبَ مدينة (آدِيَمَانْ Adıyaman) لتكون آمنةً ولتتمكَّنَ من التعاون مع

[290] لمزيد من المعرفة عن شخصية النبهاني، يوصى بمراجعة الكتاب الموسوم "غاية الأماني في الرد على النبهاني، تأليف: أبو المعالي محمود شكري الألوسي."

الحكومة في تطبيعِ المشاعِرِ وتطويعها، وترسيخ الْمُسْلُمَانِيَّةِ في مواجهة نشاطاتِ أهل التوحيد ولِتطويقهم! لهذه الأسرةِ قصَّةٌ غريبةٌ يجدرُ أن يُفرَدَ لها بحثٌ مستقلٌ. قد أصبحتْ هذه الأسرةُ مع الملايين الْمُلْتَفَّةِ حولهَا من أقوى الدعائِم التي تعملُ على ترسيخِ مخالِبِ الحكومَةِ الأردوغانيَّةِ في قلبِ الشرق الأوسط![291]

إن الزنادِقَةَ الخالديَّةَ في الواقع يضيق الحصرُ عن تعدادِهِم، وذكرِ نشاطاتِهم، ومدى آثارهم في هدمِ أركان التوحيدِ بخاصةٍ على الساحةِ التركيةِ، وقد فُسِحَ لهم المجالُ، واتسعتْ لهم الساحةُ في الأوان الأخيرة بِدَعْمِ حكومةِ العدالةِ والتنميةِ لهم، فبدأتْ هي تجني من ثِمارِها بعد أن جنّدتْهم، واستخدمتْهم في إخمادِ الثورةِ الفاشلة التي قامتْ بها عصابةُ (الحشاشين الجُدُد: أتباعِ فتح الله گولن) يوم **15** تموز/يوليو **2016**م. نال الزنادقةُ النقشبنديُّون بعد هذا الحدثِ حظًّا وافِرًا من الحضورِ والثروةِ، والهناء في ظل حكومة العدالة والتنمية، لم ينالوا معشارها في أيّ حقبةٍ من تاريخهم.

ولما كانت الزندقَةُ من أهَمِّ الواسائلِ التي يستحدِمُها السياسيُّون في تحقيقِ أهدافِهِم، كما أثبتتْ أحداثُ **15** تموز/يوليو **2016**م. التي اتَّخذتْ الحكومةُ التركيةُ أثناءَها من جحافلِ الزنادقةِ أنصارًا نجحتْ بمساعدتِهم وتأييدِهم ومشاركتِهم في إخمادِ ثورة (الحشاشين: أتباعِ فتح الله گولن)، يناسب هنا سردُ ما يتيسر من معلومات وحقائق حول اللُّعْبَةِ السياسيَّةِ ودورِ الزنادِقَةِ فيها عَبْرَ تاريخِ المسلمين.

***

22) اللُّعبةُ السياسيَّةُ ودورُ الزنادِقَةِ فيها عَبْرَ تاريخِ المسلمين:

السياسةُ في أوجزِ تعريفاتِها: هي إدارةُ كافَّةِ شؤونِ الدولةِ الداخليَّةِ والخارجيَّةِ بالنفوذِ والقوةِ والسلطةِ، وهي تختلف باختلافِ طبائعِ الحُكَّامِ والمحكومين، وتتغيَّرُ بِحَسَبِ ظروفِهم، وأخلاقِهم، وأطماعِهم، واتجاهاتِهم الدينيَّةِ والثقافيَّةِ، والأيديولوجية، وعلاقاتِهم مع الغير على وجه العموم. لذا

[291] لمزيدٍ من الإطلاعِ على شناعاتِ النقشبندية في هدمِ أركانِ الدينِ الحنيفِ والدعوةِ إلى الإباحيَّةِ والوثنيَّةِ والإشراكِ بالله، يكفي مشاهدةُ ما تَمَّ إلتقاطُهُ بأجهزةِ التصويرِ الحيّ من طقوسهم ورقصاتهم وألاعيبهم عن طريق الروابط الألكترونية فيما يلي:

https://www.youtube.com/watch?v=1olUy39evIo;
https://www.youtube.com/watch?v=RTm3kYn1Vj4;
https://www.youtube.com/watch?v=-kd-4ZSH1x8;
https://www.youtube.com/watch?v=Cy-OFvedyis;
https://www.youtube.com/watch?v=QA7RwMnApkQ;
https://www.youtube.com/watch?v=1C4MIxhHogU.

فإنَّ السياسةَ مفهومٌ متشابكُ المعاني، متعدِّدُ الوجوهِ، تتضافرُ فيه أبعادٌ إداريَّةٌ وعسكريَّةٌ وإقتصاديَّةٌ واجتماعيَّةٌ ودينيّةٌ وثقافيَّةٌ، تَنْعَكِسُ آثارُها على جَمِيعِ مجالاتِ حياةِ الإنسان.

الحياةُ السياسيَّةُ قديمةٌ قِدَمَ المجتمعاتِ الإنسانيَّةِ على الكُرةِ الأرضية. ذلك لأنَّ الإنسانَ مخلوقٌ اجتماعِيٌّ لا يستغني عن مشاركةِ بني جنسِهِ، وهو مضطرٌّ للتفاعُلِ والتعايُشِ معهم. يتقلب في علاقاته مع أبناءِ مجتمعه بين حالاتٍ مختلفةٍ في سياق المؤثرات الاجتماعية والثقافية. تمتازُ هذه العلاقاتُ تارةً بالانسجامِ والصداقة والتعاونِ، وتتدهور تارةً فتتحول إلى معاداةٍ ومشاحنةٍ وتباغض، وقد تتطور إلى تناحر وقتال... والإنسانُ عبرَ كلِّ أنماطٍ من هذه العلاقات يحاول ليتغلَّبَ على أكبرِ قدرٍ من أبناءِ شعبِهِ لِيُسَخِّرَهُمْ في تحقيقِ آمالِهِ وأهدافِهِ. فهذه المحاولةُ هي من أهم مظاهرِ الممارسات السياسيةِ في الحياة الإجتماعية.

إنَّ السياسةَ هي في صميمِها محاولةٌ تتمثَّلُ في منافسةِ أشخاصٍ أو فئاتٍ للتَّغلُّبِ على السلطةِ والاستئثارِ بها، فيتمكّنُ بعضُهم من الوصولِ إلى الحكمِ بطرقٍ معتادةٍ، أو بالوثوبِ على النظامِ بِمَكَائِدَ ومؤامراتٍ، مع استمرارِ العِراكِ والصراعِ بين الأطرافِ المتنافسة، أو بالأحرى بين الحاكِمِ ومعارِضيهِ. لذلك يجوز وصفُ مفهومِ السياسةِ بفنِّ التحايلِ والخداعِ في صراع الخصمِ وسحقِهِ للفوز في سباقِ التسلُّطِ عليه وعلى الآخرين... إنَّ هذه الميّزَةَ للسياسةِ تكشِفُ قدرًا كبيرًا من أسرارِها، كما تفضحُ – في الوقت ذاتِهِ – قِسطًا من الرزائلِ والمساوِي المكنونةِ في الشخصِيَّةِ السياسِيَّةِ الْمُتَعَارَفَةِ، لكنْ يخرجُ – لا محالة – أفرادٌ شُرَفَاءُ عن نطاقِ هذا الوصف، يعصمهم الله من السقوطِ إلى مستوى الغالبيةِ العظمى من السياسيِّين وقليلٌ ما هم!

وبهذه المناسبةِ تجدرُ الإشارةُ هنا؛ أنَّ أيَّما حاكمٍ سياسِيٍّ مهما كان عادِلاً في حُكْمِهِ، لا يخلو من عدوٍّ، بل من أعداء ألدَّاءَ يتربَّصون به الدوائر. لذلك لا يوجد حاكِمٌ يخرجُ من مقرِّهِ إلاَّ وهو محاطٌ بجماعةٍ من الحرسِ المدرَّبين واتِّخاذِ إجراءاتٍ أمنيَّةٍ شديدةٍ وتفتيشٍ صارمٍ عبرَ طريقِهِ. وهذا يعني أنه لا يرى أن يضعَ ثِقَتَهُ في أحدٍ من رعاياهُ أبدًا، وهو قلق في كلِّ حياتِهِ يتوقّعُ أن يُصبحَ فريسةً لعمليةِ اغتيالٍ في أيِّ لحظةٍ. وتصديقًا لهذه الحقيقةِ يقول الشاعر عمر ابن الوردي في قصيدة له:

لا تَلِ الْحُكْمَ وَإنْ هُمْ سألوا * رغبةً فيكَ وخالفْ مَنْ عَزَلْ
إنَّ نصفَ الناسِ أعداءٌ لمنْ * وليَ الحُكمَ وَهذا إنْ عَدَلْ

فهو كالمحبوسِ عن لذَّاتهِ * وكِلا كفّيه في الحشرِ تُغَلْ
لا تُوازى لَذَّةُ الحُكمِ بما * ذاقَهُ الشخصُ إذا الشخصُ انْعَزَلْ
فالولاياتُ وإنْ طابتْ لِمَنْ * ذاقَهَا فَالسُّمُّ فِي ذاكَ العَسَلْ

لقد صنَّفَ أهلُ الإختصاصِ أنواعَ السياسةِ بتفاصيلِها في أبعادٍ تخرجُ عن نطاقِ هذا البحثِ، ولكن لا بأسَ من تقسيمِها إلى نوعينِ رئيسين: (سياسةٍ عادلةٍ، وسياسةٍ ظالمة)، وذلك تسهيلاً للانتقالِ إلى ما يَتَوَخَّى البحثُ من ذكرِ سياساتِ عصرِنا وما يتَّصلُ بها من الأوضاعِ السياسيةِ وتبعاتِها في العالمِ الإسلاميِّ.

إنَّ السياسةَ العادلةَ هي التي تمتازُ بالشرعيةِ في مجتمعٍ إسلاميٍّ تحكُمُه الخلافةُ الراشدةُ، وقد شهدها التاريخُ مرةً واحدةً ما بين (622–661م.) دامت ثلاثين سنةً فحسبُ، وقد أشار النَّبِيُّ ﷺ إليها[292] ثمَّ تحوّلت إلى مُلكٍ عضوضٍ تحتَ سمةِ خلافةٍ رمزيَّةٍ خارجةٍ عن منهج النبوَّةِ، انتهت بخلعِ عبد المجيد أفندي العثماني الذي طرده مصطفى كمال سنة 1924م.

هذه الخلافةُ، لا صلةَ لها بالخلافةِ الراشدةِ. بل الخلفاءُ (الأمويُّون، والعباسيُّون والعثمانيُّون) جميعُهم كانوا ملوكًا وحكَّامًا، وسياساتُهم كانت متباينةً، منهم مَنْ كان عهدُهُ متَّسِمًا بالعدالةِ كعُمَرَ بن عبد العزيز الأمويِّ رحمه الله، ومنهم من كان ظالمًا في حُكْمِهِ، لكنَّ سياسةَ أحدِهِمْ لم تكتسبْ الشرعيَّةَ بالمعنى الحقيقيِّ. هذا، وقد تمتاز سياسةُ نظامٍ من أنظمة بلادِ الكفر بالعدلِ مع أنها غير شرعيةٍ، كسياسةِ بعضِ الحكومات الأوروبيةِ. وذلك أنَّ الحُكْمَ العادِلَ ليس من شَأنِهِ أنْ يوصَفَ بالضرورةِ شرعِيًّا. فالعدلُ والشرعيَّةُ هل هما إذًا مفهومان متلائمان؟ نعم ولا مُشاحّةَ، ولكنْ ليسا متماثلان، بينهما عموم وخصوص؛ فكل نظام شرعِيّ إنما يكتسب شرعِيَّتَهُ من كونهِ موافقًا لمنهجِ النبوة، قائمًا على أساس العدل ومكافحة الظلم والقهر، وإنصافِ المظلوم. لكنَّ النظامَ الذي يتَّصِفُ بالحفاظِ

---

[292] قد أشار النبي ﷺ إلى هذه الْمُدَّةِ أنَّهَا ثلاثون سنةً في قوله: "عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُمْهَانَ، عَنْ سَفِينَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: الْخِلَافَةُ ثَلَاثُونَ سَنَةً ثُمَّ يَكُونُ بَعْدَ ذَلِكَ مُلْكًا". وهي خمسةُ عُهُودٍ: خلافةُ أبي بكر ﷺ كانت سنتين وثلاثة أشهر وتسع ليال، من السنة الحادية عشرة إلى ثلاثة عشر من ربيع الآخر سنة ثلاث عشرة هجرية. وخلافةُ عمر ﷺ كانت عشرَ سنواتٍ وستَّةَ أشهرٍ وثلاثةَ أيام، من ثلاثة وعشرين جمادى الآخرة سنة ثلاثَ عشرةَ هجرية إلى ستَّةٍ وعشرين ذي الحجة سنةَ ثلاثٍ وعشرين هجرية. وخلافةُ عثمانَ ﷺ كانت اثنتي عشرة سنة إلا اثني عشر يومًا، من واحد محرم سنة أربع وعشرين هجرية إلى ذي الحجة سنة خمس وثلاثين هجرية. أمَّا خلافةُ عليٍّ ﷺ فكانت أربعَ سنواتٍ وتسعةَ أشهرٍ، من تسعةَ عَشَرَ ذي الحجة سنة خمس وثلاثين هجرية إلى تسعةَ عَشَرَ رمضان سنة أربعين هجرية. فمجموع خلافة هؤلاء هي: تسعٌ وعشرون سنةً وستَّةَ أشهرٍ إلاَّ أربعةَ أيَّام، وهذه الستَّةُ الأشهرِ كانت مِنْ نصيبِ الحسن ﷺ، إذًا فالحسنُ أيضًا يُعَدَّ من الخلفاءِ الراشدين.

على حقوقِ الناسِ وأمنِهِمْ وحُرِّيَاتِهِمْ قد لا يكون له أدنى صلةٍ بالكتابِ والسنةِ، بل تكون سياستُها مستمدَّةً من إهتمامِ أفرادِ المجتمعِ بالفضائلِ الإنسانيَّةِ، والإتِّزان في السير والسلوك، والتعاونِ على الإيجابيَّات، ومراعاةِ المبادئِ والأدابِ... فتنعكسُ عليهم ذلك بعدالةِ الحكمِ وإنْ كانوا كفَّارًا. وأمَّا الحكمُ الذي يَتَبَنَّى سياسةَ القهرِ والظلمِ ويسحق الرعيَّةَ (كما في بلادِ الشرق الأوسطِ)، فإنما ينجمُ ذلك أصلاً من فسادِ المجتمعِ؛ يدلُّ على أنَّ معظمَ الرعيَّةِ قد انسلخوا من الفضائلِ، وفارقوا طريق الهدى، وشاعَ بينهم الإعتداءُ والتطفيفُ والزندقةُ، وقد انْشَقُّوا إلى طبقاتٍ تسلَّطَ منهم الأقوياءُ على الضُّعفاءِ، والأغنياءُ على الفُقراءِ، والأهالي على الغرباءِ، واختفتِ الرحمةُ وانعدم فيهم الإلتزامُ بالعهود، وَانْتَفَى الصدقُ والأمانةُ والتعاونُ على البِرِّ والتقوى... فتنعكسُ عليهم ذلك بقهرِ الْحَاكِمِ أو الطُّغمةِ الحاكمةِ وإن كانوا مسلمين (؟) يؤَكِّدُ على هذه الحقيقة كلماتُ الله المقدسةُ: "إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ، وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ.[293]"

لا شكَّ في أنَّ الأمّةَ المحمَّدَيَّةَ وقعتْ ضحيّةً للسياسات الفاسِدةِ فورَ انتِهاءِ عهدِ الخلفاءِ الراشدين رضوان الله عليهم. وقعت الأمّةُ بين مخالِبِ الملوكِ وهم كما قال تعالى: "إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ."[294] وهذا التحوُّل كانَ أعظَمَ كارثةٍ تَعَرَّضَتْ لها البشريةُ جمعاءَ، لأنّ النظامَ الراشدِيَّ لو نَجَحَ المسلمون في الحفاظِ عليها لاغْتَبَطَهُمْ جميعُ الشعوبِ وَلَحَرَصُوا على الإقتداءِ بهم، والتعاونِ معهم، والإنضمامِ إليهم.. ولَذَاقَ الناسُ حلاوةَ السعادةِ والهناءِ في جميعِ أنحاءِ العالَمِ، ولَمَا عمَّتْ مساوي الأنظمةِ الفاسدةِ؛ كالْمَلَكِيَّةِ والديمقراطيةِ والاشتراكيَّةِ والشيوعيَّةِ وغيرها... إنما ابْتُلِيَتِ البشريَّةُ بفتنٍ وحروبٍ طاحنةٍ متعاقبةٍ نتيجةَ هذه الكارثةِ ودامتْ قرونًا لا تزال إلى يومنا. ولعلَّ في تلك عبرةً لأولي الألبابِ: بأنْ يعلموا ويتأكّدوا من خلالِ ما يجري على أرض الواقع وبِشهادةِ آلافٍ من الأحداثِ الأليمةِ أنَّ أيَّ سياسةٍ لم تأتِ بهدوءٍ وسعادةٍ وطمأنينةٍ وهناءٍ لِعالَمِ البشرِيَّةِ ما عدا السياسة الموافقةِ للمنهج النبوِيِّ المتمثِّلِ في الخلافة الراشدة. لذا، فإنَّ عهدَ الخلافةِ الراشدةِ هي حُجةُ الله على عبادِهِ، شَهِدَ لها التاريخُ أحسنَ شهادةٍ، لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا، لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ.[295]

***

[293] الرعد/11.
[294] النمل/34.
[295] الأنفال/42.

بدأ ابتِلاءُ أُمَّةِ الإسلامِ بِكُلِّيَّتِهَا (لأَوَّلِ مرة) بمقتَلِ الخليفة الراشدِ عثمان بن عفان ﷺ على يد طائفةٍ من الزنادقَةِ. وهذه إشارةٌ هامّةٌ إلى الصِّلَةِ القائمة بين السياسة وَالزندقة على مَرِّ القرون، أو بين السياسيّين والزنادقةِ عبرَ التاريخ الإسلامِيِّ. سُمِّيَتْ هذا الحدثُ بـ"الفتنةِ الْكُبْرَى" لِهَوْلِها وتبعاتِها الأليمةِ الهدّامةِ التي استمرَّ لَهِيبُهَا حتى اليوم، ويبدو أنَّ نيرانَهَا سوف تشتعلُ إلى يومِ يُبعثون (والله أعلم.)

إنما سُمِّيتْ "الفتنةَ الكبرى"، لأنَّ الفتنَ التي عصفتْ بالمسلمين على مَدَى خمسةَ عَشَرَ قرنًا فَزَعْزَعَتْ عقيدةَ الكثيرين منهم، وفرَّقَتْ شملَ الأمةِ، وبدَّدَتْها إلى أحزابٍ متناحرة، تكادُ كُلُّها قد تفرَّعتْ من تلك الفتنةِ الهائلةِ الْمُدَمِّرَةِ بشكلٍ مباشرٍ أو غيرِ مباشر. هذا، وإنَّ أيَّ باحثٍ محترفٍ عندما يتأمّلُ في أسبابِ الفتن التي حدثتْ في التاريخ الإسلامِيِّ، لا يفوتُهُ أن يلاحِظَ دورَ الزنادِقةِ في إثارتِها وإشعالِ نيرانِها. هذه الحقيقةُ تبدو وبكلِّ وضوحٍ عند إلقاءِ النظرِ في مجرَّدِ قائمةِ كُبْرَيَاتِ الْفِتَنِ (التي جرتْ بعد الفتنةِ الكبرى)، وهي بالاختصار:

فتنةُ الصراعات السياسية في أعقاب "الفتنة الكبرى"،

فتنةُ الإعتداءِ على أهل البيت.

فتنةُ القصاصين والمدلسين.

فتنةُ المذهبيةِ وظهورِ التياراتِ الكلاميَّةِ (الخوارج، والاعتزال، والتَّجَهُّم، والإرجاء، وإنكار القدر...)،

فتنةُ احتلاقِ دِينٍ باسم "الْمُسْلُمَانِيَّةِ Müslümanlık" وانتشارِ القبوريَّةِ.

فتنةُ الشعوبيَّةِ،

فتنةُ القول بخلقِ القرآنِ،

فتنةُ القرامطةِ،

فتنةُ العُجْمَةِ في الدِّينِ واللُّغَةِ، وانتشارِ العامِّيَّةِ،

فتنةُ هَجْرِ الْعِلْمِ، واحتلالِ رجالِ الدِّينِ الفراغَ الذي حدثَ بعد غيابِ العلماءِ،

فتنةُ التصوف والرَّهْبَنَةِ والشعوذةِ، وظهورِ الفِرَقِ الصوفيَّةِ الباطنيَّةِ،

فتنةُ الإسماعيلية والحشاشِيَّةِ،

فتنةُ النصيرية،

فتنةُ الدروز،

فتنةُ المغول،

فتنةُ الحروب الصليبية،

فتنةُ أكبر شاه التيموري في الهند، واختلاقِهِ دينًا باسْمِ "الدين الإلهيّ"

فتنةُ توالي الخروجِ على السلطة، وتمرد الزنادقة عليها،

فتنةُ الحركات الإستعمارية،

فتنةُ القاديانية،

فتنةُ البابية والبابكية،

فتنةُ النقشبندية،

فتنةُ الوهابية،

فتنةُ البهائية،

فتنةُ القوميةِ والعنصريَّةِ (ظهور الشباب الأتراك، وجمعية الإتحاد والترقي)

فتنةُ تتريك الإسلام،

فتنةُ الأتاتوركية وزندقة الإنعزال،

فتنةُ النُّورْجِيَّةِ،

فتنةُ فتح الله گولن وعصابة الحشاسين الجُدُد.

إنَّ هذا الترتيبَ الزمني المختصر للفِتَن، يحتاج – لا محالةَ – إلى وقفاتٍ معها، وسردِ تأملاتٍ حوَلَ كُلٍّ منها (للكشفِ عن آثارِها في تشتيت شمل الأمةِ وهدم قِيَمِها، وتحويلها إلى جسدٍ هامدٍ تتكالب عليه اليومَ جحافلُ أمَّةِ الكفرِ)، لكي يتَّضِحَ المشهدُ ويظهرَ ما يَسُودُهُ من الخرابِ والدمارِ والتِّيهِ والضياعِ والفوضى...

يجب علينا – قبل أن نتناولَ قضيَّةَ "الفتنةِ الكبرى"– أنْ نفهمَ جيّدًا أنَّ الخلافةَ الراشدةَ قيامُها فورَ انتهاءِ العصرِ الجاهليِّ في الجزيرةِ العربيَّةِ لم تكنْ مفاجأةً منقطعةَ النظيرِ فحسب، بل كانتْ معجزةً لم تشهدِ البشريَّةُ مثلَها من لَدُنْ آدم إلى تلك الفترةِ الزمنيةِ، كما لن تشهدَها ربما إلى قُربِ الساعة! يُقِرُّ بهذه الحقيقةِ حتى أحدُ كبارِ زناقدِقةِ عصرِنا طه حسين (الكاتبُ المصرِيُّ)،[296] إذ يقول: "وأكادُ

[296] طه حسين (**1889 ـ 1973**م): أديبٌ وناقدٌ، وروائِيٌ مصرِيٌّ شهير. درس في الأزهرِ، والجامعةِ المصريةِ، ونال منها شهادةَ الدكتوراه، ثم نال الثانيةَ من جامعةِ سوربون (باريس). أشغل مناصبَ هامَّةً، وزاع صيتُهُ في الآفاقِ. إدَّعَى بعضُ مَنْ تَرْجَمَ له: أنه "لُقبَ بعميدِ الادبِ العربِيّ مِنْ مكانةٍ وسطَ أبناءِ جيلهِ في مصرَ والعالَمِ العربِيّ عمومًا، إضافةً الى آرائِهِ الاجتماعيَّةِ والسياسيَّةِ وايمانِهِ المطلَقِ بِالْحُرِّيَّةِ." إلاَّ أن الحريةَ في مفهومِ طه حسين لم تكن لها أيُّ حدٍ؛ إذ أقحم نفسَهُ

أعتقدُ أنَّ الخلافةَ الإسلاميَّةَ كما فَهِمَهَا أبو بكرٍ وعمرُ إنما كانتْ تجربةً جريئةً توشكُ أنْ تكونَ مغامرةً، ولكنَّها لم تنتهِ إلى غايتِها، ولم يكنْ من الممكنِ أنْ تنتهِيَ إلى غايتِها، لأنَّها أجريتْ في غيرِ العصرِ الذي كان يمكن أنْ تَجْرِيَ فيه، سبقَ بها هذا العصرُ سبقًا عظيمًا. وما رأيُكَ أنَّ الإنسانيةَ لم تستطعْ إلى الآن على ما جَرَّبَتْ من تجارُبَ وبلغتْ من الرُّقِيِّ وعلى ما بلغتْ من فنونِ الْحُكْمِ وصُوَرِ الحكوماتِ أن تُنشِئَ نظامًا سياسِيًّا يتحقَّقُ فيهِ العدلُ السياسِيُّ والاجتماعِيُّ بين الناسِ على النحوِ الذي كان أبو بكرٍ وعمرُ يريدانِ أن يُحَقِّقَاهُ!"[297] إنَّ اعترافَ هذا الرجلِ بعظمةِ قدرِ الخلافةِ الراشدةِ عبر هذه العبارات الواضحةِ والبيان الخلاّبِ إنما هو من أروعِ الشهادةِ بالحق.

لقد تناول عددٌ كبيرٌ من العلماءِ والكُتَّابِ والباحثين والمستشرقين قصَّةَ هذه الفتنةِ منذ وقوعِها إلى اليوم. منهم من أسهبَ في سردِها وخاضَ في تفاصيلِها، وأفرطَ وبالغَ في عرضِها، خاصَّةً الرافضةُ وأهلُ الأهواءِ لم يتورَّعوا عن التحامُلِ على الخليفة المظلوم، فَأَتْخَمُوا مؤلفاتِهِمْ بضروبٍ من الكذِبِ والزورِ والبهتان على الصحابي الجليل والخليفة الراشد عثمان بن عفان ﷺ.

وأمّا "الفتنةُ الكبرى"؛ فإنها أعظمُ نازلةٍ داهمتْ خيرَ أجيالِ المسلمين، فقصمتْ ظهرَ الأُمَّةِ والأسلامُ يومئذٍ في عُنْفُوَانِهِ. هذا، ولا يجوز لنا الجزمُ بِالْحُكْمِ عليها أو على شيءٍ من مُلاَبَسَاتِهَا، لانتفاءِ عِلْمِنَا بِكُنهِ ما قد جَرَى من وَقَائِعَ متضافرةٍ في تلك الأيامِ خاصةً وأنَّ الكثيرَ من حقائق هذا الأمر قد تعرَّضَتْ للتحريف والتشويه إمَّا عمدًا أو جهلاً. قد وردتْ ذكرُ هذه القصَّةِ على ألسنةٍ مختلفةِ الإتجاهَاتِ. تَنَاوَلَتْهَا أقلامٌ فحاولتْ لِتَتَّخِذَ منها ذريعةً لأهدافِها. لذا، من الصعبِ جدًّا استيعابُ الحادثةِ على وجه الصوابِ لكثرةِ المصادرِ التى ذَكَرَتْهَا وهي تختلفُ في تقييمها وَالْحُكْمِ عليها، وَيَتَذَبْذَبُ الكثيرُ منها بين الحقِّ والباطلِ. فينبغي لِكُلِّ مَنْ يُلِمُّ بها – مهما كان غزيرَ الثقافةِ، طويلَ الباعِ في أصولِ البحثِ والدراسةِ، ومراعيًا للأمانةِ العلميَّة – ينبغي له –في الْمُقَامِ الأوّلِ– أنْ يتفرَّغَ لِهذه المهمةِ بأشدِّ الحيطةِ، ويلتزمَ جانبَ الوَرَعِ والْحِيَادِ والتثبُّتِ في الاستقاءِ والنقلِ، ويُنصَحُ الباحِثُ

فيما ليس له فيه مجال. يقول عنه أنور الجندي: «كان أخطر ما قاله طه حسين: "للتوراةِ أن تُحَدِّثَنَا عن إبراهيم وإسماعيل وللقرآن أن يُحَدِّثَنَا عنهما أيضًا، ولكن ورود هذين الإسمين في التوراةِ والقرآنِ لا يكفي لإثباتِ وجودهما التاريخِيّ فضلاً عن إثباتِ هذه القضيَّةِ التي تُحَدِّثَنَا بهجرةِ إسماعيلَ بنِ إبراهيمَ إلى مكَّةَ ونشأةِ العربِ المستعربةِ. ونحن مضطرُّون أنْ نرَى في هذهِ القضيَّةِ نوعًا من الحيلةِ في إثباتِ الصلةِ بين اليهودِ والعربِ من جهةٍ، وبين الإسلامِ واليهودِ والقرآنِ والتوراةِ من جهةٍ أخرى."» وهذه الكلماتُ الجريئةُ ما من شكٍّ في أنَّها زندقةٌ تبرهن على أنَّ الرجلَ قد أعلن الحربَ على الإسلامِ بمنتهى الصراحة.

[297] طه حسين، الفتنة الكبرى، دار المعارف، القاهرة، **8/1**.

أن يعتمدَ على المصادر المعول عليها[298]، مع بالغ الحذرِ في مراجعة كتب الرافضة والمستشرقين ومَنْ على شاكلتِهم من أصحابِ الأغراض.

***

يناسبُ هنا إيرادُ خلاصةٍ للحادثةِ إسعافًا لمن يطلبُ نبذةً من المعرفةِ بحقيقتِها، حتى لا يلتبسَ عليه إذا تلاطمت به آراءٌ متناقضةٌ بعضُها صحيح وبعضُها زورٌ وبهتانٌ. لقد خاضَ في هذه المسألةِ الحسَّاسَةِ كثيرٌ مِمَّن لم تَستقمْ أقوالُهُم ولم تُوافِقِ الواقعَ، إمَّا لجهلِهم (كالوهّابِيِّين)، وإمَّا لِسوءِ نيَّاتِهم (كالرافضةِ والمستشرقين).

لقد كانت للوهابية أثرٌ كبيرٌ في تشويهِ الصورة الواقعية للصحابةِ، وإقصائهم عن عالَمِ الحقيقةِ. حاولوا دائمًا لِيُخفُوا البَدَهِيَّاتِ التاريخِيَّةَ السائدةَ في عصرِهِم بإضفاءِ قداسةٍ رادعةٍ وزاجرةٍ عن الكلامِ أو السؤالِ حولَ مواقِفِهم السياسيَّةِ بخاصّةٍ ومناقشاتِهم ونزاعِهم وتفاعُلِهم وتعامُلِهم... سلك الوهابيةُ سبيلاً بين الغلُوّ في تقديسِ أصحابِ النَّبِيّ ﷺ وبين الاستخفافِ بهم فوقعو في تناقضٍ مفضوحٍ، كما سدُّوا بذلك بابَ المعرفةِ بحقيقة حياةِ الصحابة على السُّذَّجِ الذين خدعوهم وغرُّوهم بِسَلَفِيَّتِهِم الزائفةِ. زيَّنُوا الصحابةَ للناسِ كأنهم "ملائكةٌ لا يسهون ولا يُخطِئونَ ولا يُذْنِبُون؛ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ!" وهذه النظرةُ المتطرِّفةُ إلى الصحابةِ رضوان الله عليهم أجمعين، عكستْ على كثيرٍ من الناسِ كأنَّ أصحابَ النَّبِيّ ﷺ قطيعٌ من الغُفَّلِ والحمقى، "لا علاقةَ لهم بالسياسةِ ولا بشيءٍ من أمورِ الدنيا، ولم يكنْ قد شجر بينهم نزاعٌ، ولا سبقَ منهم أن تناقشوا، ولا تنافسوا، ولا طمعوا في مالٍ ولا منصبٍ... بل كلُّهم كانوا عاكفين في المساجد في جميع أوقاتهم لا ينبس أحدُهم ببنتِ شفةٍ ما عدا الخليفةِ الذي بِيَدِهِ دِرَّةٌ يجولُ في الأسواقِ ويُزَمْجِرُ؛ يضرب هذا وينهر هذا ويهدِّدُ ويحذِّرُ الناسَ، وهو على شاكلة شُرْطِيٍّ يتصرَّفُ بهمجيَّةٍ في قريةٍ وسطَ الريفِ..." بينما ينظر الرافضةُ وطائفةٌ من المستشرقين إلى عصر الصحابةِ كأنه يوم القيامةِ؛ "لا يخلو مكان من أرض الحجازِ

---

[298] يُنْصَحُ الباحثُ في قضيةِ الفتنةِ الكُبرى أنْ يَستفيدَ من المصادرِ التاليةِ، ويَحتاطَ إذا دعتِ الحاجةُ إلى تناوُلِ غيرِها، وهذه المصادر هي: **1**) صحيح البخاري: للإمام مُحَمَّد بن إسماعيل البخاري، **2**) تاريخ الأمم والملوك: لأبي جعفر بن مُحَمَّد بن جرير الطبري، **3**) تمهيد الأوائل في تلخيص الدلائل، للمؤلِّف: أبي بكر الباقلاني، مُحَمَّد بن الطيب بن مُحَمَّد بن جعفر بن القاسم، **4**) المغني في أبواب التوحيد والعدل، للمؤلِّف: القاضي أبي الحسن عبد الجبار بن أحمد (معتزلي!)، **5**) الفرق بين الفرق، للمؤلِّف: أبي منصور، عبد القاهر بن طاهر بن مُحَمَّد البغدادي التميمي، **6**) العواصم من القواصم، للمؤلِّف: القاضي أبي بكر بن العربي، **7**) منهاج السنة: للشيخ تقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام النميري الحراني، **8**) تاريخ الخلفاء، للمؤلِّف: عبد الرحمن جلال الدين السيوطي، **9**) الخليفة المفترى عليه: للشيخ مُحَمَّد الصادق عرجون. وفي هذه الحُزْمَةِ كفايةٌ لمن يطلبُ تفاصيلُ الفتنةِ الكُبرى يكون أقرب إلى الصواب. والله أعلم.

والعراقِ إلاَّ وقد عَمَّتْهُ فتنةٌ تتقلَّبُ الناسُ في نيرانِها يذبحُ بعضُهم بعضًا بوحشيةٍ، تجري شلالاتُ الدماءِ على مداها، لا يذوقُ أحدٌ من سُكَّانها لحظةً حلاوةَ العافية والهناءِ، كلُّ كلامِهم تشجيعٌ للمنازلة والقتال، نَثْرُهُ مُفاخَرَةٌ وشماتةٌ وسبابٌ، شِعْرُهُ هجاءٌ وشجونٌ ورثاءٌ..."

***

إنَّ عصرَ النَّبِيِّ ﷺ بعيدٌ كلَّ البُعْدِ عن كِلْتَي النظرتين السقيمتين، بل كان عصرًا وارِفًا زاهيًا نَضِرًا، مليئًا بالخيرات والبركات؛ يسودُهُ التعاطفُ والتراحُمُ والتواصُلُ والتعاوُنُ على البِرِّ والتقوى... نعم، لم يَتَمَتَّعْ أهلُ هذا العصرِ بالهدوءِ والراحةِ البدنيَّةِ، لِكثرةِ الحروبِ، وأعمالِ الدفاعِ والهجرةِ والتثقيفِ والتهذيبِ، لإرساءِ دعائمِ الدولةِ على أساسِ الأمنِ والعدلِ والتفاهُمِ والسلام... لأن أصحابَ النَّبِيِّ ﷺ كلُّهم كانوا عدولاً وأبطالاً وشُجعانًا وفرسانًا وأخيارًا وعلماءَ صالحين قائمين صائمين... ورد مدحُهُمْ في كلمات الله المقدسة: "مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا."[299] لا شكَّ في أنَّ اللهَ تبارك وتعالى جعل من هذا الجيلِ الطاهرِ معجزةً باهرةً لِنَبِيِّهِ، ذلك ليحمِلوا أعباءَ معجزتِهِ الكُبْرَى المتمثِّلِ في كتابِ الله العزيز الذي "لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ.[300]" ولكنْ مع ما حلاَّهُمُ اللهُ تعالى به من عِزَّةِ النفسِ والعفافِ وطهارةِ القلبِ والبدنِ، وملأ قلوبَهم بالعلمِ والحكمةِ، وزَيَّنَهُمْ بأشتاتِ الفضائل من الصدقِ والشجاعةِ والصراحةِ والكرمِ والذِّمَّةِ والأمانةِ... مع ذلك كانوا بشرًا يخطِؤونَ ويعودون منه بسرعةٍ، يُذنِبون ويعودون منه بسرعةٍ متضرِّعين إلى ربِّهم بالتوبة، يطمعون في المنصبِ ولمكانةِ والمالِ، ولكن يحكمون بالعدلِ وَيُنْفِقُونَ مِمَّا رزقهم الله عن طيبةِ نفسٍ. كلاَّ، إنَّهم لم يكونوا ملائكةً، ولعلَّ بعضَهم كانَ أفضل من بعض الملائكة.

لقد كان عثمان بن عفان ﷺ من هؤلاء الفضلاءِ الكُرَمَاءِ الأجلاءِ الأتقياءِ الصُّلَحَاءِ، مُبَشَّرًا بالجنة، تستحي منه الملائكة.[301] ولكن أرادَ اللهُ أن تَتَدَفَّقَ النِّعمَةُ على الناسِ في عصرِهِ مع الفتوحاتِ،

---

[299] الفتح/**29**.

[300] فصلت/**42**.

[301] وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ: عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُضْطَجِعًا فِي بَيْتِهِ كَاشِفًا عَنْ فَخِذَيْهِ أَوْ سَاقَيْهِ، فَاسْتَأْذَنَ أَبُو بَكْرٍ فَأَذِنَ لَهُ وَهُوَ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ فَتَحَدَّثَ، ثُمَّ اسْتَأْذَنَ عُمَرُ فَأَذِنَ لَهُ وَهُوَ كَذَلِكَ فَتَحَدَّثَ، ثُمَّ اسْتَأْذَنَ عُثْمَانُ فَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَسَوَّى ثِيَابَهُ فَتَحَدَّثَ، فَلَمَّا خَرَجَ قَالَتْ عَائِشَةُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ دَخَلَ أَبُو بَكْرٍ فَلَمْ تَهْتَشَّ لَهُ وَلَمْ تُبَالِهْ، ثُمَّ دَخَلَ عُمَرُ فَلَمْ تَهْتَشَّ لَهُ وَلَمْ تُبَالِهْ، ثُمَّ دَخَلَ عُثْمَانُ فَجَلَسْتَ وَسَوَّيْتَ ثِيَابَكَ. فَقَالَ: «أَلاَ أَسْتَحِي مِنْ رَجُلٍ تَسْتَحِي مِنْهُ الْمَلاَئِكَةُ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي الصَّحِيحِ عَنْ يَحْيَى بْنِ يَحْيَى وَقُتَيْبَةَ وَغَيْرِهِمَا بِهَذَا اللَّفْظِ.

فكانَ ذلك من أهمّ أسبابِ الطغيانِ في النفوسِ الضعيفةِ. أرادَ عثمانُ ﵁ أنْ يُقيمَ عددًا من أقارِبه أولياءَ على أمورِ الناسِ ليستعينَ بِهِمْ في توفيرِ الأمنِ والاستقرارِ ولِيسهَلَ بذلك ضبطُهُمْ؛ لأنَّ رِقعةَ الوطنِ الإسلامِيّ كانتْ قد اتَّسعتْ وامتدَّتْ، فدخلتْ أمَمٌ إلى حظيرة الإسلامِ وكان فيهم قُطعانٌ من الأعجامِ، الْتَقَوْا بالإسلامِ وهم في ظُلُماتِ الجهل ومُنتَهى السطحيَّةِ والسذاجةِ، تمنعهم العجمةُ من فهم كتاب اللهِ وسنةِ رسولِهِ فلم يتمكّنوا من التناغُمِ مع الدين الجديد بعدُ، كما كَثُرَ عدَدُ المندسّين في صفوفِ المجتمع من الجواسيسِ والزنادقةِ والمغرضين يتربّصون بالنظامِ يحاولون ليؤلِّبُوا جموعَ الأوباشِ والأوغادِ من الأعرابِ وحديثي العهدِ بالإسلامِ. أرادَ الخليفةُ أن يستعين بِعَصَبَتِهِ من قومِهِ على تنظيمِ شؤون المجتمعِ وضبطِ أمورِهم، وتوفيرِ أسباب الأمن والتعايشِ السلميّ...

وأمَّا أقاويل بعضِهم: أنَّ عثمانَ "كان لا يرى حرجًا في محاباةِ أفرادِ عائلتِهِ المقرَّبين بالمناصبِ الإداريَّةِ والعطاءاتِ الماليَّةِ"[302] فلا تَعْدُو عن كلامٍ بعيدٍ عن الصدقِ والموضوعية، إن كان يقصد به الطعنَ في عثمان: "أنه كان يمكِّنُهُم من استغلالِ أموالِ الناسِ ويريدُ أن يستبِدَّ بالحكمِ ويركَبَ رقاب الناسِ." بل يُسْتَبْعَدُ أنْ تكونَ مؤاثرةُ الخليفة لأقاربِهِ عن حظِّ نفسٍ، أو لتحقيقِ مصالحهِ الشخصيةِ. فإنَّ الأدِلَّةَ التاريخية تؤكِّدُ على أنَّ عثمانَ ﵁ كان تاجِرًا ناجحًا وقد أغدق الله عليه النعمةَ وأغناه بثمراتِ جهودِهِ، كما أغنى قلبَهُ الطاهرَ يُنفِقُ ماشاء اللهُ من مالِهِ على أهلِ الحاجةِ، وذلك غَنِيٌّ عن الشرح. كما أنَّهُ كان زاهِدًا تقِيًّا وَرَعِيًّا عَفيفَ النفسِ، لم تُبْطِرْهُ الثروةُ، ولا كان طمَّاعًا، بل كان على جلالة قدره وعظمةِ ثَرَائِهِ قانعًا، متواضِعًا، لطيفًا، كريمًا، حليمًا، بارًّا وعطوفًا على الرعايا...

ولكِنَّهُ يجوز أن يكون قد أخطأ في محاباة بعضِ الْفَسَقةِ من أقاربِهِ بالمناصبِ السّياسيَّةِ والإدارية، كما هناك شِبْهُ إجماعٍ في ذلك. والكمالُ لله وحده.

كان عثمانُ بن عفان وجميعُ الصحابةِ ﵃، رجالاً ربَّانِيّين على عكسِ ما يُضْفِي عليهم الوهابيَّةُ من الصفةِ الروحيَّةِ. لكنَّهم لم يكونوا رجالاً روحانِيّين (كرجال الكهنوت والقساوسة المسيحيّين الذين يدَّعون النيابةَ عن الله في حكمهم.) بل كانوا نخبةً من أولياءِ اللهِ يحكمون بكتابِ اللهِ وسنَّةِ رسولهِ ﷺ. يُخطِؤُون ويُصِيبون، ولكنَّهم لم يُصِرُّوا على خطأ صدر منهم. فالخليفةُ عثمانُ بن عفان ﵁ أيضًا يجوز عليه أن يكون قد أخطأ، ولكنه سرعان ما كان يرجع عن خَطَئِهِ كلَّمَا علِمَ به أو نبَّهَهُ

[302] د. عدل عامر، مقالة بعنوان: " السلف الصالح والصراعات السياسية" المصدر:
http://www.moheet.com/details_article/2013/07/05/1792489/.html#.WThhKWjyiUk

الصحابةُ ونصحوه. وكان جُلُّ الصحابةِ يُتْقِنُونَ صناعةَ السياسةِ والحربِ والدفاعِ الْمُسَلَّح، متقيِّدين في ذلك بالمنهجِ النبويّ. وهذه الحقائقُ ينبغِي أنْ يتثبَّتَ منها الباحثُ في سِيَرِ الصحابةِ وسلوكِهم حتى لا يتكلَّمَ فيهم عن هوى.

***

ظهرت بوادر الفتنة أصلا من خلالِ التطور الذي شهدتْهُ مرحلةُ خلافَةِ عثمان ﵁، ويتمثَّلُ هذا التطورُ في ظاهرتين بَالِغَتَيِ الأَثَرِ؛ أَوَّلُهُمَا: الثراءُ والترفُ والراحةُ، وثانيهما: طغيانُ النفوسِ الضعيفةِ على أثرِ هذا الثراءِ وما نجم عنه من البذخ الذي عمَّ البلادَ في تلك المرحلة، وقد نبَّهَنَا الله سبحانه على خطورةِ هذه الظاهرة وعواقِبِهَا في مواطنَ كثيرةٍ من كتابِهِ العزيز. منها قوله تعالى: "كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى."[303]، ويقول تعالى: ""وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا"[304]

فلمَّا أطغتِ النعمةُ مرضَى النفوسِ ظهرتْ جماعةٌ من زنادقةِ العراقِ،[305] و"العراقُ قرنُ الشيطان" ولا شكّ!.. وكان على رأسِهم رجلٌ يُدعى عبد الله بن سبأ، فأغراهم على الخليفةِ بحججٍ واهيةٍ ولم

---

[303] العلق/7، 6.

[304] الإسراء/16.

[305] مشاهيرُهُم سبعةٌ: 1) الغافقي بن حرب العكي: هو من أبناء إحدى القبائل اليمنيَّةِ التى نزلتْ مصرَ أيامَ الفتحِ، كان مجبولاً على الإفتتانِ، ميَّالاً إلى إثارة الشغب، مولعًا بطلب الشهرة والرئاسة والجاه... فلمَّا عزمَ ابنُ سبأ على إشعالِ نيرانِ الفتنةِ راود الغافقِيَّ على المشاركة ونصبه زعيمًا على المتمرِّدين. قيل هو الذي كان يصلّي بالناسِ في المسجد النبويّ أيَّام الحصارِ، وهو الذي ضرب رأسَ الخليفة بحديدةٍ أوْدَى بحياته. وكان مُحَّد بن أبي حذيفة بن عتبة الأمويُّ اليدَ اليُمنَى لهما. ومن غرائب الأمورِ أنَّ الغافقِيَّ لم يُقْتَلْ على الأغلب، بل يبدو أنه مات حتفَ أنفه. (راجع: تاريخ الطبري: 155/5،130،107). 2) مُحَّد بن أبي حذيفة بن عتبة الأموي: هو ربيب عثمان الآبق من نعمتِهِ، شاركَ اينَ سبأٍ والغافقيَّ لتنفيذِ الخُطَّةِ. جمع قرابة ستّمائَةٍ من أوباش مصرَ، على رأسِهم الغافقيُّ، زحفوا على المدينة وحاصروا الخليفةَ ثم بعد مقتلِ الخليفةِ هربَ إلى الشام فقتله معاويةُ. 3) كنانةُ بْنُ بشر التجيبي: هو الذي اقتحمَ الدَّارَ على عثمانَ وبيده شُعلةٌ من نارٍ تنضح بالنفط، فدخل من دارِ عمرو بْنِ حزمٍ ودخلتِ الشُّعلُ على إثره، كما جاء في تاريخ الطبري 123/5. كان على رأسِ فرقةٍ من بُغاةِ مصرَ يومَ زحفوا على المدينةِ، رجع إلى مصرَ، سار عليه عمروُ بْنُ العص بجيشِهِ فقتله، وقُتِلَ مُحَّد بْنُ أبي بكرِ الصديق معه. 4) سودان بن حمران السكوني: يَمَنِيٌّ، كان في جيش الفتح بمصرَ تحت قيادةِ حصين بنِ نميرٍ ومعاويةَ بنِ خديج، شارك السبئيين في الزحف على المدينة، كان على رأس فرقة من الطَّغَامِ. قتله عَبِيدُ عثمان ﵁ فور مقتل الخليفة. 5) عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعيُّ: كان من شجعان الصحابةِ، بعثه النبيُّ ﷺ رسولاً إلى اليمن، اندفع إلى أتون الفتنة مع أخلاطٍ من اللئامِ الذين داهموا المدينةَ. ذكر الطبري في تاريخه:(124/5،125) أنَّ المغيرة بن الأخنس ابن شريق الثقفي حليف بني زهرة خرج هو وعبد الله بن الزبير ﵁، ومروان بن الحكم، وغيرهم يدافعون عن أمير المؤمنين عَلَى بابِ الدَّارِ، فحمل عبد الله بن بديل على المغيرة بن الأخنس وقتله. شهد عبد الله بن بديل صفِّينَ مع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﵁ وقُتِلَ بها. 6) حكيمُ بْنُ جبلةَ العبدِيُّ البصرِيُّ: عُمَانِيُّ الأصلِ من قبائل عبد القيس، أقامَ في البصرة، انضمَّ إلى جيوش الفتحِ برهةً في استكشافِ الهند، عُرِفَ بمجازفاته في بعضِ حملاتٍ خطيرة. كان لِصًّا من أوباش البصرةِ إرهابِيًّا، شارك المتمرِّدين في قتل الخليفةِ بإغراءٍ من عبد الله بن سبأ، ذكره الطبري في تاريخه (104/5، 176،120،106)، وذكر أنَّ له دخلاً في افتعال الكتاب المزور على الخليفة، ارتكب قتلَ امرأةٍ من قومِهِ سَمِعَتْهُ يَشْتُمُ أمَّ المؤمنين عائشةَ يومَ واقعةِ الجملِ، فقالت له: يا ابْنَ الخبيثة! أنت أولى بذلك، فطعنها فقتلها وما زال يقاتل حتى قُطِعَتْ رجلُهُ، ثم قُتِلَ وَقُتِلَ معه كلُّ مَنْ كانَ في الواقعةِ مِنَ البُغاةِ على الخليفة. 7) مالك بن الحارث الأشتر النخعي: كان رجلاً مكابرًا، إرهابِيًّا، ماكرًا، مغامرًا، مولَعًا بِحُبّ الشهرةِ والرئاسة والجاهِ. يحسد الأمراءَ الذين ولاهم الخليفة عثمان ﵁، أقامَ في الكوفةِ وهي من أهم أوكار الفتنة إلى اليوم. شارك الغوغاءَ في محاولة إثارة الشغبِ أيامَ مداهمة دارِ الخليفة عثمان ﵁، ثم اشترك في حرب صفين، وولاَّه عَلِيٌّ إمارةَ مصرَ بعد صرف قيس بن سعد بن عُبَادَةَ عنها، فلما وصل القُلْزَمَ (السويس) شَرِبَ شُرْبَةَ عسلٍ

يلبث حتى انتظموا فيما بينهم وداهموا المدينةَ (عاصمةَ الدولةِ الإسلاميَّةِ)، وحاصروا الخليفةَ أيَّامًا. إلاَّ أنَّه صَبَرَ عَلَى المحنة وقال: لَا أكونُ أَوَّلَ مَنْ خلفَ رسولَ اللَّهِ ﷺ فِي أُمَّتِهِ بِالْقَتْلِ، لكنَّ الإرهابيين ضَيَّقُوا عليه الخناقَ وآذوه إلى أن قتلوه ظلمًا. أمّا الصحابةُ فإنّهم بُرَآءُ مِنْ دمِهِ. والقصةُ مشروحةٌ في عديدٍ من المصادرِ بأدقّ تفاصيلها، يضيق المقام عن سردِها في هذا البحث.

كان مقتلُ الخليفةِ عثمانَ ﷺ كارثةً عُظمَى؛ تركتْ آثارًا خطيرةً وأسفرتْ عن وسطٍ مُرَوِّعٍ مليءٍ بشرورٍ مستطيرةٍ وفتنٍ متعاقبةٍ توالتْ إلى يومنا هذا. تفرّقَ شملُ الأمةِ المحمديَّةِ فور هذه المصيبةِ، واندرستِ الخلافةُ الراشدةُ، وانقلب النظامُ إلى أشكالٍ غريبةٍ من الْمُلْكِ العَضُوضِ، وتعرَّضَ العلماءُ للتنكيلِ في عصرِ التابعين، وكثُرَتِ الخلافاتُ ومحاولاتُ تحريف الآياتِ القرآنية في التفسيرِ الصوفي الإشاريّ، والتدليسُ في نقلِ السنَّةِ خاصّةً أيامَ تَبَعِ التابعين، فبدأت تتلاشَى المسؤوليةُ حتى طغتِ الحياةُ الروحيَّةُ على الحياةِ العلميةِ، فحدث فراغٌ خَلت في أعقابِهِ الساحةُ من أهلِ العلمِ والاختصاصِ، فما لبث حتى ملأتْ جماعاتٌ من الصوفية المشعوذين هذا الفراغَ، راجت بعد ذلك أسواقُ البِدَعِ والخرافاتِ والإسرائيلياتِ وَالْقِصَصِ والأساطير...

***

ما لبث طويلاً حتى انفجرت فتنةٌ ثانيةٌ ترتبطُ بالأولى إرتباطًا مباشرًا، تَمَثَّلَتْ في فتنةِ التنكيلِ بأهلِ بيتِ النَّبِيِّ ﷺ. وهي لا شكَّ من امتدادِ الفتنةِ الكبرى بكلِّ ميزاتِها وتبعاتِها العقديَّةِ والتاريخيَّةِ والاجتماعيَّةِ... بل لها خلفياتٌ من آثارِ الصراعِ الذي كان يجري بين الهاشميّين والأمويّين، تراكمتْ وانحدرتْ من العهدِ المكّيِّ، فلمّا وجدتِ المناخَ ملائمًا انفجرتْ في عهدِ عثمانَ ﷺ الذي اتَّخذَه بنوا أميةَّ كبشَ الفداءِ، والحيلةُ كانت جاهزةً، والدلائلُ التاريخيَّةُ على هذه الحقيقةِ أكثرُ من أن تُحصى، غير أنَّ هذا ليس مقامَ الخوضِ فيها لضخامة الجنايات المتسلسلة عبر هاتين الفتنتين، بينما هذه الدلائلُ تكشفُ في الوقت ذاته عن عيوبٍ أخلاقيةٍ في كِلاَ الطرفين تظهر في ساعات المنافسة بين رجالات الأسرتين.

فمات، فقيل إنها كانت مسمومة، وكان ذلك سنة **38** (الإصابة **482/3**). وأمّا حرقوص بن زهير السعدي: فهناك لغط حوله وغموضٌ، ينبغي الكفُّ عن الخوضُ فيه، والله سبحانه أعلم بأمره.

على سبيل المثال: ورد في صحيح مسلم، يقول: "حَدَّثَنَا حُضَيْنُ بْنُ الْمُنْذِرِ أَبُو سَاسَانَ، قَالَ: شَهِدْتُ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ وَأُتِيَ بِالْوَلِيدِ قَدْ صَلَّى الصُّبْحَ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ قَالَ: أَزِيدُكُمْ؟! فَشَهِدَ عَلَيْهِ رَجُلَانِ أَحَدُهُمَا حُمْرَانُ: أَنَّهُ شَرِبَ الْخَمْرَ، وَشَهِدَ آخَرُ: أَنَّهُ رَآهُ يَتَقَيَّأُ. فَقَالَ عُثْمَانُ: إِنَّهُ لَمْ يَتَقَيَّأْ حَتَّى شَرِبَهَا. فَقَالَ: يَا عَلِيُّ، قُمْ فَاجْلِدْهُ، فَقَالَ عَلِيٌّ: قُمْ يَا حَسَنُ فَاجْلِدْهُ، فَقَالَ الْحَسَنُ: وَلِّ حَارَّهَا مَنْ تَوَلَّى قَارَّهَا، فَكَأَنَّهُ وَجَدَ عَلَيْهِ..."[306] أي غضِبَ. قَالَ الْأَصْمَعِيُّ: وَلِّ حَارَّهَا مَنْ تَوَلَّى قَارَّهَا: أيْ وَلِّ شَدِيدَهَا مَنْ تَوَلَّى هَيِّنَهَا.[307] وتفصيلُ ذلك يعني: إنَّ الذي تنعَّم بملذَّاتِ الولايةِ هو الذي يتحمَّلُ مشقَّةَ تنفيذِ العقوبةِ، أمَّا الذي حُرِمَ من هذا المنصب، ولا أُعْطِيَ من خيرِها فما له يُكَلَّفُ بهذا الأمرِ الذي يُعَدُّ من الإزدراءِ به والانتقاص له!

هذه المشاحنات تبرهن بكل وضوح على أن صدورَ رجالاتِ الطرفين لم تكنْ خاليةً من الطمعِ في الرئاسة، وأن المنافسةَ على السلطةِ كانت قائمةً بين الهاشميّين والأمويّين إلى حدودٍ رهيبةٍ من الخصومة، فتطوّرتْ وتفاقمتْ مع الزمانِ إلى أن وقعتِ الواقعةُ وقامتِ القيامة! إنَّ هذه الأحداثَ كانتْ ولا تزالُ ذريعةً تستغلُّها فِرقتان من فِرَقِ التطرُّفِ والضلالِ. ألا وهما الخوارج والشيعةُ.

أمّا كونُ شخصياتٍ من الأسرتين امتازوا بصحبة النبي ﷺ، فلا يمنع أن يكونوا بشرًا يأكلون ويشربون ويتنافسون ويتناقشون ويخطؤون ويذنبون... إنما يختلفون عن النبي عليه السلام، أن الله تعالى خصَّهُ بالوحيِ والرسالةِ وَعَصَمَهُ من الوقوعِ في الذنب. هذه عقيدُ أهل السنة والجماعة في النبي ﷺ، وصحابته عليهم الرضوان.

إنَّ الغلوَّ الذي أظهرتْهُ خاصّةً الشيعةُ الأوائِلُ في محبَّةِ أهلِ البيتِ (بعد القضاءِ على الدولة الساسانية)، لم يكنْ في الحقيقةِ إلاَّ مكرًا وخِدَاعًا وتعميةً لإخفاءِ العصبيَّةِ الفارسيَّةِ. تلك المحبَّةُ المصطنعَةُ تحوَّلَتْ فيما بعدُ إلى تأليهِ علي ابنِ أبي طالبٍ وولَدْيهِ وعددٍ من أحفادِهِ ﷺ. ولكنَّ الشيعةَ لم يتمكّنوا أصلاً من الإختباءِ وراءَ هذا الغطاءِ المصطنَعِ ليُخْفوا بذلك مجوسِيَّتَهم وشعوبيَّتَهم، كما لم يكفِ ذلك لإخفاءِ بشريَّةِ أهلِ البيتِ وبعضِ قصورِهم العاطفِيَّةِ النامية من نواياهم السياسية! ثم اختلفتِ الشيعةُ في استغلالِ أهلِ البيت اختلافًا كبيرًا أدَّى بهم إلى تحزُّبٍ غريبٍ وَفرَّقَهُمْ إلى قرابةِ سبعينَ فرقة من الفرق الضالة. كذلك الخوارجُ؛ فإنَّ حقدَ هذه الفرقةِ وعداءَهَا على أهلِ البيتِ لم

[306] صحيح مسلم: 1331/3
[307] سنن أبي داود: 61/12

يُمكِّنْها من القضاءِ على سمعتهم الطيِّبةِ المنتشرة في ربوع الأمةِ، ولن يجدَ سبيلاً لطمسِ ما تمتازُ به العلماءُ والصالحون من هذه الأسرةِ الكريمةِ من الفضل والكرامة والشرف العظيم...

***

قتلَ الخوارجُ عليًّا ابن أبي طالبٍ، وطعن خارجيٌّ ولدَهَ الحسنَ بِالْمِعْوَلِ فاتَّلَجَتْ في فخذه فألجأته إلى الفراشِ، ونهبوا أموالَه وحاولوا اغتيالَهُ... وذبحَ الأمويُّونَ الحسينَ بن عليٍّ وسبعةَ عشرَ رجلاً من آلِ بيت النبي ﷺ في وقعة كربلاء رضوان الله عليهم أجمعين، وهي مشروحةٌ في كتب التاريخ ومشهورة بعنوان "مذبحة كربلاء"، وقد استغلّها الشيعةُ وَبَالَغُوا في صياغتها وتضخيمها لإثارة العواطفِ وتهييج الغضبِ على الأمويّين وتشنيع سمعتهم، بينما تصرُّفاتُ الأمويِّين الغاشمةُ وجرائمُهم التي ارتكبوها في أعمالِ القمع لآلِ بيت النبي ﷺ الواردةُ في كتب أهل الإختصاصِ من المؤرِّخين، غنيةٌ عن أقاصيص الشيعة ومجازفاتهم. يضاف إلى ذلك ما كان يتجرَّأُ بعضُ حكّامِ الأمويِّين على اللهِ بأشكالٍ من التمرُّدِ والفجورِ ما لو ارتكبَها أحدٌ من رجالِ الدولةِ اليومَ حتَّى في البلادِ التي نِظَامُها علمانية لثار الناسُ عليهم ولسحقوهم تحت أقدامهم.

ورد في تاريخ الخلفاء للسيوطي وهو يذكر من أحوال الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم، يصفه بـ"الخليفة الفاسق"، ثم يقول: "كان فاسقًا شرّيبًا للخمرِ منتهِكًا حرماتِ اللهِ، أرادَ الحجَّ ليشرَبَ فوقَ ظهرِ الكعبةِ فمقته الناسُ لفسقِهِ وخرجوا عليه فَقُتِلَ. ولما حوصِرَ قال: ألم أزدْ في أُعْطِيَاتِكُمْ؟ ألم أرفعْ عنكم الْمُؤْنَ؟ ألم أُعْطِ فُقَرَاءَكُمْ؟ فقالوا: ما نَنْقَمُ عليك في أنفُسِنا لكن نَنْقَمُ عليك انتهاكَ ما حرَّم الله، وشُرْبَ الخمرِ، ونكاحَ أمهاتِ أولادِ أبِيك، واستخفَافَك بأمرِ الله. ولما قُتِلَ وَقُطِعَ رأسُهُ وجيءَ به يزيدَ الناقِصَ، نصبهُ على رُمحٍ، فنظر إليه أخوه سليمانُ بْنُ يزيد فقال: بُعْدًا له، أشهدُ أنّه كان شروبا للخمرِ ماجِنًا فاسِقًا، ولقد راودني على نفسي..." وقيل: كان الوليدُ يهمُّ بسفرٍ فاستفتحَ، فخرجتْ هذه الآيةُ: وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ * مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ.[308] فقال: سجعًا سجعًا. علِّقوهُ! ثم أخذ قوسًا جعله غرضًا يرمِيهِ بالنبالِ حتى تمزَّقَ، وقال:

أتوعدُ كلَّ جبارٍ عنيدٍ * فها أنا ذا لجبارٌ عنيدٌ

[308] إبراهيم/15، 16.

إذا لاقيْتَ رَبَّكَ يومَ حشرٍ * فقل يا ربِّ مزَّقني الوليدُ.

قد يكون في بعضِ هذه الرواياتِ مبالغةٌ، إلاَّ أنَّ بعضَها الآخرَ يَدُلُّ على مدى فسادِ هذه الأسرةِ وصراعِهم على السلطةِ وتَوَغُّلِهِمْ في الفجورِ والغطرسةِ. كانت الأسرةُ الأمويةُ سلالةً شريرةً، لا يجوزُ نسبةُ الأعمالِ الخيريَّةِ التي قام بها العلماءُ في عهدِهِمْ (كحركة التدوينِ، وضبطِ أسسِ الدين، والإبداعات العلمية ونحوِها...)، لا يجوزُ نسبتُها إلى هذه الأسرةِ. بل كانتْ من ثمراتِ الوحيِ، وكانت من امتدادِ علوم الصحابةِ ﷺ، تراكمتْ في صدورِ أهلِها ثمَّ انفجرتْ على لسان التابعين وَتَبَعِ التابِعِينَ وهم جِيلاَنِ من أصْلَحِ وأفضلِ أجيالِ هذه الأمةِ بعد أصحابِ النبي عليه السلام، وقد عَرَفَتْهُمُ الأمةُ باسمِ "السلفِ الصالحِ" عليهم الرضوان. انفجرتْ أنواعُ العلومِ من قلوبِهم على ألسنتِهِمْ وأقلامِهم كماءِ السيلِ الذي لا تمنعه السدودُ. لذلك عجزتْ سدودُ الملكِ العضوضِ والفجورِ الأمَوِيّ عن إيقافِ سيولِ الحكمةِ المتفجرةِ من ألسنتِهِمْ وأقلامِهم وهم في وادٍ والنظامُ الأمويُّ في واد. أكبَّ علماءُ السلفِ على دراسةِ كتابِ الله وسنةِ رسولِهِ بما حباهم الله به من القلوبِ الطاهرةِ والإيمان الصادِقِ، والإخلاَصِ له تعالى، والعزيمةِ، والتضحيةِ؛ إلى جانبِ ما خصهم به من الذاكرة الفذَّةِ، والاطلاعِ الواسِعِ، وقوَّةِ الْحُجَّةِ، والقدرةِ البالغةِ على استحضارِ النصوصِ، واستيعابِ معانيها بكمالِ الفهمِ، وبفضلِ سليقتِهِم العربية وفصاحتهم... أكبُّوا على مدارسة كتابِ اللهِ العزيزِ وسُنَّةِ نبيِّهِ المطهَّرَةِ وخاضوا في لجاجهما بالتأمُّلِ والتركيزِ والبحثِ والتنقيبِ والاستنباطِ والاستخراجِ والتفسيرِ والاجتهادِ والتبويبِ والتصنيفِ والتأليفِ... فأبدعو أشتاتًا من أزاهيرِ العلومِ يَتَنَوَّرُ بأشعَّتِها العالَمُ اليومَ. كلُّ هؤلاء الصلحاءُ كانوا محبِّين لأهلِ بيت النبي ﷺ، معترفين بقدرهم، كما كان أهل البيت أيضًا محبين لهذه الزمرة الطيبةِ رضوان الله عليهم أجمعين.

أمَّا الشيعةُ، فإنهم قد جعلوا من تَأْلِيهِ آلِ بيت النبي ﷺ، وتشنيعِ الأمويين رُكْنًا لِدينيهم، كما قد ألْحَقُوا أهلَ السنة والجماعةِ بالأمويّين في نصب العداءِ على الطرفين بينما ليس هناك مِنْ صلةٍ تربطُ أهلَ التوحيدِ بالأمويين. فيبدو من هذه المغالطةِ وأمثالِها أن الرافضةَ إنما يقصدون بها الكيدَ بالإسلام والانتقامَ من العربِ. لأنهم قضوا على الدولة الفارسيةِ والدِّينِ الزرادشتيّ، وضمّوا أرضهم إلى الوطن الإسلامِيّ في عهدِ أمير المؤمنين عمر بن الخطابِ ﷺ. لكن المصيبةَ داهمتْ أهلَ البيتِ حين أصبحوا غرضًا للخوارجِ والأمويّين من جانبٍ، وذريعةً للشيعةِ من جانب آخر؛ يعمل الخوارج والأمويون فيهم السيفَ، وتستغلُّهم الشيعةُ، وتُعَامِلُهُمْ بالخيانة والخذلانِ، وتَتَّجِرُ بدمائِهِمْ في محاولةِ القضاءِ على الإسلامِ.

بلغَ حِقدُ الخوارجِ والأمويّين على أهلِ بيتِ النَّبِيِّ ﷺ إلى حدٍّ تجرّوا به على تكفيرِ عليّ أبن أبي طالبٍ، والأمويُّون صبُّوا جامَ غضبِهم عليه بالسبِّ واللَّعْنِ على المنابر عقودًا من حُكْمِهِمْ،[309] إلى أن أبطله عمرُ بْنُ عبدِ العزيز رحمه الله، فقضى على هذه البشاعة، ولكنْ فاتتِ الفرصةُ لإحلالِ السلامِ وتأسيسِ الوِئامِ بين أطرافِ النزاعِ، بل تسلسلتِ الخصومَةُ بين الطرفين في ثوبِ المذهبيَّةِ على مدى التاريخ الإسلامِيّ ودامتْ إلى هذا اليوم.

كان الحكمُ الأمَوِيُّ فتنةً عظيمةً انهالتْ على الأمَّةِ بعدَ الفتنة الكُبرى دامتْ قُرَابَةَ قرنٍ من الزمنِ حتى سلَّطَ الله سبحانه مَنْ استأصلوا شأفتهم الخبيثَةَ بقتلِ آخر حُكَّامِهِمْ مروان الْحِمار ف"الأسماء تنزل من السماءِ" كما في المثل!، قُبِضَ عليه في مَخْبَئِهِ وقُطِعَ رأسُهُ واحتَلَّ فراغَهم العباسيون، وفتنةُ الخوارجِ تعصِفُ بالأمّةِ، عَاقَبَتْهَا فتنةُ القولِ ب"خلق القرآن"، وفتنة القرامطةِ وَهُمْ أوّلُ عصابةٍ شيوعِيَّةٍ سلَّطَهمُ اللهُ على أوَّلِ الرأسماليّينَ ليكونوا عبرةً تُنَبِّهُ العقولَ على خطورةِ الشيوعِيَّةِ والرأسماليَّةِ اللتين هزَّتا حياةَ البشرِيَّةِ في القرون الأخيرةِ وقضتا على كلِّ فضيلةٍ جاءَ بها الإسلامُ.

***

كانت لهذه الفِتَنِ آثارٌ سيِّئَةٌ على النفوسِ، لأنَّ هذا المشهدَ المُفْعَمَ بالدِماءِ والخيانةِ والقمعِ والإبادَةِ، وخاصَّةً لَمَّا هانَتْ دماءُ أعظمِ شخصِيَّاتٍ أُهرِقَتْ بسيوفِ طائِفَةٍ من المجرمين والأمّةُ في عجزٍ حيالَ ما يُرتَكَبُ من جناياتٍ، بدأ الفسادُ يستشرِي في النفوسِ ويرسخُ في أعماقِ الضمائِرِ فتعوَّدَ الناسُ على الكذِبِ والبهتانِ والغشِّ والإجرامِ... فتحزَّبوا وتطوَّرَ الأمرُ إلى التناحُرِ والاقتتالِ؛ إلى أنْ انقلبَ الإتحادُ إلى الإنشقاقِ، واختلفتِ العقائِدُ، وتضاربتِ الأفكارُ، وتعارضتِ الإتجاهاتُ السياسيةُ، وتفاقمتْ فتنةُ المذهبيَّةِ فورَ عصر التابعين. فلابدَّ هنا من التفريقِ بين المذهبيَّةِ وبين الاختلافِ الاجتهادِيِّ بهذه المناسبةِ، لألاَّ يلتبسَ ذلك على المتعلمين:

[309] يحاول الوهابيون ليكتموا هذه الحقيقةَ، ويدَّعون أنَّ هذا الخبرَ من وضعِ الرافضةِ، بينما الوثائقُ تكذّبهم وتُثْبِتُ أنَّ ذلك واردٌ. ومن هذه الوثائق: "في الحديث المتفق عليه واللفظ لمسلم :عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ اسْتُعْمِلَ عَلَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ مِنْ آلِ مَرْوَانَ قَالَ فَدَعَا سَهْلَ بْنَ سَعْدٍ فَأَمَرَهُ أَنْ يَشْتِمَ عَلِيًّا قَالَ فَأَبَى سَهْلٌ فَقَالَ لَهُ أَمَّا إِذْ أَبَيْتَ فَقُلْ لَعَنَ اللَّهُ أَبَا التُّرَابِ فَقَالَ سَهْلٌ مَا كَانَ لِعَلِيٍّ اسْمٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَبِي التُّرَابِ وَإِنْ كَانَ لَيَفْرَحُ إِذَا دُعِيَ بِهَا..." والوثيقة الثانية: ما ورد في تاريخ الخلفاءِ للسيوطي (طباعة دار المعرفة، بيروت – تحقيق: محمود رياض الحلبى)، يقول: "كان بنو امية يسبون عليَّ بْنَ أبى طالبٍ فى الخطبةِ، فلمَّا وُلِيَ عمرُ بْنُ عبدِ العزيز أبطله، وكتب إلى نُوَّابِهِ بإبطالهِ وقُرِأ مكانَهُ (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ) الاية/90 سورة النحل، فاستمرتْ قراءتُها فى الخطبةِ إلى الآن." والوثيقة الثالثة: ما ورد في تفسير الزمخشريِّ للآية الكريمة نفسِها، يقول: "(الفحشاءُ): ما جاوزَ حدودَ اللهِ، وَ(الْمُنْكَرُ): مَا تَنْكِرُهُ العقولُ، و(البَغْيُ): طلبُ التطاوُلِ بِالظلم، وحين أُسْقِطَتْ مِنَ الخُطَبِ لعنةُ الْمَلاَعِينِ على أميرِ المؤمنين عليّ رضي الله عنه ، أُقِيمَتْ هذهِ الآيَةُ مقامَهَا."

إنَّ المذهبيةَ: فسادٌ في الدين، وانسلاخٌ من الفضائِلِ، وهي فتنةٌ عظيمةٌ من امتدادِ الفتنةِ الكُبرى دامتْ إلى هذا العصر. تجب الإشارة هنا –للمناسبة ودفعًا للالتباسِ– إلى أنَّ المذهبيَّةَ لا صِلَةَ لها باختلافِ المجتهدين. أمَّا اختلافُ المجتهدين من علماءِ الإسلامِ، فإنه ضرورةٌ من ضرورات الدين، إذ الاجتهادُ أصلٌ من أصولِ الشريعةِ الإسلامِيَّةِ، وقد ورد شرحُ هذهِ المهمّةِ في مصادرِ الأصولِ. اهتمَّ العلماءُ بتعريفِ هذا المصطلَحِ وبيانِ حُكمِهِ وطريقةِ طرحِهِ وشروطِهِ ومحلِّهِ وإيضاحِ الفرقِ بين مفهومَي الاجتهادِ والإفتاءِ، وَتَبَدُّلِهِ بسببِ التغيرات الحاصلةِ في الظروفِ والأحوالِ ونحوِها.

ولا يخفَى على أهلِ العلمِ والمعرفةِ ما للاجتهادِ من الأهمِّيَّةِ البالغةِ في تطويرِ الفقهِ الإسلامِيّ. وإنما بهذه الآلةِ يمكنُ الاستنباطُ والاستدلالُ واستعمالُ القياسِ واستخراجُ الأحكامِ وتأسيسُ قواعدِ المصالحِ الشرعيَّةِ في النوازلِ والمسائلِ المستجدَّةِ... لأنَّ تطويعَ سُبُلِ التَّعامُلِ والسلوكِ، وتسهيلَ العلاقات البشريَّةِ، والانسجامَ مع ظروفِ العصرِ إنما يتوقف في النهاية على مهمّةِ الإجتهادِ وتوسيعِ آفاقِ الوعي الفقهِيّ. ولا مريةَ بإيزاءِ كلِّ ذلك ولا شكَّ في أنَّ للاجتهادِ أثرٌ بالغٌ في صون الإسلامِ من الجمودِ والإنحلالِ ومُداخلةِ الجُهَلاَءِ ومِراءِ أهلِ الأهواءِ... وهو من أسبابِ عِصمةِ الدِّينِ الحنيفِ من التلاشي، ومنع استيلاءِ الفوضى عليه. والحمد لله الذي سخّرَ طائفةً من عبادِهِ العلماءِ الصالحين لهذه المهمةِ؛ كإمامِ دارِ الهجرةِ مالكِ بنِ أنس،[310] وأبي حنيفةَ النعمان،[311] ومُحَمَّد بنِ إدريسِ الشافعِيِّ،[312] وأحمد بن حنبل،[313] وشيوخِهِمْ وتلامذتِهم ﷺ أجمعين.

يجب التمييزُ بين هؤلاءِ العلماءِ الأتقياءِ وبين المذهبيِّين والطائِفِيِّين الأشقياءِ من الصوفِيَّةِ الزنادقةِ، والرافضةِ المجوسِ، والوهّابيِّين الخوارجِ، والإخوانِيِّين الغوغاءِ، والماتريديِّين والأشعريين أهلِ الأهواءِ والبِدَعِ... كلُّ المنتسبين إلى هذه الفِرَقِ الضَالَّةِ هم أهلُ الفتنةِ، أثاروا حروبًا طاحنةً يتناحرون في أيامنا، انبثقتْ جميعُ العصاباتِ الإرهابية من هذه الفرقِ الستةِ. منها: الفرقةُ اللاَّدنيةُ، والفرقةُ الداعشيَّةُ (وهما من امتدادِ الوهابيَّةِ)، والفرقةُ الأتاتوركيَّةُ (وهي عصابةٌ عنصريَّةٌ تركيَّةٌ مارقةٌ، من امتدادَ الجموعَ المتهوّدَةِ من الأتراك)، والعصاباتُ الشيوعيَّةُ والاشتراكِيَّةُ اليساريَّةُ، (وهي خليطٌ من

---

[310] أبو عبد الله مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر الأصبحي الحميري المدني (**93–179**هـ / **711–795**م).

[311] أبو حنيفة النعمان بن ثابت بن زوطى بن ماه الكوفي (**80–150**هـ / **699–767**م).

[312] أبو عبد الله مُحَمَّد بن إدريس الشافعيّ المطَّلِبِيّ القرشيّ (**150–204**هـ / **767–820**م)

[313] أبو عبد الله أحمد بن مُحَمَّد بن حنبل الشيباني الذهلي (**164–241**هـ / **780–855**م)

كثرةٍ عَلَوِيَّةٍ وقلةٍ من أهلِ المروقِ في مختلف البلاد الإسلامية). صان الله الأمةَ من شرورهم، وجمع شملَها بالاتّحادِ على التوحيدِ والإخلاصِ والعمل الصالح والإخاءِ والسلام.

***

أما الْمُسْلُمَانِيَّةُ Müslümanlık، فإنها فتنةٌ عظيمةٌ وزندقةٌ خطيرةٌ اختلقَها الأتراكُ فورَ الْتِقَائِهِمْ بالدعوةِ الإسلامِيَّةِ على يدِ الفاتحين العرب أيامَ الْحُكمِ الأمويّ، وهي صورةٌ مشوَّهةٌ للإسلامِ، يدينُ به الأتراك ومَنْ دخلَ تحتَ حُكمِهِمْ من الأكرادِ والشراكسةِ واللاَّزِ والصقالبةِ والبُنْطُس والدَّيلَم... سنُّوا هذا الدينَ لأنفسِهم تمايُزًا عن العرَبِ في العقيدةِ والتعبُّدِ. تُبرهن الدلائلُ التاريخِيَّةُ على أنَّهم إنما اتّخذوا هذا المنهجَ في التديُّنِ أسوةً بالفُرسِ الذين ابتدعوا التشَيُّعَ دينًا ليتمايَزوُ به عن العربِ كراهِيةً لهم. إلاَّ أنَّ موقِفَ الأتراكِ من العربِ اختلفَ عن موقف الفرسِ منهم بعد أن دحروا البويهِيِّين عن المسرح السياسيّ واحتلُّوا مكانَهم. أنقذَ الأتراكُ مركزَ الْحُكمِ العباسِيّ من حصارِ الفُرْسِ فورَ وصولِ طُغْرُولْ بَكْ Tuğrul Bey (ت.**455**هـ) الحاكمِ السلجوقِيّ إلى بغداد، بناءً على دعوةِ القائِمِ بأمرِ اللهِ العباسيّ (**1001–1075**)، وقد كانتْ بين الطرفين صلةٌ في العقيدَةِ، إذ تجمعهما السُّنِّيَّةُ في صفٍّ واحدٍ.

إلاَّ أن الأتراك لم يندمجوا في المجتمع العربِي إندماجًا كاملاً، ولم يهضُموا الإسلامَ ويتشرَّبوهُ في حدودِ الكتابِ والسنة، بل احتفظوا بما حملوا من عقائدهم وطقوسِهم التي عَلِقَتْ بها نفوسُهم من العهد البوذيّ والبرهمِيّ. ولَمَّا استوطنوا مناطقَ معيَّنَةً لهم في العراقِ وحالَ بينهم وبين العربِ مسافاتٌ أتاحتْ لهم بذلك استقلالِيَّةٌ في عاداتهم وثقافتهم، ظلت تلك الفروقُ العَقَدِيَّةُ (الموجودةُ أصلاً بينهم وبين العرب) ظلّتْ راسخةً في طريقةِ تديُّنِهِمْ ودامتْ بعد أنْ استولَوْا على الآسيا الصغرى وانتشروا في أرجاءِ أناضول وأسَّسوا الدولةَ العثمانيَّةَ على أنقاضِ الدولةِ السلجوقِيَّةِ، وإلى اليوم هي الْمُسْلُمَانِيَّةُ نفسُها ديانتُهُمْ التى حشروا فيها ما أعجبَهُمْ وطابت به نفوسُهُمْ من أشكالِ المعتقداتِ البِدْعِيَّةِ، والخرافاتِ الصوفيَّةِ، وطقوسِ اليهود والنصارى...

ولَمَّا انهارتِ الدولةُ العثمانيةُ وقامتْ على أنقاضِها الدولةُ التركِيَّةُ واستولى مصطفى كمال على المجتمعِ، بدأتِ الْمُسْلُمَانِيَّةُ ترضَعُ من ثَدْيِ الأتاتوركيةِ وتتغذَّى من كُفْرِيَّاتِها إلى جانبِ البوذيَّة الجديدَةِ التي أتا بها خالدُ البغداديُ من ذي قبلٍ فورَ عودتِهِ من الديار الهندية عام **1811**م.

ونشرَهَا في ربوعِ المجتمَعِ العثماني. وقد ظهرتْ جماعاتٌ صوفِيَّةٌ وحركاتٌ روحيةٌ على الساحة التركية في العهد الجمهوري، – خاصةً في المرحلةِ الأخيرةِ – تَبُثُّ أشكالاً غريبةً من المعتقداتِ، فأدَّتْ إلى تضخُّمٍ وانتشارٍ ورسوخٍ في الْمُسْلُمَانِيَّةِ فتحوّلَتْ إلى ديانةٍ خطيرةٍ تُهَدِّدُ الإسلامَ أكثرَ مما يهدِّدُهُ الإلحادُ الدهرِيُّ والتبشيرُ النصرانِيُّ والانهيارُ الخُلُقِيُّ...

إن الخوارج الجُدُدَ الذين شبُّو في أحضانِ الوهّابية وظهروا عام 1979م. لأوَّلِ مرةٍ في الشرقِ الأوسطِ إنَّمَا كانَ انطلاقُهُمْ أصلاً من قبيلِ رَدِّ فِعْلٍ – في اللاَّوَعْيِ – وانفعالاً ضِدَّ استهتارِ (المسلمين!) بالدِّينِ الحنيف وتعاليمِهِ، كما كان ظهورُ محمَّد بن عبد الوهاب رحمه الله رَدَّ فعلٍ على شركِيَّاتِ الأتراكِ العثمانيّين. وإنما يتمثّلُ هذا الاستهتارُ في الدِّيَانَةِ الْمُسْلُمَانِيَّةِ التركِيَّةِ ولا شكّ! وقد انتشرت في جميع أنحاءِ المنطقةِ، وهي من أهمِّ أسبابِ التحريف والتغييرِ والتبديلِ والتدميرِ لِلْقِيَمِ التي جاءَ بها القرآنُ الكريمُ والسنّةُ النبويَّةُ. كما هي السببُ الرئيسُ في تَخَلّي المسلمين وانسلاخِهِم عن الإسلامِ منذ قرونٍ، وكانت الْمُسْلُمَانِيَّةُ هي التي دفعتْ عجلةَ التخلُّفِ للأمةِ عن موكب الحضارةِ، ومَهَّدَتْ السبيلَ لانتشارِ المساوي الأخلاقِيَّةِ في المجتمعات الإسلاميةِ... فاستغلتْ شعوبُ الغربِ هذا التدهورَ الذي سادَ على الأمةِ الإسلامية، استغلتْهُ بالنهوضِ، وتطوير العلومِ والتقنية التي أصبحتْ سلاحًا فتَّاكًا في يدِها، تخوضُ اليومَ في الحربِ على الإسلامِ والإنقضاضِ على الوطن الإسلامِيّ، وتحريضِ المذهبيَّةِ والعنصريَّةِ وإثارةِ الحروبِ بين الشيعة والسنَّةِ، والتعاونِ مع العصابات الإرهابية.[314] كُلُّ ذلك نشأتْ أصلاً من جراءِ الفتنة المتمثل في الْمُسْلُمَانِيَّةِ.

لقد أفرزت هذه الديانةُ الوثنيةُ القبوريّةُ أشكالاً من الطرائق الصوفِيَّةِ والبِدَعِ والخرافاتِ والأساطيرِ ما يعجز اللِّسانُ والقلمُ عن عدِّها ووصفِها ونقلِها، بحيثُ أصبحَ من المستحيلِ إقناعُ شخصٍ واحدٍ في هذه المنطقةِ (وخاصةً في تركيا) أنَّ الْمُسْلُمَانِيَّةَ Müslümanlık ليستْ هي الإسلامُ الذي جاءَ به محمدٌ ﷺ، فضلاً عن إقناعِهِ بإن الإسلامَ إنَّما ذهبَ ضحيةً لهذه الفتنةِ المتقمّصةِ بثوبِهِ بالذات والإسلامُ براءٌ منها.

ومن الخطورة بمكان أنَّ هذه الديانةَ قد التبستْ أمرُها على ملايين المسلمين، قلَّ مَنْ يستطيعُ أن يُفَرِّقَ بينها وبين الإسلامِ، للمشابهةِ بين مظاهرِها ومظاهر الإسلامِ؛ كالصلاةِ والصومِ والحجِّ والزكاةِ

---

[314] كالعصابةِ للادنية، والداعشية، وبوكو حرام في أنحاءِ الشرق الأوسط، وحركةِ الشبابِ في الصومال، وبي. كَ. كَ. .PKK، ودي. إيج. كا. بي. سي .DHKPC في تركيا. وبي. واي. دي .PYD في سوريا، وغيرِها.

ونحوِها من الأركانِ، وما يتبعها من النوافل، ومطابقةِ كثيرٍ من المعاملاتِ (في هذه الديانة) لضوابطِ الفقهِ الإسلامِيّ. بينما العقيدةُ في الْمُسْلُمَانِيَّةِ مشوبَةٌ بعقائد صنوفٍ من أهل الشرك، من البوذيّين واليهودِ والنصارى... قديمًا انبثقتْ من الْمُسْلُمَانِيَّةِ المذهبُ الماتريديُّ التركِيُّ والمذهبُ الأشعريُّ الكردِيُّ في العقيدَةِ، وعديدٌ من الطرُقِ الصوفِيَّةِ وركَامٌ من البِدَعِ والخرافاتِ والأساطيرِ، كما أصبحتِ المسلمانيَّةُ في المرحلةِ الأخيرةِ من أهمّ أسبابِ العنصريَّةِ التركيةِ، وإثارةِ المشاعرِ لتقديسِ الأمجادِ، والإعتزازِ بالتاريخ العثماني تمهيدًا لإحياءِ عهدِ الهيمنةِ والاستيلاءِ على منطقةِ الشرقِ الأوسطِ من جدبد. وهذا من أكبر المخاطر على مستقبل الإسلام في هذه المنطقة.

***

برزَ حزبُ العدالةِ والتنميةِ على المسرحِ السياسيّ في تركيا فأخذَ يستخدمُ آليةَ الدّينِ سُلَّمًا لسياستِهِ، فانتعشتِ الْمُسْلُمَانِيَّةُ في هذا البلدِ خاصةً بعد أنْ قبضَ الحزبُ على زمامِ الحكمِ بقيادةِ رجب طيب أردوغان. فاهتمَّتِ الحكومةُ المنبثَقَةُ من هذا الحزبِ اهتمامًا بالغًا بـ"الْمُسْلُمَانِيَّةِ" تحت ستارِ "مبدأِ المحافظةِ conservatism principle"، ممَّا فتح أبوابَ النشاطِ للجماعاتِ الصوفِيَّةِ على مصاريعها وهي تتسابقُ في ضربِ الإسلامِ بسلاحِ هذه الديانةِ دون رحمةٍ ولا هوادٍ ولا تهاون... تهتمُّ حكومةُ أردوغان بتقديم "الْمُسْلُمَانِيَّةِ" للعالَمِ العربِيّ في ثوبِ الإسلامِ من خلالِ احتكارِ عاطفتِهِمْ الدينيَّةِ، والغريبُ أنَّ العربَ ما زالوا على وضعِهِم الغافل عن هذا المصطلح الهجين لا ينبث أحدُهُمْ ببنتِ شفةٍ أمامَ مراوغاتِ الحكومة التركية في تطبيعِ المشاعرِ لتسويقِ هذا الدين الوثنِيّ المنحوتِ من الإسلام إلى المجتمعاتِ العربيَّةِ. وربما أصمَّ العربُ (حتى الوهّابيون) آذانَهم يتغافلون عن هذه المراوغةِ لأنَّهم قد سبقوا الأتراكَ والفرسَ في شذوذِهم وانحرافهم عن الصراطِ المستقيم، وأنْهَكُوا الإسلامَ تحريفًا وتشويهًا في سلوكِهِمْ وتعامُلِهم. فكيف بهم أن ينتبهوا إلى خطرِ الْمُسْلُمَانِيَّةِ وقد سلَّطَ الله عليهِمْ الأمريكانَ والروسَ والصهاينةَ ودولةَ مجوسِ الفرسِ، وتركهم في غَيِّهِمْ يسفكون دماءَ بعضهم البعض، يعيثونَ فسادًا في الأرضِ وهم يتناحرون.

***

عزمتِ الحكومةُ الأميركيَّةُ على تنفيذِ مؤامرةٍ خطيرةٍ لتحويلِ دولِ الشرقِ الأوسَطِ إلى أيالاتٍ تابعةٍ للولايات المتحدةِ، وتحويل الإسلامِ إلى "دين المسجد والمقبرة". وأعدتْ مشروعًا خاصًّا لتحقيقها

بعنوان "مشروع الشرق الأوسط الكبير"[315] وكان الرئيسُ التركِيُّ رجب طيب أردوغان من أهم الرموز الواقفين وراءَ هذا المشروع.[316] يتلخص هذا الهدف في كلمات الكاتب الدكتور أحمد إبراهيم خضر، يقول: "تَنْصَبُّ الجهودُ المكثَّفَةُ والضخمةُ من قِبَلِ الغربِ والمثقَّفين المسلمين من العلمانيِّين والليبراليِّين على إلغاءِ كلِّ الفوارقِ والفواصِلِ والتعارُضِ القائِمِ بين الديمقراطيَّةِ والإسلام، لإزالةَ التناقُضِ الموجودِ حَتْمًا بينهما، فيتحوَّلاَنِ إلى تَوْءَمَيْنِ، ذلك لأنَّ الإسلامَ يقفُ كالطَّوْدِ الشامِخِ أمامَ الفكرةِ الديموقراطيَّةِ الرأسماليَّةِ، وهو الَّذي يمنعُ اسْتِتْبَابَ السيطرةِ لها على العالَمِ الإسلامِيِّ، رغمَ ضعفِ المسلمينِ الحالي بسببِ غيابِ الإسلامِ عن حياتِهم، لذلك كانَ لا بدَّ لهم من العملِ على إزالتِهِ من الطريقِ، ولاستحالةِ ذلك؛ تمَّ تَبَنِّي تسويَةِ تلك العوائِقِ من خلالِ تأويل الإسلامِ لِيُقِرَّ بقبولِ الديموقراطيَّةِ ويعْتَرِفَ بشرعيَّتِهَا، وهو أمرٌ لن يشعرَ الغربُ بالطمأنينةِ والسكينةِ والاستقرارِ وتَحَقُّقِ النصرِ الكاملِ له، قبل أنْ يُجَسِّدَ ذلك في العالَمِ الإسلامِيِّ، حيث يرادُ تحويلُهُ إلى ما يُشْبِهُ أميركا اللاتينية، إن لم يكن أسوأ!."[317]

هذه المؤامرةُ المتمثِّلَةُ في زندقةِ "مشروع الشرق الأوسط الكبير Greater Middle East Project"، اشتركتْ تركيا في تَبَنِّيهَا وأبْدَتْ استعدادَها للتعاونِ مع الولاياتِ المتحدةِ وإسرائيلَ في تحقِيقِها، وتقديمِها للعربِ لتُقنِعَهُمْ: "أنَّ الإسلامَ ملائِمٌ لثقافةِ العصرِ، ومُنْسَجِمٌ معَ فلسفةِ الغربِ والديانةِ

---

[315] مشروع الشرق الأوسط الكبير The Great Middle East Project: نطق بهذا الإسم لأوَّلِ مرَّةٍ نائبُ وزيرِ الخارجيةِ الأميركية Marc Grosman في تصريح صحفي أدلى به عام **2003**م. ثم أعلنه نائب الرئيس الأميركي Dick Cheney سنة **2004**م. في مؤتمر عُقِدَ بمدينةِ دافوس السويسرية.

[316] نشرت صحيفة (يني شفق Yeni Şafak) التركيةُ في **2004/1/30** خبراً مفاده أن الرئيس الأمريكي جورج بوش عرض على رئيس الوزراء التركي رجب طيب أردوغان خلال استقباله في البيت الأبيض يوم **2004/1/28** معالم المشروع الأمريكي الجديد لـ(الشرق الأوسط الكبير)، الذي يمتد من المغرب حتى إندونيسيا، مروراً بجنوب آسيا وآسيا الوسطى والقوقاز.

حسب الصحيفة فإن المشروع طبقاً لما عرضه الرئيس الأمريكي، جعل من تركيا عموداً فقرياً، حيث تريد واشنطن منها أن تقوم بدور محوري فيه، حيث تتولى الترويج لنموذجها الديمقراطي واعتدالها الديني، لدرجة أن الرئيس الأمريكي اقترح أن تبادر تركيا إلى إرسال وعاظ وأئمة إلى مختلف أنحاء العالم الإسلامي لكي يتولوا التبشير بنموذج الاعتدال المطبق في بلادهم، وأن هذا النموذج هو الأصلح للتطبيق في العالم الإسلامي، ومن ثم الأجدر بالتعميم لأسباب ثلاثة:

أولها: أنه ملتزم بالعلمانية التي تهمش دور الدين إلى حدّ كبير، بل وتعارض أي دور للدين في الحياة العامة، وهو مطلب تلح عليه واشنطن وتمارس أقصى ما تملك من ضغوط على الدول الإسلامية للاقتراب منه أو الالتزام به.

السبب الثاني: أن تركيا تعتبر نفسها جزءاً من الغرب، وموالاتها للولايات المتحدة ثابتة ولا شبهة فيها، وبالتالي فهي تعد جزءاً من العائلة الغربية، وتحتفظ مع العالم الإسلامي بعلاقات شكلية.

السبب الثالث: أن تركيا لها علاقاتها الوثيقة مع إسرائيل، الأمر الذي يلقي ترحيباً وتشجيعاً كبيرين من جانب واشنطن ودول الاتحاد الأوروبي. المصدر: فهمي هويدي، صحيفة الشرق الأوسط: الاربعاء **12** ذو الحجة **1424** هـ **4** فبراير **2004** العدد **9199**.

[317] https://www.feqhweb.com/vb/t13953.html

المسحيَّةِ؛ يمكنُ أنْ يتناغمَ مع العلمانيَّةِ، والأتاتوركيَّةِ، والديموقراطيَّةِ، والتصوُّفِ في آنٍ واحد؛ كما يمكنُ أن يتخلَّى المسلمون (بعد تطويعِهم) عن عقيدةِ التوحيدِ ويتقبَّلوا الوثنيَّةَ... عند ذلك سوف يُصْبِحُ من السهلِ تطويقُ أهلِ التوحيد وصهرُهُمْ في بوتقة الجاهلية المعاصرة، أو القضاءُ عليهم إنْ بدا منهم خطرٌ على أي زندقةٍ أخرى تقترِحُهَا الحلفُ المسيحِيُّ–الصهيونِيُّ."

هذه التجربةُ لها أمثالٌ في التاريخِ الإسلامِي؛ لقد كانتِ الزندقةُ والسياسةُ متلازمتان عبرَ تاريخ المسلمين؛ ومن حقائق ماضيهم أنَّ لفيفًا من زنادقةِ الفُرْسِ استطاعوا أن يتسلَّلوا إلى صفوفِ النخبةِ ويتدرّجوا إلى مناصِبَ عُليا في الدولة العباسِيَّةِ يُشغِلونها بمكائدَ سياسِيّةٍ، وعددٌ آخرُ منهم برعوا في اللغةِ والأدبِ ليجعلوهما مطيةً لنشر ثقافةٍ تُراوِدُ المجتمَعَ عن نفسِهِ. كانت لهم حضورٌ ومكانةٌ بين الناسِ اشتهروا بإبداعاتهم الأدبيةِ يتداولها المثقفون وتنال إعجابًا منهم. ازدهرت على أيدي هؤلاءِ المتأسلمين والمستعرَبين المجوسِ فنون الشعر والغناء والموسيقى، وزخرت مدن الشامِ والعراقِ خاصةً بـ"الأُدباءِ" و"الشعراءِ" و"الفنانين"... أغلبهم من أوصولٍ فارسيةٍ–مجوسِيَّةٍ... كانت آلتهم يومئذٍ المجون والتهتُّكُ والخلاعةُ، يريدون أن يُمَزِّقُوا ستارَ الحياءِ والفضيلةِ ليسهلَ بذلك تَعْفِينُ المجتمعِ فَيَتَعَاقَبَهُ الإنحلالُ الخُلُقِيُّ والتحزُّبُ السياسِيُّ وتنزلقَ العامَّةُ بعده إلى أتونِ الفِتَنِ والتناحر انتقامًا من المسلمين الذين قضَوا على دولتِهِم وثأْرًا للشعبِ الفارسِيّ–المجوسِيّ.

كان الوسَطُ يومئذٍ مُتاحًا وقد مهَّدَهُ التصوُّفُ والعجمةُ وهما دائمًا ذريعتان خَفِيَّتَانِ تنبثقُ منهما أسبابُ الفِتنِ وتتفاقَمُ. فكان لِهَاتَيْنِ الذريعتَيْنِ أثرُهُمَا في السياقِ التاريخي منذ بدايةِ العهدِ العباسِيّ إلى اليومِ، تضافرتِ الزندقةُ والسياسةُ والتصوفُ والعجمةُ عبر هذا السياقِ وتأثَّرَ بها الحكمُ والنظامُ في تشريعِ القوانين وتعيين الإتّجاهاتِ الثقافِيَّةِ والتعليميَّةِ والدينيَّةِ...

كانت العجمةُ بخاصةٍ ولا تزالُ عقبةً كبيرةً لفهم كتابِ اللهِ وسُنَّةَ رسولِهِ في المجتمعاتِ الغير عربية؛ ذلك لا شكَّ في أن كلَّ إنسانٍ يجهل العربية الفصيحةَ مُعَرَّضٌ للاستغلالِ الدِّينِي (في المحيط الإسلامِيّ) أكثر منه تعرُّضًا له مِمَّنْ يُتْقِنُهَا. ولا يُستَبْعَدُ أنْ يفشلَ أيُّ دجَّالٍ في محاولتِهِ لافتتانِ إنسانٍ متمكِّنٍ من اللُّغةِ العربية وإنْ لم يكن عربيًّا، وينجحَ –بالمقابلِ– في تضليلِ مَنْ ليس متمكِّنًا منها وإن كان عربيًّا فَيَخْدَعَهُ في أيِّ لحظةٍ، كما استطاعَ دجالُ عصرِنا فتح الله گولن مِنْ سَحْبِ الملايين من أعجامِ الأتراكِ وراءه، فكادَ أنْ يغتصِبَ سُلطَةَ الدولةِ التركِيَّةِ لولا أنْ أرْبَكَهُ اللهُ وَشَوَّشَهُ

وأكَبَّه على وجهه. إنما وقع هذا الجمهورُ في حبالِهِ واغترّوا بخزعبلاتِهِ لِجهلِهِمْ لُغَةَ الضادِ في الْمُقَامِ الأَوَّلِ، ولَم يتعرَّفُوا على الإسلامِ إلاَّ بالاستعانةِ على الترجمة، وثمَّ أسبابٌ أخرى جانبيةٌ...

إن السياسةَ إذا اعتمدت على الزندقةِ في نظامِ أي مجتمعٍ (إسلاميّ) سرعان ما احْتَوَاهُ الفقرُ العلمِيّ، وعمَّ الجهلُ في ربوعِهِ وظلتْ المعرفةُ قاصرةً على قلَّةٍ من العلماءِ تجهلُهم العامّةُ، وتُناصِبُهُمْ القبوريةُ العداءَ، ويبدءُ المشعوذون ورجالُ الدين يتسابقونَ على المسرح، وتظهرُ وتتكاثرُ الجماعاتُ الصوفِيَّةِ على غرارِ شبكات المافيا، وينهضُ صناديدُها يشمّرون عن ساعِدِ الجدّ لاختلاقِ أشكالٍ من البِدَعِ والخرافاتِ والشركيَّاتِ، ينفُثُونَهَا في روعِ الناسِ، يتَّجِرون بالدِّينِ؛ يشترون بآيات الله ثمنا قليلاً.

ولا شكّ في أنَّ التاريخَ الإسلامِيَّ مُعْظَمُهُ قد جَرَى على هذا المنوالِ وإنْ أنكره سماسرةُ الدِّينِ من الصوفِيَّةِ والوهابيِّين ومن على شاكلتهم. ولهذا السبب لم يلبث حتى انطفأ نورُ الإسلامِ في عصرِنا، ولم يبقَ منه إلاَّ رسومٌ وأطلالٌ وظلالٌ... ألاَ يبرهنُ المشهدُ اليومَ على هذه الحقيقةِ؟ هناك مئاتٌ من العصاباتِ الإرهابيَّةِ والتنظيماتِ السرِّيَّةِ والأجهزةِ الإستخباراتيةِ وشبكاتِ مافيا، وأوكارِ تِجَارةِ المخدِّراتِ، وشركاتِ إنتاجِ الأسلحة... تتسابق كلُّها في إشعالِ نيران الفِتَنِ، وإهراقِ الدماءِ، وهتكِ الأعراضِ، ونهبِ الأموالِ والممتلكات... إلى جانب ذلك مئاتٌ من الفِرَقِ الضالَّةِ تتعاونُ مع الحِلْفِ المسيحِيّ–الصهيونِيّ الذي يقصفُ قلعةَ الإسلامِ دون هوادةٍ، ويحاولُ إفسادَ العقيدَةِ وتفريقَ صفوفِ المسلمين ونزعَ الإيمانِ من قلوبِهِم، يأتِي على رأسِ هذه الفِرَقِ: الإسماعيليَّةُ، والنُّصَيْرِيَّةُ، والدُّرْزِيَّةُ، والقاديانيَّةُ، وَالبهائيَّةُ والأتاتوركِيَّةُ والْعَلَوِيَّةُ والتياراتُ اليساريَّةُ... كما تَسْتَفِيدُ من هذا الوسطِ الفوضوِيّ الْمُرْعِبِ عديدٌ من الطرائقِ الصوفِيَّةِ وقد توغلتْ في أعماقِ الحياةِ الإجتماعيةِ، وتسرَّبَتْ إلى مؤسساتِ الدولة التركيَّةِ واستحوذتْ على إقتصادِ البلد وهي تملأُ مساجدَهُ وجامعاتِهِ ونوادِيَهُ، تحتكِرُ ثرواتِهِ، وتتضخم بأموالِهِ يومًا بعد يوم... ومن أشهرها النقشبنديةُ والنورجيةُ، كلتاهما تخدُمَانِ العنصريَّةَ التركِيَّةَ وهي من أشدِّ الفتنِ فتكًا بالأمَّةِ وإفسادًا للعقيدة الحنيفةِ، وتدمبرًا للقِيَمِ. ومن أواخر هذه الفتن: فتنةُ دَجَّالِ العصرِ فتح الله گُولَنْ وعصابتِهِ "الحشاشين الجُدُد".

هذه العصابةُ وما تلبَّسَتْ به من الفتن، لاشك سوف يتعرّضُ لجمعِ أخبارِها كثيرٌ من الباحثين والمؤرّخين وخبراءِ علم الإجتماع، ولكنَّهم لن يتمكّنُوا من حصرِ تفاصيلِها وحشدِ كاملِ دقائقِها في مؤلَّفَاتِهِم، لضخامةِ الفسادِ والمؤامراتِ والجناياتِ التي ارتكبَتْهَا إلى أن فضحها اللهُ على رؤوسِ

الأشهادِ وأكبَّها على وجهِها فور إنقلابِها الفاشِلِ بجهودِ رئيسِ الجمهوريَّةِ التركِيَّةِ رجب طيب أردوغان.

***

23) فتنة الحشَّاشين الجُدُد.

إنَّ تعبيرَ "الحشَّاشين الجُدُد "The New Assassins تسميةٌ أطلقَها رجب طيب أردوغان (إذ كان يومئذٍ رئيسَ الوزراءِ) أطلقَهَا على عصابةِ فتح الله گولن، عَقِبَ أحداثِ **17–25** ديسمبر من عام **2013**م. التي تورَّطَتْ فيها العصابةُ كأوَّلِ تجربةٍ للإطاحةِ بحكومةِ حزبِ العدالةِ والتنمية. وقد أُطْلِقَتْ على هذه الشَّبَكَةِ أسماءٌ أُخرى ک"الدولةِ الموازِيَةِ"، و"الدولة العميقة"، و"العصابة الفتوشية (FETO) وإنما سُمِّيَتْ ب"الحشَّاشين" لمشابهتِها بعصابةِ الحسن بن صباح المعروفةِ ب"الحشَّاشين الإسماعيلِيِّين" الذين انتظموا تحتَ إمرتِهِ وكانوا يقومون باغتيالِ الأمراءِ في العهد العبّاسِيِّ.

يجب هنا تصحيحُ خطإٍ وقعَ فيه كثيرٌ من المؤرِّخين بنسبةِ استعمالِ الحشيشِ إلى عصابةِ الحسن بن صباح. فالأقربُ إلى المعقول: أنّهم لم يستعملوا أيَّ مُخَدِّرٍ للأعصابِ، لما في ذلكَ تعطيلُ حاسَّةِ الإنتباهِ والإنفعالِ، والإخلالُ بحاسةِ التفكير والإدراكِ الحسِّيِّ... لكنَّهُ لا شكَّ في أنَّ أفرادَ هذه العصابةِ كانوا على أشدِّ حالٍ من الأُهْبَةِ واليقظةِ والانتباهِ؛ لأنهم كانوا يتلقّونَ تدريباتٍ احترافِيَّةً متمايزةً وفقَ مبادِئَ رصينةٍ يكتسبونَ على أساسِها تفوُّقًا منقطِعَ النظيرِ في فنونِ التنكُّرِ والتجسُّسِ والفروسيَّةِ، وإرباكِ الشخصِ المستهدَفِ وقتلِهِ بأشدِّ وجوهِ الفتكِ، لِبَثِّ الرُّعبِ والدهشةِ والذُّعرِ في نفوسِ العامَّةِ. وهذه العمليات –لا شكَّ– أنها موقوفَةٌ على صِحَّةِ حاسَّةِ الانتباهِ قبلَ كلِّ شيءٍ. كذلك عصابةُ فتح الله گولن، فإنَّ أفرادَ قِمَّتِهَا (المعروفين بالنُّخبَةِ الگولَنِيَّةِ) كُلُّهم يمتازون بأعلى قدرٍ من الانتباهِ، ويتَّسمون بمستوياتٍ عاليةٍ من الثقافةِ، واللسانيَّاتِ، وفنونِ الكلامِ والخطابِ، وتسحيرِ العقولِ، وإرباكِ المخاطَبِ بأساليبَ من المغالطةِ والجَدَلِ والتشكيك...

تمتازُ هذه الشبكةُ بخصائِصَ غريبةٍ وغامضة؛ لذا، لم يتمكّنْ أحدٌ من السياسيّين ولا الباحثين المحترِفين من الإطلاعِ على شيءٍ من تكوينِ هيكلِها، وتسييرِ نظامِها، وطُرُقِ التواصُلِ والعلاقاتِ بين أفرادِها على مدى فترةٍ تربو عن أربعةِ عقودٍ من الزمنِ، وهذا أَكْسَبَهُمْ نجاحًا باهرًا في التسلُّلِ إلى أدقِّ نقطَةٍ استراتيجيةٍ في مرافق الدولة التركيةِ. كما استطاعوا أنْ يَصِلُوا إلى المعلوماتِ السِّرِّيَّةِ والمخزّنَةِ لَدَى أجهزتِها الإستخباراتيَّةِ، وأحاطوا بكلِّ ما تَمُتُّ بصلةٍ إلى برامج الدولةِ ومشاريعِها ووثائقِها المحرَّمَةِ من

الكشفِ والإفشاء، فلم يخلُ منصِبٌ ولا دائرةٌ رسميةٌ في تركيا إلاَّ وقد تسلَّلَ فيهِ عددٌ من بطانة فتح الله گولن، واستحوذوا عليه، خاصةً كانَ مُعظَمُ المناصِبِ في جهازِ القضاءِ والأمنِ تحت سيطرتِهم، وعددٌ غيرُ قليلٍ منهم كانوا يحتلّونَ مناصِبَ رفيعةً في القوات المسلحةِ التركية.

تُرى من يكون فتح الله گولن! هذا الذي ملأ دَوِيُّهُ الآفاقَ، والذي هزَّ الدولةَ التركِيَّةَ في بداية العقدِ الثاني من القرن الحادي والعشرين، وأصبحَ محورًا هامًّا في الأنديةِ الفكرِ السياسِيّ، ومحاطًا بهالةٍ من الاهتمامِ عبرَ الإعلامِ المحليِّ والدولِيّ...

هذا الشخص، (بحسب المعلومات التي جَمَعَهَا وأثبتَها عددٌ من الباحثين) رجلٌ تركِيُّ الأصلِ من أهالي مدينةِ (أرض الروم) الواقعةِ في أقصى شرقي تركيا، وُلِدَ سنةَ 1941م. لأسرةٍ متواضعةٍ من أوساطِ المجتمع التُّرْكِيِّ لا تحظى من الشهرةِ بأدنى شيء. قضى گُولَنْ أيامَ طفولتِهِ في بيئةٍ يسودُها أمراضٌ أخلاقِيَّةٌ غريبةٌ؛ تختلطُ في سلوكِ أهلِها الفضيلةُ بالرزيلةِ، تجتمعُ في علاقاتِهم الْمَحَاسِنُ وَالْقَبَائِحُ في آنٍ واحد! تراهم متقيّدين بأداءِ الفرائضِ من الصلاةِ والصومِ والحجِّ والزكاةِ، مهتمّين بتلاوةِ القرآنِ وحفظِهِ، لكنهم أشدُّ الناسِ عُنْصُرِيَّةً؛ يقدّسونَ الأمجادَ، ويعبدون سلاطينَ بني عثمانَ وأبطالَهم، وَيَكْرَهُونَ الأكرادَ والعربَ، ويعادونهم، ويحتقرونهم، ويعدُّونهم من ألدِّ أعداءِ الأتراكِ... وعندما يعودون من زيارةِ الحجِّ والعمرةِ يدور معظمُ حديثِهِمْ حولَ مثالِبِ العربِ، يذكرون عنهم من البشاعةِ والخيانةِ والقذارةِ ما يثيرُ النفورَ والعيفَ والاستقذارَ في نفوس المستمعين...

نشأ فتح الله گولن في هذه البيئةِ بضواحي مدينة (أرضِ الروم) التي فتحها العربُ كما يظهر من اسم المدينة! قيل كان الرجلُ خبيثَ الطبيعةِ منذ بدايةِ نشأتِهِ مكَّارًا، حسودًا، حقودًا على كُلِّ ناجحٍ، منافِسًا كُلَّ فائزٍ، جانحًا للمكيدةِ، دسَّاسًا، يسعى بين زملائِهِ بالوقيعةِ وهو يومئذٍ مراهقٌ. كما قيل عنه أنه بينما كان في الكتَّابِ، وشَى بأُستاذِهِ الذي يعلِّمُهُ القرآنَ عند رجالِ الأمنِ بتهمةِ الإسائَةِ إلى مصطفى كمال، فدخلَ أُستاذُهُ تحتَ طائِلَةِ المادةِ رقم 5816 من قانو العقوباتِ، فاعتقلوه.

لقد اتَّفَقَ عددٌ من أهلِ الإختصاصِ في الطبِّ النفسِيّ (ولا يريدون أن تُذْكَرَ أسماؤُهُم)، قد اتَّفَقُوا على أنَّ فتح الله گولن مُصَابٌ بنوعٍ من فِصامِ الشخصيةِ (الشيزوفرينيا) وأنه مريض النفسِ على مستوًى خطيرٍ، يبدو من خلالِ هزياناتِهِ وتصرفاتِهِ، وعبرَ إيحاءاته لبعض بطانته الْمُقَرَّبِينَ إليه؛ فقد ناجاهم بأنّه المنقِذُ الذي ينتظرُهُ عالَمُ البشرِيَّةِ منذ قرونٍ، وتُبَرْهِنُ هَفَوَاتُهُ التي أفشاها أحدُ أُمَنَاءِ سرِّهِ، تبرهن على اعتقادِهِ أنه الربُّ العظيمُ الذي تجلَّى في ناسوتِهِ ليكشفَ الْغُمَّةَ، ويُنْقِذَ البشريةَ مما وقعتْ

فيه من ظُلُماتِ الظُّلْمِ والقتالِ والتناحُرِ، وجاءَ ليبشِّرَ بحياةٍ جديدةٍ خاليةٍ من النزاعِ، يسودُها العدلُ والرخاءُ والسعادةُ والهناء إلى غير ذلك مما يؤكِّدُ على أنه مصابٌ بمرضٍ (ميغالومانيا Megalomania) المعروفِ في مصطلحِ علمِ النفس بـ"جنون العظمةِ"، أُصيبَ الرجلُ بهذه الهلوسةِ في سنٍّ مبكِّرٍ إذ كان يحيطُ به وبِسُكَّانِ المنطقةِ جوٌّ مضطرِبٌ أيامَ طفولتِهِ. هيّجَتْهُ التناقُضاتُ التي كانت تسودُ على الحياةِ الإجتماعِيَّةِ في مدينةِ أرض الروم، وهي على تخومِ المنطقةِ الكردِيَّةِ، فكانَ يشاهِدُ في هذه المنطقةِ مظاهرَ سياسيَّةً متضارِبَةً منها ما يوافق مُيُولَهُ ويُلَبِّي عَوَاطِفَهُ، (كسياسةِ صهرِ الأكرادِ ومحاولةِ تتريكِهِمْ، وملاحقةِ رؤسائِهِمْ، وإنزالِ ضرباتٍ قاصمةٍ عليهم من سحقٍ وتشريدٍ وعدم الاعترافِ بوجودِهم...)، ومنها ما كان يُؤْلِمُ ضميرَهُ (كسياسةِ الضغوطِ على المعتقداتِ الدينيَّةِ، وملاحقةِ الصوفِيَّةِ والمتديِّنِينَ الْمُسْلُمَان.)

كانت الحكوماتُ التركِيَّةُ تهتمُّ بحمايةِ الْمُدُنِ الآهِلَةِ بالأتراك (المجاورةِ للمنطقةِ الكرديَّةِ)، وتنفُخُ في نفوسِهم روحَ الاعتزازِ بالقوميَّةَ التركِيَّةِ لكسبِهِم في سياسَتِها القمعِيَّةِ ضِدَّ الأكرادِ ولِتضييقِ الخناقِ عليهم.. في غضونِ ذلك بدأ الفكرُ الشيوعِيُّ يَدُبُّ في أذهانِ شبابِ المنطقةِ؛ كانوا يرونَ الاستسلامِ لهذه العقيدة السياسِيَّةِ بغيةَ الخلاصَ من أسر الرأسماليَّةِ، وَكَرَدِّ فِعْلٍ ضِدَّ هيمنةِ الإتحادِ السوفيتي على الدولِ التركية (في آسيا الوسطى)، مثل: آذربيجان، وكازاخستان، وتُركمنستان، وأوزبكستان، وكيرجيزستان... كلُّ هذه التناقضاتُ والمشاكلُ السياسيَّةُ والاجتماعيةُ كانت تعصِفُ بسكانِ المنطقةِ أكثر من سُكَّانِ أي منطقةٍ أخرى على الساحة التركية. فكان فتح الله گولن متأثِّرًا بهذه البيئةِ المظلمةِ أكثر من أي شخصٍ آخر لِعِدَّةِ أسباب.

أوّلاً: لأنه كان يمتازُ بذكاءٍ وقادٍ، لا يُفَاجِؤُهُ أمرٌ إلاَّ ويتركُ في نفسِهِ أثرًا يُشغِلُهُ ويدعوه لتأملٍّ عميقٍ. فبدأ يستغلُّ كلَّ وسيلةٍ بأسلوبه الخاصِّ لجلبِ مصلحةٍ دونَ أن يناله سوء. أخذ ينافس كُلَّ مَنْ يَلمِسُ فيهِ عزيمةً ماضيةً لا يَنْثَنِي، ويحسُدُ كُلَّ وجيهٍ أو ذي حظٍّ على ما رزقه الله من أخلاقٍ حسنةٍ، أو مالٍ وافرٍ، أو مكانةٍ رفيعةٍ، أو كلمةٍ نافذةٍ... امتلأ قلبُهُ بُغضًا وحَنَقًا على كلِّ مَنْ رأى فيه كَفَائَةً يمتازُ بِهِ في فنٍّ من الفنونِ، ولم يشهدْ تَفَوُّقًا حظِيَ منه أحدٌ من زملائِهِ إلاَّ زاحمه وغالبهُ وترقَّبَ عثرةً تُعَرقِلُهُ، وتصدُّهُ عن سبيلِهِ، وتحولُ بينه وبين أملِه... وإذا تربَّصَ بأحدٍ يريدُ أن يعاجله بهزيمةٍ ثم عجزَ عن تحقيق مُؤَامَرَتِهِ ضدَّهُ، امتلأ حقدًا عليه وتمادَى في عداوَتِهِ له وسلَّطَ عليه بطانَتَهُ يُربِكونه في أعمالِهِ ويُفسِدون عليه مذاهِبَهُ. لم يعادي الرجلُ أحدًا من عباد الله (ولو كان الذي استهدفه شخصًا مجهولاً بسيطًا لا يعتدُّ به أحد)، أكنَّ له في صدرِهِ غيظًا لا مزيد عليه، وأطلق فيه لسانَهُ كُلَّمَا أتاحتْ

له فرصةٌ لعلَّهُ يُنَفِّسُ بذلكَ غليلَهُ. يُبَرْهِنُ على هذه الطبيعة المتأصِّلَةِ فيه كلماتٌ يلوكُها وهو على مِنَصَّةِ الوعظِ يخاطبُ جماعةً؛ يعبِّرُ في محاضرتِهِ عن مدى كراهيتِهِ للشخصِ الذي يصلِّي وهو يلتفتُ يمينًا وشمالاً. إلاَّ أن كلماتِهِ مثيرةٌ للغاية لما فيها من المراوغةِ والمجازفةِ والمبالغة والتفحُّشِ ما يندى له الجبين! يقول فتح الله گولن عَبْرَ كلماتِهِ بالحرفِ الواحدِ:

"إنّ أولئك الذين يَسْتَرِقُونَ النظرَ إلى ما حولَهُمْ في صلاتِهِمْ، يُؤْلِمُونَنِي، لأنهم يغتصبون عِرْضَ اللهِ! يا لَيْتَهُمْ أخرجوا ذُكُورَهُمْ في غضونِ ذلك وَبَالُوا على رَأْسِي. أرجو سماحَكُمْ ، كانت هذه كلمةً بَشِعَةً! ولكنّي أَسْتَبْشِعُ حركاتِ أولئكَ المصلّين الذين يركعون وينتصبون بين يدي الله من غير مبالاتٍ، أَسْتَبْشِعُهَا إلى حدٍّ تَبْقَى هذه الكلماتُ الْبَشِعَةُ التي أَتَلَفَّظُ بها إلى جانب ما يفعله أولئك، تَبْقَى أَقَلَّ بشاعةً إذا قُورِنَتْ بحركاتِهِم الجافيَةِ في صلاتِهِمْ. أَسْتَبْشِعُهَا إلى حدٍّ لو بالوا على رأسي ما عَدَدْتُ ذلك إهانةً بي. هذا مدى أَلَمِي عندما أراهم يتهاونون بالصلاةِ. والذين يُقَلِّبونَ أبصارَهم في الصلاةِ يمينًا وشمالاً، والذين يقبضون أيديَهم على رُكْبَاتِهِمْ إنّهم بمعزلٍ عن الشعور بالوقوفِ بين يدي الله، فإنَّ حالَتَهم هذه لَيُؤْسِفُنِي إلى حدٍّ أقولُ لأحدِهِمْ: أتمنَّى لو طَعَنْتَ صدري بخنجرٍ، نعم سَتُصْبِحُ قاتلي عندئذٍ، لكنّني سوف أرفعُ يَدَيَّ إلى الله متضرّعًا فأقولُ له: أَيْ رَبِّي! إنِّي لن أَبْرَحَ قائمًا بين يديك إلاّ بعد أن تعفو عن عبدِكَ هذا!"[318]

بدأ فتح الله گولن دراستَهُ الإبتدائيَّةَ في مدرسة القريةِ، إلاَّ أنَّ نفسَهُ الحاقدَةَ على الغيرِ لم تسمح له أن يُكمِلَها، فاضطرّتْ أسرتُهُ أن تبعثَهُ إلى المدرسةِ القرآنيةِ التي كانت تواصلُ نشاطَها سرًّا، لأنَّ تدريسَ القرآنِ الكريمِ واللغةِ العربيَّةِ كانَ ممنوعًا في تلك المرحلةِ الزمنية. أكملَ گولن دراسَتَهُ القرآنيَّةَ بنجاحٍ وَعلى أتمّ وجهٍ، ثمّ شرعَ في دراسة العلوم الإسلاميَّةِ من عقيدةٍ وفقهٍ وتفسيرٍ وحديثٍ وسِيَرٍ وما إليها.. كما درسَ اللغةَ العربيَّةَ مقتصِرًا على حفظِ قواعِدِ الصرفِ والنحوِ وفقًا لمناهج التدريسِ التقليدِيِّ الممتدِّ من العهدِ العثمانِيِّ، وهو منهجٌ عقيمٌ مقصورٌ على تحفيظِ القواعدِ فحسبُ. لا

---

[318] وهذا نصّ كَلِمَاتِهِ باللغة التُّرْكِيَّة التي ما زالت تُنْشَرُ عبر الشبكة العنكبوتية في تسجيلٍ مَرْئِيٍّ على موقع (اليوتوب youtube):

«Namaz kılarken sağa sola bakan, gözlerini sağa sola gezdiren insanlar, Rabbimin namusuna dokunmuş gibi bana dokunduruyorlar! Keşke o esnada tenasül uzuvlarını çıkarıp başıma işeseler; bağışlayın çok çirkin oldu. Fakat ben o işi o kadar çirkin buluyorum ki, o kadar münasebetsiz yatıp kalkmaları o kadar çirkin buluyorum ki şu söylediğim çirkin sözler onun yanında hafif kalır. Başıma işeseler okadar hakaret saymam. O kadar dokunuyor bana. Gözleri çevrede gezen insanlar, ellerini dizlerinin üzerine büküp koyan insanlar, Rabbin huzurunda durmuş olmanın şuurundan mahrum insanlar, o kadar rencide ediyor ki beni… Keşke bir hançer çıkarıp sineme saplasaydınız, katil olacaksınız! Ama ellerimi açıp yalvaracaktım, diyecektim ki: Allahım, bunu affetmeden senin huzuruna gelmiyorum! » http://www.youtube.com/watch?v=bga1K2eRQVI

مكانَ للكتابةِ والحوارِ والمكالمةِ في هذا المنهج. لذا لم يسبق أن نجحَ أحدٌ من الأتراك الذين درسوا وفق هذا المنهج، لم يسبق أن نجحَ أحدٌ منهم في تأليفِ كتابٍ باللغةِ العربيةِ مع أنهم يَدَّعُونَ الإنتماءَ إلى الإسلامِ ويعتزّونَ به (وإن كانوا يتمايزون عن بقية المسلمين بالْمُسْلُمَانيَّة (Müslümanlık). أمَّا مَنْ أقدمَ منهم على تأليفِ كتابٍ بالعربيَّةِ فقد جاءتْ عباراتُهُ ركيكةً تسودُها عيوبٌ لغويةٌ وبلاغِيَّةٌ (كما في كتابات مُحَمَّد الْبِرْكَوِيِّ رحمه الله تعالى). وأمَّا الذين استعربوا من الأتراك والأكرادِ ونجحوا في أسلوبِ الكتابة والتأليفِ على مثالِ العلماءِ والمثقفين العرب، (كالشيخ زاهد الكوثري، والشيخ مصطفى صبري، ومُحَمَّد سعيد رمضان البوطي) فعددهم قليلٌ جدًّا، وبعضُهُم زنادقةٌ، كالشيخ الكوثرِيِّ.

ظلَّ فتح الله گولن إلى سنِّ الكهولةِ مجهولَ الأثَرِ تائهًا في غمرٍ قد فشى فيه الجهلُ والتقليد والعمى، يتسابق بين صفوفِهِ المشعوذُونَ وشيوخُ الطريقةِ النقشبنديَّةِ والسحرةُ، وتسومُهُ الطغمةُ الحاكمةُ سوءَ العذابِ، ويتحرَّقُ الرجلُ لِيَجِدَ ثغرةً يَنْفُذُ منها إلى العيانِ ليستعرضَ أفانينَهُ، فَعَثَرَ في غضونِ ذلك على رسائلِ سعيدِ النورسِيّ، فوجد فيها ما يحلُو له وينسجِمُ مع مزاجِهِ الدَّسَّاسِ وإشباعِ شَرَهِهِ من أشكالِ الدجلِ والتضليلِ والزندقةِ... عَلِقَتْ نفسُهُ بخربشاتِ النورسِيّ، قَضَى فترةً من الزمن وهو يُفَتِّشُهَا ويقرؤُها ويحفظُ مقاطِعَ منها ويُمْعِنُ النظرَ في الْحِيَلِ التي لجأ إليها النورسِيُّ لأجلِ تمييع الحقائقِ وتسحيرِ العقولِ واستمالةِ القلوبِ... فلما انتهى گولن من دراسةِ هذهِ الرسائِلِ وقد اسْتَوْعَبَهَا وتعرَّفَ على أسرارِ النورسِيّ وحظِيَ قسطًا كبيرًا من فنونِ ألاعيبِهِ، وأتقنَ من صناعةِ الدَّجَلِ وتلبيسِ الحقِّ بالباطِلِ على الناسِ وترسيخِ محبَّتِهِ في أعماقِ النفوسِ، أخذَ يقلِّدُ النورسِيَّ في أسلوبِهِ المراوغِ وسلوكياتِهِ الغريبة ومجازفاته...[319]

[319] سعيد النُّورْسِيُّ رجلٌ من سُكَّانِ المنطقةِ الكردِيَّةِ الواقعةِ جنوبَ شرقي الأراضي التركية (**1878–1960**م.). يُفتَرَضُ أنّه تركِيُّ الأصلِ. هاجرتْ أسرتُهُ من منطقةِ خُرَسَانَ الفارِسِيَّةِ إلى هذه الناحيةِ قبلَ قرونٍ وأقامت بها بين سكانَها الأكرادِ فاسْتَكْرَدَتْ مع الزمان.

وُلِدَ النُّورْسِيُّ في قريةِ (نُورْسْ Nurs) الجبليَّةِ النائيَةِ عن المناطقِ الحضريَّةِ بضواحي مدينة بتليس (Bitlis). عضَّهُ فقرٌ مُدْقِعٌ في أيَّامِ طفولَتِهِ وذاقَ مرارةَ الحياةِ في شبابِهِ أثَّرَتْ في نشأتِهِ وتكوين شخصيَّتِهِ. كانت الدولةُ العثمانيةُ يومئِذٍ تعاني ألفَ نوعٍ من الأزماتِ السياسِيَّةِ والاجتماعِيَّةِ والإقتصادِيَّةِ وقد أحدقتْ بها الدولُ الأوربيَّةُ تستعِدُّ لِفَتكِها. كما كانت المنطقةُ الكردِيَّةُ تَغْلِي بأحداثِها غليانَ الماءِ على النار.

يعترف النُّورْسِيُّ أنه لم يحظَ بدراسةٍ علمية إلاَّ ثلاثةَ أشهرٍ تَلَقَّى دروسًا من الشيخ مُحَمَّد الجلالِيِّ بقضاءِ (دوغو بايزيد Doğubeyazıt) التابعةِ لمدينةِ (آغري Ağrı). يُومِي بذلك إلى ذَكَائِهِ الْوَقَّادِ من جانبٍ كما يريد "أن الله صَبَّ على قلبِهِ (في هذه المدّةِ الوجيزة) ماشَاءَ من أصنافِ العلومِ والمعارفِ ما لم يَرْزُقْها أحدًا من عبادِهِ في العلمين!"، وهذا لا أساسَ له من الصِّحَّةِ. بل يَكْتُمُ أنَّه سافَرَ إلى مدينةِ أسعردَ (Siirt) التي سُكَّانُها عربٌ، فأقامَ هناكَ قرابةَ عامينِ والتحقَ بالمدرسة الْخَلِيلِيَّةِ التابعةِ للعلاَّمَةِ المُلاَّ حامِدِ العُمَرِيِّ، ونالَ حظًّا من اللغةَ العربِيَّةَ وإن لم يُتْقِنْهَا حقَّ الإتقان. لكنه تعرّض هناكَ لأشكالٍ من الإهانةِ والتهكُّمِ مِنْ قِبَلِ الطَّلَبَةِ المتطرّفين الذين أفْسَدَتْهُم العقيدةُ النقشبنديَّةُ. ذلك أنَّ النورسِيَّ كان ينصحُهُم ويُنَبِّهُهُمْ على خطورةِ ما يعتقِدونَ من الأباطيلِ التي تُفضِي بهم إلى الإشراكِ بالله، ويُحَذِّرُهُمْ مِمَّا يعتادونَ من البِدَعِ وطقوسِ مجوسِ الهندِ، فينهالونَ عليه بالضربِ والشتائِمِ. فلم يسعهُ الْمُقامُ هناكَ. فغادرها. لكنَّهُ ظَلَّ يكتُمُ أسرارَ هذه المرحلةِ من حياتِهِ، فلم يَكْشِفْهَا لأحدٍ غير القدرِ الذي قصَّهَا على صديقه الشيخ سعد الله أفندي (مفتي مدينة آغري).

خرجَ النُّورْسِيُّ من مدينةِ أسعرد (Siirt) ملومًا مُهانًا، فانتقلَ إلى مدينة ماردين (Mardin) التي سُكّانُها عربٌ أيضًا، يريد أن يستفيدَ من بيئتِها لتطوير مستواه في العربية وعمرُهُ يومئذٍ تشعةَ عشرَ عامًا. إلاَّ أنَّ طبيعتَهُ الشريرةَ وتصرفاتِهِ الجافيةَ الغليظَةَ أوْقَعَتْهُ في متاهاتِ الخلافِ والجدالِ مع الأساتذة والطلبةِ فأدَّى ذلك إلى شَغَبٍ كاد أن يتفاقم. فأمر الوالي بطردِهِ من مدينة ماردين، فحُمِلَ مغلولاً إلى مدينة بتليس. إلاَّ أنَّ والي بتليس (عُمر باشا) رحَّب به وأقامه في منزله عامين، تَلَقَّى في تلك الفترةِ دروسًا من طَلَبَةِ الشيخ أمين أفندي النُّوَيْبي، فانخرطَ هناكَ في مدرسة الشيخ محمّد الكُفْرَوِيّ ودرسَ مدّةً قصيرةً إلاَّ أنَّ هذه البيئةَ لم تلائِمْهُ. لأنَّها كانتْ أيضًا تحتَ سيطرةِ أسرةٍ نقشبنديَّةٍ حيث تُقامُ فيها طقوسٌ هندوسيَّةٌ، فغادرها وسافر إلى مدينة فان (Van)، يطلُبُ مَنْ يُعَلِّمَهُ اللغةَ التركِيَّةَ إشتياقًا إلى أصلِهِ، فاستعانَ بوالِي المدينةِ (طاهر باشا)، ولَقِيَ منه ترحيبًا، فأمر أحدَ المعلِّمينَ بتدريسِهِ، فلم يلبث النُّورْسِيُّ طويلاً حتَّى تعلَّمَ اللغةَ التركِيَّةَ (اللهجةَ العثمانيَّةَ) في مدةٍ قصيرةٍ جدًّا.

كان سعيد النُّورْسِيُّ مفوَّهًا، جريئًا، نازعًا للجدلِ والمغالبةِ، يتمنطقُ ويتفلسفُ ويتشدَّق بملء فيه تفاصحًا، يتطاول على العلماءِ، ولا يتهيَّبُ ظِلَّ أحدٍ من الأمراءِ. من أبرز خصالِهِ أنه كان يتميَّزُ على أهل العلم بأسلوبٍ خاصٍّ ليتركهم في حيرةٍ وليغتبطوه. ذلك أنه في الفترة التي أقام بجوارِ طاهر باشا (والي مدينة فان Van)، قضى مُعْظَمَ وقتِهِ في مكتبةِ الوالي الضخمةِ المكتظَّةِ بأنواعِ الكُتُبِ في أشتاتِ العلومِ الحديثةِ من تاريخٍ وجغرافيا وفلكٍ ورياضيَّاتٍ وفزياءٍ وكيمياءٍ... فاستفاد بقدرٍ كبيرٍ من الثقافة إلى جانب ما كان قد درس من أدبٍ ومنطقٍ وعلومٍ إسلاميةٍ استقوى بها، وازداد ثقةً بنفسِهِ، وتميَّزَ بذلك عن رجال الدين الذين يجهلون هذه العلومَ. لذا، تألَّقَ نجمُهُ واشتهر، فأُعْجِبَ به كلُّ من رآه واستمع إليه؛

لكنه مع ما اتسم به من الذكاءِ والبداهةِ وسعة الإطلاع على عكسٍ معاصريه من الملالي والخواجواتِ كان ضيّقَ الصدرِ طائشًا متهوّرًا في تعامُلِهِ حتى مع أقرب الناسِ إليه. لذالك إذا تناولهُ باحثٌ محترفٌ لِيَطَّلِعَ على كُنْهِهِ من خلالِ ما كُتِبَ حوله من الوثائِقِ، مِمَّا قيل فيه، ونُقِلَ عنه، سواء الذي جاءَ على لسانِ محبِّيهِ ومُبْغِضِيه، سوفَ تنعكسُ أمامَ عينيةِ صورةَ إنسانٍ خبيثِ الروحِ؛ فَتَّانٍ، حسودٍ، عنيفٍ، مُولَعٍ بالتزويرِ، مُراوِغٍ، غوغائيٍّ، يحبُّ الجدلَ والنقاشَ، مكابرٍ لا يتواضعُ لأحدٍ من أهلِ العلمِ، ولا يُسَلِّمُ الحقَّ إذا أُفْحِمَ، بل يزدادُ غضبًا على من يُبْطِلُ حُجَّتَهُ بالدليل القاطع.

نعم كان سعيدُ النُّورْسِيُّ عبوسًا في كلِّ حياته، لم يشاهدْ أحدٌ مِمَّنْ رآهُ ابتسامةً على وجههِ. كان كارِهًا لكلِّ صاحِبِ علمٍ، مُحْتَقِرًا أيَّ إنسانٍ يرى فيه المرونَةَ والوقارَ. لأنه كان قَلِقًا متخوِّفًا من أنْ يتصدَّى أحدٌ لِنُصحِهِ وإرشادِهِ، أو لتصحيح خطإٍ من أخطائِهِ. ولأَنَّهُ كانَ يرى نفسهُ قِمَّةً في العلمِ لا يبلُغُ شأوهُ أحدٌ من عبادِ اللهِ. يبرهن على هذه الحقيقة ما جاءَ في اعترافاته.

يقصُّ النُّورْسِيُّ عن مغامراته أيَّامَ إقامته بـ(خَان شَكَرْجِي) بجوارِ جامع السلطان محمّد الفاتح في إسطنبول وقد أخذَ برأسِهِ جنونُ العظمةِ، فعلَّقَ على بابِ حُجرتِهِ لوحةً عليها إعلانٌ (باللغة التُّرْكِيَّة) وهذا نصُّهُ مُعَرَّبًا: "هنا يُعالَجُ كُلُّ مُشكِلٍ ولكن لا يُوَجَّهُ سؤالٌ إلى أَحَدٍ.

إذا دلَّتْ هذه الكلماتُ على شيءٍ فإنَّمَا تدلُّ على مدى اغترار النورسِيّ بنفسِهِ. إذ يُعلِنُ أنه محيطٌ بكل شيءٍ علمًا، ولا يحتاج إلى سؤالِ غيرِهِ على الإطلاق! فَقَبَضَتْ عليه السلطاتُ العثمانيَّةُ عام **1907**م. وأَحَالَتْهُ إلى مستشفَى الأمراضِ العقليَّةِ والنفسيَّةِ لعلَّ ذلك بسببِ مثل هذه التصرفاتِ الغريبَةِ.

وهذه مَآلُ كلماته بالعربية، يقول: "أهلُ السياسَةِ سَاقُوني إلى دارِ المجانين قبل أربعين عامًا، بِإِلْصَاقِهِمْ بِي: (الجنونَ المؤَقَّتَ)، فقلتُ لهم: إنَّ ما تَرَوْنَهُ عقلانيًّا، فإنِّي أَرى أكثرَها غيرَ مطابقٍ للعقلِ وأَتَبَرَّأُ منه." (المصدر: الشُّعَاعَات، الشُّعَاعُ الثالث عشر). ثم يستطردُ النورسِيُّ فيقول: "وفي النهايةِ سُحِبْتُ إلى دارِ المجانينِ بأمرٍ من المغفورِ له السلطان عبد الحميد نتيجةَ وشايةِ مُنَافِسِيَّ..." (المصدر: الشُّعَاعَات، الشُّعَاعُ الرابع عشر).

من المقولات الشهيرةِ للنُّورْسِيّ: "أعوذ بالله من الشيطان والسياسة". لعلَّهُ يُعَبِّرُ بذلك عن نَدَمِهِ على ما تَلَبَّسَ به من مغامراتٍ سياسيَّةٍ خطيرة من أهمها أنه اشترك في محاولة الإطاحةِ بالسلطان عبد الحميد الثاني، تعاونَ في هذه المحاولةِ مع حزبِ الاتِّحاد والترقِّي. سافر إلى سالونيك وَالْتَقَى بالنائب اليهوديِّ (عمانويل قراصو) للمشورة. المصدر: الموسوعة الأكترونية: ويكيبيديا http://tr.wikipedia.org/wiki/Said_Nurs%C3%AE

اعتُقِلَ في أعقابِ ثورة **31** مارس **1323**هـ الموافق: **13** أبريل **1909**م. مع جماعةٍ من أعضاءِ حزبِ الاتِّحادِ المحَمَدِيّ. ستَّةَ عشرَ منهم أُعْدِموا، أمَّا سعيدُ النورسِي فصدر الحكمُ ببرائتِهِ!

سافرَ إلى دِمَشْقَ وألقَى خطبةً على منبر الجامع الأمويِّ سنة **1911**م. عادَ إلى المنطقة الكردية قُبَيْلَ الحربِ العالميَّةِ الأولى. جمع حوله ثُلَّةً من الناسِ لمنافسةِ شيوخِ الطريقة النقشبندِيَّةِ الذين خرجَ كلٌّ منهم على رأسِ جمهورٍ من مريديه لمقاومةِ قُوَّاتِ الإحتلالِ الروسِيّ، فأبى أنْ يدخلَ تحتَ رايةِ أحدِهِمْ لِمَا في نفسِهِ من الكراهيَّةِ لهم. وقع في أسرِ القُوَّاتِ الروسِيَّةِ عام **1915**م. فأحيلَ إلى معسكر الأسرى في كوستروما Kostroma الواقعةِ على مسافةِ **320** كم. شَمَالَ شرقِي

مدينةِ موسكو. مكثَ هناكَ عامين وأربعةَ أشهر. ثم أُطْلِقَ سراحُهُ وفقًا لشروطِ معاهدة Brest Litovsk التي تم اعتمادُها بين روسيا وألمانيا، والإمبراطورية النمساوية–المجرية والدولة العثمانية في 03/مارس/1918م. أما روايةُ بعضِ المتحدِّثِين عن هذه الواقعةِ بأنه خرجَ هاربًا يوم 24 يونيو عام 1918م. حتى وصلَ إلى إسطنبوا بعد أنْ مرَّ على وَارْسُو، وفِيَنَّا وصُوفْيَا، فلا أساسَ له من الصحة.

انضمَّ إلى الهيئةِ العلميَّةِ بِدَارِ الحِكْمَةِ الإسلاميَّةِ يوم 18 أغسطس 1918م. واستمرَّت عضويَّتُهُ فيها إلى سنة 1922م. ثم غادر إسطنبول (وهي محتلَّةٌ) قاصِدًا أنقره. استقبله مصطفى كمال في مجلسِ الشعبِ يوم 09 نوفمبر 1922م. ألقى كلمةً في مجلسِ الشعبِ، انتقدَ فها النُّوَّابَ تَهَاوُنَهُمْ بالصلواتِ المفروضةِ فأثارَ بذلك غضبَ مصطفى كمال وأعوانِهِ. أدَّى ذلك إلى نشوبِ الخلافِ بينهما وانتهى بالفِرَاقِ والتنافُرِ.

عادَ النورسِيُّ إلى المنطقةِ الكرديَّةِ فلم يمكث طويلاً حتى اندلعتْ ثورةُ الشيخ سعيدِ البَالَوِيّ. كان النورسِيُّ مِمَّن يُحْسَبُ له حسابٌ، فنُسِبَتْ إليه التهمةُ بأنَّهُ كان متلبِّسًا بالعصيانِ، فحُكِمَ عليه بالإقامةِ الجبريَّةِ في مدينةِ بوردور Burdur. استمرَّت معاناتُهُ بعد ذلك بين سجنٍ وتغريبٍ طيلةَ 25 عامًا إلى أنْ وَافَتْهُ الْمَنِيَّةُ في مدينة (أورفا) يوم 23 مارس 1960م.

كان سعيدٌ شخصًا مغامرًا لكنَّهُ ناجحًا في تحقيقِ أهدافِهِ رغم تلك الأحداثِ الخطيرة التي تقلَّبَ بين أمواجها. فاقَ أقرانَهُ في جذبِ القلوبِ، وكان له أسلوبٌ خاصٌّ في التدليس وَغسلِ الدماغِ بِطُرقٍ عديدةٍ مِنْ سحرِهِ وتلوُّنِهِ وأفاعيله... وكان مع ذلك حَذِرًا محتاطًا. تحرَّشَ به رجلٌ من رؤوسِ النقشبنديِّين يُدعى عبد الحكيم الأرواسي، غير أنَّ النورسِيَّ تَجَنَّبَ الإصطدامَ بهذهِ الطائفَةِ، فلم يتطاولْ عليهم تَوَقِّيًا من شرورهم، لكنَّهُ نبَّهَ على خطرِهِمْ بكلمةٍ وجيزةٍ وهي قَوْلتُهُ:

"هذا العصر ليس عصرَ الطريقَةِ، وإنَّمَا هو زمانُ إنقاذِ الإيمانِ. كثيرٌ دخلوا الجَنَّةَ دون انتسابٍ إلى الطريقة، لكنَّهُ لم يدخل الجَنَّةَ أحدٌ عديمُ الإيمانِ.

استطاعَ النورسِيُّ في فترةٍ وجيزةٍ أن ينالَ شهرةً غيرَ مسبوقةٍ. طارَ صيتُهُ في الآفاقِ، وأصبحَ يشارُ إليه بالبنان، وأُطلِقَ عليه عنوانُ "بديع الزمان!"، والحال هذا، يستحيلُ يومئذٍ على مستوَى المجتمع أن يَخْطُرَ على بالِ أحدٍ هذه الكلماتُ المزخرفةُ بسببِ الجهلِ المطبق، وَالْعُجْمَةِ السائدةِ على القرائحِ باختفاءِ اللغة العربية، وانتشارِ التقليدِ الأعمى... مِمَّا يدلُّ على أنَّ النورسِيَّ هو الذي أوعز إلى بطانتِهِ أن يذكروه بهذه الصفةِ ويفخِّموه ويُعَظِّمُوا شأنَهُ... كما يُبرهن أيضًا على مهارتِهِ في كسبِ الشهرةِ بالسيطرةِ على عقولٍ ساذجةٍ خاضعةٍ لِسِحْرِهِ وَأَلَاعِيبِهِ التي استخدمَ فيها أسلوبًا معقَّدًا تتسلسلُ فيه تركيباتٌ مُصَاغةٌ من ألفاظٍ عربيَّةٍ قَلَّ مَنْ يَفْهَمُهَا من القُرَّاءِ الأتراك! تحذلق النورسِيُّ باسْتِعْمَالِ الأَلْفَاظِ الْعَوِيصَةِ وَمُحَسِّنَاتِ الْبَدِيعِ، واسْتعرَضَ الْبَلاَغَةِ، وتفنَّن في إظهارِ الحِذْقِ وَالْمَهَارَةِ وعُمْقِ النظرِ وسِعَةِ الإِطْلاَعِ وَغزارةِ الْمَعْرِفَةِ في كلِّ عباراته.

لقد كان النورسِيُّ جريئًا في الغايةِ، وَلِعًا بالتعمية وإضمار المعاني في عباراته لتسحير العقول، طامِعًا في السيطرةِ على النفوسِ، جامحًا راكبًا هواهُ في المُحاجَّةِ والجدالِ، نازعًا إلى العنفِ ومغالبة الخصومِ... تشهد كلماتُ مُتَرْجِمِهِ على هذه الطبيعةِ الراسخةِ في كيانه، يقول:

"أهلُ القرية ومعهم الطلبةُ كانوا قد خرجوا إلى هضبةِ (شيخان) للاستراحةِ وَشَمِّ الهواءِ في موسم الصيف. هناكَ شَاجَرَ (سعيدٌ) أخاه عبدَ اللهِ، فنهره أستاذُ مَدْرَسَةِ (تَا غ)، مُحَمَّد أمين أفندي قائلاً:"

"– لماذا تعصي أخاكَ!"

"فَرَدَّ عليه (سعيدٌ)؛ – باعتبارِ إقامتِهِ في المدرسةِ الشهيرةِ التي يَؤُولُ أمرُهَا إلى الشيخ عبد الرحمن – رَدَّ على أساتاذِهِ قائلاً:" – سيِّدِي، إنَّكَ أنت أيضًا تلميذٌ مِثْلِي في هذه التَّكِيَّةِ، إِذَنْ ليس لك أن تحتلَّ منصبَ مُدَرِّسٍ هُنَا!"

لم يَقِفْ سعيدٌ عند هذا الحدّ في تَصَرُّفَاتِهِ العنيفةِ، بل تجاوزه بالتهديدِ واستعمالِ السلاحِ. ورد في ترجمته:

"... إنه وصل إلى (غَيْدَا) حيث يُقيمُ بها المشائخُ العظامُ، فما لبث حتى قاتل هناك صاحبَهُ الْمُلاَّ محمّد أفندي. فلمَّا شَهَرَ الْمُلاَّ مُحَمَّد الخنجرَ عليه، أسرع إلى فأسٍ وقع عليه بصرُهُ. أسفر العراكُ عن إصابةِ تلميذٍ بجراحٍ، فترك الدراسةَ وعادَ إلى مقرِّ أبيه".

طموحاتُ النورسِيِّ اللاَّمحدودةُ سَحَبَتْهُ منذ عنفوان شبابه إلى أتونِ الفِتَنِ السياسيَّةِ. أقحمَ نفسَهُ في غمارِ أحداثٍ خطيرةٍ، وتصدَّى لكلِّ مسألةٍ بِآرَائِهِ المتميّزَةَ المخالفةِ للقياسِ في الأغلب، كان يستعرضُ بذلك علوَّ هِمَّتِهِ، ويتبجَّحُ ويراوغُ في كلامِهِ ويتشدَّق بأسلوبِهِ المعقَّدِ لِيُعْجِبَ به الناسُ وينبهروا بذكائِهِ الفائق!...

يجدرُ الوقوفُ هنا على شخصيَّةِ سعيد النورسِيِّ بهذه المناسبةِ ولو في حدودِ كلماتٍ وجيزةٍ؛ لأنَّ النورسِيَّ أشغلَ عقولَ ملايين الناسِ في تركيا وخارجِها، واستوقف اهتمامَ عددٍ من العلماءِ والباحثين والمحلِّلِينَ؛ جَرَتْ أقلامُهُمْ في وصفِهِ، ومراحلِ حياتِهِ، ومغامراتِهِ السياسِيَّةِ، وترجمةِ رسائِلِهِ، وتحليلِ شخصِيَّتِهِ، وأسلوبِ تناولِهِ لآياتِ القرآنِ وتفسيراتِهِ لَهَا... كلٌّ من أولئك المهتمّين به قد أعربَ عن وجهةِ نظَرِهِ إلى هذه الشخصِيَّةِ الغريبةِ وآثارِها على المجتمع التركِيِّ، وقد اختلفوا فيه اختلافًا غيرَ قلِيل؛ منهم مَنْ بالغ في إطرائه حتى زعم "أن رسائله تُغني عن القرآنِ الكريم!"، ومنهم مَنْ اعتقد فيه البركة والكرامة وادَّعَى أنه المهدِيُّ المنتظَرُ، ومنهم مَنْ جعلَ منه صنمًا يُعبَدُ إلى غيرِ ذلك من ضروبِ الشطط والغلوِّ والهذيان... إلاَّ أنَّ أيَّ ذي علمٍ بعقيدة أهل السنة والجماعةِ، وخبيرٍ بتاريخ المجتمع التركِيِّ وأطْيَافِهِ العرقِيَّةِ ومَيِّزاتِهِ الدينِيَّةِ والاجتماعِيَّةِ، لو يطَّلِعُ على حقيقةِ سعيد النورسِيِّ بعد أن يستوعِبَ كلَّ تلك الآراءِ المتضافرةِ حوله، فلن يمتنعَ من الاعتقادِ: بأنَّ هذا الرجلَ كان أشدَّ من خالد البغدادِيِّ خطَرًا على الإسلامِ والمسلمين، وأنَّ زندقتَهُ باتتْ تُهَدِّدُ العقيدةَ الحنيفةَ بجانبِ بقية التياراتِ الهدّامة في أيامِنا، وتأتي على رأس هذه التياراتِ الطريقةُ النقشبندِيةُ.

نعم، يكادُ سعيد النورسِيُّ يفوقُ على جميعِ أسلافِهِ من الزنادقةِ خطرًا على الأمّةِ لأسبابٍ تتلخَّصُ في أمرين: أوّلُهُمَا: أنَّ النورسِيَّ تناولَ آياتِ القرآنِ فتوغَّلَ في تفسيرِها باللغةِ التركةِ، فأثارَ بذلِكَ هلوسَةَ تتريكِ القرآنِ في نفوسِ العُنْصُرِيّين الأتراكِ الذين كانوا طالَما يتربّصونَ بالإسلامِ ليقطعوا علاقَتَهُ من العربيةِ، فوجدوا ضالَّتَهم في تفسيرِهِ وازدادوا بذلك حَنَقًا على العربِ. والأمرُ الثاني: أنه تبنَّى أسلوبًا معقَّدًا في تفسير الآياتِ فأشبَعَ صِيَاغَتَهُ بمصطلحاتٍ وتعبيراتٍ غامضةٍ حتى يُقالَ: "إنه قِمَّةٌ في العلمِ بكتابِ اللهِ، أثبتَ بقدرته العلمية الفائقة لأوَّلِ مرَّةٍ: أن الله قد خاطب عباده باللغة التركية أيضًا بجانب اللغة العربية، ولكنَّ فَهْمَ رَسَائِلِهِ مقصورٌ على نُخْبَةٍ من تلاميذه الأتراكِ بخاصةٍ دون غيرهم!" فاكتسبَ النورسِيُّ بهذه المغامرةِ عظمةً في النفوسِ، فآمنت به جماعةٌ تَفَانَوْا فيه، وقاموا بالدعاية له، وبذلوا قصارى جهودهم في نشرِ رسائِلِهِ، والدعوةِ لعقيدتِهِ على مثالِ المبشّرِين النصارى، وحاولوا لِيُعَرِّبُوهَا فَيُنَافِسُوا بذلك جميعَ علماءِ التفسيرِ الذين فسروا كتاب الله باللغة

كانت حياتُهُ كلُّها مغامرةً ورِهَانًا وعراكًا وسِبَاقًا وَمُنافسةً ووشايةً وخيانةً... لأنَّه كان مجبولاً على الإعتراضِ والرفضِ والبحث عن العيوب في كل شيءٍ، عَالَمُهُ الدَّاخِلِيُّ الغامضُ لم يعرف الهدوءَ، لم يَشْفِ غليلَهُ من النقاشِ والجدالِ طوالَ عمره. لعلَّ هذه السجيَّةَ هي التي ثَبَّطَتْهُ عن الزَّوَاجِ، كما أنبتتْ في قلبِهِ الكراهِيَّةَ ضِدَّ الشيوخِ النقشبندِيّين الذين احتقروه واستهانوا به. وإلاَّ فإنَّهُ كان يلتقي معهم في النُّزوعِ إلى البِدعِ والشعوذةِ والزندقة.

ما كان سعيدٌ متواضعًا لحظةً في حياتِهِ، تصدَّى لِمَهامٍّ لم يكن من أهلِها. حاولَ دائِمًا أن يفرِضَ نفسَهُ على كلِّ مَنْ جَمَعَ القدرُ بينهما. لأنَّه كان يَرَى لِنفسِهِ فضلاً على كلِّ ذِي علمٍ، ومَنْزِلةً فوقَ كلِّ ذي جاهٍ. اتَّخَذَ موقفًا مُسْتَعْلِيًا من كلِّ مَن خاطَبَهُ وكان صارمًا في ذلِكَ شديدَ الخصومةِ والجدالِ. فَهَابَتْهُ النفوسُ إمَّا اتِّقاءَ شَرِّهِ، وإمَّا انبهارًا واغتباطًا بمهارتِهِ في إذلالِ المخاطَبِ.

العربية، لكنَّ أتباع النورسِيّ عجزوا عن تحقيق هذه المهمةِ، لأن الأتراك يكاد يستحيل عليهم إتقانُ اللغةِ العربيةِ. فوجدوا شخصًا من تركمان العراق (يُدعى: إحسان قاسم الصالحي) قامَ بترجمةِ جميع رسائِله إلى العربية.

وخلاصةً لهذه الحقائِق: فإنَّه ما من شَكٍّ في أنَّ سعيدًا النورسِيَّ كان زنديقًا خطِرًا تلاعب بكتابِ اللهِ، فأضلَّ كثيرًا من الناسِ لمحضِ كسب الشهرةِ والسمعةِ، بله ما أفشى مما في ضميره من فسادِ العقيدة عبر كتابه Sikke-i Tasdik-i Gaybî، وقع أتباعُهُ في أزمةٍ شديدةٍ بعد تورُّطِهِمْ في الجناية على الإسلامِ بطبعِ هذا الكتابِ، فانهالَ عليهم بعضُ رجال العلم من أهل التوحيد بِرُدُودِهِمْ الشديدةِ، وَدَحْضِهِم لِحِجَجِهِ الْوَاهِيَّةِ. فلما افتضح النورسِيُّ وأتباعُهُ بعد هذه الردودِ امتنعوا من إعادةِ طبعِهِ حتى لا تشتدَّ عليهم الأزمة من جديد.

لقد جمع النورسيُّ في رسائِلِهِ ما يصعب حصرُهُ من غثٍّ وسمين، فتوسَّعَ في تزويراتِهِ ما شاءَ أن يتوسَّعَ بدجلياتٍ وأكاذِيبَ ومبالغاتٍ ومغالطاتٍ ومفترياتٍ على الدين الحنيفِ، وقد تناولها مؤخّرًا أحد الباحثِين يُدعى مصطفى گوك Mustafa Gök ، فدرسها وكشف عن مساويها بأسلوبٍ علمِيٍّ دقيقٍ، ونَشَرَ عَمَلَهُ باللغة التركية تحت عنوان:Risâle-i Nur Külliyatına Eleştirel bir Yaklaşım ، وهو جدير بالتعريبِ لو تصدّى له مترجمٌ خبيرٌ باللغتَيْنِ التركيةِ والعربيةِ.

تعرّفَ فتح الله گولن على مختلف وجوه الحيَلِ وأساليب التضليلِ بعد دراسَتِهِ لهذه الرسائِلِ، واطّلاعِهِ على شخصيةِ سعيدِ النورسِيّ، فبدأ يُقَلِّدُهُ ويحذُو حَذْوَهُ أولاً في سلوكياته (ليس ذلك من منطلقِ المحبَّةِ له، بل كان يكرهُهُ! ولكنَّهُ تشابَهَ بالنورسِيَّ استغلالاً واحتكارًا)؛ فلم يُعْفِ لحيتهُ ولم يتزوّج، اتّبَاعًا للنورسِيّ، وتبنَّى أسلوبَهُ الغامضَ في محاضراتِهِ وكتاباتِهِ ليُقالَ "إنه قمةٌ في البلاغةِ، ورجلُ عظائمِ الأمورِ، وبطلُ مهامّ الخطوب!" حتى إذا وجد ضالَّتَهُ في مبادرةٍ وسوسها إليه الشيطانُ فغشيتهُ المسرَّةُ أيما مسرةٍ، فبدأ ينسجُ خيوطَهُ لتضليلِ ملايين الناسِ من المجتمع التركِيّ وسحبِهِمْ ورائَهُ بأساليبَ ماكرةٍ تحتارُ لها العقول.

"صَمَّمَ فتح الله گولن أن يُخَاطِرَ بنفسهِ فَيَقَعَ في قبضةِ الشرطةِ بِتُهْمَةِ "تطاوُلِهِ على النظامِ واحتجاجِهِ ضِدَّ الاضطهاد!". فقامَ بإعدادِ كميّاتٍ من الْمُلَصَّقاتِ، عليها صورتُهُ من الجبهةِ الأمامِيّةِ وتحتَها كلمةُ (مطلوب!). أمرَ عددًا من تلاميذِهِ أن يقوموا بِإِلْصَاقِ هذه الصُّوَرِ في ظلامِ الليلِ على

الواجهاتِ عَبْرَ شوارعِ مدينة إزمير التي كان گولن يقيم بها في تلك الفترة. فلم يَلْبَثْ حتى ألقتِ الشُّرْطَةُ القبضَ عليهِ واعتُقِلَ عدّةَ أشهر.

هكذا تَعَرَّفَ عليه المجتمعُ لأوّلِ مرّةٍ وشاعَ خَبَرُهُ: "أنَّ السلطاتِ الأمنيّةَ اعتقلتْ عَالِمًا من علماء الإسلامِ (!) يدافِعُ عن الحرّيّةِ الدينيّةِ!" ثم أُطلِقَ سراحُهُ. فحقَّقَ الرجلُ بذلك أوّلَ هدفٍ من أهدافِهِ (التي سوفَ تعرُجُ به إلى مقامٍ رفيع) طالما كان يحلمه. نعم، حقّقَ أولَ هدفِهِ بنجاحٍ، لأنّهُ استطاعَ أن يخرُجَ من عزلتِهِ إلى العيانِ ويُشغِلَ الرأيَ العامَّ فيتحدَّثَ عنه آلافُ الناسِ بعدَ أن كانَ رجلاً عادِيًّا من أوساطِ العامّة.

لم يلبث طويلاً حتى نالَ شهرةً بالغةَ الانتشارِ، فاحتكرها بلباقةٍ ودهاءٍ جذبتْ إليه جمهورًا من نُخْبَةِ المجتمعِ بينهم أثرياءُ، وأكاديميون، ورجالُ العملِ، وأطبّاءُ، ومهندسون، وصحافيّون، وَكُتَّابٌ مشهورون، ورجالُ السياسة... فاستحوذَ على عقولِهم، ونفذ إلى أعماقِ نفوسِهم وبدأ يُجَنِّدُهُمْ في كثير من مجالاتِ العمل، والتَّحَالُفَاتِ التجاريّةِ، وتأسيسِ شركاتٍ عِمْلاَقَةٍ، ومَصَانِعَ، وبنوكٍ، وإصدارِ صُحُفٍ ومجلاَّتٍ ذاتِ تداولٍ عالية... أشارَ على هؤلاءِ وحثَّهم في بَدْأِ الأمرِ على تأسيسِ مدارسَ لِتَنْشِأَةِ جيلٍ يستعينون به في المستقبلِ القريبِ. فامتثلوا لأمرِهِ بكلِّ انقيادٍ وفتحوا عددًا كبيرًا من المدارس والمعاهدِ الخاصّةِ والجامعاتِ داخلَ تركيا، كما فتحوا مدارسَ في مُعْظَمِ عواصمِ العَالَمِ. هكذا استطاعَ فتح الله گولن أن يَحْصُلَ على ثقةِ المجتمعِ والرأيِ العامِّ العالَمِيِّ ودعمِ الحكوماتِ لبناءِ جيلٍ يُحَقِّقُ أهدافَهُ التي أسرَّها طوالَ أربعين عامًا.

يمتازُ فتح الله گولن بعبقريةٍ، وذكاءٍ شيطانِيّ منقطعِ النظير، يكادُ الرجلُ يكونُ فريدًا في الْخُبْثِ واللُّؤْمِ والدهاءِ وتحريفِ الحقائقِ وتمييعِها، والقولِ بأنماطٍ من الكذِبِ والزورِ والبهتان، والتلاعُبِ بنوصوصِ الكتابِ والسنةِ، وإباحةِ الحرامِ وتحريمِ الحلالِ... لا نظيرَ له في التشدُّقِ والتنطُّعِ والمراوغةِ والمجازفةِ والمبالغةِ والمغالطةِ والتعميَةِ بصِيَغٍ دَجَلِيَّةٍ وتَحَزْلُقٍ يصابُ الْمُسْتَمِعُ إليهِ بذهولٍ وحيرةٍ في لَحَظَاتٍ قليلةٍ. كما لا مثيلَ لهذا الرجلِ في مُنَاصَبَتِهِ العداوةَ إذا قصدَ شخصًا بسوءٍ، يستطيع أنْ يُهَيِّجَ عليه غضبَ الرأيِ العامّ وَيُحَرِّضَ عليهِ الأوباشَ، ثم يعودَ فيحمِيَهُ من أنْ يُدَكَّ تحت الإقدامِ. هكذا يجعل منه عبدًا ذليلاً، يركعُ المسكينُ بين يديه ليتقبَّلَ منه أداءَ شُكْرِهِ لقاءَ ما أنقذَهُ من السحقِ وصانَهُ من نِقمةِ العامَّةِ وسُخْطِها!

إنه – لا شكَّ– قمَّةٌ في النفاقِ والتلوُّنِ؛ سرعان ما يستحوذُ على النفوسِ والضمائرِ بما يمتازُ به من البراعةِ في صياغةِ الكلامِ وإفادة المرامِ وأساليبِ الخطابِ وفنونِ الإقناعِ والإفحامِ. استطاعَ أن يَكسِبَ إعجابَ أيّ إنسانٍ استمعَ إليه ولو لحظةً؛ عامّيًا كانَ أو مثقَّفًا، تاجرًا كانَ أو موظَّفًا، سياسيًّا كانَ أو عسكريًّا لم يغادرِ الْمُسْتَمِعُ إليهِ مكانَهُ إلاَّ وقد انبهرَ به وطاشَ عقلُهُ، وأصابه من سِحْرِهِ... وقد يَغترُّ به مَنْ يقعُ في حبالِ أحدِ المبشرين من جواسيسِهِ (ولو كان وَهَّابِيًّا مُتَحَجِّرَ القلبِ)، كرجلٍ يُدعَى سلمان عودة.[320] استطاعَ فتح الله گولن بهذه الميزَّةِ أن يمتلِكَ إرادَةَ جمهورٍ يفوقُ عددُهم على عشرات الملايينِ. لذلك لمّا أيقنَ أنَّ هذا الجمهورَ قد أصبحَ رهنَ إشارتِهِ، لم يتردَّدْ في الجلوسِ على طاولة التفاوُضِ مع أيّ زعيمٍ سياسِيٍّ وعسكرِيٍّ في تركيا. هكذا تألّقَ نَجْمُهُ منذ عشراتِ سنين. لكنه تظاهرَ دائِمًا في كلّ لقاءٍ مع أيّ رئيسٍ لمجلسِ الوزراءِ، تَظَاهَرَ أنّهُ يريدُ النهوضَ بالناشئَةِ؛ يريدُ أنْ يصنعَ جيلاً مُثَقَّفًا مُتَفَتّحًا ناجحًا، تنعمُ به تركيا وتَزْدَهِرُ، وتُنَافِسُ أرقى بلادِ العالَمِ وتَفُوقُها رُقِيًّا وحضارةً...

كَلَّفَ الرجُلُ الأثرياءَ من أتباعِهِ أن يقوموا بإعدادِ مشاريعَ تعليميَّةٍ راقِيَةٍ، فامتثلوا لأمرِهِ وساهموا في بناءِ مدارسَ وجامعاتٍ خاصَّةٍ ومؤسساتٍ لدوراتِ التدريبِ والتهذيبِ على أساسِها في جميع أنحاءِ تركيا، فلم يلبثْ حتى تَخرَّجَ فيها آلافٌ من أصحابِ تخصُّصاتٍ علميَّةٍ امتازوا بتفوُّقٍ كبيرٍ على المتخرِّجين من المدارسِ والجامعاتِ الحكوميَّةِ، فاغْتَبَطَهُم المجتمعُ، وكان لها أثرٌ كبير في إقبالِ آلافٍ من الطلبةِ على هذه المدارسِ والجامعاتِ مقابلَ أجورٍ باهظَة دفعتِ العجلةَ الماليَّةَ للشبكة الگُولَنِيَّةِ إلى الأمام. وبعد هذه الحملةِ التعليمية في القطاعِ الخاصّ، وبُدُوّ نتائجها الإيجابيةِ بلغتْ مكانةُ فتح الله گولن عند الناسِ من الرفعةِ والقداسةِ حتى صاروا يعتقدونَ فيه أن كلَّ ما يقوله وَحْيٌ من عند الله، وَكَمْ ألوفٍ من الناسِ أولِعُوا بِمُشَاهَدَتِهِ من خلالِ شاشاتِ التلفازِ يستمعون إليه وقد حَبَسُوا أنفاسَهُمْ يُتَابِعُونَ مُحَاضَرَاتِهِ بشغفٍ شديدٍ وأبصارُهُمْ شَاخِصَةٌ على مَدَى سَاعَاتٍ. وهذا على رغم قصورِهِمْ وعجزِهِمْ عن فَهْمِ كلماتِهِ الغامضةِ الْمُشَبَّعَةِ بمصطلحاتٍ علميَّةٍ، وتعبيراتٍ حِكَمِيَّةٍ، وأمثالٍ أدبِيَّةٍ وآياتٍ قرآنيةٍ، كان يَتَعَمَّدُ اسْتِعْمَالَهَا لجذبِ انتباهِ الناسِ فحسبُ. لأنَّهُ من أعلمِ الناسِ بطبيعةِ المجتمعِ التركِيّ؛ يعلم أنَّ مِنْ أبرزِ مِيِّزَاتِ الإنسانِ في هذا البلد: إنَّهُ قَلَّمَا يَهْتَمُّ بِالفاظٍ واضحةِ المعاني، وإنما تُعجِبُهُ الكلمةُ الغامِضَةُ، ويتشبثُ باللَّفظِ والصوتِ وَطِنِينِهِ ومُوسِيقاه الذي يصحبُهُ في أثناءِ النطقِ، وإنَّهُ كلَّما وجدَ الغموضَ في كلماتِ الناطقِ ازْدَادَ انبهارًا بهِ وأخذهُ الخشوعُ والهيبَةُ بين يديه. لأنه يرى نفسَهُ دون مخاطَبِهِ معرفَةً وثقافةً. وقد يزدادُ تعظيمًا له لكثرةِ ما يسمعُ مِنْ مناقِبِهِ

[320] شَاهِدْ: https://www.youtube.com/watch?v=LMrOTNb-4GI

وامتداحِ الناسِ له، فيبدأ يعتقدُ أنَّ هذا الممدوحَ الذي ذاعَ صيتُهُ "وَلِيٌّ من أولياءِ الله الأتراكِ الذين يمشون على الأنهارِ والبحارِ دون أن يصيبَهم البللُ، ويطيرون في الهواءِ فوقَ السُّحُبِ، وتنطوي الأرضُ تحت أقدامِهم، يقطعون مسافاتٍ شاسعةً في لَمْحَةِ البصر" ونحو ذلك...

من الغريب جدًّا والجديرِ بالتساؤُلِ: أنَّ رجالَ السياسَةِ والأمنِ والمخابراتِ كُلُّهُمْ كيفَ غفلوا عمَّا حَفَرَ فتح الله كولن في أدمغةِ آلافٍ من بطانته على مَدَى أربعين سنةً: من الرموزِ والإشاراتِ والألغازِ والأسرارِ حتى أصبح كُلُّ فردٍ منهم مسلوبَ الإرادةِ كدُمْيَةٍ في يده يُحَرِّكُهُ وَيُقَلِّبُهُ وَيَلْعَبُ بِهِ وَيُجَنِّدُهُ في أيِّ وظيفةٍ شاء! وظلَّتِ الحكوماتُ التركِيَّةُ تدعمُهُ في تنفيذِ مشاريعِهِ (التعليميةِ!) وهي في الحقيقةِ كانت معسكراتٍ يُدَّرَبُ فيها آلافٌ مؤلّفةٌ من الشبابِ، كُلَّما تخرَّجَتْ منهم فِئَةٌ تسرَّبُوا إلى أجهزةِ الدولةِ التركِيَّةِ وتبعثروا عَبْرَ مَرَافِقِهَا الحساسةِ، وتبوَّؤُوا مناصبَ عاليةً في مُؤسَّساتِ القضاءِ والأمنِ والجيشِ والمخابرات، وتعاونوا فيما بينهم بأشدِّ ما يكونُ من السِّرِّيَّةِ والخفاءِ. استطاع فتح الله كولن بِحُكْمِ هذه السِّرِّيَّةِ الْمُفْرِطَةِ (التي نَفَعَتْهُ في البدايةِ وأضرَّتْ بِهِ في النهاية!) استطاع بحُكمِها أنْ يُربِكَ جميعَ رجالِ الدولةِ من السياسيِّين والبيروقراطيِّين والعسكريِّين، استطاعَ أن يُقنِعَهم أنه لا يهتمُّ إلاَّ بتعليمِ الناشئةِ، ورفعِ المستَوى التعليمِيِّ وَالْمَعْرِفِيِّ والثقافِيِّ للمجتمعِ التركِيِّ ليس إلاَّ.. فطاشَ عقلُ الدولةِ التركيةِ، وظلَّتِ الحكوماتُ تجهلُ ما يجري وراءَ (المشاريعِ التعليمِيَّةِ الكولنِيَّةِ!) من فعاليَّاتٍ استخباراتِيَّةَ، وتدابيرَ استراتيجيةٍ، واستعداداتٍ عسكرِيَّةٍ، وخططٍ انقلابِيَّةٍ تتأهبُ الشبكةُ بها لتقومَ يومًا فتنقضَّ على النظامِ على حين غفلةٍ من حُكَّامِهِ.

يبدو أنه قد غَفَلَتْ عن أهدافِ هذا الرجلِ قِمَّةُ سياسةِ الدولةِ التُّرْكِيَّةِ على مدى أربعين سنةً، وبالتحديد: كلٌّ من كنعان أفرين Kenan Evren، وترغوت أوزال Turgut Özal، وسليمان ديميريل Süleyman Demirel، ومسعود يلماز Mesut Yılmaz، وطنسو تشيلر Tansu Çiller، وبولند أجاويد Bülent Ecevit... كُلُّ هؤلاءِ الشخصِيَّاتِ كانوا مُعْجَبِينَ بمشاريعِ فتح الله كولن، لأنَّهم جميعًا كانوا يرون أنَّها جهودٌ خالِصَةٌ تَتَبَنَّى النهوضَ بالدولةِ التركِيَّةِ والمجتمعِ التركِيِّ، وإيقاظٌ للأدمغةِ، وحركةٌ بطوليةٌ لإحياءٍ أمجادِ الأمة التركِيَّةِ...

ذلك أنَّ فتح الله كولن طالما ادّعى لدَى كلِّ مناسبةٍ "أنّه لا يهتمُّ بالسياسةِ أبدًا، وإنّما يهتمُّ برفعِ مُستَوَى التعليمِ للشبابِ وحسبُ!" كان هذا من أكبرِ أكاذيبِهِ، بل ظلَّ على صلةٍ بِرُؤَساءِ الأحزابِ السياسِيَّةِ (ماعدا نجم الدين أرباكان Necmettin Erbakan). كما سَانَدَ حِزْبَي (الطريقِ القويمِ

اليمينيَّيْنِ وحزبَ اليسارِ الديمقراطِيِّ (Anavatan Partisi و(الوطنِ الأُمِّ (Doğruyol Partisi Demokratik Sol Parti، وأرقى بسليمان ديميريل إلى كُرْسِيِّ رئاسةِ الحكومةِ، وَدَعَمَ بولند أجاويد Bülent Ecevit في صِراعِهِ مع مُنَافِسِيهِ السياسيّين. ولم يكُنْ كراهيَّتُهُ لأربكان إلاَّ لأنَّ كِلَيْهِمَا كانا مُتَنَافِسَيْنِ في التلاعُبِ بالدِّينِ، وتشجيع الْمُسْلُمَانِيَّةِ التركيَّةِ (لطمسِ بقية الآثارِ الضعيفةِ للإسلامِ في تركيا)، ومساعدةِ أوكارِ الزندقةِ والتضليل...

لعلَّ الحكوماتِ التركيَّةَ أغضتِ الطرفَ عن نشاطاتِ فتح الله گولن في كلِّ تلك الفترةِ، لأنَّ السياسيّين كانوا يحتاجون إلى دَعْمِهِ أيَّامَ اشتِدَادِ الصراعاتِ الإنتخابيَّةِ لكسبِ أصواتِ الْمُلْتَفِّينَ حَوْلَهُ. يبرهنُ على هذه الحقيقةِ أنَّ أيَّ حزبٍ سياسِيٍّ، لم ينتصرْ على خصومِهِ في الحملاتِ الإنتخابيَّةِ إلاَّ بمساعدةِ أنصارِ فتح الله گولن! وهذا يدلُّ في الوقت ذاتهِ على كثرتِهم البشريَّةِ، وقدرتِهم الماليَّةِ التي كانوا يتمتَّعون بها، ومدى سيطرتِهِمْ على جهازِ الدولةِ، وتوَغُّلِهِمْ في صفوفِ الشعب... حتى إذا جاءتْ مرحلةُ تَحَالُفٍ غيرِ مُعْلَنٍ بين فتح الله گولن ورجب طيب أردوغان Recep Tayyip Erdoğan سنةَ **2003**م، (كان القاسمُ المشتركُ الوحيدُ بين گولن وأردوغان أصلاً: معاداةُ الأَتَاتُورْكِيِّينَ ومعارضتُهم، !) نعم، كان هذا هو القاسمُ المشتركُ الوحيدُ بينهما، لأنَّ كليهما متشبثان بالدِّينِ، وهما مُولَعانِ بهِ احتكارًا واستغلاَلاً! هذا هو الخطُّ الأحمرُ الذي يفصِلُ بين الأتاتوركيّينَ وبينهما. وبهذه المناسبة يجدر الاشارةُ إلى أنَّ الحروبَ المتكرّرَةَ على الساحةِ التركيَّةِ بين الجماعاتِ المتباينة منذ قرنين، كُلُّهَا مرتبطةٌ بالصراعِ السياسِيِّ (الناشئِ من القلقِ حول الدين)، تتجدّدُ وتَسْتَعِرُ من حين لآخر بين الجبهة المتظاهرةِ بالتَّدَيُّنِ، وبين الجبهة التي تَزْعُمُ أنَّها محايدةٌ في مسألةِ الدِّينَ (وهي مارقةٌ وثنيةٌ في الواقع). ذلك لأنَّ الجبهةَ المتديّنَةَ لا صلةَ لها بالاسلامِ أصلاً، تُؤَكِّدُهَا حقائقُ تاريخيةٌ يستحيلُ طمسُها وإخفاؤُها. بل تعتنقُ هذه الجبهةُ دينًا قبوريًّا وثنيًا (وهي: الْمُسْلُمَانِيَّةُ Müslümanlık). وهذه الديانةُ مُتاحةٌ للاتِّجَارِ بها، والاحتكارِ والإستغلالِ في أيِّ زمانٍ ومكان، بخلافِ الدِّين الإسلامِيِّ الحنيف. كما أنَّ الأتاتوركِيَّةَ أيضًا غدَتْ دينًا متكاملاً بِطُقُوسِها وَمَعْبَدِهَا وتماثيلِها (بخاصَّةٍ بعد اعتمادِ القانون رقم/**5816** الصادر في **1951/07/31**م تحت رقم/**7872**). وهي أيضًا تُمَثِّلُ مَتَاعًا تجارِيًّا رائجًا في سوقِ السياسةِ من غير شكٍّ.

تحالف گولن وأردوغان سنةَ **2003**م تحت جناح السرِّ أنْ يتعاونا على تصفيةِ الأتاتوركيّين من المسرح السياسِيِّ (وذلك بواسطة رجلٍ سياسِيٍّ قريبٍ من أردوغان، ورجلٍ أكاديمِيٍّ من بطانةِ فتح الله گولن). اتَّفَقَ الطرفان على هذا القرارِ بأنْ يتمَّ تنفيذُهُ ضمنَ برنامجٍ مرحلِيٍّ بالتدريج حتى تنتهيَ

عمليةُ تطهيرِ الصفوفِ من الأتاتوركيّين وإحلالُ الْمُتَدَيِّنِينَ مكانَهُمْ. لكنَّ اختلافَ الحليفين في العقيدةِ فتح بينهما بابَ المنافسةِ وحالَ دون تحقيقِ هدفِهِمَا المنشود في أمدٍ قصير. ذلك أن فتح الله گولن أرادَ تمييعَ المسلمانيةِ بإعادةِ تنظيمِها على غرارِ المسيحِيَّةِ بأن "يُحَوَّلَ إلى دينٍ مَرِنٍ يَتَنَاغَمُ مع الْقِيَمِ الْعَالَمِيَةِ وَالْحَضَارَةِ الْغَرْبِيَّةِ، لا يَتَدَخَّلُ في الشؤونِ السياسِيَّةِ، ويتركُ الإنسانَ يعبدُ رَبَّهُ على سعَةِ حريَّتِهِ، وهذا سوف يحدُّ من التطرُّفِ الدِّينِيّ الذي يعاني منه الشعوبُ المنتسبةُ إلى الإسلام، ويُنْقِذُهُمْ من الفوضى التى تسودُ مجتمعاتِهِمْ!". (ظهرت أسرارُ هذه الفكرة خاصَّةً بعد اتصالاتِ گولن بالبابا يوحنا بولس الثاني في **10** شبط عام **1998**م.). لكن أردوغان أصرَّ في مقابلِ ذلك على إبقاءِ المسلمانيةِ في ثوبِ الطريقة النقشبنديَّةِ تمسُّكًا بسنّةِ الآباءِ، واحترامًا للشعبِ المسلمان، وَرَدْعًا لانتشارِ السلفِيَّةِ وعقيدة التوحيد على الساحة التركية!

انتفع أردوغان بمساعَدَاتِ فتح الله گولن ومساندَتِهِ قبل هذا الإختلافِ وانتصرَ على مُعَارِضِيهِ خاصةً أيَّامَ الاستفتاءِ على التّعديلاتِ الدستوريَّةِ. تَدُلُّ كَلِمَتُهُ على الوِفَاقِ التامّ بينهما، تلك التي ألقاها فوقَ شُرْفَةِ مركزِ حزبِ العدالةِ والتنميةِ في أنقره، عَقِبَ انتصارِهِ في الحملة الإنتخابية يوم **12** أيلول/سبتمبر **2010**م. قال فيها."أشكرُ الإخوةَ الذين قَدَّمُوا لَنَا دَعْمَهُمْ مِنْ وراءِ المحيطِ الأطلسي!"[321] يقصِدُ جماعةَ فتح الله گولن الذي يُقِيمُ (وراءَ المحيطَ الأطلسي!) في الولايات المتَّحِدَةِ الأميركية، والذي قال في كلمةٍ له قُبَيْلَ الانتخابات: "الاستفتاءُ مسألةُ حياةٍ أو موتٍ بالنسبة لجماعتِنَا، إنَّنَا لن نتركَ القرارَ لإرادةِ الشعب أبدًا. هذا، ويجوز لنا أنْ نلجأ إلى كلّ شكلٍ من أشكالِ الحيلةِ لتمريرِ هذهِ الحزمةِ (أي التعديلاتِ الْمُعَدَّةِ في الدستور)، بما في ذلك: المشاركةُ في الإقتراعِ بأسمائِنا وحتى بأسماءِ مَنْ قد ماتوا!".[322]

---

[321] وهذه كلمته باللغة التركية حرفيًا: Okyanus ötesinden destek veren arkadaşlara teşekkür ederim. المصدر:
http://www.milliyet.com.tr/erdogan-dan-ilk-aciklama/referandum/sondakika/12.09.2010/1288172/default.htm

[322] وهذه كلمته باللغة التركية حرفيًا:

Referandum cemaatimiz için bir ölüm kalım meselesidir. Paketin geçmesini halkın kararına bırakamayız. Anayasa değişiklik paketinin geçmesi için, ölüler ve diriler adına oy kullanmak da dahil, her türlü hileye başvurmamız caizdir.

المصدر:

http://www.guncelmeydan.com/pano/gulen-imkan-olsa-mezardakilere-bile-evet-oyu-verdirmeli-t25995.html

لقد تلقّى رجب طيب أردوغان الترحيبَ والدعمَ من حَلِيفِهِ ثلاثَ مراتٍ في الحملاتِ الإنتخابيَّةِ لكنَّ هذا الدعمَ كلَّفَهُ غالِيًا وكانَ ثَمَنُهُ باهظًا. والقصةُ تتلخَّصُ في أنَّ فتح الله گولن كان قد هَرَبَ من تركيا وأقامَ في أميركا منذ عام 1999م. لِتَخَوُّفِهِ من فرضِ العقوبةِ عليه جَرَّاءَ ما قد أصبح من المعروفِ لدى جهازِ الاستخباراتِ استعداداتُهُ للانقضاضِ على نظامِ الْحُكْمِ بطريقةٍ انْقلابِيَّةٍ، وكان رجب طيب أردوغان قد انْتَبَهَ في الأوانِ الأخيرةِ إلى مدى خطورةِ هذا الشيطان الْمُلَثَّمِ بوشاح الدِّينِ والعلم.. إنَّ أردوغان هو أولُ رجلٍ سياسِيٍّ انْتَبَهَ (بالمعنى الواقعِيِّ) إلى الأهدافِ النهائيَّةِ لهذا الدَّجَّالِ، وكان يراقبُ تحركاتِهِ باهتمامٍ بالغٍ، فتأكّدَ مِنْ أنَّ عذابًا أليمًا ينتظرُهُ، يوشك أن يُدرِكَهُ على يدِ الزبانيةِ الگُولَنِيِّين الذين يتربَّصون به ليقطعوه إربًا إربًا. فبدأ يحتاطُ في أمره. إذ كان يعلمُ حقَّ اليقينِ أنَّ فتح الله گولن الذي يسيطرُ على قلوبِ الملاين ويمتلكُ زمامَهُمْ كما يُمْسِكُ بِعِقَالِ حِمَارِهِ – أصبح قادِرًا على أن يُرسِلَ المعشرَ العظيمَ الذي الْتَفَّ حوله، أن يُرسِلَهُمْ على أيِّ قوّةٍ بإشارةٍ منه في أيّ لحظة.

تأمَّلَ أردوغان بأناةٍ أنه محاطٌ بشبكةٍ ضخمةٍ خطيرةٍ تُسيطرُ على جميعِ مؤسساتِ الدولةِ، فبدأ يشعرُ بضغوطِها على حكومتِهِ. خاصةً بعد أن قامتْ هذه الشبكةُ الإرهابيةُ باختلاقِ جرائمَ خياليَّةٍ[323] وأسْنَدَتْهَا إلى شخصياتٍ من أصحابِ الرُّتبِ الرفيعةِ في الجيشِ التركِيِّ وحكمتْ عليهم بعقوباتٍ صارمة. والطامةُ الكبرى أنَّ عددًا من جواسيسِ فتح الله گولن كانوا قد تسلَّلُوا إلى صفوفِ حزب العدالة والتنمية وإلى حكومةِ أردوغان، يراقبون جميعَ أقوالِهِ وتصرفاتِهِ، ويطَّلِعون على أسرارِهِ، ويُسجِّلونها بأجهزةٍ ألكترونية دقيقة... وحتى في الوقت الراهن؛ فإنَّ فتح الله گولن، مع ما يبدو مهزومًا بعد ثورتِهِ الفاشِلَةِ التي فجَّرَهَا يوم 15 تموز من عام 2016م. فإنَّهُ لن ينتهِيَ من مواصلةِ ألاعيبِهِ ومكائِدِهِ ليقضِيَ على أردوغان وعلى كلِّ مَنْ يواليه. لأنه لا يزالُ يحتفظُ بقسطٍ كبيرٍ من رصيدِهِ البشرِيِّ والمالِيِّ في الداخل والخارج، يَتَحَكَّمُ في ضميرِ ملايين الأتراك، يُسْتَبْعَدُ أنْ يكون بين أتباعِهِ مَنْ يعصِي له أمرًا! خاصَّةً وأنّ الجيلَ الذي صَنَعَهُ بيده منذ أربعين عامًا، قد تميَّعَ في شرايين الدولة التُّرْكِيَّة بحيث لا تخلوا مؤسّسةٌ حكومِيَّةٌ، ولا دائرةٌ رسميّةٌ، ولا وزارةٌ، ولا حزبٌ سياسيٌّ (حتى الحزب الشيوعي) إلاَّ وفيه أحدُ رموزِهِ قد اندسَّ بينهم، يراقبُ الحركاتِ هناك ويقوم بِجَمْعِ الأخبارِ

[323] اختلقت الشبكةُ الگولنيةُ عام **2009**م. قصّةً وهمِيَّةً بعنوان "أرجنكون Ergenekon"، وهي قصةُ جريمةٍ خيالية لا حقيقةَ لها تتمثّلُ في وجودِ تنظيم سِرّي يتكوّنُ من عددٍ من الضباطِ، بينهم رئيس الأركان السابق للقوات المسلحة. يزعم رجال الأمن والقضاءِ التابعون للشبكة "أن هؤلاءِ الضباط قد انتظموا فيما بينهم ليقوموا بإطاحة حكومة أردوغان والوثوبِ على السلطة". إنما قامت الشبكةُ الگولنيةُ باختلاقِ هذه التهمةِ لسببين: أولاً: لتهديد الجيشِ (العلمانِيّ) وتخويفِهِ والانتقامِ منه على تبنيه الأتاتوركِيَّةَ وحقدِهِ على الْمُسْلُمَانِيَّةِ التركِيَّةِ. والسبب الثاني: إشعارُ رجب طيب أردوغان بمدى قدرات الشبكة وأنها قادرةٌ على حمايته إنْ أعلَنَ إستسلامَهُ لِفتح الله گولن واعتنق فاسفتَهُ في الحفاظِ على الْمُسْلُمَانِيَّةِ الگولنيةِ المرنةِ، وتخَلَّى عن الْمُسْلُمَانِيَّةِ النقشبندِيَّةِ.

والمعلوماتِ وإرسالِها إلى مقرّ فتح الله گولن بمدينة بنسيلوانيا (Pennsylvania) في الولايات المتحدة وفقًا للتعليمات التي يتلقَّاهَا مِنْ مركزِ الشَّبَكَةِ. هذا بالاضافةِ إلى المساعداتِ التي يَتَلَقَّاهَا الرجُلُ وجماعتُهُ من الحكومةِ الأميركيَّةِ والدولِ الأوربيَّةِ...

أيقن أردوغان أنَّ الخطرَ الْگولنِيَّ بدأ يقتربُ منه بسرعةٍ، فأرادَ أن يتَّخذَ بعضَ الإجراءاتِ لتقليصِ نشاطاتِ هذه العصابةِ الْمُتَحَكِّمَةِ في أجهزةِ الدولةِ، فتحرَّكَ بحكمةٍ؛ استعدَّ أوَّلاً لإصدارِ قرارٍ[324] بإلغاءِ "الدَّرْسخَانَات Dershaneler"؛ وهي دوراتٌ تعليميَّةٌ خَاصَّةٌ، بلغ عددُها 900 مدرسةٍ على مستوَى الساحةِ التركيَّةِ، كانت لها برامجُ تهذيبيَّةٌ وتثقيفيَّةٌ فريدةٌ، مُهِمَّتُهَا: الرفعُ بالمستوى العلمِيّ والثقافِيّ للطلبةِ، ومساعدتُهم في تأهيلِهِمْ وإعدادِهِمْ للالتحاق بالجامعات. دامتْ نشاطاتُهَا منذ عشرات سنين، كانت مصدرًا هامًّا تَتَغَذَّى بها خزانةُ "العصابة الْگولنِيَّةِ". فانْسَدَّتْ عليهَا أهمُّ قنواتِ الدخلِ بهذا الخبر المفاجئ. لأنَّ أردغان أرادَ أنْ يقطعَ أهمَّ شرايِينِ التمويلِ الخاصَّةِ بـ"الشبكة الْگولنِيَّةِ"، فيُنزِلَ بمثلِ هذا القرارِ ضربةً قاصِمَةً عليها. وهنا انقطع الحبلُ بين الحليفين، واستعدَّ فتح الله گولن للخوضِ في مغامرةٍ خطيرةٍ ضدَّ أردوغان، وبدأ يحوكُ خيوطَ المؤامرةِ للقضاءِ عليه والْفَتْكِ به دون رحمةٍ!

كان أردوغان يومئذٍ رئيسَ وزراءِ الحكومةِ الْمُنْبَثَقَةِ من حزبِ العدالةِ والتنميةِ. أخذ يَتَنَكَّرُ له أصحابُهُ من بطانةِ فتح الله گولن يتربصون به الدوائر. كما بدأ ترتفعُ الأصواتُ ضدَّهُ بأنه يمارِسُ سياسةً استبدادِيَّةً فِي حُكْمِهِ. وما لبث حتى استفحل الأمرُ بإثارةِ أصحابِ گولن الشارعَ ابتداءً من 27 مايو 2013م. قامتْ مظاهراتٌ ضخمةٌ في ميدانِ (تقسيم) بمدينةِ إسطنبول، سُمِّيَتْ فيما بعد بـ"أحداثِ جيزي بارك Gezi Olayları". كانت هناك ذريعةٌ احتجَّ بها المعارضونَ ضِدَّ حكومةِ أردوغان. تلك أن بلديةَ إسطنبول قرَّرَتْ إزالةَ عددٍ من الأشجارِ في (حديقةِ تقسيم) لإعادةِ إنشاءِ ثُكَنَةٍ عسكرِيَّةٍ عثمانيَّةٍ (هُدِمَتْ في 1940م). هذه الإنطلاقةُ من السلطةِ غدتْ حجَّةً في يدِ "الشبكة الْگولنِيَّةِ" فأثارتْ على الحكومةِ أخلاطًا من الأتاتوركيّنَ واليساريّين لشَدِّ الخناقِ عليها. فلما قفزَتِ الأحداثُ إلى المدنِ الرئيسةِ وأخذتْ تتحوَّلُ إلى الفوضى، قامت الحكومةُ بتعزيزِ المقاومةِ لإخمادِها. لكنَّهُ لم يمضِ الوقتُ طويلاً حتى كَشَّرَتِ "الشبكةُ الْگولنِيَّةُ" عن أنيابِها، فهبَّتْ للانتقامِ من حكومةِ أردوغان.. وبطانةُ فتح الله گولن كانوا يومئذٍ يسيطرُون على مُعظمِ جهازِ الأمنِ والقضاءِ..

---

[324] أُصْدِرَ هذا القرار مؤخَّرًا كقرارٍ طارِءٍ، بتاريخ: **2016/07/22**م. تحت رقم: **667**، اعتمادًا على قانو الحالة الطارئةِ رقم/**2935** المادة رقم/**4** المنبثق من المادة/**121** للدستور. أُعلِنَ القرار في الجريدة الرسمية بتاريخ: **25** تموز **2016**م. رقم:**29779**.

يُفْتَرَضُ أنَّ أكثرَ مِنْ نصفِ عناصرِ الشرطةِ كانوا من أعضاءِ "الشبكة الْگولنِيَّةِ"، كما يقدَّرُ عددُ رِجالِ القانونِ (من هذهِ الشبكة) المندسِّينَ في جهازِ القضاءِ بآلاف.

أصدر الْمُدَّعِي الْعَامُّ (لِمدينةِ إسطنبول) جلال كارا Celal Kara، وهو مِنْ أهمِّ عناصرِ "الشبكة الْگولنِيَّةِ"، أصدر أمرًا لقواتِ الشرطةِ فقامتْ فجرَ يوم 17 من شهر ديسمبر لعام 2013م. بالقبضِ على أبناءِ ثلاثةٍ من الوزراءِ في حكومةِ أردوغان، وهم بالتحديد: باريش جولير Barış Güler ابنُ وزيرِ الداخليَّةِ (معمر جولير)، وَكَاعَانْ جاغليان Kaan Çağlayan ابنُ وزيرِ الإقتصادِ (ظفر جاغليان)، وأُوغُوزْ بَيْرَقْدَارْ Oğuz Bayraktar ابنُ وزيرِ البيئَةِ والتخطيطِ العمرانِيِّ (أردوغان بيرقدار)، كما أُلقِيَ القبضُ في هذه الحملةِ على 37 شخصًا آخرين منهم: عَلِي أغا أوغلو Ali Ağaoğlu[325]، ورضا ضَرَّاب Rıza Zarrab[326]، وسليمان أرسلان Süleyman Arslan[327]، ومصطفى دمير Mustafa Demir[328].

كانت هذه المبادرةُ الجريئةُ من "الشبكة الْگولنِيَّةِ" تحدِّيًا شديدًا في وجهِ حكومةِ أردوغان، بل كانتْ تهديدًا صريحًا لها واستخفافًا بها هزّتْ كيانَها، كما قَضَتْ على التحالُفِ الْمُنْعَقِدِ بين الطرفين ضِدَّ (الأتاتوركِيّين). واستعرَتِ الحربُ بين الحكومةِ وبين الشبكةِ بعد هذه الحادثةِ، كما أثارتِ المعارضةَ (الأتاتوركيةَ) فازدادتْ جرأةً على أردوغان وحكومتِهِ.

يبدو أنَّ الأزمةَ أقلقتْ أردوغان وَأقَضَّتْ عليه مَضْجَعَهُ حتى جعله يبذُلُ ما يملكُ من قدرةٍ وإمكاناتٍ في محاربةِ فتح الله گولن وشبكتِهِ. بدأ يُكثِّفُ جميعَ جهودِهِ مستميتًا لِيَقْبِضَ على الرجلِ ويستأصلَ شَأْفَةَ عصابَتِهِ. خرجَ أردوغان إلى الساحةِ عقبَ أحداثِ 17 ديسمبر، فاستغلَّ كلَّ وسيلةٍ للتحامُلِ على فتح الله گولن وعصابتِهِ؛ ندَّدَهُ بلهجةٍ قاسيةٍ ووصفَ أنصارَهُ وبطانَتَهُ بـ"الدولة العميقة، وبـ"الدولة الموازية، وبـ"الحشاشين"؛ شبَّهَهُمْ بأصحابِ حسن بن صباح الذين كانوا يَتَلَقَّوْنَ تدريباتٍ احترافيَّةً لِكسبِ المهارةِ في تنفيذِ الإغتيالات وأعمال السطوِ والإرهاب في أيَّامِ الدولةِ

---

[325] وهو من رجال الأعمال المشهورين في تركيا، ومقرَّب من أردوغان والحكومتِهِ، يملك أضخم شركة للإنشاءات.

[326] وهو من مشاهير رجال الأعمال في آذربيجان، وزوج المطربة التركية الشهيرة إبرو كوندش Ebru Gündeş، يقيم في تركيا.

[327] وهو مدير العام لـ(بنك الخلق) الأهلي Halk Bankası

[328] وهو رئيس بلدية حي الفاتح في اسطنبول.

العباسِيَّة. هدَّدَهُمْ أردوغان في كلِّ مناسبةٍ وأكثرَ من كلمتِهِ الشهيرَةِ (باللغةِ التركية): «inlerine gireceğiz»، يعني:"سوف نداهمهم في أوكارهم، سوف ندخلُ خَلاَيَاهُمْ على حين غفلة منهم" أي سنقبضُ عليهم، سَنَفْضَحُهُمْ، سنكشفُ القناعَ عن وجوهِهِمْ لتظهرَ حقيقتُهُمْ إلى العيانِ، ويطَّلِعَ الناسُ على مكائِدِهِمْ ومساوِيهِمْ وجِنَايَاتِهِمْ...

بدأت ملاحقةُ أصحابِ فتح الله گولن الْمُنْدَسِّين في أجهزةِ الدولة؛ أَصْدَرَ عددٌ من المدَّعين العامِّين في مختلفِ مُدُنِ تركيا أوامرَ باعتقال آلافٍ من العاملين في جهازِ الأمنِ والقضاءِ، واحتجزَتْهُم السلطاتُ عبرَ مُداهماتٍ مُتَكَرِّرَةٍ عقبَ أحداثِ 17 ديسمبر، كما أصدرتِ الحكومةُ قرارًا يَقضِي بإغلاقِ الدَّرسْخَانَاتِ وبعضِ المؤسَّسات التابعةِ لـ"الشبكةِ الگولنِيَّة".

ولَمَّا ضاعفتِ الحكومةُ التركِيَّةُ ضَغْطَها على العصابةِ الگولنِيَّةَ، وضَيَّقَتِ الخناقَ عليها، بدأتِ العصابةُ تُفَكِّرُ في تدبيرٍ للقيامِ بإطاحةِ الحكومةِ والوثوبِ على السلطةِ انتقامًا منها. لكنَّ القنواتِ الإستخباراتيَّةَ التركيَّةَ لم تَغْفَلْ هذا الإحتمالَ، خاصةً بعد أن أقدمتِ العصابةُ الگولنِيَّةُ على مداهمةِ شاحناتٍ تابعةٍ لجهازِ الاستخبارتِ التركيَّةِ. والقصّةُ تتلخَّص في أنَّ الشرطةَ التابعةَ للعصابةِ الگولنِيَّةَ كانَتْ قد أوقفتْ مجموعةً من الشاحناتِ التابعة لجهاز الإستخباراتِ التركيَّةَ قربَ مدينة (أضَنَه)، عليها حُمُولاتٌ كبيرةٌ من الأسلحةِ والعتادِ تَنْقُلُهَا لِفصائِلِ المقاومةِ السورية، وذلك يوم 19 من شهرِ كانون الثاني لسنة 2014م.. بدأتِ العصابةُ بهذه المبادرةِ تستعدُّ لِلقيامِ بانقلابٍ عسكرِيٍّ يتمُّ القبضُ في الخطوةِ الأولَى منه على رجب طيب أردوغان، ورئيسِ الوزراءِ، والقائدِ الأعلَى للقوَّاتِ المسلَّحةِ التركية...[329]

دامتِ المشاوراتُ بين أعضاءِ النُّخْبَةِ للشبكةِ الگولنِيَّةِ؛ تَبَادَلُوا الآراءَ خلالَها حولَ تنفيذِ المؤامرةِ فترةً أخذتْ أكثرَ مِنْ عامٍ؛ عكفوا على تعيينِ النقاطِ للحملةِ الإنقلابيَّةِ وتوزيعِ الوظائفِ، غير أنَّ قمةَ العصابةِ (من سوءِ حظِّهم) لم يكونوا عسكريّين، ولم يكونوا يقطعونَ أمرًا إلاَّ بعد أن يأخذوا الموافقةَ

[329] تم القبضُ على كلٍّ من الْمُدَّعِينَ العامِّين: سليمان بَاغْرِيَانِيك Süleyman Bağrıyanık، وأُزْجَانْ شِيشْمَان Özcan Şişman، وعزيز تَاكْجِي Aziz Takçı، وأحمد كَارَاجَا Ahmet Karaca، وياشار كَاوَالْجِي أوغْلُو Yaşar Kavalcıoğlu، وقائدِ قُوَّاتِ الدَّرَكِ لمدينةِ (أضَنَه) أُزْكَانْ جُوكَايْ Özkan Cokal. تَمَّ القبضُ عليهم يوم 15 مايو 2015م. بسببِ عُضْوِيَّتِهِمْ للعصابةِ الگولنِيَّةِ، وتلبُّسِهم بإيقافِ الشاحنات التابعة لجهاز الإستخبارات التركية. ثم بعد تحقيقات عدليةٍ بشأن المذكورين أصدر مجلس القضاةِ والْمُدَّعِينَ العامِّين قرارًا بطردِ هؤلاءِ الْمُتَّهَمِين من ممارسةِ المهنةِ يوم 14 يناير 2016م. وحُكِمَ عليهم بالسجنِ المؤبَّدِ.

من فتح الله گولن، لِقُوَّةِ إيمانِهم به، وشدَّةِ انقيادِهم له، وتفانيهم فيه، واعتقادِهم بـ"أنه لا يُخطِئُ أبدًا، لأنه لا يَبْدُرُ شيءٌ منه إلاَّ بوحيٍ من الله له!"

كان فتح الله گولن (رغمَ ذكائه الوقَّادِ، وتجارُبِهِ الغزيرةِ، ومعرفتِهِ الواسعةِ بتاريخِ شعبِهِ وحياتِهِ الإجتماعيَّةِ)، كان يتجاهلُ شخصِيَّةَ رجب طيّب أردوغان في تلك الساعةِ الحسَّاسةِ التي يُنَاقِشُ فيها برنامجَ الإنقلابِ مع حاشيتِهِ في بنسيلوانيا، معَ أنَّ أردوغان (بغضِّ النظرِ عن عقيدتِهِ القبوريَّةِ الوثنيَّةِ الفاسدَةِ)، رجلٌ منقطعُ النظيرِ في مواجهة الخصومِ، ومقاومة التحدِّيَاتِ، ودحضِ الحججِ بِجُرْئَتِهِ الفائقةِ، وبلاغتِهِ الكلاميَّةِ، وأسلوبِ خطابِهِ الأخّاذِ... يكفينا استنكاره اللاذعُ وكلمتُهُ الشهيرةُ «one minut» يوم **29** يناير **2009**م. أثناء مناقشةِ هجماتِ إسرائيلَ على قطاعِ غزَّةَ المحتلَّةَ في مؤتمرِ دافوس.. غفلَ فتح الله گولن عن تقديرِ ما يَتَّسِمُ به أردوغان من الثقةِ بالنفسِ والجرأةِ والغرورِ والطغيانِ ومعرفةِ الحيَلِ في مُغَالَبَةِ الخصمِ. يظهر ذلك إذا قُورِنَ بجميعِ السياسيّين الذين احتلُّوا قِمَّةَ الدولةِ التركيَّةِ قبلَهُ. إنّ فتح الله گولن فاته أن يتأمَّلَ في هذه الحقيقةِ ونسِيَ أنَّ رجب طيب أردوغان استطاعَ أن يُهَدِّدَ قائِدَ القوات المسلحة (ياشار بيوك آنيت Yaşar Büyükanıt) في جلسةٍ مغلقةٍ ويُنزِلَ الرُّعْبَ في أعماقِ قلبِهِ (بحسبِ ما قيل، والله أعلم!): أخطره بمدى مقدرة الشعبِ العازِلِ من السلاحِ بقولِهِ: "إنْ أردتُ أنْ أُثيرَ الناسَ عليكم في أيِّ لحظَةٍ، فسوفَ ينتزعُون جميعَ الأسلِحَةِ التي بأيديكم خلالَ ساعاتٍ، لأنَّ السلاحَ أصلاً مُلْكُ الشعبِ، فلا ينبغي أن تَتَنَاسَوْا مَقْدَرَةَ شعبِنَا العظيمِ الذي يُطعِمُكُمْ من خُبزِهِ ويُسقيكم من مائِهِ. وإنما تتمتَّعون بالعيشِ الرغيدِ بفضلِ الضرائِبِ التي يؤدِّيهِ الشعبُ إلى خزانة الدولة!" هكذا وبهذه الكلمات السحريَّةِ (إن صحَّ الخبرُ) أوْدَى أردوغان بالروحِ الإنقلابيَّةِ المتمرِّدَةِ والمتأصِّلَةِ في دماغِ هيئةِ الأركانِ للقُوَّاتِ المسلحةِ التركِيَّةِ.

غَفَلَ فتح الله گولن أو تَغَافَلَ عن كلِّ هذه الحقائق، وركبَ رأسَه وراءَ أحلامِهِ وخيالاتِهِ وطموحاتِهِ التي طَمَسَتْ على بصيرتِهِ، وأعْمَتْهُ، وأذهبَتْ بجهودِهِ التي بذلَها على مدى أربعين عامًا، وخَيَّبَتْ آمالَهُ في ساعاتٍ قليلةٍ يوم **15** تموز **2016**م. سقطَ گولن ضَحِيَّةً لعقولٍ قاصرَةٍ فاسِدةٍ متطرِّفَةٍ تلاعبتْ بِهِ، وتلاعبَ هو بِهَا، كنتيجةٍ لعلاقاتٍ غريبةٍ جرتْ بينه وبين بِطَانَتِهِ لِفَرْطِ سرِّيَّتِها. لأنَّ السرِّيَةَ مشكلةٌ عويصةٌ قَلَّمَا تنفعُ صاحِبَها، وتعودُ عليه بالمساوي خاصّةً إذا طالتْ. لذلك نصحَ أهلُ الحكمةِ بالصراحة والشفافِيَّةِ من القديمِ إلى اليومِ، وقالوا "إنما النجاةُ في الصدق." كما أنَّ الهَلاكَ فى الكذبِ، وما أكثره في العلاقات السرِّيَّةِ. وبالمناسبة: قيلَ خطبَ الحجاجُ بْنُ يوسفَ يومًا فَأَطَالَ، فقامَ رجلٌ وقال "الصلاة الصلاة، الوقتُ يَمضِي ولا ينتظرُكَ يا أميرَ الحبشة!" فقال قومُهُ إنَّه

مجنون! قال الحجاج: إنْ أقرَّ بِجنَّتِهِ. فقيل للرجلِ، فقال: "معاذ الله أن أقول ابتلاني وقد عافاني." فبلغ الحجاجَ، فعفا عنه لِصِدْقِهِ، فصار الصدقُ سببًا للنجاةِ. وقد قال تعالى: "يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِي.[330]"

لقد كان فتح الله گولن واثِقًا من كَفَائَةِ مستشارِيهِ الذين كانوا يُسَيِّرونَ ملايين الناسِ من أتباعِهِ. كما أنَّ هؤلاءِ المستشارين كانوا مُعْتَنِقِينَ عقيدَتَهُ ومؤمنون به قائِدًا ربَّانِيًّا مؤيَّدًا من قِبَلِ الله، لا يقطعُ أمرًا إلاَّ وقد هداه الله فيه إلى الصوابِ ولا يُخطِئُ أبدًا. فكانتْ ثِقَتُهُ الجازمُ بهم، وإيمانُهُم الراسخُ به هما الدافعانِ الرئيسانِ أصلاً لسقوطِهِم جميعًا في الهاويةِ، وَفَشَلِهِمْ في محاولةِ الإنقلابِ. ذلك أنَّ جنونَ العظمةِ كان آخذًا برأسِ فتح الله گولن على مثالِ إبليسَ الذي غرَّهُ المرضُ نفسُهُ حتى عَصَى الله فهلك.[331] لأنَّ گولن، كان يرى باطلَهُ حقًّا، ولم يسبقْ في كلِّ حياتِهِ أنْ صدَّقَ أحدًا لِصدقِهِ، كما لم يسبق أنْ رَجَعَ من رأيه إذا نصحهُ أحدٌ أرادَ به خيرًا. بل كان مكابرًا فِرْعَوْنِيًّا، لم يعرفِ الإنصياعَ لقولِ الحقِّ بتاتًا، لِما كان يرى أنه يفقِدُ مكانتَهُ المرموقَةَ، وهيبَتَهُ على أتباعِهِ إنْ تواضع لناصحٍ. لذلك ناصبَ العداءَ لكل مَن نصحه، وعدّهُ من ألدِّ أعدائِهِ، واعتقدَ أنَّ أيَّ ناصحٍ له أو ناقدٍ لفكرِهِ إنما يستخِفُّ به، ويريدُ أنْ يَحُطَّ من شأنِهِ. وبمثل هذه الغطرسةِ والكبرياءِ والعنجهيَّةِ لم يسمحْ لأحدٍ من الخبراءِ الذين في بلاطِهِ أن يخالفَ رأيَهُ قيدَ نملةٍ إلى أنْ أكَبَّهُ الله على وَجْهِهِ وَفَضَحَهُ على رؤوسِ الأشهادِ يوم **15** تموز **2016**م.

قرَّرَ گولن أنْ يتخلَّصَ من أردوغان بتفجيرِ ثورةٍ عسكريَّةٍ للإطاحةِ به والقضاءِ عليه. بدأتْ تجري مشاوراتٌ في قصرهِ بمدينةِ بانسيلوانيا الأميركيةِ حولَ مشروعِ إنقلابٍ وقد كان له أتباعٌ من الضُّبَّاطِ ذَوُو رُتَبٍ رفيعةٍ في الجيش التركِيِّ. يبدو أنه كان واثقًا من أنهم قادرين على قيادةِ حركةٍ إنقلابيَّةٍ عند الحاجةِ. فتوالتِ الإجتماعاتُ السِّرِّيَّةُ لِلْقِمَّةِ الگولنِيَّةِ وهي تدرسُ برنامجَ الإنقلابِ في حمايةِ المخابراتِ الأميركيةِ وقد يكونُ جَرَى بين الطرفين تنسيقٌ في تدبيرِ المؤامرة. وفي غضون ذلك شخصيَّتان من الأقربين إلى فتح الله گولن كانا يحتفظانِ بأسرارِ المشروعِ ويقومان بإجراءِ العلاقاتِ بينه وبيه المجلس الأعلى للتنظيم في تركيا. وهما: كمال باتماز Kemal Batmaz (وهو الآن في

---

[330] التوبة/**119**

[331] وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ. (البقرة/**34**). وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِين. (الأعراف/**11**). قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ، قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِي. (الأعراف/**12**).

المعتقل)، وعادل أوكسوز Adil Öksüz[332]. وقد ثبتَ بالأدِلّةِ الوثائقيّةِ قيامُهما بعدَّةِ رحلاتٍ بين تركيا وأميركا خلالَ الأسبوعين الأولين من شهر تموز لعام 2016م. كانا يحملانِ حقيبةَ أسرارِ الإنقلابِ بين قَصْرِ گولن في أميركا وبين المجلس الأعلى للتنظيم في تركيا. كما ثبت أنَّ الرحلات التي قام بها عادل أوكسوز منفردًا بين تركيا وأميركا ما بين أعوام (2002–2016)، بلغ عددُهَا مائةً وتِسعَ رحلات، وهذا يُنْبِئُ بِأنَّ الرجلَ كان يحتلُّ منصبًا هامًّا ضمن الشبكة الگولنية كما ينبئُ أن الشبكةَ كانت تتأهّبُ منذ بداية شهر تموز من عام 2016م. للوثوبِ على سلطة الدولة التركيةِ.

أظهرت البحوث اعتمادًا على مصادر إعلامية واستخباراتية أنَّ قمةَ الشبكةِ الگولنِيَّةِ قرَّرتْ تفجيرَ الثورةِ فجرَ يومِ السادس عشر من شهر تموز/2016م. إلاَّ أنَّ أخبارَ تحرُّكاتِهَا تسرَّبَتْ إلى جهاز الإستخبارات بواسطة رائدٍ (لا يزال اسمه في طيِّ الكتمانِ)[333]. هذا، ورغمَ مُضِيِّ سنةٍ كاملةٍ على

---

[332] عادل أوكسوز Adil Öksüz: يُعدُّ اليدَ اليُمنى لفتح الله گولن؛ وهو مستشارُهُ الأقربُ وأمينُ سِرِّهِ. شَارَكَهُ في بناءِ الْهَرَمِ الْگولنِيِّ الذي ضَمَّ آلافًا من الأغنياءِ وأصحابِ الكلِمةِ النافذةِ والمكانةِ الرفيعةِ والجاهِ والشهرةِ والسيطرةِ على العوامِّ في المجتمع التركيِّ؛ بينهم أكادِميّونَ، وأطِبّاءُ ومهندسون ورجالُ القانون، والنُّوَّابُ والوزراءُ... استطاعَ أوكسوز بدهائِهِ أنْ يحافظَ على مركزِهِ طِوالَ عقودٍ، ويلعبَ دورًا هامًّا في تسييرِ الحركةِ الگولنيَّةِ، وتوجيهِ أفرادِ التنظيمِ، وإخفاءِ الهدفِ النهائيِّ المنشودِ (وهو امتلاكُ زمامِ سلطةِ الدولةِ التُّرْكيَّةِ) عبر خطةٍ مرحليةٍ تأخذُ من الوقتِ أربعين عامًا!

اختفى أوكسوز طَوالَ مشاركتِهِ لفتح الله گولن تحت ستارِ الْمِهْنَةِ الْعِلْمِيَّةِ ابتداءً من تخرُّجِهِ عام **1991**م. في كلِّيَّةِ الإلهيَّاتِ التابعةِ لجامعةِ أنقره. حصل على شهادة الدكتوراه سنة **2003**م في جامعةِ ساكاريا Sakarya وعمل كأستاذٍ مساعدٍ بكُلِّيَّةِ علومِ القرآن الكريم في الجامعةِ نفسِها. وهو أحد أفرادِ القِمَّةِ الگولنِيَّةِ التي صدرتِ الفتوى بتوقيعِهِمْ لقيامِ الإنقلابِ.

أُلقِيَ القبضُ عليه في اللَّحظاتِ الأولَى من فَشَلِ المتمرِّدِينَ بينما هو يقودُ الحركةَ بقاعدةِ (آكينجيلار Akırncılar) وأحيلَ فورًا إلى مُجَمَّعِ المحاكمِ لإجراءِ التحقيقَاتِ معه. بَيْدَ أنه استطاعَ بلباقةٍ ودهاءٍ أن يُقنِعَ الْمُدَّعِيَ العامَّ "أنه كان يبحثُ عن مزرعةٍ قُرْبَ القاعدَةِ يريد شراءَها، وإذا بدوريةٍ عسكريَّةٍ فَاجَأَتْهُ وألقتِ القبضَ عليه، وأنَّه لا يعلم ولا يفهم شيئًا عمَّا يجري، وأنَّ كونَهُ شخصًا مدنيًّا وحيدًا في المعسكرِ دون أي مناسة يُفَسِّرُ غرابَةَ الأمرِ ويبرهن على براءتِهِ من كل ما هو موضوعُ الْمُسَائَلَةِ..." فلما استمع إليه المدعي العامُّ وهو يكلِّمُهُ بسكينةٍ ودمٍ باردٍ، ولم يجدْ عليه من دليلٍ يكذِّبُهُ أطلقَ صراحهُ، فكان ذلك فرصةً ذهبيةً استغلَّها عادل أوكسوز، وانطلق بسرعةٍ وغابَ منذ ذلك اليوم، تبحثُ عنه السلطاتُ التركيَّةُ ولم تعثُرْ على أدنى أثرٍ له في الداخلِ والخارجِ كما قيل: لَقَدْ ذَهَبَ الْحِمَارُ بِأُمِّ عَمْرٍو * فَمَا رَجَعَتْ وَمَا رَجَعَ الْحِمَارُ!

على رغم حَمْلَةِ الدِّعَايَاتِ الإعلاميَّةِ حولَ الرجلِ ب"أنه داهيةٌ في المكرِ والْخِدَاعِ واختلاقِ الحِيَلِ وتشويشِ الأفكارِ وإرباكِ العقولِ.. وأنَّهُ استطاعَ بذلك أنْ يَتَنَصَّلَ من الورطةِ التي وقعَ فيها ويذهبَ مع الريح! وَيَنْجُوَ بذلك من الخطرِ الذي كاد أنْ يُؤَدِّيَ به إلى الهلاكِ" على رغمِ كلِّ هذه الدعاياتِ التي تبثُّها الإعلامُ الأردوغانِيُّ وتدعمُها الحكومةُ التركيَّةُ لِمُجَرَّدِ التعميةِ، ذاعت شائعاتٌ: "أنّه قُضِيَ عليه من قِبَلِ كتيبةِ الإغتيالاتِ التابعة لجهازِ الإستخبارات؛ لأنَّهُ كان دسَّاسًا انتهازيًّا ثُنائِيَّ الوجهِ. احتلَّ مركزًا هامًّا في جهاز الاستخباراتِ التركيَّةِ في الوقتِ الذي تسلَّلَ إلى قلبِ الشبكة الگولنِيَّةِ وأصبحَ أقرَبَ عنصرٍ إلى فتح الله گولن، فحصل على أدقِّ معلوماتٍ حول نشاطاتِ الخِلْفِ (الأردوغانِي–الگولنِيِّ على السواءِ)... لذا، لو أُبْقِيَ على قيدِ الحياةِ ومُثِلَ أما المحاكِمِ المفتوحةِ للعامَّةِ، لأَفْشَى ما يتركُ العقولَ حائرةً وَتَقِرُّ بهِ عينُ إبليسَ من أسرارِ المشاركة بين رجب طيب أردغان وفتح الله گولن، ولأفتضحت الحكومةُ التركية بما وقعت فيه من ألوان الفسادِ وإثارةِ العنصرية التركية، واستغلالِ اللاجئين السوريِّين، واستخدامِ المافيا النقشبندية في ترسيخ الديانة المسلمانية لتشويه الإسلامِ وتتريكه وتحريفِ تعاليمه..." ما زالت هذه الشائعات تدبُّ بين العامَّةِ بخفاءٍ بالغٍ عبرَ قنواتِ الْهَمْسِ وسراديب الوشوشة!

[333] هذا الرجل، اغْتَقَلَتْهُ السلطاتُ التركيةُ فورَ إبلاغِهِ أخبارَ استعداداتِ الإنقلابيّين وتحرُّكاتِهِم قبل خروجهم إلى الشارع، فكان باعثًا للاستغراب والتساؤلاتِ في أوساط العامةِ. وقيلَ: إنما اعْتَقَلَتْهُ السلطةُ لأنه ثبت بإقرارِهِ بالذات "أنه كان عضوًا في الشبكة الإرهابية الگولنِيَّةِ"، وعُدَّ ذلك جريمةً مُعْتَرَفًا بِهَا، فلم ينفعه الإبلاغُ عن نوايا أصحابِهِ في آخر لحظةٍ أرادَ أن يتنصَّلَ من مسؤولية الجريمة خوفًا على نفسِهِ عندما بدتْ له بوادرُ الفشلِ.

الإنقلابِ الفاشلِ ما زالت عدّةُ تساؤُلاتٍ حولَ هذه الحركةِ تنتظر الإجابةَ، وهي تتوارى بغموضٍ قد يدومُ سنواتٍ حتّى تَتَفَشَّى أخبارُها مع الزمان كما هي الحالُ بالنسبةِ لكثيرٍ من أعمالِ التنظيمات السّرّيَّةِ وخططِها الإجرامِيَّةِ. ومن أهمّ هذه التساؤلات: "أن القائدَ الأعلى للقواتِ المسلحة التركيةِ ورئيسَ جهاز الاستخبارات كيفَ غفلاَ عن استعداداتِ الإنقلابِيّين قبلَ أن ينطلقوا إلى الشارع، وقد أسفرت هجماتُهُمُ المسلَّحَةُ عن عددٍ كبيرٍ من القتلى والجرحى؟! فمن المسؤول إذًا عن هذه الجنايات؛ المتمردون أم القِمَّتَانِ السياسيةُ والعسكريَّةُ" إنَّ هذا الأمر –لا شكَّ– يَتَّسِمُ بخطورةٍ بالغة.

اختلفتِ الآراءُ حولَ هذه المشكلةِ العويصَةِ التي لم تَتَّضِح نتائجها بعدُ، وقد حظَّرَ جهازُ القضاءِ تسريبَ المعلومات الخاصَّةِ بِالْمُتَّهَمِينَ لحين صدورِ الحكم النهائِيّ بحقِّهم. مع ذلك ظلَّ الإعلامِيُّونَ والمحلِّلُونَ السياسيُّونَ يتناولون النقاطَ الهامَّةَ لهذه الحركة، ويتناقشون أسبابَ فشلِها، كما يتباحثون في الوقتِ ذاتِهِ عن مدى مسؤليةِ الحكومةِ، وغَفلةِ قمةِ القُوَّاتِ المسلحةِ وجهازِ الاستخبارتِ عن تحرُّكاتِ المتمرّدِين، وَعَجْزِهِمَا عن إحباطِ محاولاتِهم والحيلولَةِ دون خروجِهِم، وقد أسفرتْ عن انتهاكِ الحرماتِ وقتلِ وجرحِ مئاتٍ من الأرواحِ وإلحاقِ خسائرَ فادحةٍ بمؤسساتِ الدولة ومُمْتَلَكَاتِ المواطنين...

ثَمَّ تلفِيقاتٌ في نقلِ الأخبارِ الخاصَّةِ بانْدِلاَعِ الثورةِ الگولنِيَّةِ التي أسْمَتْهَا الحكومةُ (الأردوغانيةُ) بِمُصْطَلَحِ "فَتُو FETO"[334] نسبةً إلى فتح الله گولن، وقد شاعت هذه التسميةُ عبرَ الإعلامِ التركِيّ في أوساطِ المجتمع؛

يذهبُ بعضُ المحلِّلينَ السياسيِّينَ: أنَّ هذه الحركةَ التي تُنسَبُ إلى "الشبكةِ الإرهابِيَّةِ الْگولنِيَّةِ" لا يجوز عقلا أن يكون أنصارُ فتح الله گولن (المندسون في صفوفِ القوات المسلحة) قد تَحَمَّلُوهَا على انفرادِهم؛ بل قد شارَكَتْهم فيها كُتَلٌ أخرى من الضباطِ ذوي الأغراضِ والنزعات المتباينة. ومن جملة الفرضيات حول القضية: يقال: إنَّ الإنقلابِيّين كانوا يتألَّفُون من ثلاثِ فئاتٍ مختلفةِ الإتجاهاتِ السياسيَّةِ والآمالِ والطموحات:

[334] هذا المصطلحُ مختصرٌ للاسمِ الْمُلصَقِ بجماعةِ فتح الله گولن، وصيغتُهُ باللغة التركية Fethullahçı Terör Örgütü، يقابلها باللغة العربية: "الشبكةُ الإرهابِيَّةُ الْگولنِيَّةُ"

الفئةُ الأولَى التي احتلتِ المكانةَ القياديَّة للتنظيمِ وحملتْ لواءَ التمرُّدِ: كانوا أنصارَ فتح الله گولن، وعددُهم أقلُّ من الفئتين الأُخْرَيَيْن. يتَّسمون بالكراهيةِ الشديدةِ للرئيس أردوغان لِمُنَافَسَتِهِ "القائدَ الأعظَمَ، إمامَ الثقلينِ، ظِلِّ اللهِ الْمُقَدَّسِ، المبعوثَ لتوحيدِ الدياناتِ السماويَّةِ الثلاثِ: فتح الله گولن. جلّت عظَمَتُهُ وعمَّتْ بركتُهُ على الْمُسْلُمَانِ والنصارى واليهود!" على حدِّ اعتقادِهِم.

والفئةُ الثانيَّةُ: كانوا جماعةً من العلمانيّين واليساريّين والأتاتوركيّنَ، وعددُهم أكثر من الفئةِ الأولَى وأقل من الفئة الثالثةِ. يحقدون على أردوغان "لِنزعتِهِ الدينيَّة، وكونِهِ رجلاً محافظًا يناهضُ السلوكياتِ الغربيَّةَ، كامتناعِهِ من تناولِ الخمورِ، وحضورِهِ إلى المساجدِ، وكونِ زوجته محجبةً... ولتطويرِ علاقات بلده مع العالَمِ العربي والإسلامِيِّ، واحترازِهِ عن النطق بكلمة "أتاتورك" عند ذكرِ اسمِ مصطفى كمال، وهذا يُعدُّ من الإهانة بشأنِ إلَهِ الأتراكِ ومنقِذِهِم من أسرِ الدِّينِ والشعوذةِ..." كذلك على حدِّ اعتقادِهم.

والفئةُ الثالِثَةُ: كانوا لفيفًا من الإمَّعَةِ وَالْمُرْتَزَقَةِ واللِّئام؛ كانوا أكثرَ عددًا من الفئتين الأُخْرَيَيْن. لم يُشارِكُوا في هذه المغامرةِ الخطيرةِ إلاَّ لاستغلالِ فرصةٍ عسى أنْ يحصلُوا على غنائمَ أو مصالِحَ شخصيةٍ لِيُشبِعوا بها نَهَمَهُمْ، ويتمتَّعوا من حظوظِ الدنيا، ويسعدوا بالشهرةِ والرئاسات والمناصب الزائلة...

امتدَّ مسارُ التمرُّدِ الگولنِيِّ عبرَ سلسلةٍ من الأحداثِ التي بدأت صبيحةَ يوم **15** تموزٍ وَدَامَتْ إلى منتصف يوم **16** تموز **2016**م. وذلك وفق معلوماتٍ تَمَّ ضبطُها من قِبَلِ أجهزةِ الإعلامِ على هذا الترتيبِ الزمنِيِّ، وفيها شِبْهُ إجماعٍ، وهذه قصتُها باختصار:

وصلَ عسكرِيٌّ برتبةِ رائدٍ إلى مقرِّ جهازِ الاستخباراتِ بأنقره في الساعة الخامسةِ إلاَّ ربعًا مساءَ يوم **15** تموز **2016**م.، وقام بإبلاغِ المسؤولين هناك: "أنَّ جماعةً من الضباطِ ذَوَيْ رُتَبٍ رفيعةٍ قاموا باجتماعٍ دون علمِ قِمَّة القوَّات المسلَّحَةِ وأجمعوا على اغتيالِ رئيسِ جهازِ الاستخباراتِ (خاقان فيدان Hakan Fidan)."

اختلفتِ الآراءُ فيما إذا كان الرائدُ هذا قد اكتفى بهذا القدرِ من الإِخْبارِ فحسب، أم أنه أخبر المسؤولين في الوقتِ ذاته عن عزمِ هذه الجماعةِ السرِّيَّةِ على حركةٍ إنقلابيَّة؟ لا يزال هذا السؤالِ

يدورُ حوله النقاشُ منذ سنةٍ كاملةٍ والإجابةُ الصحيحةُ عنها تتوارى بضبابٍ من الغموضِ. وقد يكون مردُّ ذلك إلى أراجيفَ يبثُّها عناصرُ من "الشبكةِ الإرهابِيَّةِ الْكُولنِيَّةِ" الذين مازالوا مُنْدَسِّين في الإعلامِ التركِيِّ يعبثون بالأخبارِ لتشويش الرأيِ العامِّ وإثارة الشعبِ انتقامًا من الحكومة والمجتمع!

يُقالُ: إنَّ رئيسَ جهاز الاستخبارات (خافان فيدان Hakan Fidan) قام بزيارةٍ إلى مقرِّ القيادة العامَّةِ للقوات المسلَّحَة التركيةِ على وجه السرعةِ وكلَّمَ رئيسَ الأركانِ (الفريق خلوصي آكار Hulusi Akar)؛ أخْبَرَهُ بما لديه من نبأِ الإنقلابِيِّين، فأصدرَ رئيسُ الأركانِ في حِينِهِ أمرًا صارمًا في الساعةِ السادسةِ والنصف مساءً إلى جميعِ القواعدِ العسكريَّةِ على الساحةِ التركِيَّةِ: "أنه يُمنع الطيرانُ منعًا باتًّا بأيِّ نوعٍ من أنواعِ الطائرات فوقَ أجواءِ البلدِ حتّى إصدارِ الإعلانِ بإلْغَاءِ حَظْرِ الطيران."

على رغم هذا الإدِّعاءِ، فقد سبقَ أنْ أعْلَنَ الإنقلابِيُّونَ عن قيامِ الثورةِ ونشروا بَلاَغًا على الموقعِ الألكترونِيِّ للقواتِ المسلَّحَةِ جاءَ فيه: "أنهم قد تسلَّموا السلطةَ في تمامِ الساعةِ الثالثةِ مساءً، وأنَّ حظرَ التجوُّلِ سيبدأ في تمامِ الساعةِ السادسةِ مساءً"، فلم يَلْبَثْ حتى انطلقَ الجنودُ المتمرِّدُونَ ومعهم الأسلحةُ والدبَّاباتُ والعرباتُ العسكريَّةُ، انتشروا على شوارعِ جميعِ الْمُدُنِ حوالى الساعةِ التاسعةِ ليلاً، كما انطلقَ ملايينُ الناسِ إلى الشوارعِ في الوقتِ نفسِهِ، فأنهالوا على المتمرِّدِينَ كالسيلِ العارمِ يحاولون إيقافَهم بمجرَّدِ أبدانِهِمْ التي جعلوا منها حواجزَ أمامَ الدبَّاباتِ والعرباتِ العسكريَّةِ الرهيبة، ينصحون الجنودَ بالرجوعِ إلى ثكناتهم. والجنودُ يرُشُّونَ عليهم الرصاصَ ويقصفونَ مجلِسَ النوابِ (مَقَرَّ الْبَرْلَمَانِ) وَمُجَمَّعَاتِ قُوَّاتِ الشُّرْطَةِ الموالِيةِ للحكومةِ حيث بَلَغَ عدَدُ الضحايا برصاصِ المتمرِّدِينَ 250 قتيلاً، و193 2 جريحًا خلالَ ساعاتٍ قليلةٍ في الليلةِ نفسِهَا.

شاعتْ الأخبارُ فيما بعدُ أنَّ قِمَّةَ الحكومةِ التركيةِ اضطربتْ وارْتَبَكَتْ في تلك اللحظاتِ، لانقطاعِ الاتِّصالاتِ بين رئيس الجمهريةِ ورئيس الوزراءِ والقائدِ الأعلى للقواتِ المسلَّحَة. تُبَرْهِنُ على هذه الحقيقةِ سلسلةٌ من الأحداثِ واعْترافاتٌ رهيبةٌ:

منها: أنَّ رئيسَ الجمهوريةِ رجب طيب أردوغان كانَ يقضي عُطلةً مع أسرتِهِ في منتجعٍ بقضاءِ (مرمريس Marmaris) على ساحلِ بحرِ إيجه. اعترفَ أردوغان بالذات أنَّ نبأَ حركةِ التمرُّدِ بَلَغَهُ في ساعاتٍ مؤخرةٍ، قالَ: "أسمَعَنِي بالنبأ صهري بَرَاتْ أَلْبَيْرَقْ Berat Albayrak". عاشَ أردوغان ساعاتٍ عصيبةً في فندق (غراند يازيجي Grand Yazıcı Club) الذي كان يُقيمُ فيه، أوشكَ أن يقع

في قبضةِ كتيبةٍ من الإنقلابيّن المأمورين باغتيالِهِ، لولا غادرَ الفندقَ قبلَ نصفِ ساعةٍ فقط من وصولِ كتيبةِ الموت إلى الفندق.

ومن هذه البراهين: أنَّ القائدَ الأعلى للقواتِ المسلحة التركيةِ الفريقَ خلوصي آكار Hulusi Akar، ومُساعِدَهُ الفريقَ ياشار گولِير Yaşar Güler، وقائدَ القواتِ البريَّةِ الفريقَ صالح ذكي جولاك Salih Zeki Çolak، والقائدَ العامَّ لِقوَّاتِ الدَّرَك الفريقَ غالب مندي Galip Mendi، وقائدَ القواتِ الجويَّةِ الفريقَ عابدين أونال Abidin Ünal، وقائدَ القواتِ البحريَّةِ الفريقَ بولند بوستان أوغلو Bülent Bostanoğlu، كَلَّهُم وقعوا في قبضةِ الإنقلابِيِّينَ إثرَ مداهمةِ المتمرِّدِينَ مقرَّ القيادةِ العامَّةِ للقواتِ المسلحة، وظلّ هؤلاءِ الجْنَرَالاَتُ في أسرِهِم من عشية يوم **15** تموز إلى صبيحةِ **16** تموز **2016**م.

ومن هذه البراهين أيضًا: أنَّ قائدَ القواتِ الجويَّةِ الفريقَ عابدين أونال Abidin Ünal كان أثناءَ تلك اللحظات الحساسة في حفلةِ عُرْسٍ بمدينةِ أسكي شهر Eskişehir، كما كان قائدُ القواتِ البحريَّةِ الفريقُ بولند بوستان أوغلو Bülent Bostanoğlu هو الآخر في حفلةِ عُرْسٍ بمنطقة يشيل كوي Yeşilköy في إسطنبول. وهذه كلُّهَا فضائحُ شنيعةٌ سوفَ تَتَجَاَزَبُهَا الناسُ وَتَلوكُها على ألسنتِهِم وتدخُلُ في سجلِّ التاريخِ بعد سنين على حساب الدولة التركية، بعد أن يفنى الفريقان جميعًا.

ربما يتباهى رئيسُ الجمهوريةِ ورئيسُ الوزراءِ ورجالُ الحكومةِ التركيةِ اليومَ "أنهم تمكَّنوا من إخمادِ ثورةٍ خطيرةٍ كادتْ أنْ تدفعَ بِالمجتمع إلى أتُونِ فِتنةٍ عظيمةٍ تُخَلِّفُ ورائَهَا ما تقشعرُّ منهُ الجلودُ من حروبٍ وقتالٍ وخرابٍ وَدمار..." لكنَّ الأسبابَ (المتضافرةَ التي أكبَّ اللهُ بها فتح الله گولن وأصحابَهُ على وجوههم وخذلهم في هذه الإنطلاقةِ الشعواءِ)، لا نجدُ بينها من أدنى حَرَاكٍ لرجالِ الحكومةِ أو للعسكريِّين الموالين لها يُثْبِتُ أنْ كان لأحدِهِم أثرٌ في إيقافِ هذه الداهيةِ، سوى كلماتٍ قليلةٍ دندن بها أردوغان عبرَ هاتفٍ نَشَرَتْهَا إحدَى القنواتِ الفضائية، وذلك بعد أن ظهرتْ بوادرُ الفشلِ في صفوفِ المتمرّدين. بل كان أفرادُ القِمَّتَين السياسيَّةِ والعسكريَّةِ أكثرُهُمْ غافلين عن دبيبِ العصابةِ الگولنيةِ بين صفوفِهِمْ كما سبقتِ الإشارةُ لها آنفًا. يؤكِّدُ وقوعَ هذه الغفلةِ كلمةٌ لِقائدِ القواتِ الخاصّةِ الفريق ذكائي أكسكالِّي Zekai Aksakallı، يقول فيها: "يُصْدَرُ الأمرُ فورًا إلى جميع القطاعات العسكريةِ على أرض الوطن عند حدوثِ أمرٍ طارِئٍ؛ أنه يُمنَعُ منعًا باتًّا مغادرةُ أيِّ شخصٍ مكانَ عَمَلِهِ مهما كان عذرُهُ. لكنَّ هذا المبدأ الهامَّ لَمْ يُلْتَزَمْ به عند وصولِ خبرِ المتمرِّدين إلى القيادة العامّةِ يوم **15** تموز **2016**م. فلو أُخِذَ الخبرُ في الاعتبارِ لَفَشَتْ أسرارُ الخطَّةِ قبلَ وقوعِها."

كلُّ هذه التناقضاتُ الْمُلْتَفَّةُ حولَ قصَّةِ الإنقلابِ إنّما تُنْبِئُ عن فتورٍ وتلاشٍ للاتّصالاتِ بين جهازِ الاستخباراتِ وقيادة القوات المسلحة والحكومة، خاصّةً وأنَّ وقوعَ رئيس الأركان وكبارِ رجالِ القيادةِ في أسر الإنقلابيّين على مدى ساعات يُعَدُّ فضيحةً مُخْزِيَةً. ذلك أن الإنقلابيّين احتجزوا القائدَ العامَّ للقوات المسلحة في تمامِ الساعةِ الحاديةَ عشرةَ ليلاً، أيْ بعد مُضِيّ **8** ساعاتٍ على علمِهِ باجتماع المتمرّدِينَ واستعداداتهم للوثوبِ على السلطة؟. كذلك؛ اعترافُ رئيس الجمهوريةِ: "أنه لم يتمكّنْ من الاتصالِ برئيس الأركان ولا برئيس جهازِ الاستخباراتِ يُعَدُّ أيضًا فضيحةً أكبرَ تُنْبِئُ عن غفلة قِمَّةِ الدولة التركيةِ بجميعِ أفرادِها، وأنها لم تكن تحظى بالنجاةِ من غضبِ المتمرِّدِين لولا انتفض الشعبُ ووقف الملايينُ بأبدانهم أمامَ الدبّاباتِ وافتدوا بأرواحهم حتى أخمدوا الثورةَ بدمائهم."

من غرائب الأمورِ وعجائبِها أنَّ الحكومةَ التركيَّةَ الأردوغانيَّةَ تستغلُّ اليومَ تلك الانتفاضةَ الشعبيةَ التي أحبطتْ ثورةَ العصابةِ الگولنيةِ وأنقذتِ البلدَ من حربٍ أهليٍّ وشيكةِ الوقوعِ. تحتكرُ الحكومةُ هذا الانتصارَ الشعبِيَّ بكُلِّ ضروبِ الحِيَلِ، وَعَبْرَ وَابِلٍ من الدِّعَايَاتِ، لِتُخْفِيَ بذلك الهزيمةَ التي بَاءَتْ بها أمامَ المتمرِّدِينَ (حتى لا ينشغلَ أحدٌ بهروبِهِم يمينًا وشمالاً، واندحارِهِم أمامَ الإنقلابيّين، واختفائِهِم في أعماقِ الأنفاقِ وداخلَ غُرَفِ الفنادِق، وفي مخافر الشرطة، وسقوطهم تحت أسر الإرهابيّين!). وقد نجحتِ الحكومةُ في هذه الحيلةِ بأشكالٍ من التعمِيَةِ والتشويشِ والتزوير... أمَّا أخسُّهَا شنَاعَةً وأرذَلُها تضْلِيلاً: فتتمثَّلُ في اتِّجارِ الحكومةِ بمفهومِ (الشهيدِ). وهو مصطلحٌ قرآنِيٌّ مقدَّسٌ له ضوابِطُهُ في الفقهِ الإسلامِيِّ. لا علاقةَ بين هذا المصطلحِ وبينَ الديانة المسلمانيةِ، كما لا يَمُتُّ بِصِلَةٍ إلى النظامِ التركِيّ العلمانِيّ على الإطلاق.

ظلَّتِ الحكومةُ تحتكرُ هذا المفهومَ المقدَّسَ وتتَّجِرُ بِهِ لكسبِ ثقةِ المجتمعِ والاستفادةِ من دعمِهِ في الانتخاباتِ القادمةِ؛ تلوكُ هذه الكلمةَ الشريفةَ على كل صعيدٍ ومن غير مناسبةٍ، وقد اتَّخذتْ منها سِلاحًا في مواجهة العلمانيّين والأكرادِ والأتاتوركيّين وأحزابِ المعارضةِ. تشبَّثَتِ الحكومةُ الأردوغانيَّةُ بهذه الذريعةِ لتتمايزَ عن معارضيها في نظرِ المجتمَعِ: "أنها حكومةٌ مُحَافِظَةٌ تحترِمُ الديانةَ المسلمانيةَ ومقدَّساتِها." ومِنْ حُسْنِ حظِّها؛ أنَّ المجتَمَعَ يدينُ بالمسلمانيةِ وَيَعْتَنِقُها قديمًا ويتعصَّبُ لها، ولا يزالُ يجهلُ الفرقَ بين الإسلامِ (دين التوحيدِ) وبين هذه الديانةِ الوثنِيَّةِ القبوريَّةِ!

***

الكلمة الختامية

يجد القارئُ الكريمُ – فيما سبق– عرضًا لعددٍ من قضايا وحقائِقَ هامَّةٍ؛ يتبنَّى إلقاءَ الضوءِ على ظروفِ العصرِ عامَّةً، وعلى الأزماتِ التي يعانيها الأفرادُ والمجتمعاتُ في منطقةِ الشرق الأوسَطِ خاصَّةً، ليستخلِصَ منها أمورًا تقودُهُ إلى الإطلاعِ على الأسبابِ، والجذورِ التاريخيةِ للأحداثِ التي تجري اليومَ حولَنا فتتأثّرُ بها حياتُنا بوجهٍ عامٍّ، وتبعثُ القلقَ في أعماقِ كِيَانِنا وتجرح قلوبَنا. كذلك يتبنَّى هذا الكتابُ توجيهَ القارِئِ إلى ضميرِهِ لينتبهَ بِيَقَظَةٍ وَوَعْيٍ إلى ما تَمَّ عرضُهُ وشرحُهُ عبر سطورِهِ من أحداثٍ دامِيَةٍ، وسياساتٍ ظالِمَةٍ، ومعتقداتٍ باطلَةٍ، وفِتَنٍ تعاقبتْ عبرَ تاريخِ هذه المنطقةِ فانعكستْ بتبعاتِها على حياةِ سُكّانِها.

وحتَى يسهلَ على القارِئِ استيعابُ مضمونِ هذا الكتابِ، فقد رأيتُ أنْ أقدّمَ له ما يتيسّرُ من نصائحَ ليأخذَ منها عِبَرًا تُثِيرُ حفيظَتَهُ فيساهِمَ على قدرِ طاقتِهِ في تخفيفِ الآلامِ، وتهدئةِ الأعصابِ، وإرشادِ العقولِ إلى رُشدِها لأجلِ إيقافِ الفتنة في هذه المنطقة المنكوبةِ.

فرضتِ الظروفُ والأسبابُ على كاتبِ هذهِ السطورِ مسئوليةً عظيمةً باعتبارِهِ أحدًا من أبناءِ أسرةٍ عريقةٍ ذاتِ رصيدٍ معرفيٍّ ضخم اتَّخَذَتْ من جنوبِ شرقِ تركيا موطنًا منذ ثمانية قرون. أحسستُ

بهذه المسئولِيَّةِ لَمَّا وجدتُ سيلاً من الأكاذيبِ والمغالطاتِ والتحريفاتِ تجري عبر أجهزة الإعلامِ عن الفتن والحروب التي تشتعل في المنطقة خاصةً عقبَ الربيع العربي، فلم تسمحْ لي نفسي أن أسْكُتَ حيالَ هذا الإجرامِ الإعلامِي الخطير وأنا جامعٌ لمعلوماتٍ جمَّةٍ متعدِّدَةِ الوجوهِ عن منطقةِ الشرقِ الأوسَطِ وتاريخِها والمجتمعات البشرية التي عاشت على أرجائِها.

نعم، تحمّلتُ مسئولِيَّةً خطيرةً بتحليل أهمّ أزمات العصر وما يجري على أرضِ الواقع تِبَاعًا من الأحداثِ والفِتَنِ والحروبِ مع أسبابِها وخلفِيَّاتِها المنحدرةِ منذ خمسةَ عَشَرَ قرنًا إلى إيَّامِنا. سجّلْتُ كلاًّ من هذه القضايا على حدةٍ (لكنَّ باختصارٍ) ضِمنَ هذا البحثِ الذي لا يستغني عنه العلماءُ والأكاديمِيّونَ والمثقفّونَ ورجالُ السياسَةِ والشبابُ المتحمّسونَ بخاصَّةٍ، الذين ساقَتْهُمْ نزعَاتُهُم ونزواتُهُم إلى ميادين القتالِ، والذين ظهروا تحت سِمَةِ (السلفيةِ الجهادِيَّةِ)، وهم "يريدون أن يجاهدوا في سبيل الله" لكنهم يجهلون الكثيرَ من الحقائقِ في أمر الجهاد.

إنَّ هذا البحثَ يعتمدُ على المنهج الواقعِيّ؛ يركّزُ على الاستدلالِ والتوثيقِ، ويضمُّ عبرَ سطورِهِ أشتاتًا من أزمات المرحلة الراهنة، يطرقُ إلى إشكالِيَّاتٍ اجتماعيّةٍ، وأخلاقِيَّةٍ، وسياسيَّةٍ من خلالِ إرتباطِها باختلافِ العقائِدِ، والحروبِ الطائِفِيَّةِ والمذهبِيَّةِ في الشرقِ الأوسَطِ عامَّةً، وفي تُرْكِيَا على وجهِ الخصوص؛ يقدّمُ بين دَفَّتَيْهَا مُحَصَّلَةً فكرِيَّةً واسعةَ الأبعادِ للقُرَّاءِ السلفِيّين بالخصوص، ولأيِّ قارئٍ ذي حمِيَّةٍ ينبُضُ قلبُهُ بالمحبَّةِ للسلامِ والوئام والحياةِ السعيدةِ في ظل الحرية، يريد أن يُطِلَّ على المشهدِ ويقِفَ على كلِّ صغيرٍ وكبيرٍ يحدُثُ في هذه المنطقةِ، وليتحمّلَ مسئولِيَّتَهُ ويساهِمَ على قدرِ جهدِهِ وطاقَتِه في حقنِ الدماء البريئةِ، وإرجاعِ الأمورِ إلى نصابِها، تمهيدًا لإرساءِ دعائِم العدلِ، ونشرِ الفضائِلِ، وفقًا لأمرِ العزيز المتعال الذي يقول: "إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ.[335]"

بهذه المناسبةِ يحسن هنا إثارةُ انتباهِ الشبابِ (السلفيّين) إلى ثغراتٍ مظلِمَةٍ في آفاقِهم وهي تمنعُهُم وجهَ الصوابِ في التعامُلِ مع الظروفِ، خاصَّةً مع الجماعاتِ الضَّالَّةِ المبعثرة في أنحاءِ الشرق الأوسَطِ؛ تلك الجماعاتِ الخليطةِ التي يعيشُ بين صفوفِهَا (ليس الصالحُ والفاسِقُ فحسبُ) بل المؤمِنُ والكافِرُ جنبًا إلى جنبٍ حتى في المسجد. نعم يحسُنُ ذكرُ نبذةٍ من النصح لهؤلاءِ الشبابِ لعلّهم يستفيدون منها الانتباهَ إلى مواطن الخطرِ فيتقيّدون بالتصرُّفِ السليم مع الكفارِ المحلِّيّين من

[335] النحل/90

الصوفية والأتاتوركيّين والعلمانيّين والطواغيتِ والإرهابيين... وذلك استعدادًا لمواجهة الأحداثِ والتحدياتِ والمستجدات، وتَوَقِّيًا من الوقوعِ في قبضة الأنظمة الكافرةِ. يتلخَّصُ ذلك في المعرفة التامَّةِ بأمورٍ يجهلُها رجالُ الدين، والزنادقةُ والبلاعِمَةُ المغتصبون صفةَ العلمِ الذين اغترَّ بهم آلافُ شبابِ المسلمين في هذا العصرِ وهلكوا في الحروبِ الطائفية والمذهبية.

يأتي على رأسِ هذه الأمورِ مفهومُ (الإستراتيجية)، وهي من أهمّ المصطلحاتِ العسكريَّةِ، وَضَعَهَا الغربيُّون بمعنى: إعدادِ الخُطَّةِ، وإكمالِ متمّماتِها ومقتضياتِها من تدريباتٍ تدبيراتٍ وترتيباتٍ واستعدادات... إنَّ هذه المعاني كلَّها لا تجتمعُ في كلمةٍ عربيةٍ واحدةٍ، لذا، لا نجدُ في القاموسِ العربيِّ لفظًا يقابِلُ هذا المصطلَحَ بكمالِ الاستيعابِ؛ فلم يسعِ الإمكانُ لكثيرٍ من الباحثين والمحلِّلين السياسيّين إلاَّ أن يستعملوا هذا المصطلحَ (بلفظهِ الدخيل) في ثنايا عباراتهم لاستيفاءِ التعبير عن المقصود.

هذا، ولا بأسَ من استعمالِ لفظِ (الْحِيلَةِ) مكانَ (الإستراتيجية)، التي يجهلها رِجالُ الدِّين وأدعياءُ السلفيةِ وكثيرٌ من أشباههم وتُبَّاعِهم من السفهاءِ الأخلاطِ والهمج. إنَّ الحيلةَ نوعانِ: حيلةٌ مشروعةٌ وهي ضُرُوبٌ من المغالطةِ لإرباكِ الْخَصْمِ وإفحامِهِ وإحباطِ إعمالهِ الهدّامة، وحيلةٌ مُحَرَّمَةٌ، وهي التي يُتَوَصَّلُ بها إلى إسقاطِ واجِبٍ أو تحليلِ حرامٍ. والغرضُ هنا، هو الحيلةُ التي لا يهدِمُ أصلاً شرعِيًا.

إنَّ السلفيين اليوم بأمسّ الحاجةِ إلى المعرفةِ بهذه الآلةِ السحرية التي استعملها كثير من عبادِ الله الصالحين من الأنبياءِ والزعماءِ والروادِ والمرشدين، إمَّا للخروجِ من مأزقٍ ضاقوا به ذرعًا، أو لإحباطِ أعمالِ العدوّ. يأتي على رأسِهم نبيُّ الله إبراهيمُ عليه السلامَ إذ قال للمشركين وهو يجادلهم: "وَتَاللهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ * فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلاَّ كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ * قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ * قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ * قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ * قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَاإِبْرَاهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا، فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ * فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ.[336]" فقولُ إبراهيمَ عليه السلام: "بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا، فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ" إنَّما كان ضربًا من الحيلةِ (المشروعةِ) أرادَ أنْ يُوقِظَ المشركين فيثوبوا إلى رشدِهم: أنَّ الصَّنَمَ الجامدَ يستحيلُ عليه أنْ يفعلَ ذلك، وليتأكَّدُوا أنَّ عبادةَ الأصنامِ باطلةٌ، وأنَّ اللهَ وحدَهُ هو المعبودُ بحقّ.

[336] الأنبياء/57 - 64

رُوِي أنَّ رسولَ الله ﷺ "بينما كان يقوم بعمليةِ الاستكشافِ مع أبي بكر الصديق ﷺ في أرضٍ لِيُقِيمَ فيها جيشَهُ استعدادًا لحرب المشركين ببدرٍ، وإذا هما بشيخٍ من العربِ، فسأله رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عن قريشٍ (وعن محمدٍ وأصحابِهِ في الآنِ نفسِهِ!)، إنّما سأل عن الجيشَين زيادةً في التَّكَتُّمِ. ولكنَّ الشيخَ قالَ لا أُخبرُكُمَا حتى تُخبِرانِي ممَّن أنتما؟ فقال رسولُ اللهِ ﷺ: إذا أخبرتَنا أخبرناكَ. قال أو ذاكَ بذاكَ؟ قال نعم.

قال الشيخ: فإنه بلغني أنَّ محمّدًا وأصحابَه خرجوا يومَ كذا وكذا، فإن كان صَدَقَ الذي أخْبَرَنِي، فَهُمُ اليومَ بمكانِ كذا وكذا. وبلغني أنَّ قريشًا خرجوا يومَ كذا وكذا، فإن كان صَدَقَ الذي أخْبَرَنِي، فَهُمُ اليومَ بمكانِ كذا وكذا.

ولَمَّا فرغ من خبرِهِ قال: ممن أنتما؟ فقال له رسولُ الله ﷺ: نحن من ماءٍ، ثم انصرفَ عنه بسرعة، وبقي الشيخُ يتفوَّهُ: مَا مِنْ ماء؟ أمن ماءِ العراق؟"[337]

هكذا استعمل رسولُ الله ﷺ الحيلةَ المشروعةَ في إجابتِهِ وقد صدقَ، وبرهانُ صدقِهِ في الآي الذكر الحكيم: "الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِين."[338] "أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِين."[339] فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ."[340] بذلك استطاعَ رسولُ الله ﷺ أن يَكْتُمَ أسرارَهُ من أن تتسرَّبَ إلى الناسِ فيستغلَّها أعداؤُه.

من سطحيَّةِ فَهْمِ (الجهاديّين الخوارج) وسوءِ تفكيرِهِمْ، أنَّهم بمعزلٍ عن المعرفةِ بهذه السُّنَّةِ النَّبَوِيَّة الْمَتِينَةِ في التعامُلِ مع الناسِ، كما لا تمتُّ أعمالُهم بصلةٍ إلى مفهوم الجهاد والاستراتيجية؛ يُظهِرون الجرأةَ والمكابرةَ والتعالُمَ في كلِّ مواقفهم وفي خطابِهم بخاصَّةٍ، يرفعون الصوتَ عاليًا ولا يبالون أنهم

---

[337] صفي الدين المباركفوري، الرحيق المختوم، ص/189، 190. دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان 1988م.

[338] السجدة/7، 8

[339] المرسلات/20

[340] الطارق/5، 6

يُسَرِّبونَ بذلك أسرارَهمْ؛ فيعلنون عن قلّةِ بضاعتهم، وخِسَّةِ شأنهم وتفاحُشِهِمْ، وهم صاغرون حقًّا؛ تبنَّوْا الأسلوبَ العنيفَ في كلِّ تصرُّفاتِهم حتى تعرَّفَ عليهم أعداءُ الإسلامِ في الداخِلِ والخارِجِ، وسبروا غَوْرَهُم، وتأكّدوا من استعدادِهم للخَوْضِ في أيِّ فتنةٍ، فبذلوا الجهودَ لتفخيمهم فتهافتتْ على هؤلاءِ (الخوارج) جموعٌ من الأخلاطِ والأوباشِ، ثم اصطادهم الحلف المسيحيُّ–الصهيونيُّ وجنَّدَهم ضمنَ صفوفِ تنظيماتٍ إرهابيةٍ موزّعةٍ في أنحاءِ الشرق الأوسَطِ، يسعونَ في الأرضِ فسادًا، يقتلون ويُدَمِّرُونَ ويُهلِكون الحرثَ والنسلَ بِوحشيةٍ على حساب الإسلامِ، والإسلامُ براءٌ منهم. وقد بدأ الغربُ يحصدُهم بالتعاون مع مجوسِ الفرسِ والبوذيّين الأتراك![341]

يجبُ على السلفِيّين أن يستفيدوا دروسًا من هذا المشهد الرهيبِ، ويَتَنَبَّهُوا إلى مستنقعات الخطر التي تُهَدِّدُ "أمةَ الإسلامِ" اليومَ، وما أكثرها! بهذه الصلة نُقَدِّمُ تَلْمِيحًا سريعًا إلى أعدادٍ رئيسةٍ متميّزَةٍ من تلكِ المستنقعاتِ التي تَعِيثُ الفسادَ في منطقةَ الشرقِ الأوسطِ، وهي مجموعتان؛

مجموعةٌ منهما: تتكوّنُ من فِرَقٍ ضالَّةٍ مُتَلَبِّسَةٍ بالكفرِ: كالتيارِ الصوفِيِّ (النقشبنديّ الْمُتَمَرْكِزِ في تركيا)، والديانةِ الأَتَاتُورْكِيَّةِ الوثنيةِ (المتوغِّلَةِ في حياةِ المجتمعِ التُّرْكِيِّ)، وتنظيمِ (بِ كَ كَ PKK) الإرهابي (الملتفِّ بخناقِ الدولةِ التركيَّةِ)، وتنظيمِ DHKPC الإرهابي (في تركيا)، والكيانِ المجوسيِّ– الرافضيّ، والتيارِ الْفَتُّوشِيِّ (تنظيمِ فتح الله گُولَنْ الإرهابي في تركيا)، والمافيا الطيوشِيِّ (القابضِ على زمامِ الدولةِ التركيَّةِ).

وأمّا المجموعةُ الثانيةُ: فإنها تتمثَّل في عددٍ من التنظيما الإرهابية (الغالية في اتِّجَاهِهَا الدِّينِيِّ، والغاشمةِ في تصرُّفاتِها. انضمَّ إلى صفوفِها أفرادٌ وجماعاتٌ من الخوارجِ والغافلين، لكنَّهم أهلُ القبلة!): كتنظيمِ القاعدةِ، وتنظيمِ داعش، وجماعةِ الهجرةِ والتكفيرِ (في مصر)، وتنظيمِ الشباب المجاهدين (في الصومال)، وتنظيمِ بوكو حرام (في نيجيريا). وثَمَّ طائِفتان بِدْعِيَّتَانِ في عقائِدِهِمَا ومُتَطَرِّفَتَانِ في تصرفاتِهِمَا، ألا وهما: الفرقةُ الوهَّابِيَّةُ (في بلادِ الحجازِ)، والفرقةُ الإخوانيَّةُ الْمُبَعْثَرَةُ في البلادِ العربية.

تعقيبًا على هذا التلميح السريعِ؛ ينبغي تنبيهُ السلفِيّين إلى أنَّهُ مِنْ واجِبِهم (في الْمُقامِ الأوَّلِ): أن يأخذوا في اعتبارِهم الفجوةَ السحيقةَ التي تَفْصِلُ بينهم وبين المجتمعِ الجاهلِيِّ، وترمز إلى القوةِ

---

[341] البوذيّون الأتراك: هم النقشبنديون، وقد ثبتَ من خلالِ البحوثِ العلميةِ وبشهادةِ الوثائِقِ أنَّ التيارَ الصوفِيَّ النقشبندِيَّ هو امتدادٌ لمذهبٍ من مذاهِبِ الديانة البوذِيَّةِ المعروفة بـ(ماهايانا Mahayana). إنَّ كثيرًا من تعاليم الطريقة النقشبندية مأخوذٌ من هذا المذهبِ المجوسِيِّ الهندِيِّ.

والمقدرةِ التي يتمتَّعُ بها العالمُ الجاهليُّ. نعم، يجب التأمّلُ في هذه الحقيقةِ قبلَ الإقدامِ إلى أيِّ حملةٍ. إنَّ السلفِيّينَ إنْ كلَّفوا أنفسَهم بالمقارنةِ بين عددِ أهلِ التوحيدِ وبين الْكَمّ الهائِلِ لأهلِ الكفرِ وحسبُ، – فضلاً عمَّا يملكونَ أولئكَ من سلطاتٍ قاهرةٍ، وأجهزةٍ عملاقةٍ وأسلحةٍ فتاكةٍ– لَكَفَاهُمْ عِبْرَةً عند التفكيرِ في مواجهة العدُوّ.

لا شكَّ في أنَّ ظروفَ الموحِّدين اليومَ أشبهُ ما يكونُ بظروفِ النبيّ عليه السلام وأصحابِهِ في العهدِ المكّيِّ. فإنّه عليه الصلاةُ السلام وأصحابَهُ رضوان الله عليهم كانوا يتعرَّضون لأشكالٍ رهيبةٍ من التعذيب على أيدي مشركي قريشٍ. أمّا كفارُ اليومِ، فإنّهم لا يختلفون عن مشركي قريشٍ في حقدهم على أهل التوحيد، بل هؤلاءِ أشدُّ منهم أضعافًا في عَدَاوَتِهِمْ وقهرِهِمْ للمؤمنين، لا يُبْطِئون في سحقهم عند أيِّ فرصةٍ وباستعمالِ ما يملكون من الأجهزةِ المدمّرةِ، وممارسةِ أساليبَ مُرْعِبَةٍ للتعذيبِ والقتلِ ما تقشعرُّ الأبدانُ عند وصفها. ثم إنَّ كفارَ اليومِ لا ينحصرون في كونهم مسيحيين، وبوذيّين وصهاينةً، بل المشركون المحلِّيُّون من الصوفِيَّةِ النقشينديّين، والعلمانيّينَ، والأتاتوركِيّينَ والفتوشِيّين (المسلمان)، هم أشد منهم تنكيلاً وتعذيبًا لأهل التوحيد.

إنَّ الدعوةَ إلى الحقّ ثمنُها باهظٌ؛ ما قامَ بها أحدٌ إلاَّ لقِيَ أذًى على قدر جهده وإصرارِهِ، خاصَّةً إذا أخطأَ الداعيةُ في الأسلوبِ كان ذلك كارثةً، وعواقبُهُ وخيمةً وخطرُهُ جسيمًا. لأن الخطأ في أسلوب الدعوةِ خاصةً إذا كان فيه عنفٌ أو خاليًا من الرفقِ والحكمةِ أثارَ المخاطَبَ وَدَفَعَهُ إلى الإقْدَامِ على الْمُقَابَلَةِ بالمثلِ، وقد نَبَّهَ اللهُ على ذلك فقال عز وجل: "وَلاَ تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ، كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ، ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ."[342]

فيجب التنبيهُ كلَّ التنبيه على أنَّ النهوضَ بِأمر الجهاد، والقصدَ الفعلِيَّ لِقتالِ أعداءِ الإسلام (من الكفارِ والمشركين) مهمةٌ خطيرةٌ لا محلَّ فيها للعزمِ عن حظّ نفسٍ، ولا لِلإقدامِ على تنفيذِها اعتباطًا، ولا تسمحُ للمجاهدِ أنْ يتحرّكَ من منطَلَقِ العاطفةِ أو عن جهلٍ، ولا أن يستجيبَ لدعوةٍ تأتيهِ من أيِّ جهةٍ سوءًا كانت تلك الجهةُ دولةً أو جماعةً أو تنظيمًا سرِّيًّا أو علنِيًّا... إنما يجوزُ بل يجبُ القيامُ بأعباءِ هذه المهمةِ بناءً على قرارٍ صادرٍ من مجلس الشورى في الدولة الإسلامية وموافقةِ

[342] الأنعام/108

إمامِ المسلمين. أمَّا إذا انتفت الدولةُ الإسلامِيَّةُ، وكانتْ كُلُّ أنحاءِ البسيطةِ بِقاعًا من ديارِ الحربِ (وهذا لا يثبتُ إلاَّ بإجماعِ علماءِ المسلمين)[343]، فيترتَّبُ الجهادُ إذًا على أهل الوعيِ والخبرةِ من جماعةٍ من المؤمنين وقد أجمعوا على إمامٍ وَفْقَ شروطٍ مذكورةٍ ومشروحةٍ في الشريعةِ الإسلامِيَّةِ (بابِ الجهادِ). ويجدرُ هنا التنبيهُ أيضًا – بالمناسبة وباختصار شديد– على أنَّ مثلَ هذه الجماعةِ، يستحيلُ أن تَتَكَوَّنَ في أيِّ زمانٍ أو مكانٍ، إلاَّ أنْ يكونَ أفرادُها جميعًا على نهجِ الرسولِ الكريمِ محمدٍ صلى الله عليه وسلم؛ ملتزمين سُنَّتَهُ، مُتَّصِفِينَ بأوصافِ أصحابِهِ، حاملين لِعُلُومِهِمْ ومعارِفِهِمْ، شبيهين بهم في سَيْرِهِمْ وسلوكِهِمْ وأخلاقِهِمْ. ومِثْلُ هذه الجماعةِ وجودُها مستحيلٌ في أيّامِنا. فاقتضى الأمرُ هنا بالمناسبةِ ودعتِ الضرورة لتقديمِ باقةٍ من النصحِ إلى أهلِ التوحيدِ ممن يَسْتَمْلِحُونَ الإنتماءَ إلى السلفيةِ وغيرِهم:

1) إنَّ أولَ ما يجب على المتصدِّرِ لحمل راية الدعوةِ إلى توحيدِ اللهِ والجهادِ في سبيله تعالى: أن يكونَ ذا كفائةٍ عاليةٍ بَدَنِيَّةٍ وَنَفْسِيَّةٍ وَعَقْلِيَّةٍ وَأَخْلاَقِيَّةٍ وَعِلْمِيَّةٍ وَثَقَافِيَّةٍ؛ مُتَّزِنًا، عَالِمًا، أديبًا، خطيبًا، يَقِظًا وَجَرِيئًا... ولا تثبُتُ له هذه الكفائةُ إلاَّ بشهادَةِ لجنةٍ من العلماءِ الذين يمتازون هم بذاتهم بمثلِ هذه الكفائَةِ التي يتلخَّصُ ضبطُ دقائِقِها في الترتيب الآتِي:

2) أن يكون سليمَ العقيدة، ذا خبرة واسعةٍ في علوم التاريخ والإجتماعِ والسياسة، مُتْقِنًا لِلُّغَةِ العربِيَّةِ، متبحِّرًا في علومِها من صرفٍ ونحوٍ وأدبٍ، وماهرًا بلغةٍ أخْرَى أكثرَ انتشارًا في العالمِ، بجانبِ إختصاصاتٍ في العلوم الإسلاميَّةِ (من عقيدةٍ وفقهٍ وحديثٍ وتفسير، وأصولٍ)، واعيًا ظروفَ العصرِ، واسعَ المعرفةِ بِقَضَايَا المسلمين وأزَمَاتِهِمْ، ومتألِّمًا بآلاَمِهِمْ...

3) أنْ يكون عارفًا بآدابِ الدعوةِ والتبليغِ، والأمرِ والنهيِ، والإصلاحِ والإرشادِ. وأنْ يُرَاعِيَ الترتيبَ بين هذه المفاهيمِ أثناءَ قيامِهِ بأعمالِ التوعيَةِ والتنويرِ والتهذيبِ؛ وهي دقائقُ الجهادِ الأخلاقِيِّ ومقدِّمَاتُ الجهادِ العلمِيِّ. ولا تصلحُ مباشرةُ أعمالِ الجهادِ العلمِيِّ إلاَّ بعد استكمالِ هذه المرحلةِ. لأنَّ التدريسَ والتعليمَ لا تحصلُ بِهِمَا الفائدةُ المنشودةُ إلاَّ إذا كان المجتمعُ سليمَ العقيدةِ

---

[343] إن هذا الشرطَ فيه ملاحظةٌ هامّةٌ، وهي: أنَّ صفةَ العالِمِ لا تنطبق على (رجل الدين) إطلاقًا. ذلك أنَّ العَالِمَ ليس هو الذي درسَ وتخرّجَ في مؤسّساتِ وجامعاتِ الدول المشبوهةِ؛ إنَّ الموادَّ والمصطلحاتِ الواردةَ ضِمْنَ الْمُقَرَّرَاتِ التعليمِيَّةِ لهذه المؤسّساتِ والجامعاتِ (وهي تابعةٌ للدُّوَلِ المطعونِ فيها) أكثرُها مُحَرَّفَةٌ بتأويلاتٍ وتفسيراتٍ ماكرةٍ، تمَّ تنصيصُها بعنوانِ (العلوم الإسلامية!)، بل هي (علومٌ إسلامَوِيَّةٍ) جدلِيّةٌ خاليةٌ من العلوم العقلِيَّةِ، ومقطوعةُ الصلةِ عن علوم السلفِ الصالح.

والذي يتخرّجُ من مثلِ هذه المدارسِ والجامعاتِ لا يعدو عن (رجلِ دين)، وهم كثيرون، ينتحلون صفةَ العالِمِ وقد ملئوا فراغَ العلماءِ لانتفائهم في عصرِنا، أكثرُهم زنادقةٌ و(خواجواتٌ) للطواغيتِ، يقتاتونَ من أسْآرِهِمْ (جَمْعُ سُؤْرٍ). وأمّا تعبير (رجل الدين) فمأخوذٌ من بينِ مصطلحاتِ النصارى، يقابل صفة (راهب).

واعِيًا مهذَّبًا مُتَّسِمًا بالفضائِلِ الإنسانية، مُمَيِّزًا بينَ الحقِّ والباطلِ، نابذًا لجميعِ رموزِ الشركِ، محبًّا للعدلِ والخيرِ والسلام... فيجب إذًا على الذي نذر نَفْسَهُ للجهادِ أنْ يباشر أعمالَهُ بنشرَ الفضائلِ يصحبُهُ تَصحيحُ العقيدةِ، لأنَّ الفضيلةَ لا تنفعُ إلاَّ مع العقيدةِ الصحيحةِ. ولا ينسَى أنَّ مِنْ أعظمِ المشاكلِ التي تُفضي إلى الفتنةِ في أغلبِ الأحوالِ هو خطابُ الجاهِلِ بلسانِ العلمِ، واتّهامُهُ بالكفر، ومجادلتُهُ بسردِ الحججِ والبراهين. ذلك أنَّ أكثرَ الناسِ جهلةٌ بالمبادئِ العلمِيَّةِ وبحقيقةِ الإسلامِ، وإنْ كانتْ طبقةٌ منهم مثقفين يحملونَ شهاداتٍ جامِعِيَّةً. مع ذلك معظمهم كفارٌ مشركونَ في واقع الأمر، لكنه لا مساغَ لتكفيرهم على وجه العمومِ، لأنَّ كثيرًا منهم غيرُ مكلَّفين، ويتعذَّرُ التمييزُ بين المعذورين وبين المكَلَّفِين منهم في مجتمعٍ غريقٍ غَمَرَهُ الشركُ وَالكُفْرُ الْبَوَاحُ.

4) أن يتمَّ تخطيطُ وتَسْيِيسُ أعمالِ الجهادِ من قِبَلِ هيئةٍ عُليا مكوَّنةٍ من علماءَ وخبراءَ ذوي تَخَصُّصَاتٍ مختلفةٍ؛ كالفقهِ والقانون والسياسةِ والإقتصادِ والعلاقات الاجتماعية واللسانيات والطبِّ والعلوم العسكرية وفنونِ الحربِ والقتال... من أهمِّ واجباتِ هذه الهيئةِ أوّلاً وقبلَ كُلِّ شيءٍ: أنْ تتَّخِذَ لنفسِها مكانًا آمنًا على بقعةٍ من أرضِ الله، ولو كانتْ جزءًا لبلدٍ من بلادِ أهلِ الكفر، ثمَّ تقومَ بتأسيسِ مجلسٍ للاستشارةِ، وتكوين هيكلِها التَّنْظِيمِيِّ، وتفريعِ لجانه، وتعبئة عناصرها واختصاصاتها، وتعيين مناصب المسؤولين فيها، ومراقبة سير الأعمالِ عبر نشاطاتها. كما يجب على مثل هذه الهيئةِ أن تقومَ بتقنين دستورٍ لها (في حدودِ الكتابِ والسنّةِ) تلتزمُ بِمَبَادِئِهَا رَجَاءَ تَسْيِيرِ الأعمالِ وفقَ نظامٍ يُمَهِّدُ السبيلَ لِنجاحِهَا وتحقيقِ أهْدَافِها. ويتأكّد هنا التنبيه على أن تأخذَ هذه الهيئةُ في اعتبارِهَا جميعَ التجارُب الفاشلةِ التي اصطدمت بعقباتٍ مَنَعَتْهَا من بعثِ الأمة المحمدية بعد موتِها، كما يجبُ على هذهِ الهيئَةِ أنْ تبحثَ بطريقِ الإستنباطِ والتقصِّي عن أسبابِ هزائم تلك التجارُبِ وفشلِها، توقِّيًا من الاصطدامِ بها.

ومن أكبرِ مهامِّ هذه الهيئةِ (العُليا): أن تقومَ بتأسيسِ لجنةٍ اختصاصِيَّةٍ تنظُرُ في القضايا التي اتّخَذَها خوارِجُ العصرِ ذريعةً لإشعالِ الفِتَنِ، وصارَ يدورُ حولَها جدالٌ وجَلَبَةٌ ولَغَطٌ غرقَ في غَمرِها آلافٌ من أهلِ العنادِ والمكابرةِ والدجلِ الخارِجِيِّ تأتي على رأسِها:

- قضيَّةُ التكفِيرِ،
- قضيَّةُ حُكمِ المجتَمَعاتِ المنتسِبَةِ إلى الإسلامِ في عصرِنا، هل هي مجتمعاتٌ كافرةٌ؟
- قضيَّةُ حُكْمِ الحُكَّامِ القابضين على زمام السلطةِ في البلادِ الإسلامِيَّةِ، هل هم كُفَّارٌ؟

- قضيَّةُ التعامُلِ مع إفرادِ المجتمعاتِ اليومَ، والعزلةِ منهم بحجةِ: "أنَّ عامَّةَ الناسِ في عصرِنا كُفَّارٌ إلاَّ السلفِيَّةَ"، هل في ذلك حرمةٌ، وهلِ العزلةُ واجِبَةٌ؟
- قضيَّةُ الولاءِ والبراءِ،
- قضيَّةُ المساجد في "العالَمِ الاسلامِيِّ"، هل حكمُها حكمُ مسجد ضرارٍ؟
- قضيَّةُ (رِجالِ الدِّين) بأنّهم ليسوا علماءَ، بل دجاجلةٌ وبلاعِمَةٌ، وأنهم عبيد الطواغيت، منافقون، يُقِرُّونَ أنظِمَةَ الكفرِ ويُفتونَ بمشروعِيَّتِها؛ يُحِلّوُن الحرامَ ويُحَرِّمون الحلالَ تملُّقًا وتزلُّفًا إليهم.
- قضيَّةُ صلاةِ الجُمُعَةِ في المساجد التابعةِ للأنظمةِ الحاكمةِ في "البلادِ الإسلامِيَّةِ"، هل تصح أو لا؟
- قضيَّةُ الجاهِلِ والمتأوِّلِ، هل يستوي الأوَّلُ مع العالِمِ، والثاني مع المعانِدِ في التكليفِ؟
- قضية الإضطرارِ في الشريعة الإسلامِيةِ، هل ينتفي ذلك تمامًا حتى في بعض الظروفِ الحرجة، أو الصحيحُ عكس ذلك؟

لا شكَّ في أنَّ هذه المسائِلَ تتَّسِمُ بأهمِّيَّةٍ بالغةٍ. لأنَّ مشاكلَ المسلمين يكادُ حَلُّ معظمِها يتوقَّفُ على إصدارِ أحكامٍ قطعِيَّةٍ بشأنِ هذه المسائِلِ، لكنَّ ذلك بمسئوليةٍ تستوجِبُ وجودَ لجنةٍ اختصاصِيَّةٍ تتألّفُ من علماءَ وخُبراءَ تحتَ إشرافِ هيئةٍ عُلْيَا قائمةٍ بمهمةِ الجهادِ لإحياءِ الأمةِ من جديد؛ بشرطِ أن لا يتخلَّلَ بين أعضائِها ولا بين أعضاءِ اللجنة الإختصاصيةِ ولو شخصٌ واحِدٌ من (رِجالِ الدِّينِ). وهذا يبدو من المستحيل في أيَّامِنا على أقلِّ تقدير، لقلّةِ عددِ العلماءِ، وكونِ أكثرِهم في سجون بلادِ الشرقِ الأوسَطِ، وبعضهم تحت التعذيبِ، ولاستغلالِ رجالِ الدين فراغَهم. وهذه من أعظمِ المصائب التي يتعرَّضُ لها المؤمنونَ والدينُ الإسلامِيُّ الحنيفُ منذُ خمسةَ عشرَ قرنًا، والله تعالى المستعان.

5) جدير بالتنبيه أيضًا على أنَّ أيَّ قائِدٍ، أو زعيمٍ أو داعِيَةٍ يُقحِمُ نفسَهُ في صراعٍ لتحقيقِ هدفٍ عظيمٍ، يجب عليه أن يعلَمَ بالتأكيد أنَّ نجاحَهُ موقوفٌ على أربعةِ أمورٍ رئيسةٍ، قبلَ أن يخطُوَ خطوته الأولى.

أوّلُ هذه الأمور: هو اليقينُ الخالِصُ أنَّه على حَقٍّ، وأنَّ خصمّهُ على باطِل. لأنه يكادُ يستحيلُ أن يثبُتَ الإنسانُ في الدفاعِ عن فكرةٍ، أو دِيَانةٍ، أو عقيدةٍ ونحوِها، إذا لم يكنْ مقتنعًا بها ومعتنقًا لها بصِدقٍ مع نفسِهِ، وإيمانٍ راسخٍ في أعماقِ ضميرِهِ.

والأمر الثاني: هو المعرفةُ الشاملةُ بالقضيَّةِ والاستيعابُ التامُّ لها مع كمالِ الوعيِ؛ بأن يكونَ ذا اطِّلاَعٍ واسعٍ بدقائقِ دعواهُ، وبتدابيرِ خصمِهِ ومدى قدراته.. بالإضافةِ إلى ظروفِ بيئةِ الصراعِ والمناخِ السياسيّ والاجتماعيّ، والاقتصاديّ، والثقافيّ المحليّ والعالميّ. ولهذه المعرفةِ والإطلاعِ شروطٌ ومزايا لابدَّ من تَوَفُّرِها في (القائدِ والزعيمِ والداعيةِ) تنحصر في نقاطٍ ثلاثةٍ، وهي: أن تكونَ عِلمِيَّةً، وأن تكونَ ذات شمولٍ على نحوِ ما مرَّ ذكرُهُ آنِفًا، وأن يكون القِيَادِيّونَ الذين يشتركون في المسؤولِيَّةِ مع زعيمهم مُتَّسِمينَ أيضًا بمثل هذه المعرفةِ.

والأمر الثالِثُ: هو القدرةُ الماليَّةُ. إذ لا يمكنُ تحقيقُ أيِّ هدفٍ ذاتِ أهمّيَّةٍ يُرادُ بها تصحيح العقائدِ وتغييرُ مسيرةِ الحياةِ لمجتمَعٍ، إلاَّ أن تعتمِدَ الحملةُ على مصدرٍ أو قوَّةٍ ذاتِ رصيدٍ تموّلُها في صِراعِها مع العدُوّ إلى حسم الصراعِ بصورة نهائيّةٍ وإنْ طالَ الأمد.

والأمر الرابعُ: هو القوَّةُ البشريَّةُ؛ أي كونُ جماعةٍ تمتازُ أفرادُها بأقصى قدرٍ من الكفائَةِ في الإيمانِ والإخلاصِ، وبُعدِ النظرِ، وعُلُوّ الهِمَّةِ، والمقدرةِ القتاليَّةِ... لأنه يستحيلُ أن ينجحَ قائِدٌ أو زعيمٌ أو داعِيَةٌ في مواجهةِ عدُوّهِ والفوزِ بإقامةِ نظامٍ يُكافِحُ من أجلِهِ، إلاَّ أن يكون معهُ رجالٌ يَمْتَثِلون أمرَهُ، ويفتدون بالنفسِ والنفيسِ في سبيلِ قضِيَّتِهم المشتركِ. فلنا عبرةٌ في حياةِ الأنبياءِ ونِضالِهم في وجهِ أنظمة الشركِ، وصراعِهم مع الطواغيتِ والظَّلَمَةِ. ولم يتغلَّب أحدٌ منهم على خصمه إلاَّ وقد توفَّرتْ وتحقّقتْ هذه الأمورُ الأربعةُ في جهادِهِ.

فهذا شعيبٌ عليه السلام؛ تَرَبَّصَ به قومُهُ لِيَسْحَقُوهُ، لكنّهم كانوا خائفينَ من المؤمنين الذين مع هذا النبي الكريم، وإذا بِهِمْ يعترفونَ بما يَنْتَابُهُمْ من القلقِ والخوفِ من أنْ يثورَ عليهم أنصارُ النبِيّ شعيبٍ عليه السلام، فهدَّدُوه، لكنهم إكتفوا بالتعبير عن استخفافهم به وعداوتهم له أن: "قَالُوا يَاشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ، وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا، وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ، وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ."[344]

---

[344] هود/91

كذلك الأمرُ بالنسبة لخاتم النبيّينَ محمدٍّ صل الله عليه وسلَّم؛ فإنَّ أعداءَهُ لم يألوا جهدًا في محاولة القضاءِ عليه، لكنّهم فَشِلُوا مع كثرتِهم وقوّتِهم الماليَّةِ، لأنّ المؤمنين الذين وقفوا في صفِّهِ كانوا أبطالاً لا نظيرَ لأحدِهم من غير المؤمنين. بذلوا أموالهم وأرواحهم في سبيلِ دعواهُ، وقد كفانا اللهُ عجزَنا عن وصفِهم بهذه الكلمات المقدّسَةِ: "مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ، وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا، سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ، وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا."[345] وقال تعالى أيضًا في وصفِهِمْ: "وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا، وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ، وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُون."[346]

***

بهذه المناسبةِ يجبُ التنبيهُ أخيرًا على أخذِ الحيطةِ حَيَالَ موقفِ (الحكومةِ التركيَّةِ النقشبنديَّةِ) من أهلِ التوحيد، إذ أنّها تستغلُّ الإرهابَ الداعشِيَّ ذريعةً بين الفينة والأخرى لانزالِ ضرباتٍ قاصِمَةٍ على جماعاتِ الموحّدِين في أنحاءِ تركيا، وذالك بالتعاون مع الوهابيّين. وهي بغيةُ جميعِ أعداءِ الإسلامِ، من الصوفيةِ، والرافضةِ، والنصيرية، وحزبِ الشيطانِ الشيعِيِّ اللبنانِيِّ، والحكومات الأميركيَّةِ والإسرائيلية والروسيةِ والفارسية التي تتعاونُ فيما بينها على تأجيجِ الفتنةِ في قلبِ الوطنِ الإسلاميِ، وتُحَرِّضُ الْقِتَالَ وَالتَّنَاحُرَ بين المذهبِيّين والأحزابِ السياسية، خاصةً منها الْعَفَالِقَةِ وَالْعَلاَقِمَةِ...

إنَّ الحكومةَ التركيةَ النقشبنديَّةَ قد تتَّخِذُ الأعمالَ الإرهابيةَ والإنفِجاراتِ التي وقعتْ في أنقرة وفي مناطِقَ مختلفةٍ من مدينةِ إسطنبول، ومطارِ يَشِيلْكُويْ، قد تتخذُها وسيلةً للسَّطْوِ على الشباب الموحِّدِين الأبرياءِ الذين لا علاقةَ لهم بالتنظمات الإرهابية على الإطلاق. فيجب على الدعاةِ أن

---

[345] الفتح/29

[346] الحشر/9

يكونوا واثقين من أنفسهم، جريئين أمام قوات الأمن ومحاكم الطاغوتِ، مُتَوَكِّلِينَ على اللهِ تعالى، فَاللهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ.[347]

هذه الوصايا الهامّةُ موجَّهةٌ في المُقامِ الأوّلِ إلى الدعاةِ الموحّدِين الذين يَدْعُونَ المتجاهلين والمتغافلين للانتباه إلى الحقيقة الكُبْرَى قبل أن يُدركهم الموتُ وَلاَتَ حِينَ مَنَاصٍ. ابتغيتُها بخاصَّةٍ لتسليطِ الضوءِ على طريقِهِمْ، ليستعينوا بها على القيام بِمَهَامِّهِمْ، ولِيَسْلَمُوا شرَّ المتطرّفِين، عسى اللهُ تعالى أنْ يجعلَ فيها البَركةَ، ويُنقِذَ أهلَ الضلالِ من غيِّهم مِمَّنْ كان في جبِلَّتِهِ شَمَّةٌ من الخيرِ ونزعةٌ يتحرَّى بها وجهَ الحقِّ والصوابِ، وأرجو الله سبحانه وتعالى أن يجعلَ أخي الكريمَ الشيخ أبا حنظلةَ الديلمِيَّ ممن يحظى بأكبر سهمٍ من فوائدِ ما وَرَدَ عَبْرَ هذه السطورِ، والله يهدي من يشاء إلى صراطٍ مستقيم. وصلى الله على نبينا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين.



المحتويات

ـــ

---

[347] يوسف/64، 65